جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد السادس عشر

١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد السادس عشر

١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

بين النقد والإبداع

أ . د . ماهر حسن فهمي
أستاذ بقسم اللغة العربية
جامعة عين شمس

عندما اختار أبو تمام المجموعة الشعرية المعروفة باسم «ديوان الحماسة» قيل إنه في اختياره للشعر شاعر . لأن المجموعة التي اختارها لشعراء جاهليين وإسلاميين ، وقسمها إلى عشرة أبواب أولها وأشهرها «الحماسة» ولذلك سميت باسم هذا الباب ومن أشهر الأبواب بعد ذلك المراثي والتشبيب والهجاء والمديح . وظل هذا التقسيم طابع العصر كله ، بل طابع العصور التي جاءت بعده . وتأثر به عدد كبير من الأدباء فألف أو صنف البحتري حماسته ، وصنف أبو هلال العسكري حماسته في القرن الرابع ، وصنف الخالديان وهما من شعراء سيف الدولة حماستهما وتعرف بالأشباه والنظائر في القرن الرابع أيضاً ، وفي القرن السادس نجد حماسة ابن الشجري ، وفي القرن السابع نجد الحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج البصري .

والاختيار عملية نقدية ، فاختيارات أبي تمام تنم عن ذوق رفيع في كل باب من أبوابها ، وكلها مقطعات ، كأنها ترك القصائد للأصمعي والمفضل الضبي في الأصمعيات والمفضليات ، وكثير منها لشعراء غير مشهورين . ومن الملاحظ أن هذا الشعر كله واضح فيه صفاء الطبع وتدفق الشاعر ، كأن هؤلاء الشعراء يغرفون من نبع . وهذه المختارات تثير سؤالاً مهماً . هل يختار الشاعر ما يلائم اتجاهه الفني؟ أو بعبارة أخرى : هل يطبق الشاعر المقاييس في شعره التي يتبعها حين ينقد؟

من الواضح أن أبا تمام لم يطبق ذلك ، ففي عصره كانت حركة الترجمة عن اليونانية على أشدها ولذلك كان أبو تمام رأس مدرسة في الغوص على المعاني والإكثار من الحكم والاستدلال بالأدلة العقلية ، وهو من ناحية ثانية قمة مدرسة البديع التي عرف بها مسلم بن الوليد ، ولكن أبا تمام تجاوزه حتى أصبح قمة هذه

المدرسة التي اهتمت على وجه الخصوص بالجناس والطباق. وقد أجاب عن ذلك السؤال المرزوقي في شرحه لديوان الحماسة وفصل بين القوة الناقدة والقوة الشاعرة ورأى أن العلماء بالشعر أو النقاد ليسوا أفضل الشعراء. والحقيقة أن الذي يقرأ ديوان الحماسة يشعر بذلك للوهلة الأولى.
فالقصيدة الاولى في الحماسة لقريط بن أنيف من بني العنبر من تميم:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زارفات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وان هانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إخوانا

وهي كما قلت تتدفق في صفاء طبع، على خلاف مذهب أبي تمام، ويكفي أن تقرأ الأبيات الأولى من القصيدة الأولى في الديوان لتدرك الفارق بين المذهبين. وقد قالها يمدح خالداً بن يزيد الشيباني:

يا موضع الشدنية الوجناء ... ومصارع الإدلاج والإسراء
اقر السلام معرفا ومحصبا ... من خالد المعروف والهيجاء
سيل طمى لو لم يزده زائد ... لتبطحت أولاه بالبطحاء
وغدت بطون منى من سيبه ... وغدت حرا منه ظهور حراء

واضح أن الصنعة الفنية عند أبي تمام لها المقام الأول، وهكذا الشأن في كثير جداً من قصائده، وبذلك يتبين أن المختارات قد تختلف عن أسلوب الشاعر واتجاهه الفني، أو أن الناقد الشاعر يمكن أن يختلف في أحد الاتجاهين عن الآخر.

ونجد هذا أيضاً في عصرنا الحديث فالعقاد ناقد وشاعر، وقد أثار كثيراً من المعارك النقدية والقضايا النقدية. فمن هذه القضايا قضية الوحدة العضوية، فالعمل الفني لا ينبغي أن يكون أجزاء مجموعة يسهل فصلها أو تغييرها دون أن يختل نظامه من أساسه، لأنه تجربة واحدة مر بها الشاعر، وعلى ذلك فلا يمكن

أن يظل البيت المفرد هو الوحدة التي تتكون منها القصيدة بحيث يسهل أن نتحدث عنه حديثاً منفصلاً عن بقية الأبيات وأثرها العام، وفي ذلك يقول العقاد: «إن القصيدة ينبغي أن تكون عملاً فنياً تاماً، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة، كما يكتمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها، واللحن الموسيقي بأنغامه، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة، أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها. فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته، ولا يغني عنه غيره في موضعه إلا كما تغني الأذن عن العين، أو القدم عن الكف، أو القلب عن المعدة، أو هي كالبيت المقسم، لكل حجرة منها مكانها وفائدتها وهندستها، ولا قوام لفن بغير ذلك»[1].

ويعود للفكرة نفسها محاولاً تطبيقها على شعر شوقي فيراه - كما يقول - أكواماً من الرمل، تستطيع أن تغير وأن تبدل في ترتيب القصيدة فلا يفسدها ذلك التغيير، لأنها غير متماسكة أصلاً، فهي ليست وحدة عضوية، وإنما هي حبات عقد إذا انفرط أمكن جمعها وإعادة ترتيبها على أي وضع، وليس ذلك من سمات الشعر الحي.

ومن الغريب أن يأتي ناقدان هما محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس فيهاجمان العقاد في النظرية والتطبيق معاً، فالعقاد مثلاً يترنم بهذا البيت للشريف الرضي:

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

فلا يلبث أن يقرر أنه يساوي عنده ألف قصيدة، لأن العقاد مثله مثل بقية أدبائنا القدماء، لا يبصر بالظاهرة الأدبية في الوحدة العضوية المتكاملة للعمل الأدبي، وإنما في البيت أو المعنى أو العبارة المتفردة[2]. وذكر الناقدان أن الوحدة العضوية قديمة قدم أرسطو، ولكن العقاد لم يحققه في شعره الذي نشره، ولعله فهم أن المقصود وحدة الخاطر والمعنى والعنوان والموضوع. ثم يتتبعان العقاد فيصنعان بشعره ما صنعه هو بشعر شوقي من قبل، فيأخذان قصيدة له ويغيران في ترتيب أبياتها للاستدلال على أن العقاد قد وقف عند حد الوحدة المعنوية أو

---

١ — الديوان جـ(٢)، ص ٤٥.

٢ — في الثقافة المصرية ص ٤٣.

الموضوعية، وهي بمناسبة عودة النقراشي من مجلس الأمن، ومطلعها يدل على نسجها :

أقام الحقوق ووفى الذمم ونادى قلباه نادى الأمم

ويستدلان على تفسخ العمل وانهياره كله.

ويعود العقاد فيلح على فكرة التصوير في الشعر، ويراها أجل من مجرد اللفظ والمعنى؛ لأنها تجسم حقيقة المشاعر وتفعل في النفس أكثر مما يفعله اللفظ في الأذن أو المعنى في الذهن[1] . ومن الغريب أننا لا نجد في شعره اهتماماً بالصورة، بل لا نجد في شعر جماعة الديوان كلها هذا الاهتمام، ولا نجد في شعرهم الوحدة العضوية، وأهم ما نجده في شعرهم جميعاً ذات الشاعر والدوران حولها.

هذا المدخل لابد منه، قبل أن نتناول «ابن الرومي»[2] الشاعر الخليجي ونراه في ملاحظاته النقدية، ثم في شعره الذي لم ينشر بعد، وما يزال مخطوطاً لدى الأسرة. وهو حفيد الشيخ عبد العزيز العلجي الذي أثار معارك نقدية في الخليج، حين حضر من الاحساء إلى الكويت وتململ من الدعوة للثقافة العصرية التي تتبناها المنار - مع أن المنار من الدوريات المحافظة في مصر - وإقبال الشباب على قراءتها، فهاجمها قائلاً :

إلى الله نشكو من ضلال على عمد أتتنا به الجهال عن كل مرتد
قلوا كتب الأسلاف واستبدلوا بها سجلات أصحاب المنار على عمد

فرد عليه الشاعر الكويتي مساعد بن عبد الله الرفاعي رداً قاسياً لأن هجوم عبد العزيز العلجي كان أقرب للهجاء :

لذ بالإله من الجهول الجاني علج العلوج وفتنة الشيطان
ما باله حط الإله مقامه وأحاطه بالذل والخسران
خسر السعادة مذ هوى لتعصب وتشدد ما جاء بالأديان

---

١ — فصول من النقد عند العقاد ص ٢٥٦.

٢ — أحد أدباء الاحساء. تخرج على يد جده لأمه الشيخ عبدالعزيز بن صالح العلجي (راجع أدب النثر المعاصر في شرق الجزيرة) ص ١٤٨.

وينتقل الصدى إلى البحرين فيقول عبد الله الزايد مشيراً إلى قوله تعالى ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ .

قل سلاما ثم أعرض عنهم جهلهم راميهم في المقتل
لا تحاذر من خيال زائل انهم من عمرهم في الأرذل(١)

أما المعركة التي تهمنا فقد حدثت حول نتاج الشاعر عبد الرحمن المعاودة وخصوصاً معارضاته لرباعيات الخيام، ونشرتها جريدة البحرين وبدأت بالعدد ١٣٧ في ١٦ أكتوبر ١٩٤١ واستمرت حتى فبراير ١٩٤٢، وشارك فيها عدد من الكتاب بأسماء مستعارة حيناً وبأسمائهم الحقيقية حيناً آخر.

وأول مقال في نقد شعر المعاودة كان للشاعر الاحسائي عبد الله بن محمد الرومي - وكان في ذلك الوقت في الثالثة والعشرين من عمره - ورغم المفاهيم النقدية التي حاول هو ومؤيدوه من الكتاب أن ينادوا بها في ذلك الوقت، فإن نقدهم لم يخرج عن النقد اللغوي القديم، نقد الألفاظ والجمل معتمدين في ذلك على المعاجم. يقول المعاودة :

يا حبيبي هاك فارشفها وهات هاتها من فمك المعسول هات

فيقول عبد الله الرومي : «قل لي بربك أيها الصديق القارىء ماذا تجد في البيت؟ معنى مكرراً معاداً تحت أثواب مهلهلة من الألفاظ، وهذه هي الميزة الوحيدة التي يمتاز بها شاعرنا بعد أن يبتر تراث الشعراء الأقدمين، فهو لا يعدو أن يجردها من أثوابها الفضفاضة ليخلع عليها هذه المرقعات المهلهلة من الألفاظ وهنا أرجو أن يتأمل القارىء الكريم تلك الصورة الشعرية في قول البحتري وفي نفس المعنى :

قلت : عبدالعزيز تفديك نفسي قال : لبيك قلت لبيك ألفا
هاكها . قال : هاتها . قلت : خذها قال : لا أستطيعها ثم أغفى

فأنت ترى أن كلا الشاعرين يحاول أن يتعاطى وصاحبه الكأس، ولكن تعاطي البحتري له حد محدود وهو تلك الاغفاءة التي لا يعرفها إلا إخوان

١ — لمحات من الخليج العربي ١٦ ـ ١٨ .

الرضاعة في قول بعضهم :

يـــا رضيع الكأس في دنيـــا الهوى   في رضـــاع الكـأس قـــربى ورحم

أما تعـاطي شاعرنـا فهو هاك وهات إلى آخـر هذه (الهاتيات) إن كـان لها آخر يعرف في شعر الأستاذ.

وفي عدد آخـر من أعداد الجريـدة مقال بتوقيع ابن زيـدون يؤيـد ابن الرومي ويحاول أن يفسر هجومه على شعـر المعاودة في ضوء اتجاه أدبي جديـد تبناه بعض الشبـاب لأنهم قرأوا شعـر إبـراهيم نـاجي ومن على شاكلتـه من الشعـراء، بينما المعاودة متمسك بـالتراث واتجاهاته حتى مـدرسة البارودي وشـوقي، ويخشون على الأدب العربي من هذه النزعات الجديدة.

(ابن الـرومي شـاب وديع الطبع مـرهف الحسن تأدب على يـد بعض رجـال المدرسة الحديثة من تلاميذ الدكتور إبـراهيم ناجي واتباعه، فهو لا يقيس الشعر بمقياس : فعـولن مفاعيلن، ولا يحده بـذلك الحد الذي وضعـه الخليل بن أحمد لمن أراد أن يتعلم صناعـة الشعر بأنـه الكلام الموزون المقفي، وكل كـلام موزون مقفي فهـو شعر على حـد هـذه القاعـدة، حتى لو كـان من نـوع : الحمد لـرب المقتـدر. ولكن الشعـر عنده - أي ابن الـرومي - أولاً وقبل كل شيء إحسـاس صادق يهز الأعماق ثم يخرج على اللسـان شعراً يبقى صداه على الـزمن، مادام في الـزمن قلب يحس مثل ذلك الإحســاس. ومن هـذا يتضح أن الخصـام بين ابن الرومي والمعاودة ليس خصاماً شخصياً ضمن دائرة محدودة، ولكنه حرب قائمة بين مذهب ومذهب وجيل وجيل، وكل منهما له مقاييسـه ومعداته الأدبية ونوع ثقافته. لـلأستاذ المعاودة أنصاره ومحبوه وأنا منهم وهم جميعـاً يخشون على تراث الخليل بن أحمد والشريف الرضى وابن نباتـه والبارودي وشوقي من أن تعبث به أيدي نـاشئة اليـوم على حساب تجديد الأدب وتـرميمه. ولابن الـرومي أنصاره ومحبوه هو الآخر، ولا تستغرب أن أكون أحدهم، وكلهم يود النهوض بالأدب العربي والتمشي به حسب مقتضيات هذا العصر وأوضاعه. أما فكرة بقاء القديم على قدمه فشيء لا يمكن احتماله والصبر عليه).

ويعقب أحد الباحثين على هذه المعركة موضحاً أن الصراع كان بين مذهب ومذهب، وجيل وجيل، وهما الكلاسيكية والرومانسية، وأما الجيلان فأولهما يعيش في جو القديم وحسب، وثانيهما يتعلم من ذلك القديم، بينما رجلاه على أرض الحياة الحديثة[1] . ومعنى هذا أن ابن الرومي كما في مقالة ابن زيدون وكما وضح في تعقيب الدكتور عبد الله آل مبارك، وكما يفهم من نقد ابن الرومي نفسه، قارىء لإبراهيم ناجي ومدرسته، متأثر بالاتجاه الرومانسي في مفاهيمه التي تتصل بالشعور الصادق، لا بالتقرير الدقيق في موضوع المحاكاة، وهو هنا يذكرني بالعقاد في نقده لشوقي وفي حديثه عن الوحدة العضوية وحديثه عن الصورة، واهتماماته بالمشاعر الذاتية للشاعر بعيداً عن شعر المناسبات الذي يراه مع أصحاب هذا الاتجاه، شعراً تجاوزه العصر، في إطاره الموروث.

وننتقل بعد ذلك لشعر ابن الرومي[2]، فنتساءل: ترى إلى أي حد استطاع أن يطور شعره، مادام قادراً على نقد عبد الرحمن المعاودة باعتباره تياراً محافظاً، آن لغيره من تيارات التجديد أن تأخذ مكانها إلى جواره أو أن تتجاوزه؟

ومن قصائده التي كرر مضمونها قصيدة قالها حين ذهب أبناه نوح وجبريل إلى الولايات المتحدة لدراسة الطب والهندسة. فهو مرة يحن إليهما حنين أب ملتاع حائر بين غربة ولديه في طلب العلم وبين تشجيعه لهما على الاستزادة من العلم لأن الرسول يقول: اطلبوا العلم ولو بالصين. وهو مرة أخرى يذهب لزيارتهما فيرى الولايات المتحدة الأمريكية ويعجب بها، فيتمنى أن تصبح بلاده مثلها قوة وجمالاً، وأن يصبح الإنسان حراً، كما رآه هناك. يقول في إحداها:

أمهاجرين الى قصى مكان	نأيا على رغمى عن الاوطان
واستبدلا عني وعن أوطانى	بمواطن الصهيون والإمريكان . . .
والعلم أسمى ما تقلده الفتى	والعم مطلوب بكل مكان
لا تصحبا أبدا ولا تتزوجا	خضراء دمنة تكلم البلدان
وإليكمو مني السلام على المدى	وتحيتي ومحبتي وجناني

(١) أدب النثر المعاصر في شرقي الجزيرة العربية ص ١٥٠.

(٢) هذه المجموعة المخطوطة لدى حفيدة الشاعر، وهي إحدى طالباتي بجامعة قطر (جوهرة عبد الله سعد).

مـــا اشتـــاق محزون إلى أحبـــابـــه أو رتـل الأشعـــــار بـــــالألحان
او حن مهجـــــور إلى أوطـــــانـــــه أو غـــردت طير على الأغصـــان [١]

ولعلنا نلاحظ أن القصيدة تسير على نهج عمود الشعر، ولا علاقة لها بمناهج المجددين ولا الرومانسيين، كما نلاحظ فيها خطأ عروضياً واضحاً في البيت

الثاني - والقصيدة من البحر الكامل - وفكرة رحيل الأبناء والحنين إليهم، موجودة في الشعر العربي القديم، حين رحل الشباب في جيوش الفتح بينما بقى آباؤهم في الجزيرة. فها هو ذا البريق الهذلي قد خلفه أبناؤه على الرغم من كبر سنه ورحلوا إلى مصر، ولا يستطيع الشاعر العجوز أن يسلو عنهم «بليلى» في هذا العمر. لقد ترك أبناؤه منازلهم خاوية خالية، لا يلم بها إلا الطير الباكي (يظل بها الداعي الهديل)، وليس له إلا أن يقف على طريق القادمين من مصر (أسائل عنهم كلما جاء راكب) فلا يجد معهم إلا ذكريات الراحلين. ولعل صورة الطير الباكي هنا هي التي أوحت لابن الرومي (تغريد الطير على الأغصان) وإن كان تغريد الطير لا يوحي بالرحيل، ولكن الطير الباكي عند البريق الهذلي، فقد خرج أهله يطلبون جزاء الدنيا وجزاء الآخرة (أشاعكم الأجر المضاعف والغنى) وكم تمنى وأمل عودتهم، ولكن هيهات، فقد استقروا بعيداً وبدلوا مصر بتهامي أرضهم، وخلفوه حزيناً حتى الموت، فالغربة هنا ليست غربة الراحل، ولكنها غربة المقيم، وليست حنيناً إلى الوطن، ولكنها حنين إلى الأهل[٢] . وابن الرومي هنا ينصح أبناءه بألا يتزوجوا خضراء الدمن (المرأة الجميلة في منبت السوء) ويهديهم أشواقه، وإن كان التغريد - كما قلنا - لا يعبر عن الحنين.

ثم يزور أبناءه في أمريكا (ولاية بورتلاند) فيتغير رأيه في أمريكا، ويثني على البلاد وعلى أهلها في قصيدة طويلة يقول فيها :

يـا حـادي الـركب يـا طيـار سـابحـة في الجو تسمـو سمـــو الطير والحبب
بـــالله إنقل لأمـــريكـــا وســاكنهـــا مني السـلام بـــلا حـــد ولا حسب

---

١ — وهو يوقع على أغلب قصائده (ابن الرومي) وأحياناً يضيف إمام مسجد البراح بالاحساء ـ الهفوف ـ الصالحية.
٢ — الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، ماهر حسن، ص ١٥ ـ ١٦ القاهرة ١٩٧٠م.

يا حسن منظرها يا حسن مخبرها   يا ليت في سوحها عيشي ومنقلبي
ترى العذارى كحور جل مبدعها   مكملات بحسن الدل والأدب
فيها الحكومات ذات العدل سائرة   باللين والرفق والإشفاق والحدب
قوم رأيت إله العرش خلصهم   حتى من الحقد والأضغان والكذب
منعمون فلا هم ولا حزن   وآمنون من الحكام والنوب . . .

ثم يعرج في نهايتها على ولديه وإحساسه بعدهم بالوحشة، فهو يسلي همومه بقراءة الكتب أو لقاء الأصحاب، أو يسكب دمعه في قصيدة، أو يتجه إلى الله بقراءة القرآن عله يشرح صدره ويزيح همومه.

ومن الغريب أنه في تصويره لأمريكا - في قصيدة أخرى - يسعد برؤية الغيد الحسان ويصف مفاتنهن - وينسى ما قاله من قبل عنهن قبل رؤية أمريكا - ثم يقف وقفة الشاعر القديم، فقدودها أغصان بان، وردوفها كثبان رمل، ووجوهها أقمار ولحاظها أسياف.

كأن ردوفها كثبان رمل   كأن قدودها أغصان بان
كأن وجوهها حولي شموس   وأقمار أو النجم اليماني
كأن لحاظها أسياف سلت   وأرماح لضرب أو طعان

ثم يتطرق إلى وصف أمريكا ومناظرها الطبيعية، من جبال شاهقة تجللها الثلوج، إلى شلالات وجداول وخمائل، كأنها الجنة ليس فقط لجمال الطبيعة، بل لأنه أينما حل وجد من يخدمه من الحور والولدان.

بها الاجبال كالاهرامات سمكا   سمت وعتت على رغم الزمان
يكل الطرف عنها ثم يهوى   لمبدعها ويسجد سجدتان
ترى الأبقار والغزلان فيها   الى الخيل العراب إلى الحصان
فقلت لصاحبي أترى نقلنا   إلى دار التلاقي والتداني
لما فيها من الولدان يحظى   بخدمتهم وبالحور الحسان

ونلاحظ ملاحظتين : الأولى خطأ نحوي في «سجدتان» وحقها سجدتين فهي مفعول مطلق، والثانية خطأ لغوي في البيت التالي فالخيل تجمع الفرس

والحصان فلا معنى لقوله الخيل والحصان. أما الملاحظة الأهم فهي أن كل شعره الذي لاحظناه وحتى الآن لا علاقة له بالتجديد، فهو شعر يسير على نهج المعاودة الذي كان ينقده، بل إن شعر المعاودة فيه روح أقوى وصياغة أمتن، ولذلك ندهش لهذه النماذج الشعرية التقريرية التي تخلو من إدراك قضايا العصر في النقد الأدبي من حيث التجربة الشعرية ودور الخيال، إضافة إلى قضايا الشكل والمضمون وسواها، كأنه مايزال يعيش في أول القرن العشرين.

والموضوع الثاني الذي يشغل حيزاً من شعر الشاعر هو الغزل، وقد رأينا وصفه لمحاسن النساء حين كان بأمريكا، فهل تراه يسير على نفس النهج في كل غزلياته أم يختلف من موقف لآخر؟ الحقيقة أن الصورة لا تتغير، فهو لا يرى المرأة في أمريكا أو في «بركة سباحة» بأحد فنادق الأردن أو «بركة سباحة» بأحد فنادق الشارقة، ولكنه يرى المرأة كما رسمها التراث، أو كما تصورها هو مقياساً للجمال. ومع أن المرأة الجاهلية كانت ممتلئة أو ضخمة كما صورها أكثر الشعراء مثل الأعشى:

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي الوجى الوحل

أو عجزاء كما يقول كعب بن زهير:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لايشتكى منها قصر ولا طول

لأن الجمال هنا مرتبط بالعز، فالمرأة بهذه الصورة امرأة غنية مخدومة وليست محتاجة إلى أن تعمل في الحلب أو ملء الدلاء فينحل جسمها. أما المرأة المعاصرة وخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين فهي قد خرجت إلى العمل، ولذلك تبدل المقياس، وأصبح الجمال له مواصفات أخرى. يقول الشابي:

كلما أبصرتك عيناي تمشين بخطو موقع كالنشيد
خفق القلب للحياة ورف الزهر في حقل عمري المجرود
خطوات سكرانة بالأناشيد وصوت كرجع ناي بعيد
وقوام يكاد ينطلق بالألحان في كل وقفة وقعود

ولكن شاعرنا عبد الله بن الرومي يعيش في الماضي بوجدانه وفكره وذوقه،

وإن كان يعيش في الحاضر بجسده، أو هو يقلد شعراء الإحياء الذين تأثروا بالتراث. يقول في وقفة على بركة سباحة بفندق ماريوت بعمان بالأردن :

رأيت بها العذارى كالدرارى يعمن بلا رداء أو إزار
حسانا مغريات مصبيات بأوصاف وأرداف كبار
حكت أردافهن دعوص رمل علقن بأخصر ذات اختصار
نحيلات تكاد لثقل ردف يجاذبها تؤول إلى انبتار

وتتكرر نفس الصورة في القصيدة الأخرى التي وصف بها الحسان ببركة السباحة في فندق ماربيلا بالشارقة، وهي صورة من التراث، في نسيج موروث، داخل إطار عمود الشعر، فالصور الخيالية الرائعة التي نجدها لدى الرومانسيين مفقودة، لأنها كلها ملاحظات مادية، وأين من هذا أبيات الأخطل الصغير في ديوانه (الهوى والشباب) :

اسقينها بأبي أنت وأمي لا لتجلو الهم عني، أنت همي
املأ الكأس ابتساما وغراما
فلقد نام الندامى والخزامى
زحم الصبح الظلاما فالإلاما

والقسم الثالث بعد الحنين والغزل، هو الحكايات على ألسن الحيوان. والأصل فيها كلها (كليلة ودمنة) وقد ترجمت إلى اللغات الأوروبية في عصر الترجمة عن العربية مع ما ترجم من ألف ليلة وليلة ورسالة الغفران وكان لها أثرها في ظهور خرافات «لافونتين» كما يقول علماء الأدب المقارن، وكان لحكايات لافونتين على ألسن الحيوان أثرها في شعر شوقي الذي يعتبر رائد هذا الاتجاه في شعرنا العربي الحديث. وشعره ليس مجرد نظم حكايات يرددها الأطفال فتطربهم وتحببهم في الشعر أو تزيد مفرادتهم من اللغة، فهذا هو الاعتبار الأول، أما الاعتبار الثاني فهو ما وراءها وهو في كثير من الأحيان مغزى سياسي.

وهكذا الشأن في شعر ابن الرومي على ألسن الحيوان، وكل ما وجدته منه

كتبه في أمريكـا، هل لأنه هناك أحس بالـدول القوية والدول الضعيفـة إحساساً واضحاً؟ ربما كان ذلك.

من أهم هذه الحكايـات حكاية «الطيور المنخدعـة». وهي تحكي قصة طيور آمنـة وادعـة في روضـة فيهـا الأشجـار والأزهـار والغـدران، لكنهـا تخاف من الجوارح التي تحوم حول حماها، فخافت منهـا وطلبت من بعضها حمايتها، وهنا تحول الحماة إلى مغتصبين. هي تذكـرنا بقصة شـوقي «الديك الرومي والـدجاج البلـدي» وهي قصة رمـزية تهدف إلى نفس الغـايـة، الدول الضعيفـة التي تبغي الحمايـة، فيتحـول الحامي إلى محتل، وقصـة شـوقي كـانت تهدف إلى الاستعمار البريطـاني الذي جـاء ليحمي تـوفيق باشـا من عـرابي فتحول إلى محتل أكثـر من سبعين عامـاً، فهل كان «ابن الرومـي» يقصد أمريكـا؟ أم أنه كان يقصـد الدول الغربية بصورة عامة؟ الذي لاشك فيه أنـه كان يقصد الدول العربية والإسلامية الضعيفة والدول الغربيـة القوية وعلى رأسها الولايات المتحـدة الأمريكية، دون تحديـد معين، والقصة تعتمـد على أسلوب الحكـاية كما نـرى في أغلب القصص الشعرية وعلى الأخص الحكايات على ألسن الحيوان، أو حكايات الأطفال:

كـانت طيـور آمنـات وادعـه في روضـة معشبـة ورائعـه
لكن تخاف مـن جـوارح غـوت تحول من حـول حماهـا ضـائعـه
فـالتمسـت من بعضهـا حكـايـة فجـاء سرب من صقـور جـائعـه
قـالـت لها لاتحزنـي لا تحذري طيبي بنـا نفسـا وعيشي وادعـه...
لكـن دهتهـا بعـد ذاك حسرة وغصـة في العيش مـا أمـرهـا
اذ نقضت تلك الصقـور عهـدهـا وأخلفتهـا ظنهـا ووعـدهـا
لـذا رأت من طيرهـا مـا سـاءهـا إذ مـزقت صقـورهـا أفـراخهـا
وأكلـت مـن قبـل ذا ثمارهـا واستعمرت بقسـوة أوكـارهـا...
وأصبحت تلك الطيـور الـوادعـه في سبخـة ظـامئـة وجـائعـه
تـذم من صقـورهـا مـا نـالها وقبل كـانت في هـواهـا طـامعـه
تـرنـو الى الـروض بطـرف خـاسر ومهجـة حـرى وعين دامعـه
وتبصر الـزهـر ولا تنشقـه فيـالها من نكبـة وفـاجعـه

وقصيدة «ابن الرومي» تقع في أكثر من خمسين بيتاً، ولذلك فهو لم يكتبها للأطفال، ولكن للكبار.

ويدور ما وجدته من قصصه حول هذا المحور مثل حكاية «الظباء المنخدعة» التي استنجدت بالأسود فأصبحت طعاماً لها، ويختتم الحكاية ببيت للمتنبي، كأنما كل الحكاية تشرح البيت وتدور حوله:

ومن يجعل الضرغام بازا لصيده تصيده الضرغام فيمن تصيدا

أما شعره السياسي، فأغلبه يدور حول الشخصيات السياسية في عصره، يمدح أو يرثي، بحيث لا نتبين له خطأً فكرياً واضحاً في هذا الشأن اللهم إلا من خلال قصائد المديح، ومن خلال المناسبات السياسية مثل انعقاد مجلس دول التعاون الخليجي في إحدى دوله. فهو يدرك أن العالم الغربي يدفعنا إلى تكديس السلاح مروجاً لبضاعته بشتى الطرق ليستنزف ثروتنا، وفي الوقت نفسه نبقى محتاجين له دائماً، ثم يدعو الأمة العربية للسلام، فهو خير ضمان للحياة الهانئة، وهو لا يفسد الهناءة، وإن كانت تعني من وجهة نظر المختصين التنمية:

فصفات السلاح لهم سلاح بما يتطلبون من النقود
تقويهم وتضعفنا إلى أن نصير لذاك في جهد جهيد
وتحوجنا لرحمتهم فنحني لهم أعناقنا مثل العبيد
فما غير السلام إذاً سبيل لكسب المجد والعيش الرغيد

وهو خلال حديثه يستشهد بشعر المتنبي مرة ومرات، ويبدو أنه شاعره الأثير، فالمتنبي يرى أن الشجاعة والسلاح وهما لا يكفيان - وإلا لانتصر الأسد على الإنسان مثلاً - ولكن الرأي والعقل والفكر أهم من الشجاعة والسلاح، لأن الرأي يخطط والشجاعة تنفذ، فإذا كان الرأي أن السلام أجدى من الحرب، فلا مبرر لتكديس السلاح الذي يمكن أن يعلوه الصدأ أو يتجاوزه التطور، ويكفي التسليح الواقي، وهو في ذلك يقول:

فقدماً قال أحمد خير شعر تضمن خير نصح للمريد
بأن شجاعة الشجعان تأتي بعيد الرأي والنظر البعيد

وهو يشير إلى بيتي المتنبي :

الـرأي قبل شجـاعــة الشجعـان ... هــــو أول وهي المحل الثـــاني
لـــولا العقـــول لكـــان أدنــى ضيغم ... أدنــى إلى شرف من الانســـــان[1]

ويؤكد رأيه أكثر من مرة ، خاصة حين عقد السادات معاهدة السلام ، ويعتب على الـدول العربيـة هجومهـا عليه ومقـاطعتها لمصر ، ويتعجب متسـائلاً أليس الأولى أن يهاجموا إسرائيل؟ لو فعلوا ذلك لعلمنا صدقهم . ويضرب المثل بصلح الحديبية ويسوق الآيات ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ . وهي قصيـدة طـويلـة تقع في خمسـة وثمانين بيتـاً وتعتبر من أفضل شعـره السياسي :

هـم صيروا مصر كجنـــــــدي لهم ... تفــديهمـــوا بــالنفس والمهجــات
عنهم تـــدافع او تحارب دهـــرهـــا ... كي ينعمـــــوا بمـــوائد وسبـــات
والله مــــا قصـــــدوا العلى لكنما ... حســـدوك إذ وفقـت في الخطـــوات
ودعتهم بغـــداد فـخ سيــاســـة الســـوفيت أهـل المكـــر والغـــدرات . .
والله سمـى الصلح فتحــــابينـــــا ... في محكـم التنــزيـل والآيـــــات

رأينـا فيما سبق أهم الموضوعـات التي تنـاولها الشاعـر عبد الله ابن الـرومي ، والصيـاغة التي عـالج بها تلك الموضوعـات ، وهي صيـاغة تقليـدية كما قلنـا ، وأغلب الظن أنـه لم يكن يستطيع أن يخرج من إهابـه ، ومن بيئته ، لأن الاحسـاء بيئة تهتم بالتراث أكثر من اهتمامها بالتيارات الجديدة .

كما لاحظنا بعض الملاحظات اللغـوية والنحوية ولو أردنا الإحصـاء لوجدنا عدداً آخر من تلك الملاحظات . أما الملاحظات العروضية فقد رأينا نموذجاً ممثلاً في بيت مكسور (بمواطن الصهيـون والأمريكان) . وهنـاك ملاحظـات عروضية أخرى ، وملاحظات خاصة بظاهرة الإقواء في القافية . ومنها :

كـــانت ظبــاء في ريـــاض بـــاسقـــه ... تـــــرعى بها آمنـــــة وواثقـــــه
وكـــان ظبي عنــــدهـــا يحرسهـــا ... مأمـــونـــة مـن بينهـــا بـــوائقـــه

---

١ — ديوان المتنبي ص ٣١٣ .

والقاف في القصيدة مفتوحة، أما الإقواء فهو في قوله بوائقه، فالقاف مرفوعة لأنها مبتدأ خبره مأمونة. وكذلك الشأن في قصيدته (صورة الحسناء) فالقافية فيها الباء منصوبة، ثم تجيء مجرورة في أحد الأبيات :

فأمـا الـذكـر فهـو حيـاة قلبي ومنجـاتي من النـار الـرهيبـه
وأمـا صـورة الحسنـاء ليلى فتلـك شفـاء قلبـي من لهيبـه

ويـزداد الأمر اضطـراباً حين ينتقل من بحـر إلى بحـر آخر دون أن يشعـر في القصيدة الواحدة، ودون نظام ودون مبرر، وأحياناً في البيت الواحد مثل قوله :

وصـلاة الله مـع تسليمـه على النبـي المصطفـى خير البشر

فالشطر الأول من الـرمل (فاعلاتن) والشطر الثـاني من الرجز (مستفعلن)، ثم يستمر :

كـذلك الـرسل وكل الأنبيـا والتـابعين مـا أضـا نـور القمـر
فبهـم فـرج إلهي كـربتي وأنلني سيـدي كل الـوطـر

فالبيت الأول من الرجز والثاني من الرمل. وليس هناك مبرر للإطالة في هذه الناحية. وهكـذا نصل في النهاية إلى الإجابـة عن السؤال الذي طرحنـاه في بداية الدراسة، وهو يدور حول تطبيق الناقد لمنهجه النقدي في شعره إذا كان شاعراً. وقـد وضح الاختلاف بين المنهج النقـدي والمنهج الشعري للشـاعر حين يكـون الناقد شـاعراً عند أبي تمام، وعند العقاد، وهكذا الشأن عنـد ابن الرومي. وقد يجد القـارىء تفسيراً لموقف أبي تمام لأنـه صـاحـب منهج جـديـد في الصيـاغـة الشعريـة، وقد يجد القـارىء تفسيراً لموقف العقـاد، لأنه وإن لم يلتـزم بالـوحدة العضوية التي لم تكن مطبقـة في الشعر الغنائي بطريقة واعية ومنهجيـة حتى أيامه فقد التزم بالحديث عن ذاته وأحلامهـا باعتباره من شعراء الاتجاه الجديد في ذلك الـوقت، أعني مـدرسـة الـديـوان. ولكن «ابن الـرومي» الـذي نقـد الشـاعـر (المعاودة) في الأربعينات وحسبه النقاد يهاجمه كما هـاجم العقاد شوقي، لأنه من

أصحـاب المدرسة الجديـدة، وضح الآن وبعـد مـرور أكثر من أربعين سنـة على نقده، أنه لم يضف جديداً إلى مدرسة المحافظين، بل الذي لا شك فيه أن صياغة المعاودة أكثـر صقلاً وأصح أسلوبـاً من شعر ابن الرومي، وربما كـان الاختلاف بين البيئتين هـو مـا يعلل ذلك أعني بيئـة البحـرين وبيئة الاحسـاء، إذا أخـذنـا بالتعليل البيئي للأدب.

المصـادر والمراجـع:

١ - أدب النثر المعاصر في شرقي الجزيرة، عبد الله المبارك، القاهرة، ١٩٧٠.

٢ - الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، ماهر حسن، القاهرة، ١٩٧٠.

٣ - الديوان للعقاد والمازني، القاهرة، ١٩٢١.

٤ - ديوان المتنبي، القاهرة، ١٩٨٠.

٥ - فصـول من النقـد عند العقـاد، محمـد خليفـة التـونسي، القاهـرة، مكتبـة الخانجي.

٦ - في الثقـافـة المصريـة، محمـود أمين العـالم وعبـد العظيم أنيس، بيروت، ١٩٥٥.

٧ - لمحات من الخليج العربي، محمد جابر الأنصاري، البحرين، ١٩٧٠.

٨ - مخطوطة شعر عبد الله الرومي.

أصول التفكير النقدي عند «طه حسين» ورؤيته الثقافية

أ. د. محمد رجاء عيد
أستاذ بقسم اللغة العربية
جامعة قطر

يمثل طه حسين مثالا فذا للعبقرية الفردية . التي تعددت جوانبها وتنوعت إسهاماتها الفكرية ، حتى ليصبح من الخطأ بل الخطل محاولة الإمساك بطرف واحد بدون تبصر لما يشتبك معه من أطراف ، وما يقع فيه من سياقات ، ومن هنا أهمية إقامة رؤية كلية لفكر «طه حسين» رؤية لاتنزع رأيا من سياقه ولا تغض نظرها عن ترافد لابد منه بين السياقات المختلفة .

ولعله من أهم ما يميز حركة الفكر عند طه حسين أنها تتشكل في مختلف أبعادها من تداخل تيارات متعددة ترفد حركة النهر الكبير ، وتتحول في تلاحقها وتضامها ومن ثم تمازجها إلى تجسيد منظور له تشكله الخاص وصورته المتميزة ، ولا يجب أن تخدعنا الموجة من هذه التيارات في علوها واندفاعها فنراها وكأنها التشكل الأخير ، فإنه بشيء من الأناة ومثله من التبصر المتوسم يمكن ملاحظة تصالح اللاحق والسابق فتهدأ فورة الاندفاعة الأولى ويسترد النهر حركته الطبيعية ، ولا يعدم المتتبع لفكر «طه حسين» حماسة مخلصة لمنهج ما ، بما يوحي في إيمانه به واندفاعه فيه أنه المنهج الأوحد ، إلا أن هذا لايستمر بطه حسين طويلا ، ففي فكره من المرونة والانفساح ما يهبه القدرة على إساغة ذلك كله ليخلص في نهاية المطاف إلى توسط ذكي ، فيما يشبه تشكلا متوافقا وليس تلفيقا مبتسرا ، فطه حسين نموذج مثالي لعصره الذي احتدمت فيه قضية المحافظة بما تشتمل عليه من إيمان مطلق بالموروث وكل ما هو موروث وبين التجديد بما يدل على التجاوز والتقدم ، فأما الفريق الأول فقد استراح إلى ما خلفه السابقون وقنع به غاضا بصره عما سواه ، وأما الفريق الثاني ، ومنه «طه حسين» فإن المأزق

الثقافي للعصر ممثل فيه أصدق تمثيل، فقد اطلع على تراثه واستوعبه، وتطلع إلى مستحدثات الآخرين فتعرف إليها وأحاط بها.

ومن هنا كان مفهوم التوسط عند «طه حسين» حلا ذكيا لهذا المأزق الثقافي الذي تميز به عصره، ليس تلفيقا لمتناقضات، وإنما رؤية رحبة تسع ما هو معاصر ولا تتخلى عما هو موروث، ويتضح دور هذا المفهوم في تعدد مجالات استخدامه عنده. نجده في الحديث عن جهده وجهد زملائه من المجددين حين يقول: وهم على رغم ثورتهم هذه لايفرطون في القديم وإنما يحفظونه ويمضون في إحيائه، يرونه من كنوزهم النفيسة التي لاينبغي التقصير في رعايتها وحمايتها وصيانتها! كانوا يصلون القديم بالجديد. ويلائمون ما كان وما هو كائن، ويحاولون أن يلائموا بين هذا كله وبين ما سيكون في مستقبل الأيام(١). ونراه في تحديده للذوق الأدبي الحديث في قوله «وإذا أردنا أن نحدد هذا الذوق الأدبي الحديث لن نجد في ذلك مشقة ولا عسرا فهو يقوم على شيء واحد هو القصد والتوسط بين الغلو في المحافظة الذي ينتهي باللغة العربية إلى الجمود ثم الموت وبين الغلو في التجديد الذي ينتهي باللغة العربية إلى الفناء في اللغات الاجنبية أو في الحياة الأجنبية(٢) وبهذا المفهوم واجه «طه حسين» مأزق عصره الثقافي فصالح بين التراث العربي القديم والثقافة الغربية الحديثة مصالحة واعية بمتغيرات العصر وتحولات الفكر، وملتزمة في الوقت نفسه بما حسن من موروثها، ذلك أنه ليس من الممكن في أي وجه من أوجه الصراع الحضاري أن يحدد الفرد أو الأفراد مواقفهم منه تحديدا حاسما، فهو صراع لايتعلق بإرادة الأفراد وإنما بحركة التاريخ، ومن هنا يظل الموروث فاعلا في سلوك الأفراد الفكري. ومن هنا أيضا كان اغتناء حركة الفكر عند «طه حسين» بالكثير من التحولات التي تستوعب الحركة العنيفة في الاندفاعة الأولى وتحافظ ـ فيما بعد ـ على خصوصية تشكلها وحركته الطبيعية، أي توسطه. . ومن ثم كان موقفه من

١ ـ من أدبنا المعاصر «مجلد ١٢ ص ٣٣٥».

٢ ـ نفس المصدر ص ٣٣٦، ٣٣٧.

المفهوم الكلاسيكي ــ التقليدي ــ للإبداع الأدبي رافضا هذا الاستنساخ بين العصور الأدبية والذي يسقط الاختلافات الجوهرية بينها وداعيا الى ثورة تجديدية يناصر أصحابها قائلا: فمن حقهم أن يسخروا اللغة لأغراضهم لا أن يسخروا أنفسهم للغة.. ثم يثوروا ــ كذلك ــ على أساليب القدماء في التعبير الشعري والنثري، ولا يلزمون أنفسهم أن ينظموا الشعر كما كان ينظمه الجاهليون والإسلاميون والمحدثون من شعراء العصر العباسي أو من شعراء الأندلس، ولا يأخذون أنفسهم أن يكتبوا كما كان يكتب ابن المقفع والجاحظ وغيرهما من الكتاب القدماء، وإنما يصطنعون من الأساليب ما يلائم قلوبهم وأذواقهم(١) ويتخذ «طه حسين» من هذه الملاءمة معيارا نقديا تناول به أسلوب الرافعي قائلاً: «إن هذا الأسلوب الذي ربما راق أهل القرن الخامس والسادس للهجرة لايستطيع أن يروقنا في هذا العصر الحديث الذي تغير فيه الذوق الأدبي لاسيما في مصر تغيرا شديدا(٢) وسوف نرى - فيما بعد - أن طه حسين قد طور هذا المعيار - معيار الملاءمة - ثم امتشقه في مواجهة الشعر الجاهلي داحضا صحته ومنكرا نسبه الجاهلي، ويهمنا التأكيد على أن هذا التحمس في مواجهة الاحتذاء والتقليد وتلك الاندفاعة في الجهر بالمخاصمة الأدبية معه تهدأ وتخلف وراءها رؤية موضوعية للأدب العربي في سياقه التاريخي فيراه يتحرك بين قطبين أحدهما ثابت والآخر متغير، ومن هذه الحركة بينهما يخلق توازنه بين الأصالة والمعاصرة يقول: «أدبنا العربي كغيره من الآداب الحية يمتاز بهذا التوازن الذي لم ينقطع بين عنصرين أحدهما ثباتا واستقرارا، وثانيهما تحولا وانتقالا(٣) وخلف التحول والانتقال تكمن صلة الأدب أولا بمجتمعه، هذه الصلة التي ألح عليها طه حسين كثيرا، وصلته ثانيا بالثقافات الأخرى وبهما يمهد لمفهوم متكامل عن الأدب وماهيته. أما عنصر الثبات والاستقرار فممثل في الموروث الأدبي والذي

---

١ ــ نفس المصدر ص ٣٣٥.

٢ ــ جريدة السياسة الاسبوعية.

٣ ــ الأدب المصري بين أمسه وغده.

يعبر عنه طه حسين قائلا : « . . . فالعناصر التقليدية في أدبنا قوية شديدة القوة، مستقرة ممعنة في الاستقرار، مستمرة على الزمن، وهي التي ضمنت بقاء الأدب العربي في هذه القرون الطوال» . . (١) وأما عنصر التحول، فمن جهة الترافد الثقافي. إن «طه حسين» في تصوره للأدب المصري الحديث يوضح أنه قائم على هذا التداخل والتلاقح الثقافي، فهو يتألف في جوهره من عناصر ثلاثة : «أولها العنصر المصرى الخاص الذي ورثناه عن المصريين القدماء. . . والذي نستمده دائما من أرض مصر وسمائها . . فيه شيء من التصوف، وفيه شيء من الحزن، وفيه شيء من السماحة، وفيه شيء من السخرية(٢) والعنصر الثاني هو «العنصر العربي الذي يأتينا من اللغة ومن الدين ومن الحضارة(٣) وأما العنصر الثالث هو هذا العنصر الأجنبي الذي أثر في الحياة المصرية دائما . . لأن طبيعتها الجغرافية تقتضيه، وهو هذا الذي يأتيها من اتصالها بالأمم المتحضرة في الشرق والغرب(٤). ومن ثم فإن مفهوم الأدب في عنصره المتغير المتحول يعتمد على فعالية التاريخ وأحداثه في التماس الثقافي إن لم يكن الصراع، هذا الصراع أو ذاك التماس الذي يخلف وراءه اهتزاز بعض القيم فيعاد ترتيبها ويضاف إليها بعض ما قد تفتقر له. أما علاقة الأدب بالمجتمع فهي الأخرى تتبع عنصر التغير، ولكنها علاقة تميزت في فكر طه حسين بالكثير من التحولات، فإن النظر اليها بين أمرين : إما أن ننظر الى المجتمع باعتباره حركة فردية تنضم إلى حركة ثانية وثالثة ليشكل المجموع صورة المجتمع، ونكون هنا أمام فرد حر حرية ضخمة، إن لم نقل مطلقة، أو نرى المجتمع سلطة مطاعة أو مؤسسة مهيمنة على أفرادها، ترسم لهم شكل حركتهم، وتحدد اتجاهها، وقد تردد طه حسين بين زاويتي النظر هاتين : الحرية والجبر. لقد بدأ طه حسين مؤمنا عتيد الإيمان بالحرية الفردية

---

١ — نفسه.

٢— فصول في الأدب والنقد ص ٤٣٣، ٤٣٤ ـ مجلد ٥.

٣ — الشعر طبيعته نوعه وفنونه ص ٣١١.

٤— في الأدب الجاهلي ص ٥٠

مطلقا ورافضـا لفكرة الجبر في شتى صـورها . إلا أن رفض فكـرة الجبر لم يستمر طـويلا ففي فـرنسـا حيث كان دور كهـايم يـرد الفرد الى مجتمعـه ويـراه ظاهـرة اجتماعيـة أساسـا ، وارنست رينان يـرى التاريخ قصيـدة لا يتغير رويها ، وحيث كـان أبـو العـلاء المعـري «الجبري» ينتظـر طـه حسين على مـوعـد مع «الجبريـة الاجتماعية»(١) فإذ بطـه حسين ينتقل مع الثلاثـة ، وربما مع آخرين ، مـن موقع الحرية إلى فلسفة الجبر فـرأى أن الحياة الاجتماعية لادخل فيها لـلأفراد وإنما تعود إلى مـا هو خـارج إرادتهم ، إلى طبيعتها نفسهـا ، وهم بالتـالي يعودون متشـابهين ومختلفين الى هذه الطبيعة ، ومن ثم يـرى «الحركة التاريخية جبريـة ليس للاختيار فيهـا مكـان»(٢) وتكـون العلل والأسبـاب هي بحث النـاظـر في الحيـاة الاجتماعية ، التـي في رأيه «إنما تأخـذ أشكالها وتنزل منـازلها المتباينـة بتأثير العلل والأسباب التـي لايملكها الإنسان ولا يستطيـع لها دفعا ولا اكتسابـا(٣) ويصل الامر إلى ان يصبح كل أثـر مادي أو معنوي ظـاهرة اجتماعية أو كـونية ينبغي أن ترد إلى أصـولها وتعاد الى مصـادرها ، وأن تستقي مـن ينابيعها ، وتستخـرج من مناجمها ، وهي جماعة العلل التي اشرنا اليهـا آنفا(٤) إن تطابقا ما بين دور كهايم وطه حسين يبدأ في الظهور القوى ، ويندمج صوت طه حسين بصوت استاذه في قول الأول : «إن الفرد نفسه ظاهـرة اجتماعيه» ويفسر ذلك قائلا : «فهو لم يأت من لا شيء وإنما جـاء من أسرتـه أولا ، ولم يكـن يـرى النـور حتى تلقتـه الحيـاة الاجتماعيـة فصورتـه في صورتها وصـاغته على مثـالها ، وأخضعته لمؤثـراتها التي لاتحصى ، فعنصر الفردية فيه ضئيل لايكاد يحس إلا أن يمتاز هذا الفرد وامتيازه نفسه يـرد في كثير من الأحيان إلى الحياة الاجتماعيـة التي أنشأته(٥) هـذا التحول الشديد الـذي طرأ على رأي طه حسين في علاقة الفرد بمجتمعـه وجد متنفسه في

---

١ — نفسه ص ٨٠ .

٢ — تجديد ذكرى أبي العلاء - ص ٢٢ .

٣ — نفسه .

٤ — نفسه - ص ٢٣ .

٥ — خصام ونقد - ص ٢٥٧ .

دراسته «لأبي العلاء المعري». وأبوالعلاء شخصية أدبية يتساوق مع فكرها وأدبها مبدأ «الجبر» ومن هنا تناغمت رؤية طه حسين ــ في دراسته ورؤية الشخصية المدروسة ـ غير أن الأمر فيما عدا ذلك يصبح محلا لتحولات فكرية تخفف من عنف ظاهر في ايمان طه حسين بالجبر الاجتماعي والتاريخي، ذلك أن تعميمه من أبي العلاء على الأدب كله يصبح مستحيلا. فالأدب في سياقه التاريخي دائب الحركة رقيا وازدهارا أو تخلفا وجمودا، فإذا كان فكر طه حسين في علاقة الأدب بالمجتمع بدأ من نقطة الجبر، إلا أنه يضمن هذه العلاقة ما يخرجها من سياقها الفلسفي داخلا بها في سياق أدبي يحتوي الشىء ونقيضه خالقا منهما خصوصية أدبية لمفهومها كما سنرى.

يرى «طه حسين» أن الشاعر أو الكاتب لايستمد أدبه من شخصه وحده وإنما يستمد أكثر فنه وأكثر شخصيته من أشياء أخرى ليس له حيلة فيها، وليس لطبيعته ومزاجه وفرديته فيها كل ما تظن من التأثير(١) وإذا كانت تلك هي صورة الأديب، فعلى الأدب ـ إذن ـ أن يكون «مرآة تصور أو تعكس» فلا يكون الأدب أدبا حتى يصور حياة الناس، وليس في الأرض أدب إلا وهو يصور حياة أصحابه.. فكل أدب في أي أمة من الأمم إنما هو يصور نوعا من أنواع حياتها ولونا من ألوان شعورها وذوقها وتفكيرها، وانعكاس صور الحياة في نفوسها(٢) ولا يكون مطلبك منه رواية الأعاجيب والعظات ولا إرضاء الذوق والميل الشخصي، وإنما تتخذ الأدب والتاريخ مرآة للأمم وسبيلا إلى فهم حياتها العقلية والشعورية(٣) غير أن كلمتي «الانعكاس» و«المرآة» مثلهما مثل «التصوير» يجب أن نحتاط لها، فهما من هذه الكلمات التي أصبحت ثنائية الاستعمال، استعمال لغوي عادي، واستعمال اصطلاحي، وهي في السياق الفكري لطه حسين لاتؤخذ منفردة وإنما تقابل في موضوعها بكلمات أخرى

١ ــ نفسه.

٢ ــ كتاب خصام ونقد ـ مجلد ١١ ص ٥٥٥.

٣ ــ حديث الاربعاء ـ ص ١٨٥ ـ جـ١.

تضيء الدلالة المرادة والمعنية، لنعرف حدود المعنى، أو نتعرف على الإضافات البلاغية التي أوهمت غير ما أريد منها وما وضعت له، فإذا قابلنا بينها وبين إيمان طه حسين بأن الحقيقة الادبية غير الحقيقة الواقعية، وأن ليس على الأدب ولا الأديب أن يلتزم حدود هذه الأخيرة وإنما له بل يجب عليه أن يضيف إليها من نفسه وخياله وعقله ما يثري مضمونها كحقيقة، وهو ما يتضح في مقابلته بين الأديب والرسام من جهة وبين الفونوغراف والفوتوغراف من جهة أخرى(١) حيث يذهب بعدها إلى أن «الفرق بين الأديب والمصور «الرسام» وبين هاتين الأداتين من أدوات التسجيل أنهما يصوران الحقائق ويضيفان إليها شيئا من ذات نفسيهما هو الذي يبلغ بها أعماق الضمائر والقلوب ويتيح لها أن تبلغ الأديب والمصور «الرسام» من نفوس الناس ما يريدان(٢) فسوف يتضح أن التعبير الأدبي والتعبير التشكيلي يبعدان مفهوم «المرآة» و «الانعكاس» عن حرفية انقل، ويضاف إلى هذا الإبعاد شرط الحرية الذي يشترطه طه حسين لكي يكون الأدب أدبا والذي بالغ فيه نقدا وإبداعا حيث مارس هذه الحرية ممارسة عنيفة في إبداعه القصصي أخلت في كثير من الأحيان بشروط البناء الفني، يقول طه حسين والأصل في الفن حرية خالصة(٣) ويقول «وإنما الأديب حر أن يكتب ما يشاء، ويكتب كيف شاء، والقراء أحرار يقرأون إن شاءوا ويعرضون إن أحبوا؟ ليس لهم على الأديب حق أن يكتب لهم ما يشاءون. وليس للأديب عليهم حق أن يرضوا على ما يكتب»(٤) وبهذه الحرية سواء في الإبداع أو التلقي، تكون ألفاظ من قبيل «المرآة» و «الانعكاس» أبعد مما تشي به من دلالات اصطلاحية، ويصبح الأدب حين نضم عبارات طه حسين السابقة في نسق واحد توترا حادا بين قطبي الجبر والحرية أو جدلا عميقا بينهما، فالجبر الاجتماعي متعلق بالأديب كفرد اجتماعي، والحرية الإبداعية متعلقة به كفنان مبدع يسمو

---

١ — كتب ومؤلفون ـ ص ١٦١.

٢ — نفسه.

٣ — من أدبنا المعاصر ـ مجلد ١٢ ص ٣٤٩.

٤ — كتاب خصام ونقد ص ٥٧٨ ـ مجلد ١١.

بعمله على مواضعات واقعه، وبفكره على مسلمات ثقافته. ناظرا إلى ما يجب ان يكون غير ملتصق في بلادة بما هو كائن، إن الجبر والحرية يشكلان جناحي مفهوم طه حسين للأدب حتى لتصبح وظيفة الأدب الاجتماعية نابعة أساسا من صورته الجمالية، ومن هنا يرى أن الإصلاح والتغيير وهما مطلب من فلسفته العامة لا قيمة لهما إذا كان الأديب لايصدر في دعوته إليهما عن قناعة وحرية، ويظلان قيمة مجردة تشير بنفسها إلى هشاشتها الأدبية، يقول طه حسين: «فأما أن يسخر الأدب ليكون وسيلة من وسائل الإصلاح أو سبيلا من سبل التغيير في حياة الشعوب، فهذا تفكير لاينبغي أن نساق اليه، ولا أن نتورط فيه، وليس معنى هذا أن الأدب بطبعه عقيم، وأن الأديب أثر بطبعه، ولكن معناه أن الإصلاح والتغيير أشياء تصدر عن الأدب صدورا طبيعيا(١) فالأدب نفسه يحتوي على جانبين، يمتزجان حتى لا سبيل إلى فصلهما، الجانب الجمالي بما هو فن والجانب الاجتماعي باعتبار منشئه، وان لكل شعر جيد ناحيتين مختلفتين، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفني المطلق وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعا ولكن بشرط أن يعدوا لفهمه وتذوقه، وهو من ناحية اخرى مرآة تمثل في قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره، وهو من هذه الناحية متصل بزمانه ومكانه ولو قد خلا الشعر من إحدى هاتين الخاصتين لما كانت له قيمة حقيقة»(٢) ومن المسلم به أن هاتين الخاصتين لاتوجدان منفردتين وإنما يلتبس الشكل الفني بالمضمون الاجتماعي، لتتخلق منهما جماليات الأدب، وقد ألح طه حسين على هذه الجماليات إلحاحا يفوق ما أفاض فيه عن العلاقة بين الأدب والمجتمع، ويجعلها عنصرا ثالثا للعنصرين السابقين فيقول: «فصورة الأدب «شكله الفني» ومادته «موضوعه الاجتماعي» شيئان لاينفصلان أو هما شيء واحد، وإذا شئت وأضفت اليهما عنصرا ثالثا.. وهذا العنصر يلزمهما دوما - لافكاك منه - وهو عنصر الجمال(٣) وينيط به وظيفة بنائية، كما نستشف من

١ — الشعر طبيته ونوعه وفنونه - ٣١١.
٢ — أدبنا المعاصر ص ٢٢٤ - جـ ١٢.
٣ — خصام ونقد - مجلد ١١ ص ٥٦٥.

قـوله : «إن الألفـاظ وحدهـا لاتعني شيئا ، وإن الأدب لايكـونَ إلا اذا ائتلفت المعاني فيما بينهـا وائتلفت الالفاظ فيما بينهـا وبين المعاني ، وكـان الجمال الفني هو الذي ألف بينهـا فأحسن التأليف(١) وعلى الرغم من تـراثية لغة التعبير عنـد طه حسين في هـذه النقطة بـالذات ومحدوديـة كلمات من قبيل «اللفظ» و «المعنى» في تناول الأدب العـربي الحديث فإن جملتـه الاخيرة : «وكان الجمال الفني هـو الذي ألف بينها فأحسن التأليف» تـوسع من الدلالة الضيقة ، وتطرح القضيـة القديمة طرحـا جديدا خـاصا بإشكاليـة الحداثة في الأدب العربي ، وطـه حسين في قضية الجمال الفني نـــاقــد جمالي تأثـــري لايصف ولايحدد ، وإنما يتـــذوق فيعجب ويتعجب ، فهو يؤمن بالجمال الفني المطلق ـ كما سبقت الإشارة لذلك ـ وإطلاق «الجمال» يمنعه من التعـريف والتحديـد ، وربما كان يـرى في هذا التحـديد وذاك التعريف إهدارا لثرائه وحصرا لآفاقه اللامتناهية .

إن عـالم الجمال عند طـه حسين ، عـالم مجهول من المتعـة التي تحس ولا تحدد ، تشعر بها ولا تعـرف ماهيتها ، ولاتملك اللغة التي تسميهـا ، فيقول : لا نستطيع أن نحدد هذا الجمال ولا أن نعـرف معرفة دقيقة من أين يأتي «٢» وهـو في إطلاقه للجمال الفني ، يقترب به في الأدب من الموسيقى في لا محدوديتها فيقول : «فخذ الأدب كما تأخـذ الموسيقى . . خـذه على أنـه متعــة . . لـروحك وغـذاء لقلبك وعقلك . . وليكن جمال الأدب حيـث يمكن أن يكـــون ، ليكن في الألفـــاظ أو المعـاني ، أو في النظام والأسلـوب ، أو في هذا كلـه ، والأدب آخر الأمـر فن من الموسيقى يأتلف من هذه الأشيـاء كلها . . فليس يعنيني من الأدب إلا أن يحدث في نفسي ما يحدثه الأثر الفني من هذا الشعور الـرفيع بالجمال» ، وقد كانت رؤية طـه حسين للجمال واحدة من ضـوابط استخدام مفهـوم الجبر الاجتماعي داخل مجال الأدب ، وكذلك لمفهومه عن عـلاقة الأدب بالمجتمع الذي انبثق من «الجبر الاجتماعي» فلم تجرفـه الواقعيـة ـ وهي دعـوة لاجتماعية الأدب ــ في تيارهـا بل

١ ــ نفسه ص ١٠٥ ـ جـ ١٠ .

٢ ــ نفسه ص ٨٥ ـ ٨٦ .

وقف دون الجمال الادبي أمام دعاوى الصدق والالتزام والواقع التي أسرف الواقعيون العرب في تطبيقها حتى أسفوا وابتذلوا، فكما هي طبيعة طه حسين المتفردة والتي لاتقع أسيرة أطر بذاتها ولا مفاهيم بعينها، وإنما هي قادرة ـ كما قلنا ـ على إساغة هذا كله، فهي هنا وهناك وهي في هذا وذاك، ولكن لها في النهاية رحيقها الخاص وملمحها المتميز، فقد كان له موقفه من هؤلاء الأدباء الذين تخلوا باسم الواقعية عن الجمال الأدبي، وقارن بين واقعيتهم وواقعية وجدها في التراث العربي ضاربا المثل بـ «جرير والفرزدق» قائلا: «فالذين يغترفون من البحر أو النهر هذه الأيام لايؤدون إليك مثل ما كان يؤديه ذلك الشاعر العظيم حين يغترف من بحره، لأن بحره كان صفوا رائقا لاكدر فيه، وأصحابنا يغرفون من أنها ر وبحار يملؤها ما شاء الله أن يملأها من الكدر والغثاء»(١) وتتعلق بالواقيعة مسألة التعبير الأدبي أي اللغتين أصدق تعبيرا. . أهي الفصحى، أم العامية؟ ومن منطلق رؤيته إلى العلاقة بين الأدب والمجتمع ـ والتي تظل فاعلة في معظم قضايا الأدب والثقافة ـ يؤكد طه حسين موقفه التوسطي، فقد مر بنا كيف ثار على أساليب القدماء في الشعر كما في النثر، ومرت بنا دعوته الى أن تسخر اللغة للتعبير عما في النفوس لا أن تسخر النفوس لتوائم أساليب لغوية معينة، وإذا كانت هذه الدعوة وتلك الثورة لم تقيد بتحديد لطبيعة اللغة الملائمة للأدب الحديث، فإن سياقات اخرى تضيء طبيعة هذه اللغة الملائمة، يقول. . «ولغات الناس صورة لحياتهم، فإذا اتخذوها وسيلة إلى الفن تخيروا منها أصفاها وأنقاها وأحسنها مسا للسمع وموقعا من القلب وملاءمة للذوق»(٢) والملمح التراثي في القول السابق يكاد يكون اختصارا لإفاضات كثيرة تفنن النقاد العرب في صياغتها عن صفاء العبارة ورواء اللغة وماء الاسلوب نختار منها قول القاضي الجرجاني عن «لغات الناس صورة حياتهم» «في وساطته». . فلما ضرب الإسلام بجرانه. واتسعت ممالك العرب،

---

١ ـــ من أدبنا المعاصر ٢٤٢ ـ ٢٤٣ جـ ١٢.

٢ ـــ كتب ومؤلفون مجلد ١٦ ص ١١٥.

وكثرت الحواضر ونزعت البوادي إلى القرى وفشا التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعا، وألطفها من القلب موقعا . . وترققوا ما أمكن، وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ . . »(١) هذا التطابق في الرؤية إلى اللغة الادبية وهذا التماثل في التعبير عنها بين طه حسين المجدد والصوت التراثي يؤصل مواجهة «طه حسين» للغة العامية بدعوى «الواقعية» في قوله : «وما أكثر ما يخطىء الشباب من أدبائنا حين يظنون تصوير الواقع من الحياة يفرض عليه أن ينطق الناس في الكتب بما تجري به ألسنتهم في أحاديث الشوارع والأندية وأخص ما يمتاز به الفن الرفيع هو أنه يرقى بالواقع من الحياة درجات دون أن يقصر في أدائه وتصويره«٢» .

ومن هذه القناعة باللغة الفصحى كان احتفاله بقصة «نجيب محفوظ» بين القصرين ولغته فيها التي لاتشق على كل قارىء دون أن تسف أو تبتذل، مما نتبين معه تعريفه للغة الأدبية وتوسطه بين الإغراق في التفاصح حتى يدفع بالقارىء إلى المعاجم، وافتعال الصدق بالابتذال والعامية فيقول عن نفس القصة : « . . . . وأضيف الى ذلك أن روعة القصة لاتأتي من هذ الخصال ـ التي أشرت اليها آنفاً فحسب وإنما تأتي من لغتها أيضا فهي لم تكتب في اللغة العامية، المبتذلة، ولم تكتب في اللغة الفصحى التي يشق فهمها على أوساط الناس، وإنما تكتب في لغة وسطى يفهمها كل قارىء(٣) .

ومن هذه القناعة كان نقده ليوسف إدريس ودعوته إليه «أن يرفق باللغة العربية الفصحى، ويبسط سلطانه شيئا ما على أشخاصه حين يقص . . . . فهو مفصح إذا تحدث، فاذا أنطق أشخاصه أنطقهم بالعامية(٤) وهكذا تشتبك في مسألة واقعية اللغة مسألتان إحداهما لغات الناس صورة لحياتهم والثانية التخير

---

١ — الوساطة بين المتنبي وخصومه القاضي عبدالعزيز الجرجاني ص ١٦ .

٢ — كتب ومؤلفون ص ١١٥ مجلد ١٦ .

٣ — نفسه ص ٢٨٥، ٢٨٦ .

٤ — في الأدب الجاهلي ص ٥٦ .

والانتقاء بمعايير الصفاء والنقاء. . ومن المقولتين تكون اللغة الوسطى التي لاتتخلى عن فصاحتها هي لغة الأدب أو لنقل الصورة الأدبية لحياة الناس. . إن واقعية طه حسين ـ إذا صحت هذه النسبة ـ واقعية تستمد من رؤيته الفكرية وخدها خصائصها، فلا تنال من الشكل الفني في الوقت الذي تحقق من خلاله هذه الصلة التي ألح عليها بين المجتمع والأدب

ومن ثم يكون ما قررناه من قبل ان صورة الأدب الجمالية هي نفسها صورته الاجتماعية. . فلا تكون هذه على حساب تلك أو العكس فالعلاقة بين فنية الشكل واجتماعية المضمون علاقة تكوينية حتى ليصح الحديث عن اجتماعية الشكل الفني وفنية المضمون الاجتماعي.

ومن هذا المفهوم الرحب لماهية الأداب كفن يمتشج فيه الجمال صورة الحياة الاجتماعية يتجسد عند طه حسين منهجان للدراسة الأدبية إذا تذكرنا قوله «إن لكل شعر جيد ناحتين مختلفتين فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفني المطلق. . وهو من ناحية أخرى مرآة تمثل في قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره. . (١) هذا الجدل بين الجمال والمجتمع يطرح ـ كما قلنا ـ منهجين متكاملين للدراسة الأدبية يتكاملان في التطبيق غير أنهما مختلفان في التنظير: الأول المنهج العلمي في تحقيق النصوص وتوثيقها وشرحها وتفسيرها، وفيه يصل الباحث الى أقصى درجات الموضوعية وقد تمثل هذا المنهج في دراسات طه حسين للتاريخ الأدبي، أما الثاني فهو النقد والتقييم ولايتخلص الدارس فيه من آثار ذاتيته وإن وجب عليه أن يحد ما أمكنه من ظهورها في درسه.

يتحدث طه حسين عن هذين القسمين: التاريخي والنقدي فيقول: «أريد أن أدرس أبانواس فأنا مضطر أول الأمر إلى أن أبحث عن هذا الشعر ـ ولهذا البحث المنظم قواعده وأصوله ـ فإذا وجدت الشعر فأنا مضطر إلى أن أقرأه وأحقق نصوصه وأقارن مقارنة علمية دقيقة بين النسخ التي تشتمل عليه فإذا استخلصت من هذه النسخ المختلفة والنصوص المتباينة نصا انتهى إليه بحثي

---

١ ـ نفسه ص ٥٧.

واختياري فأنا مضطر إلى أن أقرأ هذا النص قراءة الباحث المثقف الذي يريد أن يفهم ويفسر ويحلل ويستخلص ما في هذا الشعر من خصائص لغوية او نحوية أو بيانية، فإذا أنا فرغت من هذا كله فاستكشفت النص وحققته وفسرته واستخلصت خصائصه ومميزاته . . فقد انتهى القسم العلمي الخالص من عملي مؤرخا للآداب، ويبدأ القسم الفني الذي أجتهد ما استطعت في أن أخفف من تأثير شخصيتي فيه ولكني أعتمد فيه سواء أردت أو لم أرد على الذوق. وهذا القسم هو النقد(١).

أما هذا القسم العلمي أو الدراسة التاريخية للأدب فإنها تبلور قضية المنهج بشكل واضح، ومنه انبعثت أهم خصومات طه حسين الأدبية، فقد كان للتناول المنهجي للأدب في عصر طه حسين محذوراته، فاللغة العربية تتميز عن غيرها بازدواجية وظيفية فهي من جهة لغة دين مكتمل وثابت، فهي ذات وظيفة دينية، وهي من جهة أخرى لغة حياة اجتماعية من ألزم خصائصها الحركة والتحول فهي ذات وظيفة اجتماعية ، بمعنى آخر فإن اللغة العربية لغة قيم روحية ثابتة يمثلها الدين، وفي نفس الوقت لغة حياة اجتماعية يعروها ما يعتري الحياة من حالات وأحوال فهي دائبة الحركة جيئة وذهابا ، تسعى من طور إلى آخر ولايحكم هذا السعي سوى قانون الحياة الاجتماعية نفسه.

وفي مواجهة هذه الازدواجية الحادة : الثبات والتحول. وجد طه حسين نفسه في بيئة ثقافية تجمع في حل تلفيقي بين اللغة والدين، ناظرة في قداسة إلى اللغة، بحكم هذا الجمع، وساحبة أذيال هذه القداسة على التراث الفكري والأدبي لها وكذلك تقاليد هذا التراث وأقصى درس ممكن لتلك اللغة هو الشرح فالتعليق على الشرح والاستدراك بحاشية على التعليق، يتم كل هذا في إطار من التحرج والتأثم، دون نظر منهجي في النصوص، وكان تطبيق المنهج العلمي يعني المواجهة مع هذه المسلمات التي رسخت في الوجدان الأدبي الجمعي حقائق لا سبيل إلى الشك بها أو الظن فيها.

يصف طه حسين هذا الوضع الشاذ فيقول « . . . وقد يكون من الغريب أن

٣٥ — نفسه ص ٥٧ .

تكـون اللغة مقـدسـة لأنها لغة القـرآن والـدين . وهي تدرس في رأي أصحـابها الأدب القديم من حيث هي وسيلة إلى فهم القرآن والدين، ومبتذلة لأنها تدرس لنفسها، ولأن درسها إضافي، ولأن الاستغناء عنه قد يكون ميسورا لو أمكن أن يفهم القرآن والحديث بدونها (١، ٢) . . كان هذا الوصف لحالة الدرس الأدبي ضروريا لتحرير الدارس من تلك المحاذير التي تملأ ساحة الدرس الأدبي وهو ما حدا بطه حسين إلى أن يـدعو إلى دراسة اللغة والأدب دراسـة علمية حرة ويجعل حريـة البحث والباحث شرطا أساسيـا لقيام علم تاريخ الأدب العـربي فيقول : «على هـذا الشرط وحده يستطيع الأدب العـربي أن يحيـا حياة مـلائمة لحاجـات العصر الذي نعيش فيه من الوجهة العلمية والفنية(٣) . . ومن هذا المنطلق بسط طه حسين منهجـه متكئا ــ إلى حد مـا ـ على ديكارت في أهميـة الشك المنهجي في الدراسة العلمية من ناحية، والانقطاع عن كل ما له تأثير على الدارس «يجب ألا نتقيـد بشيء ولا نـذعـن لشيء إلا منـاهج البحـث العلمي الصحيح(٤) غير أن ديكـارت وشكه يظل ظـلا باهتـا بجوار الاتكـاء القوي لطـه حسين على علاقـة الأدب بـالمجتمع، والتي ينميهـا ــ مـرة أخـرى ــ إلى درجـة «الجبر الاجتماعي» فيصبح «الشك» نتيجـة البحث، وليس أداتـه، أمـا الأداة النقـديـة الهامـة فهي مطابقة ـ ونعني تماما كلمة المطابقة ـ هذا الأدب لعصره وحياته الاجتماعية .

هذه المطابقة التي عناها «طه حسين» فيما سبق من قوله عن عنصري الأدب : عنصر الجمال المطلق، وعنصر اجتماعية الأدب وارتباطه بزمـانه ومكانه، والذي اتسع بـه حتى صارت الصـورة الاجتماعية هي نفسهـا الصورة الجماليـة للأدب، والتي ضاقت في تناولـه للشعر الجاهلي حتى شكلت فلسفة الجبر الاجتماعي أداة نقديـة في تناولـه هذا الأدب فـأخذ بها أخـذا عنيفا ذاهبـا في حدتـه المعهودة، إذا احتد، إلى أن الكثرة المطلقـة مما نسميه شعرا جـاهليا ليس من الجاهلية في شيء،

---

١ — في الشعر الجاهلي ص ١٢ .

٢ — نفسه ص ٧ .

٣ — نفسه ص ٧ .

٤ — نفسه ص ٦٦ .

وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهلين(١) إن فكرة «الجبر الاجتماعي» - وهي تظهر دون ضابط أدبي لعملها يوفر لها مرونة التطبيق - تتضح في مقدمات طه حسين لهذا الرأي، فقد بحث عن تماثل كامل بين الحياة الجاهلية وبين أدب هذه الحياة، فلما لم يجده كما أراد أنكره إنكارا عنيفا ووصل إلى حد اليقين قائلا: «وأكاد لا أشك في أن ما بقى من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء، ولاينبغي الاعتماد عليه لاستخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي(٢) وما كان الأمر يصل به إلى هذا الحد لو كان على ذكر بما أقره من أن الحياة تخرج في أدبها المثل والنقيض وربما تطلعت إلى ثالث يمثل طموحها الجمعي أو طموح أفرادها الشخصي. إلا أن طه حسين يقر المبدأ ويفسر المادة المدروسة عليه، ويفهم عن القدماء ممن تناولوا الشعر الجاهلي ما يؤيد وجهة نظره، كما في اتكائه على قول أبي العلاء: ما بقى لكم من شعر الجاهلية إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير ليجعل منه حجة لرأيه في انتحال الموجود منه، ويذهب بموضوعية تناول ابن سلام لانتحال الشعر والذي يقر فيه بإمكان الناقد أن يكتشف البهرج ويميز الأصيل، يجتزيء - طه حسين - ما يصلح من رأي لابن سلام - مع رأيه - ويعمم هذا الاجتزاء كما في قوله: «ولابن سلام مذهب من الاستدلال لإثبات أن أكثر الشعر قد ضاع.. (٣) ثم يوحد طه حسين بينه وبين القدماء لاغيا اختلافا جوهريا بينهما قائلا: «.... ولكننا إنما ذكرناه الآن لنبين كيف كان القدماء يتبينون كما نتبين ويحسون كما نحس أن هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين أكثره منحول(٤) وعلة كل هذا الالتواء في الاستشهاد والاستدلال تعود إلى ما آمن به طه حسين من أن الأدب صورة مجتمعه، وقد بحث عن المجتمع الجاهلي في شعره فلم يجد منها - كما اعتقد - إلا

١ — نفسه ص ٦٧.

٢ — ما بين القوسين - إضافة الباحث.

٣ — في الشعر الجاهلي ص ١٥، ١٦.

٤ — تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢٥.

الشيء الهين الذي لا يعتد به ولا يعتمد عليه، ومن هنا كانت هذه المقابلة الشاذة بين الشعر الجاهلي، والقرآن الكريم. غاضا بصره عن أن القرآن لم يحط بالحياة الجاهلية إلا فيما يخص اعتقادها، وفساد العلاقات فيها، وهو في تصويره لهاتين الناحيتين لا يخضع لما يخضع له الأدب ومهما يكن من أمر فإن ما يهمنا ـ هنا ـ القول بأن منهج طه حسين في تاريخ الأدب يعتمد كما رأينا ـ رغم اختلافنا معه على تطبيقه ـ على المزاوجة بين الإحاطة بظروف الزمان والمكان التي عاشها المبدع والتحليل الواعي لنصه الأدبي لبحث تأثراته بهذه الظروف، دون يقين بصحة النص إلا أن يثبت البحث هذه الصحة، وهو ما يتضح في دراسته لأبي العلاء المعري في قوله: « . . . من هنا يعرض لنا أحيانا أن نرفض كثيرا من الروايات التي أحصاها المؤرخون في كتبهم من غير تثبت ولا تحقيق. لقلة نصيبهم من النقد. أو لانقطاع الوسائل بينهم وبين إصابة الحق. نرفضها إذا دل البحث العقلي والاجتماعي على غير ما تدل عليه(١) فتحليل النص إذن وتحقيقه من خلال شروطه الاجتماعية أول الأدوات المنهجية في التأريخ للادب عند طه حسين غير أن العلاقة بين النص وعصره ليست هذه العلاقة المجانية رقيا برقي وانحطاطا بانحطاط، وإنما الأمر يتعلق بتأثير العصر في النص الأدبي سلبا كان هذا التأثير أم إيجابا فقد «يكون الرقي السياسي مصدر الرقي الأدبي وقد يكون الانحطاط السياسي يصور الرقي الأدبي والقرن الرابع الهجري دليل واضح على أن الصلة بين الأدب والسياسة قد تكون عكسية في كثير من الأحيان(٢). . إن طه حسين يفطن إلى خروج الادب من الدائرة الاجتماعية التي قسره عليها فيحتاط لكثير من الأدب لا يسلم لمجتمعه بصورته التي عليها، ولا يجد ـ هذا الأدب ـ من واجبه ما اشترطه عليه طه حسين من تصوير حياة مجتمعه ويجعل الصلة قائمة بين الأدب والمجتمع ـ في ظواهره السياسية ـ سواء كانت هذه الصلة إيجابية متوافقة. أو كانت سلبية متعاكسة. . ويحذر طه حسين من منهج آخر

١ ــ نفسه ص ٤٧.

٢ ــ فصول في الادب والنقد ص ١١.

نستطيع تسميته المنهج التاريخي والذي يعتمد على قسمة تاريخ الأدب الى عصور. فيقول : «لاينبغي أن تخدعك هذه الألفاظ المستحدثة في الأدب، ولا هذا النحو من التأليف الذي يقسم التاريخ الأدبي الى عصور. ويحاول أن يدخل شيئا من الترتيب والتنظيم، وذلك كله عناية بالقشور والأشكال، ولايمس اللباب ولا الموضوع(١) ذلك أن هذا التقسيم يلغى داخل ترهله الزمني اختلافات جوهرية في أدب العصر الواحد، ربما كان أهم هذه الاختلافات موقف الأدب والأديب من العصر ما دامت العلاقة بينهما ليست طردية دائما، وإنما هي - في كثير من الاحيان - علاقة عكسية - كما سبق القول - وبذوق المؤرخ يتكامل منهج طه حسين المتوسط بين الموضوعية والذاتية، فلم يكن تناول طه حسين للأدب مجرد لقاء آني وساذج بين النص والقارىء، إنه منهج يتوسط بين الموضوعية المطلقة والذاتية المطلقة فقد أكد على دور الذوق في إخراج تاريخ الأدب من جفاف العلم وصلادة الموضوعية باعتبار مادته - الأدب - فذهب إلى أنه «لاسبيل الى أن يبرأ مؤرخ الآداب من شخصيته وذوقه، وهذا وحده كاف في أن يحول بين تاريخ الأدب وبين أن يكون علما»(٢) وبهذا ينتهي منهج طه حسين في القسم العلمي من الدراسة الأدبية، أما القسم النقدي فإن المتتبع لحركة الفكر عند «طه حسين» وصلتها بتطور رؤيته النقدية سوف يلحظ أثر تراكم خبراته الثقافية بل وفي بعض الأحيان يلحظ تصارع هذ الخبرات على مساحة النص الأدبي - كما سوف يتضح - ولنتذكر جملته الجازمة «يجب ألا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح» وسوف نشهد عددا من التحولات التي تهز هذا اليقين والجزم السابقين فيها حين نقارنها بقوله على الذوق، «إن تاريخ الأدب لايستطيع أن يقوم على مناهج البحث العلمي الخالص وحدها، وإنما هو مضطر معها الى الذوق، وهو مضطر معها إلى هذه الملكات الشخصية الفردية التي يجتهد العالم أن يتحلل منها»(٣) وهذه المزاوجة

---

١ - نفسه.

٢ - حافظ وشوقي ص ٤٥٨ مجلد ١٢.

٣ - أحاديث مجلد ١٢ - ص ١٣٤.

بين المنهج والذوق الشخصي في التاريخ الأدبي تفرز في النقد رؤية نقدية يكون الجانب التأثري ركيزتها، ويكون الذوق أداتها والشعور الجمالي غايتها ومن ثم تتشكل موجات متشابكة في تيارات النقد عنده والتي قد تبدو لرائيها البعيد متقطعة منقطعة عما يسبقها أو يلحقها، إلا أنها في إطارها الكلي حميمة الاتساق إذا وضعت موضعها من الرؤية الكلية وروعيت أسبابها ودوافعها. ، وليكن مدخلنا توجه طه حسين إلى الشعراء وهو يعلل سبب جمود الشعر، ومن خلال نظراته هذه تبدأ معالم نظرية الشعر لديه في التشكل فيقول: «شعراؤنا جامدون في شعرهم، لأنهم مرضى بشيء من الكسل العقلي بعيد الأثر في حياتهم الأدبية»(١).

إن طه حسين يقف موقفا شديدا في مواجهة موروث قديم يرى الفكر والعلم في ناحية، والخيال والفن في ناحية أخرى في قسمة ظالمة استغرقت الفكر العربي زمناً طويلا ومن ثم كانت دعوته إلى مفهوم جديد للشعر يجمع الخيال الخصب بالمعرفة الصحيحة لكي يتحقق التوازن المطلوب، فملكات الإنسان تتواصل ولا تتفاصل، كما يقول طه حسين: «فليس من الحق في شيء أن الشعر خيال صرف، وليس من الحق في شيء أن الملكات الانسانية تستطيع أن تتمايز وتتنافر، فيمضي العقل في ناحية لينتج العلم أو الفلسفة ويمضي الخيال في ناحية لينتج الشعر، وإنما حياة الملكات الإنسانية الفردية كحياة الجماعة رهينة بالتعاون، ومضطرة إلى الفشل والإخفاق اذا لم يؤيد بعضها بعضا»(٢)والنقد صورة الأدب التحليلية، وعلى ذلك يصبح النقد عند طه حسين ذا اتجاهين، الأول يبحث في أدوات المبدع وثقافته ومحاكاته لغيره من المبدعين، وكيف شكل وصاغ هذا كله النص الادبي، والآخر تأثري ينفعل بهذا الروح الذي يسري في كل شعر وأدب، لم يأت من كلمة هناك أو تركيب هنا، وإنما هو روح عام وشامل يسري في جسد النص الأدبي فيملؤه حيوية وجمالا . . في الاتجاه الاول يستعين الناقد بثقافته

---

١ — من أدبنا المعاصر ص ٢١١، ٢١٢.

٢ — نفسه - ص ٢١٣.

وتراكم خبراته من تراث وغيره وفي الاتجاه الثاني يستقرىء الناقد أحواله ومقاماته ـ بالتعبير الصوفي ـ في لحظة النص الجمالية . . وهكذا يكون المطلب النقدي عنده هو نفس المطلب القديم جزالة اللغة ونصاعة الأسلوب ويكون موضع اللفظ أو نبوه عما كان يجب له أيضا نظرا نقديا في مثل قوله . . لولا نبوات اللفظ تعرض لك فتقلقك عن مواطن الرضا(١) .

وفي مثل قوله : كان ينبغي له من رصانة اللفظ والصورة جميعا(٢) وفي مثل : «يكون جزلا رصين القول رائع اللفظ والأسلوب) فطه حسين في الاتجاه الأول من نقده مشبع بالتراث، تتسرب الى نظراته النقدية الكثير من نظرات نقادنا القدماء وما مطلبه من التوسط بين الإغراب والابتذال مع المحافظة على هذه الألفاظ العائمة الغائمة ، من الجزالة والرصانة، إلا مطلب قديم للنقد العربي الموروث يلفتنا إلى أثر هذا الموروث في فكر طه حسين، ويدلنا أن مطالب التجديد عنده ليست مخاصمة للتراث أو انقطاعا منه وإنما هي مطالب طبيعية لرجل يعيش حاضره سلوكا فكريا، ويختزن ماضيه تراثا حضاريا، أما في الجانب الآخر، أو الاتجاه الثاني لنقد طه حسين : فنجده تأثريا جماليا حتى إننا نلمح في بعض آرائه آثارا من المنهج النفسي وإلماعات إلى المنهج الرمزي مع تحولات تتجاوز حدود الاتجاه السابق المشبع بحضور التراث يقول «طه حسين» في نقده لعزيز أباظة وعن حقه في اختيار مذهبه الفني «لاينبغي لأحد أن ينازعه في شيء من ذلك . . ولكن لغيره الحق الكامل كذلك في ان يذهبوا في الشعر المذاهب التي تلائم طبائعهم وأمزجتهم، أو الصورة الجديدة التي يجدون فيها صورة نفوسهم، لا غرابة في ذلك ولا خطر . . وإنما الشعر صدى للقلوب والنفوس والطبائع(٣) ونقف عند الجملة الاخيرة متذكرين قول طه حسين عن الأدب مرآة للمجتمع ولعلنا ننظر الآن في مرآة نفسية للأدب تعكس مشاعر وعواطف

---

١ — من أدبنا المعاصر مجلد ١٢ ـ ص ٢٨٤ .
٢ — مع المتنبي طبعة دار المعارف ص ٢٠٤ .
٣ — نفسه ص ٢٣٢ .

وأحاسيس وليس صورا وأحوالا ووقائع ويكـون النقد موجها إلى فقدان الجمال الفني لفقدان العاطفة لا لفقدان المرآة التي تعكس الأمة .

فالشعـر الجيد يمتـاز قبل كل شيء بأنه مرآة لما في نفس الشـاعر من عـاطفة ، مرآة تمثل هـذه العاطفة تمثيلا فطريـاً بريئا من التكلف ، وينبثق النقـد على شاكلة الشعـر : يقول طـه حسين في نقده لبعض مـراثي المتنبي . . ولكن هذه القصـائد وإن كانت لا تخلو من جيد الشعر وروائعه فليست هي خير ما قال المتنبي في الرثاء ومصدر ذلك فيما يظهر أن المتنبي قـال أكثرها أداء للواجب لا استجابـة للعاطفة ولا إعرابا عن الضمير فهـو قد لجأ فيها إلى فنه وعقله أكثر مما صـدر فيها عن قلبه وشعـوره (١) هذه الـرؤية الـرحبة للشعـر وإبداعـه تقف بطه حسين على النقـد التأثري ، فما دام الشعـر صدى ما في نفس الشـاعر فالجمال صدى هـذا الشعر في نفس الناقد ، يقول في كتابه مع المتنبي : أنا لا أقيس براعة الشاعر بقدرته على أن يفهمني ما أراد حقا وإنما أريد من الشاعـر البارع كما أريد من الموسيقي الماهر أن يفتح لي أبوابـا من الحس والشعور من التفكير والخيـال ، وكثيرة هي الأمثلة التي يمكن أن تدلل على اكتفاء طه حسين بنقل انطباعاته الخاصة باعتبارها تقويما نقديا كما في تعليقه على قصيدة للمتنبي في سيف الدولة قائلا : «أنت تقرأ القصيدة فإذا هذا الـروح يسبق ألفاظها ومعـانيها إلى قلبك ويشيع في نفسك خفة وطـربا»(٢) ويقول عن أخرى «وهي من القصائد النـادرة التي تحلو فيها روح الشاعر ويخف ظله على القارئين والسامعين»(٣) .

فطه حسين ذو المعركة الشهيرة في الشعر الجاهلي والتي ارتكز فيها على وجوب تضمن الشعر صورة حياة مجتمعه اللغوية والعقلية والدينية والاجتماعية عموما ، بما يعني ـ بتعبير آخـر ـ علاقة فـاعلة بين التاريخ والفن . طـه حسين الذي رفض الشعـر الجاهلي لغياب هـذه الفـاعلية يتـوسط في هـذه الحتمية حين يتعلق الأمـر بالنقد الأدبي لا بالتاريخ الأدبي ، فنجد مـوقفا يريد الفن خصائص وسمات ، ولا

١ ــ نفسه ص ٢٣٩ .
٢ ــ من حديث الشعر والنثر ـ حول القصيدة ص ٥٣١ .
٣ ــ من أدبنا المعاصر ص ٣٧٩ وما بعدها .

على هذا الفن ـ بعد ذلك ـ أن يصدقه التاريخ أو يكذبه، ومن هنا نتفهم قول طه حسين التالي: «. . وأؤكد كذلك أني حين أقرأ قول الشاعر القديم للرشيد:

وعلى عـــدوك يـــا بـن عـم محمـــد
رصـــدان ضـــوء الصبـح والإظـــلام
فـإذا تنبـــه رعتـــه، وإذا غفـــا
سلـت عليـــه سيـــوفـك الأحـــلام

لا أكاد أقف عند الرشيد، ولا عند إخافته للعدو. . وإنما الذي يعنيني قبل كل شيء هو أن هذا الشعر جيد يروع بما فيه من تصوير ما ينبغي أن يكون عليه الملك اليقظ الحازم الذي يحرص على رعاية الدولة ويحوطها. . وليس يعنيني أن يكون الرشيد كما وصفه الشاعر أو لم يكن وإنما الذي يعنيني هو هذا المثل الأعلى الذي رسمه الشاعر للذين يقومون على شئون الأمم. . ليس المهم أن يصدق الشعراء أو يكذبوا. . وإنما المهم أن يصدق الشعراء في تصوير المثل العليا فيما ينشئون من مدح أو ثناء ولعلنا نبصر في كلمات طه حسين معاني قدامة بن جعفر في قوله. . «الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقا، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائنا ما كان أن يجيده».

يتضح سياق هذا الموقف بصورة أوضح حين يعلن طه حسين رفضه لمن شعاره «الأدب للحياة» ويرى أن هذه عبارة «نابية» فيقول: «والذين يقولون ويكتبون هذه العبارة النابية ـ الأدب في سبيل الحياة ـ لايحققون نتائج ما يقولون ويكتبون. كلام يقال ولا يحصل شيئا. . » ولم يكن طه حسين أحادي النظرة أبدا، وقد أشرنا سابقا إلى انفساح أبعاد بصيرته ونفاذها فاستطاع بها أن يثري تحليله باتجاهات نقدية شديدة الحداثة في نقدنا العربي المعاصر، كما نلحظ أيضا رفضه لبعض هذه المناهج، وسيتضح لنا صحة الأخذ حين أخذ، وصواب الرفض حين رفض، وهو في أخذه إذ يومىء الى بعض المناهج أو يتكىء عليها إنما يفعل ذلك في إطار رؤيته الكلية، وليس مجرد استهواء او افتتان يفسد الامر كله. إن تحليل طه حسين المنهجي يتضوأ بتلقائية اكتنزتها ملكاته الأدبية

وأشربتهـا الكثير من روحه والكثير مـن رؤيته الخاصـة فنجـد في بعض تحليلاتـه التفسير الرمزي الذي لا يلوي الكلام أو ينحرف به ليصطنع دلالات رمزية وإنما هـو يعتمد السيـاق والنسق وإيماءات التركيب اللغـوي بمعنى آخر مجمل الحالـة الشعرية وهو في ذلك كله لايقسرك على تفسيره، ولا يفرض عليك تحليله، ففي أحد تحليلاته لقصائد المتنبي يقول: «وليس العشق في هذا الغناء إلا رمزا غامضا لمعنى غامض هو الذي يتغنى الشاعر به، دون أن يعرب عنه في أول الأمر، وإنما يتركه لك تفهم منه مـا تشاء، أو تفهم منه ما تستطيع»(١) وفي تعـرضه لقصيدة المتنبي التي مطلعها:

ليـالِيَّ بعـد الظـاعنين شُكـولُ
طـوالٌ، وليـلُ العـاشقين طـويلُ
يُـبِـنَّ لِيَ البـدرَ الـذي لا أريـدُهُ
ويخفين بـدراً مـا إليـه سبيـلُ
ومـا عشت مـن بعـد الأحبـة سلـوة
ولكنـنـي للنـائبـات حـمـول

يقول متكئا على فاعلية الغموض في إخراج الكلمة من ضيق الإشارة الى آفاق رحبة من الرمز: «... فهذه الليالي المتشابهة في الطول، المتشابهة في أنها تبدي له البدر الـذي لايريد وتخفي عليـه البدر الذي يهواه.. لم لاتكون رمـزا لهذه الحياة المتشابهة؟.. أحق أن هـذا البدر الذي تخفيه الليـالي على المتنبي هو صاحبتـه هذه التي يـزعم أنها ظعنت عنـه؟ لم لايكـون هـذا البـدر شيئـا آخـر غير هـذه الفتـاة الأعرابية التي تحميهـا الأسنة والرماح؟ لم لايكون البدر رمـزا لهذه الآمال النائية والتي أنفق مـا أنفق من حياتـه دون أن يبلغهـا أو يدنـو منها؟ (٢).. مثل هـذا الرفق في الاتكـاء على الدلالة الـرمزية نجده في صـور أخرى تشي باتجاه آخـر هو الاتجاه النفسي من غير قسر أو إسراف بل يـرد في مثل اللمحـة الخاطفـة كما في

---

٦٥ — نفسه.

٦٦ — نفسه.

حديثه عن البارودي وما في شخصيته من تعقيد بالنظر إلى أصوله، وعن أثر شخصيته القوية في شعره، وكذلك الأمر في حديثه عن أحمد شوقي فيما يتصل بأثر الاجناس في تكوينه وربما ترد بشيء من التفصيل المعتدل بل المتحرج أحيانا كما في حديثه عن المتنبي وتفسير أسلوب المبالغة في شعره، وصلة ترتيب قصائده بالجانب النفسي، ولا يكتفي طه حسين بإثراء منهجه النقدي بهذه الاتجاهات، بل يتعرض لمن يسرف في ترسمها واتباعها، من ذلك نقده للنويهي والعقاد في إسرافهما في الاتكاء على المنهج النفسي، مما قد يظنه المتعجل تناقضا في الرؤية أو ترددا في الرأي، ولكنه ـ كما أشرنا في مرات متعددة ـ ليس إلا التوسط الذي آمن به طه حسين في كل إسهاماته الفكرية والادبية . . .

ومن هنا نتفهم نقد «طه حسين» لذلك السرف الذي يجده في تطبيق المنهج النفسي في كتابي «النويهي» و «العقاد» عن أبي نواس ويكون العنوان الذي اختاره طه حسين لرفض ذلك السرف هو «إسراف» وهو يمهد لما يقصده بقوله : «وإنما أريد الإسراف في تقدير الأدب والحكم عليه وفي تقدير الأدباء والحكم عليهم . . وقد حفظنا منذ الصبا أن خير الامور أوساطها» ثم ينتقل إلى خطورة مجاوزة ماهية الادب، فيقول «الإسراف أشد ما يكون نكرا حين يمس الأدب ودراسته فيخرجه عن ملاءمة الذوق ويحول بينه وبين أخص ما يمتاز به من تحقيق المتعة الفنية للقلب والعقل جميعا ونكتفي بقوله موجها حديثه إلى «النويهي» : «فإذا أردنا أن ندرس حياة هؤلاء الشعراء فالخير كل الخير أن نحتاط ونتحفظ ونتجنب الجزم الذي يحتاج إلى استقصاء لا سبيل إليه» .

وبالمثل يكون توجهه بالنقد الى «العقاد» فيرى «طه حسين» أن كتاب «العقاد» لم يتكلف من الشطط ما تكلفه الدكتور «النويهي» ولم ينأ عن مذهب بعينه من مذاهب الدرس الأدبي وهو التماس الشاعر من شعره ولكن «طه حسين» لايرضى عن صور بعينها لإسراف العقاد «فيما يخص» «النرجسية» ونتائجها، ثم يشير إلى أن ذلك السرف لايتصل بالنقد الأدبي أو الدراسة الفنية فيقول بلباقة لاتخفى مقاصدها : «وبعد فأني أحمد للأستاذ العقاد تصريحه بأنه لم يقصد الى

النقد الأدبي بكتابه هذا، ولا إلى الدراسة الفنية لهذا الشاعر العظيم المظلوم».

يبدو مما سبق من اتجاهي النقد عند طه حسين، أن النقد لديه ممارسة ذوقية لها مقاييسها الادبية فيطفر التراث في نظره الموضوعي أحيانا، وتظهر المناهج الحديثة أو آثار منها في تذوقه الأدبي كثيرا، غير أن هذه الممارسة تأخذ اتجاها ثالثا ـ مع التساهل في تسميته اتجاها ـ يغلب القارىء فيه الناقد، ويعطل ممارسته، ويكتفي بالإعجاب أمام النص الأدبي، وربما كان هذا التداخل الوظيفي بين دور القارىء ودور الناقد هو الذي أدخل أمثال هذه الكلمات الغائمة ـ «الممتع» و «اللذة» و «الذوق» حتى ليصل الأمر أن تحل هذ الكلمات في تناول النص الادبي محل النظر النقدي الفاعل، كما في نقده لشروط القصة كما يراها «محمد فريد أبو حديد» فيقول بعد تناول هذه الشروط «إنما الأثر الادبي عندي هو هذا الذي ينتجه الكاتب أو الشاعر كما استطاع أن ينتجه.. وقد يخرجه شيئا آخر لا يستوفي هذه الشروط التي يريدها الأستاذ، وحسبنا منه أن ينتج ما نقرؤه فنجد في قراءته اللذة الفنية العليا التي يتركها الأثر الادبي الممتع في النفوس»(١) ويصل الأمر إلى حد إلغاء عمل الناقد فيقول: «وقد قرأت أخيرا القصة.. فلم أستطع أن أمضي في هذا النحو من القراءة المقيدة، ولم أستطع أن اكون رأيي على هذا النحو الذي أقل ما يوصف به أنه ضيق شديد الضيق.. ألست ترى أنك إن صنعت هذا الصنيع إنما تقرأ القصة بعقلك لا بقلبك ولا بذوقك.. وما هكذا أحب ان أقرأ الأدب، إنما أقرأ الأدب بقلبي وذوقي وبما أتيح لي من طبع يحب الجمال ويطمح إلى المثل العليا»(٢).

إن طه حسين الناقد يضم بين جوانجه قارئا كثيرا ما يلتبس بالناقد فنكون أمام نقد ثري لايسقط جافا يابسا في موضوعية ضيقة وإنما ينفتح على آفاق من الإحساس بالجمال تؤازر موضوعية النقد وتمد سوقه وأوراقه بما يلزمه من عناصر

١ ــ نفسه.

٢ ــ نفسه.

الحياة، وأحيانا يستقل الناقد بصوته فيطفر على السطح نظر تراثي اكتنزه طه حسين في ذاكرته الثقافية وفي أحيان أخرى يأبى القارىء إلا الانفراد بالمساحة النقدية فيغيب النقد تماما، ونكون أمام المتعة أو اللذة التي تضجر بالمقاييس الفنية والنظرات النقدية، وإنما تسبح في محيط العمل الادبي مستسلمة لتياره، كما يقول طه حسين نفسه: «... والكاتب المجيد عندي هو الذي لا أكاد أصحبه لحظات حتى ينسيني نفسي»(١).

وتستكمل رؤية طه حسين هذه القناعة التي آمن بها ومارسها بعنف باحثا وناقدا ومبدعا مما جلب له الكثير من الخصومات ونعني قناعته بضرورة أن تتوافر لهؤلاء جميعا الحرية الكاملة ومن ثم يأتي رأيه التالي والذي يطلق للأديب حريته في القول ولا عليه رضى الناس عنه أو سخطوا عليه فيقول: «وإنما الأديب حر أن يكتب ما يشاء ويكتب كيف شاء، والقراء أحرار يقرأون إن شاءوا ويعرضون إن أحبوا. ليس لهم على الأديب حق أن يكتب لهم ما يشاءون وليس للأديب عليهم حق أن يرضوا على ما يكتب» وتساند هذه الحرية الطبيعة الحرة للفن أصلا «والأصل في الفن حرية خالصة.. حرية في التعبير وطرائقه وما يبتكر فيه من الصور والمعاني، وإذا كان ثمة من قيود فإنها قيود يفرضها صاحب الفن على نفسه في مذاهب الأداء يلتزمها هو ولا يلزمه إياها أحد غيره» ومن هذه القناعة كانت دعوته إلى التجديد في الأوزان والقوافي، ونقده للشعراء الشباب الذين لم يستغلوا طاقات هذا التجديد فلم يستطيعوا تقديم ما يطمئن اليه في هذا السبيل، يقول طه حسين: «فليس على شبابنا من الشعراء بأس ـ فيما أرى ـ من أن يتحرروا من قيود الوزن والقافية إذا نافرت أمزجتهم وطبائعهم، لايطلب إليهم في هذه الحرية إلا أن يكونوا صادقين غير متكلفين فإذا أتيحت لأحدهم أو الكثير منهم هذه الحرية الخصبة المنتجة المبدعة كنا أحب الناس لشعره».

أخيرا نستطيع ان نضم كل هذه الأنسوجات السابقة في نسيج واحد، نسيج

---

١ ـ نفسه.

جدلي ينبني على مجموعة من الثنائيات خصيبة الجدل فيما بينها كالتراث والحداثة، والجبر والحرية، والمجتمع والجمال، والأدب والنقد، ويكون مفهوم التوسط هو نقطة الالتقاء الحميم التي تنعقد عندها لحمة فكر طه حسين بسداه لنكون أمام نسيج متماسك يعبر عن شخصية فذة كان لها دورها في عصرها كمرحلة انتقالية من الجمود السابق إلى ما ينعم به الأدب والنقد العربيين الآن من حرية في الإبداع، حرية في البحث والدرس، . حرية في النقد، . حرية في التواصل الفكري بين الثقافات المختلفة.

وبعد، فإن دراسة طه حسين يجب أن تعتمد أولا على شمول في التناول ودقة في النظر تماثل تعدد إسهاماته ورحابة رؤيته، آخذة إياه في سياقه التاريخي. وبريئة من الأحكام المتعجلة، غير متأثرة بموقف مسبق يجيئها من هنا أو هناك، فما أحرانا في بحثنا له ودراستنا إياه بتطبيق ما دعا اليه من وجوب تحرر الدارس من كل ما من شأنه أن ينحرف بدرسه حين قال: «يجب ألا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح».

الكتابة العلمية والمصطلح الفني

أ . د . إبراهيم السامرائي
أستاذ بقسم اللغة العربية ، جامعة صنعاء

لابد لنا ونحن نواجه مشكلة الكتابة العلمية بالعربية ، أن نرجع قليلاً إلى الوراء لنقف على بداية هذا الأمر . وليس بنا حاجة إلى ان نعرض للعرب في الجاهلية وما كان منهم في تجربة الكتابة بالعربية ، ذلك ان ما نعرفه عن تلك الأحقاب قليل جدا . وأن ما ذكر من ان ورقة بن نوفل كان قد كتب العربية بالقلم العبراني ، او بالحرف النبطي ، لم يكن شيئا ذا قيمة تاريخية فيما يتصل بمسألة الكتابة العلمية التي نواجهها .

غير ان هذه المسألة كانت موضع بحث وتفكير لما قامت الدولة الإسلامية بعد ظهور الإسلام . وقد ارتبط هذا الامر ، حين قام الإسلام وتغيرت بنية المجتمع العربي ، بمسألة من يعرف الكتابة ولم يكن من يعرف الكتابة في فجر الإسلام سوى بضعة نفر من كبار الرجال فيهم علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وطلحة وعثمان وابوسفيان وبضعة آخرين .

وكان علي وعثمان وزيد بن ثابت وعبدالله بن الأرقم ممن كتبوا للنبي ﴿ﷺ﴾ . لقد كتب هؤلاء ما كان يأتي للنبي من الوحي ، كما كتبوا له رسائله الى الملوك يدعوهم للإسلام . وقد كتب عثمان بن عفان لأبي بكر رسائله وكتبه الى عماله والى قواده إبان الفتح . كما قام زيد بن ثابت بالكتابة لعمر ، ثم شغل هذه المهمة نفر آخر . ومن هنا صارت الكتابة مهمة من مهام الدولة الإسلامية ولاسيما بعد أن دُوِّنت الدواوين . وقد وجد عمر ان الحاجة تقضي أن يعين كاتب في كل ولاية يتولى الديوان فيها .

وقد كان الكاتب الديواني يتولى امر الجند وما يلزم من الاعطيات وغيرها ،

كما يشرف على شؤون المال، ويتولى أمر المراسل.

وقد اقتضى الامر في عصر بني أمية ضربا من الاختصاص، فكانت الحاجة الى ان يكون لكل مرفق من المرافق كاتب خاص، فواحد يتولى المراسلة وخطاب الرؤساء والقواد والملوك، وآخر يتولى شؤون الجند وما يتصل بطبقات الأجناد وضبط أسمائهم وما يستحقون من أعطيات. وقد اقتضت موارد الدولة ان يكون كاتب للخراج يضبط شؤون الدخل والخرج، وان يكون للشرطة كاتب خاص كما اقتضت شؤون القضاء ان يتولاها كاتب خاص بين يدي القاضي.

وهكذا كانت دواوين عدة هي: ديوان الانشاء، وديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان الشرطة، وديوان القضاء.

أقول: وانصراف صاحب الديوان، ولا سيما كاتبه الى مهمته الكتابية كان التجربة الاولى في معاناة ما استطيع ان ادعوه «الكتابة العلمية» ذلك ان كل مرفق من هذه المرافق المتخصصة محتاج الى نوع خاص من «الكتابة» ليس لي إلا ان ادعوه بخصوصيته العلمية.

أقول: من هنا كانت معاناة الكتابة، وهي ممتحنة بما يقتضي الامر في إثبات «المصطلح الفني التاريخي» في كل مرفق من هذه المرافق التي اقتضتها الحضارة.

وإذا عدنا الى الجانب العلمي، وهو غير ما عرضت له في شؤون الحياة الجديدة التي اقتضتها الحضارة، وجدنا «القرآن» وما اقتضى جمعه وتدوينه، حتى اذا انتهى هذا الغرض أقبل عليه الدارسون في آخر القرن الاول الهجري وطوال القرن الثاني، فكانت «علوم القرآن» وقد استمرت هذه الحركة الدائبة طوال القرن الثالث الهجري.

إن «علوم القرآن» كانت من أوائل التجارب العلمية في بدء حركة «الكتابة العلمية»، ذلك أنها كانت النواة الاولى التي امتحت فيها العربية في مضمار «الكتابة العلمية». لقد حفل هذا الجانب من العلم بطائفة من المصطلح العلمي الذي استفيد من القرآن نفسه، ومما اجتهد فيه أهل العلم. ان هذا يدخل في

الباب الواسع الذي أدعوه بألفاظ القرآن ويدخل فيه «المشكل» و «الغريب» ونحو هذا. وقد ألف في هذا العلماء فكانت كتب «المشكل» و «الغريب» وكل داخل في باب «الالفاظ الاسلامية»، ولعل كتاب «الزينة» لأبي حاتم الرازي هو النموذج الجميل في باب هذا النوع من «الكتابة»، فقد تصدى لاوائل اللفظ التي خرجت عن الاصوات اللغوية خروج «مصطلح» لا خروج «مجاز».

وكأن أبا عبيدة معمر بن المثنى قد أدخل جماع هذا الجديد في لغة التنزيل في باب «مجاز القرآن» الذي صنفه، غير محكوم بما دُعي بعد بزمان بـ «علوم البلاغة».

لقد كانت لغة التنزيل حافزا الى ان يباشر فيها نوع من الكتابة العلمية المتخصصة فكانت «معاني القرآن» وهي ضرب من التصنيف الفني، ثم كانت مسألة الاعجاز التي انتهت الى «البلاغة والبيان». . وانت تقف من العربية في أصناف هذه المواد العلمية على لغة لبَّت حاجة العلم ووفرت «المصطلح»، ودخلت في ثنايا العلوم الدقيقة.

واذا تجاوزت هذا الى العلم اللغوي وما يخرج عنه من نحو وصرف واشتقاق، وجدت العربية لغة متسامية وفت بالكثير من متطلبات هذه العلوم. وحسبك أن تعرف انها حققت الكثير مما يصبو إليه اهل الاختصاص، ألا ترى مثلا ان المعجم الصوتي واحتواءه على أجزاء من هذا العلم في تصنيف الأصوات، وإدراك مخارجها وأحيائها، ومعرفة صفاتها، وادراك العلاقة بين الصوت والآخر، كل ذلك قد ألف معجما متخصصا في «علم الاصوات» وان صاحب الدرس الحديث في الأصوات (La Phonetique) يجد حاجته في المصطلحات القديمة التي نجدها في علم الخليل وسيبويه والمبرد وابن جني وغيرهم. ولعلك تعجب اذا علمت انك واجد في علم هؤلاء شيئا يدخل في باب «علم وظائف الاصوات» (La Phonelogie) ولنا ان نجيل الطرف في علم الحديث الشريف، أو قل «علوم الحديث» لنعلم لِمَ عد المسلمون «الحديث» وما يتصل به من علم

و «مصطلح» من اجلّ علوم الإسلام .

لقد حرص المسلمون على «الحديث» الشريف رواية ودراية وأحاطوه بعدة صالحة وافية من أسباب العلم نقدا وتمحيصا فخلص من بعد هذا ثمرات طيبة .

ان «الحديث» يرادف «السنة» التي تضاف الى الرسول الكريم من قول أو فعل ، وقد أطلق «الاصوليون» السنة على كل ما صدر عن النبي ﴿ﷺ﴾ من قول أو فعل أو تقرير مما يصلح ان يكون دليلا لحكم شرعي .

ويؤدي «الحديث» شرح ما اجمل من قواعد كلية وردت في القرآن ، وهذه القواعد الكلية تتصل بأمهات المسائل ثم تتفرغ عنها جزئياتها .

قلت : ان علم الحديث قسمان : علم الحديث رواية وعلم الحديث دراية .

فأما ما كان رواية فالطريق فيه هو السند ، واحوال السند والمتن من صحة وحسن وضعت وعلو ونزول ورفع ووقف وقطع ، وكيفية التحمل والأداء وصفات الرجال وغير ذلك ، وهذا مما يدخل في علم «مصطلح الحديث» وعلم «أصول الحديث» .

وأما «الدراية» في الحديث فتعني معرفته والوصول الى ضبطه بالكتابة والتدوين .

ومن هنا نشأ لدى المحدثين ما سُمِّي «الجرح والتعديل» . ان «الجرح» يقابل النقد الصارم للراوي وللمتن ، والوصول بهما الى الصدق والثقة ، والمراد بـ «التعديل» الحكم على عدالة الراوي وحسن خلقه واعتقاده واستقامته .

ومن هنا كان للحديث درجات ، فباعتبار عدد رواته ينقسم الى قسمين هما :

١ — متواتر .

٢ — آحاد .

وباعتبار القبول والرد ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ — صحيح .

٢ — حسن .

٣ — ضعيف .

والحديث المتواتر هو قطعي الثبوت ذلك انه روي مسلسلا بالتواتر ، وليس في سلسلة رواته رجل مجروح ، وكلهم ثقات .

ولا أريد ان افيض في الكلام على الحديث وطرائق ضبطه ، ولكني اقول ان المسلمين انتهوا فيه الى الضبط الوافي فكان منه «مسانيد» مضبوط ومجاميع «صحاح» ، وهي معروفة مشهورة للمشتغلين بهذا العلم .

أقول : وهذه العناية بالحديث التي انتهت الى قواعد واصول في تحريه وضبطه ونقده ، وكان من ذلك كما اشرت «الجرح والتعديل» قد أثرت في ميلاد علوم اخرى عند العرب وهو «علم التاريخ» ألا ترى ان المشاهير من المؤرخين قد كانوا محدّثين قبل كونهم مؤرخين ، وانهم افادوا مما كان لهم من هذه الثقافة العلمية في كتابة الخبر التأريخي . ان الامام الطبري والبخاري وغيرهما كثير من جملة المؤرخين الثقات الذين انتقلوا بزادهم في الحديث الى علم التاريخ .

ومن هنا فلنا ان نقرر ان علم التاريخ لدى المسلمين ، وان «الكتابة العلمية التاريخية» من ثمار علوم الحديث ، وان اتقان طائفة من المؤرخين لعلوم الحديث وانشغالهم فيها قد كانا سببا في براعتهم في علوم التاريخ والكتابة التاريخية . وليس لنا ان نذهب في الوهم تقليدا ، كما يفعل المؤرخون الذين تأثروا بكتابات المستشرقين ، فنزعم ان ما يدعى (Historicite) لدى المسلمين كان هؤلاء قد أفادوه فيما أفادوا من التراث الاغريقي .

وكان من أثر هذا الانجاز العلمي ان اصبح الكثير من الثقافة العربية خاضعا للضبط العلمي في الرواية الصحيحة . لقد ذهب علماء اللغة في تحريهم للصواب الى شيء من القواعد الصارمة التي اتبعت في نقل الحديث وكان شيء من هذا قد

اتبع في اخذ سائر الاخبار الادبية والتاريخية.

وقد لايكون عجبا ان نقرأ في «المثل السائر» لابن الاثير مثلا انه قال فيما قال في طريقته في «الكتابة الفنية» شيئا سبق فيه ما هو معروف لدى الباحثين في عصرنا واستخدامهم الجزازات وتصنيفها وجمعها ثم نقدها ثم الافادة منها في بسط المادة لتي يتصدون لها.

ومن عجب ان نرى جمهرة من المصنفين في عصرنا قد تباروا في كتابة رسائل موسومة بقولهم: «كيف تكتب بحثا او رسالة». ان هؤلاء قد اوحوا الى قرائهم ان كتابةالبحث العلمي او تحرير الرسالة شيء أفدناه من الغرب(١).

ونظير هذا ما يحرره الباحثون العرب في «علم التوثيق والفهرسة» وذهابهم الى ما اسموه النقد الداخلي والنقد الخارجي. ولم يهتد هؤلاء، لعزوفهم عن التراث، الى ان علماء المسلمين ادركوا هذا على نحو جيد منذ عدة قرون. ان «الجرح والتعديل» الذي خرج به علماء الحديث هو أساس هذا الذي يلغط به المعاصرون على انه منهج حديث في «التوثيق».

وأعود الى تجربة الكتابة العلمية بالعربية في العصور التاريخية. لقد اقبل المسلمون بعد انشغالهم بعلوم القرآن والحديث وسائر علوم العربية، على «العلوم الدخيلة» وهي تلك العلوم التي وجدوها لدى العرب النصارى وغيرهم من الآراميين والسريان في البلاد المفتوحة، وهي علوم الاغريق

١ — إن السعي وراء الغربيين يدخل في باب «التغريب» الذي ساد على ثقافتنا المعاصرة، ذلك أن الكثير من المؤلفين قد هرعوا لكل صيحة تصل الينا من الغرب، أقول: انها صيحة أو صرخة تصك أسماعنا فنهرع لها ونحسبها علما استقر له أصوله وقواعده». وقد تأتينا هذه المستحدثات بعد أن تكون قد زالت وأفل نجمها في الغرب. وما كان لهذا المولد الجديد ان يدخل أروقة الدرس الجاد في الجامعات في الغرب. لقد ظل الغربيون محتفظين بثوابت لايمكن ان تزيلها هذه النظرات الجديدة على ما فيها من فكر جيد، ولكنه موضع نظر، وانه اجتهاد.

ومن ترحيبنا بالجديد الوافد من الغرب رحنا نتلمس شيئا يناظره في تراثنا، حتى اذا خُيِّل إلينا، ونحن واهمون، ان «النظم» لدى الجرجاني شيء يناظر النحو التوليدي لدى الخواجا تشومسكي رحنا نكبر الجرجاني، وكأنه خلق الساعة، وذلك لأن ما ذكره في «النظم» الذي يخدم النحو العربي قد وافق قول «تشكومسكي» وان في هذا شيء من «بنيوية» متوهمة! !ومثل هذا ما كان منا من اكبار جديد لابن خلدون، ورحنا نكتب في «مقدمته» وفلسفته في «علم التاريخ» وما كان ذلك منا إلا بعد ان نبهنا اليه الغربيون فقال الاستاذ «دوركهايم» عالم الاجتماع الفرنسي: ان ابن خلدون سبق الغربيين في تفسير التاريخ، وفي بحثه في «العمران البشري».

والرومان والفرس والهنود. لقد أقبل المسلمون على هذه العلوم مدفوعين بما جاء في الاثر.

«الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها ممن سمعها، ولا يبالي في أي وقت خرجت».

وقوله أيضا ﴿ﷺ﴾ :ـ

«خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين»(١)

و «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

و «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».

و «اطلبوا العلم ولو بالصين»(٢).

● ومن المفيد ان نشير الى ان أول من اهتم بهذه العلوم، هو النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي، وهو ابن خالة النبي ﴿ﷺ﴾ وكان قد رحل إلى بلاد فارس وغيرها كأبيه الحارث الطبيب الشهير في عصر النبي ﴿ﷺ﴾.

واجتمع بالعلماء، وعاشر الاحبار والرهبان، وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة، واطلع على علوم الفلسفة واجزاء الحكمة، وتعلم من أبيه صناعة الطب، وكان يجاري أبا سفيان في عداوة النبي ﴿ﷺ﴾ لانه ثقفي، وكان بنو ثقيف حلفاء بني أمية. فكان النضر كثير الاذى للنبي ﴿ﷺ﴾. (٣)

على ان هذ الذي اخذه النضر من العلوم القديمة لم ينقل الى العربية كما تشير المصادر. غير ان خالد بن يزيد المتوفي سنة ٨٥ هـ، حفيد معاوية الاكبر، كان اول من اشتغل في نقل العلوم، وكان يُسمَّى حكيم آل مروان. وقد انصرف خالد الى العلوم بعد ان يئس من الفوز بالخلافة.

وكانت صناعة الكيمياء رائجة في مدرسة الاسكندرية، فاستقدم جماعة من

---

١ — العقد الفريد ١/ ١٦٠.

٢ — كشف الظنون ١/ ٣٩، ٤٣.

٣ — طبقات الأطباء ١/ ١٢٣

العلماء ومنهم راهب رومي اسمه مريانوس، وطلب اليه ان يعلمه صناعة الكيمياء، فلما تعلمها أمر بنقلها الى العربية، فنقلها رجل اسمه اصطفان القديم(١) وهذا اول نقل في الإسلام من لغة الى اخرى.

ثم خلف من بعده في نقل الكيمياء «ماسرجويه» أو ما سرجيس لكنّاش اهرون من السرياني الى العربي، وهو ثلاثون مقالة زاد عليها ماسرجويه مقالتين(٢).

ثم زاد النقل في الخلافة العباسية، وقد اهتم المنصور بهذه الحركة فنقلت علوم الطب والنجوم وغيرها، ثم فشت حركة الترجمة في علوم عدة، وفي الفلسفة والمنطق والاعتقادات القديمة في عصر كل من الخلفاء، المهدي والرشيد والمأمون.

قال ابن النديم: «ان المأمون رأى في منامه ارسطو طاليس الحكيم وسأله بعض الاسئلة، فلما نهض من منامه طلب ترجمة كتابه، فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في إنفاذ ما يختار من كتب العلوم القديمة المدخرة ببلد الروم، فأجابه الى ذلك بعد امتناع. فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل»(٣).

واشتهر من النقلة:

١ — آل بختيشوع، من السريان النساطرة، وأولهم جورجيس بن بختيشوع، طبيب المنصور، وخلفه ابنه بختيشوع بن جورجيس وقد استقدمه الرشيد من جنديسابور كما استقدم المنصور أباه.

٢ — آل حنين: وأولهم حنين بن اسحاق العبادي «شيخ المترجمين» من

---

١ — الفهرست لابن النديم ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤.

٢ — طبقات الاطباء ١/ ١٠٩ «عن تاريخ التمدن الاسلامي ٣/ ١٥٤» ط. دار الهلال.

٣ — الفهرست ص ٢٤٣.

نصارى الحيرة، وكان من المشتغلين بالطب في القرن الثالث الهجري في بغداد، وكان فيها يوحنا بن ما سويه ممن درس في جنديسابور، وكان بينهما لقاءات واجتماعات.

وكان لحنين ولدان هما داوود واسحاق، وقد صنف لهما كتبا طبية في المبادىء والتعليم، ونقل لهما كتبا كثيرة من مؤلفات جالينوس، فأفلح اسحاق وتميز، واشتغل في الترجمة مثل أبيه من اليونانية الى العربية.

٣ — وحبيش الاعسم الدمشقي ، ابن اخت حنين بن اسحاق، وقد سلك مسلكه في الترجمة.

٤ — وقسطا بن لوقا البعلبكي، من نصارى الشام، فيلسوف وطبيب، رحل الى بلاد الروم، وكان عالما باللغات اليونانية والسريانية والعربية. وقد نقل عدة كتب من اليونانية الى العربية.

٥ — آل ماسرجويه، أولهم ماسرجويه متطبب البصرة، وهو يهودي المذهب، سرياني اللغة، وقد نقل الكتب من السرياني الى العربي، ثم ابنه عيسى بن ماسرجويه.

٦ — آل الكرخي، وأولهم شهدي من اهل الكرخ، وقد نقل هو وابنه الكتب من السرياني الى العربي.

٧ — آل ثابت، وأولهم ثابت بن قره الحراني، من صابئة حران، وكان صيرفيا، ثم تعلم الطب والفلسفة والنجوم، وكان يتقن السريانية فنقل منها الى العربية كتبا عدة.

وله تصانيف في الرياضيات والطب والمنطق، وكان ممن حظي لدى الخليفة المعتضد العباسي.

وكان كذلك ابنه سنان بن ثابت، ويليه ابنه ثابت بن سنان، ولكنهما لم ينقلا شيئا.

ومن النقلة أيضا الحجاج بن مطر الذي نقل كتاب المجسطي واقليدس الى العربية. وابن ناعمة الحمصي، واصطفان بن باسيل، وموسى بن خالد ويعرف بالترجمان، وسرجيس الراس عيني، ويوحنا بن يختيشوع، والبطريق، ويحيى بن البطريق، وكان في خدمة الحسن بوسهل، وابوعثمان الدمشقي، وابوبشر متى بن يونس، ويحيى بن عدي.

ومن النقلة من الفارسية الى العربية ابن المقفع وآل نوبخت وغيرهم(١).

ولنا ان نورد هنا الكتب المنقولة عن اليونانية.

واكثرها في الفلسفة والطب والرياضيات والنجوم وفروع العلم الطبيعي.

كتب الفلسفة والادب:

كتب أفلاطون

١ — كتاب السياسة	نقله حنين بن اسحاق
٢ — كتاب المناسبات	نقله يحيى بن عدي
٣ — كتاب النواميس	نقله حنين ويحيى
٤ — كتاب طيماوس	نقله ابن البطريق واسحاق بن حنين
٥ — أفلاطن الى أقرطن	نقله يحيى بن عدي

قال جرجي زيدان في «تاريخ التمدن» ٣ / ١٧٠ :

لم أجد لأبي زكريا يحيى بن عدي المعروف بالمنطيقي التكريتي المتوفي ٣٦٣/ ٩٨٢/ أو ٣٦٤ كتابا بهذا الاسم. انظر قائمة كتبه ومترجماته عند بروكلمان: تاريخ الآداب العربية ملحق ١/ ٣٧٠. وانظر عنه: ابن القنطي ٣٦١، والبيهقي: التتمة ص ٩٠، وابن العبري: مختصر تاريخ الدول ص ٢٩٧ وانظر:

Meyerhof, Von Alexandria nach Baghdad P.36 tn, 8

١ — مأخوذ من «تاريخ التمدن الإسلامي» ٣/ ١٦٠ ـ ١٧٠.

G. Gard Die Christlische Arabische Litratur, 46 - 51.

وانظر الفهرست لابن النديم «القاهرة ١٣٤٨» ص ٣٦٩ .

٦ — كتاب التوحيد

٧ — كتاب الحس واللذة

٨ — كتاب أصول الهندسة نقله قسطا بن لوقا

كتب أرسطوطاليس

١ — قاطيغورياس، أي المقولات	نقله حنين بن اسحاق .
٢ — كتاب العبارة .	نقله حنين الى السريانية واسحاق الى العربية .
٣ — تحليل القياس	نقله تيادورس وأصلحه حنين .
٤ — كتاب البرهان	نقله اسحاق إلى السرياني، ومتّى الى العـربي .
٥ — كتاب الجدل	نقله اسحاق الى السرياني، ويحيى الى العربي .
٦ — كتاب المغالطات او الحكمة المموهة	نقله ابن ناعمة وأبو بشر الى السرياني، ويحيى الى العربي .
٧ — كتاب الخطابة	نقله اسحاق وابراهيم بن عبدالله .
٨ — كتاب الشعر	نقله أبوبشر من السرياني الى العربي .
٩ — كتاب السماع الطبيعي	نقله أبوروح الصابي وحنين ويحيى وقسطا وابن ناعمة .
١٠ — كتاب السماء والعالم	نقله ابن البطريق وأصلحه حنين .
١١ — كتاب الكون والفساد	نقله حنين الى السرياني واسحاق الدمشقي الى العربي .
١٢ — كتاب الآثار العلوية	نقله أبوبشر ويحيى .
١٣ — كتاب النفس	نقله حنين الى السرياني واسحاق الى العربي .
١٤ — كتاب الحس والمحسوس	نقله أبوبشر متّى بن يونس .
١٥ — كتا ب الحيوان	نقله ابن البطريق .
١٦ — كتاب الحروف والالهيات	نقله اسحاق ويحيى وحنين ومتّى .
١٧ — كتاب الاخلاق	نقله اسحاق .
١٨ — كتاب المرآة	نقله الحجاج بن مطر
١٩ — كتاب أثولوجيا	نقله الحجاج بن مطر

وقد وصلت الينا كتب هي شروح لكتب أرسطو قام بها تلامذته . . وكلها في الفلسفة وفروعها . وقد نقل كثير منها الى العربية ، ولم يعلم ناقلوها .

وقد ذكر لجالينوس كتب في الطب واخرى في الفلسفة والادب ، وهي «كتاب

ما يعتقده رأيا» ترجمة ثابت .
و«كتاب تعريف المرء عيوب نفسه» وقد نقله توما وأصلحه حنين .
وكتاب «الاخلاق» وقد نقله حبيش .
و كتاب «انتفاع الاخيار بأعدائهم» نقله حبيش .
وكتاب «المحرك الاول الذي لا يتحرك» نقله حبيش وعيسى .

كتب الطب

كتب أبقراط

١ — كتاب عهد أبقراط	نقله حنين الى السريانية وحبيش وعيسى الى العربية .
٢ — كتاب الفصول	نقله حنين لمحمد بن موسى .
٣ — كتاب الكسر	نقله حنين لمحمد بن موسى .
٤ — كتاب تقدمة المعرفة	نقله حنين وعيسى بن يحيى .
٥ — كتاب الأمراض الحادة	نقله عيسى بن يحيى .
٦ — كتاب أبيذيميا	نقله عيسى بن يحيى .
٧ — كتاب الأخلاط	نقله عيسى بن يحيى لأحمد بن موسى .
٨ — كتاب قاطيطيون	نقله حنين لمحمد بن موسى .
٩ — كتاب الماء والهواء	نقله حنبين وحبيش .
١٠ — كتاب طبيعة الانسان	نقله حنين وعيسى .

كتب جالينوس

جاء في «تاريخ التمدن الإسلامي» ٣/ ١٧٣

وأشهر كتب جالينوس الستة عشر ، وهي : كتاب الفرق ، الصناعة ، كتاب النبض ، شفاء الامراض ، المقالات الخمس ، الاسطقصات ، كتاب المزاج ، القوى الطبيعية ، العلل والامراض ، تعرف العلل الباطنة ، كتاب النبض الكبير ، كتاب الحميات ، كتاب البحران ، أيام البحران ، تدبير الاصحاء ، حيلة البرء .

وقد نقلها كلها حنين بن اسحاق الى العربيـة إلا كتاب العلل الباطنة ، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب تدبير الاصحاء ، وكتاب حيلة البرء ، فقد نقلها حبيش .

كتب جالينوس الاخرى

١ — التشريح الكبير	نقله حبيش الأعسم
٢ — اختلاف التشريح	نقله حبيش الأعسم
٣ — تشريح الحيوان الحي	نقله حبيش الأعسم
٤ — تشريح الحيوان الميت	نقله حبيش الأعسم
٥ — علم أبقراط بالتشريح	نقله حبيش الأعسم
٦ — الحاجة الى النبض	نقله حبيش الأعسم
٧ — علوم أرسطو	نقله حبيش الأعسم
٨ — تشريح الرحم	نقله حبيش الأعسم
٩ — آراء أبقراط وأفلاطون	نقله حبيش الأعسم
١٠ — العادات	نقله حبيش الأعسم
١١ — خصب البدن	نقله حبيش الأعسم
١٢ — المني	نقله حبيش الأعسم
١٣ — منافع الاعضاء	نقله حبيش الأعسم
١٤ — تركيب الادوية	نقله حبيش الأعسم
١٥ — الرياضة بالكرة الصغيرة	نقله حبيش الأعسم
١٦ — الرياضة بالكرة الكبيرة	نقله حبيش الأعسم
١٧ — الحث على تعلم الطب	نقله حبيش الأعسم
١٨ — قوى النفس ومزاج البدن	نقله حبيش الأعسم
١٩ — حركات الصدر	نقله أصطفان وأصلحه حنين
٢٠ — علل النفس	نقله أصطفان وأصلحه حنين
٢١ — حركة العضل	نقله أصطفان وأصلحه حنين
٢٢ — الحاجة الى النفس	نقله أصطفان وأصلحه حنين
٢٣ — الامتلاء	نقله أصطفان وأصلحه حنين
٢٤ — المرّة والسوداء	نقله أصطفان وأصلحه حنين
٢٥ — الحركات المجهولة	نقله حنين
٢٦ — علل الصوت	نقله حنين
٢٧ — أفضل الهيئات	نقله حنين
٢٨ — سوء المزاج المختلف	نقله حنين

٢٩ — الادوية المفردة	نقله حنين
٣٠ — المولود لسبعة أشهر	نقله حنين
٣١ — رداءة النفس	نقله حنين
٣٢ — الذبول	نقله حنين
٣٣ — قوى الاغذية	نقله حنين
٣٤ — التدبير الملطف	نقله حنين
٣٥ — مداواة الامراض	نقله حنين
٣٦ — أبقراط والامراض الحادة	نقله حنين
٣٧ — الى تراسو بولوس	نقله حنين
٣٨ — الطبيب والفيلسوف	نقله حنين
٣٩ — كتب أبقراط الصحية	نقله حنين
٤٠ — محنة الطبيب	نقله حنين
٤١ — أفلاطون في طيماوس	نقله حنين واسحاق
٤٢ — تقدمة المعرفة	نقله عيسى
٤٣ — الفصد	نقله عيسى واصطفان
٤٤ — صفات لصبي يصرخ	نقله ابن الصلت
٤٥ — الأورام	نقله ابن الصلت
٤٦ — الكيموس	نقله ثابت وحبيش
٤٧ — الأدوية والأدواء	نقله عيسى
٤٨ — الترياق	نقله ابن البطريق

وجاء في «الفهرست» من كتب الطب بضعة وعشرون كتابا لمؤلفين اغريق، ولم يذكر ناقليها.

وقد ذكر ابن النديم بعض الناقلين منهم اصطفان بن باسيل الذي نقل كتاب الادوية لأوريباسيوس، وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية وكتاب الى ابنه اسطات نقله حنين، وكتاب لأبيه أرنافيس نقله حنين.

ولدسقوريد العين زربي ـ ويقال له السائح في البلاد لسياحته في طلب العقاقير والحشائش ـ كتاب في الحشائش.

ولأسكندروس كتاب «البرسام» نقله الى العربية ابن البطريق.

كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم:

وهذه تشتمل على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكيات وهي:

١ — كتب إقليدس: منها «أصول الهندسة» نقله الحجاج بن مطر نقلين:

قال ابن النديم في «الفهرست» (ص ٣٧١) في الكلام على «أصول الهندسة» واسمه «الاسطروشيا» ومعناه اصول الهندسة، نقله الحجاج بن يوسف بن مطر نقلين «أي ترجمه مرتين» احدهما يعرف بالهاروني، وهو الأول، ونقلا ثانيا يعرف بالمأموني وعليه يعوّل.

أقول وكأن الهاروني قد ترجم بطلب من هارون الرشيد، والمأموني بطلب من المأمون وقد جرت عادة المصنفين تسمية تصانيفهم باسم من يُهدى اليهم من الخلفاء والرؤساء:

ونقل الكتاب نفسه اسحاق بن حنين وأصلحه ثابت بن قرَّة.

ونقل أبوعثمان الدمشقي من هذا الكتاب مقالات، قال ابن النديم: «رأيتمنه العاشرة بالموصل في خزانة علي بن احمد العمراني..

وقال: ومن كتب اقليدس: كتاب الظاهرات، وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب المعطيات، وكتاب النغم، ويعرف بالموسيقى «وهو» منحول، وكتاب القسمة إصلاح ثابت بن قرّة، وكتاب الفوائد «وهو» منحول، وكتاب القانون، وكتاب الثقل والخفة، وكتاب التركيب، «وهو» منحول، وكتاب التحليل «وهو» منحول «الفهرست» (ص ٣٧٢).

٢ — كتب ارخميدس، وهي عشرة لم يعرف ناقلوها «الفهرست ص ٣٧٢».

٣ — كتب ابلونيوس وهي كتاب المخروطات، وكتاب قطع السطوح، وكتاب قطع الخطوط، والنسبة المحدودة، والدوائر المماسة، ولم يعرف ناقلوها «الفهرست ص ٣٧٣».

٤ — منالاوس : له كتاب الأشكال الكروية، وكتاب أصول الهندسه نقله الى العربية ثابت بن قرّة. (الفهرست ص ٣٧٤)

٥ — بطليموس القلوذي : صاحب كتاب المجسطي الشهير، نقله يحيى البرمكي وبطليموس أيضا كتاب الاربعة، نقله ابراهيم بن الصلت. وأصلحه حنين، وكتاب جغرافيا المعمور، وصفة الارض، نقله ثابت إلى العربية، ولبطليموس ١٥ كتابا في الجغرافية وغيرها لم يعرف ناقلوها (الفهرست ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥).

٦ — أبرخس : له كتاب صناعة الجبر، ويعرف بـ «الحدود» وكتاب قسمة الاعداد، لم يعرف ناقلها (الفهرست ص ٣٧٥).

٧ — ذيوفنطس : له كتاب صناعة الجبر، لم يعرف ناقله.

وفي «الفهرست لابن النديم كتب اخرى في الرياضيات والهيئة والازياج ونحوها، ولم يذكر ناقليها منها».

كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح لأبيون البطريق، وكتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس، وكتاب العمل بذات الخلق، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير، وكتاب العمل بالاسطرلاب وكلها لثاون الاسكندري.

أقول : وفي «الفهرست» لابن النديم كتب اخرى في الرياضيات والفلسفة والموسيقى والآلات المصوتة كالأرغن وغيرها لمؤلفين من الاغريق، ولم يعرف ناقلوها.

الكتب المنقولة عن الفارسية

قال جرجي زيدان في «تاريخ التمدن» ٣/ ١٧٦.

اكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبيل الآداب والاخبار والسير والاشعار، وبعضها في النجوم مما نقله آل نوبخت وعلي بن زياد التميمي وغيرهم. أما ما بقى من كتبهم المنقولة الى العربية فهي مع أسماء ناقليها:

١ — كتاب رستم واسفنديار	نقله جبلة بن سالم
٢ — كتاب بهرام شوس	نقله جبلة بن سالم
٣ — كتاب خداي نامه في السير	نقله عبدالله بن المقفع
٤ — كتاب آيين نامة	نقله عبدالله بن المقفع
٥ — كتاب كليلة ودمنة	نقله عبدالله بن المقفع
٦ — كتاب مزدك	نقله عبدالله بن المقفع
٧ — كتاب التاج في سيرة أنوشروان	نقله عبدالله بن المقفع
٨ — كتاب الآداب الكبير	نقله عبدالله بن المقفع
٩ — كتاب الآداب الصغير	نقله عبدالله بن المقفع
١٠ — كتاب اليتيمة	نقله عبدالله بن المقفع
١١ — كتاب هزار أقسانة	لم يذكر ناقله

أقول: قالوا: «ان هذا الكتاب أصل لكتاب ألف ليلة وليلة».

١٢ — كتاب شهريزاد مع أبرويز	لم يذكر ناقله
١٣ — كتاب الكارنامج أنوشروان	لم يذكر ناقله
١٤ — كتاب دارا والصنم الذهب	لم يذكر ناقله
١٥ — كتاب بهرام ونرسي	لم يذكر ناقله
١٦ — كتاب هزار دستان	لم يذكر ناقله
١٧ — كتاب الدبّ والثعلب	لم يذكر ناقله

١٨ — كتاب سير ملوك الفرس «وهي عدة كتب» ترجم أحدها محمد بن جهم البرمكي والآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الاصفهاني، والآخر محمد بن بهرام بن مطيار الاصفهاني.

ومما ترجم أيضا من تصانيفهم كتاب «شاهنامة» التي نظمها الشاعر الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤ هـ في نحو ٦٠,٠٠٠ بيت على نسق «إلياذة» هوميروس. وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم، وقد نقلها الى العربية الفتح بن علي البنداري الاصبهاني نثرا للملك المعظم عيسى الايوبي. وقد

أتم ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ . وقد ترجم العرب كتبا أخرى من الفارسية تاريخية وأدبية، ولاسيما ما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .

الكتب المنقولة من الهندية

وقد نقل العرب الكثير من كتب الطب والنجوم والرياضيات عن اللغة الهندية السنسكريتية . ومن هذه الكتب :

١ — كتاب سمرد	نقله الى العربية منكه(١)
٢ — كتاب أسماء عقاقير الهند	نقله الى العربية منكه لاسحاق بن سليمان
٣ — كتاب استانكر الجامع	نقله ابن دهن
٤ — كتاب صفوة النجح	نقله ابن دهن
٥ — كتاب مختصر الهند في العقاقير	لم يذكر ناقله
٦ — كتاب علاجات الحبالى للهند	لم يذكر ناقله
٧ — كتاب روسا الهندية في علاجات النساء	لم يذكر ناقله
٨ — كتاب السكر للهند	لم يذكر ناقله
٩ — كتاب التوهم في الأمراض والعلل	لم يذكر ناقله
١٠ — كتاب رأي الهند في أجناس الحيات وسمومها	لم يذكر ناقله

كتب النجوم والرياضيات :

قال جرجي زيدان في «تاريخ التمدن الإسلامي» ٣/ ١٧٩ :

أما في الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير، ومن كتبهم «السند هند» وكان لنقل هذا الزيج تأثير في علم النجوم عند العرب، وقد قلدوه وألفوا على مذهبه، وممن ألف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزاري، وحبش بن عبدالله البغدادي، ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم (٢) والفزاري أول من عمل اسطرلابا في الإسلام(٣) وما من فلكي من فلكيي المسلمين اراد التوسع في علوم النجوم إلا طالع كتبهم، إما في اللغة الهندية أو في ترجمتها الى العربية .

واكثر المسلمين عناية في ذلك واطلاعا على آداب الهند وعلومهم أبو الريحان

١ — «منكه» الهندي من مشاهير المترجمين، أتى الى بغداد لمعالجة الرشيد . انظر طبقات الاطباء ٢/ ٣٣

٢ — تراجم الحكماء (خط) عن تاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ١٧٨ .

٣ — الفهرست ص ٢٧٣ .

البيروني المتوفي سنة ٤٤٠ هـ فإنه طاف بلاد الهند، واطلع على علومهم وآدابهم، ثم ألف كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» وغيره من الكتب، ومما ذكره من كتبه التي ألفها في هذا الصدد قوله :

«وعملت في السند هند كتابا سميته «جوامع الموجود لخواطر الهنود في حساب التنجيم، جاء ما تم منه ٥٥٠ ورقة.

كتب الأدب :

ومن أشهر ما نقل عن الهندية الى العربية كتاب «كليلة ودمنة» وقد نقله الى العربية نظماً ابان بن عبدالحميد اللاحقي.

ولابد أن نضيف «كتاب سندباد الكبير» و «كتاب سندباد الصغير» و «كتاب الدر» وغير هذا.

وأستطيع ان اختم هذه السعة من الكتب التي ترجمت الى العربية بقولي ان العربية قد أفادت من كثير من اللغات، فقد نقل اليها من كتب النبط مما هو بالنبطية، كما نقل اليها من العبرانية والقبطية وغيرها.

ويحسن بنا ان نأتي الى هذا العصر فنواجه بدايات المشكلة لنرى كيف كان القوم قد تصرفوا بأمر العربية وهي تواجه العصر الحديث بمتطلباته العلمية الكثيرة ومستحدثاته.

أقول : لقد استطاع أجدادنا في أوائل هذا العصر ان يتخذوا من العربية وسيلة ناجحة للاعراب عن متطلبات العلم، وكان لهم منها وسيلة وافية بالغرض.

وكأنهم اطمأنوا الى قدرتها حين وجدوا من تراثها المنقول من اللغات الأعجمية قدرا وافيا يشتمل على مختلف العلوم الانسانية، والعلوم الاخرى التطبيقية.

وقد رأينا تجربة العربية وهي تواجه فلسفة الاغريق ومنطقهم، كما رأيناها تواجه المواد المعرفية الاخرى كالطب والحيوان والنبات وسائر فروع المعرفة

القديمة .

لقد باشر المشرفون على تدريس الطب في مستشفى القصر العيني في القاهرة على وضع مادتهم في كتب عربية واستعانوا بجماعات أعاجم كان لهم القدرة على الكتابة بالعربية، وسار الامر على خير وجه، وقد استطاعوا تلبية حاجات العلم، وبقى الامر على هذه الصورة حتى انشئت الجامعة المصرية فاستبدلوا بالكتب العربية كتبا اخرى كتبت بالانكليزية، وبقينا الى يومنا هذا نكابر في صلاحية هذه اللغة وعدم صلاحية العربية .

إن العقل و المنطق، والتجربة العملية أثبت كله ان الطالب يستوعب مادة العلم بالعربية على نحو افضل، وما يحصل عليه يكون أوفى مما لو درس في كتاب بلغة اعجمية . وقد قامت التجارب على هذا فأثبت اهل التربية القيم العلمية وقالوا ان الطالب الذي يقرأ كتابه باللغة الاجنبية يعاني من فهم اللغة واستيعابها فيكون ذلك على حساب ما يحصل عليه من مادة علمية .

ثم كانت لنا تجربة التعليم بالعربية في الدراسات الجامعية في القطر العربي السوري، وما زالت هذه التجربة تؤتي ثمارها، لقد وضع الاساتذة المتخصصون كتبهم بالعربية وتم لهم ذلك بيسر ونجاح .

ثم جئنا الى اصحابنا اساتذة العلوم في البلاد العربية الاخرى فوجدناهم عاجزين عن التدريس بالعربية فقد هرع الى الكتب المكتوبة بالانكليزية، وهم اهل المشرق العربي، وهرع نفر آخر الى الفرنسية، وهم اهل المغرب العربي، وصار يجادل كل طرف ان العلم الجديد لايمكن ان يؤدى بالعربية وان ليس من وسيلة لغوية الا اللغة الاعجمية، وحجتهم في ذلك ان «المصطلح العلمي» وافر في اللغة الاعجمية، وانه يتزايد يوما بعد يوم .

وهرع نفر ثالث الى الرد على ما يقول هؤلاء «المستغربون» الذين تنكروا للغتهم بل لهويتهم العربية عجزا منهم، ذلك انهم ذهبوا الى الغرب يدرسون بمادة عربية هزيلة لاتمكنهم من تدريس العلم، فلم يجدوا لهم الا ان يفزعوا الى

اللغة الاعجمية .

لقد عرفنا هؤلاء وكيف يحاضرون في «انكليزيتهم» أو «فرنسيتهم» فوجدناهم يتبعون في هاتين اللغتين طريقة مشوهة هي الخلط بين اللغة الاعجمية وبين عاميتهم العربية التي يدرجون فيها .

فهل لهم بهذه الوسيلة المتأخرة ان يشمخوا بأنوفهم ويدّعوا ما يدّعون ويقولوا بعجز العربية؟ .

أقول : ذهب هذا النفر الثالث للرد على هذا الافتئات وراحوا يسردون فضائل العربية وقدرتها على الوفاء بالمصطلح العلمي ، وان فيها من الوسائل اللغوية اشتقاقا ومجازا ما يعين على هذا الغرض ، قبل ان يهُرع الباحث الى مسألة النحت التي شاعت في اللغات الأعجمية ، وكأنهم نظروا إلى تجارب القوم قديما وحديثا فتأسّوا بها وأفادوا منها .

ثم أليس لنا ان نقول ببطلان دعوى المتحمسين الى اللغة الاجنبية في تدريس العلوم إذ عرفنا ان مدرس العلوم لايحتاج الى العنصر اللغوي الذي من شأنه أن يعيق عمله .

إن مدرس الفيزياء او الكيمياء او الرياضيات بأصنافها أو علوم الحياة «الحيوان والنبات» يواجه حاجة واحدة وهي توفير «المصطلح العلمي» ، وأن ما عدا هذا فهو لغة يسيرة ، فلا يستطيع ان يتعصب لدعواه .

إن كتاب الفيزياء وكتاب الكيمياء ، وكتب الرياضيات وغيرها تشتمل على الارقام والحروف ، وجملة من المصطلحات العلمية ، والكثير من هذا قد ترجم الى العربية على تراخي العصور ، فأين المشكلة فيما بقي من المادة اللغوية في هذه الكتب وهي مادة قليلة؟ .

إني أعجب كل العجب من تصرف أصحابنا الاساتيذ العرب هذا وتعصبهم على حساب هويتهم ولغتهم ، كما اني لأعجب ان يهرع اليهود في إسرائيل ، وهم

لايملكون إلا لغة كـانت قبل ثلاثة عقود من السنين في عـداد اللغات الميتة ، وان مادتها اللغوية فقيرة لاتستطيع ان تفي بحاجـة العلوم الجديدة ، أقول هرع هؤلاء إلى لغتهم يعمرونها ويضيفـون اليها لتكون اللغـة الوحيـدة في الدرس في مختلف مراحل التعليم .

ثم ألم يجد أصحـابنـا ان «كـوريـا» وغيرهــا من الـدول التي اصطلح عليهـا «النامية» تتخذ من لغاتها مادة للعلم .

ومن العجب ان يـذهب أساتـذة العلـوم هذا المذهب وهم يـرون أننـا عربنـا العلوم الانسـانية فصنفـت المصادر العلميـة بالعـربية في مـادة الفلسفة القـديمة والحديثــة ، ومـــادة علم النفس ، ومـــادة الاجتماع ، ومـــادة مـــا نـــدعـــوه «الانتروبولوجي» ، ومادة علم اللغة واللسانيات وغيرها .

إن هـذه العلـوم أحـوج إلى العنصر اللغـوي الـدقيق من كتـاب في الفيـزيـاء والكيمياء والرياضيات مادته أرقام وحروف ومصطلحات يسيرة .

الإيقـــاع الـروائـــي

د. أحمد الزعبي

قسم اللغة العربية
جامعةاليرموك

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح مفهـوم الإيقاع الروائي وإلى طرح رؤية أو تصوّر لنظرية تُعني بدراسـة البنية الإيقاعية لفنّ الرواية. ولئن كانت هـذه الدراسة الأولية تسترشـد بآراء بعض النقـاد الغـربيين حول مفهـوم الإيقـاع بشكل عام، في الشعـر والمسرح والعمارة والرواية والموسيقا وغيرها، إلا أنها تهدف إلى اثارة اهتمام الباحثين والنقـاد العرب لتأسيس نظـرية متكـاملة شـاملـة تدرس البنيـة الإيقاعيـة للروايـة العربية. ولقلة الدراسات التي تتناول موضوع الإيقاع الروائيّ في الأدبين العربي(١) والغـربي، ارتأينا أن نعتمـد في هـذه الدراسـة على آراء النقاد العـامـة حول مفهـوم الإيقاع، وعلى اشارات بعض الدارسين السريعة حول الإيقاع الروائي، التي تعتمد على التنظير والتقنين أكثر من اعتمادها على التطبيق والتفصيل.

ولقد كان الناقد الفـرنسيّ إندريه – ماريه البيريس A.M. Alberes هو أكثر النقاد المعاصرين، في حدود ما نعرف، اهتماماً بموضوع الإيقاع الروائي. ومع أننا لم نعثر له على دراسة تطبيقيـة واحدة، تفصيلية متكاملة، على رواية من الـروايات، إلا أنه قدّم جهـداً رياديـاً وتصـوراً عميقاً لمفهوم الإيقـاع الروائي. ويرى البيريس في كتـابه النقـدي المعـروف «تـاريخ الـروايـة الحديثـة»، «أن الـروايـة فن كفنّ العمارة أو الشعـر»(٢)، بل يـذهب النـاقـد إلى أبعـد من هـذا إذ يصرّح: «إنّ الإيقـاع هـو الفن»(٣). إن اهتمام البيريس بـالإيقـاع في الفنون بشكـل عام وفي الـروايـة بشكل خاص يشير إلى أهميـة هذا الموضوع وضرورة الالتفـات إليه والبحث فيـه. وأننا إذ ندرك الدور الرئيسي الهام الذي يلعبه الإيقاع في فنّ العمارة أو فنّ الشعر أو الموسيقا،

فإن تشبيه البيريس أنّ الرواية فنّ مثل هذه الفنون ينطوي على توضيح الدور الرئيسي الهامّ أيضاً الذي يلعبه الإيقاع في فنّ الرواية وفي بنائها وفي أبعادها المختلفة.

ولقد اهتم الناقد المعروف آي. أيه ريتشاردز I.A. Richards في وقت سابق في قضية الإيقاع في النثر، وشرح وجهة نظره في كتابه: «النقد التطبيقي Practical Criticism» قائلاً: «إنني أعني بالإيقاع المعنى الواسع للصورة أو الشكل المتكرر، وهذا التكرار لا يعني التشابه التام، وهذا ما يعنيه كثيرون في الإيقاع النثري أو الإيقاع التصويري. وبالتالي فإن هذا يعني أن حركة الكواكب تخضع لنوع من الإيقاع الدقيق»(٤). ومسألة التكرار في الفنون جزء من إيقاعها الفني، فتكرار الخطوط في فنّ الرسم أو العمارة، وتكرار اللازمة أو الجملة الشعرية في القصيدة، وتكرار الأحداث أو المشاهد أو الحوارات في الرواية، كلهّا تشكل جزءاً من إيقاعاتها الفنية والجمالية. ويقصد بالتكرار هنا التكرار الموظف الضروري للنصّ الذي يشكل إيقاعاً منسجماً ومتناسقاً في هذا العمل الفني أو ذاك. ولقد نبّه الناقد يوجين راسكين Eugen Raskin إلى هذه المسألة عندما أشار إلى «أن الإيقاع يعني التكرار بالدرجة الأولى»(٥). ولكنه تكرار مقصود موظف لغايات فنية ونفسية وجمالية في العمل الفنّي الإبداعي. وقد تناول هربرت ريد Herbert Read موضوع الإيقاع بشكل عميق ودقيق في كتابه: «معنى الفن The Meaning of Art» ويرى أن «إيقاع الخطوط - مثلاً - هو الأهم في الفنّ»(٦). لأن هذا الإيقاع المنظم المحكم الدقيق المقصود يشكل بنية فنية مقنعة متماسكة ويجسّد معالم الإبداع في شكل العمل الفنّي وفي مضمونه الفكري.

إن البنية الإيقاعية للرواية تضعها أمام امتحان نقدي عسير صعب، إذ ليست كلّ رواية تتمتع بإيقاعية مقنعة منسجمة ناجحة. فالرواية الرديئة تفتقد عناصر الإيقاع فيها ولا تستطيع ضبط بنيتها الإيقاعية، ولهذا السبب يرى البيريس، أن عملاً روائياً رديئاً كهذا «قد يشكل وثيقة من نوع ما، ولكنه لا يشكل رواية ما لم يجد إيقاعاً أو غناء يصنعان منه شيئاً آخر»(٧). إن الإيقاع الروائي يضبط ويشكل ويجسد البنى الروائية المختلفة في ترتيبها وهندستها وتواصلاتها الظاهرة والخفية، كما أنّه يرسم

ويرصد بدقة وانسجام عمليات التنسيق والتحرك والضبط والتكرار والترتيب والتوظيف والتوافق والتعارض والتغيرّ والتصادم في الأحداث والمفاهيم والأزمنة والأمكنة والعواطف والشخصيات والعقد والحلول . . . إلى آخر معالم الرواية على صعيدي الشكل والمضمون. فالرواية التي تجتاز هذا الامتحان الإيقاعيّ الشاق تكون قد قطعت شوطاً كبيراً نحو طريق النضج والنجاح والإبداع الفني كما هو الأمر في رواية تولستوي : «الحرب والسلام» ورواية جيمس جويس «يولسيس» و«اللص والكلاب» لنجيب محفوظ و«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح .

إنّ إيقاع أيّة رواية عنصر يميّزها عن سواها من الروايات وإن خصوصية هذا الإيقاع في رواية ما لا يتكرر في رواية أخرى حتى لو كانت للكاتب نفسه . ذلك أن إيقاع رواية ما يصعب أن يتطابق مع إيقاع رواية أخرى لاستحالة التشابه التّام ما بين الأحداث والشخصيات والأمكنة والأزمنة والمواقف وعوالم الوعي واللاوعي في روايتين مختلفين أو أكثر . ولإثبات تفرّد كلّ رواية بإيقاع معين وتميّزها ببنية إيقاعية مختلفة عن أية رواية أخرى، يقول البيريس «إنّ الإيقاع عنصر مميز للفن، وهو نظريّ محض مبدئياً وشبيه بماهية أفلاطونية أو علاقة رياضية . هذا الإيقاع لا يمكن مع ذلك أن يختلق - أن يتجسد - إلا في ظروف فريدة ومحددة في كل حين . إذ أننا لا نجد الإيقاع الفنّي لرواية «الحرب والسلام» لتولستوي مثلاً في رواية أخرى(٨)، الأمر الذي يجعل لكلّ رواية إيقاعها المتميز والمختلف ويجعل دراسة الإيقاع الروائيّ عملاً متجدداً مفيداً في كلّ رواية تتعرض لها مثل هذه الدراسة . فإيقاع الزمان مثلاً، وهو عنصر هام من عناصر الإيقاع الروائي، ليس مقصوراً على تحديد حقبة معينة أو وقت محدد في رواية ما، وإلا لتشابهت روايات كثيرة في إيقاعها الزمانيّ إذا كانت تتناول الحقبة نفسها أو الوقت نفسه، لكنّ المسألة كما يراها ميشيل بوتور مختلفة عن ذلك «فالزمن ليس محتوى تتكدس فيه الأحداث، إنما هو يرتبط ويتعلق بنا وبحركات وجودنا»(٩) . وهذا يعني أن الزمان الروائيّ يكتسب معناه من خلال علاقة الأشخاص بالأشياء والعالم ومن خلال فهم الشخصية لما حولها مختزلة الأزمنة والأمكنة والتغيرات الاجتماعية والحضارية ومكثّفة أبعاد هذا الوجود في لحظة زمنية معينة . ولهذا يكون الزمان الروائي وإيقاع الزمان الروائيّ بشكل خاص

والإيقاع الروائي بشكل عام مختلفاً ومتفرداً وخاصاً في رواية ما عن غيرها من الروايات الأخرى.

ويتضح ذلك في دراستنا التفصيلية عن الإيقاع الروائي في «اللص والكلاب»(١٠) حيث يشكل إيقاع الأزمنة والأمكنة أبرز إيقاعاتها المتنوعة وحيث يجسد هذا الإيقاع إطار الأحداث وتحولات الشخصيات مع ما يرافقها من إيقاعات أخرى ترتبط بعمق بالإيقاع الأبرز أو الرئيسي كما هو الحال في إيقاع الأزمنة في «اللص والكلاب»، مثلاً.

ولتوضيح هذه المسألة نتوقف قليلاً عند رواية «بلد المحبوب»، لمحمد يوسف القعيد(١١) حيث يشكل إيقاع الزمان والمكان فيها أيضاً أبرز الإيقاعات. وهذا يعني أن كل رواية تقوم على إيقاعات مختلفة كإيقاع الأحداث وإيقاع الشخصيات وإيقاع الأزمنة إلى غير ذلك. ولكن واحداً من هذه الإيقاعات يكون في العادة هو الأبرز ويشكل الإيقاع الرئيس فيها بينما تكون الإيقاعات الأخرى بمثابة روافد له تصب فيه وتدور في فلكه. فإيقاع الأحداث في «ثلاثية» نجيب محفوظ مثلاً يشكل الإيقاع الرئيس فيها، ترفده إيقاعات أخرى كإيقاع الزمان والمكان وإيقاع المواقف والأفكار والشخصيات، وهي إيقاعات هامة ورئيسة أيضاً، ولكنها تظل متعلقة بإيقاع الأحداث الأكثر أهمية والأكثر حضوراً في عالم الرواية.

ففي «بلد المحبوب» يتحرك الراوي أو البطل عبر أمكنة وأزمنة ثلاثة تشكل إيقاع الرواية الرئيس الأكثر حضوراً. فحركة الراوي تنحصر في ثلاثة أماكن رئيسة هي: المكان خارج الوطن - الغربة - والمكان داخل الوطن في بيته أولاً ثم المكان الثالث في داخل الوطن أيضاً في بيت محبوبته قرب نهر النيل ومركز الشرطة. كما يتحرك الراوي بين هذه الأمكنة عبر أزمنة ثلاثة أيضاً هي: الماضي والحاضر والمستقبل مرتبطة ومنتظمة مع الأمكنة المذكورة، حيث يجُسِّد المكان الأول في الغربة - الماضي - ويجُسد المكان الثاني في الوطن الحاضر بينما يجُسد المكان الثالث في بيت محبوبته المستقبل.

وبتتّبع حركة بطل الرواية مكانياً وزمانياً نجد أن هذه الحركة تشكل إيقاعاً منتظماً

ومتوازياً ومرتبطاً بإيقاع عالمه الداخلي كإيقاع التحولات وإيقاع المواقف والانفعالات التي تتزامن وتتواصل وتتشابك مع إيقاع العالم الخارجي كالأزمنة والأمكنة والأحداث. والربط بين الإيقاعين، إيقاع عالم البطل المرئي أو الخارجي وإيقاع عالمه الداخلي الخفي، يقتضي إقامة جسور تصل ما بين هذين العالمين في أثناء القراءة أو التحليل، وهذا هو دور القارىء كمشارك أو منتج أو مسهم في النص كما يرى «بارت»، فالرواية ذاتها لا تقدم هذه الجسور ولا تصل هذه الخيوط بين الإيقاعات بشكل ظاهر، وإنما يترك ذلك للقاريء أو الناقد للقيام به. وربما لمثل هذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة تصبح دراسة الإيقاع الروائي ذات جدوى، حيث تقوم بهذا الدور بشكل أو بآخر من خلال إقامة الجسور ووصل الخيوط ما بين عالم الشخصية الداخلي وعالمها الخارجي.

فبطل «بلد المحبوب» الذي اغترب عن بلاده أكثر من عشر سنوات في أماكن مختلفة ومتباعدة في العالم الواسع، يعود إلى وطنه المحبوب مليئاً بالحنين والأشواق والآمال والأحلام. وتشكل هذه المرحلة الزمن الماضي والمكان الأول في حياة البطل وتجسد أيضاً إيقاع عالمه الداخلي القائم على الهدوء والانتظام والتصالح مع هذا العامل. أما المرحلة الثانية، في المكان والزمان الجديدين، في الزمان الحاضر والمكان الثاني في وطنه وبيته فإن إيقاع عالمه الداخلي السابق يتغير ويتحول نظراً لتغير إيقاع عالمه الخارجي الجديد وتحوله. فالإيقاع الداخلي الهاديء المنتظم المتفائل يبدأ في الاهتزاز والاضطراب والتحول إلى إيقاع انفعالي فوضوي تشاؤمي بعد أن اصطدم بالواقع الجديد الذي وجده مغايراً لما رسمه في ذهنه وأحلامه أيام الاغتراب والحنين والاشتياق. فبعد وصول البطل إلى بلده المحبوب تتبخر أحلامه وتتلاشى آماله وكأنها كانت كلها أوهاماً ليس إلا. إذ وجُدت مدينته اسوأ مما كانت عليه ووجد القيم منهارة والعلاقات متصدعة والواقع مريراً مثيراً للاحباط والاشمئزاز، هذا كله إلى جانب مأساته الذاتية الرئيسة وهي زواج حبيبته وخطيبته من رجل آخر في أثناء غيابه.

تبدأ رحلة التحولات في أعماق البطل متزامنة مع تحولات الواقع الخارجي،

وتتأزم التحولات وتبلغ ذروتها في المرحلة الثالثة من رحلته حيث يرفض تصديق «إشاعة» زواج خطيبته من غيره ويصر على مقابلتها لتكذيب هذا الخبر وردّ هذا الزعم، ويمضي إلى المكان الرئيس الأخير حيث بيت محبوبته الفخم الذي استدل عليه بعد جهد كبير. وفي اللقاء المرتقب مع محبوبته تتسارع إيقاعات الأحداث في العالمين الداخلي والخارجي للبطل، وتصبح إيقاعات الأزمنة والأمكنة أكثر حضوراً وتشابكاً واختلاطاً في هذه المرحلة. وما حدث في هذا اللقاء لا يخلو من غموض أو تعقيد على صعيد الرمز في الرواية، فبعد تيقن البطل من زواج محبوبته من رجل آخر غني، يصطحبها في رحلة بحرية أخيراً في نهر النيل - محبوبه الثاني - ثم يقوم بقتلها وإغراقها في أعماق البحر. وبعد ذلك يبلّغ رجال الأمن بما حدث ويسلّم نفسه إليهم. لكن المفاجأة غير المتوقعة التي تظهر في النهاية تزيد الأمور تعقيداً والتباساً، فالبطل بريء من هذه التهمة المزعومة، لأن الزوجة القتيلة التي يحدّث رجال الأمن عنها، كانت قد قُتلت من سبع سنوات خلت كما هو ثابت في ملفات الشرطة وتصاريح الوفيات. والغريب أنها قتلت من زمن طويل بالطريقة نفسها التي يصفها لهم البطل اليوم بدقة حيث قام بإغراقها حتى ماتت. لكن ذلك لا ينفي اتهامه بالجنون وتحويله إلى مستشفى للأمراض العقلية وسط ذهوله وإصراره على أنه بالفعل ارتكب هذه الجريمة في الليلة الماضية.

وقد يحتاج البحث في رموز هذه النهاية الغامضة ودلالاتها العميقة إلى دراسة متأنية تحليلية طويلة هي ليست مجال هذا البحث الذي يركز على الإيقاع الروائي فيها، ولكننا سنشير إلى واحد من التفسيرات المحتملة المعتمدة لهذا الرمز والذي نظن أنه الأقرب إلى عالم الرواية وسياقاتها وأبعادها، ثم نمضي لمتابعة الإيقاع فيها.

فما حدث بعد لقائه بمحبوبته وبعد ادعائه قتلها وإغراقها في النهر يشكل ذروة الإبداع والرمز في الرواية. فالكاتب، في ظننا، أراد أن يزيل هذا الأمل الأخير الباقي في رأس الراوي حول محبوبته القديمة أو حول «بلده المحبوب» القديم من حيث تعلقه به وإخلاصه له، فهو مثل بقية ملامح الوطن كله قد ضاع واختفى في السنوات التي غاب فيها عنه. وهو يشير هنا إلى أن محبوبته قد قتلت لحظة تزوجت

قبل سبع سنوات، وأنها قد ماتت لحظة تخلت عن حبيبها وانتقلت من الشارع الضيق الفقير إلى هذا القصر الكبير، وهي اشارة إلى تغير وجه «البلد المحبوب» تغيراً كاملاً من الحب والوفاء والأمان والصدق والانتماء إلى الكراهية والخيانة والانحطاط والزيف والمسخ الذي شكل الوطن الجديد «غير المحبوب». والراوي أمام حقيقة موتها عندما تخلت عنه كما يؤكد رجال الأمن يصر على أنه هو الذي فعل ذلك وقد فعله الليلة الماضية إمّا إمعاناً في تخيلاته أنه لو وجدها فسيفعل ذلك لتخليها عنه وإما اعترافاً منه أنه المسؤول عن موتها بهجرته وارتحاله وتخليه عنها في اللحظات الحرجة. وهذا ربما يعني أن الكاتب يشير إلى أن الذين تركوا البلد المحبوب في أيام الأزمات والشدائد قد اسهموا في انهياره وازدياد أزماته ودماره، كما أنه قد يعني أن الراوي الذي وجد وطنه المحبوب قد خانه وتغير من سيء إلى أسوأ في كل خطوة يخطوها كان لابد أن يَقتُل أكثر رموز الخيانة تأثيراً عليه وتدميراً له وهي محبوبته الخائنة أو واقعه الجديد الكريه الذي يرفضه ويمقته.

ومهما كان الأمر في هذا الترميز في خاتمة الرواية، فإن حركة إيقاع الأزمنة والأمكنة فيها تلعب دوراً بارزاً ودقيقاً في تشكيل عالمها المتشابك العميق. وأهمية الايقاع في معالم الرواية هنا تكمن في توظيف الزمان والمكان بشكل منتظم ودقيق في تجسيد البنية الروائية من جهة وفي طرح المضمون الروائي من جهة أخرى، بحيث تصبح الأزمنة والأمكنة في هذا السياق هي المحور الرئيس للحدث في الرواية ولعالم الرواية كلها. كما تصبح إيقاعات هذه الأزمنة والأمكنة المنتظمة المترابطة هي التشكيل الخفي الحقيقي لإبداع الرواية ومجالها الفني والموضوعي.

وبتحرك البطل عبر أمكنة وأزمنة جديدة تتشكل مشاعره الجديدة بحسب هذه التغيرات التي تتحرك بإيقاع متواز منسجم ما بين العالمين الخارجي المرئي والداخلي (في أعماق البطل). ففي المرحلة الأولى غاب «البلد المحبوب» من أعماقه بسبب اكتشافه «للبلد المكروه» في الواقع - حيث الناس غير الناس والقيم غير القيم - وفي المرحلة التالية يتوازي إيقاع البطل الداخلي المتحول من إيقاع الحالم الخيالي المتفائل إلى إيقاع الرافض المجرم المجنون، يتوازى مع إيقاع العالم الخارجي المتحول - كما يراه

البطل - من عالم الهدوء والأمان والحب والانتماء - في الماضي - إلى عالم الصخب والجريمة والخيانة والجنون - في الحاضر - وهذا يعني أن حركة إيقاع عالم البطل مرهونة ومرتبطة ارتباطاً مباشراً بحركة إيقاع العالم الخارجي. والكاتب إذ يمضي في تقديم إيقاع الواقع المرئي بخط تنازلي من حيث تدهوره وانحطاطه وجنونه وجرائميته، فهو يمضي في الوقت ذاته في الحفاظ على تقديم إيقاع عالم البطل الداخلي بخط تنازلي أيضاً من حيث تدهوره وانحطاطه وجنونه وجرائميته، ويأتي هذا بشكل منسجم ودقيق تماماً (انظر شكل ١).

فالراوي، البطل، يعود إلى الوطن، الحاضر. ليبدأ رحلة إلغاء الماضي أو الصورة التي تركها لهذا المكان أو التي احتفظ بها في مخيلته طيلة سنوات الغربة. ويبدأ الوطن الجديد - غير المحبوب - يحل محل أو يبتلع أو يمسح الوطن المحبوب القديم. ويحدث هذا المسح تدريجياً، يبدأ من لحظة وصوله إلى المطار فالطريق إلى البيت فرؤيته لكل المعالم الجديدة التي تزيح الصورة المشرقة المرسومة في ذهنه شيئاً فشيئاً. ويتابع الراوي رحلته من بيته إلى نهر النيل إلى بيت محبوبته التي تزوجت في غيابه دون اقتناع منه أو تصديق لما حدث. ورفضه التسليم بهذا الزواج هو آخر أمل يتعلق به قبل أن تفقد كل الأشياء معناها في رأسه، وقبل أن يطرد البلد المكروه آخرَ نبضة من نبضات البلد المحبوب المتلاشي في داخله رويداً رويداً.

فغرق المحبوب الليلة الماضية وقتلها بيد الراوي - كما يزعم(١٢) - وغرقها وقتلها قبل سبع سنوات بيد مجهولة كما يؤكد رجال الأمن، يسير بشكل متواز منتظم مع عالم الراوي الداخلي من حيث زمانه ومكانه هو. فإيقاع التغير في العالم الخارجي الذي غاب عنه الراوي لسنوات طويلة يبدأ الراوي في تجرعه واستيعابه وهضمه في ساعات قلائل منذ وصوله «البلد المحبوب»، فإيقاع الأشياء وتحولاتها في الخارج - من سيء إلى اسوأ - تنعكس على إيقاعات عالم الراوي الداخلي وهي أيضاً من سيء إلى اسوأ. فالزمان والمكان الماضيان في الواقع يمثلان الأمل والتفاؤل والانتماء مثلما كان في عالم الراوي الداخلي، ولكنهما - أي الزمان والمكان - في الحاضر يمثلان الخيبة والانهيار والجريمة في الواقع وفي عالم الراوي الداخلي أيضاً، كما يوضح

الشكل التالي (١) :

إيقـــاع الزمـــــان

ويمثل إيقاع الأزمنة في حياة البطل وانعكاساتها وآثارها
في تغيير إيقاع عالمه الداخلي

الماضي		الحاضر		المستقبل	
الغربة	الآمال	الصدمة	الانهيار	الجنون	القتل

إيقـــاع المكـــــان

ويمثل إيقاع الأمكنة في حياة البطل وانعكاساتها وآثارها
في تغيير إيقاع عالمه الداخلي

خارج الوطن		داخل الوطن - المحبوب -		داخل الوطن - المكروه -	
حلم العودة واللقاء	حلم البناء	واقع الضياع	واقع الهدم	التحول للجنون	التحول للجريمة

ويؤكد ريتشـاردز على «أن الإيقاع هو خصوصية الأحداث المتعـاقبة في زمن ما،

التي تُحُدث لدى المرء إحساساً بالاتساق والتناغم عند حدوث مثل هذه الأحداث التي انشئت من أجلها هذه الترنيمة أو النغمة(١٣) وخصوصية الأحداث المتعاقبة على فرد ما، هي خاصة به ومميزة له، إذ من الصعب أن نعثر على شخصين يتشابهان تماماً في خصوصياتهما وعمومياتهما ودقائق تكوينهما النفسيّ، والفكري والعاطفي. كلّ هذا يعني أن الإيقاع الروائيّ بعناصره المختلفة وأشكاله المتعددة، من إيقاع الشخصيات إلى إيقاع الأحداث إلى إيقاع الأزمنة والأمكنة... إلى غير ذلك، في رواية مايكون خاصا بها ومميزاً لها يصعب تكراره تماما في رواية أخرى. فالإيقاع الروائيّ في «ثلاثية» نجيب محفوظ هو إيقاع خاص بها ومميز لها، ومن الصعوبة بمكان أن نجد رواية أخرى تماثلها في بنيتها الإيقاعية حتى لو ماثلتها في فكرتها الرئيسية وفي إطارها التاريخي والاجتماعي والمكاني.

ولقد تحدث الناقدان رينيه ويلك Rene Wellek وأوستن ورين Austin Warren عن الإيقاع بمعناه العام، وأشارا بشكل سريع إلى إيقاع الشعر والنثر في كتابهما المعروف «نظرية الأدب» Theory of Literature . وعلى الرغم من أن حديثهما حول هذا الموضوع يركز على إيقاع الشعر وعلى إيقاع النثر من ناحية موسيقية وتوزيعية ولغوية، إلا أن بعض الملاحظات التي يشيران إليها حول الإيقاع تبدو جديرة بالاهتمام. يرى الناقدان أن «مشكلة الإيقاع ليست مقتصرة على الآداب أو اللغة بشكل نوعي، فهناك إيقاع للطبيعة والعمل، وإيقاع للإشارات الضوئية وإيقاع للموسيقا وإيقاع، بالمعنى المجازي، للفنون التشكيلية. فالإيقاع ظاهرة لغوية عامة... ومن الأفضل معالجة الإيقاع الفني للنثر من خلال تمييزه عن كل من الإيقاع العام للنثر والشعر(١٤). فالبنية الإيقاعية للفنون تنسحب أيضاً على البنية الإيقاعية للنثر، وينسحب أيضاً على الرواية، ما دامت الرواية تعتمد على اللغة بالدجة الأولى وأن الإيقاع ظاهرة لغوية عامة، كما يؤكد الناقدان المذكوران، فإذا كان إيقاع الخطوط والألوان في الرسم مثلاً يخلق فينا حساً جمالياً ولذة معرفية - عند اكتشاف دلالة الخطوط والألوان ورموزها ومعانيها - فإن إيقاع الحدث أو المكان في الرواية يخلق فينا أيضاً حساً جماليا ولذة ذهنية معرفية في حالة اكتشاف الرموز والدلالات لهذا الحدث أو ذلك المكان «ويشير الناقد نورثروب فراي Northrop

Frye إلى هذه المسألـة قائلاً إن : «جوزيف كونـراد مثلاً، عندما يغير مكـان الراوي ويحركه مرة إلى الأمام ومرة إلى الخلف فإنه يحاول من خلال ذلك أن ينقل انتباهنا من الأستماع لما يقـولـه إلى الاهتمام بمـوضعـه - بحركتـه وبمكـانتـه»(١٥)، فحـركـة الشخصيـة من مكـان إلى مكـان تشكل إيقـاعاً معينـاً ينطـوي على رمـوز ودلالات تكشف عن بعد من أبعاد النص الذي يتضمنه السياق خفية في بعض الأحيان.

إن إيقاع الـرواية يعتمد على عناصر البنيـة الروائية والموضوع الـروائي كما يعتمد إيقاع الشعر على عنـاصر البنية الشعرية للقصيدة، كما يعتمد أيضـاً إيقاع الرسم على عنـاصر تشكيل اللـوحـة بشكل كلي. فإذا كـان الإيقاع الشعـري يعتمـد مثـلاً على الموسيقا الداخلية والخارجيـة وعلى توزيعهما وعلى إيقاع الأحرف والكلمات والجمل الشعرية والأصوات والصور. . . إلى غير ذلك من عناصر البناء الشعري، وإذا كان الإيقـاع الفني في الـرسم يعتمـد على الخطـوط والألـوان والمسـاحـات والظـلال والانحنـاءات والمسـافـات والتجسيمات. . . إلى غير ذلك من عنـاصر تشكيل اللوحـة، إذا كان الأمر كـذلك، فإن الإيقاع الروائي، بـالمقارنة والمقـابلة من أجل التوضيح، يعتمد على عناصر البنية الروائية، كالأحداث والشخصيات والحوارات والمواقف والأمكنة والعقد والمشاهد والتحولات. . . إلى غير ذلك من عناصر البناء الروائي ومعماره الفني الدقيق. ويؤكد هذا البيريس في تعليقه إذ يقول : «إن الإيقاع الروائي هـو إيقاع للمحـاورات بأكملها، وللحوادث وللمشـاهد الـروائية فبعض الروايات يأسرنا انسجامها الداخلي بقـوة الروابط التي توحي بها وتعقدها، وبإيقاع الحركات الروائية التي تتصالب فيها»(١٦).

ومثال هذه الإيقاعات للمحاورات والأحداث والمشـاهد الروائية المتقنة المنتظمة مـا نجـده في «الغـرف الأخـرى» لجبرا إبـراهيم جبرا(١٧)، حيث تتـوافـق هـذه الإيقاعات وتتزامن وتنسجم مع إيقاعات الأفكار والمواقف والتحولات التي تجري في عالم الشخصيـات الداخلي استجـابة لعالمه المرئي وتحولاتـه المنظورة. فمثـلاً يبدأ الحدث الرئيس باقتيـاد بطل الرواية إلى مقابلة هامة في احتفـال كبير أقيم احتفاء به، وفي الطريق إلى مكان الاحتفال يتوه البطل في طرق متشعبة وسراديب مختلفة وأماكن

مجهولة «وهي رمز عنوان الرواية «الغرف الأخرى» حيث يغادر غرفته الرئيسة إلى غرف مجهولة لا تنتهي، اشارة إلى رحلته في أرجاء هذا الوطن العريض أو تشرده في أصقاع الأرض. وحركة إيقاع الأحداث في رحلة البطل هنا مرتبطة بطبيعة الأزمة التي يعاني منها في أعماقه. فأزمته الرئيسة تكمن في الانقلاب أو التغير الشديد الذي حدث للناس والأشياء والقيم في هذا العصر الردي، فلا الناس الذين يعرفهم يتعرفون عليه وإنما ينادونه باسم آخر غريب عنه، ولا الأماكن التي يعرفها يجدها كما كانت وكذلك لم يجد أياً من قيم الحب والصداقة والانتماء والوطنية التي عاصرها في الماضي، لم يجد لها أثراً. هذه الانطباعات والتحولات التي يتابعها في عالمه الخارجي وتصدمه وتخلخل تفكيره في عالمه الداخلي تشكل إيقاعاً داخلياً مرتبطاً ومنتظماً بإيقاع الأحداث كما يرسمها الكاتب في روايته.

فصديقته التي يعرفها حق المعرفة تنقله بسيارتها من بيته إلى الاحتفال، فإذا ما غابت عنه لحظات ثم عادت لتتابع معه الطريق وجدها امرأة أخرى لا يعرفها وهي تصر على أنها صديقته التي رافقته قبل قليل. ويقع البطل في حيرة وذهول مما يجري لكن الأحداث الغريبة تتتابع وبالمقابل تتتابع مشاعر الذهول والدهشة في أعماقه وتتفاقم الأزمة بداخله بتفاقم الأحداث الغريبة التي يصادفها في رحلته. فالمكان الذي يصل إليه يجده غريباً جديداً مع أنه مألوف لديه لكنه يبدو كأنه يراه للمرة الأولى. ويتتابع إيقاع الأحداث المذهلة الغريبة متوازياً ومتزامناً مع إيقاع التحولات والتأزمات في ذهن البطل، فعندما يلتقي مع الأصدقاء في الاحتفال ويَلقي منهم ترحيباً كبيراً تصل دهشته ذروتها عندما يصرون على أنه شخص آخر غير شخصه الحقيقي، ويحاول إقناعهم أنه ليس ذلك الشخص الذي يرحبون به لكنهم يصرون بعناد وتحد وإجبار على أنه الشخص الذي يفترضون أنه هو حتى لو أنكر نفسه. ويجن جنون البطل إلى الحد الذي يشك فيه في نفسه إذ يرى أنه ربما كان شخصاً آخر فكل شيء في هذا الزمان العجيب ممكن.

وتنتظم إيقاعات الأحداث الخارجية مع إيقاعات الأحداث الداخلية بحركة متطورة منسجمة في بناء الرواية من أولها إلى آخرها. ويمكن إيجاز ذلك على النحو

التالي كما هو موضح في الشكل (٢) أدناه، إذ تتدرّج حركة إيقاع الأحداث في الواقع المرئي من الانتقال من مكان مألوف إلى مكان غير مألوف (وهو المكان نفسه) ومن الالتقاء ببعض الأصدقاء الذين يكتشف أنهم أغراب عنه (وهم الأصدقاء أنفسهم) وكذلك من تبدل الأسماء والإصرار على أنه شخص آخر (مع أنه هو نفسه). وكذلك تتدرّج حركة الإيقاع الداخلي لدى البطل منسجمة مع هذا الإيقاع الخارجي حيث يبدأ البطل بالتحول من اليقين إلى الشك شيئاً فشيئاً كما يزوده به الحدث الخارجي أو كما يعرضه عليه. فصديقته التي تصر على أنها امرأة أخرى ليست التي يدعي أنها هي تجسد هذا التغير في أعماقه من اليقين إلى الشك، وتتوازى معه من حيث انتظام السرد وتصعيد الحدث. كما يجُسِّد ذروةَ التغير الداخلي في مفاهيم البطل ومشاعره ووصوله إلى الخلط ما بين الوهم والحقيقة تساؤلُه الأخير إن كان هو نفسه أو كان شخصاً آخر وتخبطه في عالم نفسي مضطرب مليء بالشك واللاتوازن، ويجسِّد هذا تزامنياً إصرار المحتفلين به على أنه شخص آخر وإذعانه لهذا الإصرار.

ويلتقي في آخر المطاف إيقاع الأحداث الخارجية بإيقاع الأحداث الداخلية حيث يَفرض عالم الواقع المرئي جنونه وفوضويته على عالم البطل الخفي ليصبح مجنوناً فوضوياً. ويرضخ لأمر هؤلاء الناس بأنه ليس هو وإنما هو الشخص الذي يريدون(١٨)، بمعنى أن الواقع الخارجي يلتقي مع الواقع الداخلي ليصبحا واقعاً واحداً بغض النظر عن حقيقة تضاد هذين العالمين وتناقضهما.

وعلى الصعيد الرمزي يتضح ما يريد الكاتب تجسيده هنا، كما تطرح الرواية، وهو أن إنسان هذا العصر قد أصبح غريباً عن كل شيء، ابتداء بغربته عن الناس والعالم وانتهاء بغربته عن ذاته. وكأن هذا العصر العجيب يمسخ الإنسان من خلال طمس ملامحه ومعالمه وعلاقاته وقيمه ومعرفته وفكره ومن خلال مسح هويته ووجوده وإنسانيته، فلا هو يعرف أن كان هذا الوطن وطنه أم لا أو كان هذا العالم عالمه أم لا، كما أنه لا يعرف إن كان هو نفسه أم لا. ويوضح الشكل التالي حركة إيقاع الأحداث والتحولات في العالمين الخارجي والداخلي للبطل، شكل (٣).

إيقاع الأحداث والتحولات في العالمين الداخلي والخارجي للبطل

١ - الواقع (الحقيقة)

معرفة الذات (البطل)	معرفة الأمكنة والأزمنة	معرفة العالم
يعرف اسمه وهويته	يعرف مكان الاحتفال وزمانه	يعرف الناس والأصدقاء

٢ - المتخيَّل (الوهم)

لا يعرف اسمه ولا هويته	لا يعرف مكـان الاحتفالِ ولا زمانه	لا يعرف الناس ولا الأصدقاء

٣ - الواقع الجديد (الحقيقة والوهم)

أن ذات البطل ليست هي	أن الأزمنة والأمكنة ليست هي	أن العالم ليس هو

أما في دراساتنا النقدية المعاصرة فقـد أُغفل موضوع الإيقاع الروائي ولم نعثر على دراسات في هذا المجال - في حدود بحثنا - باستثنـاء دراسة الناقد عبد الرحمن ياغي في كتـابه «مع غسـان كنفـاني وجهوده القصصيـة والـروائيـة». وقد اهتم البـاحـث بـالإيقاع الـروائي الـذي يسهم في تشكيل بنية روائيـة متميـزة لأعمال غسان كنفـاني الروائية والقصصية وبخاصة في فصل «البنية الروائية في قصص غبسان القصيرة» من

والأحداث في كتابات كنفاني ويقول : «الزمان نسيج بل شرايين وأوردة وعروق في إيقاع هـذا القصص القصير، بحيث نشهد زمنين . . . زمن تاريخي واقف كالـرصد يتـابع نبض الـزمن الآخـر الــذي تحول إلى زمن اجتماعي لـه إيقـاع الحيـاة وإيقـاع الفن . . . والمكان أو الأرض أو الـرمال أو الصحراء أو الخضرة . . . لم يكن مكـاناً ظرفـاً، بل له صـدر وله قلب وله نبض كنبض السـاعة ودقـاتها . . المكان له حيـاته كـالإنسان . . هـذا الحرص لـدى غسان في قصصـه بحيث يكـون المكـان والزمـان والقضيـة والإنســان الاجتماعي . . . أطـراف حـوار دائم وإيقــاع داخلي متوهج نابض»(١٩) . إن هذه الرؤية الدقيقة لعناصر الرواية من أحداث وشخوص وأزمنة وأمكنة، كما يراها الناقد في أدب كنفـاني، تكشف عن بنية إيقاعية مترابطة منسجمة في هذه الأعمال . وهي بـذات الوقت تكشف عن أهمية هـذا الإيقاع الذي هـو أحد أسرار قوة الـرواية وإبداعهـا . فالروايـة الحديثة، وبخـاصة روايات كنفـاني «تطوع الحديث الداخلي والإيقاع الذي ينبض في النفس الـداخلية والتداعي وتلاقي النبض الخارجي وتقـاطعـه مع النبض الـداخلي . . . عن طـريق تيـار الشعـور»(٢٠) . إن الإيقاع الداخلي للشخصية هو أحد عناصر الإيقاع الروائي الرئيسة الذي يشكل مع إيقاع العالم الخارجـي للشخصية ومع إيقاعات الـرواية الأخرى بنية متميـزة خاصة بهذه الرواية أو تلك(٢١) . فالزمان مثلاً يوظف في الرواية ليرصد زمناً روائياً متعلقاً بالشخصيـة والحدث، ويرى عبد الرحمن يـاغي أن غسان كنفاني قد وظف «الـزمان ليكون هذا المارد الذي خلقه وليكون الإيقاع النابض في الرواية»(٢٢) .

ويتعرض أحد النقـاد العرب، وهو محمد العيـاشي في كتابه «نظريـة إيقاع الشعر العـربي» إلى مفهوم الإيقـاع ويقول : «إن مصـدر الإيقاع الـرئيس هو الحركـة حيثما كـانت فيلغي منهـا العـادي المبتذل الـذي لا نظـام فيـه ولا تنـاسب، ويحفظ المنظم المتنـاسب الجميل»(٢٣)، ثم يتطـرق إلى إيقـاع الكـون والطبيعـة والليل والنهـار والفصول الأربعة وكل ذي حركة(٢٤) . ومع أن العياشي يركز هنا على إيقاع الشعر إلا أنه يعمم أحكامه وآراءه أحياناً على فنون أخرى ويوسعها لتشمل الإيقاع الكوني بكافة مظاهره . كما أن ملاحظته عـن مصدر الإيقاع - ويهمنا هنا الإيقاع الروائي - وهـو الحركـة عندمـا تُـرصـد وتُـوظف بشكل منسجم جميل في العمل الأدبي، هي

ملاحظة دقيقة هامة في فهم البنية الإيقاعية للرواية. حيث أن إيقاع حركة الشخصيات أو حركة الأحداث أو حركة الأزمنة في الرواية تقتضي تصويراً انتقائياً ورصداً متناغماً لحركة الرواية بشكل كلي. فالروائي المبدع لا يرصد كل هذه الحركات التي تخدم النص والتي لا تخدمه، بل ينتقي منها ما له دلالة ما أو وظيفة معينة تُغني نصه وترفده بمعالم ضرورية مفيدة. وهذا ما يقصده العياشي في تعليقه السابق «أن يلغي الكاتب المبتذل الذي لا نظام فيه ولا تناسب، ويحفظ المنظم المتناسب الجميل».

وكان الناقد العربي نعيم عطية قد قدم تلخيصاً لمفهوم البيريس للإيقاع الروائي في مقالته «الإيقاع الروائي عند البيريس» في مجلة المجلة(٢٥)، ويتفق الناقدان هنا حول أهمية الإيقاع في الرواية ودوره الرئيس في إنجاحها وتميزها، إذ «أننا نشك فيها إذا كانت أية رواية حقاً هيّ ما تحكيه من قصة... إن الرواية هي على الأخص «الإيقاع»... أنها النهج الذي عرف المؤلف كيف يصوغ به قصته المرويّة»(٢٦).

وتجدر الملاحظة هنا إلى أن مفهوم البنية الروائية يختلف عن مفهوم البنية الإيقاعية للراوية. إذا يفرق النقاد والدارسون بين هذين المصطلحين على الرغم من تداخلهما في كثير من المعالم والسمات. فالبنية - Structure - غير الإيقاع - Rythm - وأننا نرى أنه إذا كانت البنية الروائية تشمل بالدجة الأولى شكلها الفني بما في ذلك من تقنيات مختلفة وأساليب متعددة، فإن البنية الإيقاعية في الرواية تبحث في هذه البنيات والتقنيات والأساليب من حيث تناسقها وترتيبها وضبطها وتوقيتها، أي من حيث إيقاعيتها، وكذلك فإن الدراسة البنيوية للرواية تُعني بالبنية اللغوية والبنية الأسلوبية والبنية التقنية والبنية النصية... إلى غير ذلك، بينما الدراسة الإيقاعية تُعني بإيقاعية هذه البني جميعاً... توزيعاً وتنظيماً وضبطاً وتوقيتاً واتساقاً وإنسجاماً وترابطاً على صعيدي الشكل الفني والمضمون الفكري. وأننا نسوق هذه التوضيحات لكي لا يخلط الدارسون ما بين البنية الروائية والإيقاع الروائي، فلكل عالمه وفلسفته وشخصيته وأن تداخلت هذه المعالم في بعض الأحيان.

وبعد هذا كله فإن الإيقاع الروائي يُعني بوضع ومواضع وعناصر البنية الروائية والشكل الروائي والمحتوى الروائي. أنه يُعني بهذه العناصر - الشخصية، الحدث،

المكـان، الـزمـان، الموقف، الحوار. . . . من حيث تشكلهـا ونظامهـا واتسـاقهـا وتحولها وتواصلهـا والتقاؤها وتعارضهـا وتزامنها. . . كل هذه الأبعـاد والمعالم هي التي تشكل بنـاء روائياً معينـاً مختلفاً. . الإيقـاع الـروائي بالتـالي هو أنظمـة وتنظيم وترتيب وهندسة ذلك النسيج الداخلي لكل عناصر الرواية الذي يربط كل جزيئاتها بخيوط دقيقة متينة خفية أو ظاهـرة، ذلك النسيج بما فيه من توزيع وإيقاع وتشابك هو الذي يشكل عالم الرواية الفني والمضموني.

الهـوامـش

١ - انظر دراسة عبد الرحمن ياغي: مع غسان كنفاني وجهوده القصصة الروائية، بغداد، معهد البحوث، ١٩٨٣.

٢ - رينيه، سـاريه البيريـس، تاريخ الـرواية الحديثـة، ت: جورج سـالم، بيروت، منشورات عـويدات (١٩٦٧)، ص ٤٦٢.

٣ - نعيم عطية، الإيقاع الروائي عند البيريس، مجلة المجلة، عدد ١٧٣ مايو ١٩٧١.

٤ - I.A. Richards, Practical Criticism, Harvest Book, N.Y. 1929. P. 216.

٥ - Eugen Raskin, Architecturally Speaking, N.Y. 1966, P. 64.

٦ - Herbert Read, The Meaning of Art, Penguin Books, 1967.

٧ - البيريس، تاريخ الرواية الحديثة، ص ٤٦٦.

٨ - البيريس، تاريخ الرواية الحديثة، ص ٤٦٦.

٩ - الان روب جرييه، نحو رواية جديدة، ت: مصطفى إبراهيم مصطفى، القاهرة، دار المعارف، د.ت: ص ١٥٢.

١٠ - أحمد الزغبي، في الإيقاع الروائي، أربد (الأردن)، دار الأمل، ١٩٨٦.

١١ - محمد يوسف القعيد، بلد المحبوب، عمّان، دار الشروق، ١٩٨٧.

١٢ - القعيد، بلد المحبوب، خاتمة الرواية.

١٢ - I.A. Richards, Practical Criticism, P. 340

١٤ - Rene Wellek and Austin Warren, Theory of Literature, Harvest Books, N.Y. London, 3rd. ed. 1997, P. 163.

١٥ - Nothrop Frye, Anatomy of Criticism, Princeton, New Jersey, 1971, P. 267.

١٦ - البيريس، تاريخ الراوية الحديثة، ص ٤٦٥.

١٧ - جبرا إبراهيم جبرا، الغرف الأخرى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦.

١٨ - جبرا، الغرف الأخرى، الفصل الأخير.

١٩ - ياغي، مع غسان كنفاني وجهوده القصصية، ص ٧٢-٧٣.

٢٠ - ياغي، مع غسان كنفاني وجهوده القصصية، ص ١٠٤.

٢١ - أحمد الزعبي، في الإيقاع الروائي، ص ٩.
٢٢ - ياغي، مع غسان كنفاني وجهوده القصصية، ص ٩٦.
٢٣ - محمد العياشي، نظرية إيقاع الشعر العربي، تونس، المطبعة العصرية، ١٩٧٦، ص ١٣٣.
٢٤ - العياشي، نظرية إيقاع الشعر العربي، ص ٤١، ١٢٩، ١٣٣.
٢٥ - نعيم عطية، الإيقاع الروائي عند البيريس، مجلة المجلة، عدد ١٧٣ (١٩٧١).
٢٦ - عطية، الإيقاع الروائي عند البيريس، ص ١٢.

المـــراجـع

أولاً : المراجع العربية :

١ - البيريس، ر.م، تاريخ الرواية الحديثة، ترجمة جورج سالم، منشورات عويدات، وبيرت، لبنان، ١٩٦٧.
٢ - جبرا، إبراهيم جبرا، الغرف الأخرى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦.
٣ - جرييه، الان روب، نحو رواية جديدة، ترجمة مصطفى إبراهيم مصطفى، دار المعارف، مصر، (د.ت).
٤ - الزعبي، أحمد، في الإيقاع الروائي، دار الأمل، أربد، الأردن، ١٩٨٦.
٥ - عطية، نعيم، الإيقاع الروائي عند البيريس، مجلة المجلة عدد ١٧٣، مايو ١٩٧١.
٦ - العياشي، محمد، نظرية إيقاع الشعر العربي، المطبعة العصرية، تونس، ١٩٧٦.
٧ - القعيد، محمد يوسف، بلد المحبوب، عمّان، دار الشروق، ١٩٨٧.
٨ - ياغي، عبد الرحمن، مع غسان كنفاني وجهوده القصصية الروائية، معهد البحوث والدراسات، بغداد، ١٩٨٣.

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1. Frye, Northrop, Anatomy of Criticism, Princeton, New Jersey, 1971.

2. Raskin, Eugen, N.Y. 1966.

3. Red, Herbert, The Meaning of Art, Penguin Books, 1967.

4. Richards, I.A. The Practical Criticism, Harvest Books, N.Y. 1929.

5. Wellek, Rene and Austin Warren, The Theory of Literature, Harvest Books, N.Y., London, 3rd. Edition. 1997.

«الضاد العربية : مثال للتطور الصوتي»

د . يحيى أحمد

قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الكويت

خلاصة :

يهدف هذا البحث إلى كشف حقيقة الضاد، ذلك الصوت العصي في اللغة العربية، فيبدأ بعرض وصف القدماء لهذا الصوت (ابتداء من القرن الثاني الهجري) ويقدم مجموعة من النصوص التاريخية يوثق من خلالها النطق القديم لذلك الصوت .

ثم يتتبع الكلمات التي احتوت على هذا الصوت والتي افترضتها لغات أخرى من العربية، فيلاحظ أن ما حدث فيها من تطوير يقدم سندا لصحة الوصف القديم .

ثم يستعرض البحث وجهات نظر الباحثين الغربيين الذين لاحظوا وجود صوت جانبي مفخم ينطق به أبناء اللغات الجنوبية المعاصرة، وخاصة في الكلمات التي تشتمل على ضاد عربية وللتأكد من هذا الجانب، فقد قام الباحث ببحث ميداني سجل خلاله كلمات مهرية يوجد فيها هذا الصوت، وطبع نماذج منها على جهاز مرسمة الأطياف الصوتية Spectograph ورأى ان المطابقة بين النطق العربي القديم كما وصفه سيبويه، والنطق العربي الجنوبي المعاصر تامة إلى حد مدهش .

وبتقديم هذه الأدلة التاريخية والمقارنة والوصفية يخلص الباحث إلى أن القدماء لم يخطئوا في وصف هذا الصوت، ولم يصفوا ما سمي الضاد الضعيفة (أي الضاد المولدة)، وإنما وصفوا وصفا صحيحا صوتا كان ينطق في فترة من

حياة اللغة العربية. والتفسير الصحيح لاختلاف النطق القديم عن النطق الحديث هو أن الصوت قد تطور تطوراً جذرياً في اللغة العربية الفصحى.

١ — طبيعة المشكلة:

١/١ على الرغم من تأصل مناهج البحث التاريخي ومناهج البحث المقارن في الدراسات اللغوية المعاصرة إلا أن القارىء المتفحص يجد بين الفينة والأخرى عدم تطبيق لمبادئها أو عدم استغلال جيد لمناهجها. وذلك فيما يصادفه من كتابات عن بعض الظواهر المتعلقة بالعربية الفصحى. وفي هذه الظواهر المنظومة الصوتية للعربية. فقد وصف اللغويون العرب القدماء أصوات اللغة الفصحى وصفا دقيقا محكما في وقت لم تكن توجد فيه أجهزة معملية دقيقة تعين الباحث على إصدار الأحكام الدقيقة. وقد اعتمدوا في ذلك كلياً على حسهم اللغوي ومهاراتهم في الملاحظة. وقد كانت إنجازات اللغويين العرب في مجال الدراسات الصوتية مثار إعجاب لدى اللغويين الغربيين والمؤرخين لتاريخ الدراسات اللغوية. فوصف سيبويه، مثلا، للمنظومة الصوتية العربية يعد في نظر روبنز (Robins, 1967 : 98) «سباقا للدراسات الصوتية الغربية السابقة أو المعاصرة». كما أن «إنجاز العرب في هذا الفرع من الدراسات اللغوية كان أنجح بكثير على مستوى الدقة الوصفية من إنجاز الإغريق والرومان(١) (Robins, op.cit. p. 99).

ولست أريد بهذا أن أوحي للقارىء أن عمل القدماء كان متكاملا من جميع الوجوه، فهذا ضد منطق التطور الفكري. ولكن أريد أن أوضح أن تعاملنا مع آراء القدماء في مجال الدراسات الصوتية على وجه التحديد ينبغي أن يكون على مستوى المكانة الرفيعة التي بلغوها في ذلك المجال. وأعتقد أن هذا مطلب منهجي وليس مطلبا أخلاقيا.

(١) كان الاستاذ روبنز يردد في محاضراته على الطلبة في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية SOAS (١٩٧٤) أن ما توصل إليه العلماء العرب في مجال وصف الأصوات في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) لم يصل إليه العلماء الغربيون إلا في القرن الثامن عشر تقريبا.

ولم يقتصر وصف القدماء على المنظومة الصوتية للغة الرسمية، أي الصوتيات أو الوحدات الصوتية الوظيفية في الفصحى، The Phonemic Inventory بل إنهم تطرقوا كذلك إلى ذكر حركات فرعية وأصوات «غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في قراءة الشعر» (الكتاب ٤/ ٤٣٢). (١) وهذه الأصوات تتراوح ما بين كونها صورا نطقية allophones أو أشكالا لهجية. أما وصف أصوات اللغة فق كان وصفا شاملا ودقيقا، بحيث إن هذا الوصف يصدق على عربيتنا المعاصرة فيما عدا أصواتا خمسة هي: الجيم، القاف، الطاء، الضاد والعين. (٢).

١/ ٢ ومنذ أن تنبه المستشرقون (أمثال بروكلمان، برغشترار، فلايشر وغيرهم) ومن بعدهم اللغويون العرب المعاصرون إلى مثل هذه الاختلافات، فإن الجدل لم يتشعب حول صوت من أصوات العربية مثلما تشعب حول صوت الضاد.

إن الحقيقة الواضحة التي يقبل بها جميع اللغويين العرب المعاصرين الآن هي أن صوت الضاد يختلف نطقه في عربيتنا المعاصرة عنه في العربية التي وصفها سيبويه. والضاد في العربية المعاصرة صوت لثوي - أسناني انفجاري مفخم مجهور. والضاد في العربية القديمة صوت لثوي - أضراسي(٣) احتكاكي مفخم مجهور، على نحو ما سنرى بالتفصيل فيما بعد. وقد كان من المنطقي في ضوء ما هو معروف عن القدماء من دقة ملاحظاتهم الصوتية أن يفسر اختلاف نطق الضاد في هذين المستويين من العربية على أنه نتيجة للتطور الصوتي. ونحن نجد بالفعل هذا النهج من التفسير في صياغاته الأولى عند إبراهيم أنيس (١٩٦١ : ٥٠) ورمضان عبدالتواب (١٩٨٤ : ٦٤). ولكننا نجد من جانب آخر فريقا من الباحثين يظن أن القدماء ربما وصفوا الضاد المولدة لا الضاد الأصلية»

(١) تسهيلا للقراءة فسنختصر الإشارة إلى كتاب سيبويه (الكتاب) على نحو ما نهج منذ القدم. أما الطبعة المستعملة في بحثنا هذا فهي طبعة الهيئة المصرية للكتاب، بتحقيق الاستاذ المرحوم عبدالسلام هارون.

(٢) أهملت الإشارة إلى «الهمزة» لأن أمر الخلاف فيها غير ذي بال.

(٣) لم يرد هذا المخرج في جدول الأصوات الدولية، وقد استنتجته من خلاصة وصف سيبويه لهذا الصوت.

(كمال بشر ١٩٧٠ : ١٣٧). أو أن «وصف القدماء للضاد غير واضح. . يتسم بغير قليل من الغموض والتعقيد بحيث يحار المرء في فهم ما يقصدون على وجه الدقة». و«أن الضاد التي وصفها القدماء تمثل بالنسبة لنا صوتا مجهولا من الصعب تصوره». (الفرنواني ١٩٨٦ : ١١٠). ونجد كذلك من يقول: «ونحن لانعرف كيف كان ينطق هذا الصوت. ومن وصف اللغويين العرب يتضح لنا أنه صوت غريب جدا ولا يوجد له نظير في أية لغة إنسانية أخرى. حتى اللغات السامية (كذا!!). ولذلك اشتهر العرب بأنهم الناطقون بالضاد» (صلاح الدين حسنين ١٩٨١ : ٩٨).

فالقضية، إذن ليست بحاجة إلى مزيد من التوضيح بقدر ما هي بحاجة إلى الحسم. وسيكون من هدف هذا البحث التوصل إلى هذه الغاية. ولكي يكون من الميسور تحقيق هذه الغاية فقد رأيت من الضروري أن أوضح النطق القديم للضاد، وذلك بشرح مصطلحاته وعملياته النطقية، وخاصة ما يتصل منها بموضع اتصال اللسان باللثة والأضراس، وهذا ما يظهره جهاز «راسم الحنك الكهربي» Electro-palatograph الذي استعنت به في توضيح النطق الجانبي(١). واستعنت بجهاز مرسمة الأطياف الصوتية لبيان الحزم الصوتية المرتبطة بتردد نمطي typical frequency مع الأصوات الاحتكاكية. وقد كان من الممكن والحالة هذه أن نقارن بين النطق القديم والنطق العربي الجنوبي لكي نؤسس وجه الشبه بين النطقين. وأما بقية أجزاء البحث فالهدف منها تعضيد النطق القديم وتوضيح حقيقته اللغوية والتاريخية وكذلك تسليط الضوء على طبيعة التغيرات الصوتية.

٢ — التغير الصوتي :

٢/ ١ الكائنات الحية تتغير باستمرار، واللغة باعتبارها كائنا حيا تكون عرضة

(١) وصف النطق القديم واضح تمام الوضوح بالنسبة لي. أما كيفية أدائه فقد عولت فيه على مهارتي الشخصية وقدرتي على أداء الأصوات (السواكن والحركات) الواردة في جدول الأصوات الدولية، حيث إنني تلقيت تدريبا صوتيا مكثفا ضمن دراستي الأكاديمية في جامعة لندن.

للتغير. ويمكن اعتبار التغير من الخصائص المتأصلة في اللغة. فاللغة تتغير باستمرار، ولا يمكن أن نتصورها في وضع سكون ولو للحظة واحدة. وعلى مستوى الأداء الفردي نجد أن نطقنا لجملة واحدة مرتين مختلفتين لن يكون متشابها في الخصائص الصوتية الطبيعية في كل مرة. إن النطق سيكون مختلفا مع كل أداء جديد، وهذا ما جعل بعض اللغويين المعاصرين (Goyvaerts, 1975 : 87) يبالغ فيذهب إلى أنه «لا يوجد شيى اسمه اللغة س أو اللغة ص، هناك فقط متكلمو لهجات خاصة يجمعهم قاسم مشترك كبير». والسبب الذي يجعلنا لانشعر بالتغير في كل لحظة هو الطبيعة البطيئة للتغير. وتعودنا على التغاضي عن الملامح الفائضة في النطق.

يطرأ التغير على اللغة بمختلف مستوياتها: المستوى الصوتي، المستوى الدلالي والمستوى النحوي ـ الصرفي. وليس هناك مستوى من مستويات اللغة يستطيع أن يستمر بمنأى كلي عن التغير. بيد جن التغير يطرأ على اللغة بدرجات متفاوتة. فنظرا لاختلاف عوامل التغير (الداخلية والخارجية) واختلاف خصوصيات وظروف كل لغة، فإن مستويات اللغة تكون عرضة للتغير بشكل متفاوت.

إن الدراسة التاريخية المقارنة ترينا أن هناك جوانب من اللغة تكون أبطأ من غيرها في الاستجابة لظروف التغير، ولو أخذنا كمثال من اللغة العربية المستوى الصوتي والمستوى الدلالي، فإن الملاحظة الدقيقة المدعمة بالأمثلة والوثائق(١) ترينا أن المستوى الدلالي في اللغة قد تعرض للتغير الملحوظ بشكل أوسع وأغنى مما تعرض له المستوى الصوتي في أمثلته المعروفة لنا. وهذا يعود إلى طبيعة الكلمة، حيث إن لها شكلا ولها مدلولا، ويتم الربط بينهما عن طريق الاتفاق العرفي في البيئة اللغوية. وهذه الطبيعة الثنائية للكلمة تمكننا من فصل الشكل عن المدلول الاشاري، فيصبح من الممكن عندئذ أن يطرأ التغير على الشكل أو

(١) أنظر بالنسبة لأمثلة التغيرات الدلالية (فايز الداية: ١٩٨٥) وللأمثلة الصوتية (كانتينو: ١٩٦٦) والمراجع المذكورة هناك.

على المدلول الإشاري بشكل منفصل (١). وربما يرجع ذلك (أي اختلاف حجم التغيرات الصوتية والدلالية) بالنسبة لمثال اللغةالعربية، إلى عامل التوثيق. فقد اهتم العرب باللغة الرسمية، لغة التنزيل والحديث النبوي والشعر والتاريخ، فدونوا معاني المفردات، وكانوا من أوائل من صنف المعجمات، ولم تحظ اللغة المحكية بنفس الاهتمام. وإشاراتهم المختصرة إلى بعض اللهجات العربية لم تأخذ نسقا منظما، ولم يكن القصد منها استخلاص الظواهر المتواترة وتدوينها وتقعيدها. أضف إلى ذلك ارتباط العنصر الدلالي باللغة في إطارها الاجتماعي والثقافي، وهذان الجانبان من الأمور التي تتغير بشكل طبيعي مع مضي الأيام، وهذا ما كان يقصده مارتينيه (Martinet, 1961: 135) حينما كتب قائلاً: «إذا كانت اللغات تتغير، ونحن نعرف أنها كذلك، فذلك راجع بالدرجة الأولى إلى أن احتياجات مستعمليها تتغير، وقد وجد أن هذا ينطبق على الأصوات والكلمات (المعجم) والنحو».

٢/٢ وعلى الرغم من صغر حجم التغيرات الصوتية بالقياس إلى التغيرات في المجال الدلالي. فاللغة العربية لغة مستعملة ومتداولة منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا، والبيئة اللغوية العربية تمتد عبر مجال واسع من الأراضي، وقد تسربت إليها أو اندمجت فيها، منذ بدء انتشار الإسلام في العصور التالية، مجموعات سكانية لغتها الأم ليست العربية. وهذه العوامل مما تساعد على التغير وتهيىء له. أضف إلى ذلك أن العربية حملت في طياتها منذ العصر الجاهلي بذور التغيرات الصوتية وذلك عن طريق انتساب العرب لأصول قبلية مختلفة، حيث كانت لكل قبيلة ظواهر صوتية معينة، أثرت بشكل أو بآخر في النطق بالفصحى.

٣ — ما الذي يسبب التغيرات الصوتية؟

١/٣ حينما نتفحص ذلك النمط من التفسير البنيوي الذي قدمه اندريه

(١) يجد القارىء في الفصل الثالث والرابع من كتاب جافيه (chafe, 1970) نقاشا مستفيضا لفكرة الطبيعة الثنائية للكلمة. ويبدو لي ان هذه الفكرة من الأفكار التي جاء بها من يسمون في الدراسات اللغوية التاريخية «النحاة الجدد»، انظر: (Jankowsky, 1972: 81) ولكن جافيه يعزوها لنفسه!.

مارتينيه (انظر Goyvaerts 1975: 67) فسنجد أنه يعول على العوامل الداخلية، بمعنى أن التغيرات الصوتية مرجعها طبيعة اللغة نفسها بحكم أنها كيان لها نظام. وكل كيان له نظام يحمل بين طياته بذور التغير ويوضح ليهمان (Lehman 1962 : 176) طبيعة العوامل الداخلية التي يسميها «الضغوط النظامية الداخلية» (systemic pressures) فيقول إننا لايمكن أن نغزو التغيير إلى النظام نفسه، ولكن النظام يوجه التغيير. ويكون هدف التغيير عندئذ هو التوصل إلى نوع من الانسجام في النظام الصوتي.

ولكن مارتينيه في الواقع لايقصر التغير على العوامل الداخلية، فهناك عوامل خارجية تساهم في إحداث التغيير، والأمر يشبه، كما يقول عويفيرتس (نفس المصدر والصفحة)، كتلة الثلج التي تنهار، حيث إن محصلة العوامل المختلفة هي التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. ومن أهم العوامل الخارجية التي لها صلة بموضوع بحثنا والتي يسمح المجال بذكرها هنا (انظر Goyvaerts 1975:72ff).

١ — اختلاط مجموعات سكانية بأبناء البلد الأصليين، بحيث تبدو التركيبة السكانية مزيجا من طبقات اجتماعية مختلفة. صحيح أن الضغوط الاجتماعية والحاجة إلى الاتصال تستدعي أن يتعلم المجموعات السكانية الوافدة النمط اللغوي النموذجي المستخدم في المجتمع، ولكن بعض العادات النطقية لاتكتسب بسهولة، وخاصة تلك التي ليس لها نظير في اللغة الأم.

٢ — مبدأ التيسير وبذل الحد الأدنى من المجهود. ويكون هذا العامل مسئولا في أغلب الأحوال عن تلك التغيرات الصوتية المتفرقة sporadic sound-shift مثل المماثلة والانسجام الحركي، وإسقاط بعض الأصوات أو ترخيمها أثناء النطق.

٣ — سوء الفهم، ويكون ذلك بجن بعض المتغيرات الصوتية تفهم بشكل خاطىء من قبل المستمع على أنها الأنماط الصحيحة المقبولة ومع تكرار الاستعمال يشيع النمط الخاطىء في الكلام، ثم يتأصل ليصبح جزءا من اللغة.

ولايحدث التغير الصوتي في مثل هذه الحالة بشكل منفرد. وإنما يكون ضمن النظام اللغوي.

٣/ ٢ وقد تعرض دوايت بولينجر (Bolinger 1980: 40) للعوامل التي تسبب فقدان الصوت من المنظومة الصوتية فذكر العوامل التالية:

١ — أن الصوت قد لايكون قويا ومن ثم فإنه من السهل على الأطفال تجاهله ابتداء. وذلك مثل الصوت (h) الذي فقد من بعض اللهجات الاسبانية فقدانا تاما. وفقد في الإنجليزية في الضمير (it) حيث أن أصله التاريخي هو (hit).

٢ — أن فقدان الصوت يحدث عادة حينما يكون التأثير واقعا على عدد محدد من الكلمات.

٣ — حينما يشبه صوتا آخر شبها قريبا فيتداخل الصوتان. وهذه الحالة تنطبق على صوت الضاد العربية القديمة وصوت الظاء، كما سيمر بنا فيما بعد.

٣/ ٣ يتضح من الأفكار التي قدمناها عن التغيرات الصوتية، أن هذه التغيرات تأتي نتيجة لعدة عوامل (داخلية وخارجية) وليس لعامل واحد معين. وقد يحدث أن تتضافر هذه العوامل ــ بشكل معقد ــ في إحداث تغير صوتي معين. وأنا أقترح الأخذ بمثل هذا النمط من التفسير بالنسبة للضاد العربية.

ولتكن الخطوة التالية إذن هي النظر في الوصف القديم لصوت الضاد لنتعرف على الصفات المميزة لهذا الصوت وكيف تغيرت فيما بعد.

٤ — كيف كانت تنطق الضاد القديمة؟

٤/ ١ سنتخذ وصف سيبويه أساسا نقيس به النطق القديم، وذلك لأن وصف سيبويه يعد أقدم وصف وأضبط وصف، والذين جاءوا بعد سيبويه اتخذوا هذا الوصف أساسا، ولم يضيفوا إليه إضافات جوهرية. (١)

(١) قارن ــ مثلا ــ تعريف سيبويه الآتي ذكره بالتعريفات التالية:
ابن جني: سر صناعة الاعراب.
ابن يعيش: شرح المفصل.
ابن الجزري: النشر في القراءات العشر.

يحدد سيبويه (الكتاب ٤/ ٤٣٣) مخرج الضاد على أنه «من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس». والضاد عنده تلي الجيم والشين والياء. وإذا حاولنا أن نبحث عن مصطلح صوتي حديث لهذا المخرج فهو: «لثوي ـ أضراسي» حيث إن الجيم والشين أصوات لثوية ـ حنكية، والمخرج التالي لهذه المجموعة من الأصوات هو اللثة والأضراس.

٤/ ٢ يتحدث سيبويه (الكتاب ٤/ ٤٣٤) عن الصوت الشديد فيصفه بأنه «الذي يمنع النفس أن يجري فيه». ويذكر من أمثلة الصوت الشديد الأصوات التالية: الهمزة، القاف، الكاف، الجيم، الطاء، التاء، الدال، الباء.

ويتحدث عن الصوت الرخو (الكتاب ٤/ ٤٥٣) فيلاحظ أنه الصوت الذي يمكن إجراء النفس فيه. ويعدد الأصوات الرخوة فيذكر القائمة التالية: الهاء، الحاء، الغين، الخاء، الشين، الصاد، الضاد، الزاي، السين، الظاء، الثاء، الذال، الفاء.

يتضح من هذه الأمثلة أن الصوت الشديد هو الصوت الذي ينحبس معه تيار الهواء لالتقاء عضوي النطق التقاء محكما، أما الصوت الرخو فلا ينحبس في نطقه تيار الهواء، وذلك لأن عضوي النطق يلتقيان التقاء غير محكم، فيسمح للهواء بالمرور من خلال مجرى ضيق.

وفي الدراسات الصوتية المعاصرة يستعمل مصطلح «صوت انفجاري» في مقابل المصطلح الأول، ويستعمل مصطلح «صوت احتكاكي» في مقابل المصطلح الثاني. ويبدو لي أن هناك فرقا طفيفا بين المصطلحين القديمين اللذين استعملهما سيبويه والمصطلحين الحديثين، فمصطلحا سيبويه مبنيان على أساس نطقي articulatory basis، أي أنهما يشيران إلي كيفية نطق تلك الأصوات، بينما المصطلحان اللذان استحدثهما المعاصرون مصطلحان سمعيان auditory basis أي أنهما يشيران إلى الاثر السمعي الذي تحدثه تلك المجموعة من الأصوات. وهذه التفرقة، إن قبلنا بها، سيكون لها أثر في مجموعة الملامح المميزة

التي نختـارها، ولاتؤثـر بأي حال من الأحـوال فيما نحن distinctive features بصدد ذكره في هذا البحث. ولذلك فسأستعمل المصطلحين «صوت احتكاكي» و«صوت انفجـاري» في معناهما الشـائع، أي دلالتهما على كيفية النطق، من غير تحميلها أية ظلال من المعاني الجانبية.

٤/ ٤ ويصف سيبويـه الضاد بأنها مجهورة. ومصطلح الجهر بحـاجة إلى وقفة قصيرة في هذا السياق. يصف سيبويـه (الكتاب ٤/ ٤٣٤) الصوت المجهور على النحو التالي: «المجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت». والأصـوات المجهـورة في نظامـه هي: الهمـزة، الألف، العين، الغين، القـاف، الجيم، الياء، الضـاد، الـلام، النون، الراء، الطاء، الدال، الزاي، الظاء، الذال، الباء، الميم، الواو.

ولكي تكتمل الصـورة دعنا نـورد تعريفـه للمهموس (الكتـاب ٤/ ٤٣٤): «المهمـوس حرف أضعف الاعتماد في مـوضعـه حتى جرى النفس معـه، وأنت تعـرف ذلك إذا اعتبرت فـرددت الحرف مع جـري النفس، ولـو أردت ذلك في المجهورة لم تقـدر عليه». والأصـوات المهموسة التـي يوردها سيبـويه بعـد هذا التعـريف هي: الهاء، الحاء، الخاء، الكـاف، الشين، السين، التاء، الصـاد، الثاء، الفاء.

والواقع أن وصف سيبويه لمعنى المجهـور والمهموس بحاجة لمزيد من الشرح والتفسير، وسأعرض فيما يلي وجهتي نظر مختلفتين.

٤/ ٤/ ١ أول ملاحظة يمكن تسجيلها هنـا هو ان التعريفين السابقين لم يحظيا بشرح كاف أو بتعقيبـات مفيدة مـن قبل اللغويين العـرب القدمـاء. لقد اقتصر الأمر على مجرد ترديد عبارات سيبـويه. ونجد عند إبراهيم أنيس «١٩٦١: ٩٢) محاولة جادة لشرح تعريف سيبويه.

يتوقف إبـراهيم أنيس عند عبـارتين في تعريف سيبـويه الآنف الـذكر محاولا إبراز ما فيهما من معـان. والعبارة الأولى هي: «إشباع الاعتماد»، فيرى أن المراد

بها هو وصف «المجهور بأنه صوت متمكن مشبع فيه وضوح وفيه قوة، وتلك هي الصفة التي يشير اليها الأوروبيون بقولهم sonority . فالمجهور أوضح في السمع من نظيره المهموس، لانزاع في هذا، وليس للاعتماد معنى في كلام سيبويه سوى عملية إصدار الصوت».

ومشكلة هذا التعليل تكمن في كيفية استخدام إبراهيم أنيس لمصطلح «الوضوح».

ولكي نتحقق من صحة هذا التعليل علينا أن نلقي نظرة متفحصة على هذا المصطلح كما هو مستعمل في الدراسات الصوتية. يقول لاديفوغد (ladefoged 1975:239) «إن الوضوح في الصوت هو مقدار علوه بالقياس إلى أصوات أخرى لها نفس الطول والنبر والدرجة». وبناء على هذا التعريف، يتضح أن «الحركات عموما أكثر وضوحا من السواكن» (Gimson 1970:225).

أما السواكن فالواضح منها ـ تحديدا ـ هي تلك التي تشبه الحركات، وهي م ـ ن ـ ل ـ ز (ladefoged 1975:239) والأصوات المجهورة وجميع الأصوات المهموسة لها وضوح قليل (ladefoged op.cit).

نستخلص مما سبق ذكره أن الوضوح خاصية طبيعية في الصوت ينشأ عنها أثر سمعي ملحوظ. ولذلك فإن منشأ الوضوح هي طبيعة الصوت وليس كيفية نطق المتكلم له. وبهذا فإن الأصوات المجهورة ليست أقوى الأصوات في سلم الوضوح، ولكنها بالمقارنة مع الأصوات المهموسة، قد تبدو أكثر وضوحا. إذن ففهم إبراهيم أنيس لعبارة سيبويه لايعتبر دقيقا في جميع جوانبه، وتظل العبارة بحاجة إلى شرح أكثر.

أما العبارة الثانية التي يتوقف عندها إبراهيم أنيس فهي قول سيبويه «منع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه». ويعقب عليها المؤلف قائلا (١٩٦١ : ٩٣): «ومعنى هذا في رأيي ان الحس المرهف لسيبويه جعله يشعر مع المجهور باقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الآخر حتى ليكادان يسدان

طريق التنفس إلى الاندفاع من بينهما في قوة تحرك الوترين الصوتيين، وتجعلهما يتذبذبان، ويظلان يتذبذبان حتى ينقضي الاعتماد، أي حتى تنتهي العملية العضلية المطلوبة في إصدار الصوت».

وأوضح من هذا الشرح أن إبراهيم أنيس فهم عبارة سيبويه السابقة أنها تعني اهتزاز الأوتار الصوتية أو عدم اهتزازها، أي عملية التصويت نفسها Voice . ويترتب على هذا الشرح أن نفهم الجهر على أنه صفة نطقية ـ طبيعية، وليس صفة سمعية ـ إنطباعية ـ auditory impressionistic .

٤/ ٢/ ٢ وفي مقالة للغوي المعاصر حاييم بلانك نشرت سنة ١٩٦٧، نجد نقاشا مثمرا للفكرة موضوع حديثنا في هذا القسم. . يبدأ بلانك حديثه من خلال فكرة طرحها ياكبسون عرضا في نهاية مقالته المشهورة عن الأصوات المفخمة في اللغة العربية (Jakopson 1957:519) حيث يرى أن التفرقة بين المصطلحين «المجهور» و«المهموس» كان يقصد بها التفرقة بين نمط للنطق القوي Fortis «أي قوي» في مقابل نمط للنطق الضعيف (Lenis) «أي ليِّن»، ولم يكون المقصود بهما وجود الصوت أو عدم وجوده(١). والذي يبدو واضحا لبلانك أن تعريف سيبويه للمجهور والمهموس يتضمن إشارة لقوة النطق وضعف النطق، على التوالي. ولذلك فهو يفسر «إشباع الاعتماد» على أنه يعني الاتصال، أي اتصال عضوي النطق. ويترجم بلانك تعريف سيبويه للمجهور بما يتلاءم وفهمه له فيبدو على النحو التالي (Blance 1967:298) «المجهور صوت يكون فيه الاتصال بموضع النطق اتصالا كاملا فيمنع ذلك حدوث النفس أو جريان النفس معه حتى ينفرج عضوا النطق ويحدث الصوت المراد إنتاجه». ويعيد صياغة تعريف المهموس على هذه الشاكلة «المرجع السابق، ص ٢٩٩» : «المهموس صوت يكون فيه الاتصال بمكان النطق ضعيفا فينساب معه النفس، وتستطيع ان تعرف ذلك بأن تردد صوتا من هذا الصنف مع جريان

---

(١) يبدو لي أن هذا التعليل يعول على مفهوم «الشدة» intensity ، الذي يعتبر مسلكا نطقيا مرجعه الناطق وليس الصوت نفسه.

النفس. ولو حاولت هذا الشيء مع صوت مجهور فلن تنجح في الأداء».

ويرجح بلانك أن يكون هذان المصطلحان قد استعملا بالدرجة الأولى إشارة إلى الأصوات الانحباسية، وذلك من قبيل التعميم في استعمال المصطلح. فسيبويه على الرغم مما عرف عنه من دقة التعبير، وأن عباراته نادرا ما تكون خاطئة، يلجأ في بعض الأحيان إلى استعمال تعبيرات لاتصدق بحرفية تامة على جميع جزئيات الظاهرة التي يصفها.

فكأنه بذلك يترك تقدير الحالات الاستثنائية لحصافة القارىء. من ذلك، مثلا، أنه في إشارته إلى ظاهرة القلقلة يتحدث عن «صويت» يخرج من الفم، مرتبط بالتباعد السريع للسان عن مكان النطق: «... فإذا وقفت خرج معها صويت ونبا اللسان عن موضعه، وهي حروف القلقلة.. القاف والجيم والطاء والدال والباء». (الكتاب ٤/ ١٧٤).

ولاشك أن سيبويه يعرف تمام المعرفة أن الباء صوت شفتاني وأن اللسان لايلعب أي دور في إنتاجه. ولكنه استعمل مصطلح «نبو اللسان» لأنه الصفة الغالبة لبقية أصوات القلقلة، واعتمد على بديهة القارىء في استثناء الباء من الوصف العام.

كذلك نجد في وصف سيبويه للمجهور ذلك التعريف العام الذي أوردناه فيما سبق. «المجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه»، وهو يدخل ضمن أفراد المجموعة، كما رأينا، الواو والباء والألف. وسواء اعتبرنا هذه الأصوات الثلاثة حركات طويلة صرفة أو أشباه حركات أو حركات مركبة، بناء على وظيفتها الفنولوجية، فإن طريقة نطقها تتسم، كما نعرف، بتابعد عضوي النطق. وسيبويه نفسه يطلق على الواو والياء مصطلح (أصوات اللين): «لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما (الكتاب ٤/ ٤٣٥). ويستعمل مصطلح (الهاوى) في صفة الألف لأنه «حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع الياء والواو» (الكتاب ٤/ ٤٣٥).

ولـذلك لايمكن أن يصـدق وصف إشبـاع الاعتماد على هـذه الأصـوات الثلاثة . إلا ان وصف سيبويه العـام يترك للقارىء الملم بمجمل وصفه استنتاج مثل هذه الحقائق .

٤/ ٤/ ٣ أما فيما يختص بعبارة «منع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه» فإن بـلانك بلانك يفسرهـا على أنها تعني وجود النفس Whisper أو عدم وجوده أثناء النطق بالصوت . فالأصوات المهموسة تسمع مهموسة سواء نطقت بصوت عال أم نطقت إسراراً Whispered . أما الأصوات المجهورة فلا يمكن أن تكـون مجهـورة إلا حينما تنطق بصـوت عـال أو بشكل واضح . وإذا نطقت الأصوات المجهـورة إسرارا فسنحصل على نتيجة مختلفـة : أصوات سلـب منها الجهر بشكل كلي أو بشكل جزئي . ولـو أعدنا صياغة هذه الحقيقـة فبإمكاننا أن نقول أن المهموس صوت يمكن الإسرار به (أوالهمس به)، وأن المجهور صوت يمكن الجهـر بـه، أي التكلم بـه بصـوت عـال أو واضح . وإذا تأملنـا تعـريف سيبـويـه للمهمـوس «أنظـر الفقـرة ٣/ ٤ مـن هـذا البحث» فسنجـد الإشـارة الواضحة إلى هـذه الحقيقة : «المهموس حرف أضعف الاعتماد في مـوضعه حتى جـرى النفس معـه، وأنت تعـرف ذلك إذا اعتبرت فـرددت الحرف مع جـري النفس (يقصـد الإسرار أو الهمس ي . أ» ولـو أردت ذلك في المجهـورة لم تقـدر عليه (يقصـد بعدم الاقتدار أنك لن تستطيع المحـافظة على صفة الجهـر عندئذ، لأن الصوت سيكون مسلوب الجهر ي . أ» .

٤/ ٤/ ٤ يتضح من هذا العرض أن سيبويه يتخذ «وجود النفس» معيارا مهما في التفرقة بين المهموس والمجهور . ويبدو أن سيبـويه طبق هذا المعيار في تصنيفه للقاف والطـاء مع الأصوات المجهورة كـالدال والباء والجيم . فهـذه الأصوات تشترك في كونها غير مصحـوبة بنفس . واتصـال اللسان بمـواضع نطقهن يكون محكما، ويظل مجرى الهواء مسـدودا، ولايجري النفس إلا بعد ابتعاد اللسـان عن نقطـة الاتصـال(١) . أمـا الكـاف والتـاء فـوجـود النفس معهما واضح تمام

(١) فيما يختص بصـوت الجيم، تجدر الإشـارة هنا إلى أن هـذه الصفـة النطقيـة تنطبق على الجيم العـربية، كما وصفهـا سيبويه، وليس على الجيم العربية في الفصحى المعاصرة .

الوضوح.

وحينما يعالج سيبويه ظاهرة الوقف نجده يوظف المعيار السابق على أساس كونه ملمحا مميزا Distinctive feature في نظامه الصوتي. فالوقف، كما يوظفه سيوبه، عبارة عن ظاهرة صوتية اختبارية يلجأ اليها المتلكم. وهي في إطارها العام عبارة عن حذف حركة آخر صوت في الكلمة.. ولكن سيبويه يتناول جوانب أخرى من الوقف كطبيعة الحركة التي تعقب الوقف. والوقف قد يحدث م الأصوات الشديدة أو الرخوة، المهموسة منها والمجهورة على نحو ما هو مفصل في الكتاب. ولكن ما يعنينا في هذا المقام هو المسلك الصوتي المختلف للأصوات المجهورة والمهموسة في حالة الوقف. فالأصوات المجهورة حينما نقف عليها نسمع معها صوتا مجهورا خفيفا، وهو في رأيي حركة مركزية وسيطة غير منبورة، أي ما يرمز له في جدول الأصوات الدولية بالرمز / هـ/ . وهذا الصوت ينشأ نتيجة لتحرك اللسان جزئيا في موضع الاتصال لتحقيق النطق. يقول سيبويه (الكتاب ٤/ ٧٤) : (واعلم أن من الحروف حروفا مشربة ضغطت من مواضعها (اتصل اللسان بموضع النطق اتصالا محكما ي. أ) فإذا وقفت خرج معها من الفم صوت ونبا اللسان عن موضعه. وهي حروف القلقلة وذلك القاف والجيم والطاء والدال والباء». ولكن الأمر يخلف بالنسبة للأصوات المهموسة. فالانطباع السمعي للوقف في هذه الحالة هو شيء يشبه «النفخ». وهذه الكلمة يستخدمها سيبويه للإشارة إلى ما يصحب المهموس من نفس. ولنقرأ فيما يلي عبارته فهي أوضح من أن تحتاج إلى شرح (الكتاب ٤/ ١٧٥): «وأما الحروف المهموسة فكلها تقف عندها مع نفخ، لأنهن يخرجن مع التنفس لا صوت الصدر، وإنما تنسل معه. وبعض العرب أشد نفخا، كأنهم الذين يرومون الحركة فلابد من النفخ، لأن النفس نسمعه كالنفخ».

٤/ ٥ ويضيف سيبويه إلى الضاد صفة الإطباق (الكتاب ٤/ ٤٣٦): «فأما المطبقة فالصاد والضاد والطاء والظاء». ويصف ظاهرة الإطباق وصفا دقيقا

فيقـول : «وهذه الحروف الأربعـة إذا وضعت لسـانك في مـواضعهن انطبق لسانك من مـواضعهن إلى ما حازى الحنك الأعلى من اللسان تـرفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسـانك فـالصــوت محصـور فيما بين اللســان والحنك إلى مـوضع الحروف».

وهذا الـوصف الذي يتفق مع مـا توصل اليـه المحدثـون (انظر : Jakobson 161 : 1957) حيث يتضح من صـور الأشعة للحنجـرة أثنـاء النطق بالأصـوات المفخمـة في اللغة العـربية أن اللسـان ينجذب إلى الخلف مع ارتفـاع مؤخـره تجاه الحنك، بينما يتخذ وسطه شكلا مقعرا فتصبح مسـاحة التجويف الحلقي ضيقة. ويؤدي هذا الـوضع النطقي إلى توتر عضلات منطقة الحنجـرة، ولذلك لايكون من الممكن أن ننطق بصوت مفخم دون أن تكون الحركة التالية له مفخمة أيضا، حيث إن اللسـان يحتـاج لمقطع واحد على الأقل لكـي يرجع إلى الـوضع السـابق للتفخيم. والتفخيم صفة تمييزية فارقـة لمجموعة من الأصوات وردت في عبارة سيبـويه المشهـورة (الكتـاب ٤/ ٤٣٦): «ولـولا الإطباق لصـارت الطـاء دالاً والصاد سينا والظاء ذالاً ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شيء من موضعها غيرها». أي ليس هناك نظير مرقق للضاد (الجانبيـة) في اللغة العربية. وسنعرف فيما بعد أن هناك لغات لاتستعمل إلا النظير المرقق لهذا الصوت.

٥ — صفة الرخاوة والنطق الجانبي للضـاد :

٥/ ١ بـذكر صفـة الرخـاوة والنطق الجانبي يكتمل وصف الضـاد. وهاتـان الصفتان متلازمتـان هنا، وهما اللتان ساهمتـا بشكل أساسي في خلق الاضطراب الذي نشأ حول نطق الضاد قديما وحديثا. فالضاد القديمة كانت صوتا احتكاكيا (أي رخـوا) لاينحبس أثنـاء النطق بها تيـار الهواء، بل يظل مستمـرا من خـلال تـلامس الجانب الأيمن للسـان بـالأضراس العلـويـة. فيكـون مخرج الهواء من الجانب الأيمن اللســان. ويمكـن أن يكـون مـن الجانب الايسر ولكنني اجـد الجانب الأيمن أسهل في التنفيـذ. فنطق الضاد كـان جانبيا بهذا المعنـى. والفرق

بينهما وبين اللام أن الأخيرة يتم نطقها بأن تصل طرف اللسان باللثة فينغلق مجرى الهواء من الوسط ولكن يتزامن مع ذلك تسرب الهواء من جانبي اللسان وليس من جانب واحد. فاللام صوت جانبي كذلك ولكنه غير مفخم. قارن أشكال (١) و (٢) و (٣) التي تبين موضع اتصال اللسان باللثة أو الحنك في نطق الضاد الانفجارية والضاد الجانبية واللام. وسنحاول فيما بعد أن نشرح الأسباب التي أدت إلى الاضطراب الذي نشأ حول الضاد. ولكن نريد قبل ذلك أن نوضح النطق الاحتكاكي والجانبي لنرى مدى وضوح هذه المسألة في كتب القدماء.

٥/ ٢ هناك جملة إشارات وردت في مواضع متفرقة من الكتاب، ونجملها فيما يلي:

١ — يصف سيبويه مخرج الضاد فيقول (٤/ ٤٣٣): «ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد». والملم بأسلوب سيبويه في الوصف يجد هذا الوصف واضحا، ولكن الوصف كان سيزداد وضوحا لو أنه أشار إلى نقطة التقاء حافة اللسان بسقف الفم، كأن يقول مثلا: من الحنك (الصلب) بينه وبين أول حافة اللسان الخ.. وينبغي أن نفهم مصطلح (حافة اللسان) على أنه يعني مقدمة اللسان أو وسطه Front of tongue ، لأن سيبويه يستخدم مصطلحا آخر وهو (أدنى من اللسان) وهو يعادل مصطلح المحدثين Tip of the tongue، أي طرف اللسان.

٢ — يأتي سيبويه على ذكر الأصوات الرخوة فيعدد منها «الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال، والفاء» (الكتاب ٤/ ٤٧٠).

٣ — ويكرر ذكر صفة الرخاوة للضاد في موضع آخر، فيبين أن الضاد مطبق ورخو مثل الظاء والصاد (الكتاب ٤/ ٤٦٥).

٤ — وفي معرض حديثه عن الصيغ النطقية لكلمة (اضطجع) يذكر أن البعض يدغمون فيقولون (مضجع)، والبعض الآخر (مطجع) وهنا يلاحظ

سيبويه وجود فرق بين الضاد والطاء، ويشير إلى هذا الفرق بقوله : «ولم تكن الطاء في السمع كالضاد» (الكتاب ٤/ ٤٧٠). لأن الأول شديد والأخير رخو.

٥ — في باب الإدغام يتحدث سيبويه عن (لام المعرفة)، يقصد (أل التعريف)، وحالة إدغامها في الأحد عشر صوتا من أصوات طرف اللسان وهي : النون، والراء، والدال، والتاء، والصاد، والطاء، والزاي، والسين، والظاء والثاء، والذال.

ثم يضيف إلى المجموعة صوتين آخرين لايتضمنان طرف اللسان فيقول (الكتاب ٤/ ٤٥٧) : «واللذان خالطاها أي خالطا اللام ي. أ» : الضاد والشين، لأن الضاد استطالت لرخاوتها حتى اتصلت بمخرج اللام. والشين كذلك حتى اتصلت بمخرج الطاء».

وهنا نلاحظ أن سيبويه قد استخدم مع الضاد مصطلح الاستطالة.. وفي موضع آخر يشير إلى نفس الحقيقة فيقول (الكتاب ٤/ ٤٣٢) : «وأنها (أي الضاد) تخالط مخرج غيرها بعد خروجها فتستطيل حين تخالط حروف اللسان».

ويكرر سيبويه استعمال هذا المصطلح مع صوت آخر هو الشين فيقول (الكتاب ٤/ ٤٤٨) : «لأن الشين استطال مخرجها».

والاستطالة هنا ليس مقياسا نوعيا بل مقياس كمي. ولذلك يمكن اعتبارها من الملامح ما فوق التركيبية supra seqmental feature . ويصدق على المصطلح عندئذ تفسير هنري فليش له (Fleisch 1965 : 75) من أنه لايعني الطول Length وإنما يعني التطويل Lengthening . أي أن الاستطالة ليست صفة طبيعية ملازمة لمكان نطق الصوت، وإنما هو شيء يحدث للصوت (الضاد والشين على وجه التحديد في نظام سيبويه) من بعد النطق به. وذلك بأن يلجأ المتحدث إلى إطالة النفس.

٦ — في باب الوقوف ترد إشارة عابرة إلى مخرج الضاد (الكتاب ٤/ ١٧٤) : «والضاد تجد المنفذ من بين الأضراس». ويقف سيبويه عند هذا الحد،

ولا يستطرد في بيان كيفية تنفيذ الضاد من بين الأضراس، وذلك كما فعل مع ما سماه بـ (الضاد الضعيفة). حيث إنه يتوقف وقفة طويلة عند هذا الصوت الذي يعده من الحروف غير المستحسنة في العربية، والتي لاتستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر. يقول سيبويه (الكتاب ٤/ ٤٣٢): إلا أن الضاد الضعيفة تتكلف من الجانب الأيمن. وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر وهو أخف، لأنها من حافة اللسان مطبقة، لأنك جمعت في الضاد تكلف الإطباق مع إزالته عن موضعه. وإنما جاز هذا فيها لأنك تحولها من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين، وهي أخف لأنها من حافة اللسان، وأنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها. فتستطيل حين تخالط الحروف اللسان، فسهل تحويلها إلى الأيسر لأنها تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن، ثم تنسل من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان، كما كانت كذلك في الأيمن».

هذا وصف واضح ومطول، لانجد له مثيلا لأي صوت آخر في الكتاب ولكنه مع ذلك يركز على جانب واحد من المشكلة وهو كيفية أداء الضاد الضعيفة. وخلاصة كلامه في ذلك أن الضاد الضعيفة من طرف اللسان وهي صوت مطبق، ويمكن أداؤها (تكلفها) من الجانب الأيمن أو من الجانب الأيسر للسان لأن العملية النطقية سيان في الجهتين فأنت تقوم بمجرد نقل لموضع النطق من جهة اليمين إلى جهة اليسار. ولكنها أخف أي أسهل في الأداء في الجانب الأيسر وأن إنجاز الضاد الضعيفة في الجانب الأيسر أسهل أداء لأن مخرجها من حافة اللسان، ولأنها صوت رخو، فيمكن بعد خروجها «أن تخالط مخرج غيرها» أي تندمج مع أصوات أخرى، وحينما يحدث هذا الاندماج مع «حروف اللسان» خاصة، أي الأصوات الأمامية، فإنها «تستطيل» أي أن نطقها يطول أكثر بمعنى أن الفترة الزمنية المطلوبة لنطقها تصبح أطول. وحينما يكون الأداء من الجهة اليسرى، يحدث للضاد الضعيفة مثلما يحدث لها في الجهة اليمنى، أي أن الهواء «ينسل» (يتسرب) من جانب اللسان حتى تنتهي العملية النطقية المطلوبة لنطق الضاد باتصالها بأصوات أخرى.

هـذا ملخص ما ذكـره سيبويـه عن الضاد الضعيفـة . والكاتب يتمنى لـو أن سيبويه كان قد عقد مقارنة بين الضاد الضعيفة والضاد الفصيحة . ولكنه لم يفعل ذلك . والسؤال المهم الآن هو : مـا هذا الصوت الذي يصفه سيبـويه هنا؟ يجب أن نقرر باديء ذي بـدء أن سيبويه يصف هنا صوتا غير صـوت الضاد الفصيحة التي مـر بنا وصفهـا . وهـذه الملاحظة مهمـة لأن الضـاد الفصيحة تمثل وحـدة صوتية Phoneme في المنظومـة الصوتية للغـة العربية بينما تمثل الضـاد الضعيفة صورة نطقية allophone غير مرغوبـة في النطق الفصيح . وقد أخطأ المستشرق كـورينتـه (Corriente 1978 : 51) حينما استعـار مصطلح الضـاد الضعيفـة واستعمله وصفا للضـاد الفصيحة . بعد هذا أقول إنه من الـواضح لي أن سيبويه يصف في هذا النص صورة نطقية للضاد الفصيحة . وإذا حاولنا أن نطبق وصف سيبويه فننتـج ضادا أخرى بالصفة التي ذكـرها سيبويه وفي نفس مـوضع الضاد الفصيحـة ، فلن يكون هـذا الصوت غير ضـاد سلب منهـا الجهر . وبهذا تكـون الصورة النطقية التي وصفها سيبويه وسماهـا (الضـاد الضعيفة) هو هذا الصوت مضافـا إليه صفة الإطباق ، وهـو صوت يشبه صوت الضـاد الفصيحة من جميع الأوجـه فيما عـدا صفـة الجهـر والهمس ، حيث إن الأول مهمـوس بينما الاخير مجهور .

والجدير بـالذكر أن الكتـاب المتأخرين الـذين نقلوا عن سيبويـه كيفية وصف الضاد أشاروا إلى أن تنفيذ النطق عنده يكون من الجانب الأيمن للسان أو الجانب الأيسر . وقـد تطـورت دلالة مصطلـح (الضاد الضعيفـة) . فقـد استعمل هـذا المصطلح فيما بعد للإشارة إلى الضاد التي تحولت إلى ظاء .

٧ — يتحدث سيبويه في آخر ثـلاث صفحات من الكتاب عن بعض المظاهر النطقية غير المطـردة عند العـرب ، ويذكـر من ذلك إبدال الضـاد لاما : «ومثل ذلك قـول بعض العرب الطجع في اضطجع ، أبـدل اللام مكـان الضاد كـراهية التقـاء المطبقين ، فأبدل مكـانها أقـرب الحروف منهـا في المخرج والانحـراف» . (الكتاب ٤/ ٤٨٣) .

وهـذا مثـال مهم لتـوضيح النطق الجانبي للضـاد، حيث ينص سيبـويـه على الطبيعة الانحرافية للضاد بتشبيهها لها بـاللام. بيد أن تعليل سيبويه لسبب إبدال الضاد لاماً تعليل غير دقيق، فالتقـاء المطبقين ظاهـرة شائعـة في اللغة العـربية. أضف إلى ذلك أن هذا المثـال ليس هو الـوحيد من نوعـه في اللغة العربيـة. هناك عـدة أمثلة أخرى للتبادل ما بين الضـاد واللام، اجتهـد الاسـتاذ كورينتيه-Co) riente 1978:52 ff) أستاذ الدراسات العربية في جامعة سراقوسا، فجمع منها النماذج التالية(١).

(أ) الضاد / اللام في بداية الكلمة (٢)

لبج : وقع على الأرض — ضبيج : أوقع بنفسه على الأرض

ضيعا لبعا (بالاتباع) أي سدى

لحلح : تزحزح — ضحضح : تبين، ترقرق

لخ : امتلأت (العين بالدموع) — ضخ : تنساب الدموع

لز : وصل — ضز : لزوم الحنك الأعلى بالأسفل إذا نطق الرجل

لعز : كناية عن الجماع — ضعز : الوطء الشديد

لعلع : ضعف من مرض — ضعضع : خف أو ضعف من مـرض أو حزن

لغد : حبس — ضغد : عصر (حلقه)

لغى : قا ل كلاما غير مفيد

(١) يلاحـظ أن معاني بعض الكلمات التي بـالضاد تختلف عن تلك التي بـاللام، بينما البعض الآخـر منها تكـاد تكون مترادفة، وربما كان سبب اختـلاف المعاني في الحالة الأولى هو أنه لما استقلت الكلمـة بنطقها المختلف، اقترن استقلالها الصوتي بمعنى مستقل ملاءمة مع النطق الجديد.

(٢) أورد كـورنيته معـاني المفـردات بالفـرنسيـة، مستعينا بمعجم كـازمنسكى Kaziminiski المسمى Dictionnaire Arabe Francais وقد وجدت أن المعاني غامضة في بعض الأحيان وغير مفهومة في أحيان أخرى، فرأيت أن أتحقق من معاني الأمثلة المذكورة بالرجوع الى (اللسان) و (المعجم الوسيط) والمعاني المذكورة هنا مأخوذة من هذين القاموسين.

لف : (لاف القوم) : اختلطوا	ضغى : صاح من الألم
واللفيف : القوم المجتمعون	ضف (القوم) : اجتمعوا وتزاحموا .
ويقال : فلان من لفيفنا وضفيفنا	نضمه إلينا اذا حزبه أو حزبنا أمر .
لك (لكه) : غمزه	ضك (ضكة) : ضغطه ، غمزه
لم : احتضن	ضم : احتضن
لمز : عاب	ضمزه : عابه
لهب (ألهب النار) : أشعلها	ضهب (اللحم بالنار) لوحه
لهد : دفعه في صدره دفعا شديداً	ضهد : أذل

(ب) ض / ل كثاني صوت في الكلمة

أل : صرخ من شدة الألم	أضت عند الولادة : بكت من الألم
بل : ندى ونضر	بض (البدن) : رق ونضر
	بضت (العين) : دمعت
البلال : ما يبل به الحلق من الماء	البضاضة : البقية القليلة من الماء
جل : عظم	جض : مشى مشية فيها تبختر
خلخل : حركه من موضعه	خضخض : حرك ورجرج
علب الشيء : وسمه وخدشه	عضب الشيء : قطعه ، وشقه
فل (السيف) : كسره	فض (خاتم الكتاب) : كسره وفكه
فلخ : شق	فضخ : كسر وشق
وليمة : طعام العرس	وضيمه : طعام المأتم

(جـ) ض / ل كآخر صوت في الكلمة

الرحل : ما يوضح على ظهر البعير	الرحض : القرية البالية
رفل (ثوبه) : أرفله أو وسعه	رفض الوادى : اتسع
ركل (المركل من) الدابة : حيث	ركض : (المركض) جنب الدابة حيث

يركلها	يركض أي يرفس
رمل (النسج) : رققه	رمض (النصل) : حدده
قايله : عاوضه وبادله	قايضه : بادله سلعة بسلعة

إن هذه المجموعة الكبيرة من الأمثلة التي فيها تبادل بين (اللام) و (الضاد) ليست عشوائية. وقد خلص منها كورينته (OP. CIT.P.54) إلى هذين الاستنتاجين :

(١) ربما أورد أصحاب المعاجم الأمثلة التي فيها (لام) بدلا من (ضاد) من رواة ثقاة تعرضت لهجاتهم الى تغير الضاد القديمة فيها نحو لام.

(٢) أن أصحاب المعاجم كتبوا تلك الأمثلة باللام بينما هي في حقيقتها عبارة عن ضاد جانبية (الضاد القديمة)، لم يعد نطقها مألوفا لديهم، ووجدوا أن أقرب مرادف لذلك الصوت حسب عاداتهم النطقية، هو صوت اللام.

وكلا التفسيرين مقبول، أو لنقل إنهما احتمالان ممكنان. فبالنسبة للتفسير الاول فإن التحول من الضاد إلى اللام سيفقد الضاد صفة الرخاوة فقط. وإذاأضفنا إلى النطق الجديد الترقيق أي فقدان صفة الإطباق، فإن ذلك كله سيدخل في باب تسهيل النطق، أي اتباع مبدأ بذل الحد الأدنى من المجهود.

أما التفسير الثاني فهو مبني على حقيقة لغوية وهي أن الإنسان الذي يسمع صوتا لغويا ليس له نظير مطابق في النظام الصوتي للغته الام، فإنه يفسر هذا الصوت طبقا لأقرب شبيه له في لغته. من ذلك مثلا أن العربي الذي يسمع الصوت الوسيط الاحتكاكي المهموس، أي الصوت (C) كما في النطق السويسري للكلمة الألمانية (ich)، فإنه يربطه بصوت الشين، بل ينطقه شينا.

٥/ ٣ نريد أن نخلص من هذا العرض إلى أن ما يميز الضاد في اللغة العربية قديما أنها كانت صوتا جانبيا احتكاكيا. وهذا الصوت الجانبي الاحتكاكي المجهور ( ) موجود في اللغات الجنوبية (انظر الفقرة ٥/ ١ من هذا البحث).

وهو موجود كذلك في لغة اسمها (أوبيخ) (ubykh) (من المجموعة السيركازية)، ونصادفه كذلك في عدد من اللغات الإفريقية مثل : ساندوى sandawe ، وبورا .Bura ومارغي Margi .

أما النظير المهموس لذلك الصوت ( ) ، أي الضاد الضعيفة، فموجود في لغات كثيرة من أهمها : الويلزية والآيسلندية، وفي الكباردية (من مجموعة اللغات القوقازية)، وهو موجود في بعض اللغات الإفريقية مثل : الزولو والشونا، ونجده كذلك في عدد من اللغات الهندية ـ الأمريكية مثل : الأباشي Apache، والوشرام Wishram والنوتكا Nootka .

إذن فالضاد الجانبية ليست خاصة باللغة العربية . ومن ثم فإن المقولة المشهورة التي تصف اللغة العربية بأنها (لغة الضاد) تصدق ـ كما أرى وكما يؤيده البحث المقارن ـ على الضاد العربية المعاصرة وليس على الضاد القديمة، لأن الضاد المعاصرة صوت فريد (صوت لثوي ـ أسناني انفجاري مفخم مجهور) . ولاتوجد بالفعل في لغة من لغات العالم غير اللغة العربية وبهذا نستطيع أن نعتبر اللغةالعربية بحق «لغة الضاد» .

وقد بقيت الضاد الجانبية دون تغيير في العربية الجنوبية، كما بقيت فيها أصوات أخرى من العربية القديمة . ومن هنا فإن دراسة اللغات العربية الجنوبية تصبح ضرورة ملحة، لما لها من أهمية في إلقاء الضوء على جوانب من الفصحى القديمة .

٦ ـــ الضاد الجانبية في اللغات العربية الجنوبية :

٦/ ١ تنتظم اللغات العربية الجنوبية مجموعتين رئيسيتين : المجموعة العمانية ومن أهم لهجاتها : الشحرية (وتنتشر في إقليم ظفار) ، ويوجد نمط مختلف عنها اختلافا يسيرا في جزر كوريا موريا، والحرسوسية وهي لهجة قبيلة الحراسيس، والبطحرية (والبطاحرة جماعة يسكنون شرق ظفار) . والمجموعة الحضرمية ويمثلها : المهرية، لهجة إقليم المهرة .

وهذه اللهجات متقاربة وتشترك في جملة خصائص لانريد التطرق لها(١). والذي يهمنا أن نركز عليه هنا هو تأكيد الباحثين الغربيين (وفيهم الأساتذة الجامعيون والدبلوماسيون والرحالة) على وجود الصوت الجانبي (   ) في هذه اللغات ومن اللافت للنظر أنه في كثير من الأحيان يكون هذا الصوت في تلك اللغات مقابلا للضاد في الكلمات العربية الفصيحة، كما يتضح من الأمثلة التالية التي سجلتها من كلام مواطن من إقليم المهرة، ولكنه على ألفة أيضا ببعض لهجات المجموعة العمانية(٢).

الكلمة في العربية الجنوبية المعاصرة	المقابل في العربية الفصحى
- efor	ظفار
me rah	ضرس (الطواحن)
ob	ضب
bot	اضبط (خذ)
ahk	ضحك
ar	أرض
a ɛn	أسرة (ظعن)
ammak	ضممت (وجدت)
i	ضل (تاه)
e:f	ضيف

(١) تقدم كتابات الأستاذ المرحوم جونستون تحليلات جيدة لهذه اللغات انظر في ذلك (Johnstone 1975) والمراجع المذكورة هناك.

(٢) هو السيد / سالم علي محيسن. لاحظ بالمناسبة اندماج الظاء والضاد في المهرية.

إن هـذه الأمثلة تـوضح لنا بشكل جلي النطق الجانبي للضـاد، انظر الصـورة الطيفية في الاشكال (٤) و (٥) و (٦). وقارن بينهـا وبين الصور الطيفية للضاد الجانبية في العربية القديمة كما تظهر في نطقي أنا في الأشكال (٧) و (٨).

٧ — أدلة أخرى على النطق الجانبي للضاد :

٧/ ١ نريد في هذا القسم أن نقدم مجموعة من القرائن التي تقدم سندا لما نحن بصدد توضيحه. وهذه القرائن تنقسم إلى قسمين : القسم الأول منها عبارة عن كلمات تتبادل فيها الضـاد الجانبية مع أصوات أخرى احتكاكية ــ جانبية والقسم الثاني يتناول الكلمات العربية المحتوية على ضاد والتي استعارتها لغات أخرى من العربية.

٧/ ١/ ١ يورد صاحب تاج العـروس كلمة «مضط» كنطق في كلمة «مشط»، ويقـول عنها : «قـال الكسائي هي لغـة لربيعـة واليمن يجعلون الشين ضـادا بين الشين والضـاد غير المخالصـة، أي ليست بضـاد صحيحة ولا شين صحيحـة. ويقولون أيضا : اضطر لي مثل اشتر لي».

والشق الأول من كلام الزبيدي يدل على أنه يعرف أن الضاد الصحيحة ينبغي أن تكون صـوتا جانبيـا مجهورا، وهو قـد سمع صوتـا قريبا من الضـاد، أي فيه صفة الجانبيـة، وقريبـا كذلك من الشين أي فيه صفـة الرخـاوة والهمس، وهذا الصوت الذي يحاول فيه الزبيدي تقريبـه إلى القارىء هو الشين الجانبية في العربية الجنوبية، أي (s) . ولازال هذا الصوت مـوجودا في المنظومة الصوتيـة للعربية الجنوبية المعاصرة. أما مثاله الثاني فهو استطراد توضيحي لكلامه السابق. وورد في تاج العروس كذلك : «بيش الله وجهه وسرجه، بالجيم ، أي بيضه وحسنه» :

٧/ ١/ ٢ ويورد رابين (Rabin 1951 : 33) مثـالين آخـرين فيهما تبـادل بين الضاد والشين هما : اللوش في اللوض، ونشا في نضا.

ويـذكـر رابين أن هـذا النطق نسـب إلى اليمن في المراجع التي أوردت هـاتين الكلمتين. وهـذه الإشـارة تبين لنا أن الضـاد الجانبيـة كـانت متأصلـة في النطق

العربي الجنوبي.

٧/ ٢/ ١ نجد الضاد في بعض الكلمات التي اقترضتها بعض اللغات من العربية تتحول إلى لام. من ذلك ما ذكره كانتينو (١٩٦٦ ـ ٨٧) من أن الضاد العربية قد تحولت في الأسبانية الى (ld) كما في قولهم : (al-calde) أي القاضي، و (al-bayalde) أي البياض، و (ravalde) أي ربض، و (al-dava) أي الضبة(١).

٧/ ٢/ ٢ ويذكر فولرز (Vollers 1892 : 145 fn) أن في اللغة الماليزية تتحول الضاد العربية الى (d') أو (l) . وفي جزيرة ماندناو يتحول نطق الصوت إلى(l) ومن تلك الكلمات : «ريالت» أي رياضة وملرت «ملرت» أي مضرة و «دلمة» اي ضمة و «هادلر» أي حاضر.

٧/ ٢/ ٣ وفي دراسة لغرينبيرغ عن الكلمات العربية المقترضة في لغة الهاوسا، يرد هذا المثالان (Greenberg 174: 88) : (al-kali) أي القاضي، و (hayla) أي : حيضة.

وهذه الأمثلة جميعها واضحة، ولكن قيمتها العلمية في سياق حديثنا هذا ستزداد لو أننا كنا نعرف تاريخ دخولها في تلك اللغات. فنحن لا نستطيع أن نجزم الآن ما إذا كان نطق تلك الكلمات باللام يعني أن تلك الكلمات كانت تنطق من قبل أبناء اللغة العربية بضاد جانبية في فترة دخولها تلك اللغات، أم أن ذلك التحوير مجرد مسلك لجأت إليه تلك اللغات التي اقترضت هذه الكلمات من العربية؟ وأعتقد أن هذا الموضوع بحاجة إلى مزيد من البحث.

٨ — الخلط بين الضاد والظاء :

٨/ ١ قدمت لنا الصفحات السابقة صورة واضحة عن كيفية نطق الضاد الجانبية حيث إن صفتها النطقية يمكن أن توصف كما يلي : «صوت لثوي ـ أضراسي، احتكاكي مفخم، مجهور» وهذه الملامح المميزة distinctive feature

(١) هذا نص مشهور، وقد استشهد به كذلك رمضان عبدالتواب (١٩٧١ : ١٢) وأورد الكلمة الأولى فقط.

جعلت هذا الصوت وحدة صوتية مستقلة في المنظومة الصوتية للغة العربية. ولكنها من جانب آخر جعلتها تبدو قريبة الشبه بصوت الظاء من حيث الأثر السمعي(١). ويتضح ذلك حينما نقارن الصورة الطيفية لكلمة (ظل)، الشكل (٩)، بالصورة الطيفية لكلمة (ضل)، بضاد جانبيه الشكل(١٠)، ونلاحظ في الصورتين كيف أن الصوت الاحتكاكي يترك أثرا واضحا في الصورة الطيفية، لأن تيار الهواء لايتوقف أثناء أدائها، وذلك بعكس الأصوات الانفجارية أو الوقفية التي تتميز بانحباس مجرى الهواء في مرحلة الاغلاق. والبياض في الصورة الطيفية يعكس ذلك (انظر الشكل رقم ١١). والملمح المسئول عن إحداث هذا التداخل بين الصوتين هو بلا شك «الجانب الاحتكاكي». وبهذا فقد أدى هذا التداخل الصوتي إلى وضع مضطرب هو عبارة عن وجود نطقين متشابهين لوحدتين صوتيتين لكل منهما وظيفتها المستقلة. ومن المرجح أن هذا الخلط قد بدا مع توسع الدولة الإسلامية ودخول عناصر كثيرة غير عربية ضمن الدولة الإسلامية التي كانت اللغة العربية هي لغتها الرسمية. «وعلى الرغم من عدم وجود نقوش أو وثائق مكتوبة تعود إلى عصر مبكر من حياة اللغة العربية، فإن الوثائق الإسلامية المبكرة التي وصلت إلينا وما في مؤلفات القرنين الثاني والثالث الهجريين وما بعدهما تشير إلى وجود خلط صوتي بين الضاد والظاء. فهناك وثيقتان مكتوبتان على البردي، الأولى وجدت في الفسطاط وتعود إلى سنة ١٠١ هـ(٧٢٠م)، وفيها نجد الظاء قد أبدلت كتابة بالضاد في كلمة: احفظ، إذ كتبت: احفض والوثيقة الثانية وجدت في الفيوم وتعود إلى سنة ١٦٩هـ (٧٨٥م)، وفيها حدث العكس، إذ أبدلت الضاد ظاء في كلمة: فضل، اذ كتبت: فظل» (المعيبد ١٩٨٦: ٥٧٦). وكذلك سجلت المصادر العربية «حالات متعددة لهذا الخلط بين الصوتين نطقا وكتابة. ونشير إلى حالة ذكرها ابن عذارى عن محمد بن الأغلب (توفى ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م) أمير أفريقيا (تونس)

(١) من الطريف أنني حينما أسمع زميلا لغويا الشريط المسجل عليه كلمات مهرية ينطق سالم علي محيسن، أو أقوم أنا بنطق الضاد الجانبية، وأطلب من الزميل أن يعيد على مسمعي الصوت الذي سمعه فإنه يقوم بنطق صوت هو صوت الظاء بلحمته وسداه، وإذا كان الأمر كذلك من اللغويين. فكيف مع غير اللغويين وغير المتخصصين؟.

الذي اعتاد أن يكتب : ضبي، بدلا من : ظبي» (المرجع السابق).

وهناك حكاية رواها أبوعلي القالي، حدثت في عهد عمر بن الخطاب، وحكاية أخرى رواها الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) في البيان والتبيين (أوردهما رمضان عبدالتواب ١٩٧٠ : ١٦). وهما تكشفان عن وجود خلط بين صوتي الضاد والظاء. وفي القرن الثامن الهجري نجد ابن الجزرى (ت ٨٣٣هـ) يصور هذا الخلط بين الصوتين بصورة دقيقة فيقول (النشر في القراءات العشر ١/ ٢١٩) : «والضاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإن ألسنة الناس فيه مختلطة، وقل من يحسنه. فمنهم من يخرجه ظاء، ومنهم من يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاما مفخمة، ومنهم من يشمه الزاي، وكل ذلك لايجوز».

ولم يقتصر الاضطراب النطقي بين هذين الصوتين على المشرق العربي، بل يبدو أن المغرب العربي كان يعاني من نفس المشكلة، فنحن نجد ابن مكي الصقلي (ت ٥٠١هـ/ ١١٠٧م) يتعرض في (تثقيف اللسان) للأخطاء اللغوية التي كان العامة يرتكبونها في عصره. ومن تلك الأخطاء التي ذكرها خلطهم بين الضاد والظاء ليس في لغة التخاطب فقط، بل في قراءاتهم للقرآن كذلك. ولم يكن يحقق النطق الصحيح إلا فئة قليلة من الناس يسميهم ابن مكي الصقلي بالحاذقين الثاقبين، وذلك في موقف لغوي معين وهو قراءة القرآن. يقول المؤلف في فصل عنوانه الضاد والظاء (ص ٩١) : «هذا رسم قد طمس، وأثر قد درس من ألفاظ جميع الناس، خاصتهم وعامتهم، حتى لانكاد نرى أحدا ينطق بضاد ولا يميزها من ظاء.

وإنما يوقع كل واحدة منهما موقعها، ويخرجها من مخرجها الحاذق الثاقب إذا كتب أو قرأ القرآن لا غير. فأما العامة وأكثر الخاصة، فلا يفرقون بينهما في كتاب ولا قرآن».

وبعد أن أورد ابن مكي الصقلي الكلمات التي تكتب بالظاء وتلك التي تكتب

بـالضاد ومعـايير التفرقـة بينهما، اختتم فصلـه بعبارة تتضمن شيئـا من الترغيب والترهيب في نفس الـوقت (ص ٩٤) : «وقـد قال أهل العلم : لاتجوز الصـلاة خلف من يبدل الضاد ظاء في فاتحة الكتاب، ولا صـلاته هو إذا وجد من يأتم به فتركه وصلى وحده».

وهناك إشـارات كثيرة أخرى (العـربية ليـوهان فـك : ١١١ فما بعد) تقـودنا إلى استخلاص حقيقة عامة وهي أن نطق الضـاد الفصيحة كما وصفها سيبويه، كان صـعبا. ويكـون مـن الطبيـعي عـندئذ أن نعتـبر صـعوبة النطـق سـببا جوهريا من أسباب تغير الضاد. والواقع أن كانتينو، كما نقـل عـنه كورنيته (corriente 1978 : 51)، يعزو تغير الضاد إلى صعوبة نطقه فحسب. ولكن صعوبة النطق لم تكن السبب الوحيد. فهناك أيضا عامـل التشابه ما بين الضاد والظاء في بعض الملامح الصـوتية. وهنـاك إمكانية انشطـار الضاد إلى صـوتين. صوت جـانبي احتكـاكي مفخـم، وآخـر جـانبي غير احتكـاكي مفخم. أو صـوت جـانبي احتكاكي مفخم، وآخر احتكاكي مفخم.

٨/ ٢ وقد حـاول اللغويـون العرب تصحيح هـذا الوضع المضطـرب ويشهد على ذلك كثـرة المؤلفات في التراث العـربي التي تحاول إرشاد المتعلمين إلى كيفيـة التفريق بين الصـوتين(١) وكانت هـذه المؤلفات تهدف كذلك إلى غـاية معلـومة وهي الحفاظ على الضاد كوحدة صوتية وظيفية ومنع اندماجها في الظاء.

إن الدراسة التـاريخية لميكانيكية التغير الصوتي تـرينا أنه في الحالات التي يتغير فيهـا صـوت بحيث يؤول نطقـه إلى شبيـه بصـوت آخر مستقل (كمثـال الضـاد والظاء)، فإن هناك ثلاثة احتمالات إزاء هذا الوضع (راجع : Goyvaerts 1975 : 68):

الاحتمال الأول : أن يتداخل الصوتان فيحل أحدهما محل الآخر تدريجيا.

الاحتمال الثاني : أن يقضي أحـد الصوتين الآخـر فيحل محله، ويهمـل الآخر

---

(١٧) وقد بدأت المحـاولات الأولى في القرن الرابع الهجري، ثم ازدادت وتنـوعت فيها بعد. انظر في ذلك مقـالة محمد جبار المعيبد (١٩٨٦).

إهمالا تاما.

الاحتمال الثالث : أن يبقى الصوتان، ولكن ينشطر أحدهما إلى صوتين اثنين.

والاحتمالات الثلاثة تقود إلى نتيجة واحدة وهي ضرورة إعادة ترتيب النظام الصوتي في النهاية، مع الاختلاف في التفاصيل بالنسبة لكل حالة.

والواضح أن العربية لم تكن لتتحمل أيا من الاحتمالات الثلاثة وذلك لتأصل صوتي الضاد والظاء في البناء الصوتي للغة، ولأن إعادة ترتيب النظام الصوتي ستترتب عليه خطورة بالغة بالنسبة للغة ترتبط بكتاب مقدس هو القرآن الكريم، والحديث الشريف وبالتراث الفكري المتواصل. ولذلك فإن تغير صفة الضاد كانت نتيجة طبيعية في هذا الوضع.

٩ — متى تغير نطق الضاد وكيف انتشر النطق الجديد ؟

٩/ ١ كانت الضاد ـ إذن ـ في أصلها صوتا لثويا ـ أضراسيا، احتكاكيا مفخما، مجهورا، وتحولت إلى صوت لثوي أسناني، انفجاري، مفخم، مجهور، فمتى حدث هذا التغير في النطق؟ يذهب مارتينيه (Martinet 1962 : 136) إلى أن الناس لايكونون واعين بالتغير الذي يحدث في لغتهم. وهذه الفكرة صحيحة لو فسرناها على أنها تعني أن التغيرات الصوتية تتم عادة ببطء بحيث لايشعر بالتغير إلا الأجيال المتعاقبة وإذا كانت هذه طبيعة التغيرات الصوتية فمن الصعب أن نحدد تاريخا دقيقا لحدوث التغير. بالاستعانة ببعض الإشارات التي وردت في كتب القدماء يمكننا تلمس الطريق وتحديد تاريخ تقريبي.

يذكر ابن الجزرى، وهو من مؤلفي القرن الثامن الهجري، في كتابه التمهيد، كما أورده عنه إبراهيم أنيس (١٩٦١ : ٥٠) أن المصريين وبعض المغاربة ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة(١). وهذا يعني أن هذا الصوت كان قد تطور واتخذ

(١٨) لاحظ أن الطاء التي وصفها سيبويه مجهورة، بينما الطاء الحديثة مهموسة، وسبب جهرها، فيما أرى انها كانت مهموزة Glottalised . وفي المادة اللغوية من المهرية التي سجلتها من كلام السيد/ سالم علي محيسن تبدو الطاء مهموزة. ولذلك فقول إبراهيم أنيس (١٩٦١ : ٥١) «أن ما كان يسمى بالطاء كان في الحقيقة ذلك الصوت الذي ننطق به الآن ونسميه ضادا «غير صحيح إطلاقا، لأن هناك فرقا بين الطاء المهموزة والضاد الحديثة في ميكانيكية النطق وفي الخصائص السمعية.

مـا يشبـه نطقـه الحالي في مصر والمغـرب العـربي في تلك الفترة. وحينما نتفحص الرسـائل التي كتبت في الفرق بين الضاد والظـاء (راجع المعيبد ١٩٨٦ : ٥٩٠) سنجد أن من أواخر الـرسائل المصنفة في هذا الحقل هي رسـالة يحيى بن عمر بن محمد المكي القرشي (ت ٨٨٥هـ). وهذا قد يوحي بأن النطق الجديد قد انتشر في الأقاليم الإسلامية. وأن الخلط بين الضاد والظاء قد بدأ يتقلص.

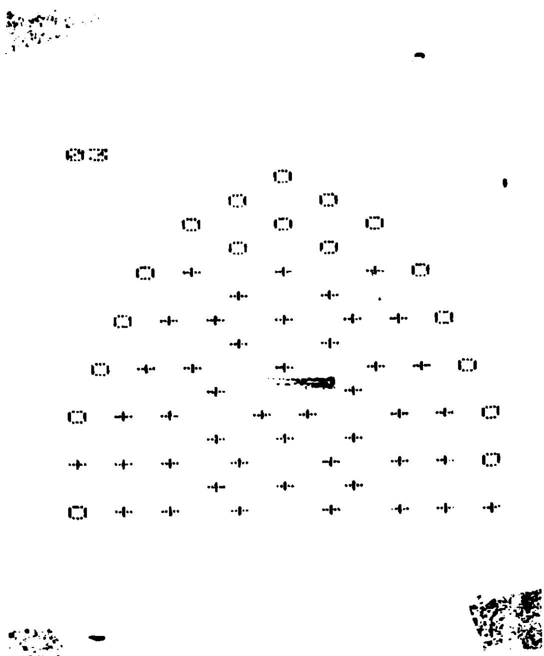
ومن الطريف أنه بعـد أن استقر الوضع، وشاع النطق الجديـد للضاد، الذي هـو نطقنـا الحالي لها، حاول بعض المتـأخرين مـن اللغويين محاربـة هـذا النطق والعـودة إلى النطق القـديم الذي وصفـه سيبـويـه ويتجلى هذا الاتجاه في كتـاب مخطوط لعلي بن محمد بن خليل (ت ١٠٠٤هـ) حيث «بنى المؤلف كلامه على رد من ينطق الضـاد من المصريين نطقا ممـزوجا بـالدال المفخمـة أو الطاء، محاولا في الوقت نفسه إثبات أن نطقها قريب من الظاء» (المعيبد ١٩٨٦ : ٦١٥).

٩/ ٢ وكما أن تغير الأصـوات لايحدث فجأة، فـإن انتشـار النطق الجديـد لايكون سريعا حاسما، وإنما يأخذ شكل الموجات او الدوائر التي تتسع تدريجيا. ويرجح الأستاذ كورنيته (Corriente 1978 : 51) أن يكون النطق الجديد للضاد قد ابتدأ في شمال الجزيـرة العربية، ربما في نفس المنطقة التي نشـأت فيها النبطية. ثم انتشر النطق الجديد تدريجيـا على شكل موجة. وواجه هـذا النطق مقاومة من العرب الجنوبيين.

هـذا الـرأي مبني على ما ورد في دراسـات المستشرقين من «أن إبـدال الضـاد بالدال كان من خصـائص النبطية. فقد روى أن زامر هارون الرشيـد : برصوما (يـدل اسمه على أصلـه الآرامي) المنتمي إلى الطبقـات الـدنيا مـن سكان سـواد الكوفـة، كان يقـول: أبيد بدل : أبيـض» (فك ١٩٨٠ : ١١٢). وبهذا يكون النطق الجديد قـد ابتدأ من شرقي العـراق في فترة مبكرة، حتى إذا ما كـان القرن الثامن الهجري، نجد أن هذا النطق قد انتشر في مصر والمغرب.

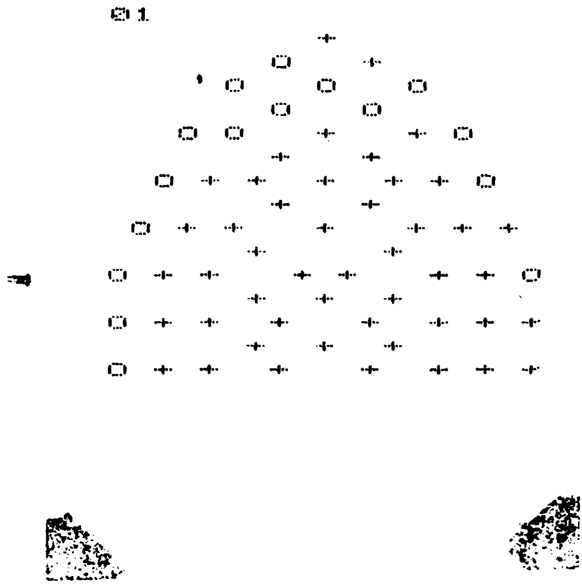
أما ما ذكره كورنيته عن مقاومة العرب الجنوبيين للنطق الجديد، فالواضح أنه

إشارة إلى عدم استجـابتهم لهذا النطق، واحتفاظهم بما كان ولا يـزال موجودا في تراثهم اللغوي.



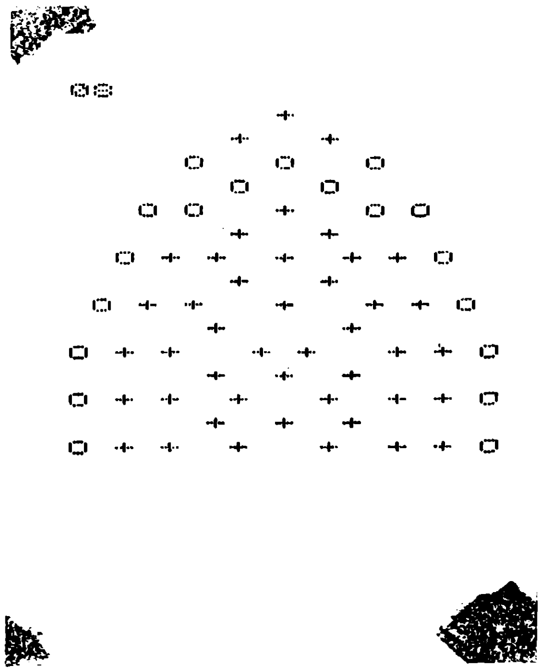
شكل رقم (١)

موضع إتصال اللسان باللثة في نطق الضاد الانفجارية



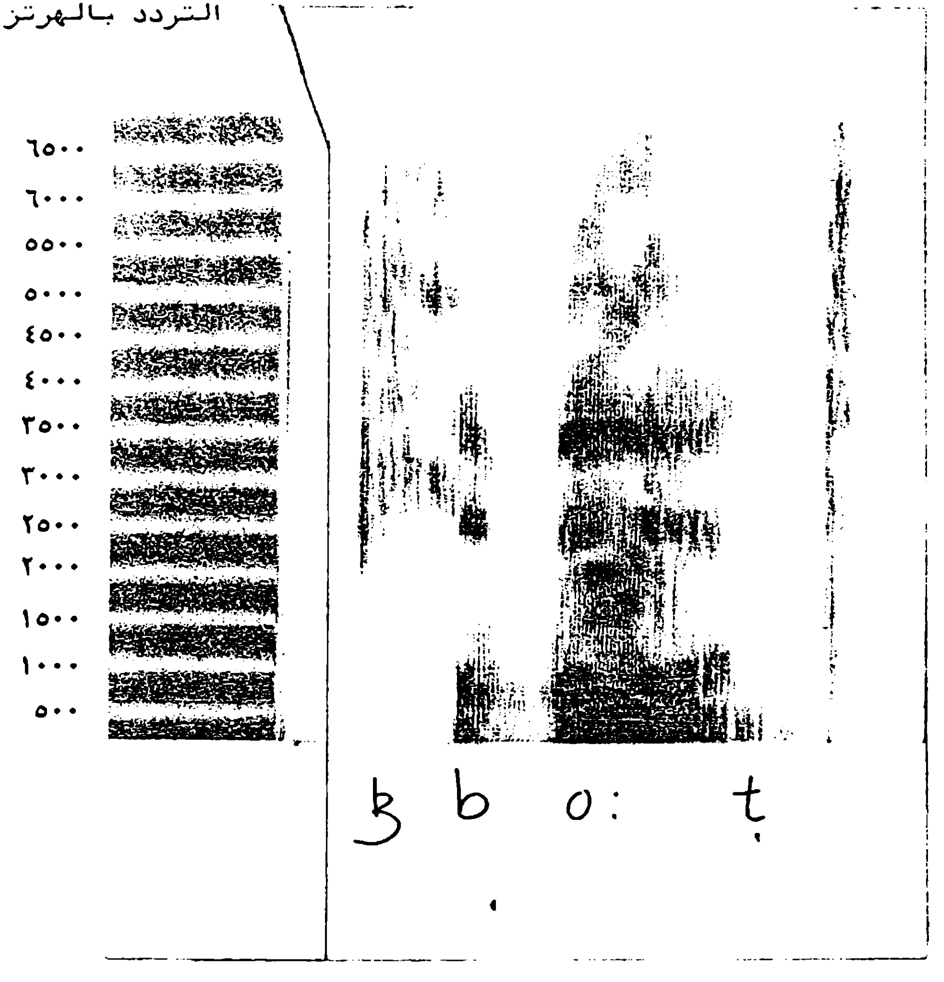
الشكل رقم (٢)

موضع اتصال اللسان بالحنك في نطق الضاد الجانبية



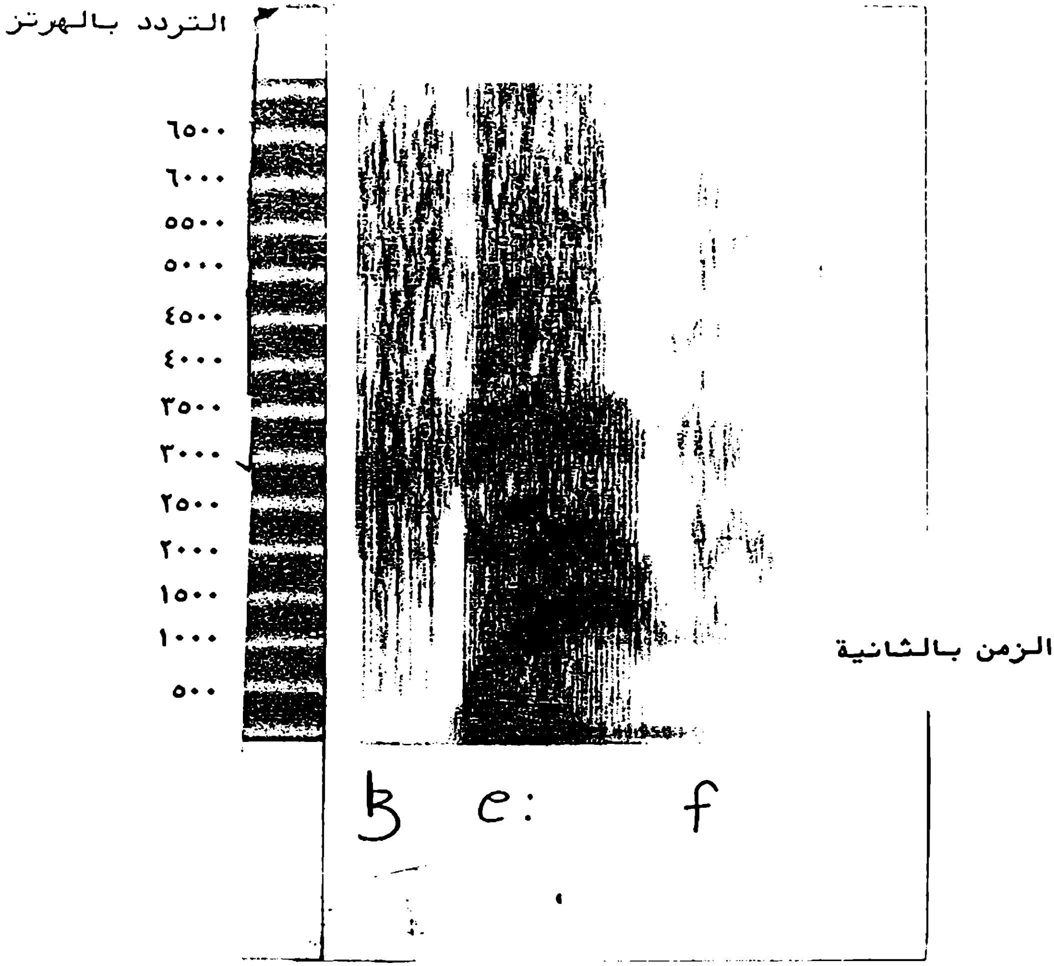
الشكل رقم (٣)

موضع اتصال اللسان باللثة في نطق اللام



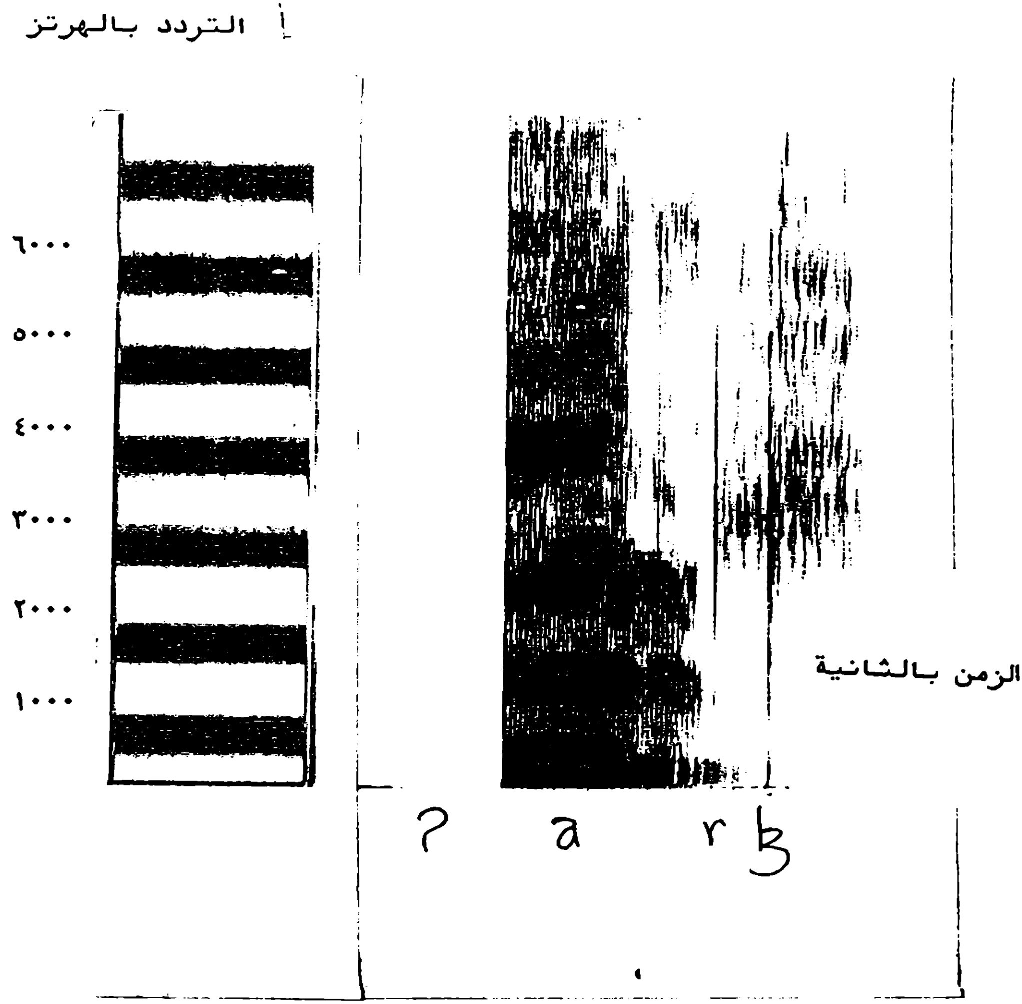
الشكل رقم (٤)

صورة طيفية لكلمة «ضبوط» في النطق المهري



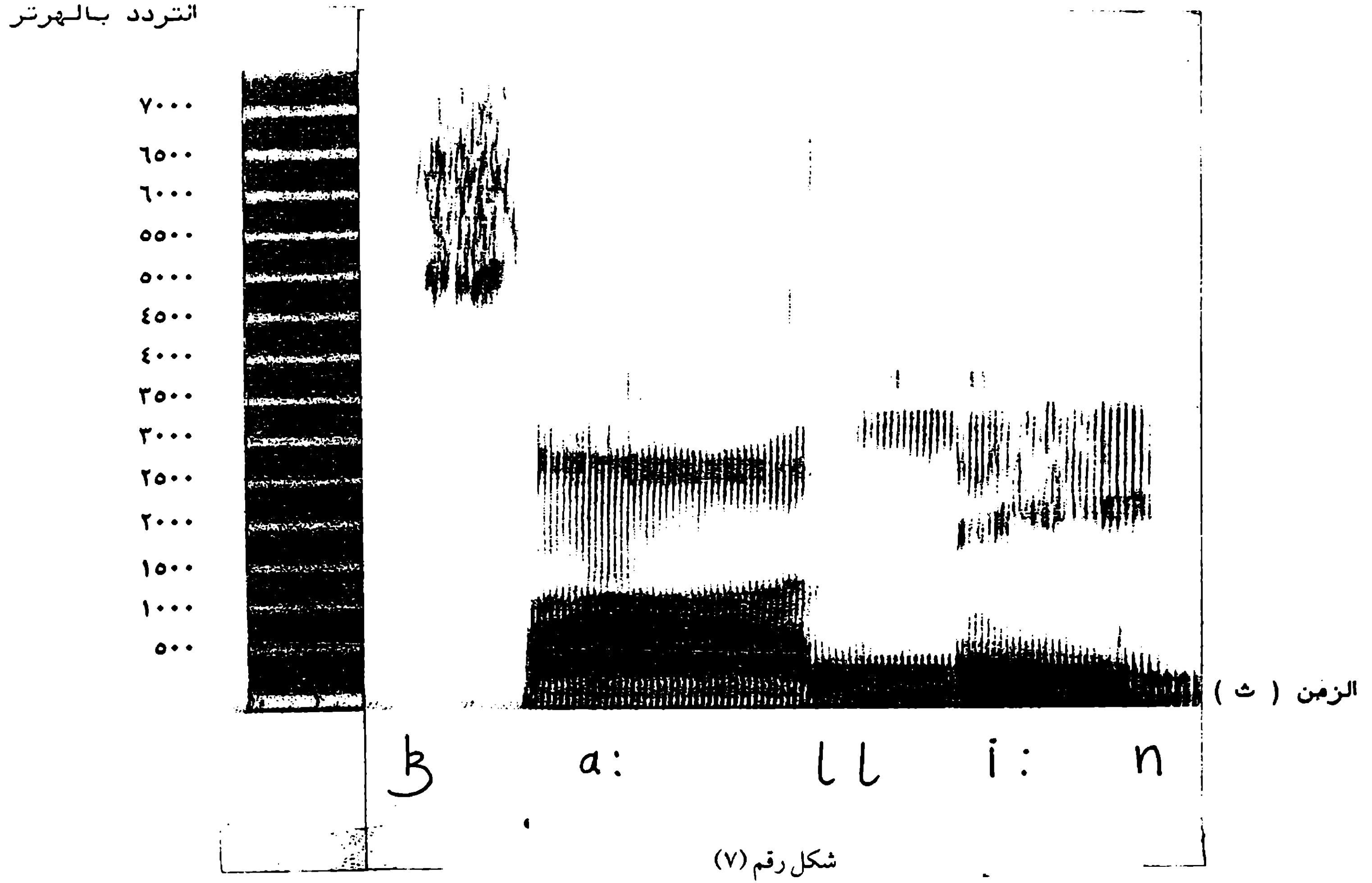
شكل رقم (٥)

صورة طيفية لكلمة «صنيف» في النطق المهري



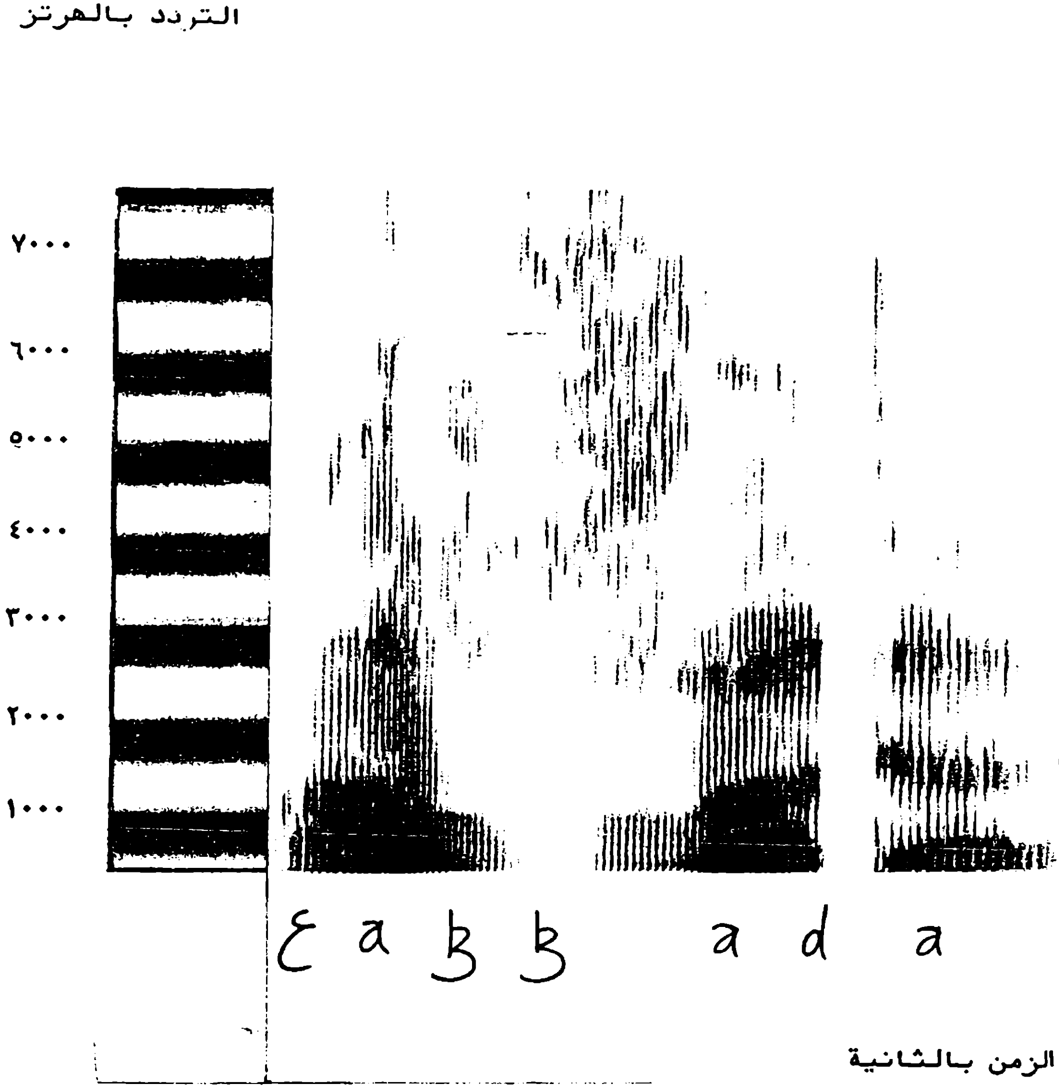
شكل رقم (٦)

صورة طيفية لكلمة «أرض» في النطق المهري



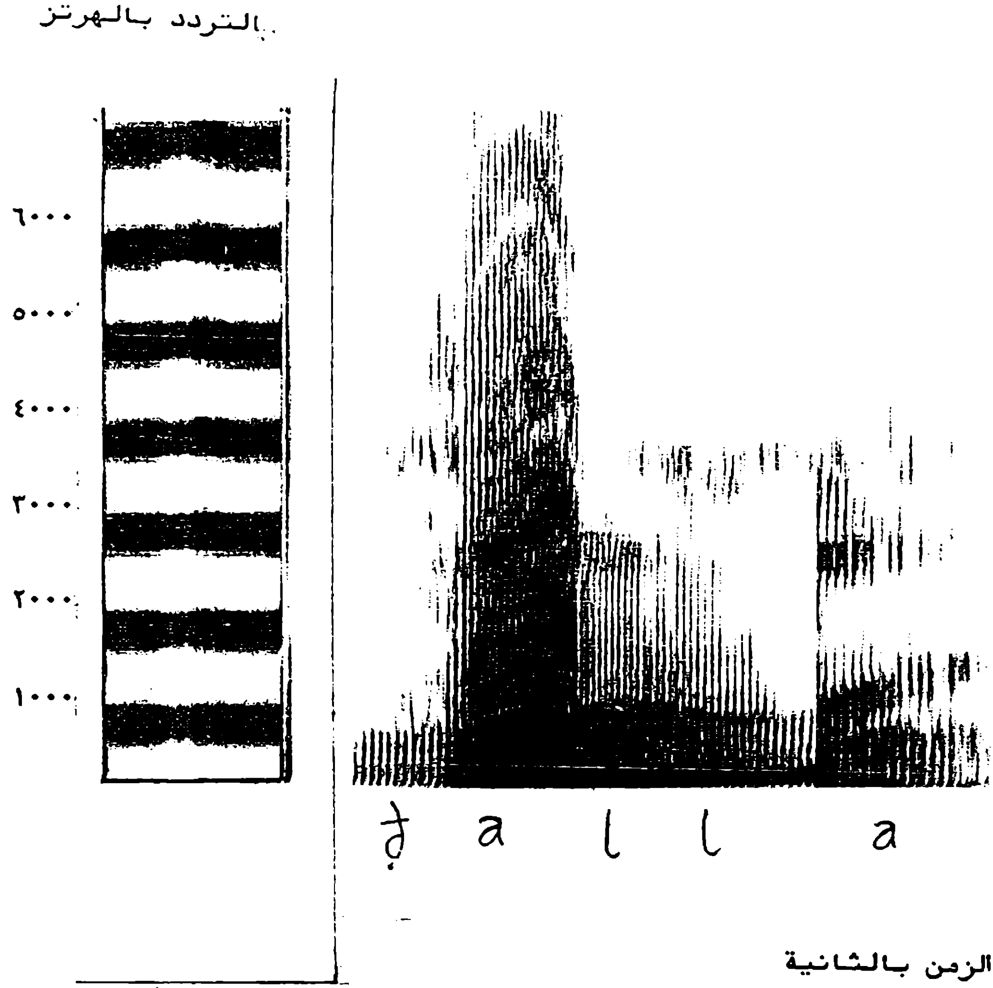
شكل رقم (٧)

نطق الكاتب لكلمة «ضالين» ـ بضاد جانبية



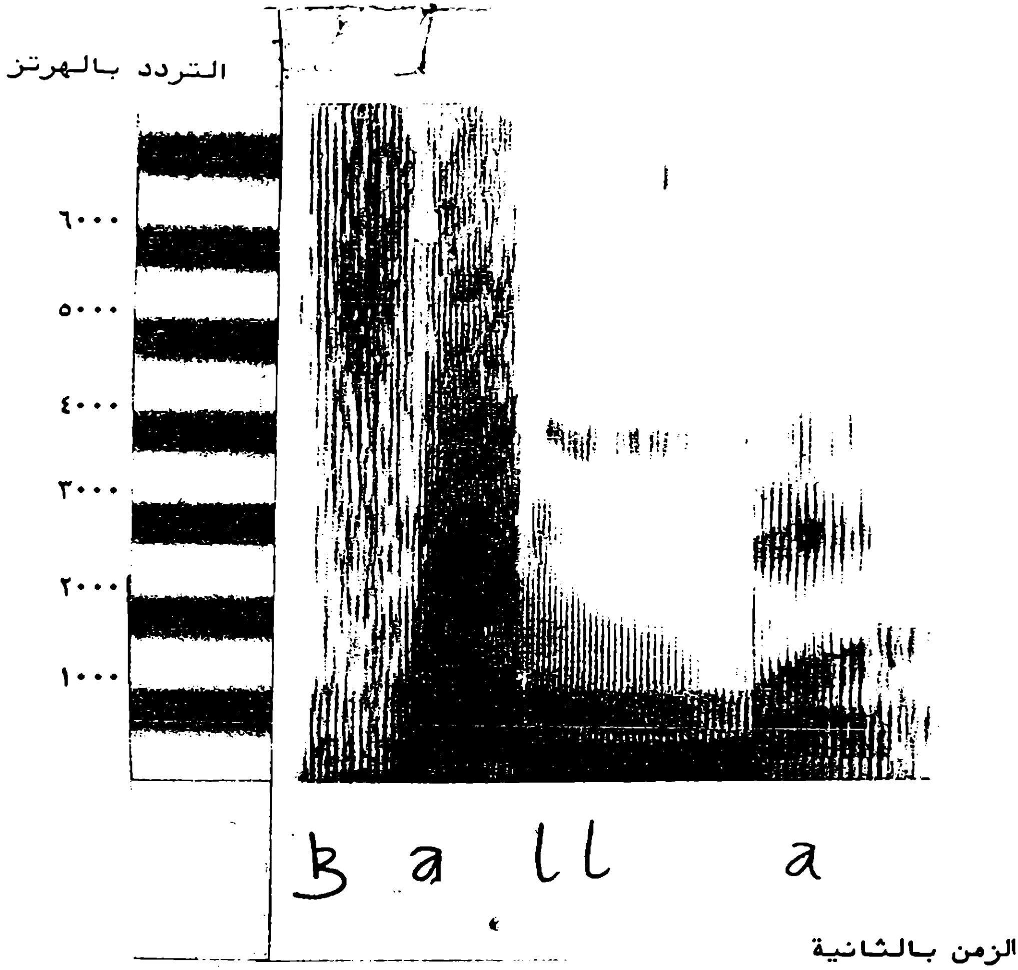
شكل رقم (٨)

نطق الكاتب لكلمة «عضد» ، بضاد جانبية



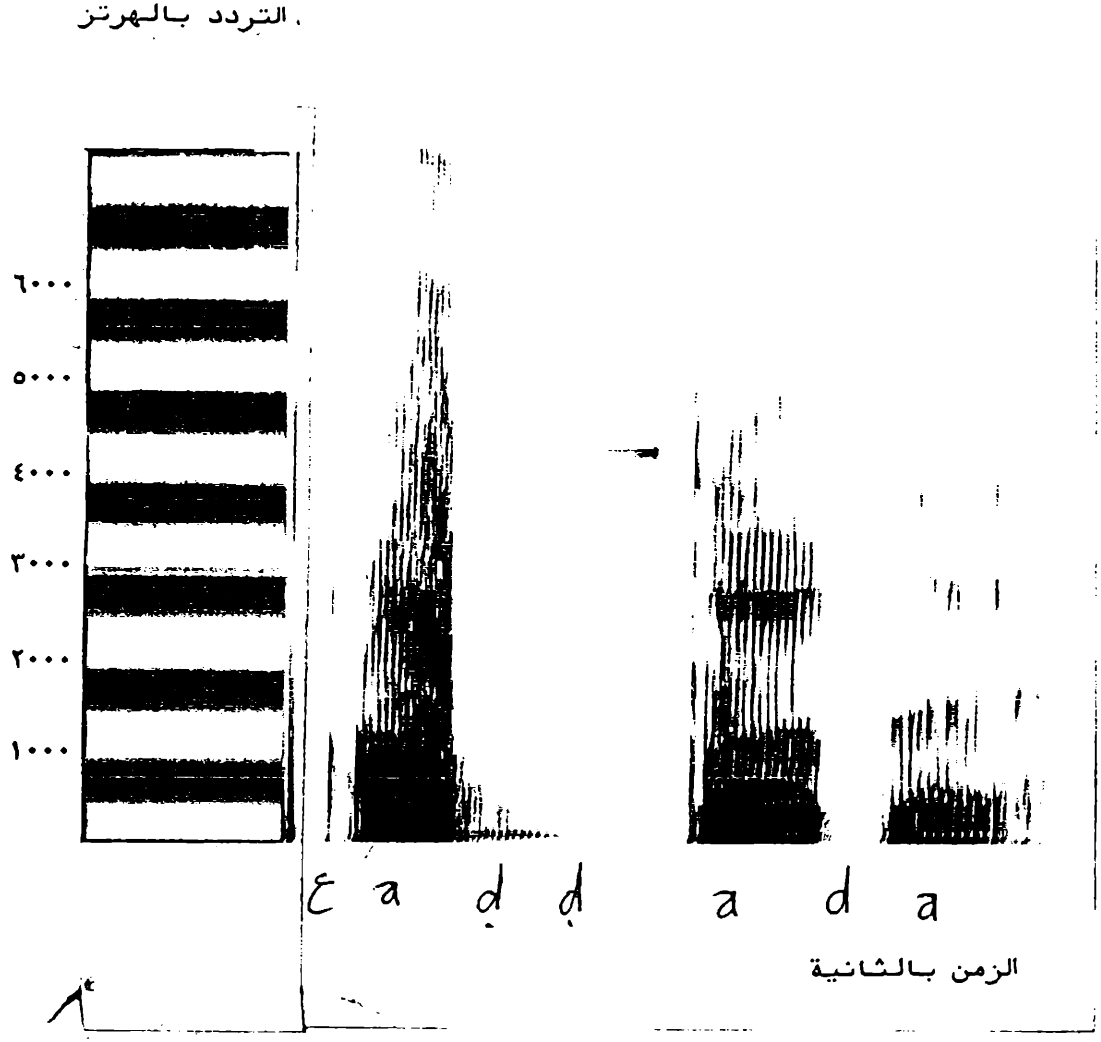
شكل رقم (٩)

صورة طيفية للظاء في كلمة «ظل»



شكل رقم (١٠)

صورة طيفية للنطق الجانبي للضاد في كلمة «ضل»



الشكل رقم (١١)

صورة طيفية للضاد الانفجارية كما في كلمة «عضد» .

المراجع :

— إبراهيم أنيس (١٩٦١) «الأصوات اللغوية». دار النهضة العربية القاهرة. الطبعة الثانية.

— ابن الجزرى (د. ت) «النشر في القراءات العشر». دارالكتب العلمية، بيروت : لبنان.

— ابن مكي الصقلي (١٩٦٦) «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان». تحقيق الدكتور عبدالعزيز مطر ـ لجنة إحياء التراث الاسلامي، ج.ع.م.

— جان كانتينو (١٩٦٦) «دروس في علم أصوات العربية». ترجمه : صالح القرمادي. منشورات الجامعة التونسية.

— رمضان عبدالتواب. (١٩٧١) «زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء». لأبي البركات بن الأنباري (المقدمة). تحقيق رمضان عبدالتواب، طبع دار الامانة : بيروت.

— (١٩٨٢) «المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي». مكتبة الخانجى بالقاهرة. الطبعة الأولى.

— رفعت الفرنواني (١٩٨٦) «الأصوات وأثرها في المعجم العربي» مجلة دراسات عربية وإسلامية. الجزء الخامس. مكتبة دار الفكر العربي. القاهرة.

— سيبويه (أبوبشر عمرو بن عثمان) «الكتاب». تحقيق وشرح عبدالسلام هارون. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

— صلاح الدين حسنين (١٩٨١) «المدخل إلى علم الأصوات». دار الاتحاد العربي للطباعة : القاهرة. الطبعة الاولى.

— فايز الداية (١٩٨٥) «علم الدلالة العربي». دار الفكر : دمشق.

— كمال بشر (١٩٧٠) «علم اللغة العام : الأصوات». دار المعارف بمصر.

— محمد جبار المعيبد (١٩٨٦) «كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب». مجلة معهد المخطوطات. المجلد الثلاثون، الجزء الثاني ص ص ٥٧٥ ـ ٦٣٤، الكويت.

— هنري فليش (١٩٨٣) «العربية الفصحى : نحو بناء لغوي جديد». ترجمة عبدالصبور شاهين. دار المشرق : لبنان.

_ H. Blanc (1967) The Sonorous Vs. Muffled Distinction in Arabic Phonology in : To Honour Roman Jakobson.

Mouton: The Hauge, Vol.1 pp. 295 - 308.

_ D. Bolinger (1980) (Language the Loaded Weapon). Longman : London & New York.

_ W. Chafe (1970) (Meaning and the Structure of Language). University of Chicago press.

_ F. Corriente (1978) D.L Doublets in Classical Arabic as Evidence of the process of de-Laterisation of Dad and Development of its Standard Reflex.JSS, 23, pp. 50-55.

_ H. Fleisch (1965) (Dad). The Encyclopaedia of Isalm. New ed. Leiden : E.J. Brill.

_ A.C. Gimson (1970) (An Introduction to the Pronounciation of English).

Edward Arnold : London.

_ D.L. Goyvaerts (1975) (Present-Day Historical and Comparative Linguistics).

E. Story-Scientia: Antwerpen: Brussel.

_ J. Greenberg (1947) (Arabic Loan Words in Hausa). Word, 3, pp. 85-97.

_ R. Jakobson (1957) (Mufaxxama - The Emphatic Phonemes in Arabic).

in : E.C. Fudge (ed.) (Phonology). Penguin Book, 1970.

_ K.R. Jankowsky (1972) (The Neogrammarians) Moton: The Hague.

_ T.M. Johnstone (1975) (The Modern South Arabian Languages).

Afroasiatic Linguistics, 1/5, pp. 93-121.

_ P.Ladefoged (1975) (A Course in General Phonetics) Harcourt Brace Javanvich. Inc. New York.

_ A. Martinet (1961) (A Functional View of Language). oxford Universitu press.

_ C. Rabin (1951) (Ancient West-Arabian). London: Taylor's Foreign Press.

_ R.H. Robins (1967) (A Short History of Linguistics).

Longmans : London.

_ Karl Vollers (1893) (The System of Arabic Sounds as Based upon Sibaweih and Ib Yaish). The Transactions of the Ninth International Congress of Orientalists. 2, pp 130-154. London: Committee of the Congress.

ظواهر صرفية في شعر الفيحاني
دراسة في بنية الفعل الثلاثي المجرد
المسند إلى ضمائر الرفع المتصلة

د. علي أحمد الكبيسي
قسم اللغة العربية ـ جامعة قطر

مقدمـــة :

كلما قـرأت ديوان الفيحـاني(١) استوقفتني ظـواهـر صرفية في كثير من أبنيـة الأسماء والأفعـال تحتـاج إلى بحث ودراسة. وقـد اخترت منهـا لهذا البحث مـا يتصل بـالتغييرات الصرفية في بنيـة ضمائر الـرفع المتصلـة، وبنية الفعل الثـلاثي المجرد المسند إليها.

يهدف هذا البحث الى الكشف عن تلك التغييرات ودراستهـا متخذا من شعر الفيحاني نموذجـا للهجة قطر المنظوم بها، ومـدخلا إلى المقارنة بينهـا وبين اللغة العربية الفصحى فيما يعـرض من ظواهر؛ ولذا جاء مقصـورا على تلك الظواهر التي يبدو فيهـا الفرق واضحا بين لهجـة قطر واللغة الفصحى، يسجل الظـاهرة كما جـاءت في شعـر الفيحاني ثم يقـارنها بما في الفصحى معلـلا لما أمكن تعليلـه وموضحا أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما.

---

(١) هو محمد بن جـاسم بن محمد بن عبدالوهـاب الفيحاني، أشهر شعراء الشعـر النبطي في قطر، ولد في قريـة فويرط شمالي قطر حوالي سنة ١٩٠٧م، ذاع صيتـه وشعره في كل بلدان الخليج. توفي سنة ١٩٣٤م. طبع ديـوانه أول مرة سنة ١٩٦٦م، ثم أعيد طبعه سنة ١٩٦٩م، وسنة ١٩٨٧م.

وقد اعتمدتُ في هذا البحث على قراءتي الخاصـة لشعر الفيحاني بوصفي أحد أبناء هذه اللهجـة العربية ، كما أني استعنت ببعض شعراء النبط عنـدنا للتأكد من صحة ضبط بعض الأفعال التي جاءت في البحث .

أما شعر الفيحاني فقد اعتمد البحث الطبعـة الأولى لديوانه التي صدرت سنة ١٩٦٦م لأن ما جاء بعدها لايعدو أن يكون تصويرا لها فقط .

بدأ البحث بـالظواهـر المرتبطة ببنية الضمائر ثم درس الظواهر المرتبطـة ببنية الفعل الثلاثي المجرد المسند إليها . ثم خاتمة بأهم ما جاء فيه .

إيضـــــاح

في هذا البحث تعني الكلمات والـرموز الآتية المدلولات الموضحـة قرين كل منها :

— اللهجة : لهجة قطر .

ٮ : رمز الكسرة الممالـة ، نصف دائرة صغيرة تحت الحرف الممال نحو : دَيِت .

(خصائص اللهجة الكويتية ص ٦)

ـٌ : رمـز الضمة الممالـة نحو الفتحـة ، ضمـة رأسها إلى اليمين فـوق الحرف الممال نحو تنسٌون . (خصائص اللهجة الكويتية ص ٦)

— : حـذفت الألف بعـد واو الجماعـة من كلمات اللهجـة ، ليكـون المكتوب كالمنطوق .

ظواهر في بنية ضمائر الرفع المتصلة

ورد في الديوان الضمائر الآتية :

— تاء الفاعل .
— نا الفاعلين .
— نون النسوة .
— واو الجماعة .
— ياء المخاطبة .

أما ألف الاثنين فلم يرد لها ذكر ، وهذا متفق مع ما تتميز به لهجة قطر من الاستغناء بواو الجمع عن ألف المثنى .

تغيير البنية واضح في تاء الفاعل . ونون النسوة ، أما باقي الضمائر فبقيت على مبناها ومعناها كما هي في الفصحى وإن أصابها شيء من التغيير الصوتي . وأهم الظواهر الصرفية المرتبطة بتغيير البنية ما يأتي :

١ — سكون تاء المتكلم، والمخاطب المفرد المذكر :

ضمير الرفع المتصل للمفرد المتكلم عند الفيحاني هو التاء الساكنة (تْ) مثل : شِبَعْتْ(١)، نِظَمْتْ(٢)، بِذَلْتْ(٣)، وهذه اللاحقة نفسها تستعمل عنده للمخاطب المفرد المذكر مثل : نِزَلْتْ(٤)، مَنَعْتْ(٥)، أي أنها ضمير مشترك في المعنيين والتفرقة بينهما بالقرائن الواردة في سياق الكلام مثل تقدم المفسر كما في البيتين الآتيين :

وَنَا بحِمَاك يا قطب الخليفة   نزَلْتْ وفيه حَطّيتْ المسامة(٦)
ولا نِزَلْتْ بمنزلٍ جَدْبْ ومِحيل   إلَا وأصبحْ مِن عطاياك سايل(٧)

فالتاء من (نزلت) في البيت الاول للمتكلم بقرينة ضمير الرفع المنفصل (أنا) في أول البيت ، والتاء من نزلت في البيت الثاني للمخاطب المفرد المذكر بقرينه ضمير

الـرفع المنفصل (أنـت) في أول البيت الـذي قبلـه. وهـذا الاستعمال مخالف للفصحى من جهتين:

الأولى: سكون التاء، وهي متحركة في الفصحى.

الأخـرى: اشتراك المعنيين في صيغـة واحـدة، ولكل صيغـة في الفصحى، فالتاء مضمومة للمتكلم، والتاء مفتوحة للمخاطب.

سكون التاء مـرتبط بسقوط النهايات الإعـرابية في اللهجة، وبحالـة الوقف أيضا ففي حـالة الـوصل تحرك التاء إما بـالكسر تخلصا من التقـاء الساكنين، أو بالفتح إذا اتصل بها ضمير المفعول به.

ولايضر التقـاء السـاكنين في حالـة الـوقف فإنـه «يجوز في الـوقف الجمع بين ساكنين لأن الوقف يوفر على الحرف الموقـوف عليه الصوت فيجري ذلك مجرى تحريكه(٨)».

أمـا اشتراك المعنيين في صيغـة واحــدة فهـو نـاتج عن سقــوط الحركـة، إذ بسقوطها صارت البنية حرفا ساكنـا (صامتا) هو التاء. ولا تلتبس هذه التاء بتاء التأنيث الساكنة؛ لأن ما قبل تاء التأنيث مفتوح، أما ما قبل الضمير فساكن.

يفهم من هذا ان اللهجة توافق الفصحى في استعمال (التـاء) للمعاني الثلاثة: المتكلم، المخــاطب المفـرد، التـأنيث، لكن الفصحى تعطي كل معنى صيغــة خاصة بـواسطة قرينة لفظيـة محددة (حركة ـ سكـون) أما اللهجة فالصيغـة فيها صامته والمعنى يتحدد بواسطة قرائن خارجها.

٢ ـــ زيادة ياء بعد تاء المخاطبة:

ضمير الرفع المتصل للمخاطبة عند الفيحـاني هو «تي» أي بإلحاق تاء المخاطبة ياء ساكنة مثل: سَلَبْتي(٩)، بِچيتي(١٠)، طِعْتي(١١).

وهذا الإلحاق ظاهرة قديمة قال سيبويه: «حدثني الخليل أن أناساً يقولون: ضَرَبْتِيـه فيلحقـون اليـاء، وهذه قليلـة(١٢). وسبب هـذا الإلحاق بيـان كسرة

التأنيث في الوقف .

ومعنى هـذا أن اللهجة قد بـالغت في الفصل بين المذكر والمؤنـث ـ هنا ــ فلم تكتف بالكسرة بل أضافت الياء تحقيقا لمعنى التأنيث ، ولأنه قد يوقف على التاء بالسكون فيلتبس المذكر بالمؤنث ، فعمـدت إلى اضافة الياء لتبقى الكسرة فتكون التاء المكسورة دالـة على المخاطبة فقط ، أما وظيفة الياء فبيـان الكسرة الدالة على التأنيث .

٣ ــ حذف الميم وإثبات الواو في تاء الفاعلين :

ضمير الرفع المتصل للمخـاطبين عند الفيحاني هو «تُـو» مثل : جِيتُو(١٣) ، سِحتُـو(١٤) ، وهــذا الاستعمال مخالف الفصحى في حـذف الميـم ، إذ الصيغـة الأصلية له فيها هي «تُـمُو» ثم حذفت الواو وأسكنت الميم ، فصار «تُم»(١٥) ، وإنما حذفـت الفصحى الواو لأمن اللبس إذ الـواحد لا ميم فيـه والتثنية يلـزمها الميم والألف(١٦) وأسكنت الميم «لانــه أبلغ في التخفيف»(١٦) . أمـا اللهجـة فقد حـذفت الميم مع ضمتها أي اختصرت المقطعين «تُ + مُـو» إلى مقطع واحد هـو «تُو» مكـون من الأصل «التاء» مضـافـا إليه عـلامة الجمع «الـواو» ، فكأن اللهجة حذفت ما يدل على مجاوزة الواحـد وهو الميم اكتفاء بالواو التي تدل على الجمع وتشير الى مجاوزة الواحد أيضا .

ولم يرد في الديوان استعمال لضمير المخاطبات «تُـنَّ» وهو مستعمل في اللهجة بصيغة «تِـنْ» بتاء مكسورة ونون خفيفة ساكنة(١٧) ، وهو مخالف الفصحى من جهتين كَسر التاء وتخفيف النون ، والظـاهر ان الكسر للتأنيث حملاً على المفردة ، والنون في مقابل واو الجماعة ، ولم تشدد النـون في اللهجة لأنها تقابل الواو فقط ، في حين أنها تقـابـل الميم والـواو في الفصحى فلــذلك شـددت فيهــا ، وهـذان المسلكان متفقان مع مـا قيل : « إن ضمير المؤنث على حسب ضمير المذكر ، فإن كانت علامـة المذكر حرفا واحدا فعـلامة المؤنث حرف واحد وإن كـانت علامة المذكر حرفين كانت علامة المؤنث حرفين» . (١٨)

وفيما يلي جدول يبين صيغة تاء الفاعل في الفصحى واللهجة .

تاء الفاعل بين الفصحى واللهجة القطرية

المستوى/ الصيغة	المتكلم	المخاطب	المخاطبة	المخاطبان	المخاطبون	المخاطبات
الفصحى	تُ	تَ	تِ	تُما	تُم	تُنَّ
لهجة قطر	تْ، [تَ]	تْ [تَ]	تِي	—	تُو	تِنْ

٤ — سكون نون النسوة :

الضمير الدال على جمع الإناث عند الفيحاني هو النون الساكنة، مثل : كَظَّنْ(١٩) لَعَنْ(٢٠)، وهي في الفصحى مفتوحة، والخلاف بينهما راجع إلى موقف كل منهما من النهايات الإعرابية، فاللهجة تخلت عنها في حين احتفظت الفصحى بها.

ولها صورة أخرى - لم ترد في الديوان — وهي أنها تأتي مشددة مفتوحة في حالة الوصل إذا جاء بعدها ضمير نصب متصل مثل : اِدْرِسَنَّه - اسْمَعَنّك، وقد تكسر لالتقاء الساكنين مثل : ادْرِسَنِّ الدرس - اسْمَعَنِّ المحاضرةَ.

والظاهر أن سبب التضعيف هو التخلص من التقاء الساكنين.

وتجدر الإشارة إلى أنه قد جاء في الديوان استعمال واو الجماعة بدل نون النسوة، وذلك في قول الفيحاني :

أُوْمِنْ دارَوْ عليه البِيضْ شاخي(٢١)

فالأصل «دارَتْ» أو «دارَنْ» لأن الفاعل جمع تكسير للمؤنث.

ظواهر في بنية الفعل الثلاثي المجرد

صيغه قبل الإسناد :

جاء الفعل الثلاثي المجرد عند الفيحاني على ثلاث صيغ هي :

فَعَلْ : عَرَضْ(٢٢) ذَخَرْ(٢٣)

فِعَلْ : سِمَعْ(٢٤) نِزَلْ(٢٥)

فُعَلْ : طُوَى(٢٦) كُفَرْ(٢٧)

عين الفعل في الصيغ الثلاثة مفتوحة، أما فاؤه فهي إما مفتوحة أو مكسورة أو مضمومة، وهذا التنوع في حركة الفاء يرجع إلى نوع الصامت الذي يقع في منزلة الفاء أو العين من الميزان الصرفي للفعل.

فالفاء تكون مفتوحة إذا كانت هي أو العين حرف حلق نحو : عَذَرْ، ذَخَرـ أو إذا كانت العين لاماً أو راءً أو نونا نحو : سَلَبَ ، زَرَع، مَنَع.

وتكون مضمومة إن كانت عين الفعل واواً أو باءً على أن يجاورها صوت مفخم نحو نُوَى، قُبَلْ.

وتكسر في غير ما سبق نحو : نِزَلْ، نِظَمْ(٢٨).

وبمقارنة هذه الصيغ بما في الفصحى (فَعَلَ، فَعِلَ، فَعُلَ) نجد أن المتغير في الفصحى هو حركة العين، أما المتغير في اللهجة فهو حركة الفاء.

(أ)

الفصحى	اللهجة
فَعَلَ	فَعَلْ
فَعِلَ	فِعَلْ
فَعُلَ	فُعَلْ

(ب)

الحرف / المستوى	الفصحى	اللهجة كما يمثلها الديوان
الفاء	مفتوحة	متغيرة (فتح، كسر، ضم)
العين	متغيرة (فتح، كسر، ضم)	مفتوحة
اللام	مفتوحة	ساكنة

يؤخذ من هذا أن اللهجة توافق الفصحى في صيغة ما فتحت فاؤه وعينه، لكنها تختص بما كسرت فاؤه أو ضمت مع فتح العين فيهما، وثمة خلاف آخر بينهما وهو سقوط النهايات الإعرابية في اللهجة بسبب الوقف.

والظاهر أن الفصحى التزمت في بنية هذا الفعل البدءَ بالأخف وهو الفتح ثم

الانتقـال إلى ثقيل (كسر ، ضم) ، أما اللهجـة فسلكت مسلكا آخـر وهو البـدء بثقيل (كسر ، ضـم) ثـم الانتقال إلى خفيف (فتح) .

تغييرات الإسناد :

تلك الصيغ التي ذكرناها للفعل الثلاثي المجرد عند الفيحاني لحقتها تغييرات حين اتصل بها ضمير رفع متصل ، وفيما يلي دراســة لأهم الظـواهــر الصرفيـة المرتبطة بتلك التغييرات :

١ — سكـون فاء الماضي السـالم وتنـوع حركـة عينـه عنـد اتصـاله بـواو الجماعة(٢٩).

الفعل الماضي الثلاثي الصحيح السالم ـ في الـديوان ـ لم يلحقه تغير حين أسند الى تاء الفاعل او نا الفاعلين مثل :

زَرَعْت(٣٠) — زَرَعْنا

نِـزَلْت(٣١) — نِزَلْنا

رُبَطْت(٣٢) — رُبَطْنا

أما عند اتصاله بواو الجماعة(٣٣) فقد لحقته التغييرات الآتية :

١ — تسكن فاؤه (تحذف حركة فائه) .

٢ — تجتلب همزة وصل للنطق بالفاء الساكنة .

٣ — تحرك عينه بإحدى حركات ثلاث : فتح أو ضم أو كسر .

٤ — تحرك لامه بالفتح(٣٤) .

حَرَقْ ← احْرِقَو(٣٥)   فِتَلْ ← افْتِلَو(٣٦)

رِكَبْ ← ارْكُبَو(٣٧)

والظاهر أن سقـوط حركة الفاء مـرتبط بهيئة التركيب المقطعي للفعل(٣٨) ، فهو مكون قبل الإسناد في الأصل من مقطعين أحدهما قصير مفتوح(حَ) والآخر

متوسط مغلق (رَقْ) فإذا ما اتصلت به واو الجماعة صار مكونا من ثلاثة مقاطع :

قصيرمفتوح + قصير مفتوح + متوسط مغلق

حَ رَ قَوْ

فيتوالى مقطعـان قصيران مفتوحـان، واللهجة لا تسمح بمثل هـذا فتلجأ الى حذف الحركـة من المقطع الأول(٣٩)، ويأخـذ التركيب المقطعي شكلا جـديدا لايتوالى فيه مقطعان قصيران مفتوحان، وهو :

متوسط مغلق + قصير مفتوح + متوسط مغلق

احْ رِ قَوْ

والذي يدل على ان التخلص من تتابع المقاطع القصيرة المفتوحة هو السبب في سقـوط حركـة الفـاء في اللهجـة أنها لاتسقط في الأفعال الآتيـة : كَفّ، قـالْ، مشَـى ـ لعـدم توالي مقطعين قصيرين مفتوحين فيها، فـالفعل (كَفّ) مكون من مَقطع طـويـل مـزدوج الإغـلاق، و(قَـالْ) مكـون من مقطع طـويل مغلق، و(مشَـى) مكون من مقطعين أحدهما قصير مفتوح والآخر متوسط مفتوح. فإذا أسندَت إلى واو الجماعة قيل :

كَفَّوْ، قَالَوْ، مِشَوْ، بتحريك فاء الفعل.

وأما تنـوع حركـة العين فهو مـرتبط بنوع الصـامت الواقـع مكان الـلام فقد لـوحظ أنـه متى كـانت الـلام حـرف حلق او لامـاً أو راءً فتحت العين مثل : اِفْزَعَوْ، اِفْتَلَوْ، اِذْكَرَوْ وإن كانت ميماً او باءً مجاورتين لصوت مفخم ضمت العين مثل : اِصْـرُمَوْ، اِرْكُبَـوْ، وفي غير ذلك تكسر العين مثل : اِحْـرِقَـوْ، اِرْقِـدَوْ، اِنْهِبَوْ.

والخلاف واضح بين الفصحى واللهجـة في حـركة مـا قبل واو الجماعـة فهي ضمة في الفصحى، فتحة في اللهجة، ممـا يشير إلى أن اللهجة التزمت الأصل في بنـاء الماضي على الفتح ولم تغيره إلى الضم كـالفصحـى، ولـذا تحولت الضمـة

الطويلة (ة) في الفصحى الى حركة مركبة (aw) من فتحة + واو ساكنة، ومعنى هذا أن الواو في الفصحى حرف مد لايكون ما قبلها إلا مضموماً (٤٠)، أما في اللهجة فهي حرف لين أو نصف حركة semi - vowel بالمصطلح الحديث(٤١).

٢ — تخفيف الهمزة :

وجدت عند الفيحاني مظهرين من تخفيف الهمزة هما الحذف والإبدال.

جاء في الحذف في الفعلين : رِيتْ(٤٢) بمعنى (رأيت) واخْذَو(٤٣). الفعل الاول ماض مسند الى تاء الفاعل، والثاني أمر مسند إلى واو الجماعة، والتغييرات التي أصابت كلا منهما هي :

١ — رِيت أصله في اللهجة رَإِيت، حذفت الهمزة لثقلها، ثم أميلت فتحة الراء إلى الكسرة لمجاورتها الياء. وحذفها هنا مفردة خلاف القياس قليل. جاء في لسان العرب : «قال اللحياني : قال الكسائي : «أجمعت العرب على همز ما كان من رَأيت واسترأيت وارتأيت في رؤية العين، وبعضهم يترك الهمز وهو قليل». (٤٤).

والقياس في هذا ونحوه أن تجعل الهمزة بين بين؛ لأنها مفردة مكسورة وما قبلها متحرك، ولايجوز الحذف «لأنها إنما تحذف بعد إلقاء حركتها على ما قبلها والحركة إنما تلقى على الساكن لا على المتحرك»(٤٥)، فلعل الحذف يعود إلى أنها لو جعلت بين بين لكانت قريبة من الياء فتجتمع ياءان ساكنتان بعدهما تاء ساكنة عند الوقف، وهذا ثقيل جدا عند النطق، فتخلصت اللهجة من هذا بحذف الهمزة.

أما حذفها وقبلها حرف الاستفهام وهي بمعنى أخبرني فهو جائز(٤٦) وعليه قراءة الكسائي في جميع ما أوله همزة الاستفهام من رأى المتصل به التاء أو النون(٤٧) كقراءته (أرَيْتَ)(٤٨) في أول سورة الماعون، وعليه قول أبي

الأسود :

أرَيْتَ امـــــــرأ كنـتُ لم أبْلُـــــــهُ   أتـــاني فقـــالَ اتخِذني خليـــلا(٤٩)

وقول آخر :

صـــاحِ هل رَيْتَ أو سَمِعتَ بـــراعٍ   رَدَّ في الضَّـرعِ ما قَرَى في العلاب(٥٠)

وقد جاءت عند الفيحاني مسبوقة بها النافية (الصبر ما ريت لـه عندي لحام) فلعله جمل النفي على الاستفهام.

٢ — إخْذَوْ مضارعه في اللهجة تـاخذون المخفف من تأخذون بإبدال الهمزة ألفاً، حذف حـرف المضـارعة، وحـذفت الهمـزة واجتلبت همزة وصل للنطق بالخاء السـاكنة(٥١)، وحين حـذفت النون تحولـت الضمة الطـويلة الى حـركة مركبة: فتحة تليها واو ساكنة (aw) والحذف هنا وفي الفصحى غير قياسي لكثرة الاستعمال(٥٢).

أما الإبدال فجاء في الأفعال: جِيتْ(٥٣) ـ بدِيتْ(٥٤) ـ سالي(٥٥).

الاول والثاني فعلان ماضيان مسندان الى تاء الفاعل، والثالث فعل أمر مسند إلى ياء المخاطبة.

وتحليل بنية كل منهما يكشف التغييرات التي أصابته.

١ — جِيّتْ أصله جئت، فـالهمزة ساكنة ومـا قبلها مكسور فأبـدلت ياء من جنس حركة ما قبلها. وهذا الإبدال جار على قواعد الفصحى(٥٦).

٢ — بدِيتْ أصلـه في اللهجة قبل الإسناد (بدَأ) فـالهمزة ساكنة، ومـا قبلها مفتوح، فأَبدلت ألفا من جنس حركـة ما قبلها فَصار (بدَا) مشابها لصورَة الفعل الناقص (مِشَــى) فيعامل معاملتـه بقلب الألف ياء عندَ الإسنـاد، ثم تمال فتحة الدال إلى الكَسرة لتناسب الياء.

٣ — سـالي أصله: اسألِي(٥٧)، نقلت حـركـة الهمزة إلى السين، فصـارت

ساكنة وما قبلها مفتوح فأبدلت ألفا(٥٨)، ثم استغني عن همزة الوصل لتحرك السين.

والإبدال هنا قليل كما حكاه سيبويه(٥٩)، وهو خلاف القياس، إذ القياس في الفصحى حذفها بعد نقل حركتها، وقد ذهب الكسائي والفراء الى أنه مقيس مطرد(٦٠).

٣ — زيادة الياء في مضعف الثلاثي:

بقي الماضي المضعف الثلاثي المسند إلى ضمير رفع متحرك عند الفيحاني على إدغامه نحو:

رَدّيت(٦١)، جَرّيت(٦٢)، حَطّيت(٦٣)

حَنّينا(٦٤)، هدّينا(٦٥)

كَظّن(٦٦).

وزيدت الياء مع تاء الفاعل ونا الفاعلين، وبهذا تكون اللهجة قد خالفت الفصحى في أمرين:

أ — عدم فك التضعيف.

ب — زيادة الياء.

ولكل أمر ما يبرره، أما عدم فك التضعيف فالظاهر أنه لما زيدت الياء تخلصا من التقاء السواكن في نحو (رَدْدْتْ) أصبح آخر الفعل متحركاً، وصار الإدغام أفضل وأخف قال سيبويه:

«فإذا تحرك الحرف الآخر فالعرب مجمعون على الإدغام، وذلك فيما زعم الخليل أولى به؛ لأنه لما كان من موضع واحد ثقل عليهم أن يرفعوا ألسنتهم من موضع ثم يعيدوها إلى ذلك الموضع للحرف الآخر، فلما ثقل عليهم ذلك أرادوا أن يرفعوا رفعة واحدة وذلك قولهم رُدّي، واجترّا، وانقدّوا.. (٦٧).

وظاهرة عدم فك التضعيف هنا محكية عن بعض العرب، قال سيبويه: «زعم الخليل أن أناسا من بكر بن وائل يقولون: «رَدّنَ ومَدّنَ ورَدّتُ جعلوه

بمنزلة رَدّ ومَدّ»(٦٨).

أما زيادة الياء فلإزالة اللبس بين تاء الفاعل وتاء التأنيث لأنهما في اللهجة ساكنتان، فإذا ما اتصلت إحداهما بالفعل المضعف الثلاثي لا يعرف معناها، لذلك جعلت اللهجة هذه الياء قرينة على تاء الفاعل ولم تزدها قبل تاء التأنيث، وأصبح الفرق واضحا بين مَرّيت ومَرّتْ، فالتاء في الاول للفاعل بقرينة الياء الزائدة، وفي الآخر للتأنيث بقرينة حذف الياء.

وزيدت الياء أيضا للتفرقة بين نا الفاعلين ونون النسوة ــ فالفرق واضح بين مَرّينا ــ مَرّن.

والياء هنا زائدة وليست مبدلة، وعليه فإن ما ذكره سيبويه من إبدال الياء مكان اللام لكراهية التضعيف(٦٩)، قريب من هذا لكنه ليس منه، فالزيادة هنا مع المضعف المجرد الثلاثي، أما الإبدال فمع المضعف المزيد، فالبنيتان مختلفتان أصلا وإن تشابهت الصورة اللفظية. الأمثلة عند سيبويه وغيره(٧٠)، للمضعّف المزيد هي: تَسَرَّيت، تَظَنَّيت، قَصَّيت أظفاري، فأصلها: تَسَرَّرْت، وتظنّنت على وزن تَفَعَّلْت، وقصّصت على وزن فَعَّلت، فأبدلت الراء الثالثة، والنون الثالثة، والصاد الثالثة ياء في كل منها، أما المذكور هنا فهو رَدّيت ونحو على وزن «فَعْليت». ولذلك قال الرضي: «وإن كان ثلاثيا مجرداً لم يقلب الثاني فلا يقال في مَدَدْت: مَدَيْتُ»(٧١) أي لا إبدال فيه.

واللهجة إنما تزيد الياء مع المضعف المجرد الثلاثي أما المضعف المزيد فلا زيادة فيه نحو: ظَلّلْت، فكّكْت، قَصّصْت أصلها (ظلّل ــ فكّك، قصّص) بخلاف ظلّيت، فكّيت، قَصّيت فهذه كلها مجردة أصلها (ظلّ ـ فكّ ـ قصّ).

وقد نشأ عن هذه الزيادة تحول الحركة المركبة (فتحة + ياء ai) في البنية الاصلية (رَدَّيْت) ونحوها إلى حركة طويلة (كسرة ممالة e) (رَدّيت) لتناسب الياء.

٤ ــ بقاء عين الأجوف الماضي المسند إلى نون النسوة:

الماضي الأجوف المسند إلى واو الجماعة عند الفيحاني لم يلحقه سوى تغيير

صوتي بتحويل الضمة الطويلة إلى حركة مركبة(٧٢)، مثل :

قـالَوْ(٧٣) ، خـانَوْ(٧٤) ، نـامَـوْ(٧٥) وهي في الفصحى قالُـوا ، خانُـوا، نامُوا.

وإذا أسند الى نـون النسوة بقي على حـاله، وفتح مـا قبل النون، ولم أجـد له أمثلـة في شعـر الفيحـاني، ولـه في اللهجـة أمثلـة نحـو «صـاحَنْ، نـاحَنْ، جـارَن(٧٦). وهـذا مخالف لما في الفصحى مـن حـذف عين الأجـوف مع نـون النسـوة، ويرجع الاختـلاف إلى ان الفعل فيَ اللهجـة متحرك الآخـر فلم تحذف الألف، أما في الفصحى فهو مبني على السكون فحذفت الألف تخلصا من التقاء الساكنين.

٥ — كسر فاء الماضي الأجوف الواوي المسند إلى تاء الفاعل أو ناء الفاعلين:

الماضي الثـلاثي الأجوف المسنـد إلى تاء الفـاعل ونـا الفاعلين لحقـه التغييران الآتيان عند الفيحاني :

أ — حذف عينه، وهذا موافق لما في الفصحى، لأن الفعل مبني على السكون فيهما.

ب — كسر فائه مطلقاً بلا تفرقة بين ما أصله الواو، وما أصله الياء، مثل :
قِلْتْ(٧٧)، قِلْنا(٧٨)، عِذْت(٧٩)، عِدنا(٨٠)
صِحْت(٨١)، بِعت(٨٢)، صِحنا(٨٣)

وبهذا توافـق لهَجةُ قطـر اللغةَ الفصحى فيما أصلـه الياء، وتخالفهـا فيما أصله الواو، فقـد جاء بكسر الفـاء في اللهجة القطـرية نحـو : قِلت، خِنت، نِحت، كِنت، عِذت، لِذت، ذِقت - إلا فيما جاورت فيـه الميم أو الفاء صوتا مفخما فقد ضمت فاؤه لإيثارهما الضم مثل :

قُمت، رُمت، خُفت، ومجيء الكثرة الغالبة من هـذه الأفعال مكسورة الفاء في لهجة قطـر دليل على إيثارها الكسرة على الضمـة وقد نسبت هذه الظـاهرة إلى أهل الحجاز (٨٤).

٦ — إبدال ألف الناقص ياء مع تاء الفاعل ونا، الفاعلين :

كل الأفعال الناقصة المسندة إلى تاء الفاعل أو نا الفاعلين جاءت في شعر الفيحاني وقد أبدلت ألفها ياء من غير مراعاة لأصل تلك الألف مثل : نَخِيتَك(٨٥)، نَخِينا(٨٦)، دَعِيتَك(٨٧)، دَعِينا(٨٨)، هَقِيت(٨٩)، سَلِينا(٩٠)، مِشِيت(٩١)، مِشِينا(٩٢)، بَغِيت(٩٣)، دَرِيت(٩٤)، بَنِينا(٩٥). وقد نشأ عن هذا الإبدال إمالةُ فتحة عين الفعل الى الكسرة لتناسب الياء، أما حركة فاء الفعل فقد تنوعت بحسب طبيعة فاء الفعل أو عينه(٩٦).

والفرق واضح بين لهجة قطر واللهجة الفصحى في هذه الأمور الثلاثة، فلاتبدل ألف الناقص ياء في الفصحى إلا إذا كان أصلها ياء. أما إن كان واواً فإنها تبدل فيها واوا، ولا إمالة في الفصحى لبقاء العين على حركتها، وليس للفاء إلا حركة واحدة هي الفتحة، وظاهرة الإبدال هنا مشتركة بين الفصحى واللهجة لكن الفصحى تراعي أصل المبدل واللهجة تجعله نوعا واحدا ليجري الفعل على سنن واحد.

ويعكس هذا الفرق تطور الحركتين المركبتين فتحة + واو (au) وفتحة + ياء (ai) في الفصحى إلى حركة واحدة في اللهجة هي الكسرة المهالة e (٩٧) كما في الأمثلة الآتية :

نَخَوتك ⟵ نَخِيتَك

فالمقطع (خَوْ) في الفصحى تطور الى (خِي) في اللهجة القطرية.

بَنَيْت ⟵ بَنِيْت

فالمقطع نَـيْ في الفصحى تطور إلى نِي في اللهجة القطرية.

٧ — حذف ألف الناقص مع نون النسوة :

الفعل الماضي المعتل اللام إذا أسند الى واو الجماعة أو نون النسوة عند الفيحاني حذفت لامه وفتح ما قبل الضميرين(٩٨) مثل :

عَفَوْ(٩٩)، مِشَوْ(١٠٠)، نِسَوْ(١٠١)
لَعَنْ(١٠٢)، (مشَنْ ، نسَنْ)

فاللهجة توافق الفصحى في المعتل بالألف مع واو الجماعة، وتخالفها في المعتل المسند إلى نون النسوة، والمعتل اليائي المسند إلى واو الجماعة.

الاتفاق بينهما في نحو : دَعَوا عفَوا غزَوا.

أما اليائي المسند الى واو الجماعة نحو نَسيَ ، رَضيَ، فإسناده في الفصحى يقتضي حذف الياء، وضم ما قبل الواو فيصبح نَسُوَا، رَضُوا، أما في اللهجة فصيغة الفعلين الأصلية مختلفة عما في الفصحى فهما معتلان بالألف : نِسَى، رِضَى فعند إسنادهما إلى واو الجماعة تحذف الالف ويظل ما قبل الواو مفتوحا نِسَوْ رِضَوْ، فالخلاف في أصل الصيغة نتج عنه خلاف في طريقة الإسناد. والظاهر أن الأفعال الماضية الثلاثية المعتلة اللام في اللهجة كلها معتلة بالألف، ولعل ذلك راجع إلى أن عين الماضي دائما مفتوحة.

أما المسند إلى نون النسوة، فالفصحى ترد الألف إلى أصلها : دَعَوْن، مَشَينَ وتبقى الياء : نَسِينَ، واللهجة تحذف حرف العلة : دَعَنْ ــ مِشَنْ ــ نِسَنْ، والخلاف بينهما عائد الى اختلاف وضع نون النسوة فيهما، فهي مفتوحة في الفصحى فيصح أن تسبق بساكن ولا يحذف، ولكنها في اللهجة ساكنة فلا يسبقها ساكن حذرا من اجتماع ساكنين.

٨ ــ كسر حرف المضارعة وعين المضارع مع واو الجماعة وياء المخاطبة :

للمضارع في شعر الفيحاني ثلاث صيغ هي :

يَفْعِلْ	يرْقِد(١٠٣)	يدْفِن(١٠٤)	يعْذِل(١٠٥)
يَفْعُلْ	يحْفُر(١٠٦)	ينْبُر(١٠٧)	يقْلُب(١٠٨)
يِفْعَلْ	يِذْخَر(١٠٩)	يِهْجَع(١١٠)	يِرْحَم(١١١)

حرف المضارعة فيها إما مفتوح أو مكسور، وعين الفعل متحركة بإحدى الحركات الثلاث، وتنوع حركتها يعود إلى نوع الصامت الذي يكون عين الفعل أو لامه(١١٢)، وحركة حرف المضارعة مغايرة لحركة عين الفعل في كل هذه الصيغ.

وافقت اللهجةُ القطرية اللغةَ الفصحى في الصيغتين الأولَيين :

فـ يَرقِدْ مثل يضْـرِب

و يَنْبُـر مثل يَشْرُف ، يَـخْرُج

لكنها خالفتها في (يِفْعَل) لأن حرف المضارعة مفتوح في الفصحى (يَفْعَل) والظاهر أن اللهجة خلت من هذا الوزن.

وقد لوحظ أن المضارع المسند إلى واو الجماعة أو ياء المخاطبة في شعر الفيحاني لايلحقه تغيير في الصيغتين الأولين كما في الأمثلة الآتية :

يَرْقِدْون (١١٣)، يـَحْفُرُون(١١٤)، تَـحْسِبِين(١١٥)، (تَـحْفُرِين)

أما إن كان من الصيغة الثالثة (يِفْعَل) فيلحقه تغيير هو عبارة عن كسر عين الفعل تبعا لكسر حرف المضارعة(١١٦) كما في الأمثلة الآتية :

يِرحِمُون(١١٧) يِدْهِقُون(١١٨) يِعمِلون(١١٩)

تِـهْجِعين(١٢٠) تِذْخِرين(١٢١)

وتحليل بنية هذه الأفعال يكشف دواعي التغيير، فكل منها يتألف من ثلاثة مقاطع :

متوسط مغلق	+ قصير مفتوح	+ طويل مغلق
يِرْ	حِ	مُون
يِدْ	هِـ	قُون
تِهْ	جِ	عِين

تِذْ		خِ		رِين

وكانت قبل الإسناد مؤلفة من مقطعين :

متوسط مغلق + متوسط مغلق

رِرْ		حَمْ
يِدْ		هَقْ
تِهْ		جَعْ
تِذْ		خَرْ

وإنما فتحت عين الفعل هنا لأنها في أول مقطع جديد مشتمل على حرف حلق، فحركت بما يناسبه وهو الفتح، فلما تحركت اللام بعد الإسناد؛ استقلت العين مقطعا كاملاً فصارت حركتها على وفق حركة حرف المضارعة؛ لأن الحاجز بينهما صامت غير حصين.

أما كسر حرف المضارعة هنا فأمر خالفت فيه اللهجةُ اللغةَ العربيةَ الفصحى لأنه لايجوز عند الحجازيين كسر حرف المضارعة، وإنما جَوّز غيرهم كسر ما عدا الياء بشروط(١٢٢) لم تتحقق في أفعال اللهجة، والظاهر أن كسر حرف المضارعة يعود إلى أنه لما كان نظام صوغ المضارع فيها مبنيا على مخالفة حركة حرف المضارعة لحركة العين، وكانت العين مفتوحة، لم يبق إلا الضم أو الكسر، ولما كانت اللهجة تؤثر الكسر على الضم(١٢٣) صار حرف المضارعة مكسوراً.

٩ — ضم ما قبل واو الجماعة في المضارع المعتل بالألف :

جاء المضارع المعتل بالألف المسند الى واو الجماعة في شعر الفيحاني محذوف الألف مضموماً ما قبل الواو مثل :

تنْسُون(١٢٣)		تلقُون(١٢٥)		ينحُون(١٢٦)

وَهذا مخالف لمسلك الفَصحى حيث يفتحَ ما قبل واو الجماعة فيقال :

تَنْسَون		تَلْقَون		ينْحَون(١٢٧)

فالمقطع (سَوْ، قَوْ، حَوْ) في الفصحى تحول إلى (سُو، قُو، حُو) في اللهجة القطرية، بإمالة الفتحة إلى ضمة لتناسب الواو، وهذا يعكس تطورا في صوت اللين المركب (فتحة + واو au) في الفصحى إلى صوت لين طويل هو الضمة المالة o في اللهجة، لأن «النطق بالصوت الممال أيسر وأكثر اقتصاداً في الجهد العضلي من صوت اللين المركب الذي يتغير فيه وضع اللسان»(١٢٨).

وتخالف اللهجةُ اللغةَ الفصحى أيضا عند إسناد هذا الفعل إلى ياء المخاطبة حيث تمال الفتحة إلى كسرة لتناسب الياء فيقال:

تِنْسِين وفي الفصحى تَنْسَيْن

تِرْضِين وفي الفصحى تَرْضَيْن

وهنا نلاحظ مرة أخرى تطورا في صوت اللين المركب فتحة + ياء (ai) في الفصحى إلى كسرة ممالة e في اللهجة.

١٠ — فتح ما قبل ياء المخاطبة في فعل الأمر الثلاثي الأجوف والناقص:

فعل الأمر الثلاثي الأجوف أو الناقص المسند إلى ياء المخاطبة جاء في شعر الفيحاني وقد فتح فيه ما قبل ياء المخاطبة مثل:

قُولَي(١٢٩) نُوحَيْ(١٣٠) لُوذَي(١٣١) يُوزَيْ(١٣٢)

اِلْعَيْ(١٣٣) اِشْكَي(١٣٤) اِمْشَيْ(١٣٥) اِنْخَيْ(١٣٦)

وهذا مخالف لما في الفصحى حيث يكسر ما قبل ياء المخاطبة فيقال:

قُولِي نوحِي لوذِي ..

اِلْعِي اِشْكِي اِمْشِي ..

وبتحليل البَنية الداخلية لتلك الأفعال نجد أنها تتألف من مقطعين: الاول متوسط مفتوح في الأجوف، ومتوسط مغلق في الناقص، أما الآخر فهو متوسط مغلق في اللهجة القطرية، متوسط مفتوح في الفصحى، وهو الذي جرى عليه التغيير حيث تحول من متوسط مفتوح في الفصحى إلى متوسط مغلق في اللهجة:

صامت + حركة طويلة ⟵ صامت + حركة قصيرة + صامت.

فما حدث في اللهجة هو تحويل الكسرة الطويلة إلى حركة مركبة (فتحة

+ياء ai)، طلبا لخفة النطق، وقد حدث مثل هذا في فعل الأمر نفسه المسند إلى واو الجماعة كما في :

قُولَوْ(١٣٧) كُونَوْ(١٣٨) عُوجَوْ(١٣٩) إِمْحَوْ(١٤٠)، فهي في الفصحى : قولُوا، عوجُوا، امحُوا، حيث تحولت الضمة الطويلة الى حركة مركبة (فتحة + واو au)، حملاً للأمر على الماضي، لأن التركيب المقطعي فيهما واحد.

خاتمـة :

يمكننا القول في نهاية هذا البحث أن التغييرات التي حدثت في لهجة قطر ـ مرتبطة بموضوع البحث ـ تعكس تطوراً في جانبين منها هما : الأصوات والصيغ.

(أ) تطـور الأصـوات :

١ — تطور الحركة الطويلة (ضمة/ كسرة) إلى حركة مركبة (فتحة + واو/ فتحة + ياء) نجد ذلك واضحا في بنية الفعل الماضي السالم المسند إلى واو الجماعة نحو :

حَرَقُوا ⟵ احْرِقَوْ، وكذا الماضي الأجوف المسند إلى واو الجماعة نحو :

قالُوا ⟵ قَالَوْ، وفي الأمر منه مسندا إلى واو الجماعة أو ياء المخاطبة «قولُوا ⟵ قُولَو، قولِي ⟵ قُولَي

والماضي الناقص اليائي المسند إلى واو الجماعة : نَسُوا ⟵ نِسَوْ.

وفي الأمر منه مسندا إلى واوا الجماعة أو ياء المخاطبة :

امشُوا ⟵ إِمْشَو

امشِي ⟵ إِمشَي

ويكشف هذا التطور عن ميل اللهجة إلى المغايرة بفتح ما قبل الواو أو الياء تخفيفا للنطق.

٢ — تطور الصوت المركب (فتحة + واو / فتحة + ياء) إلى ضمة طويلة/ كسرة طويلة نجد ذلك واضحا في المضارع الناقص الألفي المسند إلى واو الجماعة

أو ياء المخاطبة نحو :

يَسْعَوْن ←——— يِسعُون

تَسعَيْنْ ←——— تِسعِين

وقد مالت اللهجة هنا إلى التماثل بضم ما قبل الواو وكسر ما قبل الياء، لأنه جاء بعد الواو والياء نون هي جزء من مقطع طويل مغلق وليست مستقلة.

٣ — تطور الصوت المركب (فتحة + واو / فتحة + ياء) إلى كسرة ممالة، يظهر هذا واضحا في بنية الماضي الناقص المسند إلى تاء الفاعل.

نَخَوْتُكَ ←——— نِخِيتَكْ

مَشَيْتْ ←——— مِشِيت

(ب) تطـور الأبنيــة :

١ — تستعمل اللهجة القطرية اللاحقة «ت» ساكنة مع الفعل الماضي لمعان ثلاثة هي : المتكلم، المخاطب المذكر المفرد، والتأنيث، لكنها تميز التأنيث بجعل آخر الفعل مفتوحا فإن سكن فالتاء ضمير، ويعرف معناه من السياق.

٢ — تستعمل اللهجة القطرية اللاحقة «تي» ضميرا للمخاطبة بزيادة الياء، و«تُو» ضميرا للمخاطبين بحذف الميم وإبقاء واو الجمع.

٣ — نون النسوة في لهجة قطر ساكنة، وقد تأتي مشددة مفتوحة إن وليها ضمير المفعول به.

٤ — للماضي المجرد ـ في لهجة قطر ـ صيغ تخالف الفصحى، تتنوع فيها حركة الفاء، والعين مفتوحة وهي : فَعَلْ، فِعَلْ، فُعَلْ.

٥ — لم أجد ـ في شعر الفيحاني ـ مضارعا على وزن «يَفْعَل».

٦ — زيادة الياء مع بقاء التضعيف في الماضي المضعف المسند إلى تاء الفاعل أو نا الفاعلين، وبقاء التضعيف بلا زيادة مع نون النسوة.

٧ — وجدت من تخفيف الهمز وجهين : الحذف والإبدال.

٨ — حذف حركة فاء السالم والمثال عند إسنادهما إلى واو الجماعة، أو نون النسوة، أو إذا اتصلت بهما تاء التأنيث.

٩ — يبنى الماضي على الفتح إذا اتصلت بـه نـون النسـوة، أو واو الجماعـة وليس بعدها ضمير المفعول به.

الهوامش

(١) ديوان الفيحاني ص ٦ .
(٢) السابق ص ٨٥ .
(٣) السابق ص ٥٥ .
(٤) السابق ص ٨٤ .
(٥) السابق ص ١٠٥ .
(٦) السابق ص ٨٠ .
(٧) السابق ص ٨٤ .
(٨) شرح المفصل ٩/ ١٧ ، ٢١ ، الكناش ٣٩٦ .
(٩) ديوان الفيحاني ص ٤٨ .
(١٠) السابق ص ٩ .
(١١) السابق ص ٤٨ .
(١٢) الكتاب ٤/ ١٩ .
(١٣) ديوان الفيحاني ص ٥ .
(١٤) السابق ص ٣٢ .
(١٥) شرح المفصل ٣/ ٨٧، شرح الكافية ٢/ ٧ .
(١٦) شرح المفصل ٣/ ٨٧ .
(١٧) هذا في حالة الوقف ، أما في حالة الوصل فتصبح نونا مشددة مفتوحة وقد تكسر لالتقاء الساكنين .
(١٨) شرح المفصل ٣/ ٨٧ . انظر الكتاب ٤/ ٢٠١ ، شرح الكافية ٢/ ٧ .
(١٩) ديوان الفيحاني ص ٨٧ .
(٢٠) السابق ص ١٢٤ .
(٢١) السابق ص ٢٤ .
(٢٢) السابق ص ٦٠ .
(٢٣) السابق ص ٧٤ .
(٢٤) السابق ص ٢١ .
(٢٥) السابق ص ٨٠ .
(٢٦) السابق ص ٨ .
(٢٧) السابق ص ٣٨ .
(٢٨) هذا متفق تماما مع ما توصل اليه أ . د . عبدالعزيز مطر في كتابه من أسرار اللهجة الكويتية ١٢٧ .
(٢٩) ومثله المعتل المثال وإن لم ترد له أمثلة في الديوان مسندة إلى واو الجماعة ، أو نون النسوة .
(٣٠) ديوان الفيحاني ص ٥٧ .
(٣١) السابق ص ٨٤ .

(٣٢) السابق ص ٥ .

(٣٣) ومثلها نون النسوة وإن لم ترد لها أمثلة في الديوان .

(٣٤) لعل هذه الظاهرة تؤكد ما قيل من ان الفعل الماضي مع واو الجماعة مبني على الفتح المقدر وليس على الضم فها هو هنا معها مبني على الفتح الظاهر إلا اذا جاء بعدها ضمير المفعول به فتضم لامه مثل : (احْرِقُوه) . انظر اوضح المسالك ١/ ٣٦، حاشية يس ١/ ٥٤ .

(٣٥) ديوان الفيحاني ص ٦٦ .

(٣٦) السابق ص ٦ .

(٣٧) السابق ص ٢٣ .

(٣٨) مناهج البحث في اللغة ص ١٤١ ، دراسة الصوت اللغوي ٢٦١ ، لهجة البدو ٨٦ .

(٣٩) خصائص اللهجة الكويتية ٦٢ .

(٤٠) شرح المفصل ٦/٧ .

(٤١) الاصوات اللغوية ٤٢ ، علم اللغة العام (الاصوات) ٨٥ ، ١٣٢ ، دراسة الصوت اللغوي، ٣٠٤، في الاصوات اللغوية (دراسة في أصوات المد العربية) ص ٤١ ، ٤٣ ، ٢٦٦ ، ٢٢٨ .

(٤٢) ديوان الفيحاني ص ٦٦ .

(٤٣) السابق ص ١١٠ ، ١١١ .

(٤٤) لسان العرب رأي (١٩/ ٤) .

(٤٥) شرح الشافية ٣/ ٣٢ .

(٤٦) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٣٣، البحر المحيط ٤/ ١٢٥ .

(٤٧) شرح الكافيه ٣/ ٣٧، لسان العرب (رأي) .

(٤٨) إعراب القراءات السبع وعللها ٢/ ٥٣٥ .

(٤٩) من المتقارب لأبي الأسود الدؤلي، شرح الشافيه ٣/ ٣٧، ٤/ ٣١٤ .

(٥٠) من الخفيف لاسماعيل بن يسار النسائي في شرح الشافيه ٤/ ٣١٦، وبلانسبة في الكشاف ٤/ ٢٨٨، لسان العرب (رأي) وفيه (الحلاب) بدل العلاب .

(٥١) المفصل ٣٥١ ، شرح المفصل ٩/ ١١٥ ، شرح الشافيه ٣/ ٥٠ .

(٥٢) شرح المفصل ٩/ ١١٥ .

(٥٣) ديوان الفيحاني ص ٣٠ ، ٧٢. ومثله : جيتو ص ٥ ، وقد وهم محقق الديوان فكتبها جيتم حملاً على الفصحى ، جيتهم ص ٤٢ ، جيتك ص ٦٠ ، ٧٦ .

(٥٤) السابق ص ٨٠ .

(٥٥) السابق ص ٩ .

(٥٦) الكتاب ٥٤٤٣، المقتضب ١/ ٢٩٤، المفصل ٣٤٩، شرح شالمفصل ٩/ ١٠٨ .

(٥٧) هذا على لغة (سأل يسأل) المشهورة، وفيه لغة أخرى (سال يسال) فهو مخفف عن أصله ، الكتاب ٣/ ٥٥٥ ، شرح المفصل ٩/ ١١٤ ، لسان العرب (سأل) .

(٥٨) شرح الكافية الشافية ٤/ ٢١٠٢ «ومن العرب من يقول (كَمَاة) فيبدل الهمزة مدة بعد نقل حركتها» .

(٥٩) الكتاب ٣/ ٥٤٥ .

(٦٠) التبصرة والتذكرة ٧٣٥، شرح الشافية ٣/ ٤١ .
(٦١) ديوان الفيحاني ص ٥ .
(٦٢) السابق ص ٥٩، ٩٨ .
(٦٣) السابق ص ٦٠، ٨٠ .
(٦٤) السابق ص ٥ .
(٦٥) السابق ص ٥ .
(٦٦) السابق ص ٨٧ .
(٦٧) الكتاب ٣/ ٥٣٠، ٤/ ٤١٧ .
(٦٨) السابق ٣/ ٥٣٥ .
(٦٩) السابق ٤/ ٤٣٤ .
(٧٠) الإبدال ١٢٣، المفصل ٣٦٤، شرح المفصل ١٠/ ٢٤، المُمْتِع في التصريف ١/ ٣٧٢، ٣٧٤، المساعد ٤/ ٢١٥ .
(٧١) شرح الشافية ٣/ ٢١٠ .
(٧٢) انظر ص ٨ .
(٧٣) ديوان الفيحاني ص ٥، ٣٣، ٤١، ٦٢، ١٠٠ .
(٧٤) السابق ص ١٢٧ .
(٧٥) السابق ص ٦ .
(٧٦) ديوان الخليفي ص ٢٠، ٣٨ .
(٧٧) ديوان الفيحاني ص ٩، ١٠، ٣٠، ٣٣، ٣٤ .
(٧٨) السابق ص ٥، ٦، ٨ .
(٧٩) السابق ص ٨٠ .
(٨٠) السابق ص ٧ .
(٨١) السابق ص ٧ .
(٨٢) السابق ص ٦٠ .
(٨٣) السابق ص ٦ .
(٨٤) المزهر ٢/ ٢٧٦، من أسرار اللغة ٦٠، خصائص اللهجة الكويتية ٥٤ .
(٨٥) ديوان الفيحاني ص ١١ .
(٨٦) السابق ص ٦ .
(٨٧) السابق ص ١٨ .
(٨٨) السابق ص ٧ .
(٨٩) السابق ص ٧٣ .
(٩٠) السابق ص ٨ .
(٩١) السابق ص ٢١، ٤٢ .
(٩٢) السابق ص ٧ .

(٩٣) السابق ص ٥٠ ، ٥٧ .
(٩٤) السابق ص ٥٧ .
(٩٥) السابق ص ٥ .
(٩٦) انظر ص ٥ ، من أسرار اللهجة الكويتية ص ٣٥ .
(٩٧) خصائص اللهجة الكويتية ص ٥٣ .
(٩٨) لايضم ما قبل واو الجماعة إلا إذا جاء بعدها ضمير نصب متصل مثل : نِسُوه، سِقُوه .
(٩٩) ديوان الفيحاني ص ٧ .
(١٠٠) السابق ص ٩٦ .
(١٠١) السابق ص ٨، ٣٤ .
(١٠٢) لم يرد عند الفيحاني غيره ص ١٢٤ ، وما بين القوسين بعده أمثله من اللهجة .
(١٠٣) ديوان الفيحاني ص ٣١.
(١٠٤) السابق ص ٣٣ .
(١٠٥) السابق ص ٢٢ ، وقد يطرأ على مثل هذا الفعل مما فاؤه حرف حلق بعض التغييرات الصوتية بأن يسكن حرف المضارعة وتفتح فاء الفعل فيصير : اِيْعَذِل . اِيْحْفُر . ايهَجِع .
(١٠٦) السابق ص ٥٨ .
(١٠٧) السابق ص ٤٦ .
(١٠٨) السابق ص ٥٢ .
(١٠٩) السابق ص ٩ .
(١١٠) السابق ص ١٠ .
(١١١) السابق ص ٤٤ .
(١١٢) من أسرار اللهجة الكويتية ١٢٨ .
(١١٣) ديوان الفيحاني ص ٣١ .
(١١٤) السابق ص ٥٨ .
(١١٥) السابق ص ٩٩ .
(١١٦) من أسرار اللهجة الكويتية ١٣٤ .
(١١٧) ديوان الفيحاني ص ٤٤ .
(١١٨) السابق ص ٣١ .
(١١٩) السابق ص ٨٠ .
(١٢٠) السابق ص ١٠ .
(١٢١) السابق ص ٩ .
(١٢٢) الكتاب ٤/ ١١٠ ، شرح الشافية ١/ ١٤١ ، لهجة البدو ١٢٨ .
(١٢٣) انظر ص ١٣ ، خصائص اللهجة الكويتية ٥٤ .
(١٢٤) ديوان الفيحاني ص ٥ .
(١٢٥) السابق ص ١١١ .

المصادر والمراجع

١ — إبراهيم أنيس (دكتور).

— الاصوات اللغوية، ط ٥ ، ١٩٧٥م، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

— من أسرار اللغة ، ط ٥، ١٩٧٥م، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

٢ — أحمد مختار عمر (دكتور).

دراسة الصوت اللغوي، ط الاولى ١٩٧٦م، عالم الكتب، القاهرة.

٣ — تمام حسان (دكتور).

مناهج البحث في اللغة ، ١٩٥٥م، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

٤ — أبوحيان (أثير الدين محمد بن يوسف ت ٧٥٤هـ).

البحر المحيط، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م.

٥ — ابن خالويه (أبوعبدالله الحسين بن أحمد ت ٣٧٠هـ).

إعراب القراءات السبع وعللها، تحقيق د. عبدالرحمن العثيمين. ط الاولى، ١٩٩٢م، مكتبة الخانجي ، القاهرة.

٦ — الخليفي (ماجد بن صالح).

ديوان الخليفي، طبعة دار الكتب القطرية، الدوحة ١٩٦٣م.

٧ — الرضي الاسترابادي (رضي الدين محمد بن الحسن ت ٦٨٦هـ).

— شرح الكافية، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م، بيروت.

— شرح الشافية، تحقيق محمد نور الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية ١٩٧٥م، بيروت.

٨ — ابن السكيت (أبويوسف يعقوب بن اسحاق ت ٢٤٤هـ).

الإبدال، تحقيق د. حسين محمد محمد شرف، ١٩٧٨م، القاهرة.

٩ — سيبويه (أبوبشر عمرو بن عثمان ت ١٨٠هـ).

الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية العامة. القاهرة

١٩٦٦ ـ ١٩٧٧م .
١٠ — السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ) .
المزهر في اللغة ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
١١ — الصيمري (أبو محمد عبدالله بن علي ـ من نحاة القرن الرابع الهجري) .
التبصرة والتذكرة ، تحقيق د . فتحي أحمد مصطفى ، ١٩٨٢م ، دار الفكر ، دمشق .
١٢ — عبدالعزيز مطر (دكتور) .
— لهجة البدو في الساحل الشمالي لجمهورية مصر العربية ، ١٩٨١م ، دار المعارف بمصر .
— خصائص اللهجة الكويتية ، ١٩٦٩م ، مطابع الرسالة ، الكويت .
— من أسرار اللهجة الكويتية ، ١٩٧٠م ، المطبعة العصرية ، الكويت .
١٣ — ابن عصفور (علي بن مؤمن بن محمد ت ٦٦٩ هـ) .
الممتع في التصريف ، تحقيق د . فخرالدين قباوة ، ط ٨ ، ١٩٧٨م ، دار الآفاق ، بيروت .
١٤ — ابن عقيل (بهاء الدين عبدالله ت ٧٦٩هـ) .
المساعد على تسهيل الفوائد ، تحقيق د . محمد بركات ، ١٩٨٠م دار الفكر ، دمشق .
١٥ — أبوالفداء (عماد الدين إسماعيل بن علي ت ٧٣٢ هر) .
الكناش في النحو والصرف ، تحقيق د . علي الكبيسي ، د . صبري إبراهيم ، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، جامعة قطر ، الدوحة ١٩٩٣م .
١٦ — الفراء (أبوزكريا يحيى بن زياد ت ٣٠٨هـ) .
معاني القرآن ، ج ١ تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، ط الثانية ، ١٩٨٠م ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة .
١٧ — الفيحاني (محمد بن جاسم بن محمد بن عبدالوهاب ت ١٩٣٤م) .

ديوان الفيحاني، طبعة دار الكتب القطرية، ١٩٦٦م.
١٨ — كمال بشر (دكتور).
— علم اللغة العام (الأصوات)، ط الثانية، ١٩٧١م، دار المعارف بمصر.
— دراسات في علم اللغة، ١٩٧٣م، دار المعارف بمصر.
١٩ — ابن مالك (أبو عبدالله جمال الدين محمد بن عبدالله ت ٦٧٢هـ).
شرح الكافية الشافية، تحقيق د. عبدالمنعم هريدي، ١٩٨٢م، دار المأمون للتراث.
٢٠ — المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد ت ٢٨٥هـ).
المقتضب، تحقيق: محمد عبدالخالق عظيمة، القاهرة.
٢١ — المطلبي (الدكتور غالب فاضل).
في الاصوات اللغوية: دارسة في أصوات المد العربية، ١٩٨٤م، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دائرة الشئون الثقافية والنشر، دار الحرية، بغداد، .
٢٢ — ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم ٧١١هـ).
لسان العرب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة.
٢٣ — ابن هشام (أبو محمد جمال الدين عبدالله بن يوسف ت ٧٦١هـ).
أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيى الدين، مطبعة دار السعادة، بمصر.
٢٤ — يس (الشيخ يس بن زين الدين العليمي الحمصي ت ١٠٦١هـ).
حاشية يس بهامش شرح التصريح للأزهري، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣١٢هـ.
٢٥ — ابن يعيش (موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي ت ٦٤٣هـ).
شرح المفصل، تحقيق مشيخة الأزهر، دار المطبعة المنيرية، القاهرة (د. ت).

علم الاجتماع والتكوين المنهجي والمعرفي لطه حسين

دراسة استطلاعية

الدكتور عبدالباسط عبدالمعطي
أستاذ ورئيس قسم الاجتماع
جامعة قطر

أولاً : مقدمة :

قليلون هم الرجال الذين ظلوا بعد رحيلهم مثار نقاش وجدل. بسبب أعمالهم ومواقفهم. ومصدر إلهام بدراسات وبحوث توحي بها الموضوعات التي درسوها والقضايا التي طرحوها. إن «طه حسين» من هذا النمط من الرجال. فهو متعدد الاهتمامات والمساهمات. فهو في الأدب من المبدعين، وبغض النظر عن تقويم إبداعاته.. وهو ناقد وباحث سعى الى التجديد في المنهج وفي موضوعات البحث. وبصرف النظر عن حدود إدراك هذا التجديد وتقويمه. يضاف إلى ما سبق انه ممن جمعوا بين القلم والعمل العام. ولهذا فلا غرابة ان تستدعيه أمته، كما تستدعي من هم على شاكلته، عندما تكون عند مفترق عليها فيها الاختيار. تستدعيهم جميعا للحوار واستخلاص الدروس او للتقويم بقصد التصحيح والتجاوز.

يضاف الى ما سبق والذي يشاركني فيه كثيرون. انه بناء على اشتغالي بعلم الاجتماع وانشغالي بأدواره المجتمعية، وجدت أن طه حسين درس هذا العلم وبحث فيه. درس فكر أبرز مؤسسي المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع. وبحث

مساهمات «ابن خلدون» في تأسيس هـذا العلم وفهم المجتمع الانساني. لقد ظل هذا الامـر يلح علي لبحث دور علم الاجتماع في التكوين المنهجي والمعـرفي «لطه حسين» ، ولا أظن ان احدا اهتم بهذا الامر على نحو مبـاشر. باستثناء إشارات متناثرة في ثنايا اعمال نقدية لمساهماته الادبية.

لقد أفضى هذا الى بلورة الهدف الرئيسي للدراسة الراهنة والذي تمثل في محاولة استطلاع ملامح ومواضع تأثير علم الاجتماع في مساهماته الفكرية والادبية. وما اذا كان هذا الاستطلاع يمكننا من تقدير هذا التأثير ولو على نحو تقريبي.

وتـوطئة للسير نحـو هـدف الدراسـة ، كـان من الضروري تحديد عـدد من المسلمات التي اخذنـاها موجهات لصـوغ منهج الدراسة ومضمـونها. وكان من بين اهم هذه المسلمات ما يلي :

١ — أنه ليس امـر واقعي ان نرجع التكوين الفكري والمعـرفي لأي إنسان الى مصدر وحيـد او خبرة او ممارسة واحدة بعينهـا. فمعرفة الانسان حصـاد تفاعل وتركيب لمتغيرات وخبرات ومـواقف يصعب حصرها لتعددها وتبـاينها ، بتعدد مراحل عمره وتباين خبراته وعلاقاته وتعدد العمليات والادوار الاجتماعية التي دخل فيها. واذا كـان هذا هـو حال الانسـان العادي ، فما بـالنا بمفكـر ومبدع ، تستدعي حالته ومساهماته النوعية قـائمة طويلة من المصادر والعمليات ، منها ما هو تعليمي ومنها ما هـو علمي. ومنها ما هو ايديولـوجي وسياسي. فضلا عن علاقته بتاريخ الفكر ومدارسه وطرائق استقباله لها جميعا ، ومواقفه منها.

٢ — ان تأثير اي من مصادر التكوين المنهجي والمعـرفي لأي مفكر او مبدع ، لايظهر امامنا من خلال تجسدات مباشرة ، او عبر رؤية ميكانيكية ، فأغلب الظن ان هذا التأثير ، يأتي عبر تداخل وتفاعل مرا في حالة المبدعين عبر مصفاة الانتقاء والاستيعـاب ، وعبر مـزيج من التأليف والتركيب ، وأحيـانـاً عبر ايحاء بأفكـار وقضايـا لا تكون في أي من المصادر المؤثرة فيـه ، بالكيفية التي انتجهـا بها المفكر والمبـدع. ان ثمـة بعـدا ذاتيـا ، وإن تأثر بمصـادر فكـريـة ومجتمعيـة ، تظل لـه

خصوصيته وروحه ومرآته الخاصة.

٣ — انه رغم ما يكتنف محاولات دراسة مصادر التأثير في فكر الرجال، من مخاطرٍ ومصاعب منهجية، إلا ان هذا يجب الا يفتر عزيمتنا العلمية، خاصة اذا كنا من المتأكدين من اجر واحد على الاقل. ولهذا اخترنا في ضوء فهمنا لمتطلبات العمل العلمي واستيعابنا لقيمه، أن تكون دراستنا من النوع الاستطلاعي، الذي يسعى إلى طرح تساؤلات وربما صياغة فرضيات في ضوء نتائج لاندعي انها يقينية او نهائية، وباعتبار ان هذا الاستطلاع مرحلة ضرورية قد تدفع نحو دراسات اخرى تسهم في الاقتراب من الدقة والتثبت العلميين.

٤ — اننا ولتحددنا بأهداف بعينها لسنا بصدد تقويم ما توصل اليه «طه حسين» من نتائج او ما اتخذه من مواقف، سواء بالقبول أو بالرفض. فهذا أمر بحاجة الى دراسات اخرى. ان هدفنا كما أشرنا هو تحسس التشابه واستطلاع التأثر بمن تفاعل معهم من رواد علم الاجتماع.

٥ — ان المبدع غالبا ما يتجاوز تقليد أو محاكاة من يقرأ لهم ويتفاعل معهم ومع أعمالهم. ولهذا نجده يتجاوز تفصيلات كثيرة. ليركز على مناهجهم وينسج الحوار مع افكارهم واختياراتهم المعرفية والايديولوجية والاجتماعية. لقد قادنا هذا الى التركيز على خصائص منهج «طه حسين» في البحث والنقد والابداع، سواء عند مستوى الاسس المنهجية المعلنة. او عند ممارسة المنهج من خلال نماذج من الاعمال والابداعات.

٦ — لقد حاولنا ان نجمع عند تحليلنا لاعمال «طه حسين» بين مستويين: أولهما كلي عابر لاكبر عدد ممكن من الاعمال، لاستطلاع التطورات المنهجية والمعرفية عنده. وثانيهما جزئي او إن شئنا الدقة محدد بأعمال بعينها بوصفها حالات تساعد في توضيح بعض مواقع التأثر او التطابق مع افكار من تفاعل مع انتاجهم في علم الاجتماع.

ثانياً: منهج «طه حسين»: الأسس والمنطلقات:

تدلنا فلسفة العلوم وعلم الاجتماع المعرفي Sociology of Knowledge وعلم المناهج البحثية Methodology بتطوراتها، وتفاعلاتها المعاصرة، على ان الفهم الارحب للمنهج هو الذي يراه حصاد تركيب بين المنطلقات الفلسفية والنظرية والاجراءات والاساليب البحثية المستخدمة. وانه يشمل كل خطوات البحث بدءا من التفكير في موضوعه وحتى اعلان نتائجه وتفسيرها. (١)

في ضوء هذا الفهم سيكون سعينا نحو استخلاص الاسس المنهجية التي اعتمدها «طه حسين» في ممارساته البحثية والفكرية والابداعية، قصد استطلاع ما هنالك من علاقات مباشرة او غير مباشرة بما قرأ ودرس وبحث في اطار علم الاجتماع. خاصة ذلك الاطار الذي كان متاحا له ان يتفاعل معه. ونخص هنا اعمال رواد المدرسة الفرنسية واعمال «عبدالرحمن بن خلدون».

والذي يهمنا الاشارة اليه هنا هو انه اذا كان الوعي المنهجي والمعرفي للمفكر او الباحث لايمكن ارجاعه الى مصدر وحيد لأن ثمة مصادر كثيرة مؤثرة يتفاوت دورها من حيث الشدة والمدى. فيهم بالقدر نفسه تأكيد ان المنهج عند المفكر او الباحث لايولد لديه مكتملا، لانه يمر بتطورات ويخضع لتعديلات وتبدلات كلية او جزئية. نتيجة لدور الممارسة في إثراء الوعي المنهجي لدى الباحث. ولذلك قالوا بأن هذه الممارسة ان لم تثر وعي الباحث وتبلوره. فمن المؤكد انها ممارسة كانت ناقصة ومبتورة او على الاقل مشوهة.

وتفيدنا الدراسات والبحوث التي انجزت حول اعمال «طه حسين»(٢) وايضا متابعتنا لعدد مهم من اعماله. بأن منهجه مر على الاقل بمرحلة التأسيس التي اعتمدت على النقد ربما اكثر من غيره، ثم مرحلة البلورة والتعديل. ليكون التشكل الناضج للمنهج متجسدا من خلال الممارسات المطردة.

والذي يعلمنا به هذا التطور - بين إعلامات اخرى - انه رغم التبديل والتعديل الذي اجراءه على منهجه، فثمة ثوابت نسبية شكلت معالم كانت حاضرة في مضمون هذا المنهج. كما انه ثمة متغيرات او اسس تبدلت او تفاوت

حضورها في اعماله، بين مرحلة واخرى، وربما بين عمل وآخر، وممارسة فكرية او بحثية واخرى. إن تمييز الثوابت المنهجية ودراسة علاقتها بعلم الاجتماع، يجعلنا نفترض : أنه كلما كانت العلاقة واضحة بين هذه الثوابت وأسس هذا العلم، كنا في موقف يسمح لنا بتعيين التأثير النسبي لهذا العلم، كمصدر من مصادر التكوين المنهجي والمعرفي «لطه حسين».

إنه بوسع المتابع لمنهجية دراسة الفكر الانساني ومساهمات رواده، ملاحظة تأكيدها على ابعاد كاشفة لخصائص هذا الفكر ومواقف اولئك الرواد وهويتهم. هذه الابعاد هي(٣) : تحديد دور العقل الانساني في الإدراك، ورؤية التاريخ وتفسيره. والموقف من الواقع الاجتماعي، بمستوياته الاساسية والفرعية وعلاقاته وعملياته، خاصة الموقف من المسألتين الاجتماعية والسياسية. انها الابعاد التي يمكن عند استطلاعها في حالة «طه حسين» تحديد أسس منهجه على مستوى التنظير ومستوى التطبيق، خاصة المنطلقات الفلسفية والمعرفية لمنهجه. ولإختياراته السياسية والاجتماعية. ومع ان الفصل بين هذه الابعاد محاط بالصعاب والمخاطر المنهجية، لأنها متداخلة متفاعلة في الممارسة الواقعية. فإن محاولة إجراء فصل ولو تعسفي بينها أمر تبرره أهداف التحليل العلمي.

ا — المنطلقات الفلسفية والمعرفية :

نقصد بها المسلمات والمقولات والمبادىء التي أسهمت في تأسيس الإطار العام لرؤيته التي اطل بها على العوالم التي أحاطت به، والتي جسدتها موضوعات ممارساته البحثية والنقدية والفكرية، والقضايا التي طرحها. والاهداف التي سعى إلى تحقيقها.

أ — محددات دور العقل وشروط توظيفه في الإدراك :

من الملاحظ ان كثيرا ممن اهتموا بدراسة منهج «طه حسين» اتفقوا تقريبا على تأثره «بالمنهج الديكارتي»، خاصة القاعدة الاولى من كتاب «ديكارت» مقال «أو خطاب» في المنهج Discours de la Methode . وهي القاعدة التي ترى بوجوب

«أن لا أتلقى على الاطلاق شيئا على انه حق ما لم أتبين بالبداهة انه كذلك . اي ان اعنى بتجنب التعجل والتشبث بالاحكام السابقة وان لا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل لعقلي في وضوح وتميز لايكون لدي معهما اي مجال لوضعه موضع الشك»(٤) . ويرجع إتفاقهم الى إقتباسات وكتابات «طه حسين» الصريحة وسعيه لإصطناع المنهج الديكارتي في الأدب . لقد ذكر هذا في اكثر من عمل من أعماله خاصة عمله «في الأدب الجاهلي»(٥) أما القليل من الباحثين فهو الذي إهتم بالاشارة الى التقاء الرؤية المنهجية الديكارتية عند الممارسات البحثية والنقدية والابداعية لدى «طه حسين» برؤى أخرى لفلاسفة وعلماء اجتماع، نخص منهم من بين علماء الاجتماع «ابن خلدون» و «اوجيست كونت» و «ايميل دوركايم» . على ان معظم هذا القليل أتى حديثه بشأن هذا الإلتقاء، عام بلا تحديد، إلا فيما ندر، وبالاستناد غالبا الى إشارات «طه حسين» لأسماء بعض من هؤلاء الفلاسفة والعلماء، وبعض أعمالهم، في متون أعماله وحواشيها . وقليل من القليل هذا هو الذي عقد بعض المقارنات بين «المنهج الديكارتي» ومنهج «طه حسين»، مستشهدا ببعض النصوص والأفكار، ليبين تطوير «طه حسين» لمنهج «ديكارت»، واعتماده على التركيب والتأليف من بين رؤى منهجية اخرى غير قليلة، استنادا إلى ان ما قرب «طه حسين» من «ديكارت» هو نفسه الذي جعله يقترب من آخرين كان جل إهتمامهم بالمنهج . (٦)

لقد حاولنا ـ دون ادعاء للكمال ـ استخلاص القواعد المنهجية التي سار عليها «طه حسين» من بين الدراسات والبحوث التي عنيت بهذا المنهج اضافة الى قراءتنا لعدد من أعماله(٧) ويمكن ايجاز هذه القواعد المنهجية فيما يلي :

الاولى : وترى بضرورة تحرر الباحث او المدرك بصفة عامة، من كل ما من شأنه ان يعوق انجازه للموضوعية . ويشتمل هذا على التحرر من الافكار والاحكام والمشاعر المسبقة التي تحول دون فهم الموضوع المدرك على نحو يكشف عن طبيعته النوعية وخصائصه المتميزة .

ان هذه القـاعدة المنهجية التي يـرى البعض أنه تأثـر فيها «بديكـارت» بوسع المتتبع لأعمال «ايميل دوركايم» احـد رواد علم الاجتماع الفرنسيين والذي درس «طه حسين» على يديـه وقرأ أعماله وكان احد المشرفين على أطـروحته حول «ابن خلدون». بوسعـه ملاحظة تكرار هذ القـاعدة عند «دوركايم» خـاصة في عمله الموســـوم قـــواعـــد المنهـج في علم الاجتماع Les Regles, de la methode Sociologique ١٨٩٥ . والـذي وضح فيه أن على البـاحث التحرر من الافكـار والمشـاعـر والنـزعـات القبليـة Apriorism لأمـرين: أولهما لانها تعـوق الفهم الموضوعي لما نبحث بتأثيرهـا في احكامنا عليـه. وثانيهما لانها حافلة بما هـو عام ودارج، مما يبعد البحث عما هو علمي(٨).

قد يـرى البعض ان ليس «لـدور كايم» دور مـؤثر في «طه حسين» بشـأن هذه القاعـدة لأن كليهما قرأ «ديكـارت» ودرسه. واذا كان من تشـابه في التعـديلات والصياغات فربما ترجع الى «التخاطر». ولأن أخلاقيات العمل العلمي لاتجعلنا نصادر على مثل هـذا الرأي، . فإنها من ناحيـة اخرى تلح علينا في منـاقشته. ان الحد الادنى للتأثير «الـدور كـايمي» بشأن هذه القـاعـدة يأتي من انـه قدم «لطـه حسين» مبررات تـــدعم استنـــاده اليهـــا. ويأتي الحد الاوسط للتـأثير من ان «دوركايم» قـدم أمثلة تفصيلية حول المؤثـرات الاجتماعية والثقافيـة المسبقة التي من شأنها التأثير السلبي في ادراك الموضـوع. اما الحد الاعلى للتأثير فيكشف عن نفسه من إستشهـاد «طه حسين» بأفكار «دور كـايم» في عدد من اعماله، خـاصة عمله حول «ابن خلدون» والـذي نفترض ان نقده السلبي والايجابي له تم بعيون «دوركـايمية» وحتى المقـارنات التـي عقدهـا «طه حسين» بين «ابن خلـدون» و «مـونتسكيـو» يمكن افتراض انـه تأثـر فيهـا بعمل سـابق «لـدور كـايم» حـول «مونتسكيو وروسو»(٩) لقد بين «طـه حسين» في أطروحته حول «ابن خلدون» ان منهج ابن خلـدون بعيـد عن منهج علم الاجتماع، لانه لم يتحـرر من عـادات عصره تحررا كـافيا ليكـون علميـا حقيقـة وليجعل الى درجة كـافيـة من الحادث «الواقعة» الاجتماعي موضوعاً. (١٠)

الثانية : طالب بضرورة تحرير الموضوع المدروس من كل صوره الفردية والطارئة والثانوية، وتداخله مع غيره من ظواهر ليست من طبيعته، ويتسنى هذا للمدرك ـ الباحث ـ عندما يرتفع بموضوع إدراكه إلى مستوى الظاهرة الاجتماعية، وتطبيق خصائص هذه الظاهرة عليه عند اختياره. انها الخصائص التي ترى بعمومية الظاهرة وتلقائيتها ووجدوها على نحو خاص تلقائي.

لقد كان قصده من وراء هذا ان تتم قاعدة تحرير الموضوع، قاعدة تحرير العقل او المدرك. وان تفاعلها يسهم في إتاحة فرصة اكبر لتحقيق الموضوعية. لقد حاول طه حسين ان يطبق هذا في عمله «في الشعر الجاهلي»(١١) كما حرص عليه في الكثير من اعماله النقدية والابداعية، على نحو ما سوف يتضح فيما يلي من معالجات وتحليلات. فكم من مرة أكد أن شخصيات أعماله القصصية والروائية لم يعتمد في اختياره لها على انها حالات فردية او ثانوية او طارئة. وانما لانها رموز لمجموعات وظواهر. ولعل في دراسته لـ «أبي العلاء» و «أبي نواس» و «الأخطل» وايضا كما في «المعذبون في الارض» شواهد على هذا.

ومع القبول باحتمال وجود تأثير لكثيرين في صياغته لتلك القاعدة، إلا أننا نلحظ «لايميل دوركايم» تواجدا اكبر عبر عدد من اعماله. «فدور كايم» كأحد مؤسسي علم الاجتماع على هدى الفلسفة والعلم الوضعيين. كان من المطالبين بتحرير موضوع البحث وان تتوافر فيه شروط الظاهرة الاجتماعية وخصائصها في ضوء ما وضعه من خصائص، لتمثل نموذجا مثالياً Ideal Type تقاس عليه خصائص الظاهرة المختارة للبحث. لقد ركز «دور كايم» هذه الخصائص، في العمومية والتلقائية والالزام في الظاهرة وايضا الطبيعة النوعية او الخاصة لها Sui-Generis والتي تميزها عن الظواهر الطبيعية والنفسية. ان هذا المصطلح الفرنسي هو نفسه ذلك المصطلح الذي كرره «طه حسين» في كثير من اعماله والذي حرص «محمد عبدالله عنان» ان يبقى عليه بلغته الفرنسية عندما ترجم الى العربية أطروحة «طه حسين» حول «ابن خلدون»(١٢).

الثالثة : أجمع شراح «طه حسين» تقريبا على انه كان على قناعة شبه تامة بنمط من أنماط الحتمية الاجتماعية. فسر في ضوئها حركة الافراد والفكر والادب(١٣). فقد كان يرد الظواهر الادبية اليها. فشعر «أبي نواس» نتاج عصره ومرحلته. والادب ظاهرة اجتماعية مشروطة بشروط اجتماعية. ويشتمل التاريخ الانساني نفسه على ظواهر محكومة بعلل اجتماعية وكونية. لقد كتب في رسالته حول «ابن خلدون» ان الحياة الاجتماعية تأخذ أشكالها المختلفة، وتنزل منازلها المتباينة، بتأثير العلل والاسباب التي لايملكها الانسان ولايستطيع لها دفعاً ولا اكتسابا(١٤). كما كان من بين دواعي تقويمه الايجابي لابن خلدون اثباته ان التاريخ محكوم بقوانين ومن ثم قال «ولنا الحق في انه سبق مونتسكيو في هذه الوجهة»(١٥). كما حرص في عمله «قادة الفكر» على إبراز حركة التطور في الفكر في علاقتها بالتطور الاجتماعي. إن شخصية الشاعر او الفيلسوف او المفكر كما ذهب، ثمرة لشروط بيئتها الاجتماعية الشاملة على ابعاد ثقافية وإقتصادية وسياسية.

حقيقة ان فكرة «الحتمية» في العلم الاجتماعي كانت سائدة لدى معظم المفكرين الذين سمع بهم او قرأ لهم او درس على ايديهم. وكانت شاملة على انواع عدة للحتمية، لكنه من بين حتمية مادية لدى «ماركس» وبيولجية لدى «دارون» و «هربرت سبنسر» وثقافية لدى «ماكس فيبر» ونفسية او سيكولوجية لدى «جبرييل تارد»، تشيع من بين كل هذا للحتمية الاجتماعية التي يعد «دوركايم» من بين اكبر المقتنعين بها، والعاملين على تأكيدها(١٦). ولعل من بين ما يدلل على تأثره «بدور كايم» في هذا المنحى، ان «طه حسين» عند تقويمه لاعمال ابن خلدون استخدم الامثلة والافكار نفسها، التي نقد بها «دور كايم» «جبرييل تارد» ليفند الحتمية النفسية وليثبت أهمية وجدوى الحتمية الاجتماعية(١٧).

الرابعة : وتعد مكملة لسابقتها ومترتبة عليها. لقد اكد «طه حسين» ضرورة دراسة الموضوع ـ الظاهرة متجردا ومتحررا من تجسداته الفردية. وايضا دراسة

التصورات الاجتماعية متحررة من التصورات الفردية، ذلك لأن ما هو مجتمعي وما هو اجتماعي ليس مجرد جمع حسابي لمكوناته الفردية، لانه حصاد تفاعل هذه المكونات على نحو تفاعل العنصرين الكيميائيين للماء. ان تشبيه التفاعل الاجتماعي بتفاعل الماء كان احد تشبيهات «دور كايم» التي تأثر بشأنها، حتى وان كان «دور كايم» قد نقلها عن آخرين. لقد كانت التفرقة بين ما هو فردي وما هو اجتماعي تفرقة مركزية في علم الاجتماع الدور كايمي كما اكد على ذلك كثير من شراحه والذين من بينهم «ريمون آرون»(١٨). كما انها التفرقة التي كانت من بين الأسس المنهجية التي قوم بها «طه حسين» أعمال «ابن خلدون» تقويما سلبيا عندما قال «والظاهر انه لم تكن لابن خلدون فكرة واضحة عن المجتمع تتميز بوجه خاص عن فكرته عن الفرد. فمع انه كان يقرر ان المجتمع السياسي ليس متحدد الشكل في كل زمان ومكان، فانه لم يلتفت الى ان ذلك المجتمع يتميز تميزا تاما مخالفا لتميز الفرد. وان له وجودا ثابتا وحقيقة غير الحقيقة الفردية. . حتى ان «ابن خلدون» كثيرا ما يشبه الدولة بالفرد فالدولة كالإنسان تولد وتنمو وتموت(١٩).

ربما يرى البعض ان تأثر «طه حسين» بهذه القاعدة فرضته طبيعة الموضوع الذي كان يدرسه. فقد كان يدرس «ابن خلدون» اول مؤسس لعلم الاجتماع، ومن ثم كان على «طه حسين» ان يقوم اعماله من داخل هذا التخصص، ومن ثم كان تأثره «بدور كايم» احد مشرفيه على هذا العمل(٢٠). ان مثل هذا الرأي كان يمكن ان يكون صحيحا، وكان يمكن لآخرين ولنا القول معه ان هذا التأثير كان محددا ومدخليا، لو ان «طه حسين» قاطع هذه الفكرة وتلك التفرقة بعد ذلك. لكن الحاصل انه كثيرا ما كان يدلل ويؤكد بعد ذلك على ان اختياره لموضوعات ابداعاته في القصة والرواية وفي دراسة الفكر والادب، لم يأتي من أنها تمثل تجسدات لظاهرات فردية وانما لأنها تمثل تجسدات لتصورات اجتماعية سائدة في حقبة او في عصر من العصور ولعل في «شجرة البؤس» و «المعذبون في الارض» وآرائه في أبي نواس والاخطل شواهد على استمرار هذه الفكرة في اعماله

التالية لدراسة لـ «ابن خلدون» .

الخامسة : وتستوجب دراسة الجذور التاريخية للظاهرة موضوع الادراك، والكشف عن تطوراتها، ومقارنة حقبها ومراحلها، وان تتم المقارنة التاريخية على مستوى حقب ومراحل تطور الأمة والمجتمع والاديب. وفي هذا يوضح في عمله «من تاريخ الأدب العربي» «ان الطريقة المعقولة في دراسة فن «الاخطل» تقضي بأن نرتب شعره ترتيبا تاريخيا مراعين أطواره التي مر بها في أسنانه المختلفة. . بمعنى ان ندرس شعر «الاخطل» في شبابه. ثم نتابع دراسته بعد ان تقدمت به السن. ثم نواصل هذه الدراسة بع ان تم له النضج الفني»(٢١). وذهب الى وجوب اجراء المقارنات بين الأمم والحضارات والأفكار الكبرى، كما فعل في مقارناته للحضارة العربية والغربية على سبيل المثال. لقد أكد بهذا وغيره اهمية المقارنة الداخلية الزمانية والمقارنات الخارجية المكانية. واذا كان الحاح «طه حسين» على ضرورة استخدام الاسلوب التاريخي في البحث وفي النقد العربي، قد باعد بينه وبين «ديكارت» بقواعده المجردة والمطلقة احيانا. فقد قربه من رؤية علم الاجتماع للتاريخ إجمالا. ونخص منها أفكار «أوجيست كونت» حول مراحل تطور المجتمع الانساني «المرحلة اللاهوتية والميتافيزيقية ومرحلة العلم الوضعي» وتفسير التاريخ لدى «ابن خلدون» والمقارنات التاريخية بين الظواهر والمجتمعات لدى «دور كايم» الذي بدا لكثيرين ان من خصائص علم الاجتماع لديه ان يكون ذا أفق وعمق تاريخيين (٢٢).

ب ـ الموقف من التاريخ :

اذا كان الاستطلاع السابق قد بين أن طه حسين تأثر بكثير من الفلاسفة والعلماء. منهم في علم الاجتماع ابن خلدون واوجيست كونت ودور كايم وتلاميذه. فانه تأثر في منطلقاته الفلسفية بدرجة أكبر «بإيميل دور كايم» اكثر من غيره. اما عن رؤيته للتاريخ، فيقودنا الاستطلاع والتحليل الى انه تأثر في كوينه لهذه الرؤية بكثير أيضا. لكن بدا لنا انه كان اكثر تأثرا «بإبن خلدون»

وشواهدنا على هذا، ما يلي من أسس وقواعد :

الاولى : وترى بأن الحركة التاريخية لاتنقطع ابدا، كما ان الحركة الاجتماعية لاتنقطع أبدا. كلتاهما أشبه بنهر متجدد لايخف مجراه او يتوقف. لقد تمثل «طه حسين» في هذا وعلى نحو مباشر بما قاله ابن خلدون عن «اختلاف العالم في الامم وانتقالها من حال الى حال على الايام والازمنة(٢٣). لقد شخص هذه الحركة باعتبارها صاعدة نحو الاعلى والارقى، وان هذا التصاعد لايسير في وثبات وانما في تطور تسلم فيه المرحلة السابقة الى اللاحقة. لقد اكد «طه حسين» في عمله السابق الاشارة اليه «من تاريخ الادب العربي» «ان الحياة في أمة من الأمم لاتنقلب إنقلابا فكريا في مدة يسيرة من الضد الى الضد.. إن تحول الأمم من لون من الحياة الى لون آخر لايكون بالوثبة وانما يكون بالتطور(٢٤).

الثانية : وتذهب الى انه بجانب حدوث التطور في المجتمع وفي الفكر وفي الادب، هناك ايضا الثبات الذي يأتي للمجتمع وللفكر وللأدب من داخل كل ومن مقوماته وخصائصه. لقد كشف «طه حسين» بقبوله بالتطور والثبات أو ما يسمى بلغة «أوجيست كونت» الديناميكا والاستاتيكا الإجتماعية، عن تأثره بوضعية «كونت» والذي أكده بقوله «نحن نعلم ان شيئين يكونان الجماعة في رأي «أوجيست كونت» : شيء ثابت لايتغير وهو أصل الجماعة وأصل نظامها، وشيء يتغير ويستحيل.. ففي الجماعة عند «أوجيست كونت» ثبات وحركة. فبفضل السكون او الثبات تحفظ الجماعة وحدتها على اختلاف الازمنة. وبفضل هذه الحركة او هذه الاستحالة تتفق الجماعة مع ما يختلف عليها عن ظروف الحياة وأطوارها»(٢٥).

الثالثة : ان حركة التاريخ او ثباته، ليسا أمرين عشوائيين لانهما محكومان بحتمية تاريخية وبأسباب ومسببات، ان التاريخ فيما رأى «طه حسين» ينطوي على قوانين حتمية لاتترك مجالا لإمكانية أخرى.. وأحداث التاريخ على صغرها مترابطة بجملة من العلل الواقعية، التي لامعرفة تاريخية دون الكشف

عنها(٢٦). ان هـذه القاعـدة تفصح عن تأثره «بـابن خلدون» ويـدلل على هذا مـديحه لـه لاستبـاقـه «مـونتسيكـو» في هـذا الأمـر بتأكيـده للجبر او الحتميـة التاريخية(٢٧). على ان هـذه الحتمية التاريخية تتجسد لديـه من خلال مجموعتين من العوامل : الخارجية المرتبطة غالبا بـالتطور الناتج عن الاتصال بين الجماعات والمجتمعـات والحضـارات، والداخليـة المرتبطـة غـالبـا بالثبـات وبخصـائص الجماعة، وانه لكي ندرس التاريخ تطورا وحـركة علينا بربط الأسباب بالمسببات والكشف عن التشـابه والاختـلاف بين المراحل والحقب، سواء أكـانت خاصـة بانتـاج ادبي او فكري او بمجتمع مـن المجتمعات. . انها هي الافكـار والمبادىء المنهجيـة التي لخص بها رؤيـة ابن خلـدون للتـاريخ عنـد إعـداده لأطـروحتـه حوله(٢٨).

الرابعة : اذا كـان قد ربط تفسيره للتطور والثبات، ولهويـة الفكر والابداع، بالسيـاق الاجتماعي التاريخي الشامل على مـا هو فكـري وثقافي وسياسي، فـانه نتيجة لتأثره «بإبن خلـدون» أبرز اهمية العوامل الاقتصادية التي غـالبا ما جعلها «دور كايم» «ذات دور أقل تأثيرا، نتيجـة لحتميته الاجتماعية التي ربطهـا بالعقل الجمعي وبـالتصـورات الجمعية. لقـد ذهب «طـه حسين» ، إلى أنـه «اذا تغيرت ضروب العيش. . وجب ان يتغير الشعر الـذي يتغنى بها»(٢٩). ولعل التدقيق في هذا يكشف أنـه أشبه بصـورة مرآة لفكرة ابن خلـدون الذاهبـة الى تغير أفكار الناس وقيمهم بتغير فرصهم من المعاش(٣٠).

الخامســـة : وتـذهب الى وجـود تشابـه ووحـدة في التاريخ الانسـاني، بين الحضارات والمجتمعات الإنسانية، وبين الآداب العالمية. لقد برز هذا الفهم من مقارنتـه للحضارة العربية بـالغربية، وللعقل الشرقي بالعقل الغـربي لقد أفصح ذلك عن نفســه في عملـه «مستقبل الثقــافـة في مصر» كما بين في دراستــه لابن خلدون» ان ابن خلدون اكتشف قانونين يتعـارضان ـ دائما ـ في كل المجتمعات. وهما «قانون التباين» و «قانون التشابه». وإذا كان اول هذين القانونين يؤكد عدم التماثل المطلق بين المجتمعـات، فإن ثانيهما يـؤكـد وحدة الظـواهر الاجتماعيـة.

فالمجتمعات البشرية تتشابه على أساس من الوحدة العقلية للجنس البشري. والتي تؤكد بدورها عدم وجود فارق جذري بين روحين بشريين. وهذا يؤكد إمكانية وجود تشابه بين المجتمعات المتباينة وإمكانية إنتمائها إلى عائلة إنسانية متحدة. واذا كان قانون التشابه يؤيد «ان الحياة الانسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف ظروفها ومهما يتنوع ما اختلف عليها من الخطوب» فإن الوحدة العقلية للجنس البشري، تتحول لتصبح اساسا للتقارب بين الثقافات، ومبررا لالغاء الهوة بين أمم متخلفة واخرى متقدمة، مما يعني تجاوب «العقل الشرقي» و «العقل الغربي» في وحدة واحدة(٣١)». تلك الوحدة التي بدت عاملا هاما من عوامل حركة التاريخ، لقد اعتبر «طه حسين» ان تطور العقل من التفكير الميتافيزيقي الى اللاهوتي ثم الى الوضعي مراحل أساسية في التاريخ الانساني، ولايخفى على دارس الفلسفة وعلم الاجتماع تأثره في هذا «بابن خلدون» و «أوجيست كونت» خاصة الاخير الذي طور «دور كايم» أفكاره بإعتباره العقلانية المتأسسة على العلم في الفكر والاخلاق قاطرة تحديث المجتمع وتحريكه نحو صورته المثلى(٣٢).

جـ المنطلقات الإيديولوجية والاختيارات الاجتماعية:

تتحدد غالبا هذه المنطلقات وتلك الاختيارات لدى المفكر والاديب والباحث من خلال تناوله للمسألتين السياسية والاجتماعية ومن خلال رؤيته للعالم. ذلك التناول الذي يتجسد من خلال موضوعات بحوثه وإبداعاته، ومن خلال المرامي والاهداف التي تطلع الى تحقيقها من خلال صورة مستقبلية مرغوبة لمجتمعه وللإنسانية.

إنه في ضوء عدد من الدراسات التي هدفت تبيين هذه المنطلقات وتلك الاختيارات وبمساعدة ما قمنا به من تحليلات لبعض أعماله البحثية والابداعية. أمكن استخلاص ثلاثة أهداف كبرى رآها ضرورية للوصول الى المجتمع الحديث هي: العقلانية والليبرالية والمساواة. يتحقق الهدف الاول المتمثل في العقلانية بتطوير التفكير الانساني عندما يأخذ بالعلم ومنهجه. وسعى «طه

العلم ويكتبون فيه وحدهم، بل هو حتم على الذين يقرأون أيضا فلن تفيدهم قراءتها إلا أن يكونوا أحراراً حقا»(٣٣). ولا يخف على كل باحث ومبدع ذلك الدور الهام للمتلقي، لا في تقييم المنتج فقط، وإنما بدفعه أيضا خطوات نحو آفاق الاجادة وبلورة الابداع وتحقيق الالتزام. فبعض من عائد الكاتب يأتي من ان له قراء يرون انتاجه عبر مراياهم، فيطور ويجدد ويجود. ولعل من بين ما حرص «طه حسين» على تنبيه قارىء أعماله اليه هو إصراره على وضع العلم في مرتبة اولى بوصفه قاطرة الحضارة وسياج الحرية والاستقلال. ففي عمله «مستقبل الثقافة في مصر» «طالب بأن نضيف إلى الحرية والاستقلال، الحضارة التي تقوم على الثقافة والعلم، والقوة التي تنشأ عن الثقافة والعلم والثروة التي تنتجها الثقافة والعلم». كما نجده يرجع الكثير من الخطوب التي ألمت بالمجتمع المصري إلى تقصيره في الثقافة والعلم. ولولا ان مصر قصرت طائعة او كارهة في ذات الثقافة والعلم لما فقدت حريتها ولما أضاعت استقلالها(٣٤).

لقد تطلب منه التمهيد لنشر التفكير العلمي، مناقشة إشكالية العلاقة بين الدين ولعلم. وهي اشكالية كانت مطروحة أمام معظم الفلاسفة والكاتبين الذين تعرف على انتاجهم خلال دراسته في فرنسا. ان ما يهم الاشارة اليه هنا انه لم يكن «لطه حسين» موقفا واحدا جامدا عند مناقشته العلاقة بين الدين والعلم. لقد خضع موقفه للتغير والتراوح والتبدل. انه تغير يفسر بعوامل عامة مجتمعية، حددها السياق المجتمعي الذي عاشه والذي طرح رؤيته من خلاله. كما يفسر هذا التغير بعوامل ذاتية، ارتبطت بمراحل تطوره العمري، وحصاد ممارساته وخبرته. فبين اندفاع وحدة في الشباب الباكر، وسعي الى التوفيق من بعد، وصولا الى رؤية اكد فيها ضرورة الدين واهميته في الهوية القومية وفي انجاز اهداف العدل الاجتماعي. لقد قدمت بعض الدراسات شواهد غير قليلة على هذا التغير والتطور في رؤيته.

ففي بدايات ممارساته للنشاط الفكري والبحثي كان حريصا نتيجة لتأثره بالفكر الوضعي والعلماني الاوروبي، خاصة فكر «ديكارت» و «دور كايم»، على

توفير شروط تحرره كباحث من كل أفكار واحكام مسبقة تعوق فهمه الموضوعي لما يدرك(٣٥)، انه تحرر بدا محددا بلحظة التحري والتحقق العلمي ولم تتجاوزها إلى لحظات أخريات. لقد بدا موقفه حينا شبيه من بعض الوجوه، بموقف «الامام الغزالي» عندما جد في طلب تحرير العقل من التقليد عندما قال «فاعلم يا أخي انك متى كنت ذاهبا الى تعرف الحق بالرجال من غير ان تتكل على بصيرتك فقد ضل سعيك. فإن العالم من الرجال انما هو كالشمس او كالسراج يعطي الضوء. ثم انظر ببصرك فإذا كنت اعمى فما يغني عنك السراج والشمس. فمن عول على التقليد هلك هلاكا مطلقاً(٣٦).

وعندما واصل مناقشة هذه العلاقة في عمله «من بعيد» عام ١٩٣٥، تراوح بين توضيح وجود خصومة بين الدين والعلم تارة، وبين توضيح الاخصومة بينهما تارة اخرى. ان الخصومة كما رأى بعد ذلك هي بين أنصار القديم والجديد. تلعب السياسة فيها غالبا الدور الاكبر. ذلك الدور الذي لايعد وقفا على حضارة او امة بعينها. فقد كان امر مشترك بين أمم وحضارات كثيرة وعبر مراحل تاريخية متباينة(٣٧). لقد ذهب في ضوء هذا الى ضرورة التوفيق بين الدين والعلم وبأن يتاح للانسان «ان يكون مؤمنا عالماً دون ان يغلو التعصب. . وان يجمع بين هاتين القوتين اللتين ليس له عنهما غنى ولا منصرف. ويطمئن الى الدين دون ان ينكر العقل ويطمئن الى العقل دون ان يجحد الدين»(٣٨).

واذا كان قد حاول في عمله «مستقبل الثقافة» ان يقيم هذا التوفيق، فلم يخفى الوجه العلماني لرؤيته، رغم تأكيده المستمر على لزوم الدين وضرورته للفرد والمجتمع. لقد ذهب في هذا العمل الى «ان المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية» وانهم ـ حسب رأيه «قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول المدنية الحديثة. وهو ان السياسة شيء والدين شيء. وان نظام الحكم وتكوين الدول يقومان على المنافع العملية»(٣٩). هذا في الوقت الذي اكد فيه في العمل نفسه اهمية الدين في التنشئة وفي التعليم وفي تأسيس الشخصية الوطنية «فقد قدمت ان الدين مقوم من مقومات الشخصية الوطنية. وأنا مؤمن بهذا فيما بيني

وبين نفسي أشد الايمان»(٤٠) وجملة الامر ان الدولة يجب ان تشرف على المدارس الاجنبية. فتكفل لابنائها الذين يدخلون هذه المدارس ما تكفله لابنائها الذين يدخلون المدارس الوطنية، من التعليم الصحيح للغة القومية، والتاريخ القومي والجغرافيا القومية والدين القومي(٤١).

على ان الاعمال التي تلت هذا، خاصة منذ الاربعينات والتي من بينها «الوان» و «الفتنة الكبرى» و«المعذبون في الارض» تمثل مرحلة جديدة، برز فيها الوجه التراثي لرؤيته في مناقشة علاقة الدين والعلم. لقد ظهر في عمله «الوان» عام ١٩٤٦ ناقداً أولئك الّذين يفكرون في العدل الاجتماعي وينظرون الى ما وراء البحر المتوسط ليلتمسوا في أوروبا هذه الأفكار. ولاينظرون الى فكرة العدل الاجتماعي كما وجدها المسلمون قبل ان ينتصف القرن الاول من الهجرة. وأضاف «لا اريد ان نستعير من اوروبا هذا المذهب او ذاك، وإنما احب ان الفت الى ان لنا في المطالبة بالعدل الاجتماعي تاريخا حافلا يستحق ان نرجع اليه. فنحن لسنا عيالا على المطالبين به من الاوربيين». وبين في الجزء الاول من «الفتنة الكبرى» ان الانسانية سلكت في سبيل الحكم الصالح والعدل الاجتماعي كل الطرق وجربت كل النظم ولم تنته الى غاية وما زالت تشكو من الظلم وتضيق بالاستذلال والاستقلال وتبحث عن النظام القويم الذي يضمن للناس الحرية والعدل جميعا. هذا النظام هو الذي حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبي بكر وعمر ان تنشئه(٤٢).

واذا كان ما سبق من اقتباسات يدلل على بعض من اهم أفكاره التي شكلت موقفه عند مناقشته للعلاقة بين الدين والعلم. فانه من قبيل التعسف العلمي ان نقيم علاقة مباشرة بين موقفه وبين من قرأ لهم وتأثر بهم. فقضية العلاقة هذه كانت مطروحة في ساحة الفكر الأوروبي، شارك فيها معظم من قرأ لهم «طه حسين» من فلاسفة وعلماء اجتماع وأدباء. وكان لكل منهم موقفه المحدد. خاصة علماء الاجتماع من امثال أوجيست كونت وإيميل دور كايم والذي كان لكل موقفه المتميز والتقائه مع الآخرين في بعض النقاط والابعاد(٤٣). على ان

ظلال الايحاء أتت من «كونت ودوركايم» خاصة في الفترات الاولى من عمله البحثي والفكري حين كان الوجه العلماني متغلبا في مناقشته لهذه القضية. كما كان اكثر تأثراً بطريقة «دور كايم» في تناول العلاقة بين الدين والعلم. فقد بين «ريمون ارون» و «آلان سونجوود A. Swingewood ان «دور كايم» كان على قناعة بأهمية الاخلاق في ربط الناس برباط مجمع، وان هذه الاخلاق تعتمد على القيم والعقيدة الدينية، وكان من العلمانيين الذين طالبوا بفصل الدين عن السياسة، وان اكد دور الدين في التربية. وفي تأسيس الضمير الجمعي(٤٤).

واذا انتقلنا من هذه القضية الى موقفه من المسألة السياسية، سنجده من أنصار التعددية السياسية والليبرالية في الاجمال. ولعل من الشواهد على هذا بعض كتاباته وأعماله. لقد ذهب «في مستقبل الثقافة» مثلا إلى أننا نريد الحرية الداخلية وقوامها النظام الديموقراطي. ونريد الحرية الخارجية وقوامها الاستقلال الصحيح والقوة التي تحوط هذا الاستقلال(٤٥). وقال في كتابه (مرآة الضمير) ١٩٤٩ تحت عنوانه «الحرية أولا» «ولكن من حق الناس جميعا أن تهيأ لهم الفرص وتعد لهم أسباب التفوق والابتكار وأول ما يجب لذلك ان يتاح للشباب - وللشباب خاصة، ما ينبغي لهم من الحرية التي تفتح قلوبهم وعقولهم وضمائرهم.. فاذا لم تتح لهم هذه الحرية فلا تبتغ منهم خيرا ولا ترج منهم نفعا»(٤٦). كما نجده في «مستقبل الثقافة» يؤكد على وظائف الديموقراطية بعامة، ودفعها للعملية التعليمية على وجه الخصوص «يجب ان تضمن الديمقراطية للناس ما يقيم أودهم، ويعصمهم من عادية الجوع، ولكن يجب ان نضمن لهم مع ذلك القدرة على ان يصلحوا من أمرهم، ويتجاوزوا ما يقيم الأود الى ما يتيح الاستمتاع بما أباح الله للناس من لذة ونعيم في الحياة.. وأول وسيلة من وسائل الكسب التي على الديمقراطية ان تضعها في أيدي الافراد انما هو التعليم الذين يمكن الفرد من ان يعرف نفسه»(٤٧).

يصعب علينا بشأن موقفه من المسألة السياسية ان ندعي لعلم الاجتماع دورا مباشرا او محددا في تشكيل موقفه منها. فما طرحه حول الليبرالية، اجمالا

والديموقراطية تحديدا، طرحه مفكرون أوروبيون وعرب غير قليلين. وان وجد تشابه في الموقف العام دون التفصيلات بين موقفه وموقف «أوجيست كونت أو ايميل دور كايم» فهو ناتج عن تعرضهم جميعا للفكر الاوروبي على انه تظل نقطة لفتت نظرنا، تتعلق بدور الدولة أمام نشاطات بعض النقابات والجماعات المهنية. وهي نقطة لاتخلو من وجود حدود اتفاق واضحة بين موقفه وموقف «دور كايم» عند مناقشة كل منهما لهذا الدور. لقد طالب «طه حسين» في الفصل الخامس والخمسين من «مستقبل الثقافة في مصر» عندما كان يتحدث عن بعض وسائل الاتصال الجماهيري كالصحافة والاذاعة. بتقييد حرية هذه الادوات نتيجة لادوارها الهامة والخطيرة في التربية والتوجيه. لكنه اكد وشدد على انه لايريد ان تكون ادارة الامن العام او إدارة المطبوعات هي التي تقيد الحرية وانما نقابة الصحافة هي التي ستشرف على الصحافة وقد مثل ذلك في لجنة الراديو (٤٨). ان هذه الرؤية تجمع بينه وبين «دور كايم» في تحديد دور المجتمع المدني كأحد مجالات بلورة الديمقراطية. لقد بين «دور كايم» في أعماله خاصة «تقسيم العمل الاجتماعي» و «المواثيق والاخلاق المدنية» ضرورة ان تتحول النقابات الى نظام يرعى ويدير الجماعات المهنية. يوفق بين مصالحها، ويحل صراعاتها، على الا تتدخل الدولة في هذه النقابات (٤٩).

وإذا أتينا الى موقف «طه حسين» من المسألة الاجتماعية وإختياراته لتناولها. سنجده اهتم بوصف صورها والتحذير من مخاطرها. اكثر من اهتمامه بتفسيرها وتحديد أسبابها. لقد تحدث كثيرا عن «الجهل» وبين أهمية التعليم وضرورته. وكان صاحب الشعار الذي طالب بأن يكون التعليم كالماء والهواء تجسيدا لضرورة اتاحته مجانيا اما كل أبناء المجتمع. كما اعتبر الديموقراطية والتعليم ركيزتين لاعادة توزيع الفرص السياسية والاجتماعية بين المواطنين(٥٠) واهتم برصد صور الفقر وتجسده اجتماعيا وآثاره على الافراد التي من بينها انتشار المرض والاغتراب وتفكك المعايير والانتحار. لقد اتضح هذا متحدثا عن نفسه في «المعذبون في الارض». وهو العمل الذي حرص فيه على تحذير الاغنياء من

مخاطر انتشار الفقر وتراكمه. وهي مخاطر من شأنها تهديد الاستقرار الاجتماعي. وقدم نموذجا من نماذج العدل في الإسلام وهو النموذج الذي قدمه الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب».

أما عن موقفه من دور الدولة في المسألة الاجتماعية، فقد طالب الدولة بالتدخل لتيسير الديموقراطية السياسية والتعليمية وتكافؤ الفرص في الكسب والعمل والحياة الكريمة. والتمتع بما أباح الله من طيبات وخيرات(٥١).

ومع وجود قدر من التباين في التفصيلات بين رؤيته للمسألة الاجتماعية وبين رؤية علماء الاجتماع الذين تفاعل مع أفكارهم خاصة ابن خلدون وأوجست كونت، إلا ان ثمة التقاء على الاقل في الموقف العام من رؤية أستاذه دور كايم، فثمة اتجاهات وتأثيرات بدت في أعمال «طه حسين» يدلل عليها تلخيص موقف دور كايم من هذه المسألة. وفي هذا الصدد يجمع شراح دور كايم على انه لم يفسر المسألة الاجتماعية تفسيرا طبقيا(٥٢). لانه ارجعها الى الفوضى التنظيمية والاخلاقية. ومن ثم فمنطلقات تناولها هي العقلانية والترشيد والليبرالية قصد ايجاد تواؤم بين العمل ومتطلباته والانسان العامل واستعداداته. ان الخلل الاجتماعي المرتبط بالفوضى التنظيمية صاحبه خلل لا في توزيع الثروة وانما في توزيع القدرات والاستعدادات من خلال الفرص المهنية التي تنظمها النقابات وليس الدولة، ومن خلال تأسيس نظام للضبط الاجتماعي الاخلاقي يكفل الاستقرار والتوازن(٥٣).

واذا كانت رؤيته قد تباينت وتغايرت عن علماء الاجتماع الذين تفاعل مع أفكارهم في بعض التفصيلات والآليات خاصة في مسألة التعليم وتكافؤ الفرص فقد اتفق معهم في تفضيله الاصلاح الهادىء على الثورة المحملة بالمخاطر والمشكلات. وبالاعتماد على الديموقراطية والعقلانية وإعادة التوزيع المحسوبة. كما شاركهم في الرؤية الفلسفية العامة، المثالية الهوية والاخلاقية المضمون والمعتمدة على تعليم الناس وتوجيههم كأسلوب عام في الضبط

الاجتماعي(٥٤).

ولعل هذا الالتقاء حينا مع المصادر الفكرية التي تعامل معها، والتنائي حينا آخر عنها بسبب ما فرضته عليه الممارسة وواقع المجتمع المصري. هو الذي جعل البعض يسم موقفه من القضايا السياسية والاجتماعية بالقلق والمراوحة. فقد كان من أنصار الاصلاح كما تشهد بعض أعماله، وانتقل من حزب سياسي الى آخر مغاير له في الفلسفة والاختيارات، فقد انتقل من حزب الاحرار الدستوريين حزب الخاصة الى حزب الجماهير. وكتب مرة قائلاً: (وإذا لم يكن من بد في ان أبين مذهبي في الحياة السياسية والاجتماعية، فليعلم اني لا احب الديموقراطية المحافظة ولا المعتدلة، ولا أقنع بالاشتراكية الفاترة، وإنما أياسر الى أقصى ما أستطيع»(٥٥). لقد وصفه البعض بأنه من أنصار الاصلاح الهادىء المدروس، ووسمه آخرون بالمحافظة أحيانا وبالردة حينا(٥٦). ووصفه فريق ثالث بأنه من أنصار التوفيق الذي بدا كالمرايا المتجاورة(٥٧). وذهب فريق رابع الى انه من انصار الوسطية التي شكلت ومنذ الحرب العالمية الاولى. وبعد ذلك، تيارا غالبا في الفكر العربي، خاصة في المشرق العربي(٥٨). كما يمكن اعتباره من المبشرين بنوع من الاشتراكية المثالية على نمط الاشتراكيين الفرنسيين الطوبائيين.

واذا كان كل من تعرض لمواقفه بالتشخيص قد انتفى من الشواهد ما يدعم وجهة نظره. فإن الفيصل فيما يرى أنصار الرؤى النقدية هو الممارسة الواقعية ومقدار إتساقها مع الاقوال، فليس بالقول المعلن او حتى الموارب او المضمر يكون الحكم على الرجال الذين جمعوا بين الفكر والعمل. . فالحكم الدقيق يكون بمقدار ممارستهم الاجتماعية، خاصة اذا كانت قد اتيحت لهم فرص المشاركة الواضحة في صنع السياسات العامة وصنع القرار، وشغل مواقع تنفيذية هامة كما هو الحال عند «طه حسين».

ثالثاً : المنهج في الممارسة :

لم يكن رصدنا للأسس المنهجية التي صاغها «طه حسين» منعزلا عن أمثلة وشواهد من عدد غير قليل من ممارساته البحثية والابداعية . وهو ما أطلقنا عليه المستوى الكلي العابر للكثير من أعماله . وفي الصفحات التالية سنحاول الوقوف بالتحليل الى عدد محدد من أعماله هي بمثابة الحالات Cases الدراسية بلغة مناهج البحث . ولان الحالات وحدات الدراسة تخضع لشروط ، بعضها عمدي او يكاد ، فقد تخيرنا الحالات التي افترضنا وجود تأثير لعلم الاجتماع في بنيتها الفكرية والمعرفية ، قصد استطلاع ملامح هذا التأثير ومداه .

١ — في سوسيولوجيا مهنة الأدب والدور الاجتماعي للأديب في المجتمع المعاصر :

أنجز «طه حسين» دراسة موضوعها «الكاتب في المجتمع المعاصر» نشرت بالفرنسية ضمن أعمال المؤتمر الدولي للفنانين الذي نظمته اليونسكو في مدينة البندقية في سبتمبر ١٩٥٢ . شارك فيه كوكبة من الفنانين والادباء وعهد فيه إلى «طه حسين» باعداد التقرير الخاص بالأدب(٥٩) . وفيما يلي أهم أبعاد هذه الدراسة ومحاورها :

أ — هدف الدراسة : قصد «طه حسين» من هذه الدراسة توضيح أبعاد دور الاديب ومكانته في المجتمع المعاصر بالتركيز على ما يسمى بدور الحرفة الثانية في حياة الاديب . ولقد صاغ هدفه هذا عبر أسئلة رئيسية هي : كيف يمكن التوفيق بين واجبات الاديب الاخلاقية واحتياجاته الحيوية؟ كيف يتاح للأديب ان ينشيء عملا حرا صادقا دون أن يضار من موارد عيشه؟ بعبارة اخرى كيف نهتدي إلى الصلة بين شئون الفكر ومقتضيات المادة؟ .

ويهمنا هنا الاشارة الى انه قبل ان يقدم تساؤلات بحثه ، ناقش عددا من الامور . في مقدمتها تلك التغيرات التي طرأت على المجتمع الانساني بفعل الصراعات الدولية والتغيرات في التقنية وانتشار القراءة والكتابة . وانعكاسات

هذا كله على دور الادب ومكانته في المجتمع.

ب — لقد بدأ منهجيا بتحديد عناصر موضوع بحثه وتوضيح خصائصه كظاهرة اجتماعية. فرعاية الادب من السلطة او موقفها السلبي منه كانت ظاهرة شملت ازمانا وحقبا ومجتمعات شرقية وغربية. وبالنسبة للحرفة الثانية كما يقول «ليست ظاهرة جديدة اذ يكفي ان تلقى نظرة سريعة على التاريخ في أي بلد نختاره وايا ما كانت الفترة التي نخصها بالاهتمام، ليتبين لنا ان الكتاب والفنانين على السواء قد مارسوا في أغلب الاوقات حرفة ثانية». ويوضح هذا اهتمامه بالتأريخ للظاهرة ومقارنة بعض أوضاعها وملابساتها زمانيا ومكانيا. وفي هذا السياق تحفظ على ما يسمى بالحرفة الثانية لتوضيح ان الادب ليس حرفة، في حين ان ما يسمى حرفة ثانية هو ما يقوم به الاديب من عمل أساسي. وقد قاده هذا الى قلب سؤاله ليكون: هل يمكن للكاتب ان يقتنع بأن يكون كاتبا لاغير؟ وفي تحليله لأوضاع الكاتب، يبين احتمالات تواجده اجتماعية بقوله: إما ان يكون الكاتب ثريا او صاحب حرفة او لايكون له سوى قلمه. ويبين شروط وملابسات كل وانعكاساتها على أوضاع الكاتب وارتباطه والقيود الممارسة عليه وإمكانات تحرره منها، حسب موقعه النسبي من هذه الحالات المذكورة.

جـ — خلص من دراسته الى نتائج من بينها: أنه بحكم الواقع المفروض على معظم الكتاب «الظاهرة الاكثر انتشارا وعمومية» فإن الكاتب بحاجة الى حرفة تيسر تفاعله مع مجتمعه وتستحث وجدانه وخياله، وان تتيح له حرية الحفاظ على قدراته الابداعية وتوجيهها الى ما يعتقد انه الامضى دون إضطرار لتقديم انتاج تفرضه الحاجة. وبين ما لهذه الحرفة من آثار سلبية على الكاتب من حيث انها تشغله عن إبداعه وقد تؤثر بقيمها واخلاقياتها في قيم الفكر والادب وأخلاقياته. كما بين انه نظرا لحاجة الكاتب الى الحرفة فعليه ألا يختار الحرفة القريبة من الادب مثل الصحافة والسينما والاذاعة. فالاشتغال بالصحافة يختلط مع الادب ويوسم انتاج صاحبه بالتبسيط والعجلة(٦٠).

ما يهمنا الاشارة اليه بشأن هذه الدراسة انها تجسد أسسا من منهجه خاصة ما تأثر فيها بعلم الاجتماع. فقد اختار موضوعه بوصفه ظاهرة، درسها من المنظورين التاريخي والمعاصر، وفسر أوضاع الكاتب بالسياق العام وما يفرضه عليه من حتمية اجتماعية جعلته لايجد بدا من إختيار حرفة لاشباع حاجاته الحياتية، ومواصلة إبداعه لاشباع حاجته للابداع. ان المتابع لهذه الدراسة في اجمالها وتفصيلاتها بوسعه ان يعتبرها اقرب الى البحث السوسيولوجي منها الى البحث الادبي.

٢ — مستقبل الثقافة في مصر وسوسيولوجيا التربية :

يوضح التحليل الكمي التقريبي لهذا العمل ان قضايا التربية والتعليم استغرقت ما يقرب الثلثين من صفحاته. وهو عمل يتجاوز فهم قضايا التربية وعملياتها، بالمعنى التقليدي المحدد للتربية. . لقد قصد منه التطلع الى الشمول النسبي الذي ربط التربية بالعلاقات الخارجية المتمثلة في التبعية التعليمية التي فرضها الاحتلال البريطاني وجسد الكثير من رموزها والتي منها المدارس واللغات الاجنبية. كما ربطها بأوضاع البنية الداخلية للمجتمع وتبادلها التأثير والتأثر مع التعليم. فالديموقراطية تساهم في توفير تكافؤ الفرص التعليمية (المجانية وحقوق المعلم والمتعلم معا). كما ان التعليم نفسه يهيىء فرص رقي الديموقراطية وتطورها. لقد ناقش بجانب كل هذا الكثير من القضايا والابعاد التي لاتزال مثار نقاش وجدل بين المدارس التربوية لا في مصر وحدها وإنما على امتداد الساحة العربية. ومن هذه القضايا :

أ — أهمية التعليم الابتدائي ومقارنتها بخطورة الامية.

ب — ضرورة تباين المدارس وتنوعها شرط التنسيق بينها وتوفير الحد الضروري لتكوين الشخصية الوطنية.

ج — ليس المهم في التعليم المباني والتأثيث وإنما المضمون. وليس المهم المنهج والبرنامج فقط، وانما ايضا طريقة التنفيذ والاشراف والنظام الاداري (٦١).

د — اهمية تعلم اللغات الاجنبية وخطورته، وضرورة الاشراف الدقيق عليه.

هـ — ضرورة الترابط والتوفق بين مراحل التعليم المختلفة.

و — الربط بين التعليم النظري والعملي وربط التعليم ببطالة المتعلمين.

ز — الربط بين المدرسة والاسرة لتدعيم كفاءة العملية التربوية (٦٢).

ح — ناقش مجانية التعليم وطالب بإتاحة الفرصة لذوي الاستعداد.

ط — ازدحام الفصول وأثرها على كفاءة العملية التعليمية.

ي — ضرورة تطوير وتنويع أساليب الامتحان والتقويم (٦٣).

ك — أهمية القراءة الحرة ومن ثم دعم المكتبات التعليمية.

ل — الاهتمام باعداد المعلم.

يمكن ان تطول قائمة القضايا والمسائل التربوية، لكننا قدمنا ما يوضح التعامل مع التعليم كظاهرة مجتمعية تتبادل التأثير والتأثر مع غيرها من أبعاد المجتمع وظواهره. وان للتعليم وظائف مجتمعية ذات صلة بالتنشئة والتثقيف والاعداد للعمل والمشاركة. وان له دوره الوطني والقومي في تأسيس ركائز الشخصية وإنتماءاتها. إنها رؤية اجتماعية شاملة. ولأنها هكذا فهي تطرح أسئلة على القارىء وعلينا. لماذا هذا الاهتمام بالتعليم؟ ولماذا هذا التناول مقارنا بغيره ممن تناولوا قضايا التعليم خلال فترة إصداره لعمله المذكور؟.

واذا كان تناوله لقضية التعليم يقترب من رؤى علم الاجتماع التربوي ودراساته في الخطوط العامة على الاقل، فبوسع المدقق استنتاج تأثره بعبدالرحمن بن خلدون كما بين هو في عمله حوله. عندما حرص على توضيح آراء «ابن خلدون» في التربية ووظائفها ومتطلابتها: فهي لديه ظاهرة اجتماعية تتأثر وترتبط بالزمان والمكان وأن غايتها اعداد رجال يستطيعون العيش جيدا. كما رفض «ابن خلدون» الشدة في التربية وكثرة المواد التي تدرس للطفل لاثرها

السلبي على عقله. هذا فضلا عن اهتمامه بتدريس اللغة وقواعدها سواء العربية او الاجنبية. ولعل متابعة مقدمة ابن خلدون نفسها يظهر لنا ربطه الواضح بين التعليم والثقافة على نحو شبيه بما فعل «طه حسين» في كتابه «مستقبل الثقافة» وتأكيد ضرورة الربط بين التعليم النظري والعملي(٦٤).

وبجانب تأثره بابن خلدون نلاحظ تأثرا بإيميل دور كايم بتركيزه على الوظائف المجتمعية للتعليم وتحليل علاقاته بالبنية الاجتماعية، وضرورة ارتباط التعليم بها وبمراحلها المحددة وبما تطرحه كل مرحلة على التعليم من مهام ووظائف. لقد أسهم فكر «دور كايم» في تدعيم اهتمام «طه حسين» بقضايا التعليم. فدور كايم من رواد علم الاجتماع الذين اشتغلوا بالتدريس وتدريب المعلمين وألقى محاضرات في علم الاجتماع التربوي وكانت له أعمالا في هذا الصدد هي «التعليم وعلم الاجتماع»، «التربية الاخلاقية ـ دراسة في النظرية والتطبيق في علم الاجتماع التربوي» و «تطور الفكر التربوي». وهي أعمال وردت فيها أفكار غير قليلة حول تطور التعليم ووظائفه ومحدداته المجتمعية ودوره في إعادة انتاج المجتمع ونشر التفكير العلمي والتدريب على العقلانية والضبط الاجتماعي الضروري لتنظيم الفوضى الأخلاقية(٦٥).

٣ — علم الاجتماع ونماذج من الأدب الإبداعي:

لأن أعماله الابداعية متعددة وتحتاج الى دراسات متخصصة كان لابد لنا من الاختيار من بينهما. وقادنا الاختيار الى نموذجين هما: «دعاء الكروان» و «المعذبون في الأرض» بوصفهما مثالين لإستطلاع تأثير علم الاجتماع في سياقهما العام وأنماط شخوصهما وعلاقاتهم الاجتماعية.

النموذج الاول: دعاء الكروان بين التضامن الآلي والتضامن العضوي:

١ — التضامن الآلي والتضامن العضوي نموذجان من نماذج المجتمع الإنساني. يعبران عن ثنائية ومقابلة بين شكلين للمجتمعات اهتم بهما المشتغلون بعلم الاجتماع كثيرا. لقد قصد «إيميل دور كايم» بنموذج التضامن الآلي،

مجتمعا بسيطا يحكمه الضمير الجمعي القائم على القيم والعادات والمشاعر المشتركة ويوسم بالتجانس النسبي والنمطية. تسوده الجماعية والعاطفية والعشوائية. يقابله نموذج التضامن المتباين بنائيا ووظيفيا. يحكمه القانون الرسمي والعقلانية والفردية. (٦٦) ان هذين النموذجين اللذين شكلا العمود الفقري لدراسة «دور كايم» تقسيم العمل الاجتماعي» طرحا على «دعاء الكروان» سؤالا هو : هل من تأثيرات لهذين النموذجين في سياق هذا العمل الابداعي «لطه حسين» وإذا كانت هذه التأثيرات قد حصلت بالفعل فما هي الشواهد عليها؟.

٢ — لقد أفضت القراءة السوسيولوجية لهذا العمل الى ملاحظة ان احد المحاور البارزة فيه تمثل في المقابلة والمقارنة بين مجتمعي القرية والمدينة المصريتين. وهي مقابلة توحي للوهلة الأولى بوجود ظلال لنموذجي التضامن الاجتماعي المشار اليهما. ومن الشواهد على هذا ما يلي :

أ — بدت المدينة النموذج الارقى والاكثر تحديثا والذي على القرية ان تتطلع اليه وتسير صوبه. ولم تخل ملاحظات وتعليقات «طه حسين» من أحكام قيمية لصالح المدينة في الاجمال. تتمثل مؤشرات رقي المدينة وعقلانيتها في أنماط السكن والملبس والمأكل والشوارع والطرقات. إن أغنياء المدينة اكثر رقيا وتحضرا من أغنياء الريف، حتى لو ملك الأخيرون الثروات نفسها. «أقبلت آمنةعلى بيت من بيوت الريف التي يظهر فيها الثراء، ويحس أهلها سعة العيش، ولكنهم على ذلك لايأخذون من ترف الحضارة إلا بأيسرها وأهونه، محتفظين بما ألفوا من هذه الحياة الريفية التي لادقة فيها ولا رقة ولا إفتنان في إرضاء الذوق، والتي تكره النظام وتنفر منه.. فالمتاع فيها كثير ولكنه مهمل.. والفرق فيها ملغى بين الحجرات.. في البيت مقاعد وكراسي، ولكن اهل الدار يؤثرون الجلوس على هذه الحصر والأبسطة.. والفرق ملغي بين من في الدار من الناس وما في الدار من الحيوان على اختلافه.. هي الحياة السهلة.. همت ان تتحضر.. ثم لم تستطع ان تتقدم فاكتفت بما اخذت ووقفت عند حد من الحدود لا

تعدوه»(٦٧).

ب — تلعب القيم والمشاعر المشتركة الدور الاكثر اهمية في تحديد السلوك والاختيارات الاجتماعية. فأمام إهدار قيمة الشرف قضت القرية بالقصاص من والد «آمنة» والحكم على زوجته وابنتيه بالخروج الى المجهول، وإعدام «هنادي» لأنها لم تحافظ على عرضها. إنها القيمة التي هانت أمامها قيمة الاخوة وعلاقة الخؤولة. في حين ان مجتمع المدينة قبل فعلة المهن، . واعتبرها مسألة شخصية وهو المسئول عن إختياره أمام القانون الرسمي الذي يعتبر ما تم ربما كان بالتراضي بينه وبين «هنادي».

لقد بين «دور كايم» في معرض توصيفه لنموذج التضامن الآلي في المجتمع البسيط، ان تصرفات الفرد مجرمة حال خروجها على الاجماع القيمي، وعلى الفرد ان يترك الجماعة حتى بدون ان تعلم الجماعة بذلك. وهذا تقريبا ما فعلته «آمنة» عندما خرجت من القرية للمرة الثانية، وإذا كان «دور كايم» قد بين ان العلاقة القرابية هي المسئولة عن التدريب على القيم والحفاظ عليها، فإن «طه حسين» قد جعل القرية تفوض خال «آمنة» ليقوم بالقصاص من أخته وابنتيها بطردهما من القرية، وتنفيذ الإعدام في «هنادي» عندما فرطت في عرضها(٦٨).

جـ — لقد بدت شخصيات الرواية وأفعالها. نتائج حتمية لواقع القرية الذي يسوده الضمير الجمعي بقيمه المشتركة وإلزامه المحمل بالقسوة على الافراد حال الخروج على هذه القيم. فلم تبدل الأم القرار القاضي بتركها هي وابنتيها للقرية. ولم تغفر القرية للإناث فعل الزوج الخارج على القيم مع ان مسئولية الذكر في القرية أكثر تحديدا، وتقابل الإناث غالبا ــ باستثناء فترة الجاهلية ــ في الريف العربي بمقادير من الشفقة والتعاطف. لقد كان من المحتم على أفراد أسرة «آمنة» العمل في منازل الموسرين كخدم وليس كعاملات في أي مجال أو نشاط آخر. وقضت الحتمية التي رتبت الحوادث في ضوئها ان يكون الانتقام من الطرف الأضعف، بالتشريد وسلب الشرف، وفي الوقت نفسه تسامح «آمنة» أمام كل

خطايا المهندس .

د — أعطى للتعليم في الرواية ، كما في اعمال بحثية وابداعية اخرى دورا بارزا في تغيير سلوك الفاعلين ، وتبديل نظراتهم للعوالم المحيطة بهم . يدلل على هذا تصرفات «خديجة المتعلمة» و «آمنة» بعد أن نالت قسطا منه . وكان لسان الحال يقول : إن التعليم هو الطريق نحو عقلنة الحياة ، بشرا وأفعالا .

هـ — بدت الصراعات في الرواية بين أفراد هم رموز لمجموعات ومجتمعات . تطلب توازن المجتمع واستقراره حل هذه الصراعات بالانسحاب تارة «ترك القرية» وبالتراضي والتسامح في أخرى . لكن الحب الذي ملأ قلبها ، جعلها تحول هدفها ، من الانتقام من المهندس . . فصفحت ربما عن فعلته بالاعتداء على أختها»(٦٩) .

النموذج الثاني : المعذبون في الأرض والأنومى :

الأنومى بلغة «دور كايم» حالة تعبر عن الفوضى التنظيمية والأخلاقية في المجتمع ، فالتغير الاجتماعي ينتج خواء أخلاقيا واضطرابا في المعايير ، كما يتيح أزمة اقتصادية لاتستطع معها الأساليب المتاحة مجتمعيا تحقيق الغايات المشروعة مجتمعيا . وبالتالي فخلل العلاقة بين الوسائل والغايات يحدث خللا بين الاشباعات والتطلعات . ولقد ربط «دور كايم» بين هذه الحالة وبين أحد أنماط الانتحار الفردي والذي أطلق عليه الانتحار الأنومي(٧٠) .

لقد قصدنا توضيح هذا المفهوم الذي بدأه «دور كايم» في كتابه «تقسيم العمل الاجتماعي» وأتم تحديده وتحليله وتفسيره في عمله التالي الموسوم «الانتحار» قبل ان نسير مع تحليل «المعذبون في الارض» . لقد كان في الذهن ترجيح لاحتمال تأثر «طه حسين» بهذه الحالة عند صياغته لعمله وخاصة ما يتعلق بالنهايات الحتمية التي آل إليها حال أشخاص هذا العمل الأدبي :

أ — تفصح الحتمية الاجتماعية عن هويتها من خلال المسارات التي وضع فيها شخصيات العمل فأفضت الى الموت نتيجة المرض «رفيق» والموت بحادثة

قطار «صالح وسعيد» والانتحار «خديجة» او الجنون او ترك القرية. ويخال لنا ان هذه الحتمية تكاد تجسد جوهرها الفكري بالابقاء على الأصلح، فلم تحل واحدة من مشكلات الشخصيات المذكورة وانما ذهبوا الى قدرهم المحتوم.

ب — يوضح العمل ان احوال هذه الشخصيات وأوضاعها نتجت عن أزمة إقتصادية وأخلاقية وقدر محتوم. فالغني قدر والفقر قدر. وأوضاع البنية الاجتماعية المضطربة تنظيميا واخلاقيا لم تجعل ما أتيح للشخصيات من وسائل بقادر على إشباع حاجاتها وتحقيق تطلعاتها. في حين أنها أتاحت لآخرين وسائل الإسباع فأفلتوا من العذاب في الارض ومن الموت جوعا او مرضا. «أمين نموذجا».

جـ — حذر من الثورة، ثورة الفقراء، وطالب الاغنياء بوضع الفقراء في الاعتبار خشية الثورة عليهم «ويفرض الحرص على ألا تتعرض مصر للأخطار العنيفة قبل إبانها. . وعلى ان يسلك هذا الوطن البائس طريقه الى التطور في أناة ورفق وهدوء. . لاتعصف به العواصف، ولايجري عليه ما جرى على بعض الأمم من هذه الثورات التي لاتبقي على شيء»(٧١). لقد كان حريصا على ان يتوجه الى الفقراء والاغنياء معا بعمله، ويكشف هذا عن نفسه من إهداء العمل، فضلا عن رغبته في تأسيس أخلاق التوازن والتكافل بين الاطراف الاجتماعية «فالرجل العازم الحكيم خليق بأن يرضى بالقضاء المكتوب، والقدر المحتموم، يحتمل الخير غير زاهد فيه، ويحتمل الشر غير ساخط عليه»(٧٢).

د — كان من معايير اختيار شخصيات العمل انها ليست حالات فردية منعزلة «لم يوجد صالح قط لأنه يملأ المملكة المصرية. . اما أمين «الغني» فموجود من غير شك لأننا نراه ولا نكاد نرى غيره. فهو هذا الصبي الذي لاينام الليل جائعا إذا أقبل الليل. . ولا يطول انتظاره للغذاء إذا آن وقت الغذاء»(٧٣).

هـ — حرص على توضيح دور «الضمير الجمعي» في إحداث التكامل الآلي

في مجتمع القرية من خلال التمسك بالقيم المشتركة. فلقد ثارت الأم على ابنتها «خديجة» خشية ان تكون قد سرقت شيئا من الطعام من مخدومها. كما رفضت «خديجة» الزواج من شاب موسر يكون في زواجها منه إنقاذا لأسرتها من الفقر والحاجة.

من العملين المذكورين «دعاء الكروان» و «المعذبون في الأرض» يمكن للقارىء أن يلمح ظلالا لفكر علم الاجتماع، وخاصة فكر «دور كايم». فالشخصيات ظواهر اجتماعية وليست فردية. ومصائرها محتومة فرضتها وحددتها موقفا وأفعالا، أوضاع المجتمع. فالفقر حتمي والانتقام للشرف حتمي، والتمسك بالقيم حتمي والقناعة بالتطور والإصلاح الاخلاقي والتحذير من الثورة لتحقيق التوازن بين المتعارضات.. الخ ضروري. وعلاوة على هذا لم ير «طه حسين» في الموت والانتحار إلا ظواهر طبيعية. إنها هي الرؤية نفسها التي نظر بها «دور كايم» الى الجريمة باعتبارها ظاهرة اجتماعية طبيعية بل ان بعض أنماطها له وظائفه الاجتماعية الايجابية.

بطبيعة الحال نحن أمام أعمال إبداعية. هي ليست تصويرا ميكانيكيا مباشرا للواقع الاجتاعي، وعلينا ألا نبحث فيها عن تطابق مباشر مع هذه الفكرة او تلك، مما مر عليه وتفاعل معه من أفكار. على ان الابداع رغم هذا يظل في بعض حدوده على الاقل تركيب مما هو مألوف وصولا الى ما هو غير مألوف. وان الاديب عندما اختار شخوصا بعينها وعلاقات بعينها ونهايات بعينها، من المؤكد انه كان أمام بدائل أخرى. وبالتالي أتى اختياره واعيا، وأهدافه محددة ولو بينه وبين نفسه. ان مقارنة العملين المذكورين بأخرى حول القرية المصرية يوضح ما نذهب اليه وتدلل عليه. لقد قاوم الفلاحون في رواية «الأرض» «لعبدالرحمن الشرقاوي» نجحوا في مقاومتهم حينا، واخفقوا أحيانا. في الوقت الذي بدت شخوص «طه حسين» مستسلمة لحتمية واقعها الاجتماعي. تهرب من الموقف تارة، وتصفح عن الجاني في أخرى. ولعل في مقارنة الشخصيات النسائية في عمله «دعاء الكروان» على سبيل المثال والذي أتت فيه المرأة ام محزونة بحاجة الى

زوجها رغم معرفتها بسلوكه المنحرف وخيانته، وخادمة في منازل أبناء الطبقة الوسطى في المدينة، وعرافة و «دلالة» وراقصة. لعل مقارنة هذا بشخصية «وصيفة» مثلا في الارض يكشف عن ابعاد الاختيارات هنا وهناك ودلالتها(٧٤). ان مقارنات اخرى مع «زينب» لـ «محمد حسين هيكل» و «الحرام» لـ «يوسف إدريس» توضح ان كلا منهم كان ابن فكره وممارساته وانتماءاتها والوظائف التي اعتقد ان ينجزها الأدب. وكان إبداع كلا منهم نتاجا لمنهجه ولو في خطوطه العامة. فبينما مال «طه حسين» الى المثالية الممزوجة بمقادير من الواقعية بدأ «محمد حسنين هيكل» رومانسيا، واتجه «عبدالرحمن الشرقاوي» و «يوسف إدريس» الى نمط من الواقعية المموجة بظلال مادية.

خاتمة:

في حدود ما سبق من استطلاع لعدد من أعمال «طه حسين»، وقراءة عدد من الدراسات التي أنجزت حول أعماله، توصلت دراستنا الى عدد من الاستخلاصات المحكومة بشروط الدراسات الاستطلاعية وجدواها.

الأول:

رغم ما طرأ على منهجه من تعديلات وتطورات فقد أبقى فيه على عدد من الأسس والقواعد التي بدت كالثوابت النسبية في منهجه. والتي تمحورت تقريبا: حول تحرير العقل، والقناعة بأسس العلم الوضعي، وأهمية التاريخ في المقارنة والفهم والتفسير. لقد كان الهدف الأكبر من وراء هذا هو الوصول الى مشروع مجتمعي قوامه العقلانية والليبرالية والاصلاح الاجتماعي الذي ينطلق من الإصلاح التعليمي والثقافي والأخلاقي.

١ — فعلى مستوى دور العقل في الإدراك، طالب بتحريره مما يعوقه عن أداء دوره الموضوعي في الإدراك والتحري والتحقق. ويتم هذا التحرير بالالتزام بشروط العلم الوضعي الذي قال بضرورة توفر شروط في الموضوعات المدروسة ترفعها الى مستوى الظاهرة الاجتماعية، ثم ملاحظتها في ضوء ما تحدثنا به من

أبعاد ومؤشرات عامة متفردة ومتميزة عما هو نفسي وعما هو طبيعي، وتحليلها وتفسيرها تفسيرا اجتماعيا.

٢ — وعلى مستوى التفسير تخير الحتمية الاجتماعية كإطار مستقل يؤثر في كافة التصورات والخصال والافعال الاجتماعية ، الناتجة عما هو جمعي وعام ومطرد.

٣ — يعد الفهم التاريخي لنشأة الظواهر والمدركات وتطورها متمما بالمقارنة، للكشف عن خصائصها وقوانينها.

٤ — رغم إدراكه للتباين بين الحضارات والآتي من مقوماتها الذاتية التاريخية الثابتة نسبيا. فقد بين ما بين الحضارات والمجتمعات من تشابه بفعل وحدة العقل الإنساني وتطوره المشترك.

٥ — كان مع الاصلاح وضد الثورات بسبب مخاطرها الاجتماعية. وركز منطلقات هذا، في إصلاح التعليم ونشر التفكير العلمي بين الناس، وتطوير الثقافة وتوزيع الفرص الاجتماعية وتحقيق الديمقراطية.

الثاني :

رغم تأكيدنا أكثر من مرة بأنه من قبيل التجاوز للواقع ولمنطق البحث العلمي ان نبحث التكوين المنهجي والمعرفي لمفكر او مبدع ما في مصدر بعينه، فان استطلاعنا المحدد بما سبق من تحليلات هيأ لصياغة عدد من النتائج التي نراها صالحة لصوغ فرضيات لدراسات مقبلة، تختبرها لتدعيمها او تعدل فيها.

١ — فمن الثابت انه قرأ أعمال علم الاجتماع، ودرس هذا العلم وبحث فيه على يد نفر منهم. لقد درس «ابن خلدون» وبحث في اعماله. وقرأ «لأوجيست كونت» واستمع لشروح تلاميذه. . واستمع الى بعض محاضرات «دور كايم» وقرأ له تلاميذه، وتتلمذ على يديه في رسالته حول «ابن خلدون».

٢ — اكد في اكثر من عمل من اعمال متابعته وقناعته ببعض أفكار هؤلاء

الـرواد. يدلل على هـذا اقتباسـاتـه واحالاتـه في الحواشي في اعماله «فلسفـة ابن خلدون الاجتماعية» وفي «الشعر الجاهلي» وفي « من بعيد» وفي «مستقبل الثقافة في مصر» وغيرها.

٣ — إذا كان «ديكارت» قد هيأ ذهنه لضرورة اعداد عقل الباحث لكي يدرك مـوضوعـاتـه على نحو يقـربـه من الموضوعيـة. فقـد أثرى «دور كـايم» و «ابن خلدون» لديه فكرة المنهج وضرورته في العمل الـذهني. . لقد تأثر في موقفه من التاريخ «بإبن خلدون»، وأسهم «دور كايم» على الاقل في قناعته بأهمية التفسير الاجتماعي، وحتميـة دور الاطـار الاجتماعي الاخلاقي في تحديـد ادراك النـاس وتصرفاتهم وخصالهم الاجتماعية.

٤ — في انتقائه لموضـوعاته البحثية والابـداعية، برز حـرصه على ضرورة ان ترمز الى ظواهر ومجموعـات، ولاتكون مجرد تعبير عما هو فردي. وفي هذا يبدو لنـا تأثره بخصـائص ما هـو اجتماعي التي قـرأها ودرسهـا على يد أستـاذه «دور كايم».

٥ — ذهب كثير من شراح «طـــه حسين» ونـــاقـــديـــه الى تـــأثـــره المنهجي «بديكارت» ويأتي اختلاف دراستنا معهم، من ان متابعة تطويره للمنهج وايضا ممارساته المنهجيـة، تظهر لنا انه أدخل تعديلات على الرؤيـةالديكارتية أسهمت فيها قـراءاته لأعمال دور كـايم وبحثه لأعمال ابن خلـدون فلم يكن شكـه مطلقا مجردا كما هو الحال لدى «ديكارت» بل ارتدى أردية النسبيـة الزمانية والمكانية ولم يعـد المنهج الديكـارتي سوى احـد جـوانب منهجه العـام كما اشارت دراسـات محدودة عددا إلى هذا(٧٥).

الثالث :

يبين التحليل الاستطلاعي السابق ان منهج «طه حسين» بـدأ حافلا بثنائيات ومتنـاقضات أفضت الى تجاورات في بعض الأفكـار وتراوح وحيرة في اخـرى. ففي الوقت الذي ظهر فيه متشددا وصارما فيما يتعلق باعداد العقل وتحريره، بدا

من أنصار الحتمية الاجتماعية التي تتجاوز النسبية وتعوق العقل أحيانا عن التجاوز والابداع، وتتعارض ورؤيته التاريخية بما تشتمل عليه من إدراك للثوابت والمتغيرات النسبية. واذا كان قد أتى ليبراليا على المستوى السياسي وإصلاحيا على المستوى الاجتماعي، فإن موقفه من المسألة الاجتماعية تراوح بين مد «مجانية التعليم»، وجذر يخال للمرء انه خنق الارادة الانسانية تحت وطأة تأثره بالفلسفة والعلم الاجتماعي الوضعيين اللذين تأثر وعن قناعته بهما، بالمدرسة الفرنسية في علم الاجتماع. انها الوضعية التي تعلي الآني على التاريخي. ونرى فيما هو قائم الانموذج الامثل. وتسعى على نحو مطلق الى تحقيق التوازن.

لقد أفضت هذه التموجات وهذا المد والجذر في فكره ومواقفه، الى تعدد وتعارض الاحكام التي صدرت بشأن تقويم موقفه العام. اعتبر فريق انتاجه كالمرايا المتجاورة التي لم تصل الى حد التلاحم والتفاعل والتركيب. وفريق ثان اعتبره من انصار الوسطية والتوفيق. ورأى فريق ثالث بأنه رائد تنوير وتحديث. ووصفه فريق رابع بأنه صاحب عقل عملي ذرائعي. ووصفه فريق خامس بأنه من المبشرين والميسرين للتبعية للحضارة الغربية(٧٧).

إن هذه الاوصاف رغم ما يلاحظ عليها من انتقائية وتجزيىء لأعماله وممارساته. قد وضعته على انه كل شيء بدءا من كونه راديكاليا الى كونه محافظا. ولعل ما يلفت النظر ان بعض دارسي أستاذه «دور كايم» قد أطلقوا على هذا الاستاذ الاوصاف السابقة تقريبا حيث استخلصوا من اعماله عدة زوايا جعلته هو الآخر كل شيء. بدءا من كونه ماديا الى كونه صوفيا(٧٨).

وبعد اتصور ان الاستطلاع السابق قد تمكن على الاقل من توضيح ان المرايا المتجاورة لدى «طه حسين» عكست اشخاصا وأفكارا مرت عليها. أسهمت في تجاور ما عكسته هذه المرايا. . وكان بعض مما عكست أفكارا لعدد من رواد علم الاجتماع أتى بعضها باهت وبعضها الآخر اكثر وضوحا ولمعانا.

المصـادر والحواشـي :

١ — فردريك معتوق، تطور علم اجتماع المعرفة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢، ص ص ١٥٦ ـ ١٥٨.
٢ — من هذه الدراسات على سبيل المثال :
— جابر عصفور، المرايا المتجاورة ـ دراسة في نقد طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.
— أحمد علبي، طه حسين ـ رجل وفكر وعصر، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥.
— كتاب فكر، طه حسين، مائة عام من النهوض العربي، عدد ١٤، القاهرة، ١٩٨٩.
٣ — Nisbet, R, The Socialogical Tradition, Heinmann, London, 1966, pp VII - VIII.
وانظر أيضا : Zeitlin, I., Ideology and the Development of Socialogical Theory, Prentic Hall If India, New Delhi, 1969.
٤ — يوسف سليم سلامة «ديكارت وطه حسين ملاحظات تمهيدية حول مشكلة المنهج عند طه حسين»، في طه حسين ـ العقلانية، الديموقراطية والحداثة، قضايا وشهادات، كتاب ثقافي دوري، عدد ١ مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، دمشق، بدون تاريخ، ص ص ٦٩ ـ ١١١.
٥ — أحمد برقاوي، «طه حسين والعقلانية» منشور في المصدر السابق، ص ص ١٥١ ـ ١٧٦ خاصة ص ١٥٦.
٦ — يوسف سليم سلامة، مصدر مذكور، ص ص ٩١ ـ ٩٣.
٧ — من هذه الأعمال المصادر المذكورة لكل من : جابر عصفور — يوسف سليم سلامة، أحمد برقاوي ـ أحمد علبي. بالاضافة إلى :
— شكري ماضي «الفكر الادبي في والمنهاج النقدي» كتاب فكر، مصدر مذكور، ص ص ١٩١ ـ ٢٠٨.
— مجاهد عبدالمنعم مجاهد «مفهوم التأريخ»، المصدر السابق ص ص ٨٩ ـ ١٠١.
٨ — إيميل دور كايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة د. محمود قاسم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١ ص ص ٧٠ ـ ٧٤.
٩ — Thompson, K; Emile Durkheim, Ellis Horwood, London, 1982, p. 169.
١٠ — طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة محمد عبدالله عنان، المجموعة الكاملة، المجلد الثامن، علم الاجتماع، بيروت ١٩٧٥، ص ٧٦.
١١ — يوسف سليم سلامة، مصدر مذكور، ص ص ٩٢ ـ ٩٣.
١٢ — طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، مصدر مذكور، ص : ٣٧، ٥٤، ٦٠، ٦٥ على سبيل المثال.
١٣ — جابر عصفور، مصدر مذكور، ص ص ٧٠ ـ ٧٤.
١٤ — طه حسين، فلسفة بان خلدون، مصدر مذكور، ص ١٦.
١٥ — المصدر السابق، ص ٤٤.
وأيضا عبدالرازق عيد «طه حسين ومنطق العقلانية» في طه حسين : العقلانية والديموقراطية والحداثة، مصدر مذكور، ص ص ١١٢ ـ ١٤٨، خاصة ص ص ١١٨ ـ ١١٩.
١٦ — Aron, R, ; Main Currents in Sociological Though, 2. ; Penguin Books. 1970, pp 104 - 105.
١٧ — Swingwood A short History of Sociological Though, Macmillan, 1984, pp 98 - 99.
وأيضا : Aron, R. ; Op. cit., p. 19.
١٨ — Ibid. , p. 16.
١٩ — طه حسين، فلسفة ابن خلدون، مصدر مذكور، ص ص ٦٢ ـ ٦٣.
٢٠ — لقد كان «دور كايم» احد مشرفين على «طه حسين» في رسالته حول ابن خلدون وبعد انتهائه منها وقبل مناقشتها، وافته المنية «دور كايم» فحل محله احد تلامذته وهو سلسلتان بوجلية S. Bougle الذي اعتمد «طه حسين» في مصادره العلميةب لرسالته على كتابه ما هو علم الاجتماع. كما كانت تقاليد الجامعة تتطلب ان يجري طالب الدكتوراه قبل مناقشة رسالته إمتحانا في موضوعين كان احدهما علم الاجتماع كما يتصوره «أوجيست كونت». انظر : احمد علبي، مصدر مذكور، ص ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨.
٢١ — نقلا عن جابر عصفور، ص ٢٢٢.
٢٢ — مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه ـ الكتاب الأول : تاريخ التفكير الاجتماعي وتطوره، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤.

٢٣ — جابر عصفور، مصدر مذكور، ص ٢١٥.
٢٤ — المصدر السابق، ص ٢١٦.
٢٥ — السابق، الموضع نفسه.
٢٦ — نقلا عن أحمد برقاوي، مصدر مذكور، ص ١٠.
٢٧ — طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، مصدر مذكور، ص ١٦.
٢٨ — عبدالرازق عيد، مصدر مذكور، ص ص ١١٨ ـ ١١٩.
٢٩ — جابر عصفور، مصدر مذكور، ص ٢١٧.
٣٠ — عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس، المقدمة الخامسة من الجزء الاول وعنوانها «في اختلاف احوال العمران في الخضب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم.».
٣١ — جابر عصفور، مصدر مذكور، ص ٢٣٤.
٣٢ — Aron, R., op. cit., p. 107.
٣٣ — يوسف سليم سلامة، مصدر مذكور، ص ٩٣.
٣٤ — طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص ٩٣.
٣٥ — يوسف سليم سلامة، واحمد برقاوي، السابق الإشارة اليهما على سبيل المثال.
٣٦ — محمد البهى «تقديم» لكتاب: محمود زقزوق، المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، دار القلم، الكويت، ١٩٨٣، ص ص ٧ ـ ١٥ وأيضا ص ٥.
٣٧ — نقلا عن نص في كتابه من بعيد ١٩٣٥، نشر في كتاب، طه حسين: العقلانية والديموقراطية والحداثة، مصدر مذكور، ص ص ٢٣ ـ ٢٤.
٣٨ — محمد جمال باروت «طه حسين والمؤسسة الأزهرية» منشور في المصدر السابق، ص ص ٣٧٢ ـ ٣٨٨، خاصة ص ٣٧٤.
٣٩ — طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، الاعمال الكاملة، المجلد التاسع، علم التربية، دار الكاتب اللبناني بيروت ١٩٨٢، ص ٢٧٠.
٤٠ — المصدر السابق، ص ٩٣.
٤١ — المصدر السابق، ص ٩٢.
٤٢ — أحمد زكريا الشلق، «طه حسين وقضية التغريب»، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد ١١، ١٩٨٨، ص ص ٢٧٧ ـ ٢٩٩، خاصة ص ص ٢٩٢ — ٢٩٣.

٤٣ — انظر مناقشة هذه النقطة في: Aron, R, مصدر مذكور، ص ص ١٢ ـ ١٣. ب
٤٤ — Idid, Lcc. cit.,
وأيضا: Swinge Wood, op cit, pp. 107 - 108.
٤٥ — طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مصدر مذكور، ص ٥٨.
٤٦ — طه حسين، العقلانية والديموقراطية والحداثة، مصدر مذكور، ص ١٨٠.
٤٧ — طه حسين، مستقبل الثقافة، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.
٤٨ — المصدر الصابق، ص ٧٧ — ٧٨.
٤٩ — علي ليلة، النظرية الاجتماعية ونشأة النظام الرأسمالي ـ حول الانساق الكلاسيكية. الشركة الفنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٨، ص ٢١٣.
٥٠ — طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر. مواضع متفرقة، خاصة ص ص ١٠٢ ــ ١٠٣ وأيضا أحمد علي، مصدر مذكور، ص ص ٤٨٢ ـ ٤٨٧.
٥١ — طه حسين، مستقبل الثقافة، مصدر مذكور، ص ص ١٠٢ ـ ١٠٤.
٥٢ — علي ليلة، مصدر مذكور، ص ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧.
٥٣ — I Aron, R, op cit, pp, 88 - 89.
٥٤ — Nisbet, R, op cit, Introduction.
٥٥ — أحمد علبى، مصدر مذكور، ص ٤٨٥.
٥٦ — انظر: مصطفى صادق الرافعي: «الدفاع عن الايمان» في «طه حسين» العقلانية والديموقراطية، مصدر مذكور، خاصة المقدمة.
٥٨ — جابر الانصاري، تحولات الفكر والسياسة في المشرق العربي، عالم المعرفة، الكويت، رقم ٣٥، ١٩٨٠.
٥٩ — طه حسين «دور الكاتب في المجتمع المعاصر» دراسة منشورة في كتاب: الشاطىء الآخر ـ طه حسين في جديده

الذي لم ينشر سابقا، كتابات طه حسين بالفرنسية . جمعها وترجمها وعلق عليها عبدالرشيد الصادق محمودي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٠، ص ص ١٠٣ ـ ١٢٨ . ويهمنا هنا أن نشير انه قد نشرت ترجمة لهذه الدراسة قبل ذلك قام بها فؤاد دواره، ونشرت بمجلة عالم الفكر، عدد ٣ مجلد ١١، اكتوبر ـ ديسمبر ١٩٨٠، انظر حول هذا جابر عصفور، مصدر مذكور، ص ٥٩ .

٦٠ — المصدر السابق، ص ص ١١٥ ـ ١١٩ .

٦١ — طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مصدر مذكور، ص ١٧١ .

٦٢ — المصدر السابق، ص ١٥٨ .

٦٣ — المصدر السابق، ص ٢٠٧ .

٦٤ — طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، مصدر مذكور، ص ص ١٥٩ ـ ١٦٣ . وانظر أيضا : الصغير ابن عمار، الفكر العلمي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ص ١١١ ـ ١٢٤ .

٦٥ — انظر ثبتا وتحليلا لهذه الاعمال في Thompson, K, op cit., 168 2 169.

وأيضا : Aron, R, op cit, 94 - 97.

٦٦ — علي ليلة، البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والانثروبولوجيا، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٢، ص ص ٨٠ ـ ٨٣ .

٦٧ — طه حسين، دعاء الكروان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٦، ص ص ١٢٩ ـ ١٣١ .

٦٨ — قارن هذا بأفكار دور كايم حول الموضوع نفسه في : علي ليلة، البنائية الوظيفية، مصدر مذكور، ص ٨٥ .

٦٩ — طه حسين، دعاء الكروان، مصدر مذكور، ص ١٦٨ ، ص ١٧٢ .

٧٠ — Thompson, K, op 111 - 114.

٧١ — طه حسين، المعذبون في الارض، سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة. ص ١٥٠ .

٧٢ — المصدر السابق، ص ص ٨٢ ـ ٨٣ .

٧٣ — المصدر السابق، ص ص ٢٤ ـ ٢٥ .

٧٤ — طه حسين، دعاء الكروان، المصدر المذكور، صفحات متفرقة ٣٢، ٣٥، ٤٢، ٤٨، ١٧٤ .

٧٥ — أحمد زكريا الشلق، مصدر مذكور، ص ٢٨٦ .

٧٦ — السيد البحراوي «قراءة في الشعر الجاهلي» منشور في طه حسين : العقلانية والديموقراطية والحداثة، مصدر مذكور، ص ص ٣٤١ ـ ٣٧١ .

٧٧ — علي ليلة، النظرية الاجتماعية ونشأة النظام الرأسمالي، مصدر مذكور، ص ٢٠٧ .

علم الاجتماع في الأقطار العربية الخليجية وضعه، ودوره في فهم الواقع المتغير

فتحي أبو العينين

قسم الاجتماع - جامعة قطر

مقـــدمة

مـرت على نشأة علم الاجتماع كتخصص أكـاديمي وكمجال بحثي في بلـدان الخليج العـربية(١) فترة زمنيـة تسمح لنا، بصـورة عامـة، بوقفـة، أو وقفات، نحاول فيها مراجعة الجهود السوسيولوجية بهدف التعرف على مدى ما حققته في مسعـاها نحـو فهم طبيعة المجتمعـات الخليجيـة، وطبيعة الظـواهر والجماعـات والقوى والنظم والمشكـلات الاجتماعية في تلك المجتمعات. فهـذا المسعى هو، في تصــورنـا، أول وأهم الأدوار التـي ينبغي على علم الاجتماع أن يضطلع بها، خاصة إذا أخـذنا في الاعتبار مجمل السياقـات العامة، العالميـة والمحلية، ومجمل المتغيرات الفـاعلـة في حـركـة تلك المجتمعات، وبـالـذات في العقـود الأربعـة الأخيرة.

وإذا كانت سنـوات الثمانينات قد تميزت بظهـور عدد من المراجعات النقـدية التي استهــدف أصحـابها تشخيص أوضــاع علم الاجتماع العـربي، وطبيعتــه وتوجهـاته، والقضـايا التي اهتم بها، ومدى فـاعليته، والصعـوبات التي تحول دون تبلـور هويتـه، فإن معظم تلك المراجعات قـد تركـز على السوسيـولوجيـا العربيـة عمومـاً(٢)، بينما انصرف بعهضا إلى معـالجة حالات خـاصة وبـالـذات السـوسيـولـوجيـا المغربيـة(٣). ولم نلحظ اهتمامـاً كـافيـاً بمثل هـذا النـوع من المراجعات بالنسبة للسوسيولوجيا الخليجية كحالة تستحق التأمل(٤).

وتمثل الدراسـة الراهنـة وقفة نطل فيهـا على المشهد العام للسـوسيولـوجيا في بلدان الخليج العـربي، وذلك بهدف تكوين بعض الأفكار الأولية المنظمـة حول

هذه السوسيولوجيا في ملامحها العامة بالدرجة الأولى، ومن بعض الخصائص التفصيلية لبعض جوانبها بدرجة أقل. ذلك أن الإحاطة الواسعة بسياقات هذه السوسيولوجيا واسهاماتها تقتضي العديد من الدراسات في إطار تقومي يمكن، إذا تم إنجازه، أن يفيد في توجيه حركة الدراسات الاجتماعية في المنطقة.

وقبل تحديد كيفية تعاملنا مع الموضوع أسجل هنا أموراً ثلاثة، يتبدى أولها في صورة قناعة، وثانيها في صورة منطق وثالثها في صورة افتراض أو توقع مشروع، ويفضي كل من هذه الأمور الثلاثة إلى تساؤل.

١ - فالقناعة لدينا هي أن فهم السوسيولوجيا الخليجية العربية مسألة يصعب، بل يستحيل، تحقيقها بمعزل عن فهم أوضاع علم الاجتماع في الوطن العربي عموماً. وأعتقد أن تلك حقيقة ينبغي التأكيد عليها، حتى ولو كنا من الذاهبين وإلى وجود «خصوصيات» محلية إقليمية. فهذه الخصوصيات، أياً كانت درجتها، تحددها في النهاية أطر عربية عامة تسهم في تشابه الهواجس والهموم والمشاغل، بصرف النظر عن مدى قدرة علماء الاجتماع العرب على تدعيم التواصل بينهم من أجل معالجة أكثر عمقاً لهواجسهم وهمومهم. والتساؤل الذي تقودنا إليه تلك القناعة هو : أين توجد مواضع التشابه والتداخل والتأثير والتأثر بين السوسيولوجيا العربية عموماً والسوسيولوجيا الخليجية خصوصاً، وما هي العوامل التي أسهمت في تكون تلك المواضع؟

٢ - والمنطقي في تصورنا هو أن الخطط والبرامج التدريسية في أقسام علم الاجتماع بالجامعات الخليجية، بما تنطوي عليه من مقررات ومؤلفات مدرسية، تشكل في مجملها جانباً أساسياً من عملية إنتاج السوسيولوجيا، ومن وضع هذا العلم في المنطقة. فهناك معرفة يقدمها أساتذة، من خلال مؤلفات مدرسية، لطلاب مسجلين في أقسام تخصصة بهدف تكوين اتجاهات علمية لديهم، وإعدادهم للعمل في مجالات معينة. وفي مثل هذه الدراسة يكون من المنطقي أن نتساءل عن أهم الخصائص التي تميز خطط التدريس بتلك الأقسام، وكذلك

تلك التي تميز المؤلفات التي تتشكل من خلالها معارف الطلاب بالعالم وبالواقع .

٣ - والافتراض المشروع من جانبنا هو أن تكون قضايا التغير الاجتماعي : طبيعته، آلياته، وتجلياته، وكذلك قضايا التنمية الاجتماعية في مجتمعات الخليج العربية هي المسائل المحورية التي تبرز، أكثر من غيرها، في الدراسات التي أجريت حول تلك المجتمعات، وحتى لو أخذنا الانطباع العام، أو عناوين بعض الدراسات التي أنجزها بعض الباحثين من أبناء المنطقة، كمعيار أو مؤشر أولي على ثبوت صحة هذا الافتراض، فسيبقى التساؤل المشروع والمحوري في هذه الدراسة : كيف عولجت تلك المسائل، وما هي المجالات الأخرى الجديرة باهتمام الباحثين؟

هذه الأمور والتساؤلات ستصبح بمثابة المحددات التي تحكم كيفية اقترابنا من المعطيات المتصلة بالسوسيولوجيا العربية في بلدان الخليج، سواء كانت تلك المعطيات تتعلق بالسياق الذي انتجت وتنتج فيه هذه السوسيولوجيا، أو كانت هي المنتج السوسيولوجي ذاته. وهكذا، فإن الدراسة تنقسم إلى ثلاثة أقسام أساسية، نسعى في أولها إلى تحليل السياقات العامة والخاصة لنشأة السوسيولوجيا الخليجية، ونخص ثانيها لعرض بعض الخصائص التي تسم كلاً من البرامج التدريسية والمؤلفات المدرسية في مجال علم الاجتماع كتخصص جامعي. أما القسم الثالث فنقترب فيه من الممارسة البحثية بالنظر إلى طبيعة الموضوعات والموجهات، والمناهج والتقنيات، باعتبار أن هذه الممارسة تمثل مستوى من العمل يعكس جانباً كبيراً من الطابع العام للعلم، ووضعه، ودوره.

أولاً : حول نشأة السوسيولوجيا الخليجية

دافعنا إلى الحديث عن نشأة علم الاجتماع في الأقطار العربية الخليجية هو في الأساس الرغبة في الكشف عن الظروف والعوامل التي حددت لهذا العلم في هذه الأقطار مساره منذ البداية، وأثرت في أوضاعه اللاحقة. ووفقاً لقناعتنا،

فإن تلك الظروف والعوامل يمكن تقسيمها إلى مجموعتين : تتعلق أولاهما بنشأة وتطور علم الاجتماع في الوطن العربي، وتمثل سياقاً عاماً ومؤثراً، ومن ثم يصبح استحضاره ضرورياً، أما المجموعة الثانية فتتصل بنشأة السوسيولوجيا الخليجية نفسها كتخصص أكاديمي. وفيما يلي عرض لتلك الظروف العامة والخاصة.

١ - السياق العام :

(أ) لا يمكن فهم الموقف الحالي لعلم الاجتماع في الوطن العربي إلا بالعودة إلى الجذور، حين ظهرت بعض الأفكار التي صاغها مثقفون عرب في القرن الماضي حول النهضة الاجتماعية والسياسية. والسمة البارزة في أغلب تلك الأفكار هي تأثرها الواضح بالغرب وفكره. وقد كان لذلك أسبابه التي تمثلت أساساً في طول فترة الانقطاع التي باعدت بين الفكر النهضوي البازغ في القرن التاسع عشر وبين النموذج المعرفي العربي المزدهر الذي كان ابن خلدون آخر ورثته، وما تخلل تلك الفترة من إنحطاط عم مختلف جوانب الواقع العربي بفعل التفسخ الداخلي من جهة، والسيطرة العثمانية من جهة أخرى، مما أفضى إلى إنغلاق آفاق الفكر، ودخول الثقافة في «زمن السكون» الذي طال أمده لعدة قرون. وحين كان دعاة النهضة في القرن التاسع عشر متحمسين للتجديد والتغيير ومحاربة التراجع الثقافي في سبيل الوصول إلى مجتمع جديد، فإنهم لم ينقلوا نموذجهم الأصيل، لأنه كان قد غاب وأعاقت قرون الإنحطاط تطوره، فاتخذوا من النموذج الغربي الذي بهرهم بتقدمه، مثالاً صاروا يدعون إلى تحقيق شيء قريب منه، هذا ما يتضح في الأفكار الاصلاحية لدى العديد من المفكرين النهضويين أمثال الطهطاوي وأديب اسحق والشدياق وفرح أنطون وأمين الريحاني(٥). أن أيا من هؤلاء المفكرين لم يحاول تحليل الأبنية الاجتماعية في تلك الفترة تحليلاً يساهم في صنع رصيد يقوم عليه علم اجتماع نوعي يحيل إلى واقع المجتمع العربي بخصائصه وظروفه الفعلية، ويحدد أسس النهضة في ضوء تلك الخصائص والظروف.

(ب) حين ظهر أول كتاب في علم الاجتماع باللغة العربية، وهو كتاب نقولا حداد الذي صدر عام ١٩٢٤ بعنوان «علم الاجتماع»، فإنه جاء حاملاً لكل خصائص تلك الأفكار. وفي تحليله لمحتوى هذا الكتاب، يقول فردريك معتوق أن التصورات التي يتضمنها، وطريقة تأليفه، والطابع اللاواعي واللانظري الذي يتسم به، وعدم اكتراثه بالجانب التطبيقي - كل ذلك أثر تأثيراً سلبياً، وبصورة مباشرة، على الأجيال اللاحقة من المهتمين بعلم الاجتماع سواء كانوا أساتذة أم طلاباً، وذلك لأن نقولا حداد قد قام «بنقل الأرث الغربي في علم الاجتماع جزئياً، دون العمل على نقده ودون البحث عما هو قيّم ومماثل له في أرثنا الثقافي العربي»(٦). هذا النقل الجزئي دون تفنيد أو نقد، مع رفض أو العجز عن العودة إلى الينابيع الفكرية العربية، أسهم في أن تجيء نشأة علم الاجتماع في الوطن العربي مشوهة ومبتسرة وغير طبيعية، وأن يكون تطوره أيضاً فيما بعد تطوراً مبتسراً.

(جـ) أسهم في هذه النشأة غير الطبيعية، والمغتربة، عامل آخر هو أن تأسيس علم الاجتماع في الوطن العربي كتخصص أكاديمي كان تأسيساً «رسمياً»، بمعنى أنه - كما يستخلص معن خليل عمر(٧) في إحدى دراساته - «لم يظهر . . . بسبب الحاجة المجتمعية أو استجابة لدراسة مشكلات اجتماعية عانى منها المجتمع العربي، بل وجد في كليات الجامعات العربية كتقليد لما هو موجود في المعاهد الأكاديمية في أوربا وأمريكا»، أو هو - على ما يذهب فردريك معتوق - «قد استورد لأهداف مدرسية جامعية ليس إلا»(٨)، ويقول باحث آخر بصدد هذا التأسيس «الرسمي»، أن بعض الدول والنظم العربية قد بادرت - في أواخر الأربعينات - إلى تأسيس علم الاجتماع كتخصص علمي، وإدماجه في نظم التعليم القائمة، بحيث تتحدد رسالته في أداء دور معين هو الحفاظ على النظم القائمة(٩). إن هذه النشأة الرسمية تعكس الفروق الشاسعة بين تجربتنا وتجربة الغرب في مجال نشأة علم الاجتماع. ففي الغرب كانت الرؤية السوسيولوجية في ظهورها تنضج وتتبلور في سياق من الفكر له جذوره في بيئة

مواتيـة تسمح بطرح إشكـاليات هـامة وجـادة ونابعة من الـواقع . ولم يكن علم الاجتماع كنظـام معـرفي أعطاه كـونت اسمـه الاصطـلاحي Sociologie سوى خطوة في تطـور رؤية كـانت قائمة في أوربـا منذ القـرن السابع عشر على الأقل، وهي رؤية نبتت بفعل التحولات التي شهدتها القارة على صعيد الاقتصاد (تطور رأسمالي وثـورة صناعيـة) وصعيد الثقـافـة (قيم جديـدة وفكر عقـلاني)(١٠).

وهناك دراسة حـول الجامعات الفرنسية والعلـوم الاجتماعية(١١) توضح كيف أن علم الاجتماع في فرنسا لم يتحول إلى تخصص أكاديمي يدرس في الجامعات إلا بعد تعاظم اهتمام الرأي العام بالقضايا المجتمعية، مما جعل الحاجة ملحة لتحويل العلم الاجتماعي إلى جـزء من النسق التعليمي والتربـوي في الجامعـة، وأن أميل دوركايم الذي صار أول أستاذ لعلم الاجتماع في فرنسا على الاطلاق لم يتولى هذه المهمة إلا عام ١٨٩٦، أي بعد أن ظل علم الاجتماع طويلاً يمارس كنشاط فكري وبحثي خـارج الجامعـة، بصورة جعلتـه ينمـو نمـواً طبيعياً في بيئتـه المجتمعيـة الخاصة به.

(د) في ظل الحضور المؤثر للغرب، سواء في صورة استعمار عسكري، أو في صورة فكر، وفي ظل سياسات تعليميـة خاضعة لذلك التأثير، كان من الطبيعي أن تتجه طـلائع المبعوثين للـدراسة في مجال علم الاجتماع إلى الغـرب. فقد تلقى علماء الاجتماع العرب الأول أمثال علي عبد الواحد وافي وعبد العزيز عزت وعبد الكريم اليافي ومصطفى الخشاب وعبد الجليل الطاهر وحسن سعفان تعليمهـم في جامعـات الغرب وحصلوا على شهاداتهم العليـا منها، وعاد هـؤلاء من بعثاتهم متأثرين بالاتجاهات السوسيولوجية الغـربية الكلاسيكية ذات النزعة الوضعية، وانصرفوا إلى وضع مصنفـات هي في جوهـرها «عبـارة عن تجميعات لنظـريات مختلفة، دون أي ربط بينها وبين المشكلات الملحة القائمة في المجتمع»(١٢). لقد انصب جل جهـدهـم على إعـداد الكتب المدرسيـة في علم الاجتماع العـام، يشرحون فيها طبيعة هذا العلم وتاريخه، وعـلاقته بالعلوم الاجتماعية الأخرى، أو الكتب التي تعـالج بعض النظـم والظـواهـر الاجتماعيـة من منظـور

السوسيولوجيا الغربية تماماً، مما جعل كتاباتهم تجيء خليطاً من الترجمة والنقل وتتسم أحياناً بعدم الوضوح، ودائماً بعدم وجود صلة بينها وبين الواقع المجتمعي والمشكلات الاجتماعية. ولعل ذلك يتضحج في كتب مثل المسئولية والجزاء لوافي (١٩٤٨)، وتمهيد في علم الاجتماع للبافي (١٩٥٢)، وأسس علم الاجتماع لسعفان (١٩٥٣)، وتاريخ الفلسفة والنظريات السياسية لمصطفى الخشاب (١٩٥٣) وغيرها. صحيح أن بعضهم قام بدراسات يوازن فيها بين كونت أو دوركايم أو مونتسكيو من ناحية وابن خلدون من ناحية ثانية، إلا أن هذه الدراسات لم تطور شيئاً من الفكر الخلدوني ولم تكن تستهدف سوى استخلاص النتيجة التي مفادها أن ابن خلدون كان سباقاً إلى ذكر ما عالجه هؤلاء.

(هـ) أن هذه الظروف التي أحاطت بنشأة علم الاجتماع في الوطن العربي، واتجاه رواده الأول إلى نقل علم الاجتماع الغربي ومحاكاته دون تفنيد، قد أفضى، كما يقول عبد الباسط عبد المعطي(١٣)، إلى اغفال الخصائص النوعية للمجتمع العربي، وإضاعة فرصة الإفادة من الانفتاح على الفكر العلمي العالمي لإبداع رؤى ملائمة لقضايا هذا المجتمع، وإلى هيمنة الاتجاهات الوضعية الوظيفية على علم الاجتماع في الوطن العربي. ولقد زاد من تأثيرها كل تلك النتائج السلبية أن هؤلاء الرواد هم الذين أضطلعوا بالاشراف على أقسام علم الاجتماع في الجامعات العربية في مرحلة تأسيسها، وانشغلوا بالأعمال التدريسية لدفعات عديدة من الدارسين الذين تم تكوينهم العلمي من خلال محتويات المؤلفات أو الترجمات التي أعدها أساتذتهم الذين شكلوا اتجاهاً يسميه معن خليل عمر «المسلك النقلي»(١٤) الذي مازال يمارس تأثيراً واضحاً على أوضاع علم الاجتماع في البلدان العربية حتى اليوم.

(و) على الرغم من أن عقد الستينات قد شهد اهتمامات واسعة بالبحوث الأمبيريقية التي تجري من خلال جهود فردية (خاصة رسائل الماجستير والدكتوراه) أو من خلال مشروعات بحثية تتبناها مراكز البحوث التي انشئت

في عدد من الأقطار العربية، إلا أن تلك البحوث التي غالباً ما عالجت الفروق الريفية الحضرية والتغير الاجتماعي والظواهر الانحرافية لم تسهم في تطوير نظرية سوسيولوجية خاصة متميزة، وذلك لأن أصحابها قد استغرقوا في جمع المادة الأمبيريقية حول ظواهر سلوكية جزئية ضيقة، واستندوا في تحليلهم وتفسيرهم لهذه المادة على ما وصلهم من مفاهيم جاهزة مستمدة من نظريات التحديث الغربية عموماً والأمريكية خاصة دون تأمل هذه المفاهيم ونقدها. وفي سنوات السبعينات ظهرت في ميدان علم الاجتماع مجموعة من الباحثين الذين أدركوا أهمية التحاور حول أوضاع علم الاجتماع وخاصة المتضمنات الإيديولوجية للنظريات السوسيولوجية الغربية الكلاسيكية (الوضعية والوظيفية)، وضرورة تحديد مدى إسهامها في فهم الواقع العربي المغاير للواقع الغربي. وأخذت الرغبة في الاطلاع على الاتجاهات النقدية والراديكالية في التراث السوسيولوجي تزداد بين بعض الباحثين، وأن اختلفوا في مدى استيعابهم لتلك الاتجاهات ومدى قدرتهم على توظيفها في إجراء بحوث مبدعة. أما عقد الثمانينات فيمكن اعتباره عقد المراجعة الذاتية بالنسبة لعلم الاجتماع في الوطن العربي، حيث ظهرت دراسات عديدة تنم عن وعي أصحابها بأن علم الاجتماع مازال قاصراً عن تجاوز التأثر بالمدارس الفكرية الغربية، ومازالت المفارقة فيه واضحة بين ما يتم نقله من التراث الغربي من مفاهيم وأطر نظرية من جهة وبين طبيعة الواقع الاجتماعي العربي من جهة ثانية، وأن هذا العلم لم يتمكن حتى اليوم من أن يطور نظرية نقدية تسعى إلى إنضاج وعي الناس بوضعهم في المجتمع الذي يعيشون فيه، وتسهم في تحرير الإنسان. وقد كشفت دراسة ميدانية أجريت في بداية الثمانينات على عينة من علماء الاجتماع العرب أن نسبة كبيرة من أفراد العينة (٨٨, ٦٠٪) قد عبرت عن أن علماء الاجتماع العرب لم يساهموا حتى الآن في فهم بناء المجتمعات العربية وثقافتها، بينما ذهب ١٢, ٣٩٪ من العينة إلى أن هؤلاء العلماء قد أنجزوا في هذا المجال ما يساعد على كشف أبعاد هذه المجتمعات. وفسر الباحثان اللذان أجريا الدراسة(١٥) هذه البيانات بأنها تشير إلى وجود نوع من

النقد الذاتي من جهة، وتعبر عن واقع حقيقة من جهة ثانية، حيث أن معظم السوسيولوجيين العرب يخضع لمعطيات علم الاجتماع الغربي، وأن طرح المشكلات النوعية لمجتمعاتهم، ومعالجة تلك المشكلات في إطار خصوصية تلك المجتمعات مسألة لم تتدعم بعد.

ربما كانت تلك النقاط الست كافية كسياق عام أو خلفية ضرورية عند النظر إلى المؤثرات الفاعلة في تشكل سمات السوسيولوجيا الخليجية.

٢ - الظروف الخاصة :

هناك حقيقتان ليس بمقدورنا تجاوزهما إذا كنا بصدد تلمس الظروف الخاصة بنشأة علم الاجتماع في منطقة الخليج العربي.

(أ) الحقيقة الأولى هي أن نشأة علم الاجتماع في أقطار الخليج العربية قد جاءت هي الأخرى، مرتبطة بتأسيس الجامعات في هذه الأقطار، وبالبدء في تدريس مقررات سوسيولوجية، وإنشاء أقسام أكاديمية للدراسات الاجتماعية بكليات الآداب والإنسانيات والعلوم الاجتماعية، التي كانت من النواة الأولى لمعظم جامعات المنطقة. ثم أخذ البحث العلمي الاجتماعي يتدعم في معظم هذه الأقطار بعدما تأسست، رسمياً، مراكز ومعاهد علمية تعني بهذا النوع من البحث، وبعدما بدأت تظهر مجلات ودوريات علمية متخصصة تهتم بنشر الدراسات والبحوث الاجتماعية.

معنى ذلك أنه لم يكن ثمة وجود لدراسات علمية اجتماعية تذكر في المنطقة قبل أن تشرع الدول العربية الخليجية في التوسع في مجال التعليم عامة، والتعليم الجامعي بصفة خاصة. ويلاحظ أحد أساتذة التربية من الذين أسهموا في تأسيس إحدى جامعات المنطقة، وعمل مديراً لها لعدة سنوات(١٦)، أن هذا التوسع في التعليم الجامعي قد ارتبط بعدة متغيرات وأحداث بدأت المنطقة تشهدها منذ حوالي أوائل الخمسينات، فسياسياً تأثرت المنطقة بموجة الاستقلال السياسي الذي حصلت عليه دول كثيرة في العالم نتيجة لتوازنات في القوى

الكبرى من ناحية، ولحركات التحرر الوطني من ناحية ثانية. أما على الصعيد الاقتصادي فقد حدثت تغيرات «فذة ذات ملامح خاصة تمثل صيغة تاريخية غير عادية»، ويقصد بذلك، طبعاً، الاكتشافات النفطية الهامة التي صارت ذات قيمة استراتيجية، ومصدراً لعوائد مالية لم يسبق لها مثيل. ويقول أستاذ آخر في التربية، وعلى دراية كبيرة بأوضاع التعليم في المنطقة(١٧)، أنه على الرغم من صعوبة الجزم بعلاقة سببية بين التطور التعليمي والبترول، إلا أنه «من الجائز أن نفترض بقدر من الثقة والاطمئنان أن الثورة البترولية كانت وماتزال عاملاً حاسماً في التوسع التعليمي في الدول العربية النفطية»، إذ حظى التعليم بقسط ملحوظ من الانفاق باعتباره الأداة التي تؤهل المواطنين للانتقال من الحياة التقليدية إلى مستلزمات المجتمع المعاصر، كما أنه ارتبط بمظاهر تحديث الدولة وأجهزتها. هذه العلاقة يسجلها أيضاً أحد علماء الاجتماع من أبناء المنطقة(١٨) في قوله أنه «بعد استخراج البترول وتسويقه، اتجهت دول الخليج النفطية إلى قطاع التعليم، تنفق عليه بسخاء فكان أكبر قطاع نال التشجيع والاهتمام، وأخذ يتوسع بنسب مضاعفة في أكثر مجتمعات الخليج».

في سياق هذا التوسع في التعليم ظهرت كل الجامعات الموجودة الآن في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربي. ففي الفترة من عام ١٩٦٦ وحتى الآن، أي خلال أقل من ربع قرن، تأسست في هذه الدول اثنى عشرة جامعة، كان أولها جامعة الكويت، وآخرها جامعة السلطان قابوس بعمان. وقبلهم جميعاً كانت جامعة الملك سعود قد أنشئت عام ١٩٥٧.

ووفقاً للبيانات المتاحة لنا، فإن هناك من بين هذه الجامعات ثمان هي التي يوجد فيها أقسام أكاديمية متخصصة في الدراسات السوسيولوجية ويبلغ عدد هذه الأقسام ١٢ قسماً، بالإضافة إلى الأقسام التي تضمها كليات الآداب والتربية التابعة لوكالة الرئاسة العامة لكليات البنات، وهي النظام الجامعي للبنات في الجامعات السعودية. وفيما يلي بيان بتلك الجامعات، والكليات التي توجد بها أقسام لعلم الاجتماع، وتواريخ الإنشاء.

جدول رقم (١)

أقسام علم الاجتماع بالجامعات العربية الخليجية

الجامعة	الكلية	القسم	تاريخ الانشاء
الملك سعود	— الآداب	الدراسات الاجتماعية	٥٧/ ١٩٥٨ *
	— التربية (أبها)	الدراسات الاجتماعية **	٧٦/ ١٩٧٧
الملك عبدالعزيز	— الآداب والعلوم الانسانية	الاجتماع	٧٤/ ١٩٧٥
	— التربية (المدينة المنورة)	العلم الاجتماعية (شعبة اجتماع)	٧٧/ ١٩٧٨
الإمام محمد بن سعود الإسلامية	— العلوم الاجتماعية	الاجتماع	٧٦/ ١٩٧٧
	— اللغةالعربية والعلوم الاجتماعية (أبها)	الاجتماع	٨١/ ١٩٨٢
	— اللغة العربية والعلوم الاجتماعية (القصيم)		٨١/ ١٩٨٢
الملك فيصل	— التربية	الدراسات الاجتماعية	٨١/ ١٩٨٢
وكالة الرئاسة العامة لكليات البنات (السعودية)	— كلية الآداب والتربية للبنات	أقسام الاجتماع للبنات	من ٧٠/ ١٩٧١ الى ٨١/ ١٩٨٢
الكويت	— الآداب	الاجتماع والخدمة الاجتماعية	٦٦/ ١٩٦٧
قطر	— الإنسانيات والعلوم الاجتماعية	الاجتماع	٧٣/ ١٩٧٤
الامارات العربية المتحدة	— الآداب	الاجتماع	٧٧/ ١٩٧٨
السلطان قابوس	— التربية والعلوم الإسلامية	الفلسفة والاجتماع **	٨٦/ ١٩٨٧

- استخرجت بيانات هذا الجدول من المصدر التالي :

دليل التعليم العالي والجامعي في دول الخليج العربي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط ١ (١٩٨٣)، ط ٣ (١٩٨٨).

* هذا هو تاريخ إنشاء الكلية ولسنا متأكدين ما إذا كان أيضاً تاريخ إنشاء القسم.

** لم يرد ذكره في ط ٣ (١٩٨٨) من المصدر، بينما ورد في الطبعة الأولى (١٩٨٣)؟

*** مع استمرار وجود التخصص كشعبة في هذه الكلية، فقد انشىء كذلك قسم للفلسفة والاجتماع بكلية الآداب التي بدأت الدراسة فيها عام ٨٨/ ١٩٨٩ .

(ب) الحقيقة الثانية هي أن قيام هذه الأقسام الأكاديمية الناشئة بمهامها التربوية والتعليمية قد اقتضى - كما هو الحال في مختلف التخصصات الجامعية الأخرى - توفر الأساتذة الذين يتولون عملية التدريس للطلاب الملتحقين بها. ولضمان ذلك، كان على الجامعات الخليجية أن تتبع نهجين اثنين صورة متوازية. أولهما هو ابتعاث الطلاب المواطنين المتفوقين للدراسة في الخارج، سواء في دول عربية أو غير عربية، لإعدادهم ككوادر أكاديمية وكأعضاء في الهيئة التدريسية. وتشير البيانات المتوفرة في هذا المجال إلى أن معظم هؤلاء المبعوثين قد واصلوا دراساتهم العليا وحصلوا على درجاتهم العلمية (الماجستير والدكتوراه) في جامعات مصر والولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة (انظر الجدول رقم ٢).

أما النهج الثاني فهو الاعتماد على الأساتذة المعارين من الجامعات العربية في الدول العربية المصدرة للقوى البشرية: مصر وسورية والأردن والعراق ولبنان. ولهذا النهج دلالته التي يؤكدها محمد إبراهيم كاظم بقوله أن «التعليم الجامعي في الخليج ليس ظاهرة منقطعة عن التعليم الجامعي في الوطن العربي وفي مصر بالذات، بل أن الحديث عن الثقافة والتعليم في أي بلد عربي يستحيل دون أرضية عن الوطن العربي ككل»، فعلى مستوى الأمة العربية، ولاعتبارات عديدة، تاريخية وحضارية وثقافية، «أمكن ظهور وفرة من الخبراء والأساتذة.. يستطيعون أن يقيموا التعليم.. في منطقة الخليج كلها بدءاً من جامعة الملك سعود وما تلا ذلك»(١٩). وأحسب أنني لست في حاجة إلى حصر، أو حتى ذكر بعض أسماء الأساتذة الذين وفدوا إلى أقسام علم الاجتماع بالجامعات الخليجية، وأسهموا مع زملائهم من الأساتذة الخليجية في التدريس للعديد من دفعات الطلاب الذين درسوا في هذه الأقسام وتخرجوا منها، وكذلك في وضع مؤلفات وإجراء بحوث ودراسات اجتماعية، صارت تمثل جزءاً أساسياً من السوسيولوجيا الخليجية. ويكفي إلقاء نظرة على الجدول رقم ٢ الذي انتجناه من دليل منشور عام ١٩٨٣ به عدد من البيانات عن المتخصصين العاملين في

الجامعات والمعاهد والمراكز والإدارات العلمية ببعض دول الخليج العربية (السعودية، الكويت، الامارات). فقد بلغ عدد هؤلاء في مجال علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ٥٦ أستاذاً وباحثاً، منهم ١٣ من الحاصلين على درجة الماجستير في التخصص، و٤٣ من الحاصلين على درجة الدكتوراه في التخصص. وحسب الجدول نفسه، فإن عدد الأساتذة والباحثين الخليجيين هو ١٦ (١٩ سعوديين و٧ كويتيين)، أما العدد الباقي فموزع على جنسيات عربية أخرى (٢٨ مصرياً، ٦ سودانيين، أردنيين، وفلسطينيين، وسوريين).

جدول رقم (٢)

توزيع المتخصصين في علم الاجتماع والانثروبولوجيا في دول الخليج العربية حسب الجنسية والبلد التي تقع فيها جامعة التخرج والدرجة العلمية

م = درجة الماجستير

د = درجة الدكتوراه

الجنسية والدرجة العلمية	سعودي		كويتي		مصري		سوداني		أردني		فلسطيني		سوري		اجمالي
جهة التخرج	م	د	م	د	م	د	م	د	م	د	م	د	م	د	
الولايات المتحدة الامريكية	١	٣	٢	٣		٥				١		١			١٦
مصر	١	٣	١		٦	١٢	١					١		١	٢٦
المملكة المتحدة				١			١	٢		١					٥
فرنسا		١				٢								١	٤
المانيا الغربية						١		١							٢
الهند						١									١
الكويت						١									١
السودان								١							١
إجمالي	٢	٧	٣	٤	٦	٢٢	٢	٤	—	٢	—	٢	—	٢	٥٦

استخرجت هذه البيانات من: دليل التخصصات العلمية في دول الخليج العربية، جـ ٢ (العلوم الإنسانية)، مكتب التربية العربي لدول الخليج (قطاع العلوم)، الرياض، ١٩٨٣، صص ١٥-٢٧. مع ملاحظة أن هذا الدليل لم يشمل كل الأقسام الأكاديمية والمراكز والمعاهد والإدارات البحثية بالمنطقة.

ويوضح الجدول كذلك ما ذكرناه من قبل فيما يتعلق بالجامعات التي تخرج منها المتخصصون، فمن العدد الإجمالي، هناك ٢٧ أستاذاً وباحثاً، أي ما يقرب من النصف، متخرجون من جامعات الغرب (أمريكا، بريطانيا، فرنسا، ألمانيا الغربية)، بينما بلغ عدد المتخرجين من الجامعات المصرية ٢٦ من هؤلاء المتخصصين. أما الثلاثة الباقين، فأحدهم متخرج من جامعة هندية، والثاني من جامعة الكويت، والثالث من جامعة سودانية.

أن النظر إلى هذه الظروف الخاصة، أعني ظروف تأسيس الأقسام الأكاديمية، وتأهيل الكوادر العلمية، واستقدام الأساتذة، في ضوء السياق العام، أعني ظروف نشأة وتطور علم الاجتماع في الوطن العربي، يجعلنا ندرك أن ثمة جوانب للتداخل والتشابه بين ما هو عام وما هو خاص وقد أفضى ذلك إلى اكتساب السوسيولوجيا الخليجية للعديد من سمات علم الاجتماع في بقية أقطار الوطن العربي، وإلى تكاملها معه إلى حد كبير. رغم أن واقع المجتمعات العربية الخليجية يسمح، بل يقضي بطرح إشكاليات وقضايا معينة يمكن أن يسهم التعامل المبدع معها في جعل السوسيولوجيا الخليجية صوتاً مميزاً ضمن الخطاب السوسيولوجي العربي.

أن تأسيس تخصص علمي ما تأسيساً «رسمياً» مسألة لا غبار عليها في حد ذاتها. أما إذا صاحبتها أو نجمت عنها أو ارتبطت بها عوامل معينة تؤثر سلباً على هذا التخصص وعلى المشتغلين به، هنا يكون التأسيس الرسمي قيداً على عمليات الدرس والبحث. ويبدو أن علم الاجتماع هو من أكثر العلوم تعرضاً للقيود التي تحد من طموحات المشتغلين به ورغبتهم في سبر أغوار الواقع والكشف عن طبيعة الارتباطات والصراعات القائمة بين مختلف القوى والمصالح والتوجهات والظواهر. وفي عالمنا العربي عموماً، حيث «ولد علم الاجتماع في الجامعات.. وترعرع في أحضانها وخضع لمؤثراتها وتوجيهاتها وأهدافها الديوانية (البيروقراطية) أو لمصالح أصحاب المواقع العليا في الكلية أو الجامعة الذين لا يهتمون بطموحات علم الاجتماع وتفاعلاته مع المجتمع

العربي، بل تعاملوا معه كقسم ديواني يخضع لسلطتهم وتوجيهاتهم»(٢٠)، لم يتمكن هذا العلم من أقتحام المشكلات الأساسية الكبرى أو يتعامل مع القضايا البالغة الخطورة والأهمية بالطابع المحافظ الذي غلب عليه، والذي يتجلى في تجنبه طرح القضايا التي يمكن أن تثير الحساسية لدى قوى أو جماعات بعينها، وفي تحوله، في أحيان كثيرة، إلى أداة للضبط الاجتماعي، وفرض الامتثال لأوضاع وبنى ربما كان استمرارها يمثل عقبة أمام إنضاج الوعي العام وتحقيق تنمية حقيقية شاملة، رغم أن أحد المهام الأساسية للجامعة هي «أن يكون أحد المواقع وأحد الأماكن التي يوجد فيها الفكر الذي يستطيع أن يخاطب ويتعرض ويناقش ويستطلع ويستشرف»(٣١).

بالإضافة إلى عامل التأسيس الرسمي لعلم الاجتماع العربي، فإن ثمة عاملاً آخر كانت له آثاره، السلبية أيضاً، على مسار هذا العلم، وليست السوسيولوجيا الخليجية استثناء في هذا الصدد. وأعني بهذا العامل نقل الموجهات النظرية والمفاهيم السوسيولوجية الغربية ومحاولة توظيفها، دون تفنيد أو تمحيص، في فهم الواقع الاجتماعي والثقافي العربي. أن الاطلاع على الإنجازات العلمية في بلدان الغرب المتقدم، والانفتاح عليها ومتابعتها أمر مشروع بل هو أمر مطلوب. والدراسة والتأهيل العلمي في جامعات الغرب ليست أمراً معيباً في ذاتها. لكن إذا كانت محصلة ذلك في النهاية هي الركون التام إلى الصياغات النظرية التي طورها علماء الاجتماع في الغرب، دون الوعي بضرورة النظر إليها في سياقاتها الخاصة، فإن ذلك يفضي، بطبيعة الحال، إلى استمرار اغتراب العلم، واستمرار عجزه عن التعامل مع الطبيعة النوعية والخاصة للواقع العربي.

ثانياً: الجانب التدريسي: المقررات والمؤلفات

فيما يلي محاولة للتعرف على البرامج الرسمية المعتمدة في أقسام علم الاجتماع بالجامعات العربية الخليجية من حيث مجالاتها ومراكز الثقل فيها (أن وجدت)،

وتوصيفاتها الواردة في بعض الأدلة الدراسية، وللتعرف كذلك على بعض محتويات المؤلفات التي يدرسها الطلاب في هذه الأقسام. ولا تعني المزاوجة هنا بين «المقررات» و«المؤلفات» أننا نهدف إلى إجراء مقارنة دقيقة بينهما للحكم على مدى التطابق بين ما يوضع ويوصف رسمياً من «مواد» أو «مقررات» وبين المحتوى الفعلي لما يدرس من «كتب مقررة». فنحن جميعاً نعرف أنه في حالات كثيرة، ولأسباب متعددة، توجد المفارقات بين الأهداف والتوصيفات المعتمدة للمقررات وبين ما يحصل عليه الطالب في الواقع. أن هدفنا هو تلمس بعض المؤشرات الدالة على طبيعة ونوعية المعرفة التي تريد المؤسسات الجامعية، ويريد الأساتذة، لطالب علم الاجتماع أن يحصلها. فمعرفتنا بهذه المؤشرات تجعلنا نقف - ولو جزئياً - على تصور تلك المؤسسات وهؤلاء الأساتذة لوظائف العلم، وتسهم في تكوين فكرتنا حول وضع علم الاجتماع.

١ - عن المقررات :

ليس في نيتنا إجراء تحليل للخطط الدراسية المعتمدة في أقسام علم الاجتماع بالجامعات العربية الخليجية بصورة تفصيلية، لكننا نود عرض مجموعة من الملاحظات التي استخلصناها من إطلاعنا على عدد من تلك الخطط.

(أ) من البديهي أن تكون مقررات الدراسة في أي قسم أكاديمي موضوعة في إطار خطة تضمن، في مجملها، إعداد خريج متخصص توفرت لديه القدرات والاستعدادات التي تؤهله للالتحاق بمجالات عملية معينة تتلاءم مع طبيعة المحتويات المعرفية والتدريبات العلمية والعملية التي تلقاها. وربما كان هذا هو أهم الغايات التي يضعها واضعوا البرامج التدريسية نصب أعينهم وهم بصدد تصميم المقررات.

وفي الدليل الأكاديمي لأكثر من قسم من أقسام الاجتماع بالجامعات العربية الخليجية نجد تحديداً واضحاً وصريحاً لهذا الهدف. فأول أهداف قسم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبدالعزيز، مثلاً، هو «إعداد

الكفـاءات البشريـة في مجال الـدراســات الاجتماعيـة والنفسيـة من بـاحثين اجتماعيين واخصائيين ومدرسي المواد الاجتماعية وذلك لتلبية احتياجات المملكة من البـاحثين الاجتماعيين للعمـل في المؤسسـات ومـراكـز الخدمــة الاجتماعيـة والمؤسسات التربوية وغيرها»(٢٢) . وفي كلية الآداب بجامعة الامارات العربية المتحـدة يحدد قسم الاجتماع لنفســه مجمـوعـة من الأهـداف مـن بينهـا «إعـداد اخصـائيين في البحث الاجتماعي والانثـروبــولـوجي للعمل في وزارة الشئـون الاجتماعيـة والعمل ومراكـز الأبحاث الاجتماعيـة . . . » و«إعداد الاخصـائيين الاجتماعيين للعمل في مجالات الخدمـة الاجتماعية المدرسيـة والخدمة الاجتماعيـة الطبية والخدمة الاجتماعية العمالية وخدمة المعـوقين، ومؤسسات رعاية الشباب بالجامعة والأنـدية الرياضية والاجتماعيـة، والجمعيات الاجتماعية»(٢٣) . ومن بين أهداف الـدراسة بقسـم الفلسفة والاجتماع بكليـة الآداب بجامعـة السلطان قـابـوس «إعـداد مـدرسين مـؤهلين . . في مجال الفلسفـة والاجتماع للتخصص المهني» و«تـدريب الطـلاب وإعــدادهم للعمل في مــؤسســات الـرعــايــة الاجتماعية»(٢٤) .

(ب) من الطبيعي أن نجد في الخطط التدريسية ميلاً إلى تخصصات معينة ترى الأقسام الأكاديمية أنها ذات صلة أو قرابـة بعلم الاجتماع، فتوجدها كمتطلبات أساسيـة في البرنامج التدريسي . فـالأنثروبولوجيـا، مثلاً، حاضرة بـوضوح في البرامج كلهـا (ربما باستثناء بـرنامج قسـم الدراسـات الاجتماعية بجامعـة الملك سعـود، الـذي يتضمن مقـرراً أنثـروبــولـوجيـا واحـداً فقط هـو ١١٤ جمع : الأنثروبـولوجيا الاجتماعية)(٢٥ . وهـذه مسألة يمكن تفهمها في ضوء العـلاقة التاريخية بين العلمين . كذلك نجد ميلاً خاصاً إلى مقررات علم النفس في برنامج جـامعة الملك عبـد العـزيز، وإلى مقـررات النحـو العـربي والنصوص ومنـاهج التـدريس والتربية في خطـة جـامعة الإمـام محمـد بن سعـود الإسلاميـة(٢٦) . وأحيانـاً تكشف المقررات التي يحددها القسم كمقررات مسـاندة للتخصص عن هـذا الاتجاه . فثمة ميل إلى التخصصـات السيكولـوجيـة في خطة قسم الفلسفـة

والاجتماع بجامعة السلطان قابوس، وميل إلى مجال الرأي العام والإعلام بتخصصاته في قسم الاجتماع بجامعة الامارات. وربما استطعنا أن نعثر على شيء من المنطق وراء الميل إلى الربط بين علم الاجتماع وبين هذا العلم أو ذاك بالذات.

(جـ) تختلف أقسام الاجتماع في الجامعات العربية الخليجية في صيغة طرحها للتخصص. فهو يطرح في بعضها كتخصص منفرد، وفي البعض الآخر كتخصص رئيسي، أو كتخصص فرعي. وقد يطرح على قدم المساواة مع علم آخر في إطار تخصص مزدوج، أو كشعبة ضمن قسم للعلوم الاجتماعية... الخ. بيد أن الأمر الملاحظ بوضوح هو الاهتمام البارز بجعل تخصصات الخدمة الاجتماعية مكوناً أساسياً من مكونات التخصص في معظم هذه الأقسام. فمن بين ٦٩ مقرراً في قسم الدراسات الاجتماعية بجامعة الملك سعود هناك ٢١ مقرراً للخدمة الاجتماعية. وفي جامعة الكويت يجمع التخصص بين الاجتماع والخدمة الاجتماعية في قسم واحد، وفي جامعة قطر تشكل الخدمة الاجتماعية التخصص الفرعي لعلم الاجتماع كتخصص رئيسي(٢٧)، وفي اعتقادي أن الاهتمام البالغ بدمج مهنة الخدمة الاجتماعية ضمن الأقسام الأكاديمية لعلم الاجتماع يرجع إلى عدة أسباب ربما كان أهمها هو ضمان فرصة عمل للخريج باعتباره متدرباً على أساليب الخدمة الاجتماعية، وهي المهنة التي تتلاءم مع طبيعة العديد من المؤسسات القائمة في الدولة التي تهتم بمسائل الرعاية والاصلاح وتأهيل الأفراد والجامعات للتوافق مع كافة الظروف المحيطة بهم، أو إجراء بعض البرامج التنموية المحلية التي تهدف إلى تحسين بعض جوانب البيئة المحيطة بالأفراد. أما الخريج المتدرب والمكتسب للقدرة على إدراك الظواهر الاجتماعية في شمولها، ولأساليب البحث السوسيولوجي القائم على تصورات نظرية ورؤية منهجية، ففرصته تكون أقل في أجهزة وإدارات الدولة التي مازل البحث الاجتماعي العلمي خارج دائرة اهتمامها إلى حد كبير. فالعمل الاجتماعي بمفهوم الخدمة الاجتماعية مازال هو السائد والمسيطر، أما الدرس السوسيولوجي للمجتمع، فمازال يمثل ممارسة ينظر إليها بكثير من الشك، وأحياناً ببعض العداء. وربما

كان هذا الاهتمام بضمان فرصة العمل للخريج هو الدافع وراء الإلحاح على هدف إعداد طلاب قسم الاجتماع للعمل في مؤسسات الرعاية الاجتماعية والخدمة الاجتماعية على نحو ما لاحظنا في الفقرة (أ) السابقة .

(د) يعمد بعض أقسام الاجتماع إلى التأكيد على جانب معين من مجال التخصص، واعتباره مركز الثقل الذي يعطي الدراسة في القسم طابعاً مميزاً . ومن الأمثلة على ذلك التأكيد في أهداف قسم الاجتماع بجامعة الامارات العربية المتحدة «على الجانب الميداني في دراسات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والخدمة الاجتماعية واستخدام الاحصاء والتحليل الكمي في دراسة المجتمع ومشكلاته الاجتماعية بحيث يسود الجانب العملي، ويتأكد التفاعل بين الجامعة والمجتمع»، وعلى أن «الدراسة بقسم الاجتماع دراسة ميدانية عملية في المقام الأول»(٢٩)، وأن كنا لا نلاحظ صدى لهذا التأكيد الواضح في مسميات المواد المطلوبة للتخصص سوى مقرر رقم ١٦٤٤٥ «دراسة ميدانية اجتماعية» (٣ ساعات أسبوعياً)، اللهم إلا إذا إنعكس ذلك في عملية التدريس ذاتها، وهو أمر لم نسع إلى بحثه .

وهناك مثل آخر نراه في قسم الاجتماع بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وله ظروف وخلفية تاريخية . فهذه الجامعة قامت في نشأتها أساساً على عدد من المعاهد التي كانت تدرس العلوم الشرعية واللغة العربية، ومن هنا فقد استمر اهتمامها بالتركيز على العلوم الإسلامية إنطلاقاً من هدف «العناية بالبحوث الإسلامية» و«سد فراغ في الدراسات الإسلامية» وما يتصل بها من علوم أخرى كالعلوم الاجتماعية(٣٠) . وفي البرنامج التدريسي لهذا القسم تعد مقررات القرآن الكريم والثقافة الإسلامية والحديث الشريف والتوحيد والتفسير مقررات أساسية في كل المستويات الدراسية في مرحلة البكالوريوس، كما تبرز مقررات تؤكد الحرص على هذا الاتجاه مثل «علم الاجتماع (منظور إسلامي)»، «أصول التربية الإسلامية»، «المجتمعات المسلمة

المعـاصرة». ولنا أن نتـوقع، بطبيعـة الحال، أن ينعكس هذا الاتجاه على محتـوى المؤلفـات التي يـدرسهـا طلاب القسم، وهي المؤلفـات التي تحاول مـا يسميـه البعض «أسلمة العلوم الاجتماعية»، وهو ما سنشير إليه فيما بعد.

٢ - عن المؤلفات المدرسية :

في أقسام علم الاجتماع، كما في معظم الأقسام الأكاديمية بالجامعات العربية، بما فيهـا جامعـات منطقة الخليج، مـازال الكتـاب الجامعي يمثل مشكلة ملحـة أساسهـا هو الاعتماد في عمليـة التدريس على كتـاب واحد «مقـرر»، دون تنويع المصادر التي تعـالج الموضوعـات المتعلقة بـالمادة. وقد أفضت هـذه الممارسة إلى تضييق مفهـوم التعليم الجامعي، وصار مقيـاس النجـاح، وحتى التفوق، هـو قدرة الطالب على استيعـاب، أو بالأحرى «حفظ» ما هـو مدون بين دفتي كتاب ما مقـرر، مما حد من نمـو القدرة على التفكير النقدي والابتكار والإبـداع. وقد كشفت إحـدى الـدراسـات الميـدانية عـن أن نسبة ملحـوظـة من أعضـاء هيئـة التدريس ومن الطلاب في جـامعات دول الخليج العربية تقـر بأن هذه الممارسة لا تتنـاسب مع التعليم الجامعي ولا تسـاعـد على تحقيق أهدافـه، وعلى الـرغم من ذلك، فإن من بين نتـائج هذه الـدراسة مـا يشير إلى أن عدداً كبيراً من الأسـاتذة يعتمد في التدريس على كتاب واحد بصورة أساسية(٣١).

هـذه المشكلة قـائمة في تـدريس مقـررات علم الاجتماع على مستوى الـوطن العربي عموماً، ولكن يضاف إليها مشكلات أخرى تتعلق بالخصائص التي تسم المؤلفات المدرسية في هذا التخصص، والتي تستحق منا نظرة فاحصة. وفيما يلي محاولـة للكشف عن أهم السمات التي تميـز المؤلفـات المدرسيـة التي نعلم أنها تدرس، أو سبق أن درست فعـلاً لطلاب علم الاجتماع في هـذه الجامعة أو تلك المؤلفات إلى أنماط عامـة، دون الدخول في تفصيلات جـزئية، ودون السعي إلى أي نوع من أنواع الحصر.

النمط الأول : وهـو الـذي يعتمـد على النقل بكثـافـة من مصـادر ومـراجع

أجنبية، أوربية وأمريكية عادة، بصـورة لا يستطيع معها القارىء أن يميز بين ما هو مترجم حـرفياً وبين ما هو منقـول. ومما يضيف إلى هذا الالتبـاس أن مؤلفي الكتب التي تنتمي إلى هذا النمط لا يهتمـون، في الغالب، بعمليـة إثبات المراجع التي ترجموا منها أو نقلـوا عنها إثباتاً دقيقـاً، بل أن بعضهم لا يهتم على الإطلاق بإحالة الطالب إلى أية مراجع علمية في أي من الموضوعات التي يكتبون عنها.

وكمثـال على هذا النـوع من المؤلفات المدرسيـة نـذكر كتـاب حسن شحاتـه سعفان «أسـس علم الاجتماع» الذي طبعت منـه حوالي عشر طبعـات، ودرسته أعداد كبيرة من طلاب علم الاجتماع في جامعات خليجية وغير خليجية، والذي صـدرت طبعتـه الأولى عـام ١٩٥٣. ويحتـوي هـذا الكتـاب على كم ضخم من المعلـومـات المجمعــة من كتب يـرجع تـاريخ صــدور معظمهـا إلى أربعينـات وثلاثينـات هذا القرن أو مـا قبل ذلك، وإن كان المؤلف قد أضـاف في الطبعات الأخيرة بعض العنـاوين الأجنبية الصـادرة في الخمسينات والستينـات إلى قوائم المراجع الواردة في نهاية كل باب، دون أي تجديد أو تنقيح يذكر للنص الذي طبع في أوائل الخمسينات. ويذكـر المؤلف أن هدف كتابه هـو تعريف القارىء «بعلم الاجتماع وموضـوعاتـه ومناهجـه ومصادره، وبـالمصطلحات الشـائعة»، دون الاعتماد في ذلك على مـدرسـة دون أخـرى. وقــد أفضى التجميع من مصـادر متنوعة إلى خلو الكتاب من وجهة نظر خاصة للمؤلف يعرض في ضوئها ما يريد قـولــه، وأن كـان القــارىء المتخصص يمكنـه أن يلمس بـوضـوح الطــابع الدوركـايمي فيما كتبه المؤلف عن تعريف علم الاجتماع ومجالات الدراسـة فيه، والغـايـة التي تسعى إليهـا الـدراسـات الاجتماعية. وبـالإضـافـة إلى ذلك كلـه فـالكتاب لا يحتـوي على أية محاولات لإعطـاء أمثلـة أو استشهادات للطـالـب، مستمدة من واقع المجتمع العربي الذي يعيش فيه(٣٢).

وينطبق العديد من هذه الخصائص على كتب المؤلف المدرسية الأخرى، ومن بينها كتـاب «تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية»، وأن كـانت الفكرة

الموجهة في عرض مضمون هذا الكتاب أكثر وضوحاً، وهي أن علم الاجتماع ليس علماً معيارياً، أي أنه لا يتعرض لما ينبغي أن يكون، بل هو ينتمي إلى الدراسات الوصفية الوضعية. فهو يدرس الوقائع الاجتماعية لاستنتاج القواعد والقوانين التي تخضع لها هذه الوقائع على غرار ما تصنع العلوم التي تدرس ظواهر المادة كالطبيعية والكيمياء والفلك والميكانيكا وغيرها(٣٣). ووفقاً لهذه الفكرة، المتأثرة بالنزعة الكونتية، يقسم المؤلف تاريخ الفكر الإجتماعي إلى مرحلتين: الأولى يسميها «فلسفية مثالية» والثانية يسميها «علمية وضعية».

وعلى الرغم من أن هذا النمط من المؤلفات المدرسية التي لا تتجاوز في محتواها المعرفي حدود السوسيولوجيا الغربية الكلاسيكية، ناقلة عنها نقلاً ممزوجاً بالترجمة دون نقد أو تفنيد أو تحديد دقيق للمصادر، يضم معظم مؤلفات الجيل الأول من المشتغلين بعلم الاجتماع في الوطن العربي، إلا أن هناك مؤلفات وضعها أساتذة من أجيال لاحقة، وتدرس في أقسام الاجتماع الخليجية وغير الخليجية، تدخل أيضاً في هذا النمط بكل خصائصه. ولا تقتصر تلك المؤلفات على الكتب المداخل في علم الاجتماع، بل تشمل كذلك مختلف فروع ومجالات هذا العلم مثل علم الاجتماع الصناعي، والحضري، والعائلي، والتنظيمي... الخ.

النمط الثاني: ويضم المؤلفات المدرسية التي تقدم للطالب معرفة علمية منفتحة على مختلف الاتجاهات والتيارات، متوخية النظرة النقدية، ومفسرة لتلك الاتجاهات والتيارات في سياقها التاريخي، وكاشفة عن أسسها الأبستمولوجية والإيديولوجية. كما يضم هذا النمط أيضاً المؤلفات التي تعالج ظاهرة أو ظواهر معينة في مجتمع عربي ما، أو على مستوى المجتمع العربي عموماً، مدعمة معالجتها بشواهد واقعية تدل على صدق ما يذهب إليه المؤلف من تعميمات حول تلك الظواهر، في ضوء موقف نظري واضح ومحدد، وبأسلوب منهجي متسق.

وكأمثلة على تلك المؤلفات التي يدرس بعضها في أقسام علم الاجتماع بالجامعات الخليجية في مقررات مختلفة نذكر كتاب سمير نعيم أحمد «النظرية في علم الاجتماع» الذي يهتم بمساعدة الطالب على اتخاذ موقف نقدي من الاتجاهات النظرية السوسيولوجية، وذلك من خلال توضيح أسس تلك الاتجاهات ومسلماتها، وصياغة مبادىء لتقييمها، سواء كانت تلك النظريات كلاسيكية أو حديثة(٣٤). كما نذكر كتابي محمود عودة «أسس علم الاجتماع» و«تاريخ الفكر الاجتماعي»، حيث يتميز الكتاب الأول بتقديم معرفة منظمة حول المشكلات النظرية في مجال علم الاجتماع من وجهات نظر متعددة، كلاسيكية وحديثة، كما يتميز في عرضه للنظم الاجتماعية بالاهتمام بالاشارة إلى الواقع الاجتماعي في بلدان العالم الثالث. أما الكتاب الثاني، فميزته الأساسية هي عرض الأفكار والنظريات السوسيولوجية في صلتها بالأوضاع الاقتصادية والفلسفية التي نشأت في إطارها عرضاً نقدياً يؤصل لجذور كل من النزعة المحافظة والرومانسية في تلك النظريات من ناحية، والنزعة الراديكالية من ناحية أخرى(٣٥).

ومن بين المؤلفات التي تنتمي إلى هذا النمط أيضاً، وهي في عمومها قليلة على أية حالة، كتاب حليم بركات عن المجتمع العربي المعاصر. فهذا الكتاب يمثل، في اعتقادي، نموذجاً للاتساق بين الفكر النظري وتحليل المعطيات الواقعية المتصلة بالوطن العربي ككل أو بمجتمعات عربية قطرية في مجالات متعددة كالأسرة والطبقات والحياة الدينية والصراع السياسي، والقيم والثقافة وأنماط الفكر(٣٦). ولا شك أن مثل هذا الكتاب يساهم في تنمية وعي الطالب من جهة، ويساعده على تعلم أسلوب التفكير والبحث العلمي من جهة ثانية.

النمط الثالث: ويضم مؤلفات مدرسية ينطلق أصحابها من الرغبة في بناء «علم اجتماع إسلامي» أو «نظرية اجتماعية إسلامية»، وإثبات أن «للإسلام مدرسته الخاصة في مجال علم الاجتماع»(٣٧). وغالباً ما تفتتح هذه المؤلفات

بتأكيد تقدمه للطالب مؤداه أننا في مجتمعاتنا الإسلامية في حاجة إلى بديل عن الاتجاهات السوسيولوجية التي نشأت في الغرب، وأن هذا البديل موجود في القرآن الكريم والسنة. وإذا كان هدف علم الاجتماع الأساسي هو فهم الإنسان وسلوكه في المجتمع، وفهم العلاقات الاجتماعية القائمة فعلاً بين القوى والجماعات في مختلف المجالات، وتشخيص عوامل التغير الاجتماعي، فإن أصحاب تلك المؤلفات لم يقدموا حتى الآن في كتبهم تحليلات تسهم في تحقيق هذا الهدف. فكتاباتهم تتجه، كما لاحظ أحمد زايد(٣٨)، أما إلى تدوين آراء بعض المفكرين المسلمين في بعض القضايا الاجتماعية، أو إلى الكشف عن نظرية اجتماعية في القرآن والسنة. وفي الحالتين لا يظهر أي توجيه للتحليل يساعد على المزيد من فهم قضايا المجتمع العربي المعاصر. أما صلاح قنصوة(٣٩)، فيلاحظ أن أعمال أصحاب الدعوة إلى إنشاء علوم إنسانية خالصة لا تخرج في النهاية عن أحد أمرين: أما أن «تضع نظريات علمية صاغها غربيون ولكن تحت لافتات إسلامية بعد أن تفرض تأويلاً متعسفاً لآيات وأحاديث شريفة. وأما أنها لا تقدم سوى مضمون أخلاقي فضفاض تحت مصطلحات تذكرنا بعلم الكلام القديم». والواقع أن ملاحظات زايد وقنصوة صحيحة، يضاف إليها ما نلاحظه من وجود خلط شديد وغموض منهجي عند أصحاب تلك المؤلفات. فمثلاً، نقرأ في تقديم لأحد الكتب من هذا النمط أن فهم الإنسان «لن يتحقق... بالرجوع إلى نظريات وضعية مذهبية منحازة من الشرق أو الغرب، ولن يتحقق بإجراء أبحاث جزئية تتسم بالنسبة الزمانية والمكانية والثقافية والاجتماعية يجريها بشر يتأثرون بأوضاعهم التربوية والثقافية والاقتصادية... الأمر الذي ينعكس حتماً على دراساتهم ونتائج أبحاثهم، وإنما يتحقق باستعراض آيات كتاب الله من أجل فهم سنن الله الاجتماعية والتاريخية»(٤٠)، ثم نقرأ في مقدمة الكتاب نفسه ما يقوله المؤلف من أن بناء علم الاجتماع إسلامي «لا يتعارض مع إجراء بحوث واقعية لدراسة النظم والقيم والاتجاهات والأبنية الاجتماعية المعاصرة والقيام بالدراسات المقارنة»(٤١).

أما فصول الكتاب العشرة، فنقرأ في الثلاثة الأولى منها، وتقع في حوالي ٨٠ صفحة، معلومات عما يسميه المؤلف «الأسس البنائية للتنظيم الاجتماعي في الإسلام»، ويقصد بهذه الأسس أهداف الشريعة الإسلامية وبعض المبادىء مثل العدل وطاعة أولياء الأمور في غير معصية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . . الخ، وكذلك معلومات عن الرؤية التاريخية في القرآن الكريم، وتقع فيحوالي ٢٤٠ صفحة، فتشمل معلومات عن علم الاجتماع في المجتمع الغربي من حيث تاريخه ومجاله ومدارسه ومناهجه، وعلاقته بالعلوم الاجتماعية الأخرى. . . . الخ، دون أية صلة بين هذه المعلومات وبين ما ورد في الفصول الثلاثة الأولى.

والملاحظة نفسها تنطبق على كتاب آخر للمؤلف نفسه يهدف إلى دراسة النظم الاجتماعية من منظور إسلامي. فالقارىء يلاحظ بوضوح اعتماد المؤلف في تعريفه للنظم الاجتماعية وخصائصها وأنواعها وأهدافها على مصادر غربية تماماً، ثم تكريسه بقية فصول الكتاب للحديث عن النظام العائلي والنظام التربوي والنظام الاقتصادي بالاستناد إلى بعض آيات القرآن الكريم وبعض الأحاديث الشريفة، وبصورة منفصلة تماماً عن المفهومات والخصائص التي تحدث عنها من قبل(٤٢).

إن المشكلة الأساسية لتلك المؤلفات هي أنها تخلق نوعاً من عدم الفهم ومن الخلط في ذهن الطالب بين أساليب وأهداف الدعوة الإسلامية، وهي أمور مستقرة في علوم القرآن والسنة، وبين طرق التحليل المستخدمة في علم الاجتماع، والتي تستخدم لأهداف أخرى هي فهم الواقع الاجتماعي والثقافي والآليات الفاعلة في حركته وتغيره(٤٣).

النمط الرابع: وهو الذي يضم المؤلفات المدرسية في مجال الانثروبولوجيا. وتعد أعمال أحمد أبو زيد أفضل النماذج الممثلة لهذا النمط، خاصة كتابه المعنون «البناء الاجتماعي» الذي صدر منه جزاءن، أولها عن «المفهومات»، وثانيهما عن

«الأنساق». ويقدم هذا الكتاب للطالب معلومات منظمة وواضحة حول المجتمعات التقليدية، أو المجتمعات البدائية، والمناهج والأساليب التي تستخدم في دراستها. ففي الجزء الأول، يقرأ الطالب عن المفاهيم الأنثروبولوجية من حيث نشأتها وتطورها واختلاف تعريفاتها ومعانيها، وأهم العلماء الذين أسهموا في بلورتها. وفي الجزء الثاني يعالج المؤلف بتوسع أربعة أنساق أساسية هي النسق الأيكولوجي، والنسق الاقتصادي، ونسق القرابة، والضبط الاجتماعي. وربما كان أهم ميزات هذا الكتاب اتساقه الداخلي وتخلصه من الغموض الذي نجده في العديد من المؤلفات العربية في هذا المجال، وقدرته الكبيرة على الاقناع. ولعل ذلك يرجع إلى طريقة الكتابة. فالمؤلف يعلن بوضوح اعتماده على اتجاه نظري معين مستمد من إنجازات الأنثروبولوجيا البنائية والوظيفية كما تجسدها أعمال بعض العلماء من أمثال راد كليف براوان، وريموندفيرث، وإيفانز بريتشارد، وفي الوقت نفسه يحاول تقديم وجهة نظر شخصية قائمة على الخبرة التي اكتسبها هو نفسه من خلال دراساته الحقلية المتعددة التي أجراها في عدد من المجتمعات العربية : مصر - ليبيا - السودان - سوريا - الأردن - المملكة العربية السعودية، وكذلك بعض المجتمعات الافريقية. وقد مكنته هذه الخبرة من الاستشهاد بالعديد من المعطيات الواقعية وإجراء مقارنات بينها(٤٤).

ويدخل في هذا النمط عدد آخر من المؤلفات التي تدرس لطلاب الجامعات الخليجية في مقررات مثل الأنثروبولوجيا العامة (المقدمات أو المداخل، أو المبادىء) والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والثقافية، أو بناء المجتمع ونظمه، أو علم الاجتماع البدوي. وعلى الرغم من أن بعض هذه المؤلفات قد اتخذ من كتاب أبو زيد مثالاً، وحاول النسج على منواله، وهو ما نلاحظه من طريقة تقسيم أبواب وفصول تلك الكتب، أو من طبيعة الموضوعات التي تعالجها، إلا أنها لم تتمكن من تحقيق ذلك بصورة مرضية. فضلاً عن أنه من المفروض أن تسعى تلك المؤلفات إلى تجاوز كتاب أبو زيد بالإضافة والتجديد، خاصة أن علم

الأنثروبولـوجيا قد شهد تطـورات هائلة في التوجهـات والمناهج والاهتمامات، وبـالـذات في العقـود الثلاثـة الأخيرة. من هنـا فإن تلك المؤلفـات قـد جـاءت مفتقدة، في معظمها، إلى الخصـائص الإيجابية التي تميز مؤلف أبو زيـد، خاصة الـربط بين الفكـرة النظـريـة من نـاحية ومعطيـات الـواقع من نـاحيـة أخـرى. والملاحظ هو أن تلـك المؤلفات تتفاوت من حيث قـدرتها على التحليل العميق، ووضوح الأفكار، وفي مدى توفيقها في عـرض تطبيقات وأمثلة من بيئات قريبة من الواقع الذي يعايشه الطالب العربي الخليجي(٤٥).

ثالثاً: الممارسات البحثية

شهدت منطقة الخليج العربي في العقدين الماضيين نشأة عدد من المراكز البحثية المعنية بالـدراسات الاجتماعية، كما ظهر عدد من الـدوريات التي تهتم بنشر هذا النـوع من الدراسـات. ولا يستطيع أي متتبع لحركة النشر العلمي في المنطقـة أن يتجاوز الدور البـارز لجامعة الكويت في هذه الحركـة فمنذ منتصف السبعينات، بدأت تصدر عنها عدة حوليات ومجلات فصلية متخصصة في مجالات مختلفة.

ولا يتوفر بين أيدينا الآن ببليوجرافيا شاملة وحديثة عن الدراسات والبحوث المنشورة في المنطقة تمكننا من معرفة الحجم النسبي للبحوث الاجتماعية المنشورة. وفي محاولـة من جانبنـا للـوقـوف إلى مدى الاهتمام بنشر أعمال سـوسيـولوجيـة وأنثـروبولـوجيـة، لجأن إلى فهـارس وكشافـات بعض الـدوريات، لنـأخذهـا كأمثلة، فتبين لنا ما يلي:

(أ) من بين ٣٣٧ دراسة نشرت في «مجلة العلوم الاجتماعيـة» في كل أعدادها الصادرة منـذ عام ١٩٧٣ وحتى عـام ١٩٨٧ (٥٣ عدداً)، وجدنـا أن هناك ٥٣ دراسـة في مجال علم الاجتماع والأنثـروبولـوجيـا (أي بنسبـة ٧, ٥١٪ من إجمالي الدراسات المنشورة)، وليس هناك من بين هذه الدراسات سوى ٨ فقط هي التي تعالج موضوعات تتصل بمجتمعات الخليج العربية(٤٦).

(ب) لم تنشر «مجلة دراسـات الخليج والجزيرة العـربية» - وهي مجلـة «فصلية

علمية تعنى بشئون الخليج والجزيرة العربية السياسية، والاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية، العلمية» - في أعدادها الستين الصادرة خلال خمسة عشرة عاماً (١٩٧٥-١٩٨٩) سوى سبعة بحوث لمتخصصين في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا(٤٧).

(جـ) بحصر الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية المنشورة في حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر، اتضح أن عددها ٢٢ دراسة، أي بنسبة ١٤,٢٪ من إجمالي عدد الدراسات المنشورة في ١٢ عدد في الفترة من ١٩٧٩ حتى ١٩٨٩، والذي بلغ ١٥٥ دراسة(٤٨).

إن هذه الأعداد والنسب تبدو، بالنظر إلى وظيفة علم الاجتماع، والدور الذي ينبغي عليه أن يقوم به، ضئيلة. وهي في النهاية مؤشر على حالة المنتج السوسيولوجي في جانبها الكمي، ولكن ماذا عن الجانب الكيفي، الذي ربما كان الأهم؟

لقد طرحنا في مقدمة هذه الدراسة تساؤلاً حول الكيفية التي عالجت بها البحوث السوسيولوجية في المنطقة قضايا التغير الاجتماعي والتنمية الاجتماعية بالذات، على افتراض أن تلك القضايا تشكل مسائل محورية، كما تساءلنا عما هو مطروق وما هو متروك من مجالات بحثية. وفيما يلي نحاول الإجابة على هذه التساؤلات، وذلك من خلال تتبع بعض النماذج البحثية التي أجريت حول تلك القضايا. ومن البديهي أن تجيء هذه المحاولة قاصرة، بحكم الانتفاء وعلم الشمول، والأمل أن تضاف إليها محاولات أخرى من جانب المهتمين بوضع علم الاجتماع في الوطن العربي عموماً، وفي منطقة الخليج على وجه الخصوص.

١ - حول بحوث التغير الاجتماعي :

لم يكن الاهتمام بقضية التغير الاجتماعي من جانب المشتغلين بعلم الاجتماع في منطقة الخليج امتداداً لما ساد في الدراسات الاجتماعية العربية عموماً من اهتمام بهذه القضية طوال الستينات والسبعينات فحسب، بل كان أيضاً، وأساساً،

استجابة للظـروف والأوضاع التي بدأت هذه المنطقـة تشهدها، والتي تمثلت في الآثار الناجمة عن ظهـور النفط واستخدامه تجارياً في الأسواق العـالمية، والإفادة من عـوائده. وقـد تجلت تلك الاستجـابـة في جهـود بحثيـة يمكن القـول أنها تراوحت بين محاولة تأسيس مداخل أو أطر نظرية ومنهجية منظمة لتفسير عملية التغير الاجتماعي، وبين التشخيص الأمبيريقي لظـاهـرة أو أخـرى، في هــذا المجتمع أو ذاك، من منظور التغير الاجتماعي. وفي حين كـانت الجهود النظـرية عموماً قليلة، فإن الجهود الأمبيريقية كانت عديدة ومتباينة من حيث قدرتها على بلـورة المفـاهيم الملائمــة وتحقيق الاتسـاق بين التـوجيـه النظـري والإجـراء الأمبيريقي.

من المحـاولات الباكـرة لتقديم تفسير للتغير الاجتماعي في مجتمعـات الخليج العربيـة نذكـر دراسة محمـد الرميحي التي نظـرت إلى التغير الاجتماعي في إطاره الثقافي والاجتماعي الشـامل، وباعتباره يحوي إلى جـانب مظاهـر السلوك دوافع هذا السلوك أيضـاً. وفي سياق دعوته للتجديد المنهجي في اتجاه الأصـالة استبعد الباحث أسلـوب الاستقصاء الاحصائي وأسلـوب طرح المشكـلات الناجمة عن التغير الاجتماعي بهدف علاجهـا، كما رفض التقيد بمفاتيح التحليلات الشـائعة في السوسيولوجيا الغربية، والتي صممت لفهم المشكلات الاجتماعية الأوربية، وهو رفض مؤسسي على الرغبة في تحقيق «أصالة فكرية نابعة وليست تابعة»(٤٩) وإنطلاقاً من حقيقة التشابه القائم في التركيب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في المجتمعـات العـربيـة الخليجيـة، يحاول المؤلف أن يميط اللثـام عن القـوانين الاجتماعية الحاكمـة للعلاقات الاجتماعيـة والسياسية في هـذه المجتمعات، ومن خلال تحليله لتلك القوانين يصل المؤلف إلى خلاصـة مؤداها أن التغير الذي طرأ على مجتمعــات الخليج العـربيــة لم يكن تغيراً في المضمـون، وإنما كــان تغيراً في الشكل. وفي تدليله على صحة هذه الخلاصـة يستشهد بمعطيات من واقع الحياة الاجتماعية والسياسية، ومن واقع حيـاة الفرد والأسرة، وبصورة أكثر من واقع الأوضاع التي تحكم مكانة المرأة والنظرة إليها في المجتمع. ورغم الجانب الإيجابي

في هذه الدراسة والمتمثل في الدعوة إلى التجديد والأصالة المنهجية، فإنها، أي الدراسة، لم تعكس رؤية واضحة ومحددة لمعنى التغير الاجتماعي، ولم تعني بتحديد آلياته. فضلاً عن أن المؤلف يستخدم بعض المفهومات، وخاصة مفهوم «الطبقة» دون تعيين حدوده وما يشير إليه في واقع المجتمعات موضوع البحث.

وفي دراسة لاحقة للمؤلف نفسه، ركز فيها أيضاً على قضية التغير الاجتماعي، واتخذ من مجتمعات الخليج العربية مجالاً للبحث، نجده يضيف إلى تحليله بعداً لم يكن واضحاً في دراسته السابقة، أعني الدور الذي لعبه الإنتاج النفطي في دخول تلك المجتمعات في علاقة مع السوق العالمي. وبدلاً مما ذهب إليه من قبل من أن التغير كان في الشكل وليس في المحتوى، نجده في هذه الدراسة يذهب إلى أن النفط قد جعل إيقاع التغيرات في المنطقة يشتد، إذ حركت الثروة الجديدة كوامن المجتمع القديمة، مما أفضى إلى تغيرات في الهيكل الاقتصادي وتحولات «بنائية» في «المجتمع الجديد»، تجلت في الجوانب السكانية الحضرية - والثقافية - والتعليمية، والسياسية. أما عن تشخيصه لطبيعة التغير الحادث، فهو يراه عبارة عن تحول من مجتمع (القبيلة) التقليدي إلى مجتمع (الدولة)، وهو تحول يتسم بوجود ثنائية بين الاقتصاد القديم (القائم على الزراعة والرعي والغوص وصيد السمك)، بكل مصاحباته الاجتماعية/ السياسية، والاقتصاد الحديث (القائم على الثروة النفطية) بكل ما يكون من عبء اجتماعي سياسي(٥٠).

ويظهر الاهتمام بصلات المجتمعات العربية الخليجية بالنظام الرأسمالي وتأثير تلك الصلاة على طبيعة التغيرات الاجتماعية الحادثة، بصورة أوضح في تحليلات نورة الفلاح، وأن كانت تلك التحليلات تنصب بصورة خاصة على حالة المجتمع الكويتي الذي يوصف في هذه التحليلات بأنه قد تحول إلى مجتمع محيطي تابع لمركز رأسمالي(٥١)، وأن هذه التبعية قد أفرزت العديد من المشكلات والظواهر في مجالات العمل والسياسة والعلاقات الاجتماعية. وفي دراسة أخرى

لها تؤكـد نوره الفلاح على قناعتهـا بأن خصوصيات بنـاء المجتمعات تتشكل من خـلال الطبيعـة الخاصة للتفـاعل بين عنـاصر عـديدة داخل هـذا البنـاء، إلا أن العوامل الخارجية من شأنها تحريك مجموعات حية داخل المجتمع، والحفاظ على العناصر الطيعة التي تسـاعدها على التحرك والنفاذ. ومن البـديهي أن تدفع هذه القنـاعـة إلى الاعتماد على المنهج التـاريخي الذي يفـرض على البـاحث تتبع نفـاذ العوامل الخارجية إلى بنيـة المجتمع، وهو ما فعلته نـورة الفلاح في دراستها التي استهدفت تحليل وتفسير التغير الحادث في المجتمع الكويتي منذ النشأة حتى نهاية العقـد السابع مـن هذا القـرن، وهي دراسـة في التاريـخ الاجتماعي تعرض لنـا بصورة منظمـة وواعية تضافـر الحدث الخارجي مع الواقعة الـداخلية في تشكيل تاريخ المجتمع الكويتي، وتستند في هذا العرض على الفكرة النظرية التي مؤداها أن المجتمع كتلة ديناميـة، ذات حركة دائمة، تتأثر - في حالـة المجتمعات حديثة النشأة - بتـدخل مجتمعـات أكثـر تطـوراً(٥٢). وعلى الـرغم من وضـوح هـذا التوجـه ومحاولة الاتساق معـه في عرض الحالة الكـويتية، إلا أننا نـلاحظ غياب التـوصيف الـدقيق لطبيعة التركيبـة الاجتماعيـة الاقتصاديـة للمجتمع الجديـد، تـوصيفـاً يتـلاءم مع نظـريـة التبعيـة التي يشيء منهج الـدراسـة بتبينيهـا. كما أن استخدام كلمة «مجموعـة» للاشارة إلى قوى اجتماعية، سواء كـانت متعارضة أو متفقة في مصلحتهـا وتوجهاتها، جعل التحليلات تفقـد قدراً من الدينـامية، أن الحديث عن مجموعة حـاكمة، ومجموعة التجـار، ومجموعة الإداريين والفنيين، ومجموعة العاملين بالأعمال اليدوية، يكاد يحيل البحث إلى تحليل لجماعات مهنية في إطار شكل لتقسيم العمل في المجمتمع. وربما يعزي ذلك إلى رغبـة الباحثة في تجنب الصعوبات النظرية والمنهجية التي تحيط باستخدام مفهوم «الطبقة».

في مقـابل هـذا التجنب لاستخدام مفهـوم «الطبقـة»، نجد محمـد الـرميحي يدرس حالة البحرين في تحولها الاجتماعي «من وجهة نظر تطور التركيب الطبقي الاجتماعي الاقتصـادي»، ذاهباً إلى أن ظهـور النفط ومـا أدى إليه من سرعـة في التغير الاجتماعي قد أسهم في «بـروز الطبقات الاجتماعيـة والاقتصاديـة الجديدة

مثل طبقة العمال الجديدة التي كونها عمال النفط، والطبقات المتوسطة التي ظهرت نتيجة للتطور التجاري، وتوزيع مجالات العمل الحكومي»(٥٣). وهذا الربط بين التغير الاجتماعي والتركيب الطبقي نجده في دراسة أخرى لإحدى الباحثات من الامارات العربية المتحدة، يكشف محتواها ومنهجها عن تبني الباحثة لنظرية التبعية في تفسيرها للبناء الاجتماعي لمجتمع الامارات وللتحولات التي طرأت على هذا البناء. إذ ينصب تحليلها على المقارنة بين الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل من المجتمع القديم، أي مجتمع ما قبل النفط، والمجتمع الحديث، أي مجتمع ما بعد النفط. ففي داخل «نمط الإنتاج» التقليدي في مجتمع الامارات - وفي مجتمعات الخليج كلها كما تذهب الباحثة - كانت الجماعات الطبقية المسيطرة تشكل تحالفاً من ملاك السفن وتجار اللؤلؤ، أما في نمط الإنتاج السائد الآن (في المرحلة النفطية)، فإن هذا التحالف قد نما ليملك العقارات في المدن ويسيطر على التجارة الداخلية. وتطلق الباحثة على هذا التحالف مصطلح «البورجوازية» أو «جماعة أصحاب رأس المال التجاري».
وبجانب هذه الجماعة هناك «الجماعات الطبقية الوسطى» التي كانت تضم المنتجين التقليديين من غواصين وبحارة وحرفيين ومزراعين ورعاة، وصارت الآن تضم هؤلاء بعد تحولهم للعمل في المدن في الوظائف الحكومية كموظفين ومستخدمين في المؤسسات الحكومية والخاصة. وهناك أيضاً «جماعة العمال» وتشمل العاملين بأجر في المهن اليدوية، ومعظمهم من الوافدين(٥٤).

وهناك دراسة أخرى اهتمت بالتغيرات التي طرأت على التركيب الطبقي بالتطبيق على حالة المجتمع القطري، بالتركيز على القطاع الحضري منه، إنطلاقاً من القناعة بأن التحضر هو «أهم ظاهرة يواجهها المجتمع من خلال تحوله من مجتمع متنقل إلى مجتمع مستقر»، وأن هذا هو ما حدث في المجتمع القطري وأثر على كافة الأبعاد والمكونات الاقتصادية والاجتماعية، وعلى التركيب السكاني والبناء الطبقي لمدينة الدوحة بوصفها العاصمة التي تمثل الثقل الحضري. وفي هذه الدراسة تتحدث الباحثة عن «طبقة» تجار اللؤلؤ، وطبقة صغار الطواشين،

وطبقة النـواخذة، وطبقة العمال وطبقة العبيـد، باعتبارها الطبقـات التي يتكون منها «السلم» الطبقي في مجتمع الغوص، أي مجتمع ما قبل النفط. أما في المجتمع الحضري في المرحلة النفطيـة، فالطبقات القـائمة هي: الطبقة الحاكمـة، الطبقة الغنية، الطبقة الوسطى، والطبقة الدنيا(٥٥).

إن هذه الدراسـات التي عرضنا لها تمثل نماذج من الممارسـات البحثية المهتمة بقضيـة التغير الاجتماعي، وهي وإن كـانت تتفـاوت من حيث عمق تحليـلاتها ومدى اهتمامهـا وتركيزهـا على بعد التبعيـة والارتباط بالسـوق العالمي، إلا أنها تعكس الـرغبـة في رؤيـة التغير الاجتماعي بمنظور يختلف عـن منظور مـدرسـة التحـديث الـذي ظل سـائداً في دراسات التغير الاجتماعـي لفترة طويلـة. وهـو المنظور الـذي يرى أصحـابه أن المجتمع يتحـول من الطراز التقليـدي إلى الطراز الحديث إذا أخذ هذا المجتمع - بتأثير عوامل ثقافيـة غالباً - خط التباين في البناء الاجتماعي واتساع نطاق الحياة الحضريـة وخط تطور الأسرة من النمط الممتد إلى النمط النـووي، وتبني القيم الحديثة، التي هي في رأي أصحـاب هذا المنظـور، القيم السائدةفي الثقافة الغربية.

وفي منطقـة الخليج العـربي تعد دراسـات جهينـة العيسى نمـوذجاً ممثـلاً لهذا المنظور. فهي تعتبر التحـديث عملية تفرضهـا احتياجات الأفـراد والجماعات في المجتمع المتحـول، وهي عمليـة ينبغي إتخاذهـا «كهدف قـومي»(٥٦). أمـا أين يمكن الكشف عن نتـائج هـذه العمليـة، فإن هـذه الـدراسـات تحدد بعض المؤشرات التي تنحصر في إحصاءات متعلقة بمعـدلات التعليم والنمو الصناعي والاستهـلاكي، والتبـاين في بنـاء الأسرة ووظيفتهـا، واتجاهـات وقيم الافـراد والجماعات. ومن هنا ينصب أغلب الـدراسات الامبيريقية على تلك المجالات. ففي احـدى دراسـاتها تنطلق جهينـة العيسى من التأكيـد على انتشـار التعليم الرسمي والتعـرض لوسـائل الإعلام، والتصنيع، هي أهـم العوامـل التي تدفع المجتمعات الى التغيير الاجتماعـي في المجتمع القطري الى عرض التطـورات التي

شهـدها نظـام التعليم، والنشاط الاقتصـادي، كما تركـز على مظاهـر التغيير في البناء الأسري مستعينة ببيانـات امبيريقية جمعتها باستخدام صحيفة مقـابلة تدور اسئلتها حـول نمط الاسرة ودور كل من الأب والأُم والأبناء في الأسرة وعـلاقة الأسرة بالعائلة والعلاقات بين الأبـوين، وطبقتها على عينة مكونة من ٦٦ أسرة تمثلها الأمهات في مدينة الدوحـة، وخلصت من هذه الدراسة إلى أننا «ازاء أسرة قطرية متغيرة، وتبدو مظاهر التغير البنائي في تغير أدوار الأفراد في الأسرة، وإلى أن الأسباب الرئيسيـة في تغير بناء الأسرة في مدينة الدوحـة، ترجع إلى عمليات الاتصال الثقافي والحضاري. . (٥٧).

وكـانت البـاحثـة قد أجـرت من قبل دراسـة انطلقت من الإطـار التحـديثي نفسـه، وسعت إلى الكشف عن «ديناميـت التحديث في المجتمع القطـري والتي تتمثل في تطور النظـام السياسي والاقتصادي نتيجة لظهـور النفط وتطور التعليم الذي هو محصلة للتطور الاقتصادي والسياسي من جهة، وظهور الوعي القومي في منطقة الخليج من جهـة ثانيـة، وأخيرا انتشار وسـائل الاتصال الجماهيري من اذاعة وتليفـزيون(٥٨). وقـد قامت الدراسـة على عمل ميداني استخـدمت فيه البـاحثة صحيفـة مقابلـة طبقت على عينـة قوامهـا ٧٣ من عمال صناعـة البترول القطريين، وكـانت هذه الصحيفة عبارة عن مقيـاس لمعرفة درجـة التحديث من خلال استجـابة أفـراد العينة لعـدد من الاسئلـة تدور حـول المشاركـة الفعلية، الطموح التعليمي، الاتجاهات الاستهلاكية، حجم العـائلة، نمر الرأي العام، معلومـات عامـة، إلتزامـات عائليـة، خبرات جديـدة، حقوق المرأة، وسـائل الاتصال الجماهيري. . الخ على أساس أن حصول المبحوث على درجات أعلى في هـذا المقيـاس يعد مـؤشرا على تحديث اتجاهـاتـه(٥٩). وقد انتهت البـاحثـة الى النتيجة القـائلة بأن التحضر ووسائل الاتصـال الجماهيري والتعليم هي العوامل التي تمارس تأثيرا قويا في تحديث الأفراد.

من الواضح ان هـذا النمط من البحوث حين يعـزى التغير الى عوامل ثقـافية

ويبحث عن مظاهر التغير في شكل السلوكيات والاتجاهات، يبتعد تماما عن مركز اهتمام النمط السابق من البحوث الذي عرضنا دراسات الرميحي والفلاح وغبيش والغانم كأمثلة عليه، وأقصد الاهتمام ببعد الارتباط بالسوق العالمي وبعلاقات التبعية، كما ان دراسات التحديث لاتميل الى استخدام مفاهيم «الطبقة» أو «نمط الانتاج» كمفاتيح تحليلية، بالاضافة الى أنها تتسم بالطابع الامبيريقي المغرق في التفصيلات بصورة تحيل البحث إلى عمل تجزيئي مفتت، فضلا عن المشكلة الأساسية المتمثلة في تصور تلك الدراسات بأن التغير «أي التحديث» ينبغي أن يكون في اتجاه اكتساب خصائص المجتمع الغربي، وهو تصور مستمد من نظريات التحديث التي صاغها علماء غربيون من أمثال لويد وارنر، ودافيد ماكليلاند، ووالت روستو وغيرهم، والتي تشير في محتواها إلى ان المجتمعات المتخلفة في تقدمها ونموها تنتقل من حالة التقليدية الى حالة الحداثة التي يعد المجتمع الغربي نموذجا لها. والواقع ان دراسات التحديث، على كثرتها بالمقارنة بالدراسات الاخرى، لم تنجح حتى الآن في تفسير جوهر عملية التغير الاجتماعي في مجتمعات العالم الثالث، ومن بينها مجتمعات الخليج العربية، كما لم تنجح في أخذ خصوصيات تلك المجتمعات في الاعتبار، وهذا ما أوضحه أحمد زايد(٦٠) في دراسة نقدية له شملت كلا النمطين من الدراسات، في ضوء أبعادها المعرفية والمنهجية والامبيريقية.

٢ — حول بحوث التنمية الاجتماعية:

سيطر موضوع التنمية على اهتمام المشتغلين بعلم الاجتماع في الوطن العربي عموما طوال عقد الثمانينات، وما زال يمثل قضية ملحة في كتاباتهم وأعمالهم البحثية. وقد أدى الاهتمام البالغ بهذا الموضوع إلى تضاؤل الاهتمام بقضايا اخرى او على الاقل تضمينها داخل موضوع التنمية مثل الهجرة والموارد البشرية والتعليم والمرأة وحتى الفولكلور. فقد لاحظ احد المتابعين لحركة البحث الاجتماعي في الوطن العربي ان كل تلك الموضوعات قد أدخلت في غالب الاحيان «تحت عباءة التنمية وعولجت كجزء أو كمظهر لها(٦١). وفي منطقة

الخليج العربي برزت جهود المعهد العربي للتخطيط بالكويت في عقد الندوات والحلقات النقاشية التي خصصت لهذا الموضوع مثل حلقة «التخطيط لتنمية عربية : آفاقه وحدوده»(١٩٨١)، «آفاق التنمية العربية في الثمانينات» (١٩٨١). «التنمية العربية والعلاقات الدولية» (١٩٨٣)، «التوزيع السكاني والتنمية في الوطن العربي» (١٩٨١).

والواقع ان هذا الاهتمام الواسع بموضوع التنمية لم يكن بدون بدايات، فالكتابة عن التنمية في الدراسات الاجتماعية العربية كانت قد بدأت تظهر في أواخر الستينات، حيث كان مفهوم التنمية يقتصر على تنمية المجتمع المحلي ـ الريفي او الصحراوي، كما ان المفهوم ارتبط، بصورة او بأخرى، بالخدمة الاجتماعية والرعاية الاجتماعية وما ارتبط بهما من ميادين وقطاعات. وفي تلك الحقبة بدأ التقاء هذين المجالين : تنمية المجتمع المحلي والخدمة الاجتماعية بهدف وضع المبادىء للعمل الاجتماعي من اجل احداث تغييرات جزئية في مناطق مهملة كالريف او البادية وبين فئات معينة كالنساء والشباب والطلاب والعمال. وتركز اهتمام الباحثين حول موضوعات مثل التكيف التكنولوجي، أو التجديد في أساليب الانتاج الزراعي، والعمل مع الشباب والفئات الخاصة. وفهمت هذه الموضوعات على انها قضايا التنمية، رغم انها لم تؤد إلا إلى فصل تنمية المناطق الريفية والبدوية عن خطة تنمية شاملة قومية وإلى تجزيئى المجتمع وبينما حاول اتجاه تنمية المجتمع المحلي ان يتجاوز أوجه قصوره، فان اتجاه الرعاية الاجتماعية والخدمة الاجتماعية ظل، من حيث نظرياته ومناهجه، أسير نشأته الأولى. ومع ذلك فالملاحظ انه هو الاتجاه الذي له وجود واضح في الجامعات العربية، رغم ظهور بعض المفاهيم الجديدة والجادة في مجال التنمية(٦٢).

وفي منطقة الخليج العربي، كان ظهور النفط وما ترتب عليه من أوضاع اجتماعية واقتصادية، دافعا الى إثارة أسئلة التنمية. وتمحورت حول هذه الاسئلة سلسلة من الدراسات والبحوث التي يمكن القول انها قد توزعت على اتجاهات ثلاثة :

الاتجاه الأول : ويضم الدراسات والبحوث التي تفهم التنمية على انها تحقق لعدد من المؤشرات التي تتعلق بالدخل القومي والدخل الفردي، وبعض الاحصائيات التي تتصل بعدد مؤسسات الرعاية والخدمات كالمستشفيات والمدارس، او كمية استهلاك الفرد من الكهرباء والسلع المعنية. . كما نرى انه من الممكن الاستدلال على حدوث التنمية، أو على وجود عقبات تقف دون تحقيق هذه التنمية من خلال الدراسة الامبيريقية لموضوعات مثل: وضع المرأة، بناء الاسرة، تغير القيم والاتجاهات، كما تنظر هذه الدراسات الى بعض المشكلات مثل الجريمة وجناح الاحداث. . الخ، باعتبارها من مخلفات عمليات الاتجاه نحو التنمية بهذا المفهوم، حيث ان المجرمين والجانحين ينظرون اليهم باعتبارهم أفرادا لم يتمكنوا من تحقيق التكيف مع التغيرات الحادثة في المجتمع.

من الواضح ان هذا النوع من الدراسات يرتبط بصورة او بأخرى باتجاه التحديث الذي سبق وأشرنا اليه في عرضنا لنماذج من بحوث التغير الاجتماعي. فجهينة العيسى تؤكد ان «التحديث يرتبط بالتنمية»، وفي سعيها الى البحث عن بعض المتغيرات التي أدت الى تنمية المجتمع القطري (أي تحديثه) تستعين باتجاه المؤشرات السائد في العديد من بحوث التنمية التي تنتمي الى هذا الاتجاه، وذلك لأنها تنطلق من مبدأ انه «حتى يتم التحديث (أي التنمية) يجب اكتساب سمات معينة، وإلا فإن فقدان هذه السمات سيعني التخلف بالضرورة (٦٣). وتتابع بحثها متجهة الى تناول تطور النظام التعليمي (اعداد المدارس واعداد الطلاب وتطور ميزانية التعليم)، وتطور الصناعة في قطر (اعداد العمال، الانتاج)، وانتشار وسائل الاتصال الجماهيري، ثم تبحث عن آثار التنمية في التحضر والأسرة(٦٤).

واذا كانت عمليات التصنيع والهجرة والتوطين. . الخ هي من مستلزمات التنمية «التحديث»، فان الجريمة هي من نتائج التنمية السريعة التي تتميز بها مجتمعات الخليج. هذا ما خلص اليه طلعت ابراهيم لطفي في احدى دراساته

عن الجريمة في المملكة العربية السعودية. وهو استخلاص نمطي في دراسة المشكلات الاجتماعية المرتبطة بالتنمية. فالتصنيع يؤدي الى زيادة درجة التحضر في المناطق الصناعية، الذي يصاحبه عادة بعض المشكلات الاجتماعية مثل التغير الثقافي السريع، والصراع الثقافي الناجم عن الهجرة الى هذه المناطق بحثا عن فرص العمل، وخاصة هجرة الريفيين، والمادية المفرطة التي تتميز بها المجتمعات الحضرية عادة، والضعف المستمر في الاتصال المباشر الوثيق والانهيار في وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية، مما ينعكس في النهاية على زيادة حجم الجرائم في المناطق الصناعية(٦٥).

ان هذه النظرة نفسها هي التي تحكم العديد من البحوث في مجال الانحراف مثل تعاطي المخدرات، واللامبالاة، وجناح الاحداث.. الخ وهو ما وجدناه خلال اطلاعنا على عدد من تلك البحوث(٦٦).

الاتجاه الثاني: ويضم البحوث التي تتم في اطار مفهوم تنمية المجتمعات المحلية بمعناه التقليدي الذي كان سائدا من قبل. وسنعطي نموذجا واحدا له، وهو بحث عن المشاركة الاهلية في الريف السعودي. فالباحث يعرف المشاركة الاهلية المحلية بأنها جهد تطوعي، منفردا او مشتركا مع الاجهزة الحكومية لتحسين أحوال البيئة الريفية. ويفهم الباحث التنمية الريفية المتكاملة على انها تهدف في النهاية الى تطوير القيم الاجتماعية والثقافية في اتجاه قبول قيم التنمية، ولكن هذا التطوير لايمكن ان يتم إلا بشكل تدريجي، ومع احترام ما يعتبره المجتمع قيما أساسية»(٦٧). وفي ضوء ما كشفت عنه الدراسات من ان ٤٤٪ من النساء يرين ان مكان المرأة هو المنزل، فإن الباحث يرى ان المجالات التنموية التي يمكن ان تشارك فيها المرأة الريفية هي تعلم الخياطة والتطريز والتدبير المنزلي ومحو الامية، وأنه يجب تشجيع المرأة على ذلك. وفي تقييمه لبرامج التنمية في المملكة العربية السعودية يخلص الباحث الى ان تلك البرامج تحقق كل الايجابيات التي تتجلى ـ في رأيه ـ في التنسيق بين اللجان على المستويات المختلفة وفي اشراك لجان اهلية مع اللجان الرسمية في تحديد الاحتياجات واشباعها في مختلف

القطاعات . ومن الواضح ان هذا التصور لمعنى التنمية الريفية يعزلها عن التنمية الشاملة ، كما يحول مفهوم المشاركة الى مجرد العمل مع الاجهزة الرسمية لتحسين البيئة ، نازعا عنه كل الابعاد السياسية والفكرية .

الاتجاه الثالث : ينظر أصحابه الى قضيـة التنمية من منظور أوسع ، ويأخذون في اعتبارهم كـافة الابعـاد ، وبالـذات بعد الخصـوصية التي تتميـز بها مجتمعات الخليج العـربية . ولايعني اتسـاع المنظور هنـا الابتعاد عن الـواقع الامبيريقي او النفور من دراستـه ميدانيـا ، بل على العكس ، يسعى أصحاب الـدراسات التي تنتمي الى هـذا الاتجاه الى تـدعيم رؤيتهم بمعطيـات من الـواقع ، لكن بحـوثهم تعكس ادراكا لمسائل واشكاليات هامة وجادة لم يلتفت اليها ، بالطبع ، أصحاب الاتجاهين السـابقين . وسنعطي مثالين على هـذا الاتجاه . أولهما لمحمد الـرميحي الذي يوافق على مفهوم التنمية الذي قـدمه علي الكواري والذي مؤداه ان التنمية هي «العملية الموجهة نحو ايجاد تحولات في البناء الاقتصادي الاجتماعي ، تكون قادرة على تنمية طاقة انتاجية مدعمة ذاتيا تؤدي الى تحقيق زيادة منظمة في متوسط الدخـل الحقيقي على المدى المنظور(٦٨) . والتنمية بهذا المعنـى تعني لديـه أيضا توفير حاجات أساسية ، ومشاركـة ، وعدالة اجتماعية تضمن الاستقرار الطويل للمجتمع . لكن مثل هـذا النمط من التنميـة في مجتمعـات الخليج تـواجهـه صعوبـات ذاتية وموضـوعية تتعلق بطبيعـة التركيبة السكانيـة للمجتمع وطبيعة العائدات النفطية ، وضيق الطـاقة الاستيعابية (الاراضي ـ الصناعـات ـ المياه) ، كما تتعلق بـالأيـدي العـاملـة وكفـاءة التعليم ، والخبرة و التنظيمات الاداريـة ، والكفاية الغذائية والامن الاقليمي(٦٩) .

أما المثل الثاني على هذا الاتجاه فهو دراسـة يحاول صاحبها تحديد اطار للتنمية العربية يراه ضروريا في ضوء خيبـة الامل التي يبعث عليها سجل التنمية العربية وفي ضوء التهـديد الذي تـواجهه موارد الأمـة العربية ، بما فيهـا منطقة الخليج . وينهض الاطار المقترح على فهم واع للنظام السيـاسي والاقتصادي ـ الاجتماعي العـربي ، ولكون هـذا النظـام في الحقيقة مخترق من جـانب الامبريـالية ، وتـابع

للمركز الامبريالي(٧٠). وعلى عكس ما يرى أصحاب الاتجاهات الاخرى في دراسة التنمية، يذهب صاحب هذه الدراسة الى ان «بلدان المشرق العربي والجزيرة قد دخلت مرحلة المجتمع الجماهيري.. ليس عن طريق التصنيع (كما في التجربة الاوروبية) اي عن طريق الانتاج الجماهيري (بالجملة) وما تبع ذلك من ظواهر اجتماعية، وانما عن طريق تأثير السياسات الاستعمارية او مداخيل النفط الريعية(٧١) وان ما شهدته تلك البلدان هو حتى الآن «نمو بلا تنمية». ويدلل الباحث على هذه الحقيقة بشواهد من واقع الخطط والبرامج التي نفذت في بعض البلدان العربية، ومن واقع طبيعة المشروعات الاكثر انتشارا في بعض البلدان الخليجية، وغير الخليجية، وهي المشروعات التي لاتؤدي الى تنمية حقيقية لانها تتوافق مع ظاهرة الاستهلاك الجماهيري والثقافة الاستهلاكية (التي قد يراها البعض مؤشرا على حدوث تنمية(٧٢). ومع وعيه بالصعوبات التي تواجه تنفيذ تنسيق استراتيجي بين بلدان المشرق العربي، فانه لايتخلى عن الدعوة الى هذا التنسيق، من اجل مواجهة تهميش الاقتصاد الوطني في تلك البلدان، ومن اجل تحقيق تنمية شاملة ومتكاملة.

لقد كنا مضطرين الى اللجوء إلى عرض امثلة للاتجاهات المختلفة سواء في حديثنا عن بحوث التغير الاجتماعي، او عن بحوث التنمية الاجتماعية، وهو امر فرضته ظروف الحيز المتاح. وربما كنا في حاجة حقيقية الى تقييم موسع لتلك البحوث، وهو مهمة تخرج عن نطاق دراستنا الراهنة.

خاتمة:

لم يكن من الممكن تلمس وضع علم الاجتماع في منطقة الخليج العربي إلا بربطه بوضع علم الاجتماع في الوطن العربي عموما. فالسياقات العامة والخاصة التي نشأت فيها السوسيولوجيا في بلدان الخليج العربية أوجدت نقاطا للتشابه والتماثل بين علم الاجتماع على المستوى القومي العام، وبينه على مستوى المنطقة. وقد حاولنا أن نستكشف أوضاع السوسيولوجيا في مجتمعات الخليج

العربية من خلال تحليل الجانب التدريسي المتمثل في المقررات الاكاديمية والكتب التي تدرس في أقسام علم الاجتماع بالمنطقة، وكذلك من خلال تحليل نماذج من البحوث والدراسات الاجتماعية، خاصة في ميداني التغير الاجتماعي والتنمية الاجتماعية، على افتراض ان هذين الميدانين هما من اكثر الميادين التي تشتمل على قضايا هامة وملحة بالنظر الى الظروف والاوضاع التي تمر بها مجتمعات الخليج في تاريخها المعاصر. وفي حين كشف هذا التحليل عن غلبة تيار التحديث في دراسات التغير والتنمية، فان هذه الحقيقة تعكس لنا جانبا هاما من وضع علم الاجتماع ودوره في منطقة الخليج العربية، وهو في ذلك ليس استثناء عن وضع علم الاجتماع في الوطن العربي عموما. ولعل العوائق الاجتماعية والنظرية والمنهجية والسياسية التي يواجهها علم الاجتماع في الوطن العربي عموما تكون دافعا الى العمل على تعميق التواصل بين المشتغلين بهذا العلم بهدف مواجهتها، وتدعيما لدور ايجابي وفعال نرى ان علم الاجتماع لابد ان يضطلع به.

المراجع والهوامش :

١ — البلـدان المعنية في هـذه الـدراسة هـي دول مجلس التعاون لـدول الخليج العـربيـة : المملكة العـربيـة اسعوديـة، الكويت، الامارات العربية المتحدة، عمان، قطر، البحرين.

٢ — كمثال على هـذه المراجعات أنظر: عبـدالباسط عبدالمعطـي، اتجاهات نظريـة في علـم الاجتماع، المجلس الوطني للثقافـة والفنون والآداب (سلسلـة عالم المعرفـة)، الكويت، أغسطس ١٩٨١، ف ٦، ص ص ١٨٥ ــ ١٩٨، حيدر ابراهيم علي، «علم الاجتماع والواقع الاجتماعي: دراسة في الظواهر التي عالجها علم الاجتماع في المجتمع العربي خلال السنوات الاخيرة»، مجلة كلية الآداب، جامعة الامارات، العدد الثاني، ١٩٨٦، ص ص ١٣٩ـ ١٥٧.

٣ — كمثال لهذه المراجعات انظر دراستي عبدالصمد الديالميد «مـلامح تطور السوسيولوجيا في المغرب»، و «اشكالية الكتاب السوسيـولوجية في المغرب: محاولة تـركيبية» و دراسة الطاهر لبيب، «علم الاجتماع في تـونس: التدريس نصا وروحا»، وكلها منشـورة في: نحو علم اجتماع عربي، مصدر سـابق، صفحات ٢٨٧ ـ ٣٠٧ ــ ٣٣١ ـ ٣٣٩ ـ ٢٠٩ ـ ٣٢٩ على التوالي؛ سعيـد بن سعيد، «التنميـة وتكوين الاطـر : حول تـدريس علم الاجتماع في مؤسسـات التعليم في المغرب»، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد ١٤، العدد ٤ (شتاء ١٩٨٦)، ص ص ٨٣ ـ ١١٣.

٤ ـ يمكن الاشارة في هـذا المجال الى الدراستين التاليتين : أحمد زايد، «فرضيـات دراسة التغير الاجتماعي في مجتمعات الخليج العربية: رؤية نقدية»، فتحي أبوالعينين. «سوسيولوجية المشكلات الاجتماعية: دراسة نقدية مع اشارة خاصة لمجتمعـات الخليج العربيـة» اللتين قدمتـا الى ندوة «قضـايا التغير في المجتمع القطـري خلال القـرن العشرين»، مركـز الوثائق والدراسات الانسانية بجامعة قطر، الدوحة (٢٥ ـ ٢٨ فبراير ١٩٨٩).

٥ — فردريك معتـوق، تطور الفكر السـوسيولـوجي العربي، منشورات جـروس، طرابلس ـ لبنـان (لم يذكـر تاريخ النشر، وإن كانت هنـاك بعض البيانات التي يستـدل منها على أن الكتاب قد نشر بعـد عام ١٩٨٦) ص ٦١، ص ص ٧٢ ـ ٨٥.

٦ — المصدر نفسه، ص ١٠٥.

٧ — نحـو نظريـة عربيـة في علـم الاجتماع، ط ١، جمعيـة الاجتماعيين، الشارقـة، (سلسلة الـدراسات الاجتماعيـة)، ١٩٨٩، ص ٥٠.

٨ — تطور الفكر السوسيولوجي العربي، ص ١١٤.

٩ — عبدالقـادر عرابي، «حول الـوضع الراهن لعلم الاجتماع العربي» تـرجمة محمد الجوهري، الكتـاب السنوي لعلم الاجتماع، العدد الخامس، اكتوبر ١٩٨٣، ص ٨٤، ٨٦.

10 - Peter L. Berger & Hansfried Kellner, Fuer eine neue Soziologie: Ein Essay ueber Methode und profession, Fischer Tachenbuch verlag, Frankfurt am Main, 1984, s. 10 - 138.

11 - Terry N. Clark, prophets and patrons: the French University and the Emergence of the Social Sciences, Cambridge, Harvard University Press, 1973, pp. 162 - 165.

١٢ — عبدالقادر عرابي، مصدر سابق، ص ٩٥.

١٣ — اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٤، ٢٥٩.

١٤ — نحو نظرية عربية في علم الاجتماع، ص ٤٨.

١٥ — السيد الحسيني وجهينة سلطان العيسى، «علم الاجتماع والواقع العربي : دراسة لتصورات علماء الاجتماع العرب»، المستقبل العربي، العدد ٤١ (يوليو ١٩٨٢)، ص ٤٧.

١٦ — محمد إبراهيم كاظم، «الجامعات الخليجية : حاضرها ومستقبلها» حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد الثامن، ١٩٨٥، ص ٢٣.

١٧ — حامد عمار، «البترول وتطور التعليم في الوطن العربي»، بحث ضمن أعمال ندوة البترول والتغير الاجتماعي في الوطن العربي، (أبوظبي ١١ ـ ١٦ يناير ١٩٨١)، المعهد العربي للتخطيط بالكويت، ١٩٨١، ص ٣٩١.

١٨ — محمد الرميحي، البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٧٥، ص ٨٥.

١٩ — مصدر سابق، ص ١٩، ص ٢٤.

٢٠ — معن خليل عمر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.

٢١ — محمد إبراهيم كاظم، مصدر سابق، ص ١٣.

٢٢ — جامعة الملك عبدالعزيز، كلية الآداب والعلوم الانسانية، دليل قسم الاجتماع، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبدالعزيز جدة، ١٩٨٨، ص ١٠٧.

٢٣ — جامعة الامارات العربية المتحدة، الدليل الدراسي العام (١٩٨٢ ـ ١٩٨٣)، ص ١٠٧.

٢٤ — جامعة السلطان قابوس، كلية الآداب، قسم الفلسفة والاجتماع، الدليل الاكاديمي (للفصول الثمانية)، ١٩٨٨/ ١٩٨٩، ص ٢.

٢٥ — دليل جامعة الملك سعود (١٩٨٣ ـ ١٩٨٥)، ص ص ٢٠٩ ـ ٢١٥.

٢٦ — دليل جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ص ص ١٤١ ـ ١٤٤.

٢٧ — في خطة جديدة بدأ تنفيذها عام ١٩٩٠/ ١٩٩١ يطرح علم الاجتماع كتخصص منفرد مع عدد من المقررات المساعدة من تخصصات أخرى تطرحها أقسام متعددة غير قسم الاجتماع.

٢٨ — جامعة الامارات العربية، الدليل الدراسي العام (١٩٨٢ ـ ١٩٨٣)، ص ١١٢.

٢٩ — المصدر نفسه، ص ١٠٧.

٣٠ — دليل التعليم العالي والجامعي في دول الخليج العربي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط ٣، الرياض، ١٩٨٨، ص ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

٣١ — انظر : سليمان الخضري الشيخ ونبيل احمد عامر، مشكلات الكتاب الجامعي في جامعات دول الخليج العربية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٩٨٣.

٣٢ — انظر : حسن شحاته سعفان، أسس علم الاجتماع، ط ١٠، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨.

٣٣ — حسن شحاته سعفان، تاريخ الفكر الإجتماعي والمدارس الاجتماعية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٣.

٣٤ — سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع : دراسة نقدية، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

٣٥ — انظر محمود عوده، أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، تاريخ الفكر الاجتماعي : جـ ١، مرحلة الرواد، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

٣٦ — انظر : حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر : بحث استطلاعي اجتماعي، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤.

٣٧ — مصطفى محمد حسنين، المدخل الى المدرسة الاسلامية في علم الاجتماع، مطبعة الكيلاني، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٤.

٣٨ — «نحو نظرية سوسيولوجية عربية : بعض المشكلات النظرية والمنهجية»، ورقة قدمت إلى مؤتمر علم الاجتماع وقضايا الانسان العربي المعاصر، الكويت ٨ ـ ١١ ابريل ١٩٨٤، ص ١٢.

٣٩ — «دور المنهج العلمي في النقد الفلسفي العربي»، في : الفلسفة العربية المعاصرة : مواقف ودراسات. بحوث المؤتمر الفلسفي العربي»، في : الفلسفة العربية المعاصرة : مواقف ودراسات. بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الثاني الذي نظمته الجامعة الاردنية، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٤٢.

٤٠ — نبيل محمد توفيق السمالوطي، المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع : دراسة في علم الاجتماع الاسلامي، تقديم فضيلة الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز المصلح، ط ١، دار الشروق، جدة، ١٩٨٠، والاقتباس هنا من التقديم، ص ص ٧ـ٨.

٤١ — المصدر نفسه، ص ١٠.

٤٢ — انظر نبيل السمالوطي، بناء المجتمع الاسلامي ونظمه : دراسة في علم الاجتماع الاسلامي، دار المطبوعات الجديدة، ط ١، دار الشروق، جدة، ١٩٨١.

٤٣ — كمثال على هذا الخلط انظر : زكي محمد اسماعيل، علم الاجتماع الاسلامي، دار المطبوعات الجديدة، الرياض، ١٩٨١.

٤٤ — انظر : أحمد أبوزيد، البناء الاجتماعي، جـ ١ : المفهومات، الدار القومية للطباعة والنشر، اسكندرية، ١٩٦٥، البناء الاجتماعي، حـ ٢ : الأنساق، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، اسكندرية، ١٩٦٧.

٤٥ — كأمثلة على تلك المؤلفات أنظر : عاطف وصفي، الانثروبولوجيا الاجتماعية، ط ٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، محمد عبده محجوب، مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية (منهج وتطبيق) وكالة المطبوعات، الكويت، د.ت، فاروق مصطفى اسماعيل، الانثروبولوجيا الثقافية (جزآن)، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، ١٩٨٤.

٤٦ — استخرجنا هذا البيان من خلال اطلاعنا على قائمة بمحتويات كل الاعداد الصادرة من المجلة، وهي منشورة في صدر العدد الرابع من المجلد الخامس عشر (شتاء ١٩٨٧). وقد درجت المجلة على نشر مثل تلك القائمة في كل عدد.

٤٧ — استنتجنا ذلك من خلال اطلاعنا على الكشافات التحليلية الخاصة بالاعداد من ١ الى ٥٦ (الاعوام ١٩٧٥ ـ ١٩٨٨)، وعلى فهارس الاعداد ٥٧ ـ ٦٠ (١٩٨٩).

٤٨ — تم هذا الحصر من : كشاف حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر (الاعداد من ١ ـ ١٠) ومن قائمة محتويات كل من العدد ١١، ١٢.

٤٩ — «مدخل لدراسة الواقع والتغير الاجتماعي في مجتمعات الخليج المعاصرة»، في : الخليج العربي في مواجهة التحديات : محاضرات الموسمين الثقافيين السابع والثامن (١٩٧٤ ـ ١٩٧٥) لرابطة الاجتماعيين بالكويت، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت، ص : ٥٥٧ ـ ٥٧٦.

٥٠ — محمد الرميحي، «التشكي المتزامن والتنمية التابعة : دراسة في الجوهري والعام والمشترك لأقطار الخليج

العربية»، منشورة في أعمال ندوة «التكوين الاجتماعي الاقتصادي في الأقطار العربية»، المعهد العربي للتخطيط، الكويت، ١٩٨١، ص ص ٢٥ ـ ٥٥.

٥١ — نوره الفلاح، «الكويت : محاولة لفهم البناء الاجتماعي» في : أعمال ندوة «التكوين الاجتماعي الاقتصادي في الاقطار العربية»، المعهد العربي للتخطيط، الكويت، ١٩٨١، ص ص ٧١ ـ ١٢١.

٥٢ — نوره الفلاح، التغير الاجتماعي في الدول المنتجة للنفط (مجتمع الكويت)، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية العاشرة، الرسالة السابعة والخمسون، ١٩٨٨/ ١٩٨٩، ص ١٦.

٥٣ — محمد الرميحي، البحرين : مشكلات التغير السياسي والاجتماعي، ط ٢، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨٤، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

٥٤ — موزة عبيد غانم غباشي، الجماعات الطبقية قديما وحديثا في مجتمع الامارات العربية المتحدة، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٧، ص ٢٠٠، ص ص ٣٣٦ ـ ٣٤٥.

٥٥ — كلثم الغانم، المجتمع القطري من الغوص الى التحضر، مؤسسة النور للدعاية والاعلان والنشر، الدوحة، ١٩٨٩. ويذكر أن هذه الدراسة كانت في الاصل رسالة حصلت بها الباحثة على درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة عين شمس، ١٩٨٦.

٥٦ — جهينة العيسى، «قضية التحديث في ضوء الاتجاهات المعاصرة لعلم الاجتماع»، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد الأول، ١٩٧٩، ص ص ١٣٥ ـ ١٥٠.

٥٧ — جهينة العيسى، «المجتمع القطري : دراسة تحليلية لملامح التغير الاجتماعي المعاصر»، ط ١، د.ن، ١٩٨٢.

٥٨ — جهينة العيسى، «التحديث في المجتمع القطري المعاصر، ط ١ شركة كاظمة للنشر والتوزيع والترجمة، الكويت، ١٩٧٩، ص ١٣. وهذه الدراسة كانت في الاصل رسالة حصلت بها الباحثة على درجة الدكتوراة من كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٨.

٥٩ — المصدر نفسه، ص ص ١٤٢ ـ ١٥٨.

٦٠ — «فرضيات دراسات التغير الاجتماعي في مجتمعات الخليج العربية : رؤية نقدية»، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٣ ـ ٣٧.

٦١ — حيدر إبراهيم علي، «علم الاجتماع والواقع العربي...»، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١.

٦٢ — حيدر إبراهيم علي، «تطور علم اجتماع التنمية في الوطن العربي»، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد ١٥، العدد ١، ربيع ١٩٨٧، ص ص ١٥٠ ـ ١٥٢.

٦٣ — جهينة العيسى، «المجتمع القطري ومؤشرات التنمية»، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر، العدد الثاني، ١٩٨٠، ص ٣٥.

٦٤ — المصدر نفسه، ص ص ٣٦ ـ ٤٥.

٦٥ — طلعت إبراهيم لطفي، علم الاجتماع الصناعي، ط ١، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٨٢، ص ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

٦٦ — كأمثلة على تلك البحوث أنظر : جهينة العيسى، «تعاطي المشروبات الروحية واتجاهات لدى عينة من الشباب»، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد السادس، ١٩٨٣، محمد عبدالله المطوع «أثر التغير الاجتماعي على الشباب في الامارات». مجلة كلية الآداب، جامعة الامارات، العدد الثاني، ١٩٨٦،

عبدالمنعم محمد بدر ، «مشكلة التعامل مع المخدرات : دراسة ميدانية في سجن بريدة ـ القصيم» في : عبدالله غلوم وآخرون ، قضايا من واقع المجتمع العربي في الخليج ، سلسلة الدراسات الاجتماعية والعمالية (العدد ٩) ، مكتب المتابعة لمجلس الوزراء والشئون الاجتماعية بالدول العربية الخليجية ، المنامة ، ١٩٨٧ .

٦٧ — اسماعيل بن كتب خانة ، «المشاركة الاهلية في المجتمعات الريفية وبعض تطبيقاتها في المملكة العربية السعودية» ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٦٠ ، السنة ١٥ اكتوبر ١٩٨٩ ، ص ص ١٧٥ ـ ١٩٢ ، (الاقتباس من ص ١٨٢) .

٦٨ — محمد الرميحي ، الخليج ليس نفطا ، ط ١ ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ٥٩ .

٦٩ — المصدر نفسه ، ص ص ٥٩ ـ ٦٠ ، وأنظر ايضا : محمد الرميحي ، «نموذج التقدم في الدول النامية» ، الفكر العربي المعاصر ، العدد ١٢ ، مايو ١٩٨١ ، ص ص ٧٤ ـ ٧٩ .

٧٠ — خلدون حسن النقيب ، «إطار استراتيجي مقترح للتنمية العزبية» ، المستقبل العربي ، العدد ١٢٩ ، نوفمبر ١٩٨٩ ، ص ص ٦٢ ـ ٦٥ .

٧١ — المصدر نفسه ، ٦٦ ـ ٦٧ .

٧٢ — المصدر نفسه ، ٧١ ـ ٧٢ .

الانتماء التنظيمي عند العاملين في الصناعات التحويلية

دراسة ميدانية على عينة من العاملين بالصناعة التحويلية في المجتمع القطري

أ. د. إعتماد محمد علام
أستاذ علم الاجتماع بجامعة قطر

أهمية الدراسة :

إن المتفحص لما يصدر من دراسات وبحوث حول تنظيمات العمل المركبة في السنوات الراهنة، سوف يلحظ تحولاً واضحاً في المداخل النظرية والرؤى العلمية مما يدل على أن نبض البحث العلمي أصبح مرتبطا بالتحولات الهائلة في مجالات التقانة والاقتصاد وعمليات السوق العالمي. اذ تستوجب تلك التحولات في علاقاتها بتنظيمات العمل المركبة ضرورة تطوير المداخل النظرية الشائعة في دراسة التنظيمات(١). هذا فضلا عن أن سياسات تنظيمات العمل والتي تختص بالعمالة وتعاظم الأداء التنظيمي لم تعد ملائمة بالقدر الكافي لمواجهة النمط الحديث من العلاقات بالغة التعقيد بين التوقعات والفعل، لاسيما في ظل نظام اقتصادي موحد بدأت ملامحه ترتسم بوضوح على علاقات السوق العالمي.

ويمكن اعتبار الفترة ما بين أواخر السبعينات وأوائل التسعينات، مرحلة انتقالية شهدت تحولات واضحة عند علماء العلوم الاجتماعية من الرؤية المحلية لتنظيمات العمل الرسمية وعملياتها الداخلية إلى الرؤية العالمية بمفهومها عند الفن جولدنر A. Gouldner . فخلال تلك الفترة، إنصرف اهتمام علماء الاجتماع من التركيز على قضايا تقليدية مثل الاغتراب، والصراع التنظيمي،

ومن الجدل الطويل بين الراديكالية والرأسمالية إلى قضايا حديثة مثل الانتماء التنظيمي وعلاقاته ببناءات الفرصة Opportunity Structures وبناءات القوة Power Structures(٢) . وذلك عند علماء البنائية المحدثة مثل روزابيث كانتر R. Kanter (١٩٧٧)، فان مانان Van Maanan (١٩٧٧)، أوليفز Olives (١٩٩٠)، دوبن وآخرين . Dubin et al(١٩٧٥) .

ويحظى تراث العلوم الاجتماعية بعدد من المداخل الحديثة في دراسة التنظيمات الرسمية المركبة مثل مدخل الانتماء التنظيمي، ومدخل الانتماء ــ التنظيمات المتعاظمة Commitment - Maximizing Organizations عند كل من علماء اجتماع العمل وعلماء الاقتصاد. وأصبح الانتماء التنظيمي مدخلا من المداخل الحديثة لدراسة التنظيمات الرسمية المركبة عند علماء العلوم الاجتماعية. ولعل التحولات التي أشرنا اليها مسبقا فضلا عن محاولة كل من الدول الغربية والولايات المتحدة دراسة التجربة اليابانية في تعظيم الدور التنظيمي وانتهاج سياسات جديدة تتعلق بالعمالة وتحقيق أكبر قدر من إنتمائها نحو التنظيمات الرسمية، كانت من أهم دوافع الاهتمام بالانتماء التنظيمي كمدخل عند كل من علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد لدراسة تلك التنظيمات(٣) .

يتضمن تراث العلوم الاجتماعية كماً هائلا من الدراسات الميدانية التي تهتم بالانتماء التنظيمي. بيد أن تلك الدراسات لم تستطع إلى الآن أن تقدم تفسيرات كاملة او مفهوما شاملا له. وقد يرجع السبب في ذلك الى إهتمام معظم تلك الدراسات بجزئيات أو بموضوعات بعينها مثل محتوى الانتماء التنظيمي وأسبابه ونتائجه(٤) . ودليل ذلك ما يحظى به هذا التراث من مقاييس إحصائية تقيس الانتماء التنظيمي من خلال تعريفات إجرائية متباينة .

من المنظور التحليلي، تقدم تلك الدراسات الميدانية نتائج متناقضة حول تأثير كل من المتغيرات التنظيمية والمتغيرات الديموجرافية على الانتماء التنظيمي . (٥) ومن ثم تكون الحاجة العلمية المتزايدة لاجراء العديد من الدراسات الميدانية حول علاقة الانتماء التنظيمي بالمتغيرات التنظيمية والمتغيرات الديموجرافية حتى

يمكن تفهم طبيعته الأساسية. لذا يهتم البحث الراهن بدراسة تأثير المتغيرات الديموجرافية على الانتماء التنظيمي لعينة من العاملين في الصناعة التحويلية في المجتمع القطري.

أيضا تبدو أهمية هذا البحث لمجتمعات الخليج العربي للاعتبارات التالية:

١ — تعتبر دول الخليج العربي أقل دول العالم اكتشافا ودراسة من جانب علماء العلوم الاجتماعية خاصة في مجال دراسة التنظيمات الرسمية المركبة. فعندما نتفحص التراث العلمي في المكتبة العربية، لانجد سوى عددا يسيرا من الدراسات الميدانية التي تهتم بالجوانب الثقافية والاجتماعية للادارة(٦). إضافة الى وجود عدد محدود جدا من الدراسات التي تهتم ببعض جوانب الانتماء التنظيمي. وقد يرجع أحد أسباب قلة تلك الدراسات، الى حداثة العهد بأنشطة التنظيمات الرسمية المركبة في دول الخليج العربي. اذ لم تعهد تلك الدول هذا النوع من تنظيمات العمل الا بعد استغلال واستثمار عائدات النفط بعد الستينات بخاصة.

٢ — ما تتصف به بنية العمالة الرسمية في دول الخليج العربي من خصوصية تؤثر في تباين مستوى الانتماء التنظيمي للعاملين داخل التنظيمات الرسمية. وتتمثل خصوصية العمالة في الخليج في ثلاثة أبعاد أساسية هي:

أ) تمثل العمالة الوافدة الغالبية العظمى في سوق العمل الرسمي خاصة في مجال الصناعة التحويلية المعتمدة على مشتقات النفط واستخلاصاته.

ب) تتصف العمالة في الخليج بتباينات واضحة في أصولها العرقية، والعقائدية، والثقافية، وفي أصولها الريفية الحضرية.

جـ) تظهر نتائج عدد قليل من الدراسات الميدانية التي اجريت على العمالة في دول الخليج العربي، عدم اتصاف العمالة داخل التنظيمات الرسمية بالثبات والاستمرارية في العمل، وتأثير ذلك سلبا على ارتباط الافراد بما يقومون به من

أعمال وأنشطة . ويرى بعض الباحثين أن انخفاض الارتباطية بالعمل من جانب الافراد القائمين به ، يواكبه انخفاض في ولائهم وانتمائهم الوظيفي(٧) . لذا نتوقع ان تلعب خصوصية العمالة بأبعادها الثلاثة دورا هاما في دراستنا الراهنة للمتغيرات الديموجرافية المؤثرة في الانتماء التنظيمي .

على مستوى الصناعة في قطر ، وقع اختيار الدراسة الراهنة على مجال الصناعات التحويلية الثقيلة للاعتبارات التالية :

١ — رغم الإهتمام الكبير الذي توليه حكومة قطر للصناعات التحويلية الثقيلة باعتبارها وسيلة لتعويض انخفاض العائدات النفطية ولتنويع مصادر الدخل القومي ، لانجد دراسات اجتماعية ـ على قدر علمي ـ قد اجريت على التنظيمات الرسمية لتلك الصناعات ، وربما تكون الدراسة الراهنة هي المحاولة الاولى من حيث مجال البحث والموضوع قيد الدراسة .

٢ — رغم أن الصناعات التحويلية في مجالات الحديد والصلب ، والاسمدة الكيماوية ، الاسمنت ، والبتروكيماويات ، فضلا عن مصنع تكرير النفط وتوزيعه ، تقدم رواتب شهرية ومزايا مادية عديدة قد تفوق ما تقدمه التنظيمات الحكومية التقليدية ، لاتزال نسبة القطريين العاملين في تلك الصناعات محدودة جدا . إذ تمثل العمالة الوافدة من ثقافات مختلفة الغالبية العظمى للعمالة داخل الصناعات التحويلية . وتعتبر ظاهرة انخفاض عدد القطريين في الصناعات التحويلية ذات دلالة اجتماعية بالغة الخطورة ، نظرا لأن الصناعات التحويلية الثقيلة في قطر تعتبر ركيزة لظهور صناعات اخرى تمهد لتكوين بنية صناعية قوية ومتكاملة في المجتمع القطري .

٣ — نظرا لأن الصناعات التحويلية الثقيلة تعتمد على كثافة رأس المال والتقنية العالية ، تتصف العمالة التي يتم اختيارها للعمل داخل التنظيمات الرسمية لتلك الصناعات ، بالمهارات المعتمدة على خلفيات علمية متخصصة . ولعل تلك الخصوصية المهارية للعمالة ، تضفي اهمية دراسة المتغيرات

الديموجرافية كمحددات للانتماء التنظيمي .

مشكلة البحث :

يهدف هذا البحث الى دراسة تأثير المتغيرات الديموجرافية على الانتماء التنظيمي لعينة من العاملين بالصناعة التحويلية في المجتمع القطري، وذلك من خلال : (١) قياس درجة الانتماء التنظيمي عند أفراد العينة ومدى التباين المتوقع في تلك الدرجة بين العمالة القطرية والعمالة الوافدة برافديها الأساسيين، العربي والاجنبي . (٢) دراسة الأهمية النسبية للمتغيرات الديموجرافية في تفسير الانتماء التنظيمي كمتغير معتمد .

ولمعالجة مشكلة البحث نظريا وامبيريقيا، ينقسم هذا البحث إلى :

١ — مداخل نظرية لدراسة الانتماء التنظيمي .

٢ — تحديد مفهوم الانتماء التنظيمي .

٣ — التعريف الاجرائي للانتماء التنظيمي .

٤ — فروض البحث .

٥ — أداة جمع البيانات .

٦ — العينة البحثية .

٧ — خطة التحليل الاحصائي لنتائج البحث .

٧ — تحليل النتائج .

٨ — مناقشة فروض البحث .

مداخل نظرية لدراسة الانتماء التنظيمي :

يمكن تقسيم المداخل النظرية في دراسة الانتماء التنظيمي، التي يحظى بها تراث العلوم الاجتماعية الى :

ا — مداخل سلوكية :

وتتألف من إسهامات كل من علماء السلوك وعلماء النفس الاجتماعي. ويرى هؤلاء العلماء أن العوامل الاجتماعية والنفسية اكثر تأثيرا وفعالية من العوامل البنائية في انتمائية الفرد نحو تنظيم العمل الذي يعمل بداخله.

وتقوم الفكرة الأساسية للمداخل السلوكية على أن الانتماء التنظيمي يتمثل بنمط السلوك الذي يتخطى من حيث القبول اجتماعيا، حدود ما يتوقعه التنظيم من سلوك أفراده العاملين بداخله.

٢ — مداخل التبادلية المحدثة في دراسة الانتماء التنظيمي:

تنطلق الافتراضات النظرية لمداخل التبادلية المحدثة Neo- Exchange Approaches في دراسة الانتماء التنظيمي، من اسهامات نظرية التبادل عند كل من هومانز Homans، هربرت سيمون H. Simon، وبيتر بلاو P. Blau(٨). ومن أبرز علماء التبادلية المحدثة مورتيمر Mortimer (١٩٧٩)، بيكر Becker، فاريل Farrell، روزبلت Rusbult (١٩٨١)، أوكونر O'Connor (١٩٨١)، شوينهر، جريلي Schoenherr & Greely (١٩٧٤)(٩).

تقوم الفكرة المحورية لمداخل التبادلية المحدثة في دراستها للانتماء التنظيمي على افتراض علاقة تبادلية بين هذا الإنتماء والمنفعة المتبادلة بين كل من الفرد والتنظيم الرسمي الذي يعمل بداخله. وان كل عمل يكلف به الفرد يقابله نظير مادي من قبل التنظيم.

ورغم إتفاق كل من علماء الاقتصاد وعلماء اجتماع العمل على الفكرة المحورية للتبادلية بين الانتماء التنظيمي والمصلحة، نجد تباينا واضحا في أسلوب المعالجة والادوات المنهجية التي يستخدمها كل فريق منهما في دراسة الانتماء التنظيمي. فعلى سبيل المثال ــ لا الحصر ــ تنهض مناقشات كل من مورتيمر، وبيكر حول الانتماء التنظيمي على العلاقة بين متغيرات ثلاثة مرتبطة هي التكلفة، والعائد، والاستثمار. فمن بنود التكلفة عند بيكر الحالة التعليمية والحالة الزواجية. ومن بنود الاستثمار عنده مدة خدمة الفرد في التنظيم الرسمي

الذي يعمـل به (١٠) . بينما يركـز علماء الاجتماع مثل ريتشـارد هال R.Hall ، ودوبن Dubin ، ولولر Lawler ، وكيدرون Kidron (١٩٧٨) في دراستهم للانتماء التنظيمي وعـلاقتـه بـالمكـاسب التنظيميـة ، على محصلـة ارتبـاط تلك العـلاقـة بمتغيرات أخرى مثل الرضا عن العمـل ، وقيم العمل . ويفرق كيدرون في هذا الصـدد ، بين نـوعين من الانتماء التنظيمي هما : الانتماء المحسـوب Calculated Commitment والانتماء الاخـلاقي . حيث يشير النـوع الاول الى رغبـة الفـرد في البقاء والعمل داخل تنظيم بعينه لما يقـدمه من مكاسب تفوق مـا تقدمه تنظيمات عمل اخرى . (١١)

٣ — مداخل الانتماء ـ التنظيمات المتعاظمة

تشهـد السنوات الحاليـة ، إسهامـات نظريـة متعددة من قبل علماء الاقتصـاد وعلماء اجتماع العمل ، تهتم بخـلاصـة التجـربـة اليـابانيـة في مجال السيـاسـات والاستراتيجيـات المتعلقة بـالعمالـة والسـوق وتعاظـم دور التنظيمات الرسميـة المركبـة في الهيمنة على العـاملين وحياتهم الاجتماعيـة داخل وخارج حـدود تلك التنظيمات . ومحاولة علماء الدول الغربيـة المتقدمة الاستفادة بالتجربـة اليابانية في التوصل لنماذج تحقق تعاظم دور التنظيمات الرسميـة وتتلائم في الوقت ذاته مع المحتوى الثقافي والاجتماعي والاقتصادي لتلك الدول .

تقـوم مـداخل الانتماء ــ التنظيمات المتعـاظمـة Commitment- Maximizing Organizations على فـرضيـة أساسيـة مفـادهـا ان تحقيق الحد الامثل من انتمائيـة الافراد لاهـداف التنظيم الرسمي وقيمـه يتأتى من خلال تعـاظم هيمنة التنظيم الـرسمي على أعضـائه ليس فقط في محيـط العمل بل على حيـاتهم الاجتماعيـة خارجه .

بيد أن المداخل النظـرية التي تنهض على تلك الفكـرة لاتزال تخطـو خطواتها الأولى ولا يـزال أمـامها الطـريق طـويـلا . كما تـواجـه تلك المداخل الكثير من المشكلات المنهجية لايتسع المقام هنا لمناقشتها .

ومما يجدر الاشـارة اليه، أن مـداخل الانتماء ــ التنظيمات المتعاظمـة، تستمد انطلاقاتها النظرية من إسهامات ثلاثة مدارس فكرية في تراث العلوم الاجتماعية هي مـدرسة تنظيمات العمل في المجتمع اليـاباني التي تمثلهـا ـ دراسـة ـ أبيجلين Abegllen ، ودراسة دور Dore (١٩٧٣)، إسهامات الـراديكالية المحدثـة عند كل من بوراوى Burawoy (١٩٨٣)، وفريدمان Friedman (١٩٧٧)، من خلال الـرؤيـة التاريخيـة للعـلاقـة بين كل من بيئـة العمل والانتماء التنظيمي بـالضبط البيروقـراطي Bureaucratic Control ، ومـدرسـة النسـق الاجتماعي الفني عنـد وودوارد Woodward ، بلـــونـــر R. Blauner ، ووليم فـــوت وايت W.F. Whyte(١٢).

٤ — المداخل البنائية المحدثة :

وسـوف نتنـاول تلك المداخل بقـدر من التفصيل نظـرا لأنها تمثـل الاطـار التفسيري للـدراسة الـراهنة. تنطلق مـداخل البنائيـة المحدثـة Neo- Structural Approaches في دراستها للانتماء التنظيمي من الإسهامات الرائدة لعلماء كل من البنـائية الـوظيفيـة والـراديكاليـة حـول عـدد من القضايـا مثل سـوق العمل، (الهيراركية) التنظيميـة، إنجاز المكـانة، الطبقـة، وبناءات القـوة والعمل. ولو تفحصنا مناقشات المداخل البنائية المحدثة، سوف نجد أن الافتراضات المحورية التي تـدور حـولها المناقشـات تماثل الى حـد كبير الافتراضات التـي تقوم عليهـا نظـريات إنجـاز المكانـة، رأس المال البشري، ونظـريات الـلامساواة في سـوق العمل.

ومن أبـرز علماء المداخل البنـائيـة المحدثـة، مـورجـان Morgan (١٩٨٣)، فرنانديز Fernandiz (١٩٨٥)، هدسون Hodson (١٩٨٣)، وكانتر (١٩٧٧)، وايضا توسكى Tousky (١٩٨٤).

يستهل علماء المداخل البنـائية المحـدثة منـاقشـاتهم حول المحـددات البنائيـة للانتماء التنظيمي، بمبدأ رفض النظرة الاستاتيكيـة التي تنهض عليها مناقشات مداخل الفرد ـ التنظيم. والعلة وراء هذا الرفض عندهم، أن العلاقة بين الفرد

والتنظيم او بين الفعل والفاعل لاتتصف بـالاستاتيكية والانعـزالية، بل تتصف العـلاقة بـالـدينـامية العـاليـة. وتتمثل الخطـوة التاليـة في بنـاء تلك المداخل في الاستفادة مـن المداخل السلوكيـة التي تركـز على مناقشـة العلاقـات بين سلوك الافراد والـرضا عن العمل لجماعات العمـل واخلاقياتها. (١٣) لـذلك نجد ان تلك المداخل تقوم على فـرضية محورية هي اعتبار أن الانتماء التنظيمي الميكـانيزم الاساسي للتحكم في السلوك التنظيمي الذي تحدده ـ افتراضا ـ ثلاثة أبعاد بنائية هي بنـاءات الفـرصة، التـوزيع النسبي للعمالـة داخل سـوق العمل الـداخلي، وبناءات القوة. ويـرى علماء البنائية المحدثـة أن تلك الابعاد الثلاثـة تعتبر كافية لتفسير انتمائية الفرد نحو التنظيم ومدى استجاباته وعلاقاته داخل محيط العمل.

فيما يختص بـالفـرضية الأولى، يـرى علماء البنـائية المحـدثـة، أن تفهم عمل التنظيمات الرسمية وطبيعة علاقتها بالافراد تستوجب ضرورة تفهم مماثل لكيفية إدارة هـؤلاء الافـراد لخبرات العمل الـذي يقـومـون بـه، مع التسليم بأن تلك العلاقة تتصف بالدينامية العالية. فنوعية الأسلوب الذي يدير به الافراد خبرات العمل تعتمد على متغيرات مثل طول فترة ممارسة العمل (مدة العمل بالتنظيم)، ومستوى المهارات المكتسبة، والمكاسب التي يجنيهـا الفرد من جراء عمله داخل التنظيم، ومـدى ما يتمتع بـه هذا الفـرد من طمـوحات وتـوقعات بـالنسبة لـه ولزملائه في العمل، إضافة الى متغيرات أخرى ديموجرافية مثل السن والنوع.

وتلعب بنـاءات الفرصـة دورا حيويـا في تحديد السلـوك التنظيمي للافـراد، وذلك من خـلال العلاقـات بين المتغيرات التي أشرنـا اليها والمتغيرات المرتبطـة ببنـاءات الفرصـة مثل الترفيع الـوظيفي، والاوضاع الـرسميـة للافـراد داخل (الهيراركيـة) التنظيمية، فـرص الاختيار المتـاحـة امام الفـرد، الاستقلاليـة في العمل، السلطة المخولة للفـرد من قبل التنظيم، والمكاسب التي يحققها التنظيم للافراد، والهيبـة او القوة التي تحقق للفرد امتيازات خاصة يتفـوق بها على أقرانه في العمل(١٤).

انطلاقا من الفرضية الاولى، وتأسيسا عليهـا، نرى انه بقدر ما تتباين بناءات الفـرصـة للتنظيمات الـرسمية المركبـة. تكـون ردود أفعـال الافـراد داخل تلك التنظيمات. أو بعبارة مـوجزة نقول إن بناءات الفـرصة وسلوك الفرد يتفـاعلان معا بطـريقة او بأخرى، ومن ثم يـرتبط الانتماء التنظيمي إرتباطا قويـا ببناءات الفرصة.

والفرضيـة الثانيـة التي تدور حـولها مناقشات البنـائية المحـدثة، مفـادها أن سلوك الافراد داخل تنظيمات العمل الرسمية يمكن دراستها من خلال عمليات التكيف التي تعتبر ذات قيمـة عاليـة لكل من الفرد والتنظيم. وبقـدر ما يكـون الفرد اكثر تكيفا مع التنظيم، تزداد امامه فرص الترفيع الوظيفي.

وانطلاقـا من إسهامات روبرت بـريثز R. Prethus حول التكيف كأداة جيدة لدراسـة العلاقة بين السلـوك التنظيمي وكل من بناءات الفرصـة والقوة(١٥)، يستخدم علماء البنـائية المحـدثة النمط الاول مـن التكيف في تفسير علاقـة الفرد واستجاباتـه لبناءات الفرصة وبناءات القـوة. إذ يحدث من التكيف عندما تتيح بنـاءات الفرصـة أمام الافـراد حراكـا وظيفيا رأسيـا. يجعلهم أفضل من غيرهم إتصافا بـدرجة عالية من الانتماء التنظيمي. وينطبق هذا القـول على فئة المديرين داخل تنظيمات العمل الرسمية(١٦) كما تكشف عن ذلك مناقشات بريثز وايضا نتـائج عدد غير يسير من الـدراسـات الميدانيـة. كـالتي قام بها كل من بـونجين Benjean (١٩٦٦)، ميلز Mills (١٩٥٦)، ميلر وفورم ودالتون Form, Miller & Dalton (١٩٥٦)، أوليفر Oliver (١٩٨٤)، روتشـايلـد ووبت Rothschild & White (١٩٨٦)، إذا أشارت تلك الـدراسات الى ما تتمتع به فئة المديـرين اكثر من غيرها بدرجة عالية من الانتماء التنظيمي نظرا لتعدد الفرص أمامهم للاختيار اكثر من فئات أخرى غيرهم داخل التنظيم الرسمي. (١٧)

ويتطرق علماء البنـائية المحـدثة بالمنـاقشة لعدد من القضـايا المرتبطـة بالانتماء التنظيمي مثل المكـاسب الصريحة والضمنيـة، والـرضـا عن العمل، وتأثير المتغيرات التنظيميـة، والمتغيرات الـديمـوجـرافيـة على الانتماء التنظيمي، وقيم

العمل .

ويمكن القول إن ما تشهده السنوات الراهنة من اهتمامات متزايدة من جانب الباحثين والمهتمين باستراتيجيات تنظيم العمل نحو زيادة الانتماء التنظيمي، والرضا عن العمل، قد أفضى إلى إجراء الكثير من الدراسات الميدانية التي تستخدم مداخل متنوعة من جانب علماء الاقتصاد والاجتماع وعلماء السلوك. فعلى سبيل المثال، يرى لوك Lock (١٩٧٦)، أن الانتماء التنظيمي يزداد بزيادة الدافعية للانجاز عند الفرد. كما أن الرضا عن العمل ـ من المنظور الوظيفي ـ يعتبر الصلة التي تربط بين قيم العمل والمكاسب التي يقدمها التنظيم الرسمي للأفراد(١٨).

ويمكن القول إن كلا من علماء البنائية المحدثة وعلماء المداخل المحدثة لتبادل المنفعة يتفقان معاً على وجود علاقة قوية بين مكاسب العمل والانتماء التنظيمي. ويصنف الباحثون هيرتزبرج Herzberg (١٩٦٦)، كاليبرج Kallaberg (١٩٧٧)، كاتز، فان مانان Katz & Van Maanan (١٩٧٧) مكاسب العمل الى ثلاثة أنماط هي مكاسب الواجب التنظيمي، مكاسب اجتماعية، وايضا مكاسب تنظيمية، يقصد بمكاسب الواجب التنظيمي، تلك التي يجنيها الفرد مباشرة من خلال أدائه للواجب المكلف به داخل التنظيم. ويكون استخلاص هذا النوع من المكاسب من محتوى الواجب التنظيمي ذاته مثل استمتاع الفرد بنوع العمل الذي يؤديه، وقبوله للتحديات التي يواجهها أثناء العمل، التوجه الذاتي ونطاق المسئولية التنظيمية المخولة له، مدى التنوع في أداء العمل. هذا بالاضافة الى مدى الفرص المتاحة امام الفرد لاستغلال مهارته وقدراته الذاتية. ويقصد بالمكاسب الاجتماعية تلك التي يغتنمها الفرد من جراء تفاعله مع باقي العاملين في موقع العمل مثل الصداقات، التعاون، المشاركة بين الزملاء وبين هؤلاء والمشرفين والرؤساء في العمل. وتقتصر المكاسب الاجتماعية على نوع المكاسب الصريحة. أمّا ما يقصد بالمكاسب التنظيمية، فتلك المكاسب الصريحة التي

يقدمهـا التنظيم الرسمي للعـاملين بقصد زيادة معـدل الأداء في العمل، وزيادة الفعالية التنظيمية وضمان استمرار العاملين كأعضاء عاملين داخل هذا التنظيم. وتقتصر المكـاسب التنظيمية على جميع المكـاسب الصريحة والشائعـة كالـرواتب والاجور، والخدمـات الاجتماعية، والأمـان، والتأمين في حـالات المرض أثناء العمل، وتحقيق الظروف المرضية لأدائه، والترفيع الوظيفي. (١٩)

أيضـا تظهر نتـائج عدد من الـدراسـات الميدانيـة، أن المكاسب او المصلحـة الجوهرية للفرد تؤثـر بشكل واضح على انتمائه نحو التنظيم الرسمي الذي يعمل بداخلـه. وتدعم تلك الفـرضية نتـائج الدراسـات الميدانية التـي قام بها دوبن، وشـــامبــو، وبــورتــر Dubin & Champoux & Porter (١٩٧٠)، كيـدرون (١٩٧٨). كما خلصت إلى نتائج مماثلة خلال الدراسات الميدانية التي قام بها عند علماء الاقتصــاد مثل مــارش وسيمــون March & Simon (١٩٥٨)، وعلماء الاجتماع مثل جروسكى Grusky (١٩٦٦)، ستون Stone (١٩٥٢)، روزابيث كانتر (١٩٧٢) بـدراستها الشهيرة عن تنظيم صنـاعي كبير أسمته ـ اصطـلاحا ـ (Indsco)، ريتشـارد هال، وكـلاين Hall & Klein (١٩٨٨)، ودراسة أوليفـر Oliver (١٩٨٤). (٢٠)

ومما هو جدير بالذكـر بشأن تلك الدراسات، أنها رغـم تناولها لموضوع واحد هـو العلاقـة بين المكاسب الماديـة والانتماء التنظيمي، تتباين فيما بينهـا من حيث أساليب المعالجة والادوات المنهجية. فعلى سبيل المثـال، اعتمد كل من ريتشارد هال وكـلاين في دراستهما لتلك العلاقـة، على قوائم افتراضيـة تضم الخصائص التنظيميـة والخصائص الـديموجـرافية لـلأفراد. بيـد أن كانتر في دراستهـا على مؤسسة صناعيـة ضخمة في الولايات المتحدة الامريكيـة، وبحكم عمل الباحثة كخبيرة استشـاريـة لتلك المؤسسة، استخـدمت أسلـوب المعـايشة والـدراسـة المتعمقة في دراستها للسلوك التنظيمي وبناءات القوة والفرصة داخل المؤسسة. وأوضحت كـانتر أن الانتماء التنظيمي يتبـاين من مستـوى تنظيمي الى آخـر عبر

(الهيراركية) التنظيمية. وأن هذا التباين يرجع الى ما تتصف به بناءات كل من الفرصة والقوة من تباينات. إذ تكشف نتائج دراستها أن فئة المديرين كانت اكثر انتمائية من الفئات الاخرى داخل بنية التنظيم الرسمي. وان مرد الانتمائية العالية عند افراد المستويات الادارية العليا، يرجع الى ما يتمتع به هؤلاء من درجات الهيبة العالية والسلطة وفرص الاختيار المتعددة والمكاسب المادية المتنوعة قياسا بباقي العاملين. كذلك أظهرت الدراسة تأثير بعض المتغيرات الديموجرافية على مستوى الانتماء التنظيمي. فتذكر كانتر ان الترفيع الوظيفي يرتبط بطول فترة ممارسة العمل الحالي، واستعداد الفرد لمواجهة التحديات، وطموحاته نحو زيادة مهاراته المكتسبة ومكاسبه المادية وغير المادية. وأن الطموحات وتوقعات الافراد ازاء فرص الترفيع الوظيفي، ترتبطان بقوة بعدد من المتغيرات الديموجرافية مثل السن وطول مدة العمل بالشركة والنوع(٢١).

ويقتضي هدف الدراسة الراهنة أن نعرض لنتائج بعض الدراسات الميدانية التي تركز على علاقة الانتماء التنظيمي بالمتغيرات الديموجرافية، وذلك لسببين أولهما: محاولة استخلاص بعض الفروض البحثية الملائمة لخصائص مجتمع البحث الحالي. وثانيهما الوقوف على مدى التأثير النسبي لكل من المتغيرات الديموجرافية والمتغيرات التنظيمية على الانتماء التنظيمي.

يصنف كل من انجل Angle (١٩٨٣)، وموتاز Mattaz (١٩٨٦)، المتغيرات المؤثرة على الانتماء التنظيمي الى نوعين أساسيين هما: المتغيرات الديموجرافية والمتغيرات التنظيمية، وتشتمل المتغيرات الديموجرافية على متغيرات المكانة مثل السن، مدة العمل داخل التنظيم الرسمي بالسنوات، التعليم، النوع فضلا عن محددات شخصية اخرى مثل قيم العمل، التوقعات الذاتية.. الخ. وتشير المتغيرات التنظيمية الى خبرات العمل التي تشتمل على متغيرات مثل خصائص المهمة التنظيمية، والأجر، فرص الحراك الوظيفي، الاندماجية الاجتماعية.. الخ(٢٢).

وعندما نتفحص تراث الانتماء التنظيمي، يتضح أن كثيرا من الدراسات الميدانية التي تتناول هذا الموضوع، تركز على المحددات الاساسية له بنوعيها والتي أشرنا اليها توا. كذلك رغم الاتفاق بين نتائج تلك الدراسات، على وجود تأثير واضح لكل من المتغيرات الديموجرافية والمتغيرات التنظيمية على الانتماء التنظيمي. إلا أننا لانجد ثمة إتفاق بين تلك النتائج حول مدى التأثير النسبي لنوعي المتغيرات على الانتماء التنظيمي، فبينما تبين بعض نتائج الدراسات الميدانية مثل التي قام بها كل من ستيرز Steers (١٩٧٧)، انجل Angle (١٩٨٣)، شتراسر Strasser (١٩٨٤)، ريشرز Reichers (١٩٨٥) ان المتغيرات التنظيمية اكثر تأثيرا على الانتماء التنظيمي من المتغيرات الديموجرافية، نجد أن نتائج مجموعة اخرى من الدراسات الميدانية تظهر العكس. حيث يكون تأثير المتغيرات الديموجرافية على الانتماء التنظيمي أقوى من تأثير المتغيرات التنظيمية عليه (مثل دراسات كوش، وستيرز Kosh & Steers (١٩٧٨). هذا بالاضافة الى مجموعتين اخريتين من الدراسات تظهر نتائجها تناقضات واضحة حول التأثير النسبي لنوعي المتغيرات على الانتماء التنظيمي. حيث تكشف نتائج المجموعة الاولى من الدراسات الميدانية مثل التي قام بها ريتزر، وترايس Ritzer & Trice (١٩٦٩)، أرانيا وجاكبسون A ranya & Jacobson (١٩٧٥)، بـاتمان، ستراسر Betman & Strasser (١٩٨٤)، ان المتغيرات الديموجرافية ليس لها تأثير واضح على الانتماء التنظيمي. أما المجموعة الثانية من الدراسات الميدانية مثل التي قام بها كمن بوشانان (١٩٧٤)، بريف وألداج Brief & Agdag (١٩٨٠)، أن تأثير كل من المتغيرات الديموجرافية والمتغيرات التنظيمية يكون متساويا على الانتماء التنظيمي. (٢٣)

تحديد مفهوم الإنتماء التنظيمي:

تتعدد وتتباين مفهومات الانتماء التنظيمي عند علماء العلوم الاجتماعية. ولقد كان لعلماء السلوك قصب السبق في تقديم عدد من التعريفات لمفهوم الانتماء التنظيمي لاتزال موضع إهتمام علماء اجتماع العمل والبنائية المحدثة مثل

وتقـوم تعريفـات مفهـوم الانتماء التنظيمي عنـد علماء السلـوك على فرضيـة أساسية مفادها أن سلوك الفرد داخل التنظيم الرسمي قد يتخطى حيز التوقعات المعياريـة من جانب هـذا التنظيم . وإن السلوك التنظيمي تم تهيأة الفـرد لممارسته بشكـل مسبـق وبالكيفية التي تحقق له ارتباطه القوي والمستمر بأهداف التنظيم . وتبدو أهمية تلك الفرضية في أن الكثير من المناقشات العلمية حول مفهوم الانتماء التنظيمي قد انطلقت من مضمـونها . فمثلا يستخلص ألوتـو وهريبنك من تلك الفرضيـة ، أن المشاركة التنظيمية قـد يتم التخطيط لها وتقدير تكلفتهـا وحساب عائدها بشكل مسبق من قبل الافراد .

ويعرف بوشـانان Buchanan (١٩٧٤)، الانتماء التنظيمي بأنه ارتبـاط فعال بين الافراد وتنظيم بعينه . ويقوم هـذا الارتباط على ولاء الأفراد للتنظيم وتطابق أهدافهم مع أهدافه . ومن المنظور السلوكي ، يحدد بوشانان ثلاثة عناصر أساسية للانتماء التنظيمي هي التوحد، والاندماجية في العمل، والولاء للتنظيم .

ويستعين البحث الحالي في تحديـده لمفهوم الانتماء التنظيمي بتعريـف مودواى وآخـرين (١٩٨٢) ، حيث يعـرف الانتماء التنظيمي بقـدرة الفرد على التـوحـد والاندماجية مع التنظيم الرسمي الذي يعمل بداخله(٢٤) .

التعريف الاجرائي للانتماء التنظيمي :

لما كـان تراث العلـوم الاجتماعية يتضمن من التعـريفات الاجـرائية لـلانتماء التنظيمي ما يصعب حصره او تصنيفه ، هذا فضلا عن عدم وجود تعريف شامل له . لذا سوف نقصر المناقشة على التعريفات الاجرائية الاتجاهية التي ينطلق منها التعريف الاجرائي للدراسة الراهنة .

منهجياً ، تقوم التعـريفات الاجرائية الإتجاهيـة للانتماء التنظيمي ، على قياس إتجاهات الافراد نحو التنظيم الرسمي . ويهتم الكثيرون من علماء الإجتماع أمثال ريتشـارد هال وآخـرين .R. Hall et al (١٩٧٠)، شيلدون Sheldon (١٩٧١) وعلماء الاقتصـاد مثل مـارش وسيمـون (March and Simon) (١٩٥٨) . بهذا النمط الاتجاهي لـلانتماء التنظيمي اذ يـرى كل من شيلـدون وهـال ان الانتماء الاتجاهي attitudinal Commitment يحدث عنـدمـا تـرتبط شخصيـة الفـرد بالتنظيم الرسمي أو عندما تتكامل الاهداف التنظيمية مع أهدافه . ويمثل الانتماء التنظيمي الإتجاهي حالة التعرف على شخصيـة الفرد من خلال دراسة خصائص تنظيم رسمي بعينه ، وأهـدافه النـوعية ومدى تـوافقها مع المتطلبـات الشخصية للافراد ورغبتهم في استمرار عضويتهم العاملة داخل التنظيم الرسمي .

يرى كل من مارش وسيمون أن الانتماء التنظيمي ينطوي على علاقة تبادلية تقوم على ارتباط الافراد بالتنظيم الرسمي مقابل ما يقدمه الأخير لهؤلاء من مكاسب وحوافز ورواتب سنوية(٢٥).

يعرف بورتر وسميث Porter & Smith (١٩٧٠) الانتماء التنظيمي بمدى قوة الشخصية وقدرتها على الاندماجية في العمل داخل تنظيم بعينه. وانه يمكن قياس الانتماء التنظيمي اتجاهيا بثلاثة أبعاد هي الاعتقاد القوي بقيم وأهداف التنظيم مع قبولها، والاستعداد لبذل الجهد الفعال لمصلحة التنظيم وايضا الرغبة القوية من جانب الفرد للاستمرار في العمل داخل التنظيم الرسمي(٢٦).

وفي البحث الراهن، يقاس الانتماء التنظيمي باستخدام المقياس الإتجاهي عند بورتر وآخرين (١٩٧٤) من خلال الابعاد الثلاثة الآتية:

١ — التكامل بين أهداف وقيم كل من الفرد والتنظيم.

٢ — بذل قصارى الجهد من قبل الفرد لتحقيق أهداف التنظيم.

٣ — إصرار الفرد على استمرارية عضويته بالتنظيم الرسمي.

فروض الدراسة:

١ — توجد فروق ذات دلالة احصائية في مستوى الانتماء التنظيمي بين العمالة القطرية والعمالة الوافدة.

٢ — توجد علاقة طردية ذات دلالة احصائية بين السن والانتماء التنظيمي.

٣ — توجد علاقة عكسية ذات دلالة احصائية بين المستوى التعليمي ودرجة الانتماء التنظيمي.

٤ — توجد علاقة طردية ذات دلالة احصائية بين مدة الخدمة في التنظيم الحالي ودرجة الانتماء التنظيمي.

٥ — توجد علاقة طردية ذات دلالة احصائية بين الحالة الزواجية والانتماء التنظيمي.

٦ — توجد علاقة طردية ذات دلالة احصائية بين المستوى الاداري داخل (الهيراركية) التنظيمية والانتماء التنظيمي، بمعنى ان يتمتع المديرون بانتمائية عالية قياسا بغيرهم من الفئات الأخرى داخل التنظيم.

٧ — توجد فروق ذات دلالة احصائية في مستوى الانتماء التنظيمي بين

العاملين بالصناعة التحويلية والعاملين بالقطاع الخدمي .

أدوات جمع البيانات :

١ — مقابلات حرة مع بعض الشخصيات الادارية المسئولة في الإدارة العليا للحصول على البيانات الأولية المتعلقة بالعمل والعمالة داخل كل تنظيم على حده بما يخدم أهداف الدراسة .

٢ — الاعتماد على الوثائق والمصادر الاحصائية التي تصدر عن التنظيمات الصناعية والجهاز المركزي للاحصاء بدولة قطر .

٣ — الاستبانة : استخدمت الدراسة الراهنة الاستبانة كأداة ملائمة لجمع البيانات الميدانية للاعتبارات المنهجية والاحصائية التالية :

(أ) كون البيانات الميدانية المراد جمعها بيانات ديموجرافية وإتجاهية .

(ب) إحصائياً يتطلب اختبار فروض الدراسة ان يكون حجم العينة البحثية كبيراً نسبياً .

(جـ) لايتيح نظام العمل داخل التنظيمات الصناعية العاملة في مدينة أمسيعيد إجراء مقابلات متكررة مع العاملين في مواقع العمل المتباينة نظرا لتطبيق نظام الورديات المتصلة (٢٤ ساعة عمل يوميا) ، فضلا عن طبيعة أداء العملية الانتاجية ذاتها .

وتنقسم الاستبانة الى ثلاثة أقسام رئيسية تخدم أهداف الدراسة :

القسم الاول : ويختص بالمتغيرات الديموجرافية التي تشتمل على النوع ، السن ، الجنسية الحالة التعليمية ، الحالة الاجتماعية ، الاقدمية ، والكادر الوظيفي . ومما يجدر الاشارة اليه ان متغير «الدخل» تم استبعاده من المتغيرات الديموجرافية في الاستبانة تلبية لرغبة بعض المديرين في الصناعة التحويلية وذلك أثناء مرحلة الاختبار الاولى للاستبانة . ويتألف القسم الاول في الاستبانة ، من اثني عشر سؤالاً .

القسم الثاني : ويختص برؤية العاملين للمكاسب التنظيمية . ويتألف هذا القسم من عشرة أسئلة تتعلق برؤية الافراد للمكاسب (الصريحة والضمنية) التي يجنيها الافراد من جراء عملهم داخل التنظيمات الرسمية . وتستخدم اجابات المبحوثين على أسئلة هذا القسم كمتغيرات تفسيرية لاستجاباتهم على عبارات مقياس الانتماء التنظيمي .

القسم الثالث : ويختص بمقياس الانتماء التنظيمي الذي يتضمن خمسة عشر عبارة تقيس الابعاد الثلاثة التي ذكرناها آنفاً في التعريف الاجرائي للانتماء التنظيمي (انظر ملحق رقم١) . ويتم الاجابة على عبارات المقياس الخمسة عشر باختيار المبحوث لاحدى الاجابات المناسبة على مقياس ليكرت Likert الخماسي ، الذي يبدأ «بالموافقة الشديدة» وينتهي بـ «المعارضة بشدة» .

صدق المقياس :

تأكد صدق مقياس الانتماء التنظيمي عند بورتر وآخرين (١٩٧٤) بعد تعريبه أولا وفقاً للصدق الظاهري ، حيث عرض المقياس على متخصصين في مجالي علم الاجتماع وعلم النفس بهدف استطلاع وجهة نظرهم حيال مدى ارتباط العبارات الخمسة عشر بالابعاد الثلاثة بوصفها عناصر مكونة لمقياس الانتماء التنظيمي .

ابتداء تم تطبيق المقياس على عينة صغيرة الحجم قوامها عشرين مفردة بقصد التعرف على جوانب الغموض ، بأن يبدي كل مبحوث ملاحظاته الخاصة من حيث وضوح الصياغة اللفظية والتركيب اللغوي لعبارات المقياس . وبناء على ذلك تم إجراء التعديلات المناسبة في بعض العبارات حتى أصبحت كما هي عليه الآن في المقياس الموضح بالملحق رقم (١) . بعد ذلك تم تطبيق المقياس للمرة الثانية على عينة الدراسة وقوامها ٢٢٤ مفردة . وتم استخراج معامل الارتباط لكل عبارة بالدرجة الكلية للمقياس . وتتراوح معاملات الصدق ما بين ٣١ , . ـ ٧٠ , . أما العبارة رقم (٧) في المقياس ونصها «أستطيع أن أعمل في مؤسسة اخرى طالما تتشابه ظروف العمل بها مع ظروف العمل للمؤسسة التي أعمل حاليا بها» فتم استبعادها لانخفاض قيمة معامل ارتباطها بالدرجة الكلية لمقياس الانتماء التنظيمي . وتم حساب الصدق الاحصائي باستخدام طريقة حساب الجذر التربيعي لمعامل الثبات للمقياس . وقد بلغ صدق المقياس (٨٨ , .) .

ثبات المقياس :

تم استخراج معامل ثبات المقياس باستخدام طريقتين :

الطريقة الأولى : باستخدام معامل التجزئة النصفي . تم تقسيم عبارات المقياس الى مجموعتين بحيث تشتمل المجموعة الاولى منها على العبارات ذات الأرقام الفردية ، بينما تشتمل المجموعة الثانية على العبارات ذات الارقام الزوجية في مقياس الانتماء التنظيمي . وقد بلغ معامل ثبات نصف

المقياس(٥٣, .)، وبلغ معامل ثبات المقياس(٦٩, .) باستخدام معادلة سبيرمان وبراون لتصحيح معامل ثبات نصفي للمقياس.

الطريقة الثانية: استخدام طريقة الاتساق الداخلي حيث بلغ معامل الثبات Alpha (٧٧, .).

وجدير بالذكر أن جميع معاملات الصدق والثبات تم حسابها باستخدام الحزم الاحصائية للعلوم الاجتماعية (SPSS).

مجتمع البحث:

يتألف مجتمع البحث من خمس تنظيمات رسمية مركبة تمثل الشركات الصناعية العاملة في مجال الصناعة التحويلية الثقيلة. وتتمركز تلك الشركات في المنطقة الصناعية لمدينة أمسيعيد والتي تبعد حوالي ٤٥ كيلومتراً جنوب مدينة الدوحة.

ويبلغ اجمالي العمالة في الشركات الصناعية الخمس ٣٢١١ مشتغلا ينتمون لجنسيات قطرية وغير قطرية. وتتصف تلك العمالة بالمهارة التخصصية التي تقوم على التدريب التقني وعلى أسس علمية مدروسة. ولذا نجد أن جميع العاملين حاصلون على مؤهلات علمية متنوعة.

وتتباين الاوضاع الوظيفية للعاملين داخل البنية التنظيمية لكل شركة من الشركات الخمس تبعاً لمستويين أساسيين هما الكادر الوظيفي العالي Senior Staff الذي يشكل نسبة (١٣٪) تقريبا من إجمالي العاملين في مجتمع البحث. والكادر الوظيفي المتوسط Intermediate Staff . ويضم باقي العاملين الذين تبلغ نسبتهم (٨٧٪) من اجمالي العاملين في الشركات الخمس.

ويوضح الجدول رقم (١) أسماء الشركات الخمس وتوزيع العاملين بها وفقا للجنسية (قطري ووافد). وتبلغ نسبة القطريين (٣٦, ٢١٪) من إجمالي العمالة في الشركات الخمس.

جدور رقم (١)

توزيع العمالة والعينة البحثية في الشركات الصناعية الخمس وفقا للجنسية

العمالة وفقاً للجنسية / بيان بالشركات الصناعية	قطـري		وافـد		إجمالي العمالة		حجم العينة البحثيـة	
	ك	٪	ك	٪	ك	٪	ك	٪
شركة قطر للبترو كيماويات المحدودة (قابكو)	١١٩	١٧,٣٥	٤٩٠	١٩,٤١	٦٠٩	١٨,٩٧	٣٤	١٩,٨٨
شركة صناعة الأسمـدة الكيماوية (قافكو)	١٨٩	٢٧,٥٥	٦٤٤	٢٥,٥٠	٨٣٣	٢٥,٩٤	٤٠	٢٣,٢٩
شركة صناعة الحديـد والصلب (قاسكو)	١٦١	٢٣,٤٦	٨٩٩	٣٥,٦٠	١٠٦٠	٣٣,٠١	٥٥	٣٢,١٦
شركة البترول الـوطنية للتوزيع (نـودكو)	٢١٣	٣١,٠٤	٣٩١	١٥,٤٩	٦٠٤	١٨,٨١	٣١	١٨,١٣
شركة مطـاحن الدقيق القطريـة (قفمكو)	٤	٠,٥٠	١٠٠	٣,٩٦	١٠٥	٣,٢٧	١١	٦,٤٣
الاجمـــــالـــــي	٦٨٦	٢١,٣٦	٢٥٢٥	٧٨,٦٤	٣٢١١	١٠٠,٠٠	١٧١	١٠٠,٠٠

المصـدر : التقارير الاحصـائية التي تصـدر عن الشـركات أثناء إجراء البحـث .

العـينة البحثـية :

لو أخذنا بطرف المناقشة النظـرية التي عرضنا لها باديء ذي بدء والتي تختص بالمتغيرات التنظيميـة المؤثرة على درجة الانتماء التنظيمي ، نجد أن تلك الـدرجة تتبـاين من مستـوى تنظيمي الى آخـر داخل (الهيراركيـة) للتنظيمات الـرسمية المركبـة . ولما كـان مجتمع البحـث يتألف من تنظيمات رسميـة مماثلـة تتصف بمستويات تنظيمية تنـدرج ضمن فئتين إداريتين أساسيتين هما فئة كبار الموظفين وفئة الموظفين المتـوسطين ، فاننا نفترض تبـاين درجة الانتماء التنظيمي للفئتين . لذا وقع اختيـارنا لعينـة طبقية نسبيـة على أساس معيـار المستوى الاداري داخل مجتمع البحث ، مـن ثم تضم العينـة مفـردات تمثل كبـار الموظفين والموظفين المتـوسطين بنفـس نسبـة تمثيلها في المجتمع الأصلي تقـريبـا . حيث يبلـغ عـدد مفردات الفئـة الاولى ٢٥مفردة مقـابل ١٤٦ مفردة من الفئـة الثانيـة ، ومما يجدر التأكيد عليـه عند اختيـار العينة البحثيـة ، أن تتضمن وزناً نسبيـاً أكبر للقطريين نظرا لانخفاض نسبتهم داخل المجتمع الاصلي . فبينما تبلغ نسبتهم (٣٦, ٢١٪)

من العمالة في المجتمع الاصلي، تبلغ نسبتهم (٢٧,٤٩٪) من اجمالي أفراد العينة. ومن ثم يبلغ اجمالي العينة من القطاع الصناعي (١٧١) مفردة.

وفيما يتصل بتباين الجنسية لأفراد العينة، فانها تتضمن عمالة قطرية قوامها ٤٧ قطري مقابل ٧٨ عربي، ٤٦ أجنبي.

بالاضافة للعينة الاساسية للدراسة، تم اختيار عينة عمديه صغيرة الحجم نسبيا قوامها ٥٣ مفردة من عمالة القطاع الخدمي(*) لمدينة أمسيعيد وذلك بهدف المقارنة. ومن ثم يبلغ إجمالي العينة الكلية للدراسة الراهنة ٢٢٤ مفردة. ولقد تم جمع البيانات خلال فصلي خريف ١٩٩٠ وربيع ١٩٩١.

الخصائص الديموجرافية للعينة :

١ — السن :

يبلغ متوسط العمر داخل العينة القطرية ٣١,٤ سنة والانحراف الربيعي ٤,٤٦ سنة. وقد تركز اكثر من نصف هذه العينة في الفئة العمرية (٣٠ـ ٤٠) بنسبة (٥٨,٥٧٪). أما بالنسبة للعمالة العربية والاجنبية فقد بلغ متوسط العمر ٣٦,٩ سنة، ٤١ سنة لكل منهما على التوالي. وبلغ الانحراف الربيعي ٧,٧ سنة، ٤,٨٩ سنة على التوالي. وتركزت معظم مفردات العينتين في فئتي العمر (٣٠ ـــ ٤٠)، (٤٠ ـــ ٥٠) حيث بلغت النسب في هاتين الفئتين مجتمعة (٨٢,٧٠٪) بالنسبة للعينة العربية، (٧٨,٠٪) بالنسبة للعينة الأجنبية. أما بالنسبة للفئة العمرية (٥٠ ـــ ٦٠)، فقد خلت من حالات قطرية، بينما اقتصرت على الحالات غير القطرية. حيث ضمت العينة الأجنبية (١٢٪) مقابل (٩٦,..٪) داخل العمالة العربية. وكما يتضح من بيانات جدول رقم(٢)، تكشف قيمة (كا^{٢}) والتي تبلغ ٦٣,٩٠ عن وجود فروق ذات دلالة احصائية في متغير السن بين العينات الثلاث عند مستوى دلالة (٠,٠٠١).

* يتألف القطاع الخدمي الرسمي الذي سحبت منه العينة من مدرستين للمرحلة الابتدائية والاعدادية، إحداهما للبنات والأخرى للبنين، مكتب بريد، بنك مصرفي، مخفر شرطة، مركز إطفاء، وحدة حمايةالبيئة، بلدية أمسيعيد، ونادي اجتماعي، وجميع هذه المؤسسات عاملة في مدينة أمسيعيد.

٢ — النــوع :

يتضح من الجدول رقم (٣) ان صفة الذكـورة تغلب على أفراد العينة ، وذلك لأن غالبية المفردات تم سحبها من العاملين في مجال الصناعات التحويلية . حيث تنخفض بشكل لافت للنظر نسبـة المشتغلات ضمن العمالة الكليـة . وهن جميعا غير قطريات ، فالعمالة القطرية جميعها من الذكور في مجال الصناعات التحويلية . اما العمالـة القطرية النسائيـة فتتركز في القطاع الخدمي بنسبـة (١٠٠٪) في المجال التعليمي . بيد أن أفراد عينة الدراسة من الإناث في العمالة العربية يتركز معظمها داخل المجال الصنـاعي حيث يقمن بأعمال السكرتـارية وشؤون الأفـراد مع قلة منهن يعملن في المجــال التعليمي . وتبلغ نسبتهـن من إجمالي العمالـــة العـربيـــة (٦٢ , ٩٪) ، وعلى صعيد آخر تخلو العمالة الأجنبية من العمالة النسائية .

٣ — الحـالة الزواجيــة :

يتضح من جـدول رقـم (٢) ان المتـزوجين هي الفئـة المتواليـة داخل العينـات الثلاث . ولاتوجد فروق ذات دلالة إحصائية بين تلك العينات فيما يتعلق بالحالة الـزواجيـة . حيـث تبلغ نسبـة المتـزوجين (٦٥ , ٨٣٪) داخل العمالـــة العـربيـة وتتسـاوى تقريبـا نسبتهـم داخل العينتين القطـرية والاجنبيـة فتبلغ (٩٠٪) لكل منهما بينما نسبـة المتـزوجين تصل على مستوى العينـة الكليـة إلى (٥٠ , ٨٧٪) من اجمالي أفراد تلك العينة .

٤ — الحالـة التعليمـية :

فيما يتعلق بالمستوى التعليمي لمفردات العينة ، يتضح من الجدول رقم (٢) أن قيمة كا٢ (١٣ , ١٦) ذات دلالة احصائية عند مستوى (٠١ , ٠) . ومن ثم توجد فروق بين جنسيـة واخرى فيما يتعلـق بالحالـة التعليمية لاسيما بين الحاصلين على مؤهلات جامعية وأعلى منهـا . اذ تصل نسبة الحاصلين على شهادات جامعية إلى (٥٨ , ٦٠٪) بين العــرب مقـابل (٥٦٪) تقــريبـا لكل من العمالـــة القطـريـــة والاجنبية . أيضا تبدو الفروق واضحـة فيما يتعلق بنسبة الحاصلين على مؤهلات

أعلى من الدرجة الجامعية الأولى لصالح العمالة الاجنبية حيث تركزت أعلى نسبة من هـؤلاء داخل العمالـة الأجنبيـة إذ تبلغ (٢٨٪) مقـابل (٢٩ , ١٣٪)، (٨٠ , ٤٪) بين القطريين والعرب على التوالي.

جدول رقم (٢)

الخصائص الديموجرافية للعينة وفقاً لمتغير الجنسية

المتغيرات	الجنسية								كا٢
	قطري		عربي		أجنبي		المجموع		
	ك	٪	ك	٪	ك	٪	ك	٪	
السن									
أقل من ٢٠ سنة	—	—	٢	(١,٩٢)	٠١	(٢,٠)	٣	(١,٣٤)	٦٣,٩٠
٢٠ـ	٢٧	(٣٨,٥٧)	١٥	(١٤,٤٢)	٣	(٦,٠)	٤٥	(٢٠,٠٩)	(دح = ١٠)
٣٠ـ	٤١	(٥٨,٥٧)	٤٩	(٤٧,١٢)	١٩	(٣٨,٠)	١٠٩	(٤٨,٦٦)	دالة عند مستوى
٤٠ـ	٢	(٢,٨٦)	٣٧	(٣٥,٥٨)	٢٠	(٤٠,٠)	٥٩	(٢٦,٣٤)	(٠,٠٠١)
٥٠ـ	—	—	١	(.,٩٦)	٦	(١٢,٠)	٧	(٣,١٣)	
٦٠ فأكثر	—	—	—	—	١	(٢,٠)	١	(٠,٤٤)	
المجمـوع	٧٠	(٣١,٣٠)	١٠٤	(٤٦,٤٠)	٥٠	(٢٢,٣)	٢٢٤	(١٠٠)	
النـوع									
ذكور	٦١	(٨٧,١٤)	٩٦	(٩٢,٣١)	٤٨	(٩٦,٠)	٢٠٥	(٩١,٥٠)	غير دال
اناث	٩	(١٢,٨٦)	٨	(٧,٦٩)	٢	(٤,٠)	١٩	(٨,٥٠)	
المجمـوع	٧٠	(٣١,٣٠)	١٠٤	(٤٦,٤٠)	٥٠	(٢٢,٣)	٢٢٤	(١٠٠)	
الحالة الزواجية									
متزوج	٦٣	(٩٠,٠)	٨٧	(٨٣,٦٥)	٤٥	(٩٠,٠)	١٩٥	(٨٧,٠٥)	غير دال
غير متزوج	٧	(١٠,:)	١٧	(١٦,٣٥)	٥	(١٠,٠)	٢٩	(١٢؛٩٥)	
المجمـوع	٧٠	(٣١,٣٠)	١٠٤	(٤٦,٤٠)	٥٠	(٢٢,٣)	٢٢٤	(١٠٠)	

(تابع) جدول رقم (٢)
الخصائص الديموجرافية للعينة وفقاً لمتغير الجنسية

المتغيرات	الجنسية								كا٢
	قطري		عربي		أجنبي		المجموع		
	ك	٪	ك	٪	ك	٪	ك	٪	
الحالة التعليمية									
ثانوية عامة	٣١	(٣٠,٠)	٣٦	(٣٤,٦٢)	١٣	(٢٦,٠)	٧٠	(٣١٩٣٠)	١٦,٣١ دح = ٤
شهادة جامعية	٣٩	(٥٥,٧١)	٦٣	(٦٠,٥٨)	٢٤	(٤٦,٠)	١٢٥	(٥٥,٨٠)	دالة على مستوى
اعلى من الشهادة الجامعية	١٠	(١٤,٢٩)	٥	(٤,٨٠)	١٤	(٢٨و٠)	٢٩	(١٢,٩٠)	(٠,٠١)
المجمــوع	٧٠	(٣١,٣٠)	١٠٤	(٤٦,٤٠)	٥٠	(٢٢,٣)	٢٢٤	(١٠٠)	
الكادر الوظيفي									
عالي	٤٣	(٦١,٤٣)	٤٠	(٣٨,٤٦)	١٢	(٢٤,٠)	٩٥	(٤٢,٤١)	١٧,٩٧ د.ج = ٢
متوسط	٢٧	(٣٨,٥٧)	٦٤	(٦١,٥٤)	٣٨	(٧٦,٠)	١٢٩	(٥٧,٥٩)	دال عند مستوى (٠,٠٠١)
المجمــوع	٧٠	(٣١,٣٠)	١٠٤	(٤٦,٤٠)	٥٠	(٢٢,٣)	٢٢٤	(١٠٠)	
مدة الخدمة بالتنظيم									
أقل من سنتين	١٤	(٢٠,٠)	٢٣	(٢٢,١١)	٦	(١٢,٠)	٤٣	(١٩,٢٠)	غير دال
٢ —	٦	(٨,٥٩)	٤	(٣,٨٥)	٢	(٤,٠)	١٢	(٥,٣٦)	
٤ —	١٠	(١٤,٢٩)	٧	(٦,٧٣)	٢	(٤,٠)	١٩	(٨,٤٨)	
٦ —	٤	(٥,٧٢)	١١	(١٠,٥٨)	٤	(٨,٠)	١٩	(٨,٤٨)	
٨ —	٨	(١١,٤٣)	١٤	(١٣,٤٦)	٦	(١٢,٠)	٢٨	(١٢,٥٠)	
١٠ فأكثر	٢٨	(٣٩,٩٧)	٤٥	(٤٣,٢٧)	٣٠	(٦٠,٠)	٣	(٤٥,٩٨)	
المجمــوع	٧٠	(٣١,٣٠)	١٠٤	(٤٦,٤٠)	٥٠	(٢٢,٣)	٢٢٤	(١٠٠)	

جدول رقم (٣)
توزيع أفراد العينة وفقاً للنوع والجنسية والنشاط الاقتصادي

الجنسية	قطريون			عرب			أجانب			الإجمالي		
النشاط الاقتصادي	ذكور	اناث	مجموع	ذكور	اناث	مجموع	ذكور	اناث	مجموع	ذكور	اناث	مجموع
صناعي	٤٧	—	٤٧	٧٠	٨	٧٨	٤٦	—	٤٦	١٦٣	٨	١٧١
خدمي	١٦	٧	٢٣	٢٦	—	٢٦	٤	—	٤	٤٦	٧	٥٣
المجمــوع	٦٣	٧	٧٠	٩٦	٨	١٠٤	٥٠	—	٥٠	٢٠٩	١٥	٢٢٤

ويمكن ان نخلص من البيانات الاحصائية للحالة التعليمية لأفراد العينة الى المؤشرات الهامة التالية :

(أ) لما كانت معظم مفردات عينة الدراسة الحالية تتركز في الصناعة التحويلية بالمجتمع القطري ، كانت الحاجة ماسة لمهارات علمية متخصصة لتواكب المستوى التقني العالي الذي يتصف به العمليات الانتاجية في الصناعات الثقيلة التي تعتمد على تكثيف رأس المال .

(ب) يمكن القول أن المؤشر السابق يفسر في الوقت ذاته ارتفاع نسبة الحاصلين على مؤهلات جامعية فأعلى قياسا بالحاصلين على مؤهلات علمية متوسطة داخل العينة البحثية والذين لاتتعدى نسبتهم (٣٠٪) من إجمالي العينة الكلية .

(جـ) إن الحاصلين على مؤهلات اعلى من الدرجة الجامعية الاولى (ماجستير ودكتوراه) داخل العينة القطرية يتركزون بنسبة (١٠٠٪) في قطاع الصناعة التحويلية .

٥ — الكادر الوظيفي :

فيما يختص بالكادر الوظيفي لأفراد العينة يبين الجدول رقم (٢) وجود فروق ذات دلالة احصائية عند مستوى (٠٠١ , ٠) بين العينات الثلاث ، حيث تبلغ قيمة كا^{٢} (٩٧ , ١٧٪) . وتحتل العمالة القطرية المرتبة الاولى من حيث شغل معظم أفرادها مناصب داخل الكادر الوظيفي العالي . حيث تبلغ نسبة هؤلاء (٤٣ , ٦١٪) من إجمالي العمالة القطرية . وفي المرتبة الثانية تأتي العمالة العربية حيث تبلغ النسبة المئوية للعرب المتقلدين لمناصب داخل الكادر الوظيفي العالي (١٦ , ٣٨٪) من جملة العرب في العينة . وتحتل العمالة الاجنبية المرتبة الثالثة في هذا الصدد إذ تبلغ نسبة المتقلدين لمناصب في الكادر الوظيفي العالي (٢٤٪) من إجمالي عينة الاجانب .

وعلى مستوى الكادر الوظيفي المتوسط يشير الجدول رقم (٢) الى وجود

فروق واضحة بين الجنسيات الثلاث الممثلة في العينة . فبينما تسجل العمالة الاجنبية اكبر نسبة مئوية (٠ , ٧٦٪) من مفرداتها ، نجد ان تلك النسبة تنخفض تباعا داخل العمالة العربية (٥١ , ٦١٪) وتحتل العمالة القطرية المرتبة الثالثة والاخيرة حيث تبلغ النسبة بين القطريين في العينة (٥٧ , ٣٨٪) .

٦ — مدة الخدمة بالتنظيم الحالي :

بلغ متوسط سنوات الخدمة داخل التنظيم الحالي بالنسبة للعينات الثلاث القطرية ، العربية ، والاجنبية ٢٥ ,٨ سنة ، ٩ سنوات ، ٣٣ , ١٠ سنة على التوالي . أما درجة تباين مدة الخدمة بالتنظيم الحالي باستخدام مقياس الانحراف الربيعي فبلغت ٧٩ , ٣ سنة بالنسبة للعمالة القطرية مقابل ٦٧ , ٣ سنة ، ٩٦ , ١ سنة بالنسبة للعينتين العربية والأجنبية على التوالي .

أيضا تكشف بيانات جدول رقم (٢) عن عدم وجود فروق ذات دلالة احصائية عند مستوى (٠٥ ,) فيما يتعلق بمدة الخدمة بالتنظيمات الحالية داخل العينات الثلاث .

خطة التحليل الاحصائي لنتائج الدراسة :

١ — لتحديد الابعاد التي يشتمل عليها مقياس الانتماء التنظيمي ، استخدم التحليل العاملي .

٢ — لدراسة الفروق في مستوى الانتماء (عالي ، متوسط ، منخفض) بين العمالة القطرية والوافدة برافديها العربي والاجنبي ، يتم الاستعانة بـ كا[٢] . وقد تم تقسيم درجات مقياس الانتماء التنظيمي والتي تتراوح بين ١٤ درجة الى ٧٠ درجة . الى ثلاث مستويات للانتماء التنظيمي على النحو التالي :

(أ) مستوى انتماء تنظيمي منخفض . ويتمثل هذا المستوى داخل فئة الحاصلين على درجات أقل من ٢٥ درجة على مقياس الانتماء التنظيمي .

(ب) مستوى متوسط من الانتماء التنظيمي ويتمثل داخل فئة الحاصلين على

درجات على المقياس الكلي تتراوح بين ٢٥ لأقل من ٥٠ درجة .

(جـ) مستوى مرتفع من الانتماء التنظيمي ويتمثل داخل فئة الحاصلين على درجات ٥٠ درجة فأكثر على المقياس .

٣ — تستخدم المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لعقد المقارنات بين الجنسيات الثلاث في درجة الانتماء التنظيمي سواء على مستوى المقياس ككل او على مستوى العبارات المكونة لأبعاده الثلاثة الأساسية .

٤ — لدراسة قوة تأثير المتغيرات الديموجرافية على الانتماء التنظيمي وأيضا الأهمية النسبية لهذه المتغيرات في قدرتها على تفسير الانتماء التنظيمي، تستعين الدراسة بالانحدار المتعدد للانتماء التنظيمي كمتغير معتمد على المتغيرات الديموجرافية . ويحقق الانحدار المتعدد الأهداف التالية :

(أ) تحديد الدور الذي يسهم به متغير معين من المتغيرات الديموجرافية في تفسير الانتماء التنظيمي مع التحكم في باقي المتغيرات الديموجرافية الاخرى كمتغيرات مستقلة .

(ب) وصف القوة النسبية للمتغيرات الديموجرافية وايضا الأهمية النسبية لتلك المتغيرات في تفسير الانتماء التنظيمي كمتغير معتمد وذلك بالاعتماد على قيمة معامل (بيتا) .

(جـ) وصف إتجاه العلاقات بين المتغيرات الديموجرافية والانتماء التنظيمي .

(د) تحديد مقدار التباين في الانتماء التنظيمي والمفسر بجميع المتغيرات الديموجرافية وذلك باستخدام قيمة (R^2) .

إختبار فروض الدراسة وتحليل النتائج

أولاً : الأوزان النسبية للأبعاد الثلاثة التي تقيس الانتماء التنظيمي :

يتضح من نتائج التحليل العاملي باستخدام مصفوفة إدارة المحاور Rotated Factor Matrix والمدونة في جدول رقم (٤) أن الانتماء التنظيمي في الدراسة

جدول رقم (٤)
التحليل العاملي لمقياس الانتماء التنظيمي باستخدام مصفوفة إدارة المحاور

م	العبارات	العامل الأول	العامل الثاني	العامل الثالث
١	أبذل مجهود كبير لنجاح هذه المؤسسة.	٠,٧٣	٠,٢٧	- ٠,١٣
٢	أتحدث عن هذه المؤسسة مع أصدقائي على أنها أعظم مؤسسة يمكن العمل بها.	٠,٣٨	٠,٥٨	٠,١٢
٣	أشعر بقدر كبير من الولاء تجاه هذه المؤسسة.	٠,٧١	٠,١٨	٠,١٢
٤	أقبل أي عمل أكلف به من قبل المؤسسة حتى أضمن إستمرارية عملي فيها.	٠,٠٨	٠,٧٥	٠,٠٠
٥	أرى أن قيمي تتفق مع قيم هذه المؤسسة.	٠,٣٤	٠,٥٨	٠,٠٥
٦	أشعر بالفخر بالانتماء والعمل في هذه المؤسسة وأنا جزء منها.	٠,٦٤	٠,٤٨	٠,٠٣
٧	أعطي هذه المؤسسة أحسن ما عندي في أسلوب أداء العمل.	٠,٦٥	٠,١٥	٠,٠٣
٨	أشعر برغبة شديدة في ترك عملي في هذه المؤسسة إذا طرأت بعض التغيرات على ظروفي الحالية.	٠,١٢	٠,٠٢	٠,٦٨
٩	لا أتطلع الى تحقيق مزيد من المكاسب من عملي الحالي.	٠,٠١	٠,٠٢	٠,٦٨
١٠	إن قراري بالعمل في هذه المؤسسة كان خاطئاً.	٠,٦١	٠,٠٥	٠,٣٩
١١	غالبا ما اجد صعوبة في الموافقة على سياسات المؤسسة تجاه الموضوعات الهامة التي ترتبط بعملها.	٠,٠٧	٠,١٢	٠,٦٠
١٢	إنني أهتم جدا بمصير هذه المؤسسة.	٠,٧٣	٠,٠٨	٠,٠١
١٣	أشعر بسعادة للعمل في هذه المؤسسة.	٠,٣٤	٠,٥١	٠,٢٠
١٤	يعتبر عملي في هذه المؤسسة أفضل فرصة عرضت عليّ.	٠,١٨	٠,٦٩	٠,٠٣

الراهنة يقاس من خلال ثلاث أبعاد أساسية هي على النحو التالي :

البعد الأول : هـو إتجاه الفرد نحو بـذل أقصى جهد ممكن من جـانبه لتحقيق أهداف التنظيم الذي يعمل به .

البعد الثاني : توافق أو تكامل قيم الفرد مع قيم التنظيم الذي يعمل به .

البعد الثـالث : إتجاه الفرد نحـو استمراريـة عضويتـه وعمله بـالتنظيم الذي يعمل به .

أيضا تكشف قيم المتـوسطات الحسابية لهذه الأبعـاد الثلاثة والعبارات الـدالة على كل بعـد على حـدة والمدونة في الجدول رقـم (٥) تباين الأهميـة النسبيـة لهذه الأبعاد من حيث توافرها في مقياس الانتماء التنظيمي . حيث يحتل البعدين الاول والثاني المرتبتين الاولى والثـانية على التـوالي ، أما بـالنسبة للبعـد الثالـث والذي يختص باتجاه الفـرد نحو الاستمـرار كعضو عامل في تنظيـم العمل فيحتل المرتبة الثالثة من حيث توافره في المقياس .

وتـرجع أسباب التفـاوت بين الابعاد الثـلاثـة من حيث توافـرها في مقيـاس الانتماء التنظيمي لمتغيرات مختلفة منهـا ما هو تنظيمي وديموجـرافي وثقافي . واذا قورنت نتـائج الدراسة الراهنة بـالنتائج التي كشفت عنها الدراسـة التي أجريت على الانتماء التنظيمي والرضا عن العمل للمرأة العاملة السعودية والتي قامت بها عـايدة خطـاب ، يتبين وجود اختـلاف واضح بينهما من حيث أسبقيـات توافـر الابعاد في مقيـاس الانتماء التنظيمي . فبينما يشغل البعد الثالث وهو رغبـة الفرد الاكيدة في استمرار عضويته بالتنظيم بالمرتبة الثالثة في دراستنا الراهنة ، يحتل هذا البعد المرتبـة الأولى في دراسة المرأة السعـودية . أيضـا بينما تبين نتائج دراستنـا الـراهنـة للبعـدين الاول والثـاني اكبر وزن نسبي للتـوافـر في مقيـاس الانتماء التنظيمي قيـاسـا بـالبعد الثـالث ، نجـد ان الـدراسـة التي اجـريت على المرأة السعودية قد تعطي أولوية للبعدين الثالث فالثاني .

أيضـا يتضح من قيم الـوسط الحسابي للعبـارات في الجدول رقم (٥) ارتفـاع مستوى الانتماء التنظيمي على مستـوى العينة البحثيـة الكلية، بينما نجد اختـلافا لكل بُعد من الابعاد الثلاثة داخل العينة تبعاً للجنسية وذلك باستثناء البعد الثاني حيث نجد أن قيم الوسط الحسـابي له بالنسبة للقطريين والعرب متقـاربة الى حد مـا . من جهـة اخـرى، تتراجع قيم الـوسط الحسـابي نسبيا لـلاجـانب في عينـة الدراسة بالنسبـة للبعدين الاول والثاني . اما بالنسبة للبعـد الثالث والذي يقيس إتجاه الفـرد نحـو الاستمـرار في عضـويـة التنظيم الحالي الـذي يعمل بـه فيتمثل بـدرجـة أكبر في العمالـة الاجنبيـة حيث بلغ المتـوسط الحسـابي ٣,٣٦، مقـابل ٣,٣٠، ٣,١٥ بالنسبـة للعمالة القطريـة والعربية على التـوالي ومن ثم نتوقع أن يكون الارتفـاع النسبي لمقياس الانتماء التنظيمي بقدر تـوافر الابعاد الثـلاثة بين أفراد العينـة وتبعا للجنسيـة متفاوتا وهـذا ما يـوضحه الجدول رقم (٦) . حيث تكشف بيانـات هذا الجدول ارتفاع مستوى الانتماء التنظيمي على مستـوى العينة الكلية من تباين في المتوسطات الحسـابية لجنسيات العمالة في العينة . حيث يكون مستـوى الانتماء التنظيمي اكثر ارتفـاعا بين العمالـة العربيـة بينما ينخفض بشكل ملحوظ للعمالة الاجنبية قياسا بالعمالة القطرية .

ثانياً : مستوى الانتماء التنظيمي عند العمالة القطرية والعربية والأجنبية :

انطـلاقـا من فـرضيـة تصنيـف الانتماء التنظيمي لـدى المبحـوثين الى ثـلاثـة مستويـات منخفض، متوسط، ومرتفع وفـق حدود افتراضية من البـاحثة لكل مستوى تعكسه تكرارات استجابات العينة البحثية، يتضح من الجدول رقم (٧) ما يلي :

١ — باستثناء حالة واحدة ضمن أفـراد العينة القطرية، لم تعكس استجابات المبحوثين مع اختلاف جنسياتهم مستوى انتماء تنظيمي منخفض . هذا بالإضافة الى أن مستوى الانتماء المتوسط كانت تمثله نسبة مئـوية صغيرة تكاد تكون متقاربة بين العمالة القطرية والعربية، الا أنها كانت عالية بين العمالة الاجنبية داخل العينة

جدول رقم (٥)(*)
الأوزان النسبية للأبعاد الثلاثة المكونة لمقياس الانتماء التنظيمي

أبعاد الانتماء التنظيمي	أرقام العبارات في المقياس	قطريون	عرب	أجانب
		المتوسط الحسابي	المتوسط الحسابي	المتوسط الحسابي
البعد الأول	١	٤,٧٤	٤,٧٠	٤,٤٦
	٣	٦,٦٠	٤,٥٢	٤٩٣٤
إتجاه الفرد نحو بذل أقصى جهد ممكن من جانبه لتحقيق أهداف التنظيم الذي يعمل به.	٦	٤,٦٦	٤,٣٦	٣,٨٦
	٧	٤,٥٤	٤,٧٧	٣,٧٠
	١٠	٤,١٧	٤,١٤	٣,١٦
	١٢	٤,١٥	٤,٥١	٣,٤٢
المتوسط العام للبعد		٤,٨١	٤,٥٠	٣,٨٤
البعد الثاني	٢	٤,١٣	٣,٨٣	٣,٩٤
	٤	٣,٥٦	٣,٥٦	٣,٣٢
توافق أو تكامل قيم الفرد مع قيم التنظيم الذي يعمل به.	٥	٤,١٦	٤,٠٣	٣,٤٦
	١٣	٤,٤٣	٤,٢٧	٤,١٨
	١٤	٣,٦١	٣,٨٢	٣,٥٠
المتوسط العام للبعد		٣,٩٨	٣,٩٠	٣,٦٨
البعدالثالث				
إتجاه الفرد نحو استمرارية عضويته وعمله بالتنظيم الذي يعمل به	٨	٣,٣٠	٢,٩٩	٣,٠٨
	٩	٣,٣١	٣,٢٢	٣,٣٠
	١١	٣,٢٩	٣,٢٣	٤,٠٠
المتوسط العام للبعد		٣,٣٠	٣,١٥	٣,٤٦

(*) انظر ملحق رقم (٢).

البحثية، فبينما تكون النسبة المئوية للأفراد ذات مستوى الانتماء المتوسط (٢٠٪)، (١٢ , ٢٢٪) للقطريين والعرب على التوالي، تبلغ النسبة أقصاها بين أفراد العمالة الأجنبية إذ تصل الى (٤٠٪) من تلك العمالة. أيضا تكشف النتائج المدونة بالجدول رقم (٧) أن (٧٤٪) من إجمالي العينة الكلية يتصفون بمستوى انتماء تنظيمي مرتفع.

٢ — يتبين من الجدول رقم (٧) ، وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى (٠٥ , ٠) لمستوى الانتماء التنظيمي بين العينات الثلاث لصالح العينة القطرية . حيث تبلغ قيمة كا٢ (٩,٣٦)، (درجات حرية = ٤) . وتؤكد هذه النتيجة صحة الفرض الاول للدراسة .

جدول رقم (٦)
تباين مستوى الانتماء التنظيمي بين القطريين والعرب والاجانب في العينة البحثية

الجنسية	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
قطري	٧٠	٥٧,١٤	٧,٥٨
عربي	١٠٤	٥٥,٩٤	٧,٨٨
أجنبي	٥٠	٥١,٧٢	٦,٩٦

وإذا ما أردنا أن نفسر وجود الفروق في مستوى الانتماء التنظيمي المرتفع بين كل من العمالة القطرية والوافدة، فقد يبدو للوهلة الاولى أن المتغيرات المسببة للفروق تقع في بيئة العمل في المجال الصناعي نظرا لأن معظم مفردات العينة البحثية تم سحبها من هذا المجال . ولاختبار هذا الاحتمال، تم فحص مستويات الانتماء التنظيمي ، داخل القطاع الخدمي ، ويتبين من بيانات الجدول رقم (٨) عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في مستوى الانتماء التنظيمي بين العاملين في القطاعين الصناعي والخدمي عند مستوى معنوي (٠٥ ,) . من ثم تؤكد نتائج الدراسة عدم صحة الفرض السابع .

ومن ثم يكون تفسير وجود الفروق في مستوى الانتماء التنظيمي بين كل من العمالة القطرية والعمالة الوافدة، في ضوء المتغيرات التنظيمية والديموجرافية، والثقافية . وتركز الدراسة الراهنة على العلاقة الارتباطية بين المتغيرات الديموجرافية والانتماء التنظيمي وأيضا الأهمية النسبية لتلك المتغيرات في تفسير الانتماء التنظيمي وذلك من خلال الفروض الخمسة الأخرى .

ثالثاً : المتغيرات الديموجرافية والانتماء التنظيمي :

يتضمن الجدول رقم (٩) تباين قيم معامل (بيتا) للمتغيرات الديموجرافية الستة وذلك من الانحدار المتعدد للانتماء التنظيمي كمتغير معتمد على تلك

جدول رقم (٧)

مستويات الانتماء التنظيمي للعينة وفقاً للجنسية

الجنسية / مستويات الانتماء	قطري ٪	عربي ٪	أجنبي ٪	المجموع
منخفض	١ (١,٤٣)	— —	— —	١ (,٠٠٤)
متوسط	١٤ (٢٠)	٢٣ (٢٢,١٢)	٢٠ (٤٠)	٥٧ (٢٥,٤٤٦)
مرتفع	٥٥ (٧٨,٥٧)	٨١ (٧٧,٨٨)	(٣٠) (٦٠)	١٦٦ (٧٤,١٠٧)
المجموع	٧ (٣١,٢٥)	١٠٤ (٤٦,٤٣)	٥٠ (٢٢,٣٢)	٢٢٤ (١٠٠,٠)

كا٢ = ٩,٣٦   د.ح. = ٤   مستوى الدلالة ٠٥,

المتغيرات، ويتضح من قيم معامل (بيتا) ما يلي :

١ — باستثناء متغير النوع، توجد علاقة ارتباطية موجبة بين باقي المتغيرات الديموجرافية ـ قيد الدراسة ـ والانتماء التنظيمي. أما بالنسبة لمتغير النوع، فرغم قوة علاقته الارتباطية بالانتماء التنظيمي، قياسا بتأثير الحالة الزواجية على هذا الانتماء، إلا أن إتجاه تلك العلاقة سالباً.

جدول رقم (٨)

مستوى الانتماء التنظيمي داخل مجالي النشاط الصناعي والخدمي

مجالات النشاط / مستوى الانتماء	صناعي ٪	خدمي ٪
منخفض	— —	١ (٢,٠)
متوسط	٤٥ (٢٦,٣٢)	١٢ (٢٤)
مرتفع	١٢٦ (٧٣,٦٨)	٤٠ (٧٤)

جدول رقم (٩)
الانحدار المتعدد للانتماء التنظيمي على المتغيرات الديموجرافية للعينة البحثية

المتغيرات الديموجرافـــية	قيمة معامل بيتا
السن	٠,١٤٧ *
المستوى الاداري	٠,٠٢٦
التعليم	٠,١٣١ *
النوع	-٠,٠٣١
الحالة الزواجية	٠,٠٠٤
مدة الخدمة في التنظيم الحالي	٠,٠٣٤

ف = ١٨ , ٢ دالة عند مستوى دلالة (٠٥ ,)

(*) التأثير المباشر دال احصائيا عن مستوى (٠٥ ,)

وتتفق نتيجة الدراسة الحالية مع نتائج الدراسات الميدانية السابقة والتي أعطت علاقة ارتباطية موجبة بين الانتماء التنظيمي وكل من السن، التعليم، الحالة الزواجية، ومدة العمل بالتنظيم مثل دراسات الوتو وآخرين (١٩٧٣). كما تتفق نتائج الدراسة مع نتائج دراسة موتاز خلال مرحلة التحليل الاولى والتي درس خلالها علاقة الانتماء التنظيمي مع المتغيرات الديموجرافية وبعد استبعاد متغير قيم العمل. ولقد اختبر موتاز المتغيرات الديموجرافية التي تتناولها الدراسة الراهنة بالإضافة الى متغير الدخل الكلي للأسرة(٢٧).

من جهة أخرى، تناقض نتائج الدراسة ما أسفرت عنه نتائج بعض الدراسات الميدانية مثل دراسة يوتي وآخرين على العمالة الآسيوية في إحدى الشركات الامريكية متعددة الجنسيات في سنغافورة، إذ لم يكن للمتغيرات الديموجرافية الاربعة وهي : (السن، النوع، المستوى الوظيفي، والحالة الزواجية) علاقة مؤثرة على مستوى الانتماء التنظيمي للعمالة الآسيوية(٢٨).

٢ — أن تباين قيم معامل (بيتا) للمتغيرات الديموجرافية يشير الى وقوع تباين في قوة التأثير النسبي لتلك المتغيرات في علاقتها الارتباطية بالانتماء

التنظيمي . وكما يتبين من جدول رقم (٩) فإن قيمتي معامل (بيتا) لمتغيري السن (١٤٧ , ٠) ثم التعليم (١٣١ , ٠) يدلان على انهما اقوى المتغيرات الديموجرافية ارتباطا له دلالة احصائية بالانتماء التنظيمي . وفي الوقت ذاته تؤيد نتائج الدراسة الراهنة صحة الفرض الثاني حيث كشفت عن وجود علاقة ارتباطية موجبة ذات دلالة احصائية بين السن ومستوى الانتماء التنظيمي . الا أن نتائج الدراسة لم تؤيد صحة الفرض الثالث القائل بوجود علاقة عكسية بين المستوى التعليمي والانتماء التنظيمي .

أما بالنسبة للفروض الثلاثة الباقية والتي تفترض وجود علاقة طردية ذات دلالة إحصائية بين كل من مدة الخدمة في التنظيم الحالي ، الحالة الزواجية ، المستوى الإداري ، والانتماء التنظيمي ، يتضح من الجدول رقم (٩) وجود علاقات ارتباطية ضعيفة بين المتغيرات الثلاث والانتماء التنظيمي . أيضا يتبين من الجدول رقم (٩) أن قيم معامل (بيتا) للمتغيرات الثلاثة تعكس ترتيبها من حيث قوة التأثير النسبي الضعيف لها في مجال العلاقة الارتباطية بالانتماء التنظيمي . حيث يحتل متغير مدة الخدمة في التنظيم المرتبة الثالثة (٠٣٤ ,) ثم متغير المستوى الوظيفي (٠٢٦ ,) في المرتبة الرابعة ويحتل متغير الحالة الزواجية المرتبة الخامسة (٠٠٤ , ٠) من حيث قوة التأثير النسبي .

رابعاً : مناقشة فروض الدراسة :

برغم اللاتجانس الثقافي الواضح لأفراد عينة الدراسة ، فقد أظهرت النتائج ارتفاع مستوى الانتماء التنظيمي عند العاملين بالصناعة التحويلية ، وإن تفاوت مستوى هذا الانتماء بين العمالة القطرية والعمالة الوافدة . كذلك تظهر النتائج تباين تأثير المتغيرات الديموجرافية على الانتماء التنظيمي بين القطريين والوافدين ، كما يتضح ذلك من جدول رقم (١٠) . فعند القطريين يلعب متغير المستوى الإداري دورا هاما في مجال التأثير على الانتماء التنظيمي حيث بلغت قيمة (بيتا) ٢٥٦ , . بيد أن هذا المتغير يقل تأثيره كثيرا على الانتماء التنظيمي عند

العمالة الوافدة كما ان هذا التأثير في الإتجاه العكسي (قيمة بيتا - ٠٢٩ ,).

ويمكن تفسير ارتفاع مستوى الانتماء التنظيمي للقطريين في عينة الدراسة في ضوء بعض الافتراضات الأساسية للبنائية المحدثة. فنظرا لما تتيحه بناءات الفرصة والقوة للإدارة العليا من فرص الاختيار والهيبة والمكاسب المادية العالية، كان تطلع القطريين للترفيع الوظيفي عاملاً له التأثير النسبي الاكبر على انتمائهم التنظيمي. كما أن ارتفاع مستوى الإنتماء التنظيمي لديهم يرجع الى أن النسبة الأكبر منهم ضمن فئة كبار الموظفين، بيد ان بناءات الفرصة والقوة ذاتها لاتتيح فرص الاختيار والترفيع الوظيفي لغير القطريين في عينة البحث بنفس الدرجة التي تتيحها للقطريين. أيضا تتفق نتائج الدراسة الراهنة مع نتائج عدد من الدراسات السابقة والتي أشرنا اليها في الاطار النظري مثل دراسة بونجين (١٩٦٦)، ميلز (١٩٥٦) واوليفر (١٩٨٤).

جدول رقم (١٠)
الانحدار المتعدد للإنتماء التنظيمي على المتغيرات الديموجرافية للعينتين القطرية والوافدة

المتغيرات الديموجرافية	العينة القطرية *	العينة الوافدة **
	قيمة معامل «بيتا»	قيمة معامل «بيتا»
السن	,٠٣٤	,٠٩٥
المستوى الإداري	,٢٥٦	,٠٢٩-
التعليم	,٠٥٨	,١٨٠
النوع	,١٩٢-	,٠٦٩
الحالة الزواجية	,١١-	,٠٩٣
مدة الخدمة في التنظيم	,٠٠٨	,٠٦٨

* ف = ٣,٦٣٧ دالة عند مستوى دلالة (٠٥,)

** ف = ٢,٢٠٧ دالة عند مستوى دلالة (٠٥,)

وعلى صعيد آخر، إذا كان الانتماء التنظيمي للقطريين يتأثر كثيراً بمتغير الترفيع الوظيفي، وشغل وظائف ضمن الكادر الوظيفي العالي؛ فإن الانتماء التنظيمي للوافدين رغم ما يتصفون به من لاتجانس ثقافي، يتأثر كثيرا بمتغير

المكاسب المادية التي يجنيها هؤلاء من وراء عملهم الحالي في الصناعة التحويلية. وإن تلك المكاسب تفوق من حيث الكم ما قد يتحصل عليه الوافد لو التحق بتنظيمات حكومية أخرى. ومن ثم يمكن القول إن الانتماء التنظيمي يماثل الى حد بعيد ما أسماه كيدرون Kidron (١٩٧٨) الانتماء المحسوب Calculated Commitment (٢٩). فالعمالة الوافدة تسعى للمحافظة على عملها في الصناعات التحويلية لأنه يعتبر أفضل من غيره لما يدره على العاملين من أجور ورواتب عالية. كما يصدق على هؤلاء ما ذهب اليه بيكر (١٩٦٠) من أنهم يتشبثون بالعمل الراهن خشية وقوعهم في محظور غير معلوم مثل احتمالات عدم توفر عمل آخر افضل او حتى مماثل للعمل الحالي. وان هذا الشعور يزداد قوة بين المتزوجين ونسبتهم في عينة العمالة الوافدة عالية جدا.

أيضا يمكن تفسير ارتفاع مستوى الانتماء التنظيمي للعاملين في مجال الصناعة التحويلية من خلال خصوصية ثانية هي انخفاض متوسط فئة السن لمعظم العاملين. وانطلاقا من فكرة المحلية والعالمية عند الفن جولدنر، وروبرت ميرتون R. Merton . ولأن معظم أفراد عينة البحث تقع في الفئات العمرية الشبابية، يتوقع معه أن تتصف إتجاهاتهم بالمحلية ومن ثم يكونون اكثر انتمائية للتنظيم الرسمي.

وعلى مستوى العمالة القطرية، إذا اضفنا الى متغيري صغر السن، والمستوى الإداري، رؤية الفن جولدنر لعلاقة الانتماء التنظيمي بمستقبل العمل، يمكن ان نفسر ارتفاع مستوى الانتماء التنظيمي للقطريين نسبيا داخل العينة البحثية. إذ يرى جولدنر أن الكثيرين ممن يشغلون مناصب إدارية من فئات السن الشبابية، وعبر مساراتهم الوظيفية داخل التنظيم الرسمي الواحد، يكونون اكثر انتمائية للتنظيم من غيرهم. كما يكون مستوى هذا الانتماء أعلى بكثير من إنتماء هؤلاء المديرين الشبان لتنظيمات اخرى داخل المجتمع. وكما ازدادت سنوات عمل هؤلاء الافراد في الكادر الوظيفي العالي، يتزايد مستوى الانتماء التنظيمي عندهم، كما تتزايد المكاسب الصريحة والضمنية التي يحصلون عليها من التنظيم

الرسمي . هذا فضلا عما يتعلمونه من أساليب تختصر طرق الاداء في العمل مما يذلل الكثير من المشكلات المصاحبة لهذا العمل . وهذا من شأنه أن يجعلهم أكثر انتمائية للتنظيم(٣٠)

وعلى مستوى العمالة العربية ، يتبين أن مستوى الانتماء التنظيمي عندهم يقترب كثيرا من نظيره عند القطريين وذلك برغم ارتفاع متوسط العمر نسبيا للعمالة الاولى عن الثانية . فبالإضافة الى تفسيرنا السابق من خلال ما ناقشه كل من رايت Wright ، وهاملتون Hamilton حول العلاقة بين الانتماء التنظيمي والرضا عن العمل بمتغير السن فكبار السن تقل مطالبهم الشخصية كلما ازدادت مدة عملهم بالتنظيم الرسمي ، كما تتراجع أيضا القيم الاجتماعية التي كانوا يحملونها معهم وقت التحاقهم بالعمل داخل التنظيم ، ولتحل مكانها قيم التنظيم الرسمي . ومن ثم يصبح هؤلاء الافراد اكثر انتمائية ورغبة في البقاء للعمل داخل التنظيم الرسمي . (٣١)

وأيدت نتائج الدراسة الراهنة صحة الفرض الاول حيث أسفرت عن وجود فروق ذات دلالة إحصائية في مستوى الانتماء التنظيمي بين العمالة القطرية والعمالة الوافدة لصالح العمالة القطرية . كما يتضح ذلك من بيانات الجدول رقم (٦) ، إذ يبلغ المتوسط الحسابي لمستوى الانتماء التنظيمي عند القطريين (٥٧ , ١٤) مقابل (٩٤ , ٥٥) ، (٧٢ , ٥١) للعمالة العربية والأجنبية على التوالي .

أيضا تكشف نتائج الدراسة عن وجود علاقة ارتباطية بين المتغيرات الديموجرافية الستة وهي : (السن ، النوع ، الحالة التعليمية ، المستوى الإداري ، الحالة الزاوجية ، ومدة الخدمة داخل التنظيم الحالي) . والانتماء التنظيمي . إلا انه باستثناء متغيري السن والتعليم ، تكاد لاتوجد علاقة ارتباطية قوية ذات دلالة إحصائية بين المتغيرات الاخرى ومستوى الانتماء التنظيمي ، على مستوى العينة الكلية للدراسة الحالية .

وفيما يختص بالعلاقة الارتباطية الموجبة بين السن ومستوى الانتماء التنظيمي ،

تؤيد نتائج الـدراسة صحة الفرض الثاني . بيد أن النتائج لم تـؤيد الفرض الثالث بافتراض عـلاقة عكسية بين المستـوى التعليمي ومستوى الانتماء التنظيمي . وفي الوقت ذاتـه تتناقض تلك النتيجة مع نتائج عـدد من الدراسات الميدانيـة السابقة والتي اجـريـت على اختبـار العـلاقـة بين المستــوى التعليمي ومستـوى الانتماء التنظيمي مثل دراسات نك أوليفر ، وشو ميكر وآخرين(٣٢) . وكذلك تناقض بعض الآراء العلمية التي تذهـب للقول أن الانتماء التنظيمي يقل بين الأفراد كلما ازدادت مستوياتهم التعليمية ، اذ يكونون اكثر انتمائية للمهنة والجماعة المهنية .

وفي رأينا أن الاختلاف بين نتائج الـدراسة الراهنة والدراسات السـابقة حول علاقة المستوى التعليمي بمستوى الانتماء التنظيمي ، يمكن أن يفسر الى حد ما في ضوء خصوصية سوق العمل في المجتمع القطـري . فسياسات التعاقد مع العمالة الوافدة لاتـربط بين الترفيع الوظيفي والمستوى التعليمي بـرغم وجود مؤشرات تناقض ذلك خـاصة داخل العمالة القطريـة . ومن ثم لايصبح المستوى التعليمي وسيلة لتحقيق الطموحات الوظيفية وبلوغ أعلى المناصب الإدارية .

ولذا يمكن القول إن الـرؤية التنظيمية التقليديـة لبنية التنظيم الرسمي للعمل والتي نقسمها الى هيئة Staff وخطى Line وخصوصية الانتماء التنظيمي لكل من الفئتين لاتنطبق بشكل واضح على نمـط البنيـة التنظيميـة الحاليـة للصنـاعـة التحـويلية في المجتمع القطـري . حيث تتصف البنية التنظيميـة بعملية اكتسـاب الخصائص المهنيـة التخصصية Professionalization دون الالتزام بمستـويات وظيفيـة معقدة ومتـدرجـة . إذ تتـوافر الكـوادر العلميـة العـالية على المستـويين الاداريين داخل التنظيم الرسمي وهما الكادر الوظيفي المتوسط والكادر الوظيفي العـالي ، ومن ثم يمكن القـول إن عـلاقـة التعليم بـالانتماء التنظيمي تحافظ على توازنها داخل المستويين الإداريين .

أيضا لم تؤكـد نتائج الدراسة صحة الفرض السـابع ، والذي ينص على وجود فروق ذات دلالـة احصائية في درجـة الانتماء التنظيمي بين العاملين في الصنـاعة

التحويلية والعاملين في القطاع الخدمي.

وتعقيبا على ما سبق مناقشته، نرى أنه برغم التفسيرات السابقة التي أوردناها في متن مناقشة فروض الدراسة، لايزال السؤال الذي يفرض نفسه ويحتاج لدراسات مستقبلية هو الى اي مدى ستظل قوة التأثير النسبي للمتغيرات الديموجرافية على مستوى الانتماء التنظيمي للعاملين في مجال الصناعة التحويلية بالمجتمعات الخليجية، بعد إدخال متغيرات اخرى في تلك العلاقة مثل قيم العمل، المتغيرات التنظيمية والمكاسب الضمنية والصريحة التي يجنبها الافراد من جراء عملهم بالتنظيمات الرسمية.

ملحق رقم (١)

عبارات مقياس الانتماء التنظيمي

١ — أشعر بالرغبة في بذل مجهود كبير لنجاح هذه المؤسسة .
٢ — أتحدث عن هـذه المؤسسـة مع أصدقـائي على أنها أعظم مـؤسسـة يمكن العمل بها .
٣ — أشعر بقدر كبير من الولاء تجاه هذه المؤسسة .
٤ — أقبل أي عمل أكلف بـه من قبل المؤسسـة حتى أضمن استمراريـة عملي فيها .
٥ — أرى ان قيمي تتفق مع قيم هذه المؤسسة .
٦ — أشعر بالفخر بالانتماء والعمل في هذه المؤسسة وأنني جزء منها .
٧ — أستطيع أن أعمل في مـؤسسة أخـرى طالما تتشـابه ظـروف العمل بها مع ظروف العمل للمؤسسة التي أعمل حاليا بها(*) .
٨ — أعطي هذه المؤسسة أحسن ما عندي في أسلوب أداء العمل .
٩ — أشعـر برغبـة شـديدة في تـرك عملي في هـذه المؤسسة إذا طـرأت بعض التغيرات على ظروفي الحالية(*) .
١٠ — لا أتطلع إلى تحقيق مزيد من المكاسب من عملي الحالي(*) .
١١ — إن قراري بالعمل في هذه المؤسسة كان خاطئاً (*) .
١٢ — غالباً ما أجـد صعوبة في الموافقة على سياسات المؤسسـة تجاه الموضوعات الهامة التي ترتبط بعملها(*) .
١٣ — انني اهتم جداً بمصير هذه المؤسسة .
١٤ — أشعر بسعادة للعمل في هذه المؤسسة .
١٥ — يعتبر عملي في هذه المؤسسة أفضل فرصة عرضت عليَّ .

ملحق رقم (٢)
الأوزان النسبية لعبارات مقياس الانتماء التنظيمي وفقاً للجنسية

	الجنسية	قطريون		عرب		أجانب	
م	العبارات	الوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الوسط الحسابي	الانحراف المعياري
١	أشعر بالرغبة في بذل مجهود كبير لنجاح هذه المؤسسة .	٤,٧٤	٠,٥٦	٤,٧٠	٠,٥٧	٤,٤٦	٠,٧١
٢	أتحدث عن هذه المؤسسة مع أصدقائي على أنها أعظم مؤسسة يمكن العمل بها .	٤,١٣	١,٠٦	٣,٨٣	١,٢١	٣,٩٤	٠,٩١
٣	أشعر بقدر كبير من الولاء تجاه هذه المؤسسة .	٤,٦٠	٠,٩٦	٤,٥٢	٠,٧٩	٤,٣٤	٠,٨٢
٤	أقبل أي عمل أكلف به من قبل المؤسسة حتى أضمن استمرارية عملي بها .	٣,٦٩	١,٣٧	٣,٥٦	١,٤٥	٣,٣٢	١,٣٣
٥	أرى ان قيمي تتفق مع قيم هذه المؤسسة .	٤,١٦	٠,٩٤	٤,٠٣	١,٠٢	٣,٤٦	١,٠٣
٦	أشعر بالفخر بالانتماء والعمل في هذه المؤسسة وأنني جزء منها .	٤,٦٦	٠,٧٢	٤,٣٦	٠,٩٠	٣,٨٦	٠,٩٣
٧	أعطي هذه المؤسسة أحسن ما عندي في أسلوب أداء العمل .	٤,٥٤	٠,٨٩	٤,٧٧	٠,٥٤	٣,٧٠	٠,٩٩
٨	أشعر برغبة شديدة في ترك عملي في هذه المؤسسة إذا طرأت بعض التغيرات على ظروفي الحالية .	٣,٣٠	١,٣٢	٢,٩٩	١,٣٦	٣,٠٨	٠,٨٨
٩	لا أتطلع إلى تحقيق مزيد من المكاسب من عملي الحالي .	٣,٣١	١,٤٣	٣,٢٢	١,٥٠	٣,٣٠	١,١١
١٠	إن قراري بالعمل في هذه المؤسسة كان خاطئاً .	٤,١٧	١,١٦	٤,١٤	١,٣٢	٣,١٦	١,٠٦
١١	غالباً ما أجد صعوبة في الموافقة على سياسات المؤسسة تجاه الموضوعات الهامة التي ترتبط بعماله .	٣,٢٩ ٤,١٥	١,٣١ ٠,٧٩	٣,٢٣ ٤,٥١	١,٣٤ ٠,٧٢	٤,٠٠ ٣,٤٢	١,٢١ ١,٠٩
١٢	انني اهتم جداً بمصير هذه المؤسسة .						
١٣	أشعر بسعادة للعمل في هذه المؤسسة .	٤,٤٣	١٠٤	٤,٢٧	٠,٩٥	٤,١٨	٠,٨٧
١٤	يعتبر عملي في هذه المؤسسة أفضل فرصة عرضت عليّ .	٣,٦١	١,٤١	٣,٨٢	١,٣٤	٣,٥٠	١,٠٧

الهــوامــش

١ — يصنف سيلفرمان D. Silverman مداخل علم التنظيم الى خمسة مداخل نظرية هي (١) مداخل العلاقات الإنسانية ؛ (٢) مدخل علم النفس التنظيمي ؛ (٣) مدخل النسق الاجتماعي الفني ؛ (٤) مدخل نظرية صنع القرار ؛ (٥) المدخل البنائي الوظيفي .

انظر طلعت إبراهيم لطفي، المداخل النظرية في دراسة التنظيم : دراسة تحليلية نقدية، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الإجتماعية ، جامعة قطر، العدد الثامن ، ١٩٨٥ ، ص ٣٥٧.

2 - Lincoln, James R. and Arnel. Kalleberg, Orginaization and Workforce Commitment: A Study of Plants and Employees in The U.S and Japan. "American Sociological Review 50, December 1985, p. 752.

٣ — عايدة سيد خطاب «الانتماء التنظيمي والرضا عن العمل : دراسة ميدانية عن المرأة العاملة السعودية»، مجلة العلوم الادارية جامعة الملك سعود، العدد الثالث عشر (١) ، ١٩٨٨، ص ٢٤ .

4 - De Cootiis, Thomas and Summers, Timothy p., "A Path Analysis If A Model of The Antecedents and Consequesces If Organizational Commitment, "Human Relations 40 (No. 7), 1987, p. 445.

5 - Mottaz, Clifford J., :Determinats of Organizational Commitment "Human Relations 41, No. 6, p. 468.

6 - Ali, Abbas, "Decision Style and Work Satisfaction of Saudi Arabian Managers" Journal of South Asian and Middle Eastern Studies 12 wirter, 1988, p. 45.

7 - Jabbra, Joseph G. "Bureaucracy and Development in the Arab World" in K. Ishwaran (Ed.), International Studies in Sociology and Social Anthropology, Leiden, New York, 1989. p. 5.

8 - Ritzer, George. Contemporary Sociological Theory, Alfred A. Knopf, New York, 1983, pp. 239 - 252.

9 - Hall, Richard, Dimensions of Work, Sage Publications Beverly Hills, London, 1986, p. 102 ; Mottaz, C. J. op. cit., pp. 467 - 468; Hall, R. op. cit., p. 102.

10 - Mottaz, op. cit., p. 470

11 - Putti, Joseph M., Aryee, Samuel and Liang, Tan, "Work Values and Organizational Commitment: Astudy in the Asian Context"., Human Relations 42 (No. 3), 1989, p. 277.

12 - Lincoln, J. and A. Kalleberg, op. cit., pp. 120 - 140.

13 - Tausky, Curt, Work and Society: An Introduction to Industrial sociology, F. E. Peacock Publishers INC. Itasca: Illions, 1984, p. 85.

14 - Ibid., p. 86 and Kanter, R. M. Men and Women of The Corporation, Basic Books, Inc.

Publishers, New York, 1977, p. 245.

15 - Hall, Richard, Occupations and The Social Structure, 2nd. edition, prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs: New Jersey, 1975, p. 39

16 - Kanter, op, cit., p. 168.

17 - Hall, Occupations and The Social Structure, op, cit., p. 149; Oliver, Nick, "Work Rewards, Work Values, and Organizational Commitment in An Employee - Owned Firm: Evidence From The U.K' Human Relations 43 (No. 6) 1990, p. 515.

18 - Ibid., p. 517.

19 - Mottaz, op, cit., p. 470.

20 - Putti, Aryee and Liang, op. cit., p. 277; Kanter, op, cit, p, 143 and Oliver, op. cit., p. 516 and 517.

21 - Kanter, op. cit., p. 246.

22 - Mottaz., op, cit., p. 498.

23 - Ibid., p. 498 and 499.

24 - Aranya, Nissin and Kushnir, Talma Valency, Aharon, "Organizational Commitment in a Male- Dominated Profession", Human Relations 39 (No. 5), 1968, p. 434.

25 - Mowday, R. T. and Steers, R. M. "The Measurement of Organizational Commitment", Journal of Vocational Behaviour 14, 1979, p. 25 and 226.

26 - Putti, Aryee and Liang, op. cit., p. 276.

27 - Ibid., p. 279.

28 - Mottaz, op. cit., p. 478.

29 - Putti, Aryee and Liang, op. cit., p. 282.

30 - Ibid, p. 282.

31 - Ritzer and Walczak, op. cit., p. 177.

32 - Hall, op. cit., p. 101; and Oliver, op. cit., p. 522.

المراجـــع

أولاً : المراجع باللغة العربية :

١ — طلعت ابراهيم لطفي، «المداخل النظرية في دراسة التنظيم : دراسة تحليلة نقدية، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد الثامن ، ١٩٨٥، ص ص ٣٥٣ـ٣٧٨.

٢ — عايدة سيد خطاب. «الانتماء التنظيمي والرضا عن العمل : دراسة ميدانية عن المرأة العاملة السعودية»، مجلة العلوم الادارية، جامعة الملك سعود، العدد الثالث عشر ، ١٩٨٨، ص ص ٢٣ـ ٦٤.

ثانياً : المراجع باللغة الانجليزية :

1- Ali, Abbas, "Decision style and work satisfaction of Saudi Arabian Managers", Journal of South Asian and Middle Eastern Studies 12 winter 1988, pp. 45-55.

2- Aranya, Nissin, Talma Kushuin and Aharon Valency, organizational Commitment in a Male - Dominated Profession", Human Relations 39 (No. 5) 1968, pp. 433-448.

3- De Cootiis, Thomas and Timothy P. Summers, "A path Analysis of A Model of The Antecedents and Consequences of Organizational Commitments:, Human Relations 40 (No. 7) 1987. pp. 445 - 470.

4- Hall, Richard, Occupations and The Social Structure 2nd edition, Prentice - Hall Inc., Englewood Cliffs: New Jersey, 1975.

5 - __________, Dimensions of Work, Sage publications Beverly Hills, London, 1986.

6- Jabbra, Joseph, "Bureaucracy and Development in The Arab World" in K. Ishwaran (Ed.), International Studies in Sociology and Social Anthropology, Leiden, New York, 1989, pp. 1 - 11.

7- Kanter, R. Men and Women of The Corporation, Basic Books, Inc. Publishers, New York, 1977.

8- Lincoln, James and Kalleberg Arne, "Work Organization and Work force Commitment: A Study of Plants and Employees in The U. S. and Japan", American Sociological Review 50, December 1985, pp. 732-759.

9- Mottaz, Clifford, "Determinants of Organizational Commitment", Human Relations 41 (No. 6) 1988, pp. 467-482.

10- Mowday, R. and M. Steers, "The Measurement of Organizational Commitment", Journal of Vocational Behaviour 14, 1979, pp. 224 - 247.

11- Oliver, Nick, "Work Rewards, Work Values and Organizational Commitment in An Employee Owned Firm. Evidence from The U.K., Human Relations 43 (No. 6) 1990, pp. 513-520.

الأسرة القطبية بمنطقة جازان وعلاقاتهم الخارجية

(٨٠٣-٩٤٣هـ/ ١٤٠٠-١٥٣٧م)

الدكتور احمد بن عمر الزيلعي
استاذ مشارك - قسم الآثار والمتاحف
كلية الآداب - جامعة الملك سعود

خالد بن قطب وقيام الأسرة القطبية

شهد أوائل القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى قيام الأسرة القطبية في منطقة جازان بجنون غرب المملكة العربية السعودية حاليا[١] . وهي تنسب إلى الشريف قطب الدين، والد مؤسسها، خالد بن قطب الدين، أحد أحفاد الأشراف السليمانيين الأوائل، المعروفين بآل أبي الطيب داود الذين استوطنوا المخلاف السليماني منذ عهد مبكر، ثم حكموه منذ أواخر القرن الرابع الهجري/ أوائل القرن الحادي عشر للميلاد[٢] وكان خالد بن قطب الدين هذا أول من حكم منطقة جازان من أفراد أسرته التي تعاقبت بعده على حكم المنطقة حتى قضي عليها نهائيا على يد الشريف أبى نمي محمد بن بركات، أمير مكة المكرمة، في سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦ - ٧م، كما سيأتي. وكانت إمارة منطقة جازان أو المخلاف السليماني، قبل خالد بن قطب الدين في أسرة الأشراف الغوانم المعروفين بالشطوط، إلى أن انتقلت من آخرهم، ويدعى المقلم، إلى أسرة الأمير خالد المذكور[٣] .

غير أن المصادر الميسورة التى تورد هذه المعلومات، لم تتح لنا معرفة أسرة خالد ابن قطب اليدن، وهل هي غير أسرة الغوانم المذكورة آنفا؟ كما لم تحدد تاريخ انتقال الحكم إلى هذه الأسرة، ولا متى وصل خالد إلى منصب الأمارة؟ ويغلب على الظن أن أسرة الأمير خالد بن قطب الدين هي فرع أدنى من أسرة الغوانم

نفسها التى حكم أجدادها المخلاف منذ قيامهم فى أواخر القرن الرابع الهجري/ آخر القرن العاشر وأول القرن الحادي عشر للميلاد حتى وصول الأمير خالد إلى الحكم. واذا كان هناك انتقال في الحكم من أسرة الغوانم ال أسرة قطب الدين، كما يعتقد مؤرخوا المخف، وعليه بنو رأيهم، فربما يكون قريبا جدا ومحصورا بين أبناء الشريف قطب الدين، والأمير المقلم، آخر الأمراء الغوانم، لأن هؤلاء المؤرخين أنفسهم يوردون نسب الأمير خالد بن قطب الدين متصلا اتصالا وثيقا بسلسلة نسب الأشراف الغوانم، فهم يذكرون أن خالدا هو «خالد ابن قطب الدين بن محمد بن هاشم (جمال الدين) بن محمد بن هاشم (قاسم) بن غانم بن يحيى بن حمزه»[٤] . وهذه السلسلة من النسب هي سلسلة نسب الأمراء الغوانم الذين حكموا المخلاف السليماني أو منطقة جازان طوال القرون الأربعة الماضية التي أعقبت وفاة جدهم الأكبر غانم بن يحيى بن حمزة، مما لا يوحي بأن أسرة قطب الدين تختلف عن أسرة الغوانم السابقة لها[٥] . إذن، فما هو الفرق بين الأسرتين؟ وكيف أصبحت أسرة الأمير خالد تسمى بالأسرة القطبية، وليس باسم الغوانم؟ والواقع أن الفرق ربما يكمن ـ كما تقدم ـ في انتقال الحكم من المقلم إلى ابن عمه خالد وليس إلى أبنائه، إن كان له أبناء، إذ من المحتمل أن المقلم هو أخو قطب الدين، أو ابن عمه، أو حتى ابن عم الأمير خالد بن قطب الدين، وهو الأقرب إلى الصحة، لقصر الفترة بين قطب الدين وجده جمال الدين هاشم بن محمد، أمير جازان في عهد السلطان الملك الأشرف الرسولي (ت/ ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)، وتباعد الفترات التاريخية بين كل أمير وآخر في هذه السلسلة، إلا إذا أخذ في الاعتبار أن بضعة أفراد ممن سبق ذكرهم من أجداد هذه الأسرة، كانوا من المعمرين، وربما يشيع طول العمر بالوراثة بين بعض أحفادهم[٦] . وهكذا يعتقد أن منصب الإمارة انتقل من الأمير المقلم إلي الأمير خالد، لاحتمال أن الأول لم يخلف أولادا ذكورا، أو أنهم كانوا دون سن الرشد عند وفاته، وأن خالدا كان مؤهلا للإمارة أفضل من غيره من أفراد أسرتها، ناهيك عن أنه زوج ابنة المقلم الأمير السابق[٧] ، ومن أفضل بني سليمان في عهده جودا وكرما[٨] . أما كيف

سميت هـذه الأسرة باسـم الأسرة القطبية، أو آل قطب الـدين، ولم تسـم بأسرة الغـوانم، كما كـان عليـه الحال قبل الأمير خـالد، فـربما يعـود ذلك إلى أن جميع الأمراء الذيـن تعاقبوا على حكم منطقة جازان بعـد خالد بن قطب الديـن، كانوا مـن أبنائه وأحفـاده، هذا الى جـانب انتسـابهم إلى جدهـم الأقرب قـط الديـن، وشيوع هذه النسبـة لدى المؤرخين الذين تنـاولوا تاريخ هـذه الأسرة، والذين لا ينقصهم وجـود شواهد كثيرة مماثلـة من تاريخ الأشراف الحسنيين حـول انتساب بعـض أسرهم الحاكمـة إلى جد قـريب على الـرغم مـن التقائهـم مع الأسر التـي سبقتهم في الحكم، في جد واح بعيد نسبيا[٩] .

أما متى بدأ حكم الأسرة القطبية لمنطقة جازان على يد مؤسسها خالد بن قطب الدين، فهذا مـالا نعرفه على وجه التحديد، ولم تتح لنـا المصادر الميسورة، ولكن هناك إشارة مفيدة في هذه المصادر، تتعلق بمدة حكم تلك الأسرة التي تقدر بنحو مائة وأربعين سنة[١٠] . وقد تقدم أن الأسرة القطبية سقطت نهائيا على يد الشريف أبي نمي محمد بن بـركات في سنة ٩٤٣هـ / ١٥٣٦ ـ ٧م، فإذا طـرحت هذه المدة من تـاريخ سقوط الأسرة القطبيـة، فإن بداية تـأسيسها ربما تم في سنـة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠ ـ ١٤٠١م، وهو تاريخ وصول مؤسسهـا الأمير خالد بن قطب الدين إلى الحكم، وربما وفـاة ابن عمـه الأمير المقلم، آخـر من يسميهـم مؤرخـو المخلاف السليماني بالأمراء الغوانم، المعروفين بالشطوط.

ومما يؤسف له أن جميع المصـادر المحلية، وغالبيتها غير معاصرة لهذه الأسرة، موضـوع الدراسـة، تكتفي فقـط بإيـراد أسماء الأمراء القطبيين وأنسـابهم، دون الإشارة إلى الأحـداث التي لعبـوا دورا فيها، ولا إلى عـلاقاتهم بغيرهـم، كما أن المصادر اليمنيـة والمكية المعـاصرة لتلك الفترة، ضربت صفحـا عن ذكـر الأمراء القطبيين، وعن أحداث منطقة جازان، وإن تفضلت بعض المصادر اليمنية ـ على الأقل قبـل القرن العـاشر الهجري/ السـادس عشر للميلاد ـ بالإشـارة إلى بعض أحداث هذه المنطقة، وخاصة المتصلة منها بسلاطين اليمن وملوكها، أو بأهلها،

فـإنها لا تشير في معظم الحالات إلى أمـراء جـازان بـأسمائهم، وإنما تكتفـي فقـط بالإشارة إلى أمير جازان، أو صاحب جازان المتصل بهذا الحدث، أو ذاك.

ومهما يكن الحال، فإن الأسرة القطبية وصلت إلى الحكم والأوضاع السائدة في المنطقة على غير مايرام، فالرسوليون، الذين شهد القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي صراعا مريرا بينهم وبين الأشراف الغوانم، أجداد آل قطب الدين، حول حرض وناحيتها، تمكنوا منذ سنين طويلـة من انتزاعها من الغوانم، وبسط سيـادتهم عليهـا[11] . وأشراف مكـة، منـذعهـد حسـن بـن عجـلان (ت٨٢٩/ ١٤٢٦م) أخذوا يتطلعون إلى المناطق الواقعة إلى الجنوب من إمارة مكة المكـرمة، بهدف ضمهـا إلى الحجاز بعـد أن نجحوا في بسـط سيادتهم على المدينـة المنورة[12] . وأمراء حلي بن يعقوب الذين أصبحوا ـ فيما بعد ـ يستمدون دعمهم من أشراف مكة المكرمة، لم يخفوا أطماعهم في شمال منطقة جازان، بل وفي جازان نفسهـا، كما سيتضـح ذلـك في فترات لاحقة. وكـان على أمـراء الأسرة القطبيـة مراعاة هؤلاء الجيران من أجل بقائهم، والاحتفاظ باستقلال إمارتهم الذي حافظ عليه أجدادهم من قبلهم طوال القرون الماضية.

غير أن من حسن حـظ الأمراء القطبيين، أن بني رسول الذين انتـزعوا منطقة حرض من أجـدادهم، الأشراف الغوانم، كـانوا يمرون بأشـد الفترات العصيبة التي شهدهـا تاريخهم الطويل، بسبب مـا تعرضت له السلطنة مـن ثورات قبائل المناطق الشمالية من تهامة اليمن[13] ، وبسبب تهديد الإمام الزيدي، الناصر صلاح الدين (ت ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م)، لهم باستلاب بلدان كثيرة في الجبال، وفي تهامة، كانت تحت سيطرة بني رسول[14] . وبالرغم من تمكن الرسوليين في أواخر حكم السلطان الملك الأشرف الثانـي إسماعيل (ت ٨٠٣/ ١٤٠٠م)، وأوائل عهد ابنه السلطـان الملـك الناصر أحمد بـن إسماعيـل الأشرف (ت ٨٢٧/ ١٤٢٤م)، مـن استعادة بعض مافقدوه، فإن الاسرة القطبيـة انتهزت فترة الضعف تلك، وشنت هجومـا على مدينـة حرض في سنة ٨٠٦/ ١٤٠٣ ــ ١٤٠٤م، حيث تمكنـت من

امتلاكهـا، مستغلة في تحقيق أهدافهـا الرامية إلى الاستيلاء على حـرض، انشغال بني رسـول بثورةقامت بها قبـائل المعازبة فى نواحـي زبيد[١٥] . ويبـدو أن هـذه المحاولة التي قـام بها زعيم الأسرة القطبية، الأمير خالد بن قطب الـدين، كانت تهدف إلى الـرفع مـن شـأنه في نظـر قومـه مـن الأشراف السليمانيين عامـة، وإلى إسعارهم بـأنه لن يتخلى عن مطـالبهم التاريخية في حـرض، كما ترمي من نـاحية أخرى، إلى تثبيت أقدامه في حكم المنطقة، وفي زعامة قومه.

غير أن محاولة الأمير خالـد في استرداد حرض، جوبهت برد فعل غـاضب من سلطـان بنـي رسـول، الملك النـاصر أحمد، إذ لم تمض ثـلاث سنـوات على هـذه الحادثة، حتـى أقدم الأخير على غـزو المخلاف السليماني، ولم يقـف عند استرداد حرض، بـل توغل إلى جـازان نفسها التي غـادرها أميرهـا مفسحا الطريـق أمام سلطان بني رسول، فوجدهـا خالية من أى أحد[١٦] . وبعد أن وصلهـا السلطان الناصر، طلب منه أمير جازان الـذمام، فأعطاها السلطان الرسولي لـه، ثم قابله الأمير، وأنعم عليه، ولكنه اعتقله، وبعث به أسيرا إلى زبيد، صحبة الأمير محمد بن زياد الكـاملي، ابن أمير حرض السابق، من قبـل بني رسول[١٧] . ثـم توجـه السلطان الرسولي إلى حلي في مهمة مماثلة، ولكن أميرها التقاه في البرك، مصحوبا بالهدايا والتحف الثمينة، وطلب إليـه العودة قبل أن يصل إلى حلي، لعدمق درتها على وطأة الجيش الرسولي، وإمداد أفراده بالميرة التى يحتاجونها. فعاد السلطان إلى جازان، حيث أمَّرَ عليها أحد أقارب أميرها الأسر[١٨] . وهذه أول إشارة تصادفنا عن تدخل مباشر من قبل سـلاطين بني رسول في تنصيب أحد الأمراء على منطقة جازان، ولم يجد بنو سليمان، أمام وطأة الهزيمة، وحجم القوة المصاحبة للسلطان الناصر، مفرا من القبول بالأمر الواقع، وربما تم هذا الأمر باختيارهم وموافقتهم على الشخـص الذي عين خلفـا للأمير الأسير، ممـا ينفـي عنهم وصمـة التدخـل الرسولي المبـاشر، خاصة وأن الأمير الجديد مـن ذوي قرابة أمير جازان السـابق. وربما اعتبر الأشراف السليمانيـون هذا التعيين إجـراءا وقتيـا، الغـاية منـه جـلاء السلطان وقواتـه عن ديارهم، فلما تحقق لهم ما أرادوا، وعـاد السلطان إلى زبيد،

سعى علماؤها لديه في فكاك أمير جازان لكونه محبوبا عند الناس لكرمه، فاستجاب السلطان لسعي العلماء وشفاعتهم فيه، وأطلق سراحه، وخلع عليه، وأعطاه عشرين ألف دينار، وخمسين مملوكا، وأعادوه إلى بلده وإمارته مكرما معززا، وأمر جماعة من الأمراء، بتشييعه إلى بيت الفقيه[١٩].

ومهما يكن من أمر، فإن المصادر الميسورة لم تتحدث عن وصول أمير جازان إلى بلده، وعن كيفية استعادته للحكم، ومصير أميرها المعين أثناء أسره، ولا عن علاقات أسرته ببني رسول بعد إطلاق سراحه. ويكاد يكون في حكم المؤكد أنه استعاد حكم منطقة جازان بعد هذه الحادثة، وأنه استمر في السلطة زمنا غير قصير دون أي منازع، حتى أن صاحب العقيق اليماني يطلق عليه لقب «ملك جازان»[٢٠]، بدلا من أمير جازان، وهو اللقب الذي أطلق على جميع الأمراء الذين تقلبوا على حكمها قبل الأمير خالد. أما عن علاقاته، وعلاقات أسرته ببني رسول، فإننا لا نعرف عنها شيئا على وجه التحديد، طوال حكمه الذي استمر إلى سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨ ـ ٣٩م[٢١]. وإن كنا نعتقد أنه عاود الكرة فيما يتصل بغزو حرض، ومحاولة استعادتها من أيدي سلاطين بني رسول، وضمها إلى منطقة جازان، في محاولة منه لإعادة توحيد المخلاف مرة أخرى تحت سيادته. ويؤيد هذا الاحتمال انحسار نفوذ سلاطين بني رسول عن حرض سنوات عديدة، خاصة بعد وفاة السلطان الناصر أحمد بن إسماعيل في جمادى الأولى سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م، حيث يذكر ابن الأهدل أن ولاة بني رسول لم يستطيعوا الوصول إلى حرض، أو الاستقرار فيها عدة سنوات، وأن الناحية والمدينة كانتا معا في أيد غير بنى رسول[٢٢]، مما يعني أن حرض وناحيتها ربما كانت في أيدي الأسرة القطبية. كما أن علاقة بني رسول بأمير جازان ربما كانت غير حسنة، والاتصالات بين الزعيمين الرسولي والقطبي ربما كانت مقطوعة، بدليل أن الكرماني المتصوف والمتهم بمواطأة الملك العباسي بن الأشرف، في خروجه على أخيه السلطان الظاهر سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م[٢٣] ـ هرب إلى جازان في السنة نفسها، عندما شعر بالخوف من القبض عليه من قبل السلطان الظاهر، ولجأ إلى

أميرها خالد بن قطب الدين، ومكث في جازان حتى وفاته في سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧ ـ ٣٨م. ولم يستطع السلطان الظاهر، نتيجة لتلك العلاقات غير الحسنة والمقطوعة، المطالبة به، أو ملاحقته في ملجئه، على الرغم من هزيمته لأخيه العباس، والقضاء على ثورته في سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م[٢٤].

ولم يصل إلى علمنا أي نشاط يذكر للأمير خالد، على المستوى المحلي، سوى ما يذكره العقيلي من أن عهده شبه خراب مدينة المنارة لخروج أهلها عن طاعته فأغار عليهم، وخرب مدينتهم، وأجبرهم على النزوح إلى قرية ضمد، الواقعة إلى الشمال من مدينة جازان العليا[٢٥]. ولم يورد العقيلي تاريخا لخروج أهل المنارة عن طاعة الأمير خالد، ولا تحديدا لموقع هذه المدينة[٢٦]، وإن كان من المعتقد أن أهلها ربما خرجوا في بداية حكمه، وكان لزاما عليه أن يكون رد فعله قويا وحاسما حتى يمنع الخارجين عليه من معاودة الخروج، وحتى يكون عمله هذا عبرة للآخرين ممن تسول لهم أنفسهم السير في ذلك الاتجاه. ويبدو أن سياسته تلك كانت حاسمة، إذ لم تذكر المصادر المتاحة أى محاولة للخروج عن طاعته لا من قبل عشيرته، ولا من قبائل المنطقة عامة، حتى وفاته في سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨ ـ ٣٩م[٢٧].

دريب بن خالد بن قطب الدين وخضوع ناحية حرض لسيطرته:

كان نصيب الأمير دريب من الشهرة في بعض المصادر التاريخية غير المحلية، أكثر من شهرة والده، حيث ترجم له السخاوي بقوله: «دريب بن خلد (كذا) بن الأمير قطب الدين الحسني، صاحب جازان. كان نبيلا جليلا ذا مكارم ومحاسن محبا في الشعر ممدحا، مقصودا بذلك، وبالهدايا والتحف. فاجتمع عنده من ذلك ما يفوق الوصف[٢٨].

تولى دريب إمارة منطقة جازان في السنة التى توفي فيها والده[٢٩]، ويبدو أنه سار في الطريق نفسها التي سار فيها والده، من حيث حرصه على استرداد ناحية حرض، وإعادة توحيد المخلاف السليماني تحت سيادة الأسرة القطبية كما كان

عليه الحال في عهد أجداده، وساعدته الظروف المحيطة بالسلطان الرسولي الملك الأشرف الرابع إسماعيل الذي كان توليه السلطنة متزامنا مع وصول الأمير دريب إلى كرسي الإمارة، في سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨ ـ ٣٩م[٣٠]، ولم يستطع التغلب على العرب الثائرين عليه في مختلف الجهات الشامية، ولم تتمهد له الطريق في السيطرة عليهم حتى وفاته في رمضان سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م[٣١]. فاستغل الأمير دريب بن خالد تلك الظروف التي هيأت له الفرصة لتحقيق مبتغاه في الاستيلاء على حرض على حساب عدم الاستقرار في شمال اليمن، لذلك استطاع أن يشن عددا من الحملات على جنوبي المخلاف ونواحي حرض، فتمكن من إخضاع بني موسى، رؤساء لشرحه بساحل حرض، وبنى سبأ، مشايخ حرض نفسها، وغيرهم من مشايخ تلك الناحية، وضمهم إلى منطقة إمارة جازان بالقوة، بعد أن أقرهم على ما تحت أيديهم مقابل إتاوات يدفعونها إليه، وضمانات أخرى ضمنوها له[٣٢]. وبذلك دخلت حرص وناحيتها ضمن نفوذ الأمرءا القطبيين بزعامة الأمير دريب. ولم يعثر فى المصادر المتاحة على أى رد فعل عسكري أو خلافه من جانب سلاطين بني رسول حتى انقراض دولتهم في سنة ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م، وقيام دولة بني طاهرة على أنقاضها[٣٣].

ويبدو أن قيام دولة بني طاهر لم يغير شيئا من الوضع الذي كان قائما في حرض وجنوبى المخلاف منذ أواخر عهد أسلافهم، بني رسول، حيث بقيت تل المناطق في قبضة الأمير دريب وعشيرته، بدليل أن دولة بني طاهر كانت تقف، في عهد مؤسسها السلطان الملك المجاهد علي بن طاهر بن معوضة (ت ٨٨٣/ ١٤٧٨م)، عند حدود منطقة حرض الجنوبية، ولم تعد ذلك إلى الشمال كما نص على ذلك اقتسام المملكة بين السلطان على بن طاهر بن معوضة، وأخيه الملك الظاهر، حيث أخذ الأول تهامة: من حدود ماذكرنا شمالا إلى حيس جنوبا، وكان نصيب الثاني من حيس شمالا إلى عدن جنوبا، بما في ذلك تعز، وإب وجبلة، وذمار، وبعض الحصون الجبلية[٣٤].

وكان الأمير دريب بن خالد بعيد النظر في سياسته تجاه جيرانه الجدد، فلم يتورط في الاحداث الدائرة بالقرب من حدود إمارته الجنوبية، ولم يبد جفاءا لبني طاهر، أو يتحرض بهم، وهم في غمرة انتصارهم، ونشوة حماسهم للسلطة والملك. بل عمل على مهادنتهم، ومداهنتهم، ومهاداتهم في بداية أمرهم، حيث يقول صاحب العقيق اليماني: «وداهنهم ملك جازان، وكان يهدي لهم كل عام مقدار ألف دينار هدية قهر، أو رهبة، لا محبة ورغبة[٣٥] . وقد أثمرت هذه السياسةفي وقوف بنى طاهر عند حدود حرضد ولم يتعدوها إلى الشمال طوال حكم الأمر دريب. كما أتاحت للأمير دريب التمسك بالأراضي التي دخلت تحت حكمه في فترة ضعف الدولة في أواخر أيامها.

غير أن علاقة الأمير دريب ببني طاهر، يبدو أنها تبدلت وشابها الفتور، بعد أن رأى أن الأوضاع غير مستقرة للآخيرين في الجهات الشاميةالعازلة بين إمارته، وبين زبيد، معقل الطاهرين في تهامة اليمن، وأن سلطتهم في تلك الجهات غير مستتبة[٣٦] ، وأن الشكوك حامت من قبلهم حول تورط أمير جازان في القلاقل المستفحلة ضدهم في الجهات الشامية، فربما أخذ بنور طاهر على الأمير دريب تحريكه لبعض الفئات المعارضة لسلطتهم في تلك الجهات. ومما له دلالته ععلى ذلك المأخذ، أن السلطان المجاهد علب بن طاهر قبض على الشيخ أسماعيل الجبرتي في زبيد، وصادر أملاكه في سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م، بتهمة أنه كاتب أمير جازان وأطعمه في البلاد[٣٧] ، ومع أن الشيخ الجبرتي نفي هذه التهمة، وبرأه كثيرون منها، وأن السلطان عطف عليه فيما بعد، ورد بعض أملاكه[٣٨] ، فإنها لا تخفي حقيقة أن العلاقات بين الزعيمين الطاهري والقطبي، كانت غير حسنة، وأن أمير جازان كانت له أطماع في تهامة اليمن، أو على الأقل إثارة المشاكل في وجه جيرانه بني طاهر. كما أن هناك دليلا آخر يشير بأصابع الاتهام إلى ضلوع الأمير دريب في احتضان المعارضين لبني طاهر في الشمال أو على الأقل عدم التعاون مع الأخيرين ضد خصومهم، ففي سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م قامت قوات بني طاهر بقيادة ابن سفيان بالإغارة على بلاد الزيديين، فكانت بينهم وبني بني

حفيظ، أهل الزيدية وقعة قتل فيها أبو الغيث بن محمد بن حفيظ، وجماعة من أهله، بالإضافة إلى ما لايزيد على ثلاثمائة من رجاله[٣٩]. فتوجه ابن المقتول أحمد بن أبي الغيث إلى جازان، وعاد ابن سفيان إلى زبيد بعد أن عمر قرية الشريج بالقرب من الزيدية، وترك بها الأمير سليمان بن جياش السنبلي[٤٠]. فما كاد يصل ابن سفيان إلى زبيد، ويستقر بها حتى رجع أحمد بن أبي الغيث من جازان، فجمع الجموع، وضرب حصارا على قريةالشريج، فلما رأى الأمير سليمان السنبلي ألا قبل له بمقاتلة هذه الجموع لكثرتهم، فر هاربا بفرسانه بين صفوف الزيديين، فنجا ببعض من معه، بعد أن قتل الزيديون جماعة من فرسانه[٤١]. ولا نعرف عما إذا كان أحمد بن أبي الغيث ذهب إلى جازان ملتمسا العون من صاحبها الأمير دريب، أو أن الأمير دريب استجاب لطلبه، كما لم يصل إلى علمنا أى رد فعل من جانب بني طاهر، فيما يتعلق بتلك الاتصالات المشكوك فيها، بين أحمد بن أبي الغيث، والأمير دريب بن خالد، طوال السنتين اللتين تلتا تلك الأحداث حتى توفي الأمير دريب في سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١ ـ ٧٢م[٤٢]، وبقيت الجهات الاشمية منتفضة كعادتها على بني طاهر، وظل بنو طاهر يواصلون جهودهم لإخماد انتفاضتها[٤٣].

أبو الغوائر، أحمد بن دريب، وموقفه من أمير مكة وسلطان اليمن:

تولى الأمير أحمد بن دريب، المعروف بأبي الغوائر، مقاليد الإمارة في منطقة جازان، أو المخلاف السليماني، بعد وفاة والده الأمير دريب بن خالد في السنة نفسها. وليس للأمير أحمد بن دريب ترجمة في المصادر التي وصلت إلى أيدينا، والتي عنيت بتراجم أهل زمانه، سوى السخاوي الذي يكتفي فقط بذكر اسمه، وسلسلة نسبه، وبأنه صاحب جازان، وابن صاحبها[٤٤]، ولكنه لا يذكر من ناحية أخرى شيئا عن حياته، ولا عن الأحداث التي لعب دورا فيها، وإن كان يشر إشارة مقتضبة إلى حصار الشريف محمد بن بركات (ت ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م)، أمير مكة المكرمة، لجازان بقوله: «حاصره السيد محمد بن بركات في

سنة اثنتين وثمانين (وثمانمائة)، كما في الحوادث[٤٥]. وبالرغم من أن هذه الحادثة زعزعت مكانة الشريف أبي الغوائر، وهددت ملكه في منطقة جازان بالزوال، وكادت في حينها - تقضي على مستقبله السياسي، فإنها من ناحية أخرى، كانت سببا في شهرته في المصادر التي تناولت سيرة الشريف محمد بن بركات، وكانت البداية الحقيقية والملموسة في علاقات أشراف المخلاف السليماني ببني عمهم، أشراف مكة المكرمة.

وكانت العلاقات بين أشراف الإمارتين تحكمها، فيما سبق، روابط النسب والقربى، والجوار، إلا أنها دخلت في عهد الشريف أحمد أبي الغوائر منعطفا خطيرا أثار حفيظة الشريف محمد بن بركات على ابن عمه شريف جازان، وعكر صفو ما بنيهما من الصلات الوثيقة، ذلك أن أمير جازان أقدم على إيواء الشريف علي بن بركات أخي الشريف محمد بن بركات، ومنافسه على إمارة مكة، عندما قدم عليه في جازان مغاضبا لأخيه[٤٦]. ولم يكتف أبو الغوائر باستقبال الشريف علي وإكرامه، بل سهل أمر سفره إلى مصر عن طريق سواكن لمقابلة السلطان المملوكي قايتباي (ت٩٠١/ ١٤٩٦م)، وطلب مساعدته ضد أخيه[٤٧]. كما أقدم أمير جازان على إيواء القادة العمرة، وغيرهم ممن نفاهم أمير مكة منها والذين كانوا لايزالون عنده، ويحظون برعايته، على الرغم من كونهم يشكلون خطرا على الشريف محمد بن بركات نفسه[٤٨]. ويضيف العقيلي أمرا آخرا هو رغبة أمير مكة المكرمة في ضم منطقة جازان إلى مناطق نفوذه[٤٩]، وإن كنا نستبعد ذلك، بدليل أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل بعد احتلاله لها، كما سيأتي أدناه.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه المشاكل العالقة بين الأميرين، أغاظت الشريف محمد بن بركات، وحملته على اتخاذ قراره بغزو جازان، ووضع حد لما اعتبره تحديا له من جانب أميرها، فجمع شريف مكة عسكرا كثيرا جدا، واحتفل به احتفالا زائدا قبل خروجه من مكة المكرمة[٥٠]. ويقال إنه اصطحب في غزوته تلك زوجاته وسراريه، وجميع أهله، وخرج من مكة في ربيع الأول سنة ٨٨٢هـ/

١٤٧٧م[٥١] . فلما وصل إلى مدينة جازان، فرض عليها حصارا استمر أياما[٥٢] وترددت الرسل بين محمد ابن بركات وأحمد بن دريب، فلم ينتظم بينهما صلح، ووقعت بينهما وقعة عظيمة، انهزم فيها صاحب جازان وقتل من أصحابه جمع غفير، وولى هاربا[٥٣] . ويصف الديبع الشيباني هذه الكارثة التي حلت بجازان وبأهلها بعد هروب أميرها بقوله: «وانتهكت الحرمات، وانكشفت العورات، وجرى على نساء صاحب جازان من الذل والإهانة، وكشف الحجاب ما لم يكن لأحد في حساب، وانتهبت خزائنه، وفيها من الكتب النفيسة شيء كثيرا، وأخذ من السلاح ما جمعه أبوه وجده، ونهبت جازان، وأحرقت داره، وهدمت دار الخلافة، وسور البلد، وأصبحت جازان خاوية على عروشها[٥٤] . أما مؤرخ مكة نجم الدين بن فهد، فيذكر أيضا بشاعة هذه الكارثة التي حلت بجازان، وأنها كانت نازلة شنيعة عاد وبالها على مكة لما أصابها من قحط في النسين التي تلت هذه الحادثة[٥٥] . ولكنه يعطي معلومات مختلفة عما سبق ذكره حول الملابسات التي سبقت المعركة، وحول حريق المدينة، حيث يقول: فلما وصل جازان حاصرها أياما يسيرة،وجاءه المشايخ، ودخلوا عليه بالصلح فقال السيد محمد بن بركات: بعد أن جئت إلى هنا، فلابد أن أدخل من باب، وأخرج من الثاني، ولا أحدث شيئا. فامتنع صاحب جازان السيد أبو الغوائر، وقال: لا يمكن ذلك أبدا. وبرز للقتال، وصف عسكره للقتال، فعزم السيد محمد بن بركات على ملاقاتهم، فعندما أراد أن يركب، وإذا بأوائل عسكره تلاقوا مع عساكر صاحب جازان، ورمى بعض العسكر نارا في بيوتهم، وغالبها عشش ـ الداخل من البلاد والخارج ـ فأرسل الله ريحا قوية حملت الشرر إلى داخل البلد، فأحرقها، فلما رأى ذلك عسكر صاحب جازان هربوا من الباب الثانى، ثم هرب هو وعسكره. وخلت البلد منهم، فحينئذ دخلها عسكر الشريف محمد بن بركات ونهبوها جميعها[٥٦] . وعلى خلاف الديبع، وابن فهد، فإن العصامي كعادته أثنى على الشريف محمد بن بركات على غزوه مدينة جازان وإحراقها، وعد ذلك كما يقول: فتحا مبينا أوجب جلالة مولانا الشريف محمد، ورجحانه غل من بسلف

من (حكام) هذا البيت المبارك، وخافته القبائل، وامتلأت من مهابته الصدور[٥٧].

وعلى الرغم من فداحة هذه الهزيمة التي مني بها الأمير أحمد بن دريب، واستسلام بلده للشريف محمد بن بركات، فإن الأخير قنع بهذا الانتصار، وعاد إلي بله بعد شهر واحد من غزوه لجازان، دون أن يفكر في امتلاكها وضمها إلى إمارته، مما ينفي أن يكون من بين أسباب غزوه لجازان، رغبته في ضم هذه الإمارة إلى مكة المكرمة، ويعزز في الوقت نفسه الرأي القائل بالأسباب الرامية إلى تأديب الأمير أحمد ابن دريب لإيوائه معارضي الشريف محمد بن بركات، ومنافسيه في المطالبة بإمارة مكة المكرمة، ومع ذلك، فقد فاز الأخير بتعهد من الأمير أحمد بن دريب يدفع بمقتضاه لشريف مكة مبلغا من المال كل سنة[٥٨].

أما الأمير أحمد بن دريب، فيبدو أنه عاد إلى عاصمته فور جلاء الشريف محمد ابن بركات عنها، بدليل أنه أوفد ابنه بعد هذه الحادثة مباشرة إلى زبيد، حيث قابل الشيخ يوسف بن عامر الطاهري، فأكرمه بما يليق به، ثم جهزه إلى عمه السلطان المجاهد بعدن، فأكرمه أيضا، وأعاده إلى بلده مكرما معززا[٥٩]. ويعتقد العقيلي أن هذه الوفاة تحمل رسالة عتب للطاهرين لتخيلهم عن نصرة الأمير أحمد بن دريب خلال محنته القاسية التى تعرض لها على يد الشريف محمد بن بركات، ويعتقد أيضا أن هذه الوفاة لم تحقق أى نتائج، مما حمل والده إلى القيام بنفسه بزيارة لسلطان بني طاهر الملك المنصور (ت ٨٩٤/ ١٤٨٩م) في زبيد كما سيأتي[٦٠].
فاذا صح ما يعتقده العقيلي، فمن الطبيعي ألا يستجيب زعيم بنى طاهر لأي عمل يطلبه أمير جازان في ذلك الوقت، لما سبق أن أشرنا إليه من احتمال تبني والده الأمير دريب بن خالد، وربما الأمير أحمد للمعرضة ضد بني طاهر. كما أن هذه الوفادة ربما لا تتعلق بقضايا معلقة بين بني طاهر، وأمير جازان، لأن ناحية حرض التى كانت مثار نزاع بين أمراء بني رسول، وأمراء المخلاف السليماني، يبدو أنها بقيت تحت سيطرة أمراء جازان منذ أن استردها الأمير دريب بن خالد في

أواخر عهد الدولة الرسولية، وأنهم حافظوا عليها حتى بعد أن اهتز وضعهم السياسى نتيجة هزيمتهم على يد شريف مكة، بدليل ما يذكره الديبع الشيباني من أن الشيخ يوسف بن عامر الطاهري خرج من زبيد في شعبان سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م، أي بعد غزو أمير مكة لجازان بأربعة أشهر فقط، إلى البلاد الشامية، ونزل بقرية القرار، ووفدت إليه قبائل العرب، وأجازهم بجوائز سنية «ثم قبض خراج البلد من الزيدية إلى قريب حرض»[٦١]. فكون الديبع، وهو مؤرخ يمني ومعاصر لهذه الفترة، يجعل حد خراجهم إلى قريب حرض، فإن ذلك يعني أن خراج حرض ليس من نصيب الطاهرين، وإنما من نصيب أمراء جازان، وبالتالي فإن هذه المدينة، وناحيتها ليست تحت سيادة بني طاهر، وإنما تحت سيادة أصحابها الأصليين، أشراف منطقة جازان جو المخلاف السليماني.

أما الزيارة التى قام بها أمير جازان الشريف أحمد بن دريب للملك المنصور بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر في ذي القعدة سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨٢م، عندما كان بمدينة زبيد[٦٢]، فلا شك أن لها علاقة بتحسين العلاقات بين بلديهما، وإزالة أسباب الجفوة المترتبة على ماشاب علاقات البلدين بسبب ماقدمنا من التجاء بعض المعارضين لبني طاهر إلى جازان، يضاف إلى ذلك أن أبا الغوائر أحمد بن درب ربما عزم من قبل هذه الزيارة، على عدم تكرار الأخطاء نفسها التي عرضت بلده لغزو أمير مكة، من حيث إيواءه للمعارضين لجيرانه. وأردف هذه العزيمة بالفعل، ومن باب إبداء حسن النية تجاه جيرانه، عندما نزل عليه الشيخ يوسف بن عامر الذي خرج على طاعة ابن عمه الملك المنصور عبد الوهاب، وذهب إلى مكة المكرمة، ثم إلى جازان في سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م، حيث استقبله أميرها، وأكرمه لما سبق منه من الإحسان على ولده عندما نزل عليه في زبيد في السنة التي قبلها[٦٣]. ولكن يظهر أنه لم يسمح له بالبقاء في جازان، ولم يقدم له أي مساعدة ضد ابن عمه سلطان بني طاهر، فاضطر إلى الذهاب إلى بلاد بنى حفيص،والنزول ضيفا على الملك خصم السلطان الملك المنصور احمد بن أبى الغيث بن حفيظ الذي سمح له بالإقامة بينهم، وزوجه ابنته[٦٤]. وهكذا لم تحن

هذه الـزيارة إلا وقد سبقتهـا بوادر حسن النيـة من قبل سـلاطين بني طاهـر.أما كون تلك الزيارة كانت تهدف إلى طلب العـون من بنى طاهر ضد أمير مكة طبقا لبعض الآراء السالفـة الذكر، فإننـا نستبعد ذلك: لأن أشراف جازان لم يقـوموا بأي عمـل مضاد تجاه أمير مكة طوال عهـد أبي الغوائر أحمد، ومن جاء بعـده من أمـراء الأسرة القطبية؛ولأن بنـى طـاهر أنفسهـم درجـوا حتى ذلـك الحين على سياسة العزلـة، والالتفات فقط إلى شئون التجارة، والأحوال الـداخلية لليمن، وتحاشي التورط في قضايا خارج حدود بلادهم[٦٥]؛ وإن كان ليس من المستبعد أن أمير جازان طلب من السلطان الملك المنصور عبد الوهاب ، القيام بالوساطة لدى السلطان المملوكي قايتباي طالباً منه التدخل لدى الشريف محمد بن بركات لكف يده عن التعدي على إمارة جازان، وهذا ماحـدث بالفعل، حيث بعث ملك بني طاهر بـرسالة ودية إلى السلطان قـايتباي يشفع فيها الشريـف أبي الغوائر أحمد بن دريب، ويطلب منـه أن يمنع شريف مكة من العودة إلى التعـرض لبلاده، وشفع تلك الرسـالة بهدية قيمة للسلطـان قايتباي[٦٦] . فاستجـاب السلطان المملـوكي لشفاعة سلطان بنى طاهر،وبعث إلى الشريف محمد بن بركات برسالة يأمره فيها بعـدم العودة إلى الإغـارة على جـازان ويقول لـه فيها؛ «إن جـازان بلـدنا، وإنـا تصدقنا«بها» على الشريف أحمد بن دريب، فلا لك إليه اعتراض بعد هذا»[٦٧] .

ومهما يكـن من أمـر،فـإن السلطان الملـك استعـد استعدادا كبيرا لضيفـه أبي الغوائر، حيث بعث في استحضار الآلات الموسيقية والتحف، وغير ذلك مما يلزم لإظهار أبهة ملكـه أمام ضيفه ملك جـازان، على حد ماتطلقه بعـض المصادر على أمراء جـازان[٦٨] . ولما بلغه وصول الضيف في عسكر كثيـف من الخيل والرجال إلى ظاهرة مـدينة زبيد في يوم الاثنين العـاشر من ذي القعدة من السنـة المذكورة، خرج السلطـان المنصور لاستقبـاله في مـوكب تـرفرف عليـه الأعلام، وتحوطـه الفرسان، وسـائر الجيوش[٦٩] . ويصف الديبع ذلك اللقـاء،وما أعد لضيافة أبي الغوائر بقوله:«ولما واجهه نـزل عن فرسه، وترجل له، فكان هـو السابق بذلك تواضعـا منه، وإكرامـا لضيفه، ثم نـزل واعتنقه وحيـاه، ثم ركبا معـا، وتماشيا

ساعة، وتفرقا، فدخل الملك المنصور من باب سهام الذي خرج للقائه منه، وأرسل مع الشريف طائفة من جنده وأمرائه إلى بستان حائط لبيق، وقال الشريف هنالك إلى العصر، ثم دخل من باب الشبارق دخولا معظما، ولعب الخيل برحبة الدار الكبير الناصري، ودخل الشريف على الملك المنصور في الدار المذكور، فأكرمه وعظمه وأعلا منزلته، وطلب القضاة والعلماء والأمراء لحضور الضيافة، فحضروا جميعا، وكان يوما معظما، أظهر فيه الملك المنصور التواضع والبر لذرية رسول الله ﷺ. والقيام بواجب حقهم، جزاه الله خيرا، ثم أنزله بدار المعاصر، وأعطاه مالا جزيلاً، وحبا جميلا، ولم يزل عنده مجللاً محترما إلى أن طلع الملك المنصور إلى مدينة تعز يوم الاثنين السابع عشر من الشهر المذكور، وخرج الشرف المذكور لوداعه»[٧٠] .

وبعد خروج الملك المنصور إلى تعز، مكث الشريف أبو الغوائر أياما بقرية النويدرة، خارج مدينة زبيد، ثم توجه عائدا إلى بلده في فجر يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر ذي القعدة من السنة نفسها[٧١] . وهكذا نلاحظ، أن هذه الزيارة ربما لم تتطرق إلى أي موضوعات تتعلق بالعلاقات بين الدولتين، خلاف ماذكر من الاتصال بالسلطان قايتباي، وإن كانت، على أية حال على تحسنها لما أظهره الملك المنصور لضيفه أبي الغوائر أحمد من حسن الاستقبال، وكرم الضيافة، وجزيل العطاء؛كما أنها فتحت الباب أمام أشراف جازان لإجراء اتصالات مباشرة مع سلاطين المماليك سنأتي إلى ذكرها في حينها. وكان لتلك الزيارة أيضا، والطريقة التى استقبل بها أمير جازان، أبعد الأثر ليس في تحسن العلاقات بين الزعيمين الطاهري والقطبي فقط، بل وفي تطورها.ولعل من أهم بوادر هذا التطور ان الشيخ احمد بن أبي الغيث بن حفيظ، عدو ملوك بنى طاهر، وخصمهم اللدود، ألقى القبض عليه بعد تلك الزيارة بحوالى سنة في شوال ٧٨٧هـ/ ١٤٨٢م، بعد أن وجد متخفيا في الزيدية[٧٢] .وكان قبل ذلك، قد فر إلى جازان، والتجأ إلى قرية أبي عريش، بالقرب من مدينة جازان العليا، عاصمة أشراف آل قطب الدين[٧٣] .فهل يمكن الربط بين تلك الزيارة، والقاء القبض

على ابن أبي الغيث الذي يأتي بعد أقل من سنة فقط في زيارة أبي الغوائر لزبيد؟ قد يكون ذلك ممكنا، لاحتمال أن أمير جازان طلب من الشيخ أحمد بن أبي الغيب مغاردة أبي عريش؛ لأنه شخص غير مرغوب في بقائه فيها. فلم يكن أمامه إلا العودة إلى بلده ، والبقاء فيها متخفيا حتى تم القبض عليه. كما أسلفناه ومن دلائل هذا التطور استمرار المهاداة والمكاتبات بين أمراء منطقة جازان، وملوك بني طاهر؛ من ذلك إرسال القاضي الصديق بن علي الخياط، وزير أمير جازان، أبي الغوائر أحمد بن دريب، إلى السلطان الملك الظافر عامر الثاني (ت٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) في جمادي الأولى سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٤م، ومعه هدية من الشريف أبي الغوائر إلى الملك الظافر، قوامها ست رؤوس من الخيول الجيدة[٧٤]. ولكن الوزير مات في الطريق بين بيت الفقيه وزبيد، قبل وصوله إلى الأخيرة. لمقابلة الملك الظافر الثاني المقيم بها. فلما علم الظافر الثاني بموته أسف عليه كثيرا؛ لأن الكتب التي كان يحررها على لسان الشريف أبي الغوائر إلى سلاطين بني طاهر، كانت كافية لتحسين العلاقات بين البلدين. وبعد ذلك، قبض الملك الهدية، وأثاب مرسلها، الشريف أحمد أبا الغوائر، عليها ثوابا جميلاً[٧٥]. ثم تواصلت الهدايا والمراسلات بين سلاطين بني طاهر، وأمير المخلاف السليماني الذي ربما استمر أيضا في دفع الاتاوة السنوية التي التزم بها سابقا لأمير مكة المكرمة. وبذلك حقق بحسن علاقاته مع سلاطين بني طاهر والوفاء بالتزاماته مع أشراف مكة، وضمان حماية سلاطين المماليك له ـ الهدوء والاستقرار في إمارته حتى وفاته في سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٦[٧٦].

غير أن صاحب العقيق اليماني يورد تاريخا مغايرا لما يورده الديبع، حول وفاة أبي الغوائر، إذ يرى أنها كانت في سنة ٩١٧هـ / ١٥١١ ـ١٢م، وأنه توفي مقتولاً على يد العطاوية، وقتل معه أخوه خالد بن الحطيم[٧٧]. وتبنى العقيلي هذه الرواية التي يظهر أنه ينقلها عن صاحب العقيق اليماني[٧٨]. ويغلب على الظن، أن الرواية الأولى هي أقرب إلى الصحة؛ لأن صاحبها الديبع الشيباني معاصر للشريف أبي الغوائر، وروايته دقيقة من حيث إيراد الليلة التي توفى فيها، وشهر

الوفـاة وسنتها[٧٩] .يضاف إلى ذلك أن صاحب العقيق يغفـل العزيز بن أحمد بن دريب الذي تولى الإمارة بعد والده، ويستبعـده من قائمة أمراء جازان[٨٠] ؛ على حين يذكـر الديبع أن العـزيز خلف والـده، في منصب الإمارة ويقـول:«وفي يوم الأحـد، ثاني عشر مـن الشهـر المذكو(جمادي الآخـرة سنـة ٩١٢) قدم الشريـف المهدى بـن أحمد بن دريب، أخـو صاحب جازان، الشريـف العزيز بـن أحمد بن دريب إلى مدينة زبيد من عند أخيه، متـوجها إلى مولانا السلطان بهدية من أخيه، من جملتها أسد صغير، وتسعة رؤوس من الخيل النفيسة، فأقام بمدينة زبيد خمسة أيـام، ثـم تـوجـه إلى السلطـان عشية السبـت الثـامـن والعشريـن مـن الشهـر المذكـــور[٨١] .وكما إن وجود يـوسف العزيز وتلقـده لمنصب الإمارة ثابـت عند المؤرخ عبد الـرحمن بن علي الـديبع الشيباني، وهـو معاصر لـه، وربما يعرفـه حق المعرفـة، ولعله التقـى به في زيارتـه، المشار إليهـا آنفا، إلى مدينـة زبيد، مـوطن المؤرخ المذكور[٨٢] ، فإن وجوده ثابت كذلك في شعر الجراح بن شاجر الذروي، وهو شـاعر معـاصر أيضا ليـوسف العزيـز، وممن أوقـف شعره الـذي وصل إلي أيدنا، على مدح أخيـه المهدي محمد بن أحمد بن دريب الذي تـولى الحكم بعد وفاة الأول في سنة ٩١٢هــ / ١٥٠٧م[٨٣] . ويبدو أن له أفضالاً على الشـاعر المذكور حتى أنه يقول مخاطبا أخيه المهدى من قصيدة مدح الأخير بها[٨٤] :

وقُـمْ بحـالى كما قـام العـزيـز بها فـإننـي لـك يـامهـدي منتظـر

غير أن العزيز الذي أراد أن يسير على نهج أبيه في إقامـة علاقات متميزة مع من بنى طاهر، يسودها الوئام، وتقوم على الاحترام وحسن الجوار ـ لم يعمر طويلا في حكـم جازان، إذ تـوفي، فيما قيـل، شهيدا بـالسم بعـد حوالى سنـة مـن توليـه الحكم،في يوم السبت التاسع والعشريـن من شهر شوال سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م، وتولى إمارة جازان بعد أخوه المهدي بن أحمد بن دريب بعهد من العزيز نفسه[٨٥] .

المهدي بن محمد أحمد بن دريب والتعاون مع المماليك:

يعد الشريف أحمد بن دريب، الملقب بالمهـدي، من أشهر أمراء منطقة جازان

لارتباط اسمه بديوان الشاعر الجراح بن شاجر الذي وضع معظمه في مدح هذا الأمير[٨٦] ، ولاتصالاته بالماليك، ودوره في حملة القائدة المملوكي الأمير حسين الكردي(ت ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) على اليمن التي قضت على دولة بني طاهر في ربيع الآخر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، كما سيأتي بعد. وهو واسطة العقد في أمراء الأسرة القطبية، وممن أشاد بجوده وكرمه غير واحد من الذين تناولوا سيرته شعراً ونثرا؛ فالشاعر الجراح بن شاجر يقول عنه في مقدمة ديوانه المذكور: «إن الذي مدح به من هزت به المهالك الجازاتية اعطافها، وأرضعته أخلاقها، وطبقت مكارمه البقاع ونطقت بمحامده الأفواه، وامتلأت بشعره الأسماع، انعقدت على سيادته الإجماع، جمال دين المهدي بن أحمد بن دريب[٨٧] . ويقول فيه شعرا[٨٨] .

أيامنا بك ياعز الهدى غرر وصَدْ ... وعشينا بك صفو ماله كدر
عُنابَك يامهدي منشعب ... وكسرنا بك يامهدي منجبر
وحَالنا بك يامهدي حالية ... وحال أعدائنا يا ابن الصفى صَبَرُ

***

ويقول[٨٩] :

إلى الملك المهدى راحت وبكرت ... لاص الدجى تهوى إلى الملك المهديلى
إلى الخضرم الطامي عبايا إلى الحيا ... الروضة الغنا إلى المنهل الشهد لى
لى الواهب المال الجزيل سماحة ... من يعيد المكرمات كما يبدي
أقل عطاياه النضار مواهبا ... وقود العناجيج المطهمة الجرد

وقيل فيه على لسان الملك عامر بن عبد الوهاب الظافر الثاني، سلطان اليمن الطاهري[٩٠] :

أقسمت بالسحر من حسن البيان وما ... في الشعر من حكمة من حكم لقمانا
لابعت جدي في هزل النسيب ولا ... صرفت نظمي في التشبيب مجانا

بـل في قـواف تـــوافي في تجاوزهـــا | بيــد الفيــافي عميـد المصر جــازانــا
لأنت قطب بنى القطب الأولى رجحت | وزنـا وعــزا فبرزوا الخصـم سلطـانـا

وعلى لسان الشريف بركات بن محمد أمير مكة المكرمة(٩١) .

ياراحـــلاً علـى قلـوص ضـامر | تطـوي الفـلا بـالهجـل بعـد الهجـل

* * *

إن جئـت جازان ووادي حـــرض | عـــرج على مالـــكها الأجـــل
أميرهـا المهـدي مـن نجـــل أحمد | خير إمـــــام وأجـــل نجـل

ومدحه من شعراء اليمن غير واحد، منهـم الشاعر محمد الهبى الصعدي الذي كان يأتيه من صعده مادحا، وله فيـه القصائد الطنانة، أشهرها مخمسته التي شاع تداولها بين مؤرخي المخلاف السليماني(٩٢) .

وعلى الـرغـم مـن ذلـك المديـح والإطنــاب مـن قبـل الشعـراء في الشريـف المهدي،فـإن المؤرخين يحجمون عن تقـديم ترجمة وافيـة لحياته، ولإنجـازاته على المستوى المحلي والخارجي، أو حتى إفراده بباب أو جزئية يتحدثون فيها عنه، أو عن أسرته في سياق تاريخي منظم. وكلما هو متاح عنه، فيما بين أيدينا من التاريخ المحلى، لايتجاوز إيراد اسمه ضمن أمراء منطقة جازان من أفراد أسرته على سبيل العـد فقـط، دون ذكر مـدد حكـم هـؤلاء ، الأمـراء، أو تواريـخ وفيـاتهم، أو الأحداث التـي خاضوهـا، أو لعبوا دورا فيها، وإن كـان بعضهم يتوقـف قليلا للإشادة بكرم الأمير المهدى في سطر أو سطرين؛ نـذكر من ذلك صاحب العقيق اليماني الذي توقف بعد ذكر اسم والـده مجرداً، ليقول:« ثم بعدهـم الأمير المهدي أحمد، وهو الغرة فيهم الذي يضرب بجودة المثل»(٩٣) .

ويقول: في مكان آخر:«ثم ابنه المهدى بـن أحمد، وكان مشهورا بالكرم الذي فاق به أهل زمانه، وكان أديبا فصيحا. أيضا مدحه أكثر الشعراء»(٩٤) . ويقول صاحـب الذهـب المسبوك «ثم يـوسف العـزيز ثم أخـوه المهدي بـن أحمد، وهو

ممدوح الجراح بن شاجر الذروي، وكـان ذا شجاعة ، وعلم وكرم»[٩٥] . وعلى هذا النحو يمر ذكـره عند غيرهما من المؤرخين المحليين[٩٦] . وهذا بطبيعـة الحال يشكل صعـوبة على البـاحثين في تاريخ هـذه المنطقة بصورة عـامة سـواء في عهد المهـدي، أو أي من عهـود أمـرائها السـابقين منهـم والـلاحقين. وتبقى معظـم المعلـومات عـن المهدى مستقـاة من القصـائد التـي قيلت فيـه، وهي غير دقيقـة لإغفال عنصر الـزمان، أو مـن تلك التي كـانت لمكـة واليمن ومصر عـلاقة بها، ناهيك عن كونها قليلة، وتغفل الجانب المحلى من حياة زعيم الأسرة القطبية.

وعلى أية حـال، فإن المهدى جـاء إلى السلطة بعد حكم أخيـه يوسف العـزيز الذي لم يـدم ـ كما أسلفنـا ـ إلا حوالى سنـة واحدة. ولانعـرف كيف كـان وضع المنطقة في أول عهـده، وهل بقيـت موحـدة كما كان الحال في عهـد جده دريـب، ووالده أبى الغـوائر أحمد بن دريب؟ أم أن بعض أجزائها انفصـل عنها، وبصورة خـاصـة نـاحيـة حـرض التـي كانـت دائما مثـار نـزاع بين سـلاطين اليمـن مـن جهة،وأمراء منطقة جازان من جهة أخرى؟ويفهم من بعض القصائد التي قيلت في المهدى،أن المنطقة بكاملهـا كانت تقع تحت سيطرته في بداية حكمـه،فالشاعر يـذكر إلى جـانب حـرض، حيران، ورحبان، والـرحة، ولكهـا مواقـع بناحيـة حــرض[٩٧] . غير أن الأمور ربما تبدلـت بعد ذلك،ويبدو أنه قـام عصيان مدني بمنطقـة حـرض قـاده بنـو سبـأ، شيـوخ المنطقة، الـذيـن خـرجـوا على طـاعـة الأمير؛فشن الأخير عليهم حـروبا كثيرة أدت في النهاية إلى سيطـرة الأمير المهدي عليها، وأجبرت أهلا على دفع مـاكانوا يدفعونه من إتـاوات في عهد أبيه وجده، وطرد الـرؤوس التي كانـت تحرك الفتنة فيها، ومنهـم شيوخ بنى سبـأ أنفسهم. ويغلب على الظن، أن هذه الفتنـة كانت محيلة فقط، ولا دخل لبنـى طاهر فيها، بـل على العكس، فـإن الأمير القطبـي من الملـك الظـافـر الثاني،عـامـر بن عبـد الوهاب، تطمينا بوقوفه على الحياد، وأنه لم ولن يستمع إل أي وشاية من خصومه ضده، وأنه يؤيد في الإجراءات التي اتخذها ضد قبائل العرب من ناحية حرض، وغير ذلك مما سنأتى إلى ذكره بعد. وإذا كانت هناك يد خارجية تحركها،فإنها ربما

كانت غير أيدي بنى طاهر،أو أشراف مكة، أو حتى الزيديين الذين يجاورون حرض من الشرق والجنوب الشرقي[٩٨] .

ومهما يكن الأمر،فإن هذا العصيان والمواقف المتصلة به يسجلها الشاعر الجراح بن شاجر تسجيلا دقيقا في قصائد كثيرة من ديوانه، ويسجل كذلك الأماكن التي اندلع فيها، ونجاح المهدى في القضاء عليه، واستعادة سيطرته التامة على المنطقة بأسرها ووما جاء في هذه القصائد[٩٩] :

وتوهم الخبثا وتلك جهالة | منهم بأن جموعهم تلقاه
فهناك تم بهم وأمضى فيهم | عزما يطيح بلملم وصفاه
وغزاهم بجحافل وصواهل | ومناصل سفكت دماء عداه

***

لما التقى الجمعان في حرم الوغا | قل الكلام وكلت الأفواه
وتبادروا هربا وفرعن ابنه | ذو الغدر وهو يصيح ياأبتاه
وتشتتوا من بعد ذاك وأحرقت | حيرانهم وبداحهم وقراه[١٠٠]
ثم انثنى من بعد مانال المنى | منهم إلى حرض وحل رباه
وبنى برحبان الخصيب خيامه | فعلى الثريا والسماك بناه

***

وله أيضا في هزيمة الخبثاء، وإجلائهم عن ديارهم قوله[١٠١] :

وأجلوا عن منازلهم جهارا | غداة السبت يالك من صباح
وفي بمقاله قمر المعالى | وسار على الوعيد إلى البداح
وأخرب دار شيخ السوء عمدا | فراح مشردا أردى مراح
ونال مراده فيهم ونادي | منادي النصر حى على الفلاح
ولم تقبل ـ فدتك نفوسنا ـ في | بني سبأ وأحمد أي لاح

ولم تقبل ـ فدتك نفوسنا ـ في ... بني سبأ وأحمد أي لاح

وألقيت الدعايث في عذاب ... هين بعد ذاك الانشراح

وشردت الخبيث الطبع حتى ... غدا من سكر ذاك الكبر صاحي

يعض بنانه ندما وغبنا ... ويعرك حسرة راحا براح

واخرجت البداح وكصان كل ... يرى ألا سبيصل إلى البداح

وحيران الخصيب ضربت فيه ... خيامك والعساكر في انشراح

وفي الذرماء قد نزلوا فضاقت ... بهم من بعد أودية فساح[١٠٢]

ويقول فيهم أيضا[١٠٣] :

ولما التقى الجمعان منا ومنهم ... وحان لبيض الهند في القمم الورد

تداعوا كما طار الجراد وأدبروا ... وقالوا ألا غوراً يقينا ولانجد

وفر وخلا قومه ضد اسمه ... كما فر من ليث غضنفرة قرد

واقبل ينعي في البداح قتيله ... ووجه عدو الله كالقار مسود

* * *

وحاقت بحيران الخبيث وأهله ... خيانتهم إذ لم يتم لهم عهد

وفي الصبح إحراق البداح خوره ... ويكفيهما من جند عز الهدى عد[١٠٤]

وأخيرا قوله[١٠٥] :

وبكرت من رحبان تزجي كتائبا ... إلى العصب الباغين إثر كتائب

ولما التقى الجمعان منها ومنهم ... وقال كثير لانجاة لهارب

تولوا كما طار الجراد فأدبروا ... أمامك أمثال النعام الهوارب

وراحوا وعيسى شيخهم ورئيسهم ... ينادي بأعلا الصوت أين أقاربي؟

غـدا رأسـه المقطـوع للخلـق لعبـة وجثتـــه للحـــائمات النـــواعب
واخليــت ارض الجابليـــة منهـــم وحلت بهم منهـم دواهـي المصـائب

❊❊❊

وأعطيـت حـــيران الأمـان وأهلــه وقـد بـذلـوا امــوالهم بـذل راغـب

نستنتـج مـن هـــذه الأبيـات المجتـزأة مـن قصـائد طـويلـة قيلـت في الأمير المهدي،بمنـاسبة انتصاراتـه في حروبه على القبـائل المناوئة له في منطقـة حرض، وماجـاورها ـ أن الأمير المهدى خـاض معركة أو اكثـر ضد خصـومه مـن تلك القبائل الذين خفظـت لنا هذه القصائد أسماء بعضهم، مثل الخبثـاء،وبنى سبأ، والدعايث، وحتـى أسماء بعض من قتل في تلك المعارك مثـل الشيخ عيسى.كما حفظت أسماء المواقـع التي دارت فـوقها تلـك المعارك،مثـل حرض، وحيران، البداح، ورحبان، والخور، والذرماء، والجابلي. ومعظـم تلك القبائل والمواقع معروفة بأسمائها حتى اليوم في اليمن الحديث[١٠٦] .

كما يفهم من بعض القصـائد الواردة في الديوان،أن أحد مشايـخ تلك القبائل هرب إلى اليمـن،وأن الأمير المهدي كـان يخشى مـن عودتـه إلى حرض، وإثـارة مشاكل جديدة للسلطة، مما اضطر الأخير إلى الإقامة زمنا برحبان يترصد عودته، ومن معـه،مما جعل شـاعره يحثه على العـودة إلى عاصمتـه، ومقر ملكه في مـدينة جازان العليا المعروفة بالدرب، ويهون عليه أمر ذلك الشيخ الفار بقوله[١٠٧] :

أتـدرى بها لاقتــه تلـك الملاعـــب ومـاكـابـدت أبطـالها والخــراعب
ومــانـــال جـازان الخصيــب وأهلـه لفقـدك يــامن في الإقـــامة راغـــب

❊❊❊

فعطفـا فـإن الـدرب أصبـح مغضبـا وكـــان لـرحبـان عليـــه يحـــارب
أتهجـز كـرسـى الإمـارة والـذي بـه آلـك الغـر الكـــرام الأطـــايب

❊❊❊

وأنــت بحمـد اللــه أذكــى بصيرة		ورأيــك في تـدبير أمــرك صائـــب
فقـد ذابـت الأعراب خـوفـا ورهبـة		ولم يبــق إلا كلــــب سـوء مجانب
ومــرجعــه حتما إليـــك لــــو انــه		أجـارتـه في الأفق النجـوم الثـواقـب

وعلى الرغـم من هذا التفصيل الـواضح في وصف المعارك، وذكـر المشاركين فيها حتى مـن أولئك الذين كانوا إلى جـانب الأمير المهدى والذين كـانت تتكون منهم معظم عساكره وجيوشه[١٠٨] .وكذلك ذكر المواقع التي دارت عليها، وما أحرق منها، ومـا لم يحرق، والدور التي هدمت، وحتى أسماء بعـض الأيام التي دارت فيها تلك المعارك، فإن هذه الأحداث تخلو مـن التأريخ الذي هو مادتنا في الكتابة، وهو روح الحديث في علم التاريخ، وبدونه لانعرف في أي وقت وقعت تلـك الاحـداث، غير كـونها أيـام الأمير المهــدى مـن سنـة ٩١٢ ــ ٩٢٥هــ/ ١٥٠٧ ـ ١٥١٩م. ولكن فترة المهدى وعلاقاته الخارجية مرت بأطوار تحتم علينا معرفة الطور الذي حدثت فيه تلك المعارك، وهل لعلاقاته بجيرانه دور في نجاحه ضد خصومه؟.

ويصعب على المرء إيجاد تاريخ محدد ودقيق لتلك المعارك، وإن كنا ألمحنا سابقا إلى أن حرضـا، وناحيتها كـانت تحت سلطة المهـدى في بدايـة توليه الحكـم سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م؛ وربما استمرت كذلك سنة أو أكثر قبل انتفاضة قبائلها عليه. كما ألمحنا أن أحـد شيوخها فر مـن المعارك، والتجأ إلى اليمن، ربما طلبـا للنجدة والعون، ثم معاودة إثارة الفتنة مرة أخرى. ومن المحتمل أن هذا الشيخ هو مناع بن سبأ الـذي ينعته الديبع بصـاحب حرض، ويذكـر أنه قدم إلى زبيد في الثـامن عشر من رمضان ٩١٥هــ/ ١٥١٠م، عائدا من الأبواب السلطانية،ثـم توفى يوم قدومه غريبا شهيدا[١٠٩] .ولعله هو الذي عناه الشاعر بقوله:

فقـد ذابـت الأعراب خـوفـا ورهبـة		ولم يبــق إلا كلــــب سـوء مجـانب
ومــرجعـه حتما إليـك لــــو أنــه		أجـازته في الأفـق النجـوم الثواقـب

فربما ذهب مناع بن سبأ إلى الأبواب السلطانية لاستعدائها على الأمير المهدي، أو لطلب مديد العون والساعدة له ضد أمير جازان، ولما لم تجد مساعيه تلك فتيلا،ولم يجد وجه عند السلطان، عاد إلى زبيد حيث وافته منيته بها[١١٠] . فإذا صح هذا الافتراض ،فإن تلك المعارك حدثت قبل سنة ٩١٥هـ/ ١٥١٠م؛فماذا عن بدايتها؟ قبل الإجابة على هذا السؤال يحسن بنا أن نتدبر هذا البيت من الشعر،من قصيدة قيلت على لسان الأمير المهدى إلى السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري[١١١] :

ولم أدع أهل حيران بلا تعب　　　إذ أدخلوا القوة الحمراء حيرانا

ويغلب على الظن أن القوة الحمراء هم فئات المماليك الذين وصلت أولى طلائعهم الى المنطقة في أوائل سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م،واتخذوا من جزيرة كمران،المقابلة لبعض تلك الجهات الشامية، مقرا مؤقتا لهم[١١٢] . وليس من المؤكد أن اهل حرض استعانوا بفئات المماليك تلك في ثورتهم ضد أمير منطقة جازان، أو أن الأخيرين أعانوهم بصفة رسمية ومعلنة، وإن كان لايستبعد أن بعض عناصرهم عملوا مع الثوار على سبيل الاسترزاق. فإذا صح هذا الافتراض مع الافتراض السابق،فإن تلك الاحداث ربما وقعت بين سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م،وهو تاريخ أول قدوم لفئات المماليك إلى المنطقة في تلك الفترة، وسنة ٩١٥هـ/ ١٥١٠م، وهو تاريخ لجوء الشيخ مناع بن سبأ حاكم حرض المحلي إلى اليمن، ووفاته بزبيد ، كما أسلفنا.

أما في مجال العلاقات الخارجية، فإن أمير منطقة جازان استمر في اتصالاته ومراسلاته مع جيرانه في اليمن، ومكة المكرمة؛ففي آخر سنة ٩١٤ه/ ١٥٠٩م، وصل رسول من قبله هو أحمد بن الصديق الخياط إلى سلطان بني طاهر، ومعه هدية قيمة للسلطان، فقبلها السلطان، وأثاب مرسلها، أمير جازان، عليها ثواباً جزيلا تنيف قيمته على ألف أشرفي ذهبا، وأعطى رسوله ابن الخياط مائة أشرفى،بالإضافة إلى كسوات عظمية فاخرة، ثم عاد إلى بلده مارابزبيد في أوائل

السنة التالية[١١٣] .

وتضمنت مـراسلات الأمير المهدى لجيرانه في اليمـن، ومكة المكرمـة، إرسال قصائد نظمـت على لسانـه إلى كل من الملـك عامـر بن عبد الـوهاب الطـاهري، سلطان اليمن، والشريـف بركات بن محمد بن بـركات(ت ٩٣١هـ/ ١٥٢٤م)، أمير مكـة المكـرمة، يخبرهما فيهـا بـانتصـاراتـه على قبـائل العرب المنـاوئة لـه في حـرض[١١٤] . ورد عليه الزعيمان بقصائد مماثلة قيلـت أيضا على لسانيهما، يهنئآنه فيها بتلك الانتصارات،ويـؤيدانه في الإجراءات التي اتخذها ضـد هؤلاء العصاة الخارجين عن طاعته[١١٥] .

غير أن مراسلات الأمير المهدى مع الزعيمين الجاريـن، مالبث أن توقفت بعد سنة ٩١٥هــ/ ١٥١٠م، أو على الأقل لم تصل إلى علمنـا بعد هذا التـاريخ، إذ لم يعثر في المصادر المتاحة على مايفيد بأنه بعث رسولاً ، أو أجرى اتصالاً مع كل من سلطان اليمن، أو أمير مكة المكرمة، في الوقت الذي أخذ يمد اتصالاته إلى خارج حدود الجزيرة العربية؛ففي أوائل العقد الثالث من القرن العاشر الهجرى/ العقد الثاني من القرن السادس عشر للميلاد، بعث الأمير المهدى إلى السلطان المملوكي قانصوه الغـوري برسالة يحثه فيها على الاستيـلاء على اليمن، والقضاء على أسرة بنى طاهر بها[١١٦] ؛ في ثاني محاولة يقوم بها الأشراف السليمانيون للاتصال بمصر، بعد الأمير قاسم بن غانم بن يحيى الذي مهد للوجود الأيوبى باليمن، في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد[١١٧] . ولانعرف الأسباب التي جعلـت أمير جازان يستعدي سلطـان المماليك ضد جـاره ملك بنى طـاهر، وهو ـ كما يقول الديبع ـ كان «عند السلطـان الملك الظافر «الثاني» في أعلا منزله، وأحسن مكان، وله عنده من الصنائع، والإحسان ماشهد به الإنس والجان، فلم يرع له حرمـة، ولا راقب فيه إلاً ولا ذمة[١١٨] . ويغلب على الظن، أن مـن أهم أسباب اتصالات أمير جازان بالسلطان المملوكى، وتوثيق علاقته به، والاستعانه به ضد السلطان الملك الظافر الثانى، على الـرغم مما كان بينهما من علاقة وطيدة،

هو تخوف الأمير المهدى من زعيم بنى طاهر نتيجة لازدياد ضغط الطاهرين على الجهات الشامية، المتاخمة لحدود إمارته من الجنوب، خلال السنوات الخمس الأخيرة التى أعقبت انتصارات الأمير المهدى على العرب فى حرض، وماوالاها حتى وصلت بعض طلائع القوات الطاهرية إلى مَوْر التى يعتقد أنها كانت فى ذلك الوقت من أعمال جازان[119] . ويتصل بهذا الشعور بالضغط، أن السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى، اتصل به بعض خاصة بنى سبأ، خصوم الأمير المهدى، فى شوال سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٣م، وسمح لهم بالتوجه إلى بلادهم، بعد أن طلب منهم رهائن[120] . وهذا يعنى أنه ضمن ولاءهم، وفى المقابل ربما ضمنوا بدورهم تأييده لهم ضد خصمهم أمير جازان.

أما عن تاريخ اتصال أمير جازان بسلطان مصر، فهو غير معروف فى المصادر الميسورة، وإن كان من المحتمل انه تم بعد سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، أو فى آخرها؛ لأن هذه السنة شهدت آخر سفارة مصرية من جانب سلاطين المماليك، تصل إلى بلاط بنى طاهر، حيث وصل وفد من السلطان المملوكى، الأشرف قانصوه الغورى، إلى زبيد فى شعبان من السنة نفسها، ومعه هدايا نفيسة للسلطان عامر بن عبد الوهاب، وبعد ثلاثةأيام من إقامة الوفد فى زبيد، توجد لمقابلة سلطان بنى طاهر فى صنعاء، حيث أكرم الأخير الوفد المصرى، وأحسن معاملته[121]

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الاتصالات تغززت بين سلاطين المماليك، وأمير جازان، عندما أنجب ابنا سماه قانصوه، على اسم السلطان قانصوه الغورى، وطبع قدم المولود على ورقة، وبعثها إلى سلطان المماليك مع هدايا، وكتب تتضمن طلب المبادرة إلى إرسال قوات مصرية للاستيلاء على اليمن، واعدا إياه بتقديم المساعدات، والتسهيلات للجيش المصرى،إن هو قدم إلى اليمن،ولم يطلب فى المقابل من السلطان المملوكى، إلا الإبقاء عليه أميرا على منطقة جازان[122] .

استجاب السلطان الأشرف قانصوه الغورى لطلب أمير جازان،وبعث إليه

قوة بحرية بقيادة الأمير حسين الكردى فى أواخر سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م[١٢٣] . فلما وصلت تلك القوة إلى جازان، بعث الأمير المهدى معها مجموعة من عساكره بقيادة أخيه عز الدين بن أحمد الذى عين سردارا للقوات المهاجمة[١٢٤] . ثم ما لبث أن اتسع نطاق التأييد للقوات المملوكية ضد بنى طاهر، بانضمام الفقيه أبى بكر بن المقبول العقيلى الزيلعى،صاحب اللحية،وقبائل المعازية والزيديين،بالاضافة إلى تأييد الإمام الزيدى،شرف الدين يحيى بن شمس الدين (ت٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م)، ومباركته لذلك التحالف الذى قام ضد خصومه،بنى طاهر[١٢٥] .

ومهما يكن من أمر هذا التأييد،فإن أولى المعارك وقعت بين الطرفين فى جمادى الأولى سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م،بموقع يعرف بالمَزْحَف،بوادى مَوْر، حيث كانت تتمركز العساكر الطاهرية بقيادة الشيخ عبد الملك بن الملك المنصور الطاهرى[١٢٦] . وكانت القوات المهاجمة بقيادة الأمير عز الدين بن أحمد،أخى أمير جازان المهدى،وبصحبته جموع القبائل المتحالفة مع المماليك،بالإضافة إلى ألف من الأخيرين،معظمهم من رماة البنادق،الذين كان لسلاحهم الجديد على المنطقة،الأثر الأكبر فى هزيمة القوات الطاهرية[١٢٧] . ثم واصل المهاجمون زحفهم حتى دخلوا مدينة زبيد فى جمادى الآخرة من السنة نفسها،وغادرتها فلول القوات الطاهرية إلى تعز[١٢٨] .

وبعد أن صفت زبيد للقوات المملوكية وحلفائها،وألقت زمامها فى أيدى القوات الغازية،عين حسين الكردى مملوكا يعرف باسم برسباى،حاكما لمدينة زبيد،وجعل الشريف عز الدين بن أحمد بن دريب مساعدا له،وغادر المدينة،تاركا لهما أمر تعقب فلول قوات بنى طاهر[١٢٩] . فاستطاعا، بمن معهما، التوغل فى اليمن، وقتل السلطان عامر بن عبد الوهاب بالقرب من صنعاء فى أواخر شهر ربيع الثانى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م[١٣٠] . وبذلك تم القضاء على دولة بنى طاهر فى زبيد وتعز،واستقر الأمير المهدى فى ملكه بجازان دون

منازع،وكسب إلى جانب ذلك، نيابة مدينة زبيد، وماوالاها التى أصبحت من نصيب أخيه عز الدين بن أحمد بن دريب.

غير أن الأمور ما كادت تصفو للأمير المهدى حتى فتحت عليه جبهة جديدة من الشمال، ذلك أن أشراف مكة ربما لن يعجبهم ذلك التقارب الذى قام بين المماليك وأمراء جازان لما قد يشكله الأخرون من تهديد لإمارة حَلْيْ الواقعة تحت نفوذ أشراف مكة المكرمة(١٣١) . ومن المحتمل أيضا أن أمراء جازَان الذين تعزز موقفهم العسكرى بأحلافهم الجدد،ربما امتنعوا عن دفع الإتاوة التى اعتادوا على دفعها لأمراء مكة،منذ عهد الأمير أبى الغوائر أحمد بن دريب(١٣٢) ، ولعل هذا ما حدا بأمير حلى، قيس بن محمد بن أحمد بن دريب الحرامى الذى يقف شريف مكة من ورائه، على شن حملة على منطقة جازان فى سنة ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م،حيث حصلت مواجهة كبيرة بين أهل جازان، وأهل حلى فى موقع يعرف باسم الغَوَائر، قتل فيها من الأشراف آل قطب الدين،وأشراف صَبْيَا عدد كبير، وانهزم أمير جَازان هزيمة شنيعة، وتراجع إلى وادى حُلَب فى الجنوب، وعاث أهل حلى فسادا فى وادى جازان من أعلاه إلى أسفله؛ ثم عادوا إلى وطنهم بعد الاتفاق على هدنة حصلت بينهم وبين أمير جازان(١٣٣) .

فلما سمع الأمير عز الدين بن أحمد بن دريب، أخو أمير جازان، ونائب السلطنة المملوكية بزبيد، عاد بعسكره إلى جازان فى السنة المذكورة؛ولعله جاء فى البداية نجدة لأخيه من سوء ما حل به، وبإمارته على يد أمير حلى، قيس بن محمد الحرامى. ولكن يبدو أنه وصل إلى جازان بعد مغادرة الأمير قيس لها. فدبر مؤامرة على أخيه مع العساكر الجازانية مستغلا تذمر بعض أفرادهم من سوء معاملة أخيه لهم، ناهيك عما بذله لهم الأمير عز الدين من الأموال، والوعود الكثيرة، إن هم ساعدوه فى التخلص من الأمير المهدى، والوصول إلى السلطنة(١٣٤) . فمالوا بأسرهم إلى طاعة الأمير عز الدين الذى استولى على قصر المهدى، ومافيه من الخيل، والعبيد، والسلاح، وسائر الأمتعة. وقبض على

أخيه، ومعه وزراؤه، ورجال دولته، فأعدم بعضهم، وسجن الباقين، ولبث أخوه المهدى أياما فى السجن، ثم مات مخنوقا فى السنة نفسها[١٣٥]

الأمير عز الدين بن أحمد بن دريب بين المطرقة والسندان:

تولى الشريف بن أحمد بن دريب إمارة جازان بعد القبض على أخيه المهدى فى سنة ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م، على الصورة التى سبق إيرادها. وكان الأمير عز الدين قد تمرس فى الأمور الحربية والإدارية قبل توليه الحكم؛ فقد قاد الجيوش فى عهد أخيه ضد عصيان العرب فى حرض، وما جاورها[١٣٦] . وتولى حكم حرض فى عهد أخيه بعد إخماد عصيانها فى حوالى سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م[١٣٧] . وشارك مع الجيوش المملوكية فى الاستيلاء على اليمن، والقضاء على دولة بنى طاهر فى سنتى ٩٢٢/ ٩٢٣هـ/ ١٥١٦-١٥١٧م؛ واشترك فى حكم زبيد مع برسباى المملوكى مدة تزيد على ثلاثة سنوات حتى عودته إلى جازان فى سنة ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وهكذا يتضح، أن تلك الخبرات المتعددة، جعلت من الأمير عز الدين فارس حرب وطعان، ورجل حكم وإدارة، وربما ورثته شيئا غير قليل من النزعة إلى التسرع، والجرأة، والاعتزاز بالنفس.

غير أن الأمير عز الدين لم يعط الفرصة للالتفات إلى شئون إمارته الداخلية، وقضى فترة حكمه القصيرة فى صراع مع جيرانه فى إمارة حلى، ومن ورائهم أشراف مكة المكرمة، ثم مع حلفاء الأمس من بقايا الجراكسة الذين أوصلهم هو وأخوه المهدى إلى حكم اليمن. فما كاد عز الدين يستقر فى حكم إمارة منطقة جازان، حتى بادره أمير حلى، قيس بن محمد الحرامى بالعداوة والبغضاء؛ ولعل ذلك يعود إلى نقض الأمير عز الدين للهدنة التى أبرمت بين أخيه، وأمير حلى فى عام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م والتى ربما كان من أهم شروطها دفع الإتاوة التى كان يدفعها أمراء جازان لأشراف مكة المكرمة. وقد يكون من نتيجة ذلك أن جلب الأمير عز الدين على نفسه غضب الأخيرين ونقمتهم، وعرض بلاده إلى غزوة ثانية شنها عليه أمير حلى فى سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، حيث التقى الأخير بأمير

جازان في موقع يسمى حَضراْن، على بعد حوالى ثلاثة أميال إلى الشمال من وادى ضَمَــد[١٣٨] . فدارت الدائرة على أمير جـازان، وهزمت عساكـره شر هزيمة، وتَراجـع إلى مدينة جـازان، بعد أن قتـل عدد كبير من الأهـالى والأشراف، ومن بينهم الشريف يحيى بن أحمد بن دريب، أخو أمير جازان نفسه[١٣٩] . ولا نعرف النتيجـة التى تـوصلت إليهـا هذه الحملـة، والأهداف التـى حققتها، وإن كـان يفترض أن أمير جازان قبل بـدفع الإتاوة التى كـان يدفعها أسلافـه، بعد أن مُنىِ بالهزيمة على يد الأمير قيس الذى حمله زوال أسباب غزوة لجازان، على العودة إلىَ بلده منتصرا

أما الأمير عـز الدين، فـانه ماكـاد يضمد جـراح الهزيمة التي منـي بها على يد الأمير قيس الحرامـي، حتى تعرض لغـارة أخرى قدمـت عليه من زبيـد، حيث استقـل بها الجراكسـة بعـد زوال دولــة المماليـك في مصر على يـد العثمانيين سنـة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م،ونصبوا أحد قادتهم، ويـدعى الاسكندر أميرا عليهم[١٤٠] . وكـانت أسبـاب هذه الحملـة واضحة، إذ أنهم قـدموا إلى منطقـة جازان في سنـة ٩٢٦هـ/ ١٩٢٠م، انتقـاما لمقتل حليفهـم السابق الأمير المهـدي الذي قدمنـا أنه توفى مخنوقا، وهو مسجون من قبل أخيه الشريف عز الدين الذي غدا بعد انقلابه على أخيه، أميرا لمنطقة جازان. ولما سمع الجازانيون بقدوم تلك الغارة، وأدركوا انهم لاقبل لهم بالمواجهـة، خاصة وانهم خرجوا للتـو من هزيمة شنيعـة ـ لم يكن أمامهم، بمن فيهـم الأمير عز الدين نفسه، إلا مغادرة بلادهـم إلى جهات نائية، وإفساح الطـريق للقوات الغـازية، لتوالي تقـدمها دون مقاومـة. فأشاعـت تلك القوات السلب، والنهـب في المنطقة، ودمر الجراكسة وادي جازان وأحـرقوا من أعـلاه إلى أسفلـه، ثم عـادوا إلى اليمـن[١٤١] . ولما علـم أهـالي جازان، وكـانـوا متعلقين برؤوس الجبال، بـانسحاب القوات الغازيـة عن بلادهم، عـادوا إليها، وعـاد معهـم الأمير عـــز الـديـن الـذي استقــرت لـه الأمـور في امـارتــه بعـد ذلـــك[١٤٢] .وهكذا يـلاحظ أن تلك القـوات لم تكن تهدف إلى احتـلال منطقة جـازان، وإسقـاط الأسرة الحاكمـة بها، وإنما كانـت لها أهـداف معلنـة، وهـي

الانتقام لخلع الأمير المهدي، وقتله، وتأديب الأمير عزالدين بن أحمد بن دريب الذي دبر تلك المؤامرة ضد أخيه. ومع ذلك، فإنها لم تستطع اخفاء أهدافها غير المعلنة التي ربما كانت تتمثل في السلب، والنهب، والاستحواذ على ما يقع في أيدي رجالها من غنائم.

ومهما يكن من أمر، فإن الأمير عز الدين الذي ربما كان يحدوه طموح كبير للرفع من شأن إمارته، وتوسيع حدودها على حساب جيرانها، عندما أطاح بأخيه المهدي ـ وجد نفسه، بعد ماحل به من هزائم، يعيش بين خصمين يتربصان به، ويضغطان عليه، أحدهما من الشمال، ويتمثل في أمير حلي، ومن ورائه شريف مكة، والآخر من الجنوب، ويتمثل في الجراكسة المعروفين باللوند. غير أن الخصم اللدود للأمير عزالدين، وهو الاسكندر، زعيم الجراكسة، مالبث أن قام عليه رجاله بانقلاب قاده كمال الرومي بعد سنة فقط من غزوه لجازان، فتمكن قادة الانقلاب من إسقاط الاسكندر، وقتله، وتنصيب كمال الرومي أميرا عليهم في سنة ٩٢٧ هـ/ ١٥٢١م[١٤٣]. فبدت بارقة أمل جديدة لأمير جازان لتحسين علاقاته بالجراكسة في اليمن، لما قد تربطه بكمال الرومي من علاقات طيبة، اكتسبها أثناء وجوده في زبيد عندما قدم إليها عونا لحسين الكردي، وكذلك عندما كان مساعدا لحاكمها الجركسي برسباي[١٤٤]. ولكن كمال الرومي مالبث أن أطيح به بعد حوالي سنتين ونصف السنة من وصوله إلى الحكم، وتولى الأمر مكانه رجل آخر يعرف بالاسكندر بك القرماني في صفر سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٢م[١٤٥]. وهو أيضا ممن تربطه علاقات حسنة بأمير جازان، وكان على اتصال شخصي به[١٤٦].

هذه الأوضاع غير المستقرة في اليمن، والانقلابات المستفحلة بين القادة الجراكسة أقلقت السلطات العثمانية في مصر، فأرسلت إليها واليا من قبلها هو سلمان الريس، المعروف بالرومي، فلما وصل الريس إلى اليمن، استقبله واليها الاسكندر القرماني بالطاعة[١٤٧]. ولكن القادة الجراكسة رفضوا تسليم الأمر له،

وأعلنوا العصيان على قائدهم الاسكندر وعلى سلمان الريس[١٤٨]. وكان الريس، شأنه شأن الاسكندر القرماني، وثيق الصلة بالشريف عز الدين، أمير جازان، منذ أن كان في اليمن أيام الأمير حسين الكردي - كما قدمنا - فاستعان الريس بالأمير عز الدين، وقبائل المهرة ضد الجراكسة الخارجين عن الطاعة، فوصل الأمير عز الدين إلى زبيد برا، ووصلت المهرة إليها عن طريق البحر[١٤٩] فالتقوا بالجراكسة خارج مدينة زبيد، وتمكنوا من هزيمتهم ودحرهم إلى داخل المدينة، حيث تحصنوا خلف أسوارها، ثم طلبوا الأمان من سلمان الريس، فأعطاهم ماطلبوا، ودخل المدينة تاركا الاسكندر والأمير عز الدين خارجها[١٥٠]. ثم حصل خلاف بين عساكر سلمان الريس أو الرومي وأهل جازان، فآثر أميرهم عزالدين الارتحال إلى بلده تجنبا للفتنة، فتعقبه الأخيرون يريدون الشر، فكر عليهم الجازانيون، وقتلوا منهم نحو مائتين، وقتل من العساكر الجازانية اثنين فقط، كان أحدهما الأمير عزالدين نفسه، وعادت العساكر الجازانية منتصرة، ولكنها فقدت أميرها الذي قتل في السنة المذكورة آنفا على يد حلفائه من رجال سلمان الريس والاسكندر القرماني[١٥١]. وهكذا يلاحظ، أن أمير جازان الذي كان يتطلع إلى علاقات حسنة مع الجراكسة، تمكنه من تقوية مركزه في إمارته، وتقويته كذلك أمام خصومه في جازان وفي خارجها - لم تثمر مساعيه تلك في شيء، سوى أنها قادته إلى حتفه بظلفه.

الأمير محمد بن يحيى بن أحمد بن دريب ومنافسه ابن عمه:

أدى مقتل الأمير عزالدين المفاجيء، خارج الوطن، إلى الاختلاف بين أفراد أسرة آل قطب الدين فيمن يخلفه في منصب إمارة منطقة جازان، وشب النزاع بين ثلاثة من أفراد هذه الأسرة للاستئثار بهذا المنصب. وهؤلاء الثلاثة هم: الأمير أحمد بن محمد المهدي بن أحمد، والأمير أحمد الطاهر ولعله ابن عزالدين، أمير جازان المقتول، وابن عمهما، الأمير محمد بن يحيى بن أحمد الذي قتل والده يحيى بن أحمد في سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، في معركة حضران، وهو يقاتل ضد الأمير

قيس بن محمد الحرامي، أثناء غزوته الثانية لمنطقة جازان في عهد الأمير عزالدين بن أحمد بن دريب[١٥٢] . وهؤلاء الثلاثة كلهم من بيت الإمارة، ومافيهم أحد إلا وكان أبوه أو جده أميرا على جازان. فهم لذلك متساوون من حيث دعوى كل منهم في الحكم، وأحقيته بالامارة، ولكنهم يختلفون في الأهلية لهذا المنصب. ويبدو أن الأمير محمد بن يحيى كان من أفضل منافسيه كفاءة، وأكثرهم أنصارا. وكان كما يصفه النعمان من أهل العقل الراجح، والذكاء المفرط، والسجايا الحسنة، والأخلاق العظيمة[١٥٣] .

فتمكن بفضل كفاءته، وكثرة أنصاره من الوصول إلى كرسي الإمارة في أوائل جمادي الأولى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م[١٥٤] .

غير ان تغلب الأمير محمد بن يحيى على منافسيه، وفوزه بالإمارة دونهما، أثار عليه حقد ابن عمه، ومنافسه الآخر الأمير أحمد بن المهدي الذي غادر جازان إلى زبيد، طالبا اللجوء عند أميرها سلمان الرومي (الريس). ثم أخذ يوغر صدر الأخير ضد الأمير محمد بن يحيى، ويحرضه على غزو بلاده وانتزاعها منه[١٥٥] . فلما أحس الأخير بكيد ابن عمه له، وتدبيره ضده، والوشاية به عند حاكم زبيد؛ أراد أن يفشل خطته، ويحبط كيده؛ فبعث بهدية من الخيل والتحف إلى الأمير سلمان، فقبل الأخير الهدية شاكرا، وصرف النظر عنه إلى حين[١٥٦] . ولكن الأمير احمد لم يتون في الكيد لأمير جازان عند الأمير سلمان الرومي الذي وعده ظاهريا بالنصر، ولم يجاهر بعداوة الأمير محمد بن يحيى، إذ لم تتوافر لديه من الأدلة ماتثبت خطورة أمير جازان عليه، وتهديده لبلاده، حتى يسارع إلى عداوته ومحاربته[١٥٧] . غير أن أحمد بن المهدي واصل جهوده في تأليب الأمير سلمان على أمير جازان محذرا إياه من أن هدية الأمير محمد السابقة، ماهي إلا خدعة غايتها اشغاله حتى يستكمل استعداداته، ويصبح قادرا على مواجهته. فاقتضى الرأي أن يكتب سلمان الرومي إلى الأمير محمد بن يحيى طالبا منه أن يشتري له خيلا، ويرسلها إليه مع رسول مفوض يقبض ثمنها منه[١٥٨] . وكان الهدف من هذا

الطلب معرفة نوايا الأمير محمد، ومدى إخلاصه له، وتجاوبه مع طلبه، ولكن الأمير محمد بن يحيى اعتذر عن تحقيق طلب حاكم زبيد، لقلة الخيل في بلده[١٥٩] . فعاود الأمير سلمان طلبه ببعث رسول من قبله إلى أمير إليه، فاحتجز الأمير محمد بن يحيى رسول حاكم زبيد لديه، ولم يوفر له ماطلب، وأقام مدة ملحوظا بالاحتقار، والإهانة ، والاستخفاف، ولم يأذن له في العودة إلى زبيد[١٦٠] . وبعد إلحاح من رسول صاحب زبيد، أذن له الأمير محمد بالعودة إليها دون أن يعطيه جوابا، أو يقبض ما جاء به من مال، وقال له: أبلغ مولاك السلام، وليس له عندنا طاعة، ولامخالفة، ولا نطاوع عليه عدوا، وإن قصدنا فنحن وهو على الله[١٦١] وقيل إنه قال له: قل لصاحبك: ليس له عندنا طاعة، ولا مخالفة، فإن تركنا تركناه، وإن قصدنا قصدناه[١٦٢] .

فلما عدا الرسول إلى زبيد، وأبلغ سلمان الرومي جواب أمير جازان، غضب الأخير غضبا شديدا، واستدعى أحمد بن المهدي، وأخبره بموقف عمه، أمير جازان، وما أسفرت عنه اتصالات معه، وطلب إليه إبداء الرأي[١٦٣] . فقال له الشريف أحمد: هذا يحقق صدق نصحي، وحقيقة إخلاصي ويوضح لكم سوء نواياه، والرأي أن تبادره بالقتال قبل أن يستكمل أهبته، ويصبح خطرا عليك يصعب تلافيه، وأرجو منك ألا تقبل له عذرا، أو تبرم معه صلحا بعد نهوضك إليه، فإنه خدعة لايتورع إن رآك مقبلا، ولم يتم استعداده ان يذعن ظاهرا حتى ترحل عنه، ثم يعود لمخالفته عليك[١٦٤] .

تجهز سلمان للخروج من زبيد، وأقبل بعساكره إلى جازان، فالتقاه الأمير محمد ابن يحيى برجاله في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٩٣٤ هـ/ ١٥٢٧م، في موضع يسمى القرن، بالقرب من المدب، وفيه دارت رحى المعركة بين الطرفين، حيث قتل الأمير محمد بن يحيى، وتفرق رجاله، فواصل سلمان سيره إلى مدينة جازان، ونزل بها[١٦٥] . فأعلن الأمير أحمد بن المهدي بن أحمد بن دريب أميرا على المنطقة خلفا لابن عمه المقتول، وعاد سلمان إلى زبيد منتصرا، بعد أن شرط على

الأمير احمد مالا، وخيلا يؤديه كل عام[١٦٦] .

الأمير أحمد بن محمد المهدي وبداية ضعف الأسرة القطبية:

وصل الامير احمد بن المهدي الى السلطة بفضل الجراكسة الذين قتلوا ابن عمه، وأعانوه على تولي الامارة بعده، كما تقدم ذكر ذلك أعلاه، ولكنهم - في المقابل - قيدوه بدفع مبلغ من المال، والخيل إلى حكومتهم بزبيد، وفوق ذلك ربطوه بالولاء والتبعية لهم. ويغلب على الظن، أن أمير جازان الجديد الذي لبث زمنا طويلا في إغراء الجراكسة ضده ابن عمه، طمعا في الوصول إلى الحكم، لم يكن راضيا عن ذلك الربط، وربما إنه قبل به لضرورة تحتمها عليه رغبته في انسحاب الجراكسة إلى زبيد، وترك جازان وشأنها. فما كادوا يعودون إلى بلادهم، وتستقر الأمور له في إماراته، حتى سارع إلى التخلي عن ارتباطاته مع سلمان الرومي، وعن الشروط التي فرضها عليه، ورفض تبعية إمارته لزبيد[١٦٧] . وليس مستغربا أن يتنكر الأمير المهدي لحلفائه، ويتخلى عن الشروط التي فرضوها عليه؛ لأن هذه الأسرة حرصت على مدى تاريخها على التمسك باستقلال إمارتهم، وعدم خضوعها لأي جهة خارجية، ولقي عدد من أمراء منطقة جازان، أو المخلاف السليماني مصارعهم في سبيل الحفاظ على استقلال إمارتهم، وبقائها بمنأى عن أي نفوذ خارجي[١٦٨] .

ومهما يكن من أمر، فإن الأمير سلمان الرومي، لما بلغه قرار أمير جازان بعدم تسليم ما التزم به له من أموال، وخيول، ورفضه الانضواء تحت إدارة زبيد، كاتبه، ووسط عليه من يحل خلافاتهما بالطرق السلمية[١٦٩] . ولكن لما لم تجد تلك المراسلات، والوساطات فتيلا، سار من زبيد على رأس قوة عسكرية، ووصل إلى أبي عريش، بالقرب من مدينة جازان العليا، عاصمة الإمارة، وبعث منها إلى الأمير أحمد بن المهدي من يحذوه، وينذره بعاقبة مخالفته، ويطالبه بالأموال التي التزم بها. ولكن الأمير أحمد بن المهدي كرر رفضه لمطالب سلمان الرومي، وعادت الرسل إليه دون أن تحقق أدنى نتيجة[١٧٠] . فتقدم سلمان صوب مدينة

جازان العليا، المعروفة بدرب النجـاء، ونشب القتال بين الطرفين، وبعد معارك حامية، قتل الأمير أحمد بن المهدي، ودخل سلمان المدينـة، فنهب جميع مافيها من الذخائر والأسلحـة والأموال، ثم أمر بتـدمير المدينة، وإحراقها، وإحـراق جميع قرى وادي جـازان من أعـلاه إلى أسفله، وعـاد إلى زبيد في السنـة نفسها، أي في أوآخر سنة ٩٣٤ هـ/ ١٥٢٨م، دون أن يولي عليها أحدا[١٧١] .

وهكذا يتضـح أن حقد الأمير أحمد بن المهـدي، على ابن عمه الأمير محمـد بن يحيى، وعدم التعاون معه، والاستعانة بالقوى الخارجية ضده، وسياسته الهوجاء في عدم التعـاون مع تلـك القوى التي ربـط مصيره بها، وسرعة الانفكـاك عنها ـ أدت إلى قتله بـالسيف الـذي قتل به ابـن عمه الأمير محمـد بن يحيـى، وإلى جلب الخراب والدمـار،على بلده، والتشتيت، والضيـاع لأفراد أسرته، ويبـدو أن قوة الصدمـة التي ألمت بـأسرة الأشراف آل قطب الـدين نتيجـة غزو بـلادهم مـرتين متتاليتين، وقتل اثنين من أمرائهم في سنة واحدة، جعلتهم غير قادرين على تعين أحد رجالهم أميرا على منطقة جازان.

ولما رأى الأمير سلمان الرومي عجز هؤلاء عن اختيار أحدهم لمنصب الامارة، وما نتـج عن ذلـك من فـراغ سياسي في منطقـة جازان، أصبـح لزامـا على زعيم الجراكسة أن يسارع إلى سده. فترجح لديه أن يوليهـا أحد رجاله، فاختار لذلك ابن أخته مصطفى بيرم الذي وصل الى جازان في ذي الحجة من السنة نفسها[١٧٢] ، في أول محاولة تقـوم سلطة خارجيـة ـ على حد علمـي ـ بتعيين حاكـم أجنبي على المخـلاف السليماني، أو منطقة جـازان، منـذ استقـلال بني سليمان بحكـم تلـك المنطقة في أواخر القرن الرابع الهجري/ آخر القرن العاشر وأول القرن الحادي عشر للميلاد. وعلى أية حال، فإن والي جازان الجديد، مصطفى بيرم، شرع منذ توليه حكم المنطقة، في إصلاح ما أفسدته الحرب، وعمل على استتباب الأمن، والنظام في البلاد، وعلى استقرار الأمور فيها[١٧٣] . غير أنه ماكاد ينفذ برنامجه الإصلاحي حتـى حدث في زبيـد مالم يكـن في حسبان مصطفـى نفسـه، ذلك أن طـائفة مـن

الجراكسة من معارضي سلمان الـرومي، انتهزوا فرصة خروجـه إلى غلافقه، على ساحـل البحر بناحيـة زبيد، في شعبان سنـة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م، فانقضـوا عليه، وقتلوه، ونصبـوا على أنفسهم أميرا منهـم، يدعـي خير الديـن، ثم تـوجهوا إلى زبيد، فدخلوها، واعتقلوا من فيها من أنصار سلمان، واستولوا على زمام الحكم بها(١٧٤) . فلما وصلت تلك الأخبار إلى مصطفى بيرم بجازان، وعلم بقتل خاله، وانتقال الادارة في زبيد إلى أيدي خصومه، وأحـس ببوادر انتفاضة تحاك ضده من قبل أهل جازان الذين لم يرق لهم ربط مصير إمارتهم بوجود حاكم أجنبي(١٧٥) - عمـد إلى نهب وادي جازان، وإحـراق قـراه، واستولى على مـافيهـا من أمـوال، ورحل عنها إلى مدينة أبي عريش، ثم واصـل رحلته إلى زبيد، فوصله بعد حوالي نصف شهر مـن قتل سلمان(١٧٦) . ومن هناك استطاع أن يتتبع قتلـةخاله، والثأر منهم، واستعادة الحكـم في زبيد التي أصبحت مـن نصيبه(١٧٧) . ثـم انشغل عـن جازان وأهلها بقتال منافسيه في اليمن(١٧٨) .

الأمير عامر بن يوسف العزيز وسقوط الأسرة القطبية:

كانـت تلك الأحـداث التي أشرنا آنفـا إلى وقوعها في مـدينة زبيـد، تصب في مصلحـة أهل منطقـة جازان، والأسرة الحاكمـة بها؛ لأنها أدت مـن ناحيـة، إلى رحيل مصطفى بيرم عن المنطقة، وشغلته عنها بالثأر لمقتل خاله، واسترداد ملكه باليمن، ثم قتال منافسه على السلطة بعد ذلك. ومن ناحية أخرى، أتاحت لأهل جازان التخلص من الادارة الاجنبية المباشرة التي لم يألفوها في تاريخهم الاسلامي الطويل، والعـودة إلى استقلالهم، وإلى حكم أسرتهم الشرعية. فما كـاد مصطفى بيرم يرحل عن المنطقـة حتى اجتمع أعيانها، وأهل الرأي فيهـا، وقرروا تنصيب الشريف عامر بن يوسف العزيز بن أحمد بـن دريب بن خالد بن قطب الدين أميرا عليهـم(١٧٩) . وأرسلوا وفدا لمقابلة الامير عامر الـذي كان يقيم في الدحن بحازة جازان، وإبلاغه بقرارهم ذلك(١٨٠) . وافق الأمير عامر على رغبة أعيان المنطقة، وسار معهم إلى مدينة أبي عريش، ودخلت البلاد في بداية عهده في مرحلة جديدة

من الاستقرار، والرخاء، واستتباب الأمن، والنظام. وكان نصيب مدينة أبي عريش التي نزل بها عند مبايعته من قبل أعيان المنطقة، كبيرا من حيث ازدهارها، واتساع عمرانها (١٨١) . ويبدو أنه اتخذها مقرا ثانيا له، لاتساع أرضها، وانبساطها، في حين ظلت مدينة جازان العليا التي لاتبعد كثيرا عن مدينة أبي عريش، العاصمة الرسمية، للأمراء السليمانيين في معظم مراحل تاريخهم.

غير أن حياة الاستقرار التي نعم بها الامير عامر بن يوسف العزيز في بداية عهده، مالبثت ان اثارت عليه غيرة حساده، ومنافسة أقربائه، وبصورة خاصة، أبناء عمه المهي الذين جاهروا بمعارضته، وصدعوا بعداوته، ومنافسته على السلطة(١٨٢) . فاضطر الى الاكثار من شراء العبيد المجلوبين من أفريقيا حتى بلغ عددهم ستمائة مملوك، وصرف عليهم بسخاء، ودججهم بالسلاح، واطلق يدهم في البلاد، ومحضهم حرية التصرف في شئون الامارة(١٨٣) . فاستبدوا بالأمور، ولم يطق ضبطهم، وكثرة تعدياتهم على الأهالي الذين ضجوا منهم، وثاروا ضد سياسته الهوجاء الرامية الى الاكثار من هؤلاء الأعلاج الذي اصبح هو نفسه غير قادر على ضبطهم، وحماية الناس من شرورهم(١٨٤) . وزاد من حرج موقف الامير عامر وقوعه تحت ضغط شديد من أمراء حلي، الأعداء التقليديين للاسرة القطبية، من حلفائهم أشراف مكة المكرمة في عهد أبي نمي محمد بن بركات. فاضطر الى اعادة مد الجسور مع الجراكسة في زبيد، أملا في كسبهم الى جانبه، والاستعانة بهم ضد أي خطر محتمل يأتيه من الشمال، من قبل أمير حلي، وحليفه، أمير مكة المكرمة، أو من منافسيه ومعارضيه في الداخل من آل المهدي، أوحتى من عامة الأهالي الذين ضجوا من تجاوزات عبيده عليهم. فأرسل في سنة ٩٣٨ هـ/ ١٥٣١ ـ ٣٢م وفدا إلى زبيد برئاسة المهدي بن الهادي الحكمي، وبصحبته بعض الهدايا النفيسة، فساعد ذلك على إزالة سوء التفاهم بين جازان وزبيد(١٨٥) . وكان ذلك في أول اتصال بين جازان، والجراكسة، أو اللوند في زبيد، منذ رحيل مصطفى بيرم عن المنطقة قبل ثلاث سنوات.

ولكن تلك الاتصالات لم ترض أمير حلي، قيس بن محمد الحرامي، الذي شعر بأن تلك التدابير موجهة ضده، وتهدد أمنه، وأمن بلاده بأقوى الأخطار. فأخذ يتهيأ الفرص، ويعد العدة للانقضاض على جاره من الجنوب. وبعد أن أتم استعداداته، توجه بعساكره إلى منطقة جازان في عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣ـ ٣٤م، وواصل تقدمه دون مقاومة حتى وصل الى مدينة ابي عريش التي انسحب الامير عامر بن يوسف وتحصن في مدينة جازان المعروفة بحصانتها الطبيعية، وقوة أسوارها، وتحصيناتها الحربية(١٨٦).

استقر الأمير قيص في أبي عريش أياما، ثم ترك أثقاله، وحريمه بها، وزحف صوب مدينة جازان العليا، حيث يعسكر الأمير عامر بن يوسف، فما ان اقترب قيس من المدينة حتى تعرض لهجوم مفاجىء من قوات أمير جازان، أجبره على الهروب منهزما صوب الشمال، تاركا متاعه، وزوجته بنت بن شارد في محطته بأبي عريش(١٨٧). وتعقبه الأمير عامر بقواته حتى وصل مدينة بيش، شمالي إمارة منطقة جازان، وقتل من أهل حلي عددا كبيرا، وغنم منهم مغانم جمة(١٨٨). ثم عاد الشريف عامر إلى أبي عريش، واستولى على المحطة التي نزل بها أمير حلي، ونهب جميع ماخلفه فيها من أمتعة، سوى زوجته التي استجارت بالشيخ المهدي بن الهادي الحكمي الذي أجارها، وأنزلها منزله، فلم تمتد إليها يد حتى أوصلها الى زوجها بحلي صحبة ركب الحجيج(١٨٩). وكانت تلك الوقعة التي حدثت يوم أربعاء حتى عرفت بين أهالي المنطقة باسم «ربوع بني حرام» هي أول وقعة ينتصر فيها أمير جازاني على أمير حلي، طوال مدة حكم الامير قيس الذي تقدمت الاشارة الى انه غزا منطقة جازان مرتين متتاليتين في عهد الامير محمد المهدي بن احمد بن دريب، وأخيه الأمير أبي الغوائر عز الدين بن أحمد بن دريب. كما ان ذلك الانتصار ساعد على تعزيز موقف الأمير عامر بن يوسف الغزيز، وعلى تقويته عسكريا، واقتصاديا لكثرة الغنائم التي وقعت في يده(١٩٠).

غير أن تلك الهزيمة لم تفت في عضد الامير قيس بن محمد الحرامي، أمير حلي،

حيث أخذ منذ وصوله الى حلي، يعد العدة، ويجمع العساكر استعدادا للأخذ بثأره من أمير جازان، الشريف عامر بن يوسف العزيز الذي هزمه في الجولة السابقة. واقتضى استعداد أمير حلي للجولة القادمة، استغلال علاقته الشخصية بأبي نمي، أمير مكة، وحليف قيس، لطلب العون، والمساعدة منه(١٩١). فأعانه أبو نمي بعساكر كثيرة، وجعل القيادة عليهم للشريف عجل. وبعد أن اكتملت الاستعدادات، توجه الأمير قيس بما توافر له من عساكر حلي، والمدد الذي حصل عليه من أمير مكة المكرمة، صوب منطقة جازان في سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥ـ٣٦(١٩٢). فلما وصلوها التقاهم أمير جازان بقواته، وهزمهم شر هزيمة، وفر الأمير قيس، والشريف عجل بعساكرهما، وطاردهم الأمير عامر الى خارج حدود منطقة جازان، وقتل كل من وقع تحت يده من رجال القوات المنهزمة، ونهب أمتعتهم وسلاحهم(١٩٣). وهكذا تعرض الأمير قيس لهزيمتين متتاليتين على يد الامير عامر، مما لاعهد له به في غزواته السابقة ضد أمراء جازان. ويبدو ان المماليك الافارقة الذين اعتمد عليهم الامير عامر منذ وصوله الى السلطة، لعبوا دورا كبيرا في ترجيح كفة الاسرة القطبية في حروبها مع بني حرام.

ولما وصلت اخبار تلك الهزيمة الى الشريف ابي نمي محمد بن بركات، امير مكة المكرمة، لم تهن عليه هزيمة حليفه الأمير قيس بن محمد الحرامي، ولا هزيمة عساكره التي كانت تحت قيادة الشريف عجل. فأخذ يستعد لغزو منطقة جازان بنفسه(١٩٤). وعندما اكتملت استعداداته، غادر مكة المكرمة على رأس قواته في سنة ٩٤٣ هـ/ ١٥٣٦ـ ٣٧م متوجها الى منطقة جازان، وبصحبته الأمير قيس بن محمد الحرامي. فلما وصلاها استدعى أبو نمي أهل الفضل، والعلم، وأعيان البلاد، وأرسلهم الى الأمير عامر بن يوسف العزيز يدعوه الى ترك الفتنة، وحقن الدماء، وطلب العفو عما سلف منه من المخالفة، والدخول في طاعته، والالتزام بمال يؤديه إليه كل سنة، ولو كان قليلا، ووعده مقابل ذلك بالعفو، والصلح، واخلاء سبيله، والعودة هو وعساكره من حيث أتوا دون قتال(١٩٥).

امتنع الأمير عامر عن تلبية مطالب أبي نمـي، فوقع القتال بينهما أياما، ثم انهزم الامير عامر، و زحفـت قوات الشريف أبي نمي، والأمير قيس الى مـدينة جازان العيـا، فخربتهـا، وسوت بيـوتها بالأرض، وهـدمت قلعتهـا الشهيرة المعروفـة بالثريا[١٩٦] .

وعاد أبونمي، ومن معه إلى مدينة ابي عريش ظافرا، فأقام بها بقية تلك السنة، ومعظم التـي تليها، ثم غادرهـا عائدا إلى مكة المكـرمة بعد أن ترك بها حـاكما من قبله[١٩٧] .

اما الامير عامر، فإنه خرج بعد تلك الهزيمة هائما على وجهه، فأقام أول الأمر بالحقـار، بين الحرث والعارضـة، ثم تـوجه إلى زبيـد طالبـا النصر من حـاكمها الجركسي الناخوذة أحمد، فلـم يجد عنده وجها، ولم يلتفت إلى طلبه، فـأقام عنده إلى نهاية سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٧م[١٩٨] . ولما يئس من نصرة الناخودة احمد، توجه الى الامام الـزيدي، شرف الديـن يحيى بن شمـس الدين، فقـابله الامام بـالاكرام، وأنعـم عليه، ووعـده خيرا[١٩٩] . ثم أرسلـه إلى ابنه الأمير عز الديـن بن شرف الديـن بصعدة، وطلـب منه أن يرسـل مع الأمير عامـر عسكرا، وعـددا، وعدة لمساعدته في استرداد ملكه بمنطقة جازان. فأقام الامير بصعدة شهرا في ضيافة عز الدين بن الامام شرف الدين حتى جهز لـه عسكرا قويا مسلحا بالبنادق وغيرها، وجعل على رأسه القائدين، قاسم بـن عامر الفليحي، والشيخ ابن بشرية[٢٠٠] . وكان من حسن الصدف ان ذلك الجيش وصل إلى جازان بعد مغادرة الشريف أبي نمي لها، ولم يتمكـن حاكمها مـن قبله من الـدفاع عنها، بـل إنه غادرهـا بمجرد سماعه بقرب وصول الحملة[٢٠١] .فلم يجد الامير عامر والقوات التي معه صعوبة في دخول مدينة جازان في رجب سنة ٩٤٤ هـ/ ١٥٣٧م[٢٠٢] . ووجد أمير منطقة جازان تـرحيبا من أهلهـا، واقبالا شـديدا على تأييـده من عامة الناس بـاعتباره أميرهـم الشرعـي، ووجدوا في عـودته الى ملكه عـودة للحق والشرعية الى أهلها الذين افتقدوها[٢٠٣] . وبقدر الاقبال على الامير عامر، أحس القائدان اللذان قدما

لنصرة أمر جازان، إعراضا عنهما، ونفورا منهما، وتذمرا من وجودهما، ووجود قـواتهما على ارضهم المحـررة، الامر الـذي ربما كان ينـذر ببوادر حـركة ضـدهما لاجبارهما على ترك جازان، والعـودة من حيث أتوا [٢٠٤] . فدبرا مكيـدة للأمير عامر بن يوسف العزيز، وتآمرا على قتله، وتمكنا من تنفيذ ذلك ليلا، حيث وجد في اليوم التـالي مقتولا في داره بـأبي عريـش في شهر ذي القعـدة من السنـة نفسها. فجهـزه السـادة آل الحكمـي، شيـوخ مـدينـــة أبي عـريـش، ودفنـوه في مقـابـل المدينة[٢٠٥] .

وبموت الأمير عامر طويت صفحـة حكم الأسرة القطبية الذي دام حوالي مائة وأربعين سنة منـذ عهد مـؤسسها الأمير خالـد بن قطـب الديـن السليماني. وبعد مقتل الأمير عـامر بعدة أشهر، دخلـت المنطقة مرة أخرى ضـمـن أراضي الخلافة الاسلامية، حيـث ضمها العثمانيون إليهم في سنـة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨ـ ٣٩[٢٠٦] ، وحكمهـا في ظلهم ــ تـابعين لهم، ومستقلين عنهـم ـ بعـض أسر الأشراف مـن خواجيين، وآل خيرات، ثم أدراسة، وعلى يد الأخيريـن خرج العثمانيون منها، واستقلوا بها إلى أن دخلت في القرن الهجري الماضي ضمن الكيان الكبير، المملكة العربية السعـودية، مما يستدعـي دراسات مستقلة لكل أسرة مـن تلك الأسر، أو لكل فترة من تلك الفترات كل على حده.

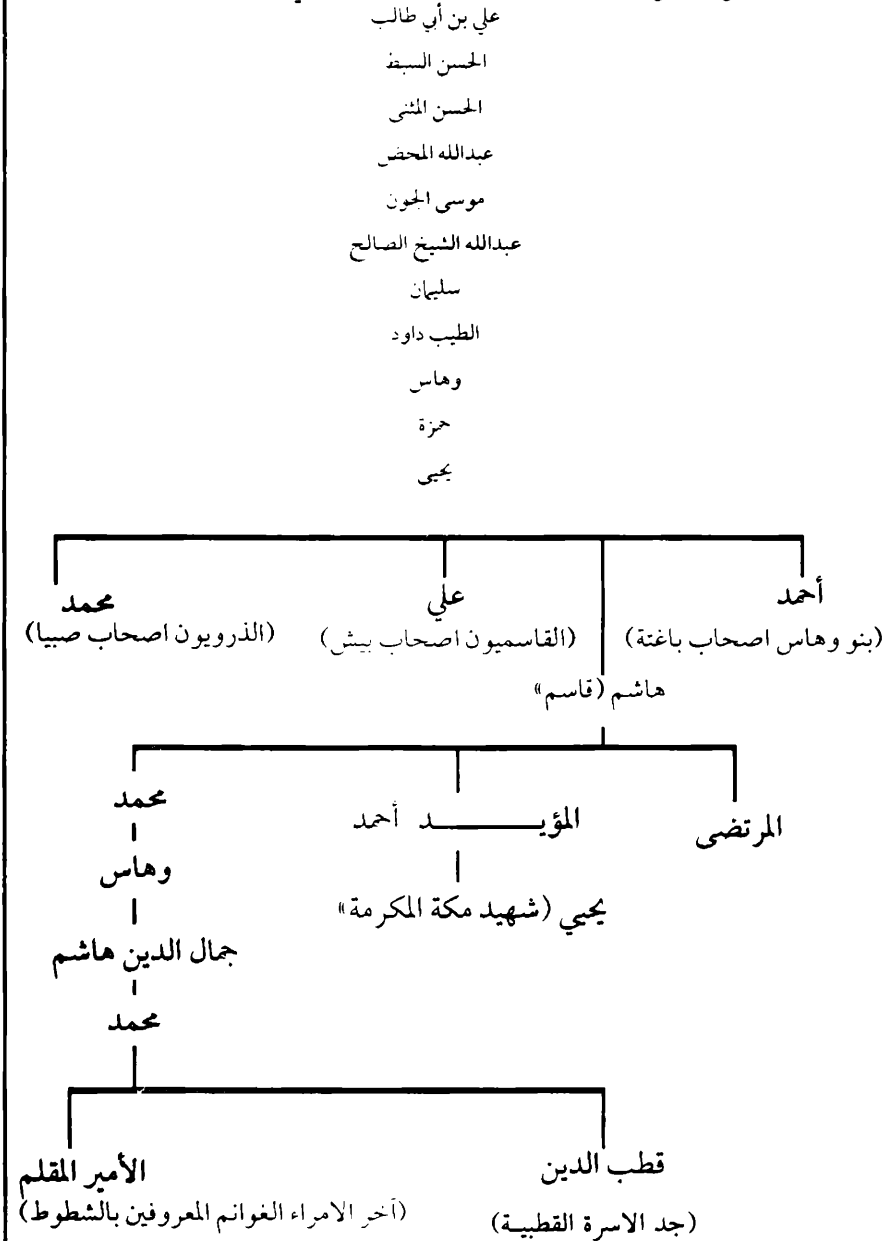
نخلص ممـا سبق إلى أن الأسرة القطبيـة هى فرع آخـر من الأشراف الغـوانم، انتسبوا الى جـدهم الأقـرب الشريف قطب الـدين، والـد مؤســس هذه الأسرة، الأمير خـالد بـن قطب الـديـن الذي ربما كـان من أبـرز الأشراف السليمانيين في زمـانه، نـاهيك عـن قـرابته القـريبـة لآخر الأمـراء الغوانـم مـن حيث النسـب والمصاهرة، بجانب طموحه إلى حكم المخلاف السليماني، والمحافظة على وحدته واستقلاله. وقد برهن على ذلك بأن كانت أولى مهامه استيلاء على مدينة حرض، وناحيتها، مما جلـب عليه غضب السلطان الناصر الرسـولي الذي غزا بلاد الأمير خالد، واقتاده أسيرا إلى زبيد، وكان أن يهدد ملكه بالزوال. غير أن هذه السياسة

الرامية إلى إعادة توحيد المخلاف، مالبثت أن حصد ثمارها ابنه الأمير دريب بن خالد الذي استطاع، بما أوتي من شجاعة ودهاء، أن يفرض نفوذه على حرض، وأن يعيد وحدة المخلاف إلى سابق عهدها، وأن يفتعل من الأسباب الرامية إلى دعمه للمعارضة الداخلية في اليمن، ما يعتقد بأنها جعلته سلاطينه ينشغلون عن مجرد التفكير في العودة الى الاستيلاء على حرض، وضمها مرة أخرى إلى اليمن. ولكن هذه السياسة القائمة على تشجيع المعارضين لجيرانه، أوقعت ابنه أحمد بن دريب في مأزق مع شريف مكة المكرمة الذي ساء أن يتبنى أمير جازان المعارضين لحكمه، الأمر الذي حتم عليه غزو جازان، وتدميرها، واحراقها، ونهب مافيها من الأموال وخزائن السلاح. فعاد أميرها الى مراجعة سياسته تلك، وسعى إلى مد جسور من التفاهم مع بني طاهر في اليمن، وسلاطين المماليك في مصر، وورث تلك السياسة الوفاقية لابنه محمد المهدي الذي شهدت المنطقة في عهده عصيان قبائل حرض، واستطاع ان يخمد ذلك العصيان بفضل سياسته المهادنة لبني طاهر في اليمن، وللأشراف في مكة المكرمة. غير أنه ماكاد يقضي على عصيان حرض، وناحيتها، حتى استعان بالمماليك ضد بني طاهر، مما كان سببا في إسقاط الدولة الطاهرية بزبيد، وتعز في سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، والقبول به شريكا في حكم اليمن.

ولكن تلك الأحداث التي جرت على الساحتين الجازانية واليمنية، أقلقت شريف مكة المكرمة، وحليفه أمير جازان، وأثارت شكوكهما حول نوايا الأمير المهدي، وحلفائه الجدد، تجاه بلادهما؛ فشن أمير حلي، بدعم من أمير مكة، هجوما استباقيا على منطقة جازان، حيث تمكن من هزيمة أميرها محمد المهدي، ونهب بلاده، وإضعافه، والحد من خطورته عليهما. غير أن تلك الهزيمة، التي حلت بالمهدي، لم تعجب أخوه، عز الدين بن احمد بن دريب، الذي كان يحكم زبيد بالاشتراك مع الأمراء الجراكسة، فعاد إلى جازان، وأقصى أخاه المهدي عن حكمها، ونصب نفسه أميرا عليها. ولكنه ما كاد يهنأ بكرسي الامارة، ويهيأ نفسه للثأر لهزيمة أخيه على يد أمير حلي، حتى بادره الأخير بغزو بلاده، وهزيمته

شر هزيمة، ثم تعرض الأمير عز الدين لغزو آخر من الجراكسة الذين كانوا حلفاءه بالأمس، عندما رفض بدوره ان يكون تابعا لهم، أو أن يمكنهم من النيل من استقلال بلاده الذي حافظ عليه أجداده على مدى القرون. فدفع ثمن رفضه ذلك، بأن بذل نفسه رخيصة في سبيل هذا المبدأ الذي كلفه فقدان حياته على أيديهم، مثلما كلف اثنين من خلفائه فقدان حياتهما أيضا، وهما: الأمير محمد بن يحيى بن أحمد بن دريب، والأمير أحمد بن محمد المهدي اللذان قتلا كذلك على أيدي الجراكسة دفاعا عن بلادهما، وحفاظا على استقلالها. فآلت الأمور بعد ذلك في منطقة جازان إلى آخر أمراء هذا الأسرة، الأمير عامر بن يوسف العزيز الذي تمكن بفضل سياسته الرامية إلى الاكثار من اقتناء المماليك الأفارقة، إلى التمكين لنفسه في حكم منطقة جازان، وإلى صد الحملات التي تعرضت لها بلادها من قبل أمير حلي بن يعقوب، ولو أنه لم يستطع الوقوف أمام عساكر الشريف أبي نمي، حاكم مكة المكرمة، الذي تمكن من هزيمته، والقضاء نهائيا على حكم أسرة آل قطب الدين بمنطقة جازان، وضم بلادهم إلى إمارة مكة المكرمة.

أسر الأشراف السليمانيين بالمخلاف السليماني او منطقة جازان



الاسرة القطبيــــــة

أبـــو الغـــارات غـــانـــم بـــن يحيـــي بـــن حمزة

- هسشام (قاسم)
  - محمد
    - وهاس
      - جمال الدين هاشم
        - محمد
          - الأمير المقلم (١)
          - قطب الدين
            - خالد (٢)
              - دريب
                - أبو الغوائر احمد
                  - يوسف العزيز (٣)
                    - عامر (٤)
                  - محمد المهدي
                    - احمد
                  - عز الدين احمد
                    - احمد
                  - يحيى
                    - محمد

(١) آخر الأمراء الغوانم المعروفين بالشطـوط، ومنه انتقلت الامارة إلى الأمير خالد بن قطب الدين.

(٢) مؤسس حكم الأسرة القطبية بمنطقة جازان.

(٣) يسقطه صاحب العقيق اليماني من بين هذه الأسرة.

(٤) آخر الأمراء آل قطب الدين.

الهوامش والإحالات

(١) تقع منطقة جازان فى جنوب غرب المملكة العربية السعودية، ويحدها شمالا منطقة البرك أو برك الغماد التابعة لإمارة مكة المكرمة، وجنوبا حدود المملكة العربية السعودية مع الجمهورية العربية اليمنية، وشرقا إمارة عسير، وغربا البحر الأحمر. وكان يطلق على هذه المنطقة تاريخيا اسم المخلاف السليمانى نسبة إلى أحد حكامها فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وهو سليمان بن طرف الحكمي. وكانت تشمل إلى جانب منطقة جازان الحالية. منطقة حَرَضَ الداخلة الآن ضمن أراضى الجمهورية العربية اليمنية، وكانت عاصمة المخلاف في معظم أطوار تاريخه مدينة عشر أو عثر التاريخية، الواقعة الى الشمال من مدينة جازان الحالية بحوالى خمسين كيلو مترا، ثم مدينة جازان العليا المعروفة (بالدَّرْب) أو (دَرْب النَّجاء) ومنها، أو من الوادى المنسوب إليها (وادى جازان) جاء اسم المنطقة. وقد استمر لفظ المخلاف السليمانى شائعا على هذه المنطقة حتى قيام الأسرة القطبية عندما تغلب سم جازان على اسمها السابق، على الرغم من بقاء حوض داخلة فى منطقة جازان، وخاضعة لسيطرة الأشراف القطبيين حتى زوال دولتهم، وإن كان اسم المخلاف لم يختف نهائيا من المصدر التى عينت بتاريخ هذه المنطقة. انظر: ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٢٧-٢٨، الديبع، بغية المستفيد، ص ٤٠، عاكش، الديباج الخسروانى، مخطوط، ص٤، العقيل، الآثار التاريخية، ص ٢٤-٢٥ ،٣-٥٦؛ المعجم الجغرافى، ص٩ , ١٤-١٥؛ محمد عريشى، أبو عريس، ص١٣-١٥.

(٢) انظر: النعمى، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص٦١، عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص٤، العقيلي، المخلاف السليمانى، جـ١، ص٢ , ٢، وللمؤلف بحث عن بني سليمان الأوائل بعنوان: (بنو سليمان، حكام المخلاف السليمانى، وعلاقاتهم بجيرانهم (بعد عام ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٢م-٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م)، قبل للنشر بحوليات كلية الآداب، جامعة الكويت وسينشر قريبا.

(٣) انظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٨٢؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص٣٢؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٦٢-١٦٣، العقيلي، المخلاف السليمانى، جـ١، ص٢٠٨.

(٤) عاكش، الديباج الخسروانى، مخطوط، ص ٧، النعمي، الواهر اللطاف، مخطوط، ص ٢٢، العقيلي، المخلاف السليمانى، جـ١، ص٢٧٣. تمام سلسلة أنسابهم هو: حمزة بن وهاس بن الطيب داود بن عبدالرحمن بن عبدالله (أبو الفاتك) بن داود بن سليمان بن عبدالله الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. أنظر: ابن عتبة، عمدة الطالب،ص٩٩-١٠٢.

(٥) انظر: عاكش، الذهب المسبوك، مخطوط، ص١٣، النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٢٢. ويبدو أن غانم هو الأصل، وقطب الدين هو الفرع القريب، وإليه انتسب أبناؤه؛ لأن القصائد التي تضمنت مديح بعض الأمراء تقرر هذه الحقيقة، ومن أمثلة ذلك ماقيل فى الأمير المهدي الذى سيأتي ذكره:

القطبي الخالدي الغانمي ... الحيدري الأزهري الفاطمي

القرشي الحسني الهاشمي ... حديث كل الناس في المواسم

ونقطة البيكار من معد

وقيل فيه من قصيدة أخرى:

فــآل غــانــم يــامــولى بنــي حســن
قــواعــد الأمــر إن غــابــوا وإن حضروا

وقيل فيه أيضا:

وملمــومــة قطبيــة غــانميــة
جلبــت على أرض العــدو المحــارب

الجراح بن شاجر، الديوان ص٧٧, ٨١, ٩٢.

(٦) ممن عُمِّر إلى مابعد المائة سنة من الأجداد البعيدين لهذه الأسرة، أبو الفاتك عبدالله، عاش مائة وخمسا وعشرين سنة، وعبدالرحمن بن أبي الفاتك عاش مائة وعشرين سنة، وأحمد بن أبي الفاتك عاش مائة وسبعا وعشرين سنة، وغيرهم تجاوزت أعمارهم المائة عام. انظر: ابن عنبة، عمدة الطالب، ص١٠٠-١٠١.

(٧) البهكلي، العقد المفصل، ص٥٤؛ عاكش، الذهب المسبوك، مخطوط، ص١١؛ وانظر أيضا: الجراح بن شاجر، الديوان، ص١٠٠، هامش ٢.

(٨) انظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٢٨.

(٩) الأمثلة على انتساب أسر الأشراف الحاكمة إلى جد أقرب بالرغم من التقائهم مع من سواهم في جد أبعد، كثيرة ومتعددة؛ من ذلك أشراف مكة مثلاً الذين برز منهم الموسويون، والسليمانيون، والهواشم، والقتادبون، وجميعهم يلتقون في موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. انظر: الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٦, ٣-٣١٥ والصفحات التي بعدهما؛ دحلان، أمراء البلد الحرام، ص ٢٨-٣٦ والصفحات التي بعدهما، أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ٣٩ - ٧٨؛ ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية، ص ١٣-٣٥، ٢٣٩-٢٤٢.

(١٠) انظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط ص١٨١؛ عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص١٢؛ النعمي، الجوهر اللطاف، مخطوط، ص١٣١؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٦٢.

(١١) عن صراع بني سليمان مع الرسوليين حول مدينة حرض وناحيتها، انظر: ابن هيتمل، الديوان، ص٤٨-٥١, ٥٤-٥٥, ٦٠-٦١, ٦٥, ٦٩-٧٠.

(١٢) بعد أن دخلت المدينة المنورة تحت سيطرة الشريف حسن بن عجلان (ت ٨٢٩/١٤٢٦م) منحه السلطان فرج بن برقوق، سلطان المماليك بمصر، لقب نائب السلطنة في الأقطار الحجازية، انظر: الفاسي، العقد الثمين، جـ ٤، ص١٠٥؛ المقريزي السلوك، جـ٤، ص ٧٦؛ ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، جـ١٥, ١٣٥.

(١٣) تعرف المناطق الشمالية من تهامة اليمن باسم تهامة الشام، وتمتد من جنوبي حرض إلى مدينة زبيد، ومن أهم أعمالها: مَوْر، ورَحْبَان، وسُرْدُد، وسهَام، وأشهر قبائلها: القرشيون، والواعظات والزبديون، نسبة إلى مدينة الزبدية، وهم سنة، وبنو حفيص، والمعازبة: انظر، على سبيل المثال: ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص٥٦؛ ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ٣١٣ ب - ٣١٦أ ومابعدها؛ الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص١٠٢ والصفحات التي بعدها في أماكن متفرقة.

(١٤) عن تهديدات قبائل شمال تهامة اليمن. والإمام الزيدي للمناطق الرسولية، انظر: محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢١٧-٢٢٤.

(١٥) ابن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص٥٦٠-٦١.

(١٦) الديبع، بغية المستفيد، ص١٠٢.

(١٧) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص١٢١.

(١٨) الديبع، بغية المستفيد ص ١٠٢-١٠٣؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص ٥٦٢-٦٣.

(١٩) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص١٢١؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص ٥٦٣.

(٢٠) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٢٨.

(٢١) المصدر نفسه والصفحة نفسها؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٧٣.

(٢٢) علماء اليمن، مخطوط، ورقة ١١٣ب، ١١٤أ-ب؛ محمد عبدالعال، بنو رسول، ص٢٣٤-٣٥.

(٢٣) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص١٣٢.

(٢٤) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص ١٣٢ - ٣٣.

(٢٥) المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٧٣.

(٢٦) يورد العقيلي مدينة المنارة فى معجمه، ويذكر بأنها مدينة أثرية لايزال موقعها معروفا جنوب غرب قرية الكواملة على مسيل وادى جازان. انظر: المعجم الجغرافى، ص ٢١٧ - ١٨

(٢٧) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٢٨.

(٢٨) انظر: السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢١٨.

(٢٩) البهكلي، العقد المفصل، ص ٥٤؛ النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ١٢٨.

(٣٠) انظر ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ٢، ص ٦٠٧؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ١٣٥.

(٣١) ابن الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص ١٣٨، محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٣٥-٣٧.

(٣٢) ابن الأهدل، علماء اليمن مخطوط، ورقة ٥ ب.

(٣٣) انظر: ابن الديبع، قرة العيون، جـ١، ص ١٤٣-١٤٨؛ أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص٢٣١؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٤٢-٥٧. يجعل ابن تغري بردي، زوال الدولة الرسولية وقيام الدولة الظاهرية فى سنة ٨٦٠ هـ/١٤٥٦م، بدلاً من التاريخ المشار إليه في المتن، وهو ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٤م. انظر: حوادث الدهور، جـ٢، ص ٦٠٤, ٦٠٧.

(٣٤) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٣١ - ٣٢. وانفرد عامر في أول الأمر بالخطبة والسكة دون أخيه، على الرغم من كونه الأصغر، انظر: الديبع، بغية المستفيد، ص١٢٤؛ بامخرمة، قلادة النحر، جـ٣، ص١١٢١؛ الكبسى، اللطائف السنية، ص ١٢١؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٥٨.

(٣٥) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٣١.

(٣٦) كانت قبائل الجهات الشمالية الممتدة إلى الشمال من زبيد الى حدود حرض، لاتهدأ ثورتها منذ عهد بنى روسل، وكان من أكثر هذه القبائل ثورة على السلطات الحاكمة فى زبيد قبائل المعازبة والقرشيين والزبديين وبني حفيص. انظر: محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٦٠.

(٣٧) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص١٥٣.

(٣٨) الديبع، بغية المستفيد، ص ١٣١.

(٣٩) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص ١٥٩؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص ٦٠٤. في بغية المستفيد، للمؤلف نفسه ص ١٣٣ (بنو حفيص)، ويتفق الدكتور محمد عبدالعال أحمد في كتابه بنو رسول وبنو طاهر، ص ٢٦٠، مع هذه التسمية الأخيرة.

(٤٠) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص١٥٩؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص ٦٠٤.

(٤١) ابن الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص١٥٩ ـ ٦٠.

(٤٢) السخاوى، الضوء اللامع، جـ١، ص ٢٩٩.

(٤٣) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص ١٦٠ ـ ٦٢.

(٤٤) الضوء اللامع، جـ١، ص ٢٢٩.

(٤٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤٦) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٤، ص ٦١٣.

(٤٧) ابن فهد، الدر الكمين، مخطوط،ورقة ١٩ب.

(٤٨) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ ٤، ص ٦١٣.

(٤٩) المخلاف السليماني، جـ٢، ص ٢٧٤.

(٥٠) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٤، ص ٦١٣؛ البهكلي، العقد المفصل، ص ٥٣.

(٥١) الديبع، بغية المستفيد،ص ١٥٥؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٧٤.

(٥٢) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٤، ص ٦١٣، البهكلي، العقد المفصل، ص٥٣.

(٥٣) ابن فهد، الدر الكمين، مخطوط، ورقة ١٩ب؛ الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص١٦٥؛ العصامي، سمط النجوم، جـ٤، ص٢٧٧.

(٥٤) بغية المستفيد، ص١٥٥.

(٥٥) اتحاف الورى، جـ٤، ص٦١٤.

(٥٦) المصدر نفسه، جـ٤، ص ٦١٣ـ١٤.

(٥٧) سمط النجوم العوالي، جـ٤، ص ٢٧٧.

(٥٨) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٤، ص٦١٤؛ الدر الكمين، مخطوط، ورقة ١٩ب، ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية، ص ١٥٧.

(٥٩) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص ١٦٥.

(٦٠) المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٧٥.

(٦١) بغية المستفيد، ص ١٥٦.

(٦٢) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص ١٧٣.

(٦٣) الديبع، بغية المستفيد، ص١٦٣ .

(٦٤) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص ١٧٠؛ بغية المستفيد، ص ١٦٣

(٦٥) انظر: محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٤٦٣ .

(٦٦) محمد العال أحمد، بنو رسول، ص ٤٦٧ .

(٦٧) بامخرمة، قلادة النحر، جـ١، ص١١٤١، وانظر أيضا: محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص٤٦٧ .

(٦٨) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٨٣؛ النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٢٨ .

(٦٩) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص٧٣؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ٢، ص٢٧٥ .

(٧٠) الديبع، بغية المستفيد، ص ١٦٨ .

(٧١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٧٢) ابن الديبع، بغية المستفيد، ص١٧٠؛ قرة العيون، جـ٢، ص١٧٤ .

(٧٣) الديبع، بغية المستفيد، ص١٧٠ .

(٧٤) الديبع، بغية المستفيد، ص٢٠٥ .

(٧٥) الديبع، بغية المستفيد، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٧٦) الديبع، الفضل المزيد، ص ١٩١ـ١٩٢؛ قرة العيون، جـ٢، ص ٢١٠ .

(٧٧) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٤٩ـ٥٠ .

(٧٨) المخلاف السليماني، جـ٢، ص ٢٧٥ . يذكر العقيلي أنه توفي قبل سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩ـ١٥٠٠م، وفي ذلك مناقضة واضحة لروايته المشار إليها. انظر: الجراح ابن شاجر، الديوان، ص٥١ (من مقدمة الشارح).

(٧٩) يذكر الديبع أن الشريف أحمد أبا الغوائر توفي في ليلة السبت العاشر من شهر شوال سنة ٩١١هـ. انظر: الفضل المزيد، ص١٩١؛ وانظر أيضا: بامخرمة، قلادة النحر، مخطوط، جـ٢، ص١١٩٢ .

(٨٠) انظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٢٨، ١٨١ـ٨٢ .

(٨١) الديبع، الفضل المزيد، ص ١٩٨، وانظر أيضا للمؤلف نفسه: قرة العيون، جـ٢، ص٢١٠ـ١١ .

(٨٢) المؤرخ عبدالرحمن بن علي الديبع الشيباني من أهالي مدينة زبيد، ولد بها في أول سنة ٨٦٦ هـ/ ١٤٦١م، وتوفي فيها سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م، انظر: العيدروسي، النور السافر، ص٢١٢ـ٢٢١ .

(٨٣) الديبع، الفضل المزيد، ص ٢٠٤ .

(٨٤) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٩، ٨١. ويورد هذا الشاعر الأمير يوسف العزيز في مواقع أخرى من ديوانه من ذلك قوله:

رحمَ الله أحمد بن دريب ... وسقى صيب الغمام ضريحه

الذي يوم دفنه دفن الجود ... وحلت بالمجد والفضل صيحة

وحذا حذوه العزيز ولكن ... عوقته المقادر المستبيحة

ثم قام المهدى أيده الله ... فأحيا الندا وكان مسيحة

وقوله أيضا:

وأن مـــولانـــا العـــزيـــز يـــوسفـــا فـــاروق وهـــو العـــلـــم الفـــريـــد
وعـــم أهـــل الخافقـــين رزاه وكـــادت الأرض بنـــا تميـــد

انظر: الديوان، ص ٨٧, ١٠٠.

(٨٥) الديبع، الفضل المزيد، ص ٢٠٤. يذكر العقيلي في شرحه لديوان الجراح بن شاجر، ص ٥١ أن العزيز توفي في سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩ـ١٥٠٠م أو سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠ـ١٥٠١م، وهذا يناقض مايذكره أعلاه عن تاريخ وفاة والده في سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١ـ١٢م حيث أعادنا الى الوراء حوالى أحد عشر سنة.

(٨٦) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٧٩ والصفحات التي بعدها.

(٨٧) لم أجد مقدمة للديان من وضع الشاعر نفسه، وماذكر نقلا عن العقيلي من كتابه المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٧٦؛ وانظر أيضا: النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٣٦.

(٨٨) الجراح بن شاجر، الديوان، ص٨٠.

(٨٩) الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٨٣.

(٩٠) الجراح بن شاجر، الديوان، ص١٠٧؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ١٤٧ـ١٥٠.

(٩١) الجراح بن شاجر، الديوان، ص ١١١ـ١٢؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ١٥٥ـ١٥٩.

(٩٢) ومما جاء في تلك المخمسة مايلي:

لم أنــس أيـــام أبـي عـــريـــش حيـــث رياشـــي قلـــنا وريـــشـــي
حيـــث انتهـــت خـــلاعتي وطيشـــي مـــالـــذلي نـــومـــي وطـــاب ريشـــي

إلا بإنعـــام الإمـــام المهـــدى

القطـــبي الخالـــدى الغـــانمـــي الحيـــدرى الأزهـــرى الفـــاطمـــي
القرشـــي الحسنـــي الهاشـــمي حـــديـــث كـــل النـــاس في المـــواسم

ونقطـة البيكـــار مـن معـــد

غضنفـــر الهيجـــاء طعـــان الثـــغر فـــارس عـــدنان إذا النقـــع انتشـــر
القمـــر التـــم لنـــا وابـــن القمـــر الـــواهب الخيـــل الصحيحـــات الغـــرر

المقربات الصافنـات الجـــرد

سنـــانـــه يهوى النحـــور والكـــلا وسيفـــه يهوى الـــرؤوس والطـــلا
مـــن آل قطـــب الـــديـــن أربـــاب العـــلا دع غيرهـــم فإنهـــم أهـــل الملا

أهـل المعـالي ورجـال المجـد

لازال خفـــاقـــا عليـــك العلـــم سيفـــك مـــاض في الـــورى والقلـــم
فـــأنـــت في النـــاس جيعـــا حكـــم يـــاحـــامـــي المجـــد وياغشـــمشم

لـؤلـؤة فـوق جبـاه الأسـد

انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٧٧؛ النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٨١؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٩ ـ ٩٠.

(٩٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٤٨ .

(٩٤) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٨١ .

(٩٥) عاكش، الذهب المسبوك، مخطوط، ص١١، وانظر أيضا: الجراح بن شاجر، الديوان، ص١١، هامش ٢.

(٩٦) انظر على سبيل المثال: النعمي: الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٣١-٣٢، العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٧٦-٢٨١.

(٩٧) الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٣٧, ٨٤, ٨٥, ٨٦.

(٩٨) يظن ان لبعض فئات المماليك الذين بدأت طلائعهم تصل الى المنطقة، دورا في أحداث حرض، أو على الأقل ساعدوا على استفحالها كما سيأتي.

(٩٩) الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٩٠.

(١٠٠) حيرانهم وبداحهم: حيران والبداح، الأول واد، والثاني موقع بناحية حرض، انظر: المقحفي، معجم البلدان اليمنية، ص٢١١؛ العقيلي، المعجم الجغرافي، ص ٥٧.

(١٠١) الجراح بن شاجر، الديوان، ص٩١.

(١٠٢) الذرماء، يفهم من السياق ان موقعها بناحية حرض.

(١٠٣) الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٩٢.

(١٠٤) الخور: يفهم من السياق انه بناحية حرض، ويفهم من المعنى انه قريب من البحر. أي ربما يكون بساحل حرض. وانظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٩٢، هامش٢

(١٠٥) الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٩٥-٩٦.

(١٠٦) يُعَرف العقيلي بالمواقع والقبائل المذكورة في حواشي ديوان الجراح بن شاحر، انظر: ص ٨٤ - ٨٦، ٨٨، ٩٠ - ٩٥.

(١٠٧) الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٨٨-٨٩.

(١٠٨) من هذه القبائل، آل هضام، وكعب، وآل ذروة، وبنو معافا، والحوازم، والبكارية، وبنو شبيل، وغيرهم انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٩٣-٩٥.

(١٠٩) الفضل المزيد، ص٢٢٦. من المحتمل أن هذه الوفادة التي قام بها صاحب حرض هي لأخيرة، لأن السلطان الظاهري يبدو أنه سعى بالوساطة بين بني سبأ، والأمير المهدي، وأن هذه الوساطة توصلت إلى حل يتولى بمقتضاه الأمير عز الدين، أخو المهدي، حكم حرض، وأن يكون الشيخ مناع مساعدا له. ولكن الأمير المهدى ربما لم يقبل بهذا الحل. انظر: الديبع، الفضل المزيد ص٢٢٦.

(١١٠) يبدو مما جاء في ديوان الشاعر الجراح بن شاجر، أن الأمير ربما كان يتوجس خيفة من أن هناك من يسعى في الكيد له عند السلطان الملك عبدالوهاب بن عامر، ومن المحتمل أن أحدهم كان مناع بن سبأ المذكور، وأن أمير جازان كان يخشى أن تجد تلك السعاية أذنا صاغية من السلطان عامر، يتضح ذلك من القصيدة التي كتبها للأخير، ومنها:

فكن على الحال يامن لانظير له ولاتطع كل واش ثم إمعانا

فنفى السلطان أن يكون ممن يصدق نميمة أو وشاية بأمير جازان، وطيب خاطر، وطمأنه بالبيت التالي:

فما استمعنا لمن قد نم أو مانا أو التفتنا لمن قد قال بهتانا

انظر: ص ١٠٥، ١٠٨.

(١١١) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص ١٠٤.

(١١٢) الديبع، الفضل المزيد، ص ٢٠٧.

(١١٣) الديبع، الفضل المزيد، ص ٢٢٠.

(١١٤) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٩٨-١٠٥، ١٠٩-١١٠.

(١١٥) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان ص ١٠٦-١٠٨، ١١١-١١٤. تباينت ردود الزعيمين اليمنى والمكي؛ ففي حين يطالب سلطان بني طاهر بإشراكه فى بعض ما غنمه المهدي من أهل حرض، يعرض أمير مكة خدماته بإرسال عساكر من قبله لمساعدة أمير جازان ضد خصومه. انظر: المصدر نفسه، ص ١٠٨، ١١٣.

(١١٦) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٥٢.

(١١٧) عندما قتل عبدالنبي بن مهدي (ت٥٦٩/ ١١٧٤م) الأمير وهاس بن غانم، أمير المخلاف السليمانى فى سنة ٥٦١ هـ/ ١١٦٦م، واحتل بلاده، وانتهك حرماته، استنجد أخوه قاسم بن غانم (ت٥٦٩/ ١١٧٤م) بالخليفة العباسى، أو بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، مما كان سببا في غزو بني أيوب لليمن فى سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، واحتلالها، والبقاء فى حكمها حتى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، عندما توفي آخر ملوكها من بنى أيوب وهو الملك المسعود، وانتقال الحكم منهم إلى سلاطين بني رسول على يد مؤسس الدولة الرسولية السلطان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول.

انظر: على سبيل المثال: الخزرجى، العسجد المسبوك، ص١٤٧، ١٨٩؛ الديبع، قرة العيون، جـ١، ص٢٧٦، ص٣؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ١، ص ٣٢٢، ص ٤١٨-٤٩.

(١١٨) الديبع، الفضل المزيد، ص٢٨٠، وانظر أيضا: النهروالى، البرق اليماني، ص ٣١.

(١١٩) لمعرفة ضغط القوات الطاهرية على الجهات الشامية من تهامة، إلى الجنوب من منطقة حرض، انظر: الديبع، قرة العيون، ص ١٩٦-٢٢١.

(١٢٠) الديبع، الفضل المزيد، ص ١٥٩.

(١٢١) الديبع، الفضل المزيد، ص ٢٦٩.

(١٢٢) النعمان، العقيق اليمانى، مخطوط، ص ١٥٢؛ العقيلي، المخلاف السليمانى، جـ١، ص ٢٨٢.

(١٢٣) النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ١٥٣؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٣٣؛ العقيق، المخلاف السليمانى، جـ١، ص ٢٨٣.

(١٢٤) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٥٢.

(١٢٥) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، جـ٢ ص ٦٤٢-٤٥؛ ابن لطف الله، روح الروح، ص ١٧-٢٢؛ النهروالى، البرق اليماني، ص ٢٠-٢١؛ الواسعي، فرجة الهموم، ص ٢١٥؛ عبدالله الشماحي، اليمن، ص ١٣٠.

(١٢٦) الديبع، الفضل المزيد، ص٢٨٠؛ ابن لطف الله، روح الروح، ص٢٢.

(١٢٧) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص ٢٢٦؛ يحيي بن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص٦٤٥؛ الواسعى، فرجة الهموم، ٢١٦، عبدالله الشماحي، اليمن، ص ١٣٠.

(١٢٨) الديبع، الفضل المزيد، ص ٢٨١؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٣٦؛ أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ٢٤١؛ العرشي، بلوغ المرام، ص ٥٨.

(١٢٩) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص ٢٢٨-٣٢؛ النهروالي، البرق اليماني، ص٢٢.

(١٣٠) الديبع، الفضل المزيد، ص ٢٨٨، ابن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص ٦٥٠-٥١؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٣٩؛ أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص ٢٤٢؛ الواسعي، فرجة الهموم، ص٢١٦؛ العرشي، بلوغ المرام، ص ٥٤، ٥٨.

(١٣١) كانت إمارة حلي، الواقعة إلى الشمال من المخلاف السليماني، وإلى الجنوب من إمارة مكة، تخضع خضوعا اسميا لإمارة مكة المكرمة منذ عهد الشريف حسن بن عجلان، ولكنها ما لبثت أن ضمنت إلى إمارة مكة في سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦-٧، واحتفظ حكامها بنو حرام الكنانيون بتوارث الحكم فيها مع خضوعهم المباشر لأشراف مكة المكرمة. انظر: احمد الزيلعي، «بنو حرام، حكام حلي، وعلاقاتهم الخارجية»، ص ١١٩-١٢٢.

(١٣٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥١، وانظر أيضا: النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص١٥١، والصفحات التى بعدها.

(١٣٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥١؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨١. يبدو ان هذه الغزوة سبقتها تحرشات من جانب أمراء حلي؛ لأن النعمي في كتابه الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ١٥١ يذكر أن «الأمير قيس «أمير حلي» لايزال من الجانب الشمالي يغير على أطراف ممالك المهدى، ففتح باب المراسلة ليقطع علائق الحرامي من ملوك مكة، وليسلم دواعي المشاغلة، فقال:

مـــــالي إذا هـــــب النســـــيم القبلي
مبكـــــرا إلا وذبـــــت كـــــلي

ومن المحتمل أن المهدي استطاع بسياسته ايقاف تهديد أمراء بني حرام، وأمراء مكة إلى حين، ولكن الأمر تغير بعد أن أصبح يستند إلى تأييد المماليك، ودعمهم وبعد أن أصبح شريكا في حكم اليمن، مما كان يدعو إلى الخشية من تهديده للإمارتين معا.

(١٣٤) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٥٢.

(١٣٥) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١ ص ١٨٣.

(١٣٦) ورد ذكر عز الدين ضمنا فى الأشعار التى قيلت فى معارك حرض ضد خصوم الأمير المهدى، مثال ذلك قول الشاعر

وحـــولـــك صنـــو وابـــن عـــم سميـــدع
وخـــل ومـــولى مخلـــص ومصـــاحـــب

فربما يعني بالصنو عز الدين بن أحمد بن دريب، انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٨٩.

(١٣٧) انظر: الديبع، الفضل المزيد، ص ٢٢٦.

(١٣٨) الكبسي، اللطاف السنية، ص ١٤٥، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٤.

(١٣٩) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٥٣؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٤٥.

(١٤٠) انظر النهروالي، البرق اليماني، ص ٣٣؛ ابن لطف الله، روح الروح، ص ٢٧، ٢٩؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٣٨.

(١٤١) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط. ص ١٥٤.

(١٤٢) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٤٨؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٨٤.

(١٤٣) النهروالي، البرق اليماني، ص ٣٥، عبدالله الشماحي، اليمن، ص ١٣٣.

(١٤٤) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٨٤.

(١٤٥) النهروالي، البرق اليماني، ص ٣٦؛ عبدالله الشماحي، اليمن، ص ١٣٣.

(١٤٦) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ٢، ص ٢٨٥ ـ يذكر النعمان أنه خلف كمال الرومي رجل منهم يسمى علي الطويل، ولكنه لم يستمر في زعامته الجراكسة، حيث خلع في الحال، واستبادل بالاسكندر المذكور.

انظر: العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٥٦.

(١٤٧) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥١.

(١٤٨) النعمان، العميق اليماني، مخطوط، ص ١٥٧.

(١٤٩) النهروالي، البرق اليماني، ص ٣٩؛ النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٥٧.

(١٥٠) النهروالي، البرق اليماني، ص ٣٩، العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٩٨.

(١٥١) انظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٥٧؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥١؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٥، ٢٩٨، ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(١٥٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٥٣.

(١٥٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٥٨.

(١٥٤) النعمان، المصدر نفسه، والصفحة نفسها؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥١.

(١٥٥) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٦.

(١٥٦) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥٥.

(١٥٧) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٤.

(١٥٨) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥٦.

(١٥٩) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٤ ـ ٦٥.

(١٦٠) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥٦، العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٦ ـ ٨٧.

(١٦١) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٥.

(١٦٢) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٧.

(١٦٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٥.

(١٦٤) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٧.

(١٦٥) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥٦.

(١٦٦) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٥ ـ ٦٦.

(١٦٧) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥٦؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٧ ـ ٨٨.

(١٦٨) قتل من أجدادهم في سبيل هـذا المبدأ عدد نذكر منهم: وهاس من غانم، قتيـل عبدالنبي بن مهدي في سنة ٥٦١ هـ/ ١١٦٦م، والمؤيد بن قاسم بن غانم، قتيل الأيوبيين في حوالي سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩م، وقتل عدد منهم على يد الرسوليين، انظر: ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطـوط، ورقة ٢٧٧أ؛ باخرمة، تاريخ ثغر عدن، جـ١، ص ٣٦٦؛ ابن هتيمل، الديوان، ص ٥٤.

(١٦٩) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٨.

(١٧٠) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٦.

(١٧١) النعمان، المصدر نفسـه والصفحة نفسها؛ الكبسي، اللطائف السنيـة، ص ١٥٦؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ١٨٨.

(١٧٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٦؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥٦.

(١٧٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٦.

(١٧٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥٦؛ عبدالله الشماحي، اليمن، ص ١٣٤.

(١٧٥) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(١٧٦) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٧؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥٦.

(١٧٧) النهروالي، البرق اليماني، ص ٥٣ ـ ٥٤، اللطائف السنية، ص ١٥٦؛ عبدالله الشماخي، اليمن، ص ١٣٤.

(١٧٨) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٩. يذكر النهروالي أن مصطفى بيرم لما رأى الأوضاع غير مستقرة في اليمن، والتنافس محتدما بين قادة اللوند، توجه إلى الهند في سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م، ونزل على سلطان كجرات، وأصبح له هناك شأن عظيم. انظر: البرق اليماني، ص ٥٤ ـ ٥٥.

(١٧٩) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥٦، انظر أيضا: النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٣٧.

(١٨٠) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٧ ـ ٨.

(١٨١) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٩.

(١٨٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٨.

(١٨٣) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥٧؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٨٩.

(١٨٤) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٦٨؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١ ص ٢٨٩.

(١٨٥) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٧٠؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ص ٢٨٩ ـ ٩٠.

(١٨٦) انظر: الكبسي، اللطـائف السنية، ص ١٦١؛ العقيلي، الآثار التـاريخية، ص ٥٣ ــ ٥٦؛ المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٩٠.

(١٨٧) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٧١ ـ ٧٢.

(١٨٨) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٦١.

(١٨٩) النعمان، العقيق اليماني، ص ١٧٤.

(١٩٠) النعمان، المصدر نفسه والصفحة نفسها، الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٦١.

(١٩١) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ٢، ص ٢٩١.

(١٩٢) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٦١.

(١٩٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٧٧.

(١٩٤) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٩١.

(١٩٥) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٧٩.

(١٩٦) ابن هتيمل، الديوان ص٢٠ من تعليقات الشارح؛ الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٣٣؛ البهلكي، العقد المفصل، ص ٥٣؛ العقيلي، الآثار التاريخية، ص ٤٩.

(١٩٧) النهروالي، البرق اليماني، ص ٨٨؛ النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٧٩ ـ ٨٠.

(١٩٨) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٦٢.

(١٩٩) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٧٩.

(٢٠٠) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٨٠. هذا الخبر المتمثل في استعانة الأمير عام بالإمام الزيدي ينفرد به مؤرخو المخلاف السليماني الذين يجمعون من ناحية أخرى على أن سقوط الأسرة القطبية تم على يد أبي نمي، ولم أجد لذلك الخبر سندا فيما وصل إلى يدي، من المصادر المكية والمصادر الزيدية المعاصرة.

(٢٠١) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٩٢.

(٢٠٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط،ص ١٨٠؛ المخلاف السليماني، ص ٢٩٢.

(٢٠٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٨٠.

(٢٠٤) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٩٢.

(٢٠٥) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٨٠.

(٢٠٦) انظر: النهروالي، البرق العثماني، ص ٨٨، النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٨٤ ــ ١٨٥؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٦٧؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٣٠٨.

المصادر والمراجع

أحمد حسين شرف الدين،

— اليمن عبر التاريخ، ط (٣)، الرياض، مطابع البادية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

أحمد عمر الزيلعي،

— «بنو حرام، حكام حلي، وعلاقاتهم الخارجية»، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، مج (١٥)، عدد (١) الرياض، عمادة شئون المكتبات، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

مكة وعلاقاتها الخارجية، انظر الأصل ص ٥٣.

ابن الأهدل، حسين بن عبدالرحمن بن محمد،

— علماء اليمن، مخطوط، المتحف البريطاني، رقم ١٣٤٥.

بامخرمة، أبو محمد عبدالله الطيب،

— تاريخ ثغر عدن، ليدن، ١٩٣٦م

— قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، مخطوطة مصورة، دار الكتب القومية بالقاهرة رقم ١٦٧ تاريخ

البلادي، عاتق بن غيث،

— بين مكة واليمن، رحلات ومشاهدات، ط (١)، مكة المكرمة، دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

البهلكي، علي بن عبدالرحمن،

— العقد المفصل بالعجائب والغرائب في دولة الشريف أحمد بن غالب، تحقيق محمد بن أحمد العقيلي، جدة، مطابع دار البلاد، دون تاريخ.

ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف،

— حوادث الدهور، في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين

عز الدين، ط ١، القاهرة، عالم الكتب، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
— النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، **المؤسسة المصرية العامة** للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

الجراح بن شاجر الذروي؛
— ديوان الجراح بن شاجر المخلاف السليماني، دراسة وتحليل **محمد أحمد** عيسى العقيلي، ط١، الرياض، مطابع الرياض، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

ابن حاتم، الأمير بدر الدين اليامي؛
— السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، **تحقيق** ركس سميث، لندن، لوزاك، ١٩٧٤م.

ابن الحسين، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد؛
— غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد **عبدالفتاح عاشور ومحمد** مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتاب العربي **للطباعة والنشر**، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

الخزرجي، أبو الحسن علي بن الحسن الأنصاري؛
— العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، ط١، صنعاء، **وزارة** الإعلام والثقافة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
— العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن، مخطوط، **مكتبة الجامع** الكبير الغربية بصنعاء رقم ٣٣٨.
— العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد **بسيوني عسل**، القاهرة، مطبعة الهلال بالفجالة، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م.

دحلان، أحمد زيني؛
— أمراء البلد الحرام، بيروت، الدار المتحدة، دون تاريخ.

الديبع، عبدالرحمن بن علي بن محمد؛
— بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبدالله الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٧٩م.

— قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٧٤هـ.
— الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد، تحقيق محمد عيسى صالحية، ط١، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

السخاوي، محمد بن عبدالرحمن؛

— الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، دون تاريخ.

ريتشارد مورتيل؛

— الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الرياض، عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

عاكش، الحسن بن عبدالله بن عبدالعزيز؛

— الديباج الخسرواني بذكر المخلاف السليماني، مخطوط، جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي.
— الذهب المسبوك في ذكر من تولى المخلاف السليماني من الملوك، مخطوط، جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي.

عبدالله الشماحي؛

— اليمن الانسان والحضارة، القاهرة، الدار الحديثة للطباعة والنشر، دون تاريخ.

عبدالله الثور؛

— هذه هى اليمن، ط (٢) ، بيروت، دار العودة، ١٩٧٩م.

ابن عبدالمجيد، تاج الدين عبدالباقي اليماني؛

— تاريخ اليمن، المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، دار العودة، بيروت، دار الكلمة، صنعاء، دون تاريخ.

العرشي، حسين بن أحمد؛

— بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام، تحقيق الأب انستاس ماري الكرملي، القاهرة، مطبعة البرتيري، ١٩٣٩م.

العصامي، عبدالله بن حسين؛

— سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، القاهرة، المطبعة السلفية، دون تاريخ.

العقيلي، محمد أحمد؛

— تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي، الرياض، مطابع الرياض، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

— المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، مقاطعة جازان، (المخلاف السليماني)، الرياض ـ منشورات دار اليمامة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

— الآثار التاريخية في منطقة جازان، الرياض، دار اليمامة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ابن عنبة، أحمد بن علي الداودي الحسني؛

— عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، دون تاريخ.

العيدروس، محيي الدين عبدالقادر بن شيخ عبدالله؛

— تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، مكان الطبع وتاريخه والناشر غير معروفة.

الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد المكي؛

— شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

— العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، الجزء الأول، تحقيق محمد حامد الفقي، الأجزاء من ٢ ـ ٧ تحقيق فؤاد سيد، الجزء الثامن، تحقيق محمود محمد الطناحي، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

ابن فهد، نجم الدين عمر بن فهد بن محمد؛

— اتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق عبدالكريم علي الباز، ط ١، مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

— الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي، مخطوطة مصورة بجامعة الملك سعود، رقم ف ١٩.

ابن فهد، عبدالعزيز بن نجم الدين عمر؛

— بلوغ القرى بذيل اتحاف الورى بأخبار أم القرى، مخطوطة مصورة بجامعة الملك سعود، رقم ف ٧٣/ ١.

الكبسي، بدر الدين محمد بن اسماعيل بن محمد الحسني؛

— اللطائف السنية في أخبار المماليك اليمنية، القاهرة، مطبعة السعادة، دون تاريخ.

ابن لطف الله، صارم الدين عيسى؛

— روح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، دمشق، دار الفكر، ١٩٨١م.

ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب؛

— تاريخ المستبصر، تحقيق لوفجرين، ليدن، بريل، ١٩٥١م.

محمد جاسر إبراهيم عريشي؛

— أبو عريش، الرياض، الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

محمد عبدالعال أحمد؛

— بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الاسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الاسكندرية، ١٩٨٠م.

المقحفي، إبراهيم بن أحمد؛

— معجم البلدان اليمنية، ط (٢)، صنعاء، دار الكلمة

١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي؛

— كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، دار الكتب، ١٩٥٧ ـ ١٩٧٣م.

الملك الأشرف، عمر بن يوسف بن رسول؛

— طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق ك.و. سترستين، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م.

النعمان، عبدالله بن علي الشقيري؛

— العقيق اليماني في حوادث ووفيات المخلاف السليماني، مخطوط جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي.

النعمي، محمد بن حيدر؛

— الجواهر اللطاف المتوجه بهامات الأشراف من سكان صبيا والمخلاف، مخطوط، جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي.

النهروالي، قطب الدين المكي؛

— البرق اليماني في الفتح العثماني، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

الواسعي، عبدالواسع بن يحيى اليماني؛

— تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، ط(٣)، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

ابن هتيمل، القاسم بن علي؛

— ديوان الشاعر ابن هتيمل، تحقيق محمد أحمد العقيلي، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

****

التطلعات الإيرانية في البصرة
على عهد كريم خان الزند
(١٧٧٤ ـ ١٧٧٩)

دكتور / مصطفى عقيل
أستاذ مساعد بقسم التاريخ
جامعة قطر

تمهيـــد :

أولت الحكومات الايـرانية الحديثة اهتماما زائدا بالأراضي العـراقية لأسباب أمنية واقتصادية ومذهبية منذ أن أقام اسماعيل الصفوي دولته الحديثة في إيران في عام ١٥٠٠ على أنقاض دولة الاق قيونلو التركمانية واحتل عاصمتها تبريز .

اتخذت أُسرة الاق قيـونلـــو من بغـداد حــاضرة لـدولتهـا بعـــد ان اوقع بها الصفويون فأرغموها على الفرار من تبريـز . لكن الحكومة الايرانية «الصفوية» لم تفسح المجـال للأسرة التركمانيـة بالانتشـار والاستقرار فتتبع اسماعيل الصفـوي فلول الدولة المنهارة الى بغداد في عام ١٥٠٨ وتمكن من احتلال العاصمة . ومنذ تلك الفترة غـــدت الاراضي العـراقيـــة حلبـــة ذلك الصراع وأصبحت هـدفـــا استراتيجيا للحكومات التي تـوالت على العرش الايراني لاسيما في الاوقات التي كانت تتمتـع فيها تلك الحكومـات بالقـوة العسكرية التـي يسرت لها الطريق الى التوسع والسيطرة على حساب الدول المجاورة الضعيفة .

ومما لاشك فيه ان الحدود المشتركة بين الدولتين والتي تبلغ اكثر من ١٢٨٠كم وتداخل القبائل القـاطنة على طول هذه الحدود في علاقـاتها النسب والمصاهرة ، فضلا عن وجود العديد من الاماكن المقـدسة عند الشيعة مثل الكربلاء والنجف كان يشكل عوامل قوية شجعت الحكومات الايرانية على تبني السياسة التوسعية في الاراضي العـراقيـة ، ولـو تتبع البـاحث الاحـداث والحروب التي وقعت بين

ايران والعراق منذ القرن السادس عشر لأيقن أنها كانت مستمرة الى يومنا هذا. وعلى سبيل المثال، فقد ثار حول مشكلة الحدود الكثير من الجدل والنقاش وقامت الحروب والمباحثات والاجتماعات، الا ان هذه المشكلة لم تجد حلا مرضيا للاطراف المتنازعة. ذلك انها لاتنحصر في المناطق المتاخمة لحدود الدولتين فحسب وانما هناك المسائل الجوهرية ومن أهمها القضية الامنية والمذهبية والامتداد الاستراتيجي لكل من الطرفين. وهكذا فشل اسماعيل الصفوي في الاحتفاظ بمدينة بغداد مما مهد الى تحررها في عهد السلطان سليمان القانوني.
على ان الاطماع الايرانية سرعان ما اتجهت نحو الاراضي العراقية في عصر الشاه عباس الاول (١٥٨٧ ـــ ١٦٢٩) بعد ان أوقعت القوات الايرانية الهزيمة بالبرتغاليين في هرمز عام ١٦٢٢ واخذت تزحف على بغداد والبصرة في العام اللاحق. وتمكنت من احتلال بغداد عام ١٦٢٣، لكن البصرة غدت سدا منيعا امام المطامع الايرانية مما حال دون استمرار القوات الايرانية في حصارها مدة طويلة من الزمن وكان أن روجت شائعات في المدن الايرانية مفادها ان القوات الايرانية دخلت البصرة في عام ١٦٢٩ وأقيمت في إيران الاحتفالات بهذه المناسبة، الا ان تلك الاشاعات كانت عارية من الصحة، فبعد وفاة الشاه عباس الاول انسحبت القوات الايرانية من البصرة وفك الحصار حول المدينة (١).

البصـرة:

حظيت مدينة البصرة بنصيب كبير من الحروب والمناوشات التي وقعت بين الدولتين الايرانية والعثمانية. وسبب ذلك يعود إلى ان هذه المدينة تعتبر الميناء الرئيسي للعراق على شط العرب فضلا عن اهميتها الاقتصادية التي تعود بالنفع الكثير على المدن الايرانية الهامة الواقعة في الحدود القريبة من العراق، حيث كانت تلعب دورا كبيرا في نقل السلع الصادرة والواردة من تلك المدن، واصبحت بذلك مركزا تجاريا مرموقا ازدادت أهميتها منذ أوائل القرن السابع عشر عندما لجأت اليها المراكز التجارية البرتغالية اثر طردها من جزيرة هرمز. وقد أبدى المسئولون في الشركتين البريطانية والهولندية تخوفهم من انتعاش

التجارة في هذا الميناء على حساب الموانىء الايرانية(٢).

أما الحكومـة الايرانية فقد ادركت مـا انطوت عليه مدينـة البصرة من خطورة بعد ان وجدت النمو الاقتصادي فيها الذي جعلها تتأهب لتكون المركز التجاري الرئيسي في مياه الخليج العربي الامر الذي يفقد الموانىء الايرانية مميزاتها.

ومما يدل على ذلك ان معظم ملـوك ايران الاقوياء قد حـاولوا احتلال البصرة وضمها الى ايران. وقد أوعز بعض ملوك ايران اخفاقهم في عدم نجاح الايرانيين في تحقيق طموحـاتهم في هذه المدينة الى تمسك سكـان البصرة بالعادات والتقـاليد العربية السـائدة هناك وكان ان بعث الشاه عباس الاول فرمـانا الى حاكم البصرة افر اسياب يـأمره بأن يعلن خضوعه للعـرش الايراني وان يُسير إدارة المدينة على النهج الايراني وان يكون التعـامل بالعملة الايرانية وان يستبـدل الائمة والخطباء في الدعـاة على المنابر السلطان العثماني بـالشاه عباس الاول. لقـد تمادى الشاه في المزيد من الاجراءات لدمج البصرة في المجتمع الايراني وطالب بأن يترك السكان العادات والتقـاليد العـربية الموروثـة وان يتقيدوا بـالعادات الايـرانية في حيـاتهم الاجتماعيـة. ومن ذلك الزمهم بـاتخاذ الملابس والعمائم على الطـريق الايرانيـة، ووعد الشاه حاكـم البصرة بأنه اذا استجاب لهذه المطالب فإن حكم البصرة تؤول وراثيا له ولابنائه من بعده ويعفوه من دفع الضرائب. وتعهد الشاه بأن الحكومة الايرانيـة لم تتدخل مطلقـا في شؤون الحكم. وللاسرة الحاكمـة الحرية التـامة في الشئون الـداخلية للمدينة(٣). ولكن علي بـاشا افر اسياب رفض عـرض الشاه دون تردد وذلك لعدة أسباب منها :

١ — انه استطاع إقامة التحصينات اللازمة للدفاع عن المدينة.

٢ — انه انتهـز فرصة وجود البرتغـاليين في المدينة فطلب منهم المسانـدة ضد الايرانيين في وقت كان فيـه البرتغاليين من ألد أعداء الايـرانيين وانتهى الأمر بأن فشل الشاه عباس في إخصاع البصرة او احتلالها.

استمرت المبـاحثات والحروب بين الـدولتين العثمانية والايـرانية طيلـة القرن

الثامن عشر حول مشكلة الاراضي العراقية ـ وبالذات ـ البصرة التي قاست اكثر من غيرها، لكنها قاومت ببسالة كل تلك الهجمات المتكررة. ولعل طبيعة المدينة قد حالت دون تمكن الحكومات الايرانية من احتلالها وبسط نفوذها عليها ذلك انه على الرغم من كونها مدينة تابعة للدولة العثمانية منذ عام ١٥٤٦ الا ان الحكام المحليين كان لهم الدور الاكبر في إدارتها(٤) كما ان وجود الكثير من الجنسيات والأديان والمذاهب في البصرة قد ميزها بخصوصيات تختلف اختلافا جذريا عن بغداد. فاستقر في المدينة مجموعة من الجاليات الاجنبية والمراكز والوكالات التجارية الاوروبية. فكانت هذه الجاليات تقدم في كثيرمن الاحيان المساعدات بصورة غير مباشرة لمتسلمية البصر لاسيما المواد الغذائية الضرورية وكان من الطبيعي ان تسعى هذه الجاليات للحفاظ على مصالحها في البصرة فرأت ان لا تخوض في الصراعات الاقليمية.

وعلى كل الاحوال فإن الوكالات التجارية كانت تفضل ان تستمر المدينة كسوق حرة في ظل التبعية العثمانية. ولايعتقد ان هذه الوكالات التجارية كانت تحبذ السيادة الايرانية على البصرة بسبب تردي العلاقات بين إيران وتلك الشركات في ذلك الوقت.

كما ان موقع البصرة القريب من الحكومة المركزية في إيران كان يفسح المجال امام الحكومة الايرانية لفرض نفوذها في إدارة المدينة بصورة مباشرة في حين تركت الدولة العثمانية ادارة المدينة بين حكام وباشوات معينون من قبلها، الامر الذي يسَّر على الاجانب التعامل مع الحكام والأمراء المحليين. وفي نفس الوقت فان شركة الهند الشرقية البريطانية كانت حريصة على عدم اثارة المشاكل بينها وبين الحكومة الايرانية لاسيما وان العلاقة بين ايران والشركة قد تدهورت منذ اوائل عهد نادر شاه (١٧٣٥ ـ ١٧٤٨).

ايران في عهد كريم خان الزند :

ومع اعتلاء كريم خان الزند العرش الايراني واعلانه الوصي او الوكيل عن

الدولة الصفوية تغيرت الظروف الدولية والاقليمية. مما ساعد كريم خان على تحقيق طموحاته في احتلال البصرة وهو ما لم يحققه أسلافه من شاهات إيران.

لم يكن كريم خان الزند بطلا قوميا في ايران يحتذى به في الفتوحات والتوسع كأسلافه من ملوك ايران الاقوياء، وانما اهتم بالاصلاحات الداخلية والعمل على تحقيق رغبة الشعب الايراني في نشر الامن والاستقرار في ربوع ايران.

اما فيما يتعلق بنشاطاته العسكرية فقد اقتصرت على قمع الحركات الانفصالية بعد ان تقلصت حدود ايران منذ ان استعاد الهنود المناطق التي احتلتها قوات نادر شاه، وتمكن احمد شاه الابدالي من تحرير افغانستان(٥).

اختلفت سياسة الحكومة الايرانية في منطقة الخليج عن غيرها من المناطق المجاورة لايران. فبعد ان سحبت ايران قواتها من الهند وافغانستان ـ عممت وجهها شطر منطقة الخليج العربي(٦) ـ رغبة منها في اخضاعها وضمها إلى ايران، لاسيما المناطق المتاخمة لحدودها في العراق. وحققت عملياتها العسكرية نجاحا في بعض الاحيان. حيت مكنت من احتلال البصرة ومارست ضغطا شديدا على عمان وبوجه خاص في الجزر والموانىء التي كانت تحت الادارة العمانية. . ومما ضاعف من اهتمام الحكومة الزندية بأمر منطقة الخليج عدة عوامل نجملها فيما يلي :

١ ــ اعتقاد خان كريم الزند بسهولة الاستيلاء على بعض المناطق الاستراتيجية في الخليج لتردي الاحوال الداخلية فيها.

٢ ــ تزايد التنافس بين القوى الاوروبية الاستعمارية حول منطقة الخليج العربي(٦).

٣ ــ توجس ايران من نمو البحرية العربية التي هددت استقرارها وأمنها، وبالذات القوى العمانية التي تنامت في عهد السيد احمد بن سعيد ١٧٤٤ ـ ١٧٨٣ والقواسم(٧).

٤ — ظهور الشقاق بين الحكومة الايرانية وعرب الحولة المسيطرين على الموانىء الفارسية .

٥ — العلاقات التي بين عرب الحولة وشركة الهند الشرقية(٨) البريطانية والتي كانت مهيأة الى إبرام الاتفاقيات بين العرب القاطنين على الساحل الشرقي وشركة الهند الشرقية .

واتسمت العلاقات العمانية الايرانية بصورة عامة بالتذبذب وعدم الاستقرار منذ ظهور الدولتين الحديثة في كل من عمان وايران . فعلى الرغم من عدائيتها في كثير من الاوقات إلا انها كانت تميل الى الود والتحالف في بعض الاحيان . ففي عام ١٧٧٠ قامت السفن العمانية بمظاهرة بحرية امام ميناء بوشهر ردا على الاجراءات الايرانية بهدف تهديد الحكومة الايرانية المصالح العمانية في الجزر والموانىء الايرانية على حين لم يلغ ذلك كله رغبة الدولتين في التحالف ضد القواسم وعرب الحولة المنافسة للعمانيين في مياه الخليج العربي(٩) .

ويمكن القول ان هذه الخلافات كانت تقليدية بين الجارتين لرغبة كل منهما في الحفاظ على مصالحهما بالاراضي الاخرى ، على ان السبب المباشر في فتور العلاقة بين ايران وعمان في أواخر عهد كريم خان الزند كان يعدو الى مطالب مالية وامنية . فقد طالب كريم خان من العمانيين المبالغ المستحقة لايران . هي الضرائب التي وافق عليها السيد احمد بن سعيد دفعها لنادر شاه مقابل انسحاب القوات الايرانية من عمان ، كما اثيرت خلافات اخرى عندما اشترى العمانيون سفينة من شيخ عبدالله آل معين حاكم جزيرة قشم . فأقر زكي خان قائد البحرية الايرانية بأن السفينة تابعة للبحرية الايرانية وطالب باستعادتها وقد نجح في اقناع المستر ود وكيل الشركة البريطانية في ملكية ايران للسفينة ، فمنع الوكيل ابحار السفينة إلى عمان(١٠)

رفض العمانيون هذين المطلبين على أساس ان السفينة اصبحت ملكا للعمانيين في حين اعتبروا الاموال التي وافق امام عمان على دفعها لنادر شاه لم تكن

مشروعة . وعلى كل فإن السيد احمد بن سعيد قد استفاد من هذه الاتفاقية ، اذ لم يكن باستطاعة القوات العمانية في تلك الفترة الحرجة من تاريخ عمان مواجهة القوات الايرانية الناهضة التي كانت تعتبر من اقوى جيوس المنطقة ليس في الخليج فحسب وانما في المناطق المجاورة له . حيث تمكن نادر شاه بفضل هذه القوة التوسع واحتلال المناطق المجاورة لايران مثل اجزاء من شبه القارة الهندية وافغانستان .

وعلى الرغم من ان كريم خان لم يكن فاتحا عسكريا وبطلا قوميا كما ذكرنا فانه اتصف بالشجاعة والقوة والجرأة في مواجهة اعدائه ومنافسيه . وكان حكيما في منهجه في تسيير امور الدولة بالرغم من جهله بالقراءة والكتابة(١١) . فقد تخلى عن جميع الاراضي التي احتلتها القوات الايرانية في عهد سلفه نادر شاه دون ان يفرط في شبر من الاراضي الايرانية . كان هذا الموقف نابعا من حكمة كريم خان الزند وقناعته بأن القدرة على الاحتفاظ بالاراضي المحتلة اهم من احتلالها . وفي هذه الفترة كانت ايران تعاني من مشاكل اقتصادية واجتماعية مما حال دون قيام القوات الايرانية بالدفاع عن المناطق المحتلة . وبفضل هذه السياسة اكتسب كريم خان حب الشعب الايراني واحترامه .

ومما ضاعف اعجاب الايرانيين بكريم خان انه لم يتخذ من الشاه لقبا له وانما اكتفى بلقب الوكيل او نائب عن الدولة الصفوية(١٢) . لقد ساد الهدوء والاستقرار والامن معظم أرجاء ايران لاسيما الاوضاع الاقتصادية والامنية التي بذلت الحكومة الايرانية في تحسين اوضاعها الاقتصادية ومحاولة بسط نفوذ السلطة المركزية على معظم الاقاليم وقمع الحركات التحررية والانفصالية(١٣) .

كما عرف عن كريم خان بأنه لم يكن متدينا متعصبا او منحازا الى مذهب او دين معين بل كان يعامل الجميع سواسية حتى اشيع بين الناس بأنه كان مسيحيا(١٤) ، لعلاقاته المتميزة مع الجالية الارمنية .

وقد رأى البعض في اختيار كريم لمنصب الوكيل واحياء اسم الدولة الصفوية

بدلا من اعلان نفسه ملكا على ايران محاولة منه في كسب تأييد علماء الشيعة الذين يكنون الاحترام للصفويين .

وأما سياسة كريم خان السلمية في مجال التوسع ، فتعكس رغبة الشعب الايراني الذي ضاق ذرعا من الحروب والثورات منذ قيام الدولة الصفوية حتى نهاية الدولة الافشارية ، وكان ان تحملت ايران الكثير من التضحيات في الاموال والارواح دون ان تحرز مكاسب سياسية او اقتصادية او الاحتفاظ بالاراضي التي احتلها القوات الايرانية من قبل . وقد تعرض كريم خان الزند لانتقادات شديدة من الشعب الايراني عندما قامت القوات الايرانية باحتلال البصرة ، فقد ذكر ميرزا محمد كلانتر فارس الذي كان من اشد المعجبين بكريم خان بأنه قد ارتكب خطئا جسيما في أواخر أيامه بما لايليق بأخلاقه وسلوكه(١٥) وقد تحملت كل من ايران والعراق النتيجة حيث الحقت بهما خسائر فادحة .

الدولة العثمانية وعلاقتها بولاياتها :

اما الدولة العثمانية فكانت على العكس من ايران ، حيث كانت تمر بمرحلة حرجة من تاريخها ، فظهرت في ولايتها الانقسامات والاضطرابات وتوقفت فيها الحركة الاصلاحية التي انتعشت بشكل جيد في عهد السلطان محمد(١٦) .

كما ان الاوضاع الاقتصادية سادها الركود ، حيث اصبحت الدولة عاجزة عن دفع رواتب الجنود مما كان سببا مباشرا في تفشي الفساد والفوضى في المجالات المختلفة(١٧) وهكذا ظهرت بوادر الانحلال في تلك الدولة منذ فترة مبكرة من عمرها . ولاشك ان المسئولية الكبرى كانت تقع على الاسرة الحاكمة وكبار المسئولين في الدولة الذين تصدوا للحركات الاصلاحية .

واقترنت هذه الاوضاع المتردية في الولايات العثمانية بظهور المسألة الشرقية عندما تكالبت الدول الاوروبية ولاسيما روسيا مناصرة شعوب البلقان ضد الدولة العثمانية في عام ١٧٧٤ . (١٨) : ومن العوامل التي ادت الى تقويض نفوذ الدولة وسيطرتها على ولايتها انها فقدت روح الجهاد منذ منتصف القرن الثامن

عشر . وقد فسر كثير من المؤرخين هذه الظاهرة بـأنها ظاهرة طبيعية وصحية ، اذ ليس من الضروري ان يستمـر العهد البطـولي والفتـوحات والانتشـار السريع . وانما كان عليها ان تقوم بتعديل اوضاعهـا الداخلية وتصحيح حدودها الاقليمية والعمل على ايجاد العلاقـات الطبيعية فيهـا وبين ولايتها واقـاليمها ومع جيرانها وبقيـة دول العالم لاسيما الـدول ذات التأثير المبـاشر في السيـاسة العـالميـة . لكن الـدولة العثمانيـة لم تفلح في اجتيـاز مـرحلة الحروب لمواقـف الدول الاوروبيـة العدائية لها على المستوى الخارجي وعدم التجـانس العرقي والديني على المستوى الداخلي .

اما العـالم العربي ، فلم تكن أوضاعـه السياسية والاجتماعيـة بأحسن حال من بقية الولايـات العثمانية ، حيث سادت الفوضى والاضطـرابات في معظم ارجاء الوطن العربي نتيجة لضعف الحكومـة المركزية في الاستان التي عجزت عن بسط نفـوذهـا على الولايـات والاقـاليم التـابعـة لها . فقـد تمكن المماليك في مصر من استعـادة نفـوذه بعـد ان فقدوهـا في عـام ١٥١٧ اثـر الفتح العثماني لمصر(١٩) . ونجح علي بـاشـا في تقليص دور البـاشـوات العثمانيين في مصر الى درجـة كبيرة حيث قتل العديد من المسئولين العثمانيين واطلق يده في مصر ، ثم اعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية في عام ١٧٦٩ واوقف دفع الضرائب والأتاوات للباب العـالي وسرعـان ما امتـد نفوذه الى خـارج مصر وأرسل جنـوده بقيـادة محمـد ابوالذهب إلى كل من الحجاز وسوريا لـلاستيلاء عليها مدفوعا بتلك الصراعات التي نشبت بين الانكشاريين والاشراف وبين الانكشـاريين وبقية عناصر الجيش العثماني في بلاد الشام(٢٠) .

أما في العراق فقد آل الحكم إلى أسرة مملوكية عنـدما قام سليمان باشـا ابوليله والي البصرة ١٧٤٩ ـ ١٧٦١ بحملة على بغـداد وعزل الحاج محمد باشـا واضطر البـاب العـالي الى الاعتراف بـه واليا على بغـداد . ورغم نجـاح سليمان بـاشـا في اخضـاع القبائل العـربيـة الا ان التصدع في العـلاقات بين بغـداد واستـانة كـان عميقـا(٢١) . وهـذا من الامـور التي مهدت الى التـدخل الاجنبي في أمـر هـذه

الولاية . فبعد ان تولى عمر باشا ولاية(٢٢) بغداد اثر مقتل علي باشا ١١٧٧هـ ١٧٦٣م حاول تسوية الخلافات بين الدولة العثمانية ومماليك بغداد، في وقت شعر فيه المماليك بالقوة التي تزايدت بطبيعة الحال بعد تولي عمر باشا للولاية . وأطنب المماليك في مدح الوالي وصدقه واخلاصه للدولة العليه واكدوا على حكمته وقدرته في ضبط النظام، في حين اتهموا سلفه علي باشا بالخيانة والضعف(٢٣) . ونجح الوالي الجديد الى حد كبير في بداية حكمه في السيطرة على الجهازين الاداري والعسكري وانتشر الامن والاستقرار في معظم ارجاء العراق(٢٤) .

كما عمل الوالي عمر باشا على تحسين الاوضاع الاقتصادية والتجارية وتمكن من اقناع المسؤلين في شركة الهند الشرقية البريطانية من نقل وكالتهم التجارية من بندر عباس الى البصرة، واصبحت مدينة البصرة منذ عام ١٧٦٣ المركز التجاري الرئيس للشركة في الخليج(٢٥) لكن الاوضاع الامنية لم تستمر طويلا على نفس الحالة لعدة أسباب منها .

الكوارث الطبيعية التي توالت على ولاية بغداد من مرض الطاعون والقحط، ثم تدخل المماليك في شئون الولاية، لاسيما في أواخر عهد عمر باشا حيث انه عين في ادارات الولاية مجموعة من المسئولين غير اكفاء . وهذا ما ضاعف من معاناة الشعب العراقي . كما بدأت في الظهور الفتن والصراعات وأخذت القبائل العربية تعارض السلطة في كل من بغداد والبصرة(٢٦) . ومن اكبر الكوارث التي الحقت بالولاية في ذلك الوقت الحصار الذي احكمته القوات الايرانية على مدينة البصرة في عام ١٧٧٥م ثم احتلالها بعد اربعة عشر شهرا من المقاومة .

ولم يرد كريم خان الزند غضاضة من تعديل خطته السلمية واتخاذ الغزو سياسة جديدة، مدفوعا بعدة عوامل، لعل من اهمها عاملان اولهما اقتصادي وثانيهما أمني .

ومن العوامل الاقتصادية انه في عام ١٧٦٣ قررت شركة الهند الشرقية

البريطانية نقل وكالتها التجارية من بندر عباس الى البصرة. واوقفت بذلك جميع اعمالها التجارية في بنـدر عباس(٢٧)، الامر الذي جعل البصرة مطمعـا للتدخل الاجنبي، ومن دواعي هـذا القرار ان الموقع الجغـرافي لبندر عبـاس لم يكن يخدم التجارة لبعـد هذا الميناء عن المراكـز الاقتصاديـة الرئيسية مثل طهـران واصفهان وشيراز اضـافة الى الاوضـاع الامنية لهذه المدينـة والتي كانت مضطـربة بصـورة مستمرة.

وقد طالب المسؤلـون في الشركة قبل هذا التاريخ بنقل الوكـالة الى مكان اكثر امنـا، واتجهت الانظار الى البحـرين او جزيـرة اخرى مثل جـزيرة قشم او مينـاء بوشهر بعـد الاحتلال الافغاني لشيراز بقيادة احمد شاه اثر مقتل نـادر شاه في عام ١٧٥٢. ومما ازعج المسئولين البريطانيين من ان الوكـالة بدأت تتعرض للابتزاز من حـاكم مـدينـة لار الـذي ازداد نفـوذه في اقليم فـارس (٢٨). وقـد حـاول المسئولين الايرانيين اقناع مجلس ادارة الشركة بفتح وكـالة لهم في بوشهر بدلا من بندر عباس.

وقد رحبت حكـومة بومبـاي بفكرة افتتاح الـوكالة في بـوشهر وبعثت المستر وليم اندرو برايس في ينايـر ١٧٦٣ الى الخليج كمعتمد اقليمي في ايران واسندت حكـومة بـومبـاي الى المستر بـرايس التحقيق في بعض الإختلاسـات الماليـة التي اكتشف في مقيمية الشركة بالبصرة. ثم اصدرت الاوامـر للمعتمد بانشاء مقيمة في بوشهر لتوزيع البضائع الصوفية في الاسواق الايرانية(٢٩).

وقد وعد كريم خان الشركة البريطانية بامتيازات سخية في ايران على ان تقوم سفنها بمساعدة القوات الايرانية في قمنع الحركـات المناهضة للحكومة الايرانية مثل ميرمهنا في ميناء ريق وكذلك قبيلة بني كعب في شمال الخليج.

توترت العلاقة بين الشركة والحكومة الايرانية عندما قامت قبيلة كعب في عام ١٧٦٥ بـالاعتداء على السفن «سـالي» و« فـورت وليم» وهي يخت تابع لمقيميـة البصرة(٣٠).

-ومما زاد غضب كريم خان الزند نقل الوكالة الى البصرة اذ كان له أسوأ الاثر على الاقتصاد الايراني، حيث غدت المدن الايرانية المطلة على الخليج تعاني من الركود الاقتصادي والكساد التجاري(٣١) واعتبر كريم خان ان قرار الشركة في هذا السبيل تحديا بخطته الانهائية في ايران والتي بدأ الشعب الايراني يجني ثمارها. والتي كان من شأنها ان حظي الوكيل كريم خان بشعبية كبيرة بين معظم فئات الشعب الايراني.

وقد قامت الشركة بدراسة مستفيضة عن الاهمية التجارية لمدينة البصرة واظهرت نتيجة الدراسة بأنه يمكن للبصرة ان تكون الميناء الرئيسي لكل من إيران والشام والعراق والجزيرة العربية فضلا عن اهميتها في مجال توزيع البضائع الى داخل ايران اذ كانت تنقل البضائع من البصرة عن طريق الملاحة النهرية الى بغداد ثم برا الى خانقين وكرمان شاه ليجري توزيعها الى معظم المقاطعات الايرانية(٣٢).

كما ان المسئولين في البصرة قدموا التسهيلات الوافية للوكالة البريطانية، لكن اهداف المسئولين البريطانيين لم تتحقق كما كانوا يأملون، حيث تفشى في البصرة مرض الطاعون منذ أواخر محرم ١١٨٧/ ١٧٧٣(٣٣). وكان لمرض الطاعون تأثيرا سيئا على معظم المدن العراقية لاسيما سكان مدينة بغداد والبصرة. فقد نتج عن ذلك جو من الفوضى والاضطرابات حيث ترك الناس منازلهم وهاجروا الى المناطق المجاورة بعد ان قتل هذا المرض معظم سكان العراق(٣٤) وقد تزايد على اثر ذلك عدد الوفيات في العراق حتى قيل انه قد مات اكثر من نصف سكان بغداد(٣٥) فيما اشارت اليه الاحصاءات عن وفاة ثلثمائة الف من بين خمسمائة الف، بينما بلغت الضحايا في البصرة ٢٠٠ الف نسمة من بين ٣٠٠ الف نسمة من سكانها على نحو ما ورد في المصادر البريطانية الرسمية(٣٦). ولاشك ان هذه الاعداد الكبيرة من الضحايا كان كفيلا بتفشي المرض والاضطرابات والسرقة في معظم أرجاء العراق.

وفيما يتعلق بالتهديدات الايرانية للبصرة فقد أشيعت الانباء لأول مرة في

خريف عام ١٧٧٣ ان كريم خان قد جهزة حملة بقادة علي قلي خان للهجوم على البصرة. لكن العثمانيين لم يجدوا مبررا لهذا العمل من قبل الايرانيين ولا سيما ان سياسة كريم خان قد اتسمت بعدم الخوض في الحروب الخارجية. اما البريطانيين فكانوا على علم تام بجميع تلك التطورات الا انهم اعتقدوا ان هذه الحملة تهدف كردستان التي كانت تتبع ولاية بغداد(٣٧).

ولذلك فإن المسئولين في الشركة البريطانية قد ادركوا ان مصالحهم التجارية في البصرة لايمكن ان تستمر في الظروف الراهنة. وقد صمم المستر مور الوكيل البريطاني هناك بإغلاق الوكالة في ٢٠ فبراير ١٧٧٤ حين اصدر الوكيل أوامره بنقل شحنة من البضائع الصوفية المخزونة في الوكالة الى السفن الراسية في ميناء البصرة وهما ريفنج ودريك(٣٨).

وقد احتج متسلم البصرة بشدة على الاجراءات التي اتخذها وكيل شركة الهند لما لها من فعالية وإثارة القلق والرعب بين اهل المدينة المنكوبة(٣٩) وهذا ما كان يتطلع اليه كريم خان الذي حاول الانتقام من البصرة والبريطانيين واعادة الوكالة البريطانية مرة اخرى الى بوشهر.

وقد ارجع بعض المؤرخين ان الخلافات الايرانية العمانية التي سبق ان ذكرناها قد احتدت بشكل كبير منذ عام ١٧٧٤. اذ وجد الايرانيون ان هناك تعاونا تجاريا وأمنيا بين عمان وميناء البصرة. وحيث انه لم يعد بامكان كريم خان الانتقام من العمانيين لعدم امتلاك ايران قوة بحرية لضرب المصالح العمانية. وكان الايرانيون يعتقدون بان احتلال البصرة واخضاعها للحكومة الفارسية يمكنهم من احتلال عمان ايضا. ذلك ان اغلب التجارة العمانية كانت مع البصرة(٤٠) وبالتأكيد فإن احتلال البصرة كان يؤثر سلبا على التجارة العمانية. ومن اجل ذلك استعدت السفن العمانية لمساعدة متسلم البصرة اذا دعت الحاجة الى ذلك. وقد ذكر المستر بارسونز الذي زار مسقط في اغسطس ١٧٧٤. انه رأى الاسطول البحري العماني كان راسيا في ميناء مسقط لمصاحبة السفن التجارية المحملة التي استعدت للابحار الى البصرة وكان الاسطول العماني مكونا

من حوالي ٣٤ سفينة بنيت في ميناء البصرة وعليها ٤٤ مدفعاً و ٥٠ مدمرة بكل منها من ١٨ الى ٢٤ مدفعا اضافة الى مجموعة من السفن الصغيرة(٤١). ومما زاد من سخط الايرانيين على العمانيين انه لم يكن باستطاعتهم الدفاع عن موانىء ايرانية في الساحل الشرقي من الخليج حيث ان هذه الموانىء مثل بندر عباس وغيرها كانت تتعرض بصورة مباشرة للهجوم العماني(٤٢). وكانت ايران عاجزة عن حماية مصالحها ومدنها امام هذا الاسطول العماني الضخم.

لقد كانت البصرة في مسيس الحاجة الى السفن العمانية للدفاع عنها لاسيما وان العثمانيين لم يعد في حوزتهم سفن حربية في مياه الخليج، وانما كان اعتمادهم على مجموعة من السفن المحلية التي يعمل عليها بحارة من البصرة نفسها، ولم يكن بد من اتصال الباب العالي بحلفائه من العرب والمسلمين ضد كريم خان الزند(٤٣).

اما الايرانيون الذين كانوا على معرفة تامة بأحوال متسلمية البصرة وولاية بغداد البصرة خالية من الوسائل الدفاعية واعتقدوا انه يمكن الاستيلاء على الميناء بسهولة لعدم وجود حامية كبيرة فيها.

ولم يكن هدف كريم خان الزند مدينة البصرة فحسب وانما كان يسعى الى اخضاع جميع الاراضي العراقية لوجود العتبات المقدسة فيها وكذلك الانتقام من العثمانيين الذين كانوا يأوون معارضيه من الايرانيين الذين كانوا يلجأون الى العراق مثل سليمان الكعبي وغيره(٤٥). وعلى كل فان كريم خان قد جهز حملة بقيادة شقيقه صادق خان قوامها حوالي عشرين الف جندي تقريبا وانضم اليها اثنتا عشر الف جندي بقيادة شقي خان وثمانية آلاف بقيادة علي خان(٤٦)، بينما قدرت بعض المصادر الاخرى بأن الجيش الايراني قد بلغ اثنين وثمانين ألف نسمة(٤٧).

مضى كريم خان الى تحقيق أطماعه التوسعية في العراق مدعيا بأن عمر باشا والي بغداد قد أساء معاملة الحجاج الايرانيين الى العتبات المقدسة(٤٨) وكان ان

زعم الايرانيـون ان والي بغداد أساء الى التجار الايرانيين وسلـب اموالهم وقد أورد عباس العزاوي نقلا عن كتاب تحفة عالم، «بأن والي بغداد اتخذ مسلكاً رديئا نحو سكان العراق لاسيما زوار العتبات وساكنيها القزلباشية يريد بها الايرانيون إذ كان يأخذ منهم الامـوال الوافرة بحجة أن هذه تعود الى موتـى الطاعون وكان يصادر بعض أموالهم(٤٩).

وقد اختلفت المصـادر العربية والتركيـة حول سلـوك الوالي عمر بـاشا حيث أطنب صاحب دوحة الوزراء في مدحه واصفا اياه بأنه كان مطيعا ومخلصا للدولة العلية وان العـراق كان ينعم بـالامن والاستقرار طيلـة فترة حكمه الـذي استمر حوالي ثلاثة عشر عاما ولم يشهد معارك الا عندما خرج لمحاربة الخزاعل والمنتفق وانه كان موضع تقدير واعجاب لدى الشعب العراقي كما يصف صاحب دوحة الوزراء عمـر باشـا بالعقل والشجـاعة والوقـار والمهابـة(٥٠). على حين يحسبه عبدالرحمن السويدي البغدادي من انه كان ظالماً لاسيما تجاه مخالفيه(٥٢).

وفي الـوقت نفسـه فإن هذا المؤلـف قد نفىٰ فيما قيـل عنه بأنـه كـان يسيء الى الزوار الايرانيين الى العتبـات المقدسة واتهم أعداءه بالجبن وأنهم اختلقـوا له هذه التهم ويعاتب المؤلف الباب العالي بأنه لم يصدق عمـر باشا عندما كان يدافع عن نفسـه(٥٣). ويتفق مع هـذا الـرأي مجمـوعــة من الاجـانب والايـرانيين منهم سيرجان مالكم وسيربيرسي سيكس وميرزا محمد خان كلنترفارس موضحين بأن هذه الادعاءات استهـدفت احتلال البصرة. ويؤيد هذا الرأي عبـاس اقبال احد المؤرخين الايرانيين المشهورين(٥٤) مستدلا بأن كريم خان عندما استقبل السفير العثماني وهبي افندي لم يسمح له بمغادرة شيراز الا بعد عدة أشهر دون ان ينجح السفير في مهامـه(٥٥)ه وكان كـريم خان يبغي من ابقـاء السفير في شيراز تحقيق نصر عسكــري على جبهــة القتــال في البصرة او الحصــــول على مبلغ كبير من المال. (٥٦) وكان من ضمن المطـالب الايرانيـة قتل عمر باشـا انتقامـاً للحجاج الايرانيين.

اما سير مالكم فقد ذكر بأن كريـم خان الزند كان يهدف من ارسال الجيش الى العـراق، المحافظـة على الامن والاستقرار في ايـران. وذلك اثـر عودة القـوات الايرانيـة من المناطق التي استعـادت استقلالها بعد مقتل نـادر شاه في افغـانستان ومنـاطق اخرى. وكـان كـريم خان يعتقـد ان الجيش الايـراني العائد الى ايـران سيصبح خطرا على الـدولة، فأراد من ذلك اشتغـال الجيش بالحرب مع الـدولة العثمانيـة وفي أرض عزيـزة على قلوب الايـرانيين وهي العراق لـوجود العتبـات المقدسة فيها واتخذ مـن المطالبة برأس عمر باشـا ذريعة للقيام بهذا العدوان(٥٧) بينما اختلف سيربيرسي سيكس مع زميله بأن الهدف من هذه الحملة كان اقتصاديا بحتا بعـد ان عانت ايـران من الركـود التجاري دون ان يخالف مع الآخـرين بأن رأس عمر باشا كان ذريعة للهجوم(٥٨).

وفي ١٥ يناير ١٧٧٥ وصلت أنبـاء إلى الوكالة البريطـانية في البصرة بأن جيشا ايـرانيا مكـونا من حـوالي ٥٠ ألف رجل غـادر شيراز عن طريق بـوشهر بقيـادة صادق خان يقصـد البصرة(٥٩). استأجرت القوات الايرانيـة ثلاثين سفينة من العـرب القـاطنين على السـاحل الشرقي من الخليج(٦٠) وقـد استفـاد الجيش الايراني من المسـاعدات التي قـدمتها لـه قبيلة بني كعب. في اقليم خـوزستان. وكـانت العلاقـة بين بني كعب ووالي بغـداد ومتسلم البصرة متـوتـرة فانتهـزت الفرصـة للانتقام من البصرة بأن سـاعدت صادق خـان بنقل الجيش الايراني الى الساحل الغربي لشط العرب(٦١). وقام أفراد من العرب بتسلق اسوار المدنية في ٢٥ ـ ٢٦ يناير ١٧٧٥ حيث قاموا بكسر المتاجر والاسواق والاستيلاء على بعض الممتلكات لاسيما الثياب الهندية الفاخرة(٦٢).

بـدأت القوات الإيـرانيـة على البصرة وعسكـرت على بعد ٣٥ ميـلا من اعلى المدينـة حيث ثبتت مـدافعها وواجهت لاول مـرة طـلائع القوات العـربيـة التي حاولت منع القـوات الايرانية مـن التقدم على الضفة اليمنى. وفي الـوقت نفسه فان صـادق خان اراد ان يفرض شروطه على المتسلم وسكـان البصرة من التجار والوكيل البريطـاني والجاليات اليهـودية والارمنية. وقـد عرض القـائد الايراني

استعـداد حكـومتـه التخلي عن غـزو البصرة مقـابل مبلغ كبير من المال. غير ان المسؤلين في البصرة لم يستجيبوا للمطالبة وطردوا مبعوثه من المدينة(٦٣). وكان صادق خان يهدف مـن ارسال سفيره الى البصرة الوقوف على الجهـود المبذولة في الدفاع عن المدينة. وفي اعتقـادنا ان القائد الايراني كان يوفي بـوعده بالانسحاب مقابل مبلغ كبير من المال.

وكان كـريم خـان يعلم سلفا بأن الاستعـدادات الدفـاعية الموجـودة بالبصرة لمواجهة القـوات الايرانية كـانت ضعيفة. الأمر الـذي شجع الحكومة الايـرانية لاحتلال البصرة اعتقـادا منها بسهـولة الاستيـلاء عليها دون معـاناة. وقـد ذكر الـرحالـة مستر بارسـونز الـذي قـام بفحص الاستحكامـات عن هذه المدينـة. فوصف اسوارها وخنادقها التي حـولها والبوابات والمدافع الثابتة على ا لأسوار. وذكـر بأن هذه المدافع لم تكن في حـالـة جيدة وصـالحة لـلاستعمال وعندمـا علم المسـؤلون في البصرة بـالحصـار الايراني قـامـوا باصـلاحهـا(٦٤) وعلى كل فإن الايـرانيين شددوا الحصـار حول مـدينـة البصرة في محاولة لـلاستسلام واستمـر الحصارة مـدة اربعة عشر شهراً. ورغـم نجـاح الايرانيين في سد المنافـذ الخارجية من المدينـة واليهـا الا ان الاهالي قـاومـوهم ببسـالـة بتشجيع من متسلم البصرة سليمان أغا الذي طلب من مـواطنيه الاستمرار في الدفـاع معتمدين على الذخيرة والمؤن المتوفرة لديهم.

ويصف صاحب دوحة الوزراء الحصار «بـأن البصرة كانت على اشد ما يكون من الضيق والحصـار. ولم يعد في مقـدور سكانها تحمل الحصـار ولاسيما بعد مـا يئسوا من وصول المدد والعون. وقـد وقع في البصرة بعض الحركات الانفصالية على سبيل المثال قـام الله كهية الذي انضم اليـه مجموعة من الاهالي بعـد ان يئسوا من تحقيق النصر او رفع الحصار عن المدينـة(٦٥) اما عبدالرحمن السـويدي وهو احد شهود العيان فقد نوه عن الخلافـات التي كانت قائمة بين والي بغداد والباب العالي الـذي لم يقم بأي عمل لمسـاعدة والي بغـداد عمر بـاشا. وقـد اتهم سكان البصرة عمر باشا بالعجز تارة والخيـانة تارة اخرى ولم يكونوا على علم بما يحدث

بين الـوالي والسلطان العثماني حيث طـالـب الـوالي مرارا المسـاعـدة والمعونـة من استـانـه إلا ان مطـالبـه لم تلق عنـايــة . وفيما يتعلق بأهل البصرة فيقـول «بأنهم يستغيثون ولا يغـاثون ويستنصرون ولا ينصرون وهم كل يـوم بل كل سـاعة في جهاد مع عدوهم وقتال. وبقوا محاصرين اربعة عشر شهراً ونالوا من الجوع ما لم ينله احد وأخذوا يأكلون من الاضطـرار جميع ما بقيت من حيوانات وغيره مباح أكله او منهي عنه(٦٥) .

وعلى الرغم من أن جميـع المساعي والمحاولات التي بـذلت لايجاد حل سلمي للخلافـات بين شيراز واستانة قد فشلت فـإن الدولة العثمانية لم تتخـذ اجراءات حاسمة لرفع الحصار عن اهل البصرة .

وقد استبشر العراقيون بسماع أنباء مفاجئة بأن مجموعة من الجيوش في طريقها الى بغداد لمساعدة الوالي في محنته ، وبالفعل وصلت هذه المساعدة التي كانت تقدر بحـوالي ٨ آلاف جندي الى بغـداد . وعنـدمـا طلب منهم والي بغـداد عمر شـاه بالتحرك نحو البصرة اعتذروا عن ذلك . وقـد أدرك عمر باشا ان هؤلاء لم يأتوا الى بغداد لمسـاعدته وانما للانتقـام منه . وهكذا اجمع هؤلاء على اتهام الـوالي عمر باشـا بأنه كـان السبب الحقيقي في خلق هذه المشـاكل مع ايران . ثم صـدر قرار الباب العالي بعزل عمر باشا عن ولاية بغداد وتعيين امين باشا مكانه ، وبعد وفاة امين باشا عهـدت الولاية الى مصطفى باشـا(٦٦) اما عمر باشـا فقد امتثل لهذه الأوامر وغـادر مقر حكمه ، ولكن الـوزير الجديد مصطفى كـان يخشى ان يقوم عمر بـاشا بـالهجوم على بغـداد فأرسل جنوده في طلبـه وتمكنوا من قتلـه ، حيث قطعوا رأسه وأرسله الى الاستانة(٦٧) .

أمـا بالنسبـة للبصرة فان السكـان المحـاصرين بعد ان استغـاثـوا من الدولـة العثمانية والعمانية وشركة الهند الشرقيـة دون ان يحصلوا على معين ففقدوا كل ما عندهم من الاسلحة والـذخائر والمؤن الغذائية واضطروا الى الاستسـلام خاصة بعد ان نشبت الفتنة بين المماليـك انفسهم إثر مقتل عمر باشـا(٦٨) . وكان الوالي

الجديد قد ادرك منذ بداية حكمه أن بقاءه في الحكم لم يعد ممكنا بسبب المعارضة الشديدة له فاتهمه معارضيه بأنه كان السبب في عزل عمر باشا ثم قتله وإن كل الذين كانوا على صلة بعمر باشا قد قاطعوه. بل قاموا بمحاولات للانتقام منه حين قام عبدالله كخيه بمساعدة جنود عمر باشا الاستيلاء على بغداد(٦٩).

وفيما يتعلق بالوالي الجديد بالبصرة فكان على عكس سلفه حيث حث متسلم البصرة بالاستسلام للايرانيين واقرانه ليس بامكانه مساندتهم ناصحا اياهم الاعتماد على انفسهم اذا ما ارادوا المقاومة(٧٠). ويستنج من ذلك ان الوالي كان راغبا في الصلح مع ايران حيث قال ارضوا ايران بقسم من المال ليرفعوا الحصار عنكم والا فخذوا منهم عهدا بأن يحافظوا على اموالكم واعراضكم وسلموا اليهم المدينة(٧١).

لقد كان لخطاب علي باشا تأثير سيىء على نفوس اهل البصرة المحاصرين منذ اربعة عشر شهرا وبالأخص سليمان اغا الذي كان يطالب بصورة مستمرة الاستماتة في الدفاع عن المدينة ببسالة. وكان هذا الخطاب بداية لانهيار المقاومة والاستسلام لليأس على عكس ما كان يفعله سلفه عمر باشا الذي كان على اتصال مباشر بالبصرة والباب العالي وكان يبث في نفوس المدافعين عن المدينة روح الامل والشجاعة والذود عن حقوقهم وكانت محاولاته مستمرة في ايجاد حل عسكري او سلمي لرفع المعاناة عن البصرة(٧٢).

ونستخلص من موقف علي باشا أمرين هامين؛ اولهما ان علاقة الوالي الجديد بالاستانة لم تكن طيبة رغم اصدار الباب قرار تعيينه واليا على بغداد وذلك بسبب الضغوطات الكثيرة من المماليك في العراق وثانيهما ان صيغة الخطاب يوحي بأن الوفاق قد تم بين الحكومة الايرانية والوالي بتسليم المدينة. كما اتهمه البعض بالخيانة إذ لم يكن من المتوقع ان توافق الدولة العثمانية على تسليم المدينة للايرانيين مهما كانت النتيجة، لاسيما وان الدولة حتى تلك الفترة لم تقم بأي جهد لفك الحصار ولم تكلف خزينة الدولة النفقات الكبيرة وانما الذين ضحوا بأموالهم

وارواحهم في الدفاع عن المدينة هم سكان البصرة.

وأورد عبدالرحمن السويدي مما يؤكد ان مصطفى باشا امر المتسلم بأن يسلم المدينة للايرانيين وفي ذلك يذكر «إما ان تصطلحوا مع الاعاجم على شيء او تسلموا لهم البلد»(٧٣).

وفي نفس الوقت فقد كذب علي باشا على الدولة العثمانية عندما كتب لها «بأننا اصطلحنا مع العجم وان جيوشهم تفرقت عن البصرة وعادت الى مقرها(٧٤). الامر الذي ابلغ الوالي الى الدولة العثمانية قبل ان تنهي التفاوض حول كيفية تسليم المدينة، كما انه لم يكن للوالي دور في المفاوضات التي جرت بين المتسلم ووجهاء البصرة وبين الايرانيين وهذا يستنتج من كتابه الى المتسلم.

اجتمع سليمان اغا بأعيان ووجهاء مدينة البصرة وابلغهم موقف بغداد من الحصار وانتهى الامر بأن وافقوا على تسليم المدينة مقابل تأمين ارواحهم واعراضهم واموالهم. وهكذا دخلت القوات الايرانية الى البصرة المنكوبة في آخر يوم أربعاء من صفر ١١٩٠هـ ١٥ أبريل ١٧٧٦م(٧٥).

أما السياسة التي اقدمت عليها القوات الايرانية تجاه اهالي البصرة، فقد تباينت في شأنها المصادر. فعلى سبيل المثال قد ورد ضمن اشارات بعض المصادر الفارسية بما يفيد ان صادق خان قبض على وجهاء المدينة والمتسلم سليمان اغا واقتادهم الى شيراز كأسرى حرب(٧٦). لكن المصادر الفارسية ذكرت بأن هؤلاء الاسرى استقبلهم كريم خان الزند في شيراز دون ان يوجه اليهم الاهانة او التعذيب وانها كانوا مكان احترام لدى الوكيل(٧٧). بينما ذكرت المصادر العربية والتركية ان صادق خان اباح المدينة لجنوده وان الجنود قتلوا ونهبوا اموال المواطنين اضافة الى ارتكابهم جرائم اخرى. وقد أبدى أحمد فراري عدم ارتياحه ازاء هذه الاشارات مبينا ان هذه المصادر قد بالغت في جرائم القوات الايرانية في البصرة وانها تفتقر الى الدقة. واستشهد فرامرزي ببعض المصادر الاجنبية المحايدة مثل سيرجان مالكم الذي قال ان صادق خان عندما دخل البصرة حاول

استمالة قلوب سكان المدينة وبذل جهدا كبيرا في رفع المظالم عن كاهل الناس. وخلق جوا من الطمأنينة والأمن(٧٨). ويؤيد هذا الرأي صاحب كيتي كشا وهو من المعاصرين لهذه الحادثة وهو مؤرخ الاسرة الزندية الذي أشار الى ان الايرانيين عاملوا سكان البصرة معاملة حسنة ومنحوهم الأمن بعد معاناة الحصار الطويل(٧٩). على ان احمد فرامرزي لم يغفل بعض الاعمال العارضة التي اقدم عليها الايرانيين تجاه سكان البصرة. من ذلك اعترافه بأن الايرانيين قد حصلوا على مبالغ كبيرة من الذهب والاموال النقدية من سكان البصرة وانها جاءت هذه الاموال عن طريق التهديد والوعيد كما حاول صادق خان جعل مدينة البصرة مدينة شيعية حتى فرض الاذان على مذهب الجعفري دون سواه(٨٠).

وكان لوريمر منصفا للايرانيين حيث اكد ان الجنود لم يعاملوا المواطنين بقسوة واستشهد بأن اثنين من الجنود الايرانيين قاما بعملية السلب والنهب فأمر قائد الجيش بضربهما حتى مات احدهما من شدة الضرب(٨١).

أما سير ارنولدت ويلسون الذي اهتم بالمصالح البريطانية في الدرجة الاولى فأوضح بأن ممثلي شركة الهند الشرقية قد عادوا الى البصرة بعد ان تركوها اثناء الحصار ووجدوا أن ممتلكاتهم قائمة دون ان يمسسها أضرار. على ان التجارة في البصرة كانت من اكثر الميادين التي منيت بالمخاطر ليس بسبب الاحتلال الايراني فحسب ولكن لما انطوت عليه النظرة المستقبلية من توجس افقد الامل في عودة البصرة الى نشاطها في هذا الميدان. كما ان المراكز التجارية الاخرى في الخليج مثل بوشهر انتهزت هذه الفرصة وقدمت المزيد من التسهيلات للشركات الاجنبية وفتحت ذراعيها امام التجارة الخارجية، الامر الذي جعل شركة الهند الشرقية الى تحويل وكالتها التجارية مرة اخرى من البصرة الى بوشهر وتحويل وكالة البصرة الى مقيميه. (٨٦)

وعلى العموم فإن صادق خان بدأ باحلال الادارة الفارسية في المدينة بدلا من

العثمانيـة وسعى عند دخـوله البصرة الى اعـادة الاستقرار والامن فيهـا ونجح في استمالة العديـد من القبائل العربية مثل المنتفق التي كـانت على خلاف مستمر مع الايرانيين في بداية الاحتلال . لكن العلاقة تحولـت عدائية مرة اخرى وقد برهن صادق على قـدرته في تدبير الامور الاداريـة والسياسية في المدينـة(٦٣) . كما امر كريم خان بأن يختم على كل البيوت التي هجرهـا اصحابها او غابوا عنها وترسل اليه قائمـة كاملة بهذه البيوت(٨٤) . وكـان ينشد من هذا الاجـراء الحيلولة دون قيام الجنـود بالنهب والسرقـة . واذا صدقت بعض المصادر ان كـريم خان الـزند اتبع مع سكان البصرة اسلـوبا حضاريـا في معاملته لهم اثر انتصـاره على القوات المدافعة عن المدينة فـلايستغرق هذا الموقف . اذا تجاوز من العمر ثمانـون عاما في ذلك الـوقت كما انه كـان يعـاني من مـرض خطير حيث كان يصعب عليـه ادارة الدولة في إيران . وقد ظهرت منذ اواخر القـرن الثامن عشر معارضة ايرانية قبلية في محاولة للسيطـرة على العرش بعد ظهور بـوادر الاعتلال في صحة كـريم خان الزند وخاصة من القاجار .

ولايعتقد انه كان بإمكان كريم خان وتحت الظروف الصعبة القدرة في التوسع والفتوحات نحو الخليج العربي . وكانت الحكـومة الايرانية تدرك تماما ان القوى الاجنبيـة الموجـودة في الخليج ولا سيما بـريطـانيـا لايمكن ان تسمح لإيـران في احتـلال المناطق بعـد ان اثبتـوا قدرتهم في الـدفـاع عن مصالحهم في الخليج ضـد القوى المحلية .

وفيما يتعلق بأن كريم خان طلب من قـواده في ايران بعد انتصارهم في البصرة ان يقـدموا وصفـا تفصيليا عن البـلاد الواقعـة ما بين البصرة ومسقط(٨٥)فقـد فسرت بعض المصادر ان هـذا الطلب يدل على رغبـة كريم خـان في الغزو . لكن مثل هذا العمل يحتاج من الحكومة الايرانية قوات كبيرة لمواجهة عواقب الحروب البرية في الخيلج . وكان هـذا الاجراء يعد مغامرة غير مضمـونة العواقب . ثم ان كريم خـان لم يكن راغبا في الفتوحات منـذ اعتلائه العرش وعرف عنه بـأنه كان ميالا للسلم وانه عمل على نشر الأمن والاستقرار في ربوع ايران .

أما غزوه للبصرة نفسها فقد عبر عنها مجموعة من الايرانيين الذين كانوا يكنون للوكيل التقدير والاحترام حيث ذكر بعضهم بأن هذا العمل كان يعتبر من اكبر الاخطاء التي ارتكبها كريم خان ولم يكن يليق بشخصية هذا الحاكم .

وفي اعتقادنا ان الحكومة الايرانية كانت تهدف من هذه الحروب تحقيق غرضين اولهما توجيه الانظار الى الموانىء الفارسية التي كانت تعاني من الركود الاقتصادي بعد ان نقلت شركة الهند الشرقية وكالتها من بندر عباس الى البصرة، وثانيهما ان الحكومة الايرانية كانت في ضائقة مالية فاعتقد الايرانيون انهم سيحصلون على مبلغ من المال نظير انسحابهم من جبهة القتال كما ذكرنا من قبل وعندما رفض اهل البصرة وطردوا الرسول اضطر صادق خان الاستمرار في الحصار ونتج عن ذلك توريط الجيش الايراني في هذه الأزمة .

موقف الدولة العثمانية من الاحتلال الايراني للبصرة :

من خلال عرضنا السابق للاحداث التي جرت في البصرة لم يتضح للدولة العثمانية دور بارز في الدفاع عن البصرة، رغم ان هذه القضية كانت تخص سيادة الدولة على جزء هام من ولايتها . وقد يعدو السبب في ذلك الى الاوضاع الحرجة التي كانت تمر بها الدولة العثمانية في ذلك الوقت إلا ان هذا المبرر لم يكن كافيا بانتهاج هذا الموقف السلبي .

وقد حاول الباب العالي ان يجد فرصة في الدفاع عن موقفها ، فاتهمت الوزراء والمسؤلين في ولاية بغداد بالخيانة وعدم ابلاغ الاستانة بحقيقة الامور التي جرت في البصرة، وقد ورد في كتاب من الباب العالي يوجه فيه اللوم والتأنيب الى كل الموظفين في ولاية بغداد بسبب اهمالهم في القيام بمسؤلياتهم تجاه سكان البصرة(٨٧) .

وفي اعتقادنا ان اللوم والعتاب لم يكن يبرر موقف الباب العالي . ومن الواضح ان الاتصالات كانت مستمرة بين والي بغداد عمر باشا واستانة قبل ان تحتدم الازمة بين بغداد وشيراز الا ان الدولة العثمانية لم تتخذ الاجراءات الكافية

لمنع حدوث تلك الكارثة . وفي حين ان العلاقة بين استانة وعمر باشا كانت جيدة في بدايات تعيينه واليا على بغداد، الا ان الثقة قد انعدمت بين الطرفين في أواخر عهده نتيجة الوشايات الكثيرة التي نقلت الى الاستانة من معارضي عمر باشا .

ويستنتج من ذلك ان الباب العالي كان يتباطىء في اتخاذ المواقف لمساعدة سكان البصرة بحجة انه كان يريد التأكد في كل ما كان يزعم عمر باشا(٨٨) . وهذا ما سنح الفرصة للايرانيين بتحقيق طموحاتهم في البصرة واحتلالها بسهولة .

حاولت الدولة العثمانية انقاذ البصرة الا ان قواتها البحرية في منطقة الخليج لم تكن مجهزة بوجه تستطيع شن غارات على القوات الايرانية الغازية فبدأت الاتصالات بين السلطات وبعض حلفائه في الخليج والمحيط الهندي مثل حكام عمان ومليبار . فبعث السلطان عبدالحميد بخطاب الى السيد احمد بن سعيد البوسعيدي يشرح فيه العدوان الايراني على البصرة ويطلب من امام عمان مساعدة العثمانيين لتحرير البصرة(٨٩) . كما بعث بخطاب آخر الى حاكم مليبار يعلمه بالاحداث التي جرت في الخليج والعدوان الايراني(٩٠) .

وفيما يتعلق بالعُمانيين الذين كانوا يتهددون التدخل لصالح البصرة منذ قيام القوات الايرانية بالغزو . فقد اعلن الامام استعداده لمساعدة الباب العالي واعتبر الامام ان احتلال البصرة كان نتيجة للتطلعات الايرانية في مسقط حيث اورد الامام في خطابه الى السلطان العثماني ان الايرانيين طلبوا من عمر باشا والي بغداد السماح لقواتهم بالمرور عبر البصرة لاحتلال عمان مقابل التزامهم الحفاظ على امن البصرة الا ان هذه الخطة فشلت(٩١)

ورغم التهديدات العمانية الا ان المصلحة قضت ان تكون العلاقة بين الايرانيين والعمانيين جيدة لوجود مصالح مشتركة للجانبين خاصة المصالح العمانية على الساحل الشرقي من الخليج . ولذا فإن العمانيين ترددوا في اتخاذ

مواقف عدائية ضد الايرانيين بل ان العثمانيين اقتربوا من عقد اتفاقية الصلح مع الايرانيين ووافق الامام على تحقيق الرغبات الايرانية من دفع الضرائب السنوية والمتبقية والتي طلبها كريم خان الزند بعد احتلال البصرة الا ان موت كريم خان قد حال دون اتمام هذه الاتفاقية(٩٢) .

ويبدو ان الدولة العثمانية قد اكتفت في القيام بأي عمل انتقامي ضد الايرانيين بعد وفاة كريم خان وانسحاب صادق خان من البصرة فبعث الباب العالي برسائل الى امام عمان وصاحب مليبار يبلغهما ان القوات الايرانية قد انسحبت من البصرة وانه لايريد الانتقام من الايرانيين(٩٣) .

وفي الوقت نفسه فان السلطان بعث بخطاب آخر الى شيراز يبدي فيه التزامه بالاتفاقيات التي عقدت بين الدولتين في عهد نادر شاه الأفشاري وان الدولة العثمانية تعامل الحجاج الايرانيين معاملة حسنة . وفيما يتعلق بالانسحاب من البصرة فقد فوض السلطان سليمان باشا متسلم البصرة الذي أسره الايرانيون بعد احتلالهم البصرة، أطلقوا سراحه فيما بعد وعينه السلطان واليا على بغداد وفوضه بالمباحثات مع الحكومة الزندية حول الترتيبات اللازمة لتسليم المدينة الى الدولة العثمانية(٩٤) .

وهكذا تحررت البصرة من الاحتلال الايراني وانتهت سلسلة الحروب مستمرة بين الايرانيين والعثمانية منذ قيام الدولة الصفوية وسادت المناطق الحدودية بين الطرفين الامن والاستقرار لاكثر من قرن من الزمان .

وعلى ضوء ما سبق ذكره فإن الحاكم في ايران وبصفة خاصة منذ قيام الدولة الصفوية حتى منتصف القرن التاسع عشر لم يعتمد على المؤسسات والدساتير، وانما كان اعتماده على الحكام الاقوياء الذين وصفوا تارة بالغزاة وتارة اخرى بالفاتحين ومثل اسماعيل الصفوي وعباس الاول ونادر شاه أفشاري . اما كريم خان فلا يعتبر من هؤلاء الرموز المعروفة بالقوة . ورغم انه نجح الى حد كبير في حكم ايران الا انه لم ينجح في الاحتفاظ بالمناطق التي احتلتها القوات الايرانية في

عهد نادر شاه افشاري. كما انه فشل في فرض السيطرة على البصرة بالقوة ووصفت الادارة الايرانية في المناطق المحتلة بأنها كانت هشة وضعيفة. وكان ذلك سببا في انتهاء الاحتلال الايراني للمدينة بعد وفاة كرم خان مباشرة.

وفي ١٦ مارس ١٧٧٩ غادر صادق خان البصرة الى شيراز ليحل محل شقيقه في الحكم. وكان ذلك نهائية للوجود الايراني في البصرة وانسحبت بعد فترة وجيزة جميع القوات الايرانية(٨٦).

المراجـــــع

(English Factories In Persia, 1624-29.pp 42- 45.

٢) Steensgaard, niles. The Asian Trade Revolution of Seventeenth Century, Chicago. 1975. - P 354

٣) مرتضى راوندي، تاريخ اجتماعي ايـران، حكومتها وسلسلة هاي ايران أز حملـة عرب تا استقرار مشروطيت ص ٤٧٥ .

٤) د. مصطفى عقيل، التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٦٢ ـ ١٧٦٣، الدوحة ١٤١١ ـ ١٩٩١م ط٢ ص ١٠٠ .

٥) Dupree, Louisv: Afghanistan, Princeton - New Jersey 1980, p. 332.

٦) احمد فرامرزي، كريمخان زند وخليج فارس، اعداد حسن فرامزري، طهران ١٣٤٦هـ، ص ٤ .

٧) ج ج لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي جـ ١، ص ١٦٣ .

٨) حسين نوربخش، جزيرة قشم وخليج فارس ١٣٦٩ هـ ش طهران، ص ١٦٥ .

٩) السير ارنولدن ويلسون، الخليج العربي، ترجمة د. عبدالقادر يوسف، الكويت، ص ٣٣١ .

١٠) دليل الخليج، جـ ٢ ص ٦٥٠ .

١١) عبدالله رازي، تاريخ مفصل ايران، طهران ١٣٣٥هـ ش، ص ٤٢٤ .

١٢) مرتضى راوندي، تاريخ اجتماعي ايران، حكومتها وسلسلة هاي ايران أز حملة عرب تا استقرار مشروطيت جـ ٢ المرجع السابق، جـ ٢ ص ٤٧٤ .

١٣) مرتض راوندي، المرجع السابق ص ٤٧٦ .

١٤) حسن حسين فسائي، فارس نامه ناصري، شيراز ١٣١٤هـ ٢٠٨ .

١٥) روزنامه ميرزا محمد كانترفارس ص ٦٧، انظر فارس نامة، ص ٢١٨ .

١٦) البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩ بيروت ١٩٧٧ ص ٥٧ .

١٧) د. احمد عبدالرحيم مصطفى. اصول التاريخ العثماني ص ١٦٣ .

١٨) كارل براون، السياسة الدولية والشرق الاوسط. قواعد قديمة ص ٣١ ـ ٣٣ .

١٩) عبدالعظيم رمضان، الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة، القاهرة ١٩٨٥، ص ٤٤ .

٢٠) د. محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي ص ١٥٢ ـ ١٥١٤ ـ ١٩١٤ .

٢١) الوالي كان يلقب بالوزير في ذلك الوقت .

٢٢) الشيخ رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء، ترجمة موسى كاظم نورس، بغداد ص ١٣٩ .

٢٣) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق، ص ١٣٩.

٢٤) د. عبدالعزيز سليمان نوار، داود باشا والي بغداد، القاهرة ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م ص ٣٠ .

٢٥) دليل الخليج، جـ ٤، ص ١٨٢٨ .

٢٦) د. عبدالعزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص ٣٠ .

٢٧) دليل الخليج، جـ ٤ ص ١٨١٤ .

٢٨) نفس المرجع، جـ ١ ص ١١٥ .

٢٩) نفس المرجع، جـ ٥، ص ٢٥٩٨ .

٣٠) نفس المرجع، ص ٢٦٠ .

٣١) نفس المرجع، جـ ١ ص ٢٢٧ .
٣٢) د. حسين القهواني، دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩ ـ ١٩١٤ البصرة ١٩٨٠، ص ٢٣ .
٣٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين الاحتلالين، بغداد ١٩٥٣ جـ ٦، ص ٤٣ .
٣٤) عبدالرحمن بن عبدالله السويدي، تاريخ حوادث بغداد والبصرة ١١٨٦ ـ ١١٩٢، ص ٤٧ .
٣٥) دليل الخليج، جـ ٤، ص ١٨٣٩ .
٣٦) نفس المرجع ص ١٨٤٥ .
٣٧) دليل الخليج، جـ ٤، ص ١٨٣٩ .
٣٨) نفس المرجع، ص ١٨٤٥ .
٣٩) نفس المرجع، ص ١٨٤٦ .
٤٠) د. علاء الدين نورس، السياسة الايرانية في الخليج العربي في عهد كريم خان زند ١٧٥٧ ـ ١٧٧٩ بغداد ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ص ٥٨ .
٤١) دليل الحج .
٤٢) احمد ابوحاكمة، تاريخ الكويت جـ ١ القسم الثاني. الكويت. ١٣٩ ـ ١٩٧٠ ص ١٣٠ .
٤٣) دفتر نامه همايون، رقم البحث ٣٨١١ اوائل ذي الحجة ١١٩٣م .
٤٤) الارشيف العثماني باستامبول دفتر نامه همايون رقم البحث ٣٨٠٨ .
٤٥) الكسندر ادموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، البصرة ١٩٨٩م ص ١١٩ .
٤٦) عباس العزاوي، المرجع السابق، جـ ٦ ص ٤٨ .
٤٧) الكسندر ادموف، المرجع السابق، ص ١١٩ .
٤٨) S.B. Mile, The Contries and Tribes of the persian Gulf, London 1966 p 271.
٤٩) عباس العزاوي، المرجع السابق، جـ ٦، ص ٥٣ .
٥٠) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق ص ١٣٩ .
٥١)
٥٢) عبدالرحمن السويدي، المرجع السابق ص ٥٢ .
٥٣) نفس المرجع، ص ٥٥ .
٥٤) احمد فرامرزي، كريم خان زند وخليج فارسي، ٤٢ .
٥٥) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق. ص ١٤٠ .
٥٦) عباس اقبال، مطالعا في درباب بحرين وجزائر وسواحل خليج فارس طهران ١٣٢٨هـ ش، ص ١٢ .
٥٧) احمد فرامرزي، ص ٢ .
٥٨) Sir percy sykes, Ahistory of persia, V.II p. 281.
٥٩) دليل الخليج ص ٥٤، ١٨٤٨ .
٦٠) اسماعيل رائين، دريا نوردي ايرانيان، ج٢ بهار ٢٥٣٦، طهران ص ٦٦٥ .
٦١) اسكندر اداموف، المرجع السابق، ص ١١٩ .
٦٢) دليل الخليج، ص ١٨٤٩ .
٦٣) لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ترجمة جعفر الخياط ١٩٨٥ ، ص ٢٧٢ .
٦٤) دليل الخليج، ص ١٨٥١ .

٦٥) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق، ص ١٥٤ .
٦٦) عباس العزاوي المرجع السابق، ص ٥٥ .
٦٧) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق، ص ١٥٣ .
٦٨) عباس العزاوي المرجع السابق، ص ٦٠ .
٦٩) عبدالرحمن السويدي، ص ٥٩ .
٧٠) الشيخ رسول الكركوكلي، ص ٦٠ .
٧١) عباس العزاوي جـ٦ ص ٦٠ .
٧٢) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق، ص ١٥٥ .
٧٣) عبدالرحمن السويدي، المرجع السابق ص ٥٩ .
٧٤) محمد بن خليفة النبهاني، البصرة، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، مركز دراسات الخليج، البصرة. ١٩٨٠، ص ٢٨٩ .
٧٥) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص ٦١ .
٧٦) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق، ص ١٥٥ .
٧٧) محمد صادق موسوي، تاريخ كيتي كشا، طهران، ١٣٦٦ هـ ش، ص ٢١٥ .
٧٨) سيرجان مالكم، تاريخ ايران، جـ ٢ ص ٧٤ .
٧٩) محمد صادق موسوي، المرجع السابق، ص ٢١٧ .
٨٠) احمد فرامزي، كريم خان زند وخليج فارس .

ولد في عام ١٣٠٦هـ في قريه كجويه من اقليم فارس بالقرب من بستك وعلى بعد حوالي ٦٠ كيلو من الخليج وبسبب الخلافات التي وقعت بين شيوخ العرب والخوانين على الساحل الشرقي من الخليج، انتقل الى البحرين واصبحت لهذه الاسرة مكانة مرموقة هناك.

اصطدم بالبريطانيين في البحرين فلم يستطع الاستمرار هناك فعاد مرة اخرى الى طهران هو وشقيقه وتقلد هناك مناصب ادارية وعلمية وسياسية حتى اصبحت لهذه الاسرة شهرة علمية وسياسية لاسيما لدى البلاط الشاهنشاهي حتى قيام الثورة الايرانية وهم على مذهب الإمام الشافعي .

٨١) دليل الخليج، ص ١٨٦٨ .
٨٢) السير ارنلوت ويلسون، الخليج العربي مجمل تاريخ من اقدم الازمنة حتى اوائل القرن العشرين، ترجمة د. عبدالقادر يوسف، الكويت، ص ٣٠٧ .
٨٣) الكسندر اداموف، المرجع السابق، ص ١٢١ .
٨٤) دليل الخليج، المرجع السابق ص ١٨٦٩ .
٨٥) دليل الخليج، المرجع السابق جـ ٤ ص ١٨٦٩ .
٨٦) رحلة اوليفيه الى العراق، ص ١٠٨ .
٨٧) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق، ص ١٥٧ .
٨٨) اوليفيه، رحلة اوليفيه الى العراق ١٧٩٤ ـ ١٧٩٦، ترجمة يوسف حجي ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨، بغداد ص ١٤ .
٨٩) دفتر نامه همايون (٩) من السلطان العثماني الى امام مسقط رقم البحث ٣٨٠٨ جمادي الآخرة ١٩٣هـ، الارشيف العثماني باستانبول .

٦٥) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق، ص ١٥٤ .
٦٦) عباس العزاوي المرجع السابق، ص ٥٥ .
٦٧) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق، ص ١٥٣ .
٦٨) عباس العزاوي المرجع السابق، ص ٦٠ .
٦٩) عبدالرحمن السويدي، ص ٥٩ .
٧٠) الشيخ رسول الكركوكلي، ص ٦٠ .
٧١) عباس العزاوي جـ٦ ص ٦٠ .
٧٢) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق، ص ١٥٥ .
٧٣) عبدالرحمن السويدي، المرجع السابق ص ٥٩ .
٧٤) محمد بن خليفة النبهاني، البصرة، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، مركز دراسات الخليج، البصرة. ١٩٨٠، ص ٢٨٩ .
٧٥) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص ٦١ .
٧٦) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق، ص ١٥٥ .
٧٧) محمد صادق موسوي، تاريخ كيتي كشا، طهران، ١٣٦٦ هـ ش، ص ٢١٥ .
٧٨) سيرجان مالكم، تاريخ ايران، جـ ٢ ص ٧٤ .
٧٩) محمد صادق موسوي، المرجع السابق، ص ٢١٧ .
٨٠) احمد فرامزي، كريم خان زند وخليج فارس .

ولد في عام ١٣٠٦هـ في قريه كجويه من اقليم فارس بالقرب من بستك وعلى بعد حوالي ٦٠ كيلو من الخليج وبسبب الخلافات التي وقعت بين شيوخ العرب والخوانين على الساحل الشرقي من الخليج، انتقل الى البحرين واصبحت لهذه الاسرة مكانة مرموقة هناك.

اصطدم بالبريطانيين في البحرين فلم يستطع الاستمرار هناك فعاد مرة اخرى الى طهران هو وشقيقه وتقلد هناك مناصب ادارية وعلمية وسياسية حتى اصبحت لهذه الاسرة شهرة علمية وسياسية لاسيما لدى البلاط الشاهنشاهي حتى قيام الثورة الايرانية وهم على مذهب الإمام الشافعي.

٨١) دليل الخليج، ص ١٨٦٨ .
٨٢) السير ارنلوت ويلسون، الخليج العربي مجمل تاريخ من اقدم الازمنة حتى اوائل القرن العشرين، ترجمة د. عبدالقادر يوسف، الكويت، ص ٣٠٧ .
٨٣) الكسندر اداموف، المرجع السابق، ص ١٢١ .
٨٤) دليل الخليج، المرجع السابق ص ١٨٦٩ .
٨٥) دليل الخليج، المرجع السابق جـ ٤ ص ١٨٦٩ .
٨٦) رحلة اوليفيه الى العراق، ص ١٠٨ .
٨٧) الشيخ رسول الكركوكلي، المرجع السابق، ص ١٥٧ .
٨٨) اوليفيه، رحلة اوليفيه الى العراق ١٧٩٤ ـ ١٧٩٦، ترجمة يوسف حجي ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨، بغداد ص ١٤ .
٨٩) دفتر نامه همايون (٩) من السلطان العثماني الى امام مسقط رقم البحث ٣٨٠٨ جمادي الآخرة ١١٩٣هـ، الارشيف العثماني باستانبول.

٩٠) دفتر نامه همايون، (٩) من السلطان العثماني الى علي راجه صاحب مليبار ١٦ جمادي الآخرة ١١٩١هـ الارشيف العثماني.

٩١) دفتر نامه همايون (٩) من الامام احمد بن سعيد الى السلطان عبدالحميد اواسط ذي القعدة ١١٩٣هـ.

٩٢) دليل الخليج، جـ ٢ ص ٦٥١.

٩٣) دفتر نامه همايون (٩) من السلطان عبدالحميد الى الإمام احمد بن سعيد رقم البحث ٣٨١١ الارشيف العثماني اوائل ذي الحجة ١١٩٣هـ.

أنمــوذج للتــوازن البيئـــي

دراسة في الجغرافيا التطبيقية

د. يحيى محمد شيخ أبوالخير

إستاذ الجيومورفولوجيا المشارك
قسم الجغرافيا ـ كلية الآداب
جامعة الملك سعود ـ الرياض

مقدمة : الأهداف والأهمية المنهجية :

يمثل النظام البيئي (Environmental System) وحدة أو مجموعـة وحدات ترتبط مع بعضها البعض بعلاقات مشتركـة . وتعمل هذه المستويات بأمر الله عز وجل خارج وداخل إطـار يكفل للبيئة توازنها واستقرارها حيـث قال عز وجل ﴿والأرض مـددناهـا وألقينـا فيهـا رواسي وأنبتنا فيهـا من كل شيء مـوزون﴾ (سورة الحجر ، الآية ١٩) .

يهدف هذا البحث الى عـرض وتحليل مجموعة من النماذج التفاضليـة التتابعية (Sequential differential equations) التي قام الباحث بابتكـار بعضها (معادلة ١أ الى معادلة ١ حــ نموذج التـوازن البيئي الذي يناقشه هذا البحث) واستخدام الاطر البنـائية للبعض الآخر منها (معـادلة ٢ الى معادلة ٧) مستنـدا على مفاهيم التفــاضل والتكــامل ومبــادىء المنطق الــريــاضي ومنهج النماذج التشبيهيـــة (Simulation models) التي يستفــاد منهـا في استقــراء عنـاصر النظـام البيئي والاستدلال على مستوياته واستنباط أحوال مسلكيـاته الزمكانية . وقد استخدم الباحث الحاسب الآلي لبناء هذه النماذج وتحليلها وذلـك من خلال برنامج محاكاة للبيئـة صمم لغـرض هـذا البحث الذي يهدف أيضـا الى تمثيل آليـةالنظـام البيئي

الارتدادي (Environmental Feedback mechanism) من ناحيـة والتكشيف عن المستويات التي تحقق توازنه (Equilbrium) وتبعده عن تدني مستوى الطاقة فيه (الانتروبيا Entropy level) من ناحية اخرى .

وتعـود أهميـة المعادلات التفـاضليـة التي قـام عليها نمـوذج التـوازن البيئي (معادلة ١أ الى معادلة ١حـ) في هذا البحث إلى ما يلي :

١ — قابلية أطراف كل منها التداخل اوالترابط بكيفية تحقق أشكالها التكاملية (Integrated Form) .

٢ — قــــدرتها على تتبع معــدلات تغير التحميـل البيئي (Environmental carrying capacity) للنظام قيد الدراسة رصدا وتحليلا .

٣ — احتواؤهـا للمتغيرات (Variables) المؤثـرة في النظام البيئـي والتابعـة والجاذبة فيه وفق قالب فيزيو رياضي يعبر في مضمونه عن هدف ومحتوى آلية هذا النظام ويحسب معدل تغيره الزمني كما هو موضح في الشكل ١ و ٢ .

٤ — قدرتها على نمذجة الترابط بين المتغيرات قيـد البحث وإبراز طبيعة هذا الربط بنائيا وبيانيا (معادلة١أ الى معادلة ١حـ وشكل ١ و ٢) .

٥ — قـدرتها على تشبيـه النتائج التفـاضليـة في إطـار بياني يعكس الفـاعليـة الوظيفيـة التي تساعد على تقريـر الاوضاع اللازمـة للارتقاء بالبيئـة الى المستوى الذي يكفل لها توازنها واستقرارها «شكل ٢» .

٦ — ابـراز الـوضع البيئي الأمثل للعلاقـات القـائمـة بين مستويـات البيئـة المحققـة والداعيـة للتـوازن الذي يكفل تخطيطـاً نمـوذجيـاً يحقق للبيئة تـوازنها واستقرار آلية نظامها البيئي الارتدادي .

هذه النتائج التفاضلية التتابعية المطـروحة في هذا البحث تعد اذاً مرآة منهجية فعـالـة وهامـة ينعكس عليهـا نمـوذج التـوازن البيئي الـذي يحاكي آلية نظـامـه الارتدادي ويبلور الاطر التي تهيىء تتبعه زمكانياً ويساعد كمياً على تحديد القيمة

الحدية اللازمة لحالة الاستقرار والتوازن فيه. وفيما يلي عرض للمعادلات التي ابتكرها الباحث نموذجا للتوازن البيئي الذي يهدف هذا البحث الى تحقيقه.

معادلة ١أ

$$\frac{ds}{dt} = \left[(A \times S \times F) / (B \times P) \right] - (C \times S)$$

معادلة ١ب

$$\frac{dF}{dt} = \left[(D \times F) / (E \times P) - (R \times S \times F) \right] (RK - F/RK)$$

معادلة ١ج

$$\frac{dp}{dt} = Q + \text{Tonpe}\ (s) - Y \times P.$$

وفيما يلي تفسير للمتغيرات الواردة في هذه النماذج حيث أن:

S = المستوى التابع أوالانقيادي او الاعتمادي في النظام.

F = مستوى الجذب او المستوى الاعتمادي في النظام.

P = المستوى المؤثر في النظام او المتغير الوسيط.

علماً بأن كلا من P , S يمكن ان يكون تابعا ومؤثراً في ديناميكية النظام في نفس الوقت. أما F فهو مستوى جذب في كل الحالات لكونه مصدرا لديناميكية النظام وديمومته بأمر الله سبحانه وتعالى.

أما Q,R,E,D,C,B,A فهي ارقام ثابتة. أما النموذج (RK - F/RK) في المعادلة $\frac{dF}{dt}$ فيعرف بـ (The Logistic Model). ويعبر هذا العامل في مجمله عن مدى استيعاب البيئة لاستنزاف الطاقة في نظامها المغلق (Closed System) او تبادل مستويات الطاقة في نظامها المفتوح (Open System) ولذا فان هذا العامل يعتبر من الوجهة الرياضية عامل توازن للنظام (Stabilizing Factor) تعتمد فعاليته على مدى قدرة التحميل البيئي.

أما $Y \times P$ فهو يعرف فيزيائيا بالعمر النصفي المتوقع للمادة (Half Life). ويمكن التعبير عن اضمحلال مستوى الطاقة ووصول وحدات النظام الى حد النضوب واستنزاف الطاقة باستخدام ما يسمى بنموذج تحلل او انحلال المادة

(The Decay Model) ويمكن عرض هذا النموذج على النحو التالي :ـ

$$\frac{dg}{dt} = -kg$$ معادلــة ٢

حيث أن (g) هي الطاقة الآولية المتاحة لبقـاء وحدات النظام وتطورها زيادة ونقصـانا مع الـزمن (t) . أما (k) فهـو معامل يعبر عن معـدل التغير في المادة مع الزمن . وسيرد فيما بعد توضيح رياضي لكيفية تحديد هذه القيمة .

وبما أن $g_0 = Co$ في حالة $t_{(o)}$ فان

$$g = C_o e^{-kt}$$

$$\therefore g = g_o e^{-kt}$$ معادلــة ٣

حيث ان $g = go$ عندما تكون $= t_{(o)}$. وأن go في هذه الحالة هي المقدار الأولي المتاح لبقاء وحدات النظـام ويعرف بالقيم الاولية (Initial Values) . ولكن يجب التنويه بأن $g = g_o e - kt$ لن تكتمل الا بطرح قيمـة المستوى المؤثر منها والذي يمكن ان يصاغ تفاضليا على النحو التالي :

معادلة ٤
$$\frac{dp}{dt} = YP$$

$$\frac{dp}{p} = ydt$$

وبما أن $P_o = C_o$ عند $t_{(o)}$ فان

$$P = C_o e^{yt} = P_o e^{yt}$$ معادلـة ٥

ولهذا فان المعادلة الآنفة الذكر $g = g_o e^{-kt}$ تصبح كالتالى :

$$g = g_o e^{-kt} - P_o e^{yt}$$ معادلـة ٦

$$\therefore g = g_o e^{-kt}$$

$$\therefore \frac{g}{g_o} = e^{-kt}$$

$$\ln \frac{g}{g_0} = -kt \ln e$$

$$\ln \frac{g}{g_0} = -kt$$

$$k = \frac{\ln g / g_0}{t}$$

$$K = -\frac{1}{t} (\ln g + g_0)$$
$$k = \frac{1}{t} (\ln g - g_0)$$

معادلة ٧

$$k = \frac{\ln g_0 - \ln g}{t}$$

ويمكن حساب Y في $p = p_0 e^{yt}$ تفاضليا وفقا للطرق التي اتبعت لحساب (k) أعلاه.

الفلسفة البنائية للنماذج :

وباستعراض هذه النماذج أعلاه يتضح مدى امكانيتها في إبراز العلاقة والترابط بين وحدات النظام ضمن إطاره البيئي والارتدادي. ويمكن لنا ان نتصور هذه النماذج على أنها مجسم فيزيورياضي يعبر في مضمونه عن هدف ومحتوى آلية النظام المنوه عنه أعلاه. فمن الواضح ان كل نموذج من تلك النماذج لابد وان يعبر عن معدل للتغير (Rate of Change) ومعدل النقص (Rate of Decrease) في المتغير الواحد للظاهرة الواحدة. ولهذا يعتقد الباحث ان النماذج الموضحة سابقا مثال جيد للربط بين المتغيرات التي يتحقق فيها الربط الحلقي المتجدد (Loop Feed - Back System). ولهذا يمكن ان تُقيَّم هذه النماذج في مجموعها على أنها وحدة لمجموعة الحساب التفاضلي المركب (Sequential Diff. eq,) كما سيتضح لنا في العرض التالي لفلسفة النماذج وتركيباتها الرياضية :—

$$\frac{ds}{dt} = \left[(A \times S \times F) / (B \times P) \right] - (C \times S)$$ معادلة ١٠

ويتضح من هذه المعاملة أن المستوى التابع او الانقيادي (S) يتزايد بناء للتزايد في مستوى الجذب (F) ويتناقص بل ويتدهور هذا المستوى بناء للزيادة في المستوى المؤثر (P). ولهذا نجد ان المعادلة التفاضلية أعلاه تحتوي على معدلين :

١- معدل الزيادة فى المستوى التابع ويعبر عنه :

(A * S * F)/(B * P)

٢- معدل النقص فى المستوى التابع ويعبر عنه :

(B * P) - (C * S)

وهذا معناه ان معدل الزيادة في المستوى التابع يرتبط ارتباطا اطراديا ايجابيا مع زيادة مستوى الجذب والمستوى التابع نفسه . اما معدل النقص في المستوى التابع فيرتبط ارتباطا اطراديا عكسيا مع زيادة المستوى المؤثر .

(٢) أما المعادلة الثانية والتي تتعلق بمعدل تغير مستوى الجذب نفسه (S) فيمكن صياغتها تفاضليا على النحو التالي :

معادلة ١ب $\frac{dF}{dt}$ = [(D * F)/(E * P)- (R * S * F)] (RK - F/RK)

ويتضح من هذه المعادلة وجود معدلي تغير أيضا هما :

١ — المعدل الاول وهو (d * F)/E*P ويمثل معدل التزايد في مستوى الجذب .

٢ — المعدل الثاني وهو (R*S*F)(RK-F/K) ويمثل معدل التناقص .

ويشير هذان المعدلان الى ان النقص في مستوى الجذب يرتبط ارتباطا عكسيا مباشرا مع المستوى المؤثر في النظام بينما يرتبط ارتباطا موجبا مباشرا مع المخزون البيئي في مستوى الجذب نفسه . كما يرتبط معدل التناقص أيضا ارتباطا موجبا مع زيادة المستوى التابع ، وهذا لاشك يشير بوضوح الى انه كلما زادت كثافة المستوى التابع كلما انعكس ذلك على التدهور في المخزون البيئي لمستوى الجذب .

(٣) وبنفس الطريقة السابقة يمكن تحليل معدل التغير في كثافة المستوى المؤثر في النظام (P) على النحو التالي :

معادلة ١ج $\frac{dp}{dt}$ = Q + Tonpe (s) - Y * P

وهذا معناه ان معدل التغير في (P) يتأثر أيضا بمعدل الزيادة مطروح منه معدل التناقص في المخزون البيئي من هذا المستوى . ولهذا نجد معدلي تغيرهما :

١ — المعدل الأول Q + Tonpe (s) ويمثل معدل التزايد في المستوى المؤثر .
٢ — المعدل الثاني Y ≭ P ويمثل معدل التناقص في المستوى المؤثر .
ولكن يجب ان يكون واضحا هنا بأن dp لاينطبق رياضيا في حالة ان Q + Tonpe (s) ⋧ Y ≭ P .

تحقيق النماذج والنتائج :

ولمعرفة مدى فعالية هذه النماذج ، فقد قام الباحث بمساعدة الحاسب الآلي باجراء عدة عمليات رياضية شملت مستويات ذات علاقات مشتركة تتأثر وتؤثر في بعضها للوصول بالنظام البيئي الى حالة من التوازن تنقذه من الانزلاق في براثن حد النضوب . ولقد اختار الباحث من بين تلك التجارب التجربة المتعلقة بتمثيل آلية النظام البيئي الارتدادي للمستويات البيئية التالية :

عدد الصيادين في بيئة بحرية ما (s) ، عدد الاسماك (F) والتلوث (P) . وتعتبر التجربة ان عدد الصيادين يمثل المستوى الانقيادي ويمثل عدد الاسماك مستوى الجذب بينما يمثل التلوث المستوى المؤثر في النظام . ولقد اقترحت لكل من تلك المستويات قيما أولية هي ٣٠,٠٠٠ ، ١,٠٠٠,٠٠٠ ، ٥ كيلوجرام/ م٣ على التوالي . واعتمادا على هذه القيم الاولية المفترضة فقد وضعت خطة لتتبع التغير في هذه المستويات على مدى خمسين عاما . وفيما يلي عرض لنتائج هذه الخطة المفترضة على النحو التالي :

تشير النتائج بأن أعداد الصيادين تزداد نتيجة لزيادة الاسماك (عامل الجذب) . وتصاحب هذه الزيادة في أعداد الصيادين ارتفاع في معدلات تلوث المياه كما هو موضح في شكل (١) وتدل النتائج أيضا بأن الفترة المحصورة بين السنة الثامنة والعشرين من الخطة الخمسينية سوف تشهد زيادة ملحوظة في أعداد الصيادين ممثلة في قمة حادة ذات توزيع بياني متجانس .

وتتكرر هذه القمة حول الفترة المحصورة ما بين العام ٣٢ الى ٤٢ من هذه الخطة المفترضة . ومن المتوقع خلال هاتين الفترتين السابقتين حدوث تدهور في أعداد الاسماك ومعدلات التلوث (شكل ١) وتدل النتائج بأنه لو اخذنا في

الاعتبـار بأن العدد الاولي للصيـادين عنـد t (o) هـو ٣٠٠٠٠ صيادا وفقـا لهذه الخطة ، فـان الحسابـات تؤكد بأن هـذا العدد سيضـاعف نفسه خـلال السنوات العشر الاولى من الخطـة الخمسينيـة اذ من المتـوقع ان يصل هـذا العـدد الى نحـو ٦٢٢٤٢ صيادا .

وسيصحب هذه الزيادة زيادة ملحوظة في معدلات التلوث اذ سترتفع القيمة من ٥ كيلوجرام الى ٧,٣ كيلو جرام في المتر المكعب الـواحد من الماء هذه الزيادة في التلـوث ستكـون ضـابطـا طبيعيا يـؤدي قسرا الى هـروب الصيـادين وتـدني أعدادهم . فتشير النتـائج بأنه من المتـوقع في مثل هذه الحالـة ان ينقص العدد من ٦٢٢٤٦ صيادا إلى نحو وذلك خلال الفترة المنحصرة ما بين العام العاشر والعام الثالث والعشرين من هذه الخطة وسيصحب هذا تدني أيضا في معدلات التلوث من ٧,٣ الى ٧ كيلـوجـرام في المتر المكعب الـواحـد من الماء . ونتيجـة لتـدني معـدلات التلوث وزيـادة الاسماك فإن أعـداد الصيادين سيـزداد من ٣٤٠١٢٠ صيـادا الى نحـو ٥٠٣٢٨ صيادا . وستـؤدي هـذه الـزيادة الى ارتفـاع معـدلات التلوث مـرة اخرى اذ سيصل المعدل الى حـوالي ٧,٤ كيلو جرام / م٣ . وتـؤكد النتائج ان فتـورا ملحوظا في اعـداد الصيادين سيـلاحظ في العام ٤٧ الى ٥٠ من هذه الخطة . وسيصحب هذا زيـادة ملحوظة في اعداد الاسماك وانخفاض بين في معدلات التلوث .

ان تـرشيد الثـروة السمكيـة ونقـاء المياه يتطلب معـرفـة دقيقـة بمدى قـدرة التحميل للبيئة (Carrying Capacity) اذ ان معرفة هـذا العامل والتخطيط لهذه الثروة في ضوئه يؤدي لاشك الى توازن الثروة السمكية وتوازن مستوى التلوث وبالتالي رفع كفـاءة الصيد والانتاجية السمكية وحفظ النوع . وانطـلاقا من هذا المفهوم فقـد أضاف الباحث عـلى النموذج المتعلـق بمسـتوى الجـذب المعامـل (RK - F/ RK) والذي سبق التعـرض له آنفـاً وتشير النتائج ان لهذا المعـامل اثرا كبيرا على تـوازن نتـائج المعادلات الآنفـة الـذكـر ، وتخليصها من التـذبـذب او الضوضاء (Noise) . ان ادخال هذا العامل في الحسـابات المتعلقة بترشيد الثروة

السمكية والفعالية الاقتصادية للصيد يقلل كثيرا من أخطاء التخطيط المتأرجح.
ويعكس (شكل ٢) دور هذا العامل في توازن القيم وثباتها وتحقيق خطة تعكس توازن البيئة عند الحدود التالية :

١ — تتوازن هذه البيئة في حالة عدم زيادة اعداد الصيادين عن ٥٠٠٠٠ صياد.

٢ — تتوازن هذه البيئة في حالة عدم زيادة معدلات التلوث عن ٧ كيلوغرام/ م٣.

٣ — اما الاسماك وهي عامل الجذب فيجب ألا تقل أعدادها عن ١,٥٠٠٠٠٠ سمكة.

ولهذا يستحسن التركيز في التخطيط للتوازن البيئي على استخدام المعادلة التي تشمل المعامل (RK - F/RK) لانه اكثر توازنا واتساقا وأقل ذبذبة في تمثيل آلية النظام البيئي من المعادلات التي تخلو منه كما يتضح ذلك من المقارنات بين نتائج الشكل ١ و ٢.

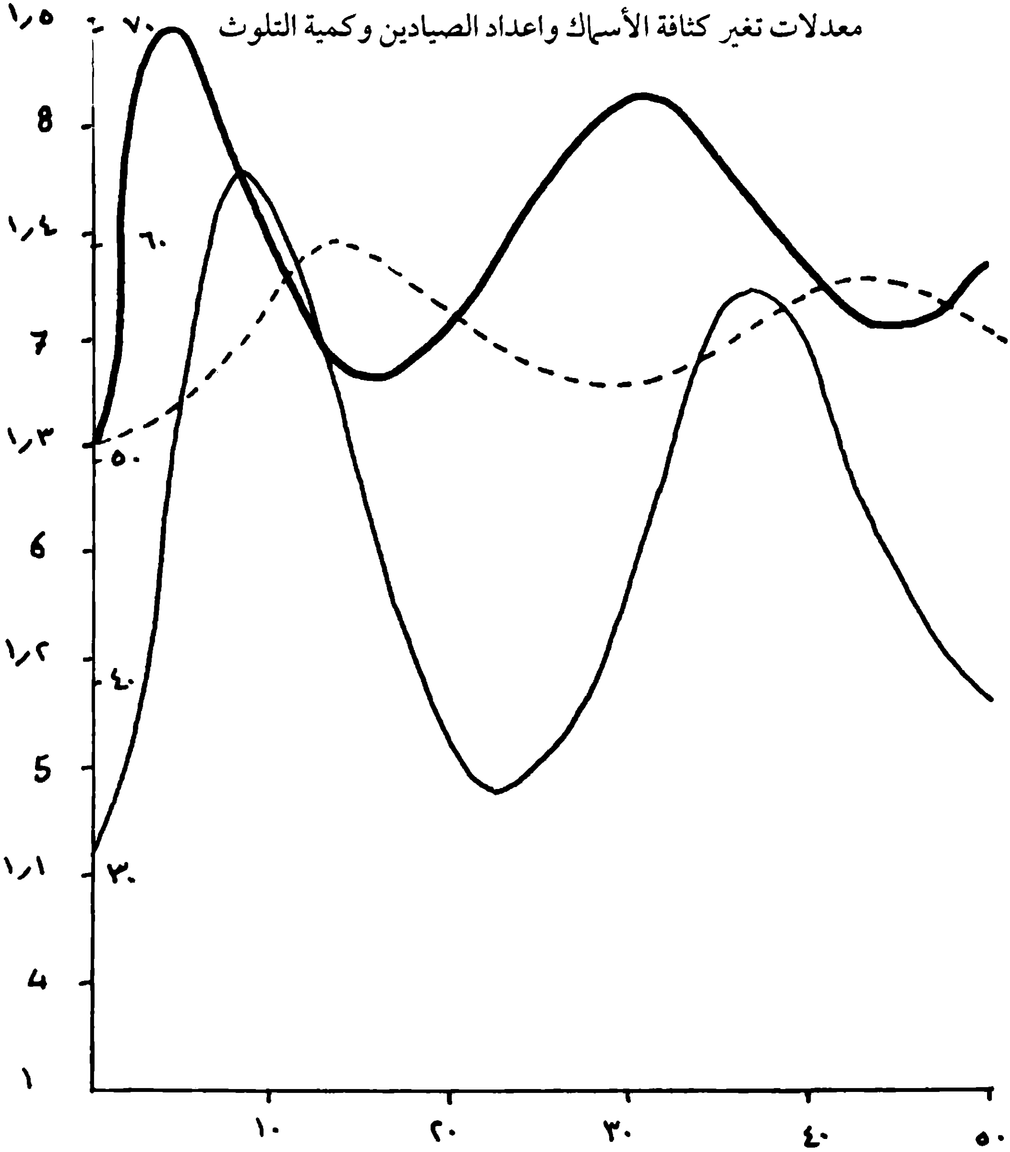
الخلاصة :

على الرغم من ان هذه النماذج تحتاج الى الكثير من الدراسة والتمحيص والتحقيق والتطوير وادخال الكثير من المتغيرات الاخرى عليها الا انها لاشك تساهم مساهمة فعالة في وضعها الحالي لتوضيح مدى الترابط بين المتغيرات المطروحة للدراسة وطبيعة هذا الترابط.

ويناشد الباحث المسئولين والمختصين الى الاسراع في وضع نماذج تكفل فهم البيئة فهما دقيقا ووافيا، واستخدام هذه النماذج في التخطيط الامثل للبيئة، وعلى أية حال فان اية خطة مستقبلية لاستخدام البيئة يجب ان تعمل في إطار يكفل توازن البيئة ويحافظ على آلية نظامها الارتدادي.

شكل (١)

معدلات تغير كثافة الأسماك واعداد الصيادين وكمية التلوث



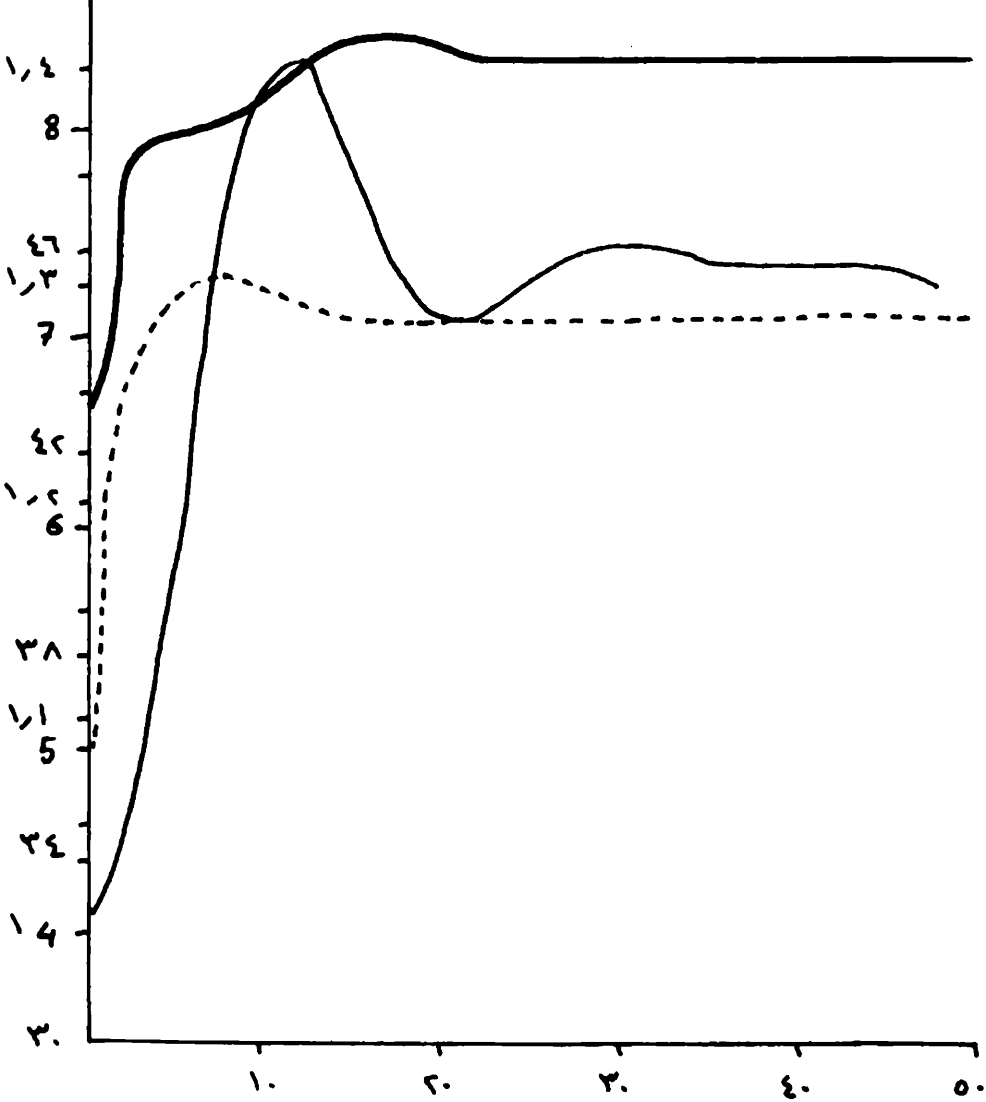
كثافة الاسماك بالمليون وتوضحها الأرقام الشعرية العربيه

الصيادون بالآلاف وتوضحها الارقام الصحيحة العربية

التلوث Kg / m^3 وتوضحه الارقام بالانجليزية

شكل (٢)

معدلات تغير كثافة الأسماك وا



كثافة الاسماك بالمليون وتوضحها الأرقام الشعرية العربيه

الصيادون بالآلاف وتوضحها الارقام الصحيحة بالعربية

التلوث Kg / m³ وتوضحه الارقام بالانجليزية

Selected Further Reading

Bennett R. j. and Chorley R. j., 1978, Environmental Systems: Philosophy, Analysis and Control, Methuen, London.

Bittinger, M. L., 1976, Calculus: A Modeling Approach, Addison - Wesley, Massach.

Chadwick, C, 1974, A Systems View of Planning Pergamon press, Oxford.

Cole, j.p. and King C.A.M., 1970, Quantitative Georgraphy, 3rd ed., john wiley, London8

Dasmann, R., 1968, Environmental Conservation, John Wiley, New York.

Frenkiel F. N. and Goodall D. W. (eds) 1978, Simulation in Geology, John Wiley, New York.

Goudie, A. S., 1983, Environmental Change, 2nd ed., Clarendon Press, Oxford.

Harbaugh, J.W., and G Bonham - Carter, 1970, Computer Simulation in Geology, John Wiley, New York.

Leopold, L. B., and W. B Langbein, 1962, The Concept of Landscape evolution, Goel, Sur, Prof. Pap., 500-A, U. S. Gov. Print Office. Washington, D.C.

Maron, M.J., 1982, Numerical Analysis - A Practical Approch, Mcamillon Pub. Co. New York.

Martin, E. W., 1969, Mathematics for Decision Making, Vol. II: Calculus, Richard D. Irwin, Inc., Homewood, III.

Shaw, G and Wheeler, D., 1985, The Statistical Techniques in Geographical Analysis, John Wiley, New York.

Thomas R. W., and Huggett, R.j., 1980, Modelling in Geography: A Mathematical Approach, Harper and Row, New York.

Oldfield F., Battarbee R. W. and Deering J.A., 1983, New Approaches to recent environmental change, Geog. J. A., Journal, Vol. 149, pp 167 - 818

Wilson, A. G. and Kirkby, M.J., 1975 Mathematics for Geographers and Planners, Clarendon Press, Oxford.

تحليل العلاقة بين خصائص حوض البحر الأحمر والتوجهات الاستراتيجية في المنطقة

دراسة للتحولات السياسية في إطار الجغرافية ـ السياسية لحوض البحر الأحمر ومتعلقاتها الدولية والإقليمية ما بعد مرحلة شق قناة السويس عام ١٨٦٩ وإلى وقتنا الراهن

د. محمد صالح المسفر
قسم الادارة العامة
جامعة قطر

مقـــــدمـــــة

يشكل حوض البحر الأحمر مجالا جغرافياً سياسياً وحيوياً تتعارض لديه، وتتداخل فيه عدة مصالح استراتيجية دولية واقليمية وقطرية، فهناك على الصعيد الاقليمي عدة قوى تتبادل التأثير على أوضاع حوض البحر الأحمر وهي الدول العربية والكيان الاسرائيلي واثيوبيا، فالسعودية تمتد على سواحل البحر الاحمر بمسافة (١١٢٥) ميلاً ومصر (٨٩٨) ميلاً والسودان (٣٠٩) ميلاً واليمن الشمالي (٢٧٥) ميلاً وجيبوتي (٢٥) ميلاً والاردن (٥) أميال، أما أثيوبيا ـ أريتريا ـ فإنها تمتد لمسافة (٤٢٥) ميلاً وإسرائيل (٧) أميال. (١).

وربما ان هناك صراعات إقليمية بين هذه القوى الثلاث مما يؤدي الى توجهات متناقضة في محاولة كل طرف لتكييف أوضاع هذا الحوض لمصالحه الاقليمية وبحكم التداخل بين هذه التوجهات المتناقضة والواقع الدولي فإن بحثنا سيتجه لتوضيح محددات هذه السياسات الاقليمية المتصارعة وتأثرها بتداخل المصالح

١ — عبدالله عبدالمحسن السلطان، البحر الاحمر والصراع العربي الاسرائيلي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، ص ٣٣ ـ ٣٦.

— محمود توفيق، البحر الاحمر في الاستراتيجية الدولية، (القاهرة: مجلة السياسة الدولية)، العدد ٥٧، ١٩٧٩.

الدوليـة في هذا الحوض خصوصا بعـد افتتاح قناة السـويس عام ١٨٦٩ . ولهذا أخترنـا عنوانـا لهذا البحث هو : (تحليل العـلاقة بين خصـائص حوض البحـر الاحمر والتوجهات الاستراتيجية في المنطقة) .

أهـــداف البحـــث :

١ — تقييم العلاقـة بين السياسات الـدولية والاقليمية والقطريـة في حوض البحر الاحمر وتوضيح الخصائص الجغرافية ـ السياسية والاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية لهذا الحوض .

٢ — تقييم عـوامـل التعـايش والمجـابهة في حـوض البحـر الاحمر في إطـار التداخل القـائم بين السياسات الـدولية والاقليمي والقطريـة ضمن أبعاد التأثير المتبادل .

أهميـــة البحـــث :

يستمد البحث أهميتـه من كافـة الاوضاع الاستراتيجيـة لحوض البحر الاحمر والتي يمكن تلخيصها على النحو التالي :

١ — يمثل الحوض العمـق الجنـــوبي لصراع الشرق الاوسط بين العـــرب وإسرائيل وذلك على مستـــوى تأمين المضـــائق الشمالية (خليـج العقبـة وقنـــاة السويس) والجنوبية (باب المندب) .

٢ — يمثل بـاب المنـدب حلقـة الاتصال الجغـرافي الجنـوبيـة مـا بين القسم الآسيـوي للـوطن العربي والقسـم الإفريقي حيـث لايتجاوز عـرضـه العشرين ميلاً .

٣ — يمثل البحر الاحمر بعـد شق قناة السـويس اهم معبر مائي عـالمي يربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب . فقنـاة السويس تعتبر اكبر عامل (اختزال) في جغرافية النقل «إذ أعـادت توحيد القارات وهزت القيم الجيومـاتيكية ، فبعملية جغرافية جـراحية ـ صغيرة نسبياً ـ اختـزلت قارة برمتها هي أفـريقية» . (جدول

رقم ١).

٤ — تمر عبر البحر الاحمر نسبة ٧٠٪ من واردات الكتلة الاوروبية الغربية والاتحاد السوفياتي ٩٠٪ من حاجات اليابان من دول المنطقة.

٥ — تطل على البحر الأحمر أهم مرافىء مصبات النفط والصناعات البتروكيمائية في (ينبع) بطاقة ضخ يومي تصل الى ثلاثة مليون برميل من الحقول الشرقية على الخليج والى البحر الأحمر، وبالاضافة الى النفط السعودي فهناك خط للنفط العراقي. (٢).

٦ — يمثل البحر الأحمر ممراً جغرافياً الى الاماكن المقدسة باتجاه مكة المكرمة والمدينة المنورة وكذلك باتجاه القدس.

الحدود الزمنية للبحث :

يركز البحث على الحدود الزمنية التالية لشق قناة السويس في عام ١٨٦٩م باعتبار ما احدثه شق القناة ووصل البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط من متغيرات في حركة المواصلات العالمية ترتبت عليها مضاعفات استراتيجية في الصراع الاقليمي والدولي. غير ان ذلك قد تم عبر مرحلتين تتميز كل منهما بخصائص محددة :

أ — المرحلة من افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م والى الحرب العالمية الثانية حيث ساد منطق الصراع والتوازن بين القوى الأوروبية الاستعمارية التقليدية (بريطانيا ـ فرنسا ـ ايطاليا).

ب — المرحلة من الحرب العالمية الثانية الى وقتنا الراهن حيث تحددت خصائص هذه المرحلة بظهور الصراع الامريكي ـ السوفياتي مع بروز إسرائيل منذ العام ١٩٤٨م وحصول معظم دول حوض البحر الاحمر على الاستقلال واجراء تعديلات في خريطة الجغرافيا السياسية بضم ارتريا الى اثيوبيا عام ١٩٥٢ وظهور القوة النفطية.

منهــج البحــث :

اعتمدنا منهجا في البحث هو اسلـوب التحليل التاريخي للمتغيرات بالإسناد الى دراسـة وتقييم الأحداث السيـاسية وخلفيـات وقـائعها مع معـالجة الوثـائق والبحوث والدراسات المرتبطة بالموضوع والتي سبق نشرها، مع الاعتماد كذلك على بعض الـوثـائق والـدراسـات غير المنشورة والموثقـة لـدى وزارة الخارجيـة الايطالية والتي زودنا بها بعض الباحثين الاريتريين.

خطــة البحــث :

في الاطار العام للحدود الزمنية للبحث سيقسم هذا البحث على ثلاثة محاور:

المحـور الاول : دور بريطـانيا في تعميم دبلـومـاسية الاحتـلال والتوازنـات الاوروبية على مستوى حوض البحر الاحمر بعد شق قناة السويس.

المحور الثـاني : رياح التغيير بعد الحرب العالميـة الثانية وانعكاسـات التنافس الامريكي السوفياتي على حوض البحر الاحمر.

المحور الثالث : انعكاسات الصراع العـربي ـ الاسرائيلي على القرن الإفريقي والبحر الاحمر.

واخيراً خـاتمة للبحث تتضمن تطلعـات مستقبليـة مستمـدة من تحليلنـا لهذه المحاور.

كـانت بريطـانيـا قد احتلت مصر عمليـا في عـام ١٨٨٢ اثر فشل ثـورة احمد عـرابي، وبالتـالي كـانت مصر عـاجزة عن الـدفـاع عن مستعمـراتها خصوصـا والقوات المصرية كانت تواجه وقتها ضغطاً بريطانياً لاخلاء السودان تحت وطأة ثورة محمد احمد المهدي ١٨٨٢ ـ ١٨٨٤ وهـو أمر أرادت وزارة (شريف باشا). مقـاومتـه حتى لاتقطع أوصـــال مصر من جنـوبها غير انها لم تفلح أمـام إصرار البريطـانيين. وهكـذا يترافق الضغط البريطـاني على مصر لاخـلاء السـودان مع الضغط لاخلاء ميناء مصـوع وسواحل البحر الاحمر الافريقيـة، ولتبدا فيما بعد

مرحلة اقتسام النفوذ عليه بين القوى الاوروبية وحدها. (١)

في ٣١ مايو ١٨٨٧ وصل النفوذ الى اقصى الحدود الاريترية الشمالية عند راس (قصار) وفي ٢ يونيو ١٨٨٩ تم احتلال مدينة (كرن) الجبلية في الهضبة الارترية الشمالية. وفي أغسطس ١٨٨٩ اكتملت السيطرة على ارتريا (التركية الخديوية سابقاً) فأصدر ملك إيطاليا (همبرت الاول) في مطلع يناير ١٨٩٠ مرسومه الملكي بتأسيس مستعمرة أرتريا.

إيطاليا تتجه من سواحل نحو البحر الأحمر الى العمق الجبلي :

بعد ان كرست بريطانيا مقومات السيطرة الايطالية على السواحل الارترية في مواجهة التوسع الفرنسي في جيبوتي والحد منه، انتقلت صراعات النفوذ ورغبات التوسع باتجاه الأعماق البرية، فأيطاليا ـ بتشجيع بريطاني ـ أرادت التوسع باتجاه أثيوبيا انطلاقاً من مستعمراتها الارترية. كما أرادت فرنسا وإيطاليا التوسع باتجاه السودان الذي كان يعتبر أرضاً (خلاء) بموجب إخلاء مصر له تحت ضغط بريطانيا سياسياً وضغط ثورة المهدي عسكرياً. اذ استهدفت فرنسا مد حزامها الاستعماري من شرق أفريقيا (جيبوتي ـ أثيوبيا ـ جنوب السودان ـ إلى افريقيا الفرنسية الغربية) تحت نيل تشكيل الامبراطورية الفرنسية الافريقية من ساحل البحر الاحمر والى الساحل الاطلسي لإفريقيا، أي من جيبوتي شرقاً والى السنغال غرباً.

لقد أوقفت بريطانيا توجهات الأطماع الإيطالية نحو السودان بموجب معاهده عقدت بين الجانبين البريطاني والايطالي بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٨٩١ حيث

---

١ ــ وثائق الخارجية الايطالية حول احتلال ارتريا : الفترة من ١٨٨٣ ـ ١٨٨٥ م اعدتها وصنفتها لجنة خاصة تحت إشراف (كارلة جوليو) استاذ التاريخ والسياسة الاستعمارية في جامعة بافيا / إيطاليا، وقد دققت هذه الوثائق بواسطة لجنة تنظيم وثائق العمل الايطالي في إفريقيا / وزارة الخارجية الايطالية، وقد كان (نيجرا) وقتها هو السفير الايطالي فوق العادة والوزير المفوض في لندن، ويأتي النص الذي أشرنا اليه مرفقا ضمن رسالة بعث بها الكونت (نيجرا) من لندن الى (مانتشيني) وزير الخارجية الايطالية بتاريخ ٢١/ ١٢/ ١٩٨٨ ـ تقرير رقم ١٦٣٢ / إشارة رقم ٤٩٧١ . أما الوثيقة فقد أعطيت الرقم (٣٧٤).

اعترفت ايطاليا بنفوذ بريطانيا على السودان رغم وجود حكم المهديين وذلك تقديرا لاعتبارات مستقبلية حيث تسترجع بريطانيا السودان لنفوذها المباشر. هذا يعكس ما كان من توافق وتنسيق بين ايطاليا وبريطانيا بقصد عزل فرنسا والحد من طموحاتها فاتجهت ايطاليا نحو إثيوبيا حيث كانت تقوم هناك مجموعة من الممالك الأثيوبية المتصارعة. فقد كان هناك امبراطور (تجراي) في مواجهة (منليك) ملك (شوا) فاختارت ايطاليا الوقوف الى جانب منليك / ملك شوا/ فعقد معه المبعوث الايطالي كونت (انتوللي) معاهدة صداقة بتاريخ ٢١ مايو ١٨٨٣. ثم بدأ الايطاليون بعد ذلك وبالتنسيق مع منليك التقدم نحو الهضبة الاثيوبية غير ان امبراطور اثيوبيا (يوهنس) قاوم ذلك التقدم في معركة (دوقللي) بتاريخ يناير ١٨٨٧ الا انه وبالرغم من انتصاره العسكري على الايطاليين في (دوقللي) فقد وجه يوهنس نفسه بين خصمين عنيدين، هما منليك في الداخل والمدعوم من الايطاليين، والمهدويين السودانيين الذين اجتاحوا حدود اثيوبيا الغربية وكان مقتله على أيديهم بتاريخ ٢٩ مارس ١٨٨٩ وقد افسح مقتله على المزيد من التعاون بين ايطاليا ومنليك ـ وفق الخطة البريطانية ـ لمعادلة النفوذ الايطالي بالنفوذ الفرنسي فعقدت اتفاقية (اوتشاللي) بين منليك وايطاليا في مايو ١٨٨٩ بعد شهرين من مقتل يوهنس. (١)

ساء الفرنسيين الذين كانوا يتمركزون في جيبوتي ذلك التقدم السريع الذي احرزته ايطاليا بدعم من خصمها البريطاني في سواحل البحر الاحمر والقرن الإفريقي، فاتجهوا لمد الجسور نحو منليك (حليف ايطاليا وامبراطور اثيوبيا الجديد) كاشفين له عن ان المادة (١٧) من اتفاقية اوتشاللي التي عقدها مع إيطاليا انها تضع بلاده تحت الحماية الايطالية. وأبرزت فرنسا لمنليك مذكرة عممتها ايطاليا على الدول الاوروبية، بموجب المادة (٣٤) من اتفاقية مؤتمر برلين (٨٤/ ١٨٨٥) لتقسيم المستعمرات الافريقية بين الدول الاوروبية، تفيد بوضع

---

١ ـ عاطف السيؤ، البحر الاحمر والعالم المعاصر، (القاهرة : دار عطوة، ١٩٨٥)، ص ٩٤ ـ ١٠٥.

اثيوبيا تحت الحماية الإيطالية . وقد عززت روسيا القيصرية التي كانت تتطلع هي الاخرى للبحر الاحمر . توجه فرنسا نحو منليك وضد ايطاليا وبريطانيا . (١)

عبر هذه الاتصالات بدأ منعطف جديد في السياسة الاثيوبية حيث انحاز منليك الى جانب فرنسا وروسيا وبدأ تنسيقه مع فرنسا لتشكيل قوة مشتركة (إثيوبية/ فرنسية) هدفها التقدم عبر أراضي جنوب السودان . لتدعيم تقدم فرنسي آخر بقيادة (مارشان) كان متجها من غرب افريقيا والى جنوب السودان ، وقد دفعت هذه التحركات بريطانيا لتدفع بقواتها تحت قيادة (كتشنر) لاعادة احتلال السودان ومواجهة الزحف الفرنسي على السودان من جنوبه ـ الزحف الفرنسي بالتعاون مع اثيوبيا ـ ووقتها عرف العالم اكبر ازمة سبقت الحرب العالمية الاولى بين فرنسا وبريطانيا ، وهي أزمة (فاشودة) في جنوب السودان حيث كان مشهد المواجهة بين القائد الفرنسي (مارشان والبريطاني كتشنر) . (٢)

بريطانيا تعود لفرض التوازن :

كان جل هدف بريطانيا في البداية الا تتعدى منافسات ايطاليا وفرنسا حدود السواحل في البحر الاحمر جنوب السويس ، غير ان التمركز في السواحل قد اجتذب كلاً من فرنسا وايطاليا الى الاعماق الجغرافية الاستراتيجية البرية ، باتجاه ارتريا واثيوبيا والسودان ، وقد كان من أولى نتائج خسران لعبة التنافس البريطانية ان اشتدت المجابهة بين منليك الذي اصبح حليفاً لفرنسا وروسيا وبين الايطاليين ، فدعمت فرنسا موقف منليك بارسال كميات من الأسلحة الفرنسية كما رصد قيصر روسيا كميات من الذهب ، فتطورت المجابهات السياسية الى حرب إثيوبية/ إيطالية في (عدوة) في أوائل مارس عام ١٨٩٦ حيث انتصر الاثيوبيون بقيادة منليك هنا قويت شكيمة التحالف الفرنسي الاثيوبي حيث

---

١ — Harold G. Marcus, The Life and Times of Menelike 11: Ethiopia, 1844 - 1913, (Oxford Studies on Africa Affairs), 1966, p. 63.

٢ — Seven Rubenson, The survival of Ethíopian Independence, (Addis Ababa University, Heinman. London 1963) , 384 - 388.

استغلته فرنسا في دفع مشروع انشاء خط حديدي يربط ما بين (جيبوتي) على الساحل وأديس أبابا عاصمة اثيوبيا، بهدف استغلال هذا الخط الحديد - إضافة الى الجوانب التجارية في وصول فرنسا الى المناطق الاستوائية من القارة الافريقية عبر جنوب السودان، وبهدف ربط الاقتصاد الاثيوبي بالمصالح الفرنسية. وقد كونت لهذا الغرض (الشركة الامبراطورية لخطوط حديد اثيوبيا) عام ١٨٩٧م وهي شركة فرنسية يملكها رأسماليون فرنسيون. وكان ذلك ايذانا بتعميق الصراع والتنافس بين فرنسا وبريطانيا الأمر الذي حاولت بريطانيا تفاديه فيما بعد بفتح ملفات المصالحة والعودة الى منطق التوازن بداية بإتفاقية (فاشودة). (١)

عادت بريطانيا لدبلوماسية التوازن فأعلنت ضرورة الاعتراف بالأمر الواقع ممهدة بذلك لتوقيع اتفاقية بين الايطاليين والاثيوبيين اعترف فيها الاثيوبيين بسيادة ايطاليا على ارتريا كما نالوا تعويضا عن خسائرهم في معركة (عدوة). ثم في ديسمبر ١٩٠٦م عقدت اتفاقية ثلاثية بين بريطانيا وكل من فرنسا وايطاليا لترسيم الحدود بين مستعمراتهم في السودان وارتريا واثيوبيا والصومال وجيبوتي ومنذ ذلك الوقت يمكننا القول بأن الاوضاع العامة قد استمرت على ما هي عليه الى الحرب العالمية الثانية ونهاية باستقلال هذه الدول مع استثنائين. (٢)

الاستثناء الأول:

وهو الخاص بتحلل ايطاليا من تلك الاتفاقات حين قرر النادي الاوروبي في عام ١٩٣٥ حل بعض المنافسات الداخلية بين الدول الاوروبية باعادة إطلاق يد ايطاليا في اثيوبيا، وبموجب ذلك ـ ومستغلة لعقدة الثأر لهزيمة عدوة ـ زحفت ايطاليا فاحتلت اثيوبيا في الخامس من مايو ١٩٣٦ ولم تتراجع عنها الا من بعد هزيمتها على يد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. ونتيجة لتلك الهزيمة فقدت

---

١ — محمد أبوالقاسم، السودان: المأزق التاريخي وآفاق المستقبل (بيروت: دار الكلمة ١٩٨٠)، ص ٤٠.

٢ — وليد محمد جرادات، الاهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر، (الدوحة: دار الثقافة، ١٩٨٦)، ص ١٦٩ - ١٨٨.

ايطاليـا مستعمراتها في اثيـوبيا وكـذلك في ارتريـا . فأثيـوبيا أعيـدت الى العرش الاثيوبي الامبراطوري أما ارتريا فقـد وضعت تحت الوصاية البريطانية . الى حين صدور قـرار الجمعية العامـة للامم المتحدة رقم ٣٩٠ (د ــ ٥) بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٥٠ (١)

الاستثنـاء الثـانـي :

رفع الاستعمار الايطالي عـن جنوب الصومـال وتحويله الى وصـاية ايطـالية ، فمنـذ احتلال ايطـاليـا للجزء الجنـوبي من الصـومال في عـام ١٨٨٩ ظل الحكم الايطالي مبـاشرا الى ان احتلت بـريطانيا هـذا الجزء في الحرب العالميـة الثانيـة ثم وضع تحت وصاية إيطاليا بقرار الامم المتحدة صدر بتاريخ ٢١/ نوفمبر/ ١٩٤٩ مع تكوين مجلس استشاري تابع للامم المتحدة مكون من مصر والفلبين وكولمبيا لتأهيل الصومال الجنوبي لينال استقلاله خلال عشر سنوات .

وبنهـاية الحرب العـالميـة الثانيـة وقبيل فترة وجيـزة من الصعود الامـريكي ـ السوفيـاتي تولت بـريطانيـا بعد ذلك تحقيق التـوازن ضمن التحالـف بينها وبين فرنسـا من الحرب العالميـة الثانية وإلى قـرار انسحابها من شرق السـويس والبحر الاحمر في عام ١٩٦٨ .

---

١ ــ مرجع سابق ، ص ١٦٩ ـ ١٨٨ ، ص ١٩١ ـ ٢٠٠ .

المحور الثاني

رياح التغيير بعد الحرب العالمية الثانية وإنعكاسات التنافس الأمريكي السوفياتي

لقد انتجت الحرب العالمية الثانية متغيرات دولية في موازين القوى العالمية من ناحية وفي توجه الاستقلال من ناحية اخرى. في إطار الحرب صعدت الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي كقطبين عالميين في توزيع مناطق النفوذ، كما انحسر دور الدول الاوروبية الى مرتبة ثانوية قياسا للقطبين العالميين. وبذات الوقت بدأ التقويم الزمني المتسارع نحو الاستقلال، ثورة مصر في عام ١٩٥٢ والتي دخلت في عام ١٩٥٦ في مجابهة عسكرية مع العدوان الثلاثي (بريطانيا/ فرنسا/ إسرائيل) الذي كان يعبر عن آخر طلقة في الاسلوب الاستعماري الاوروبي التقليدي. ثم كان استقلال السودان في عام ١٩٥٦ واستقلال اليمن الجنوبي تحت اسم جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية عام ١٩٦٧ واستقلال جيبوتي في عام ١٩٧٧ ومن قبلها استقلال الصومال بشقيقه الشمالي البريطاني والجنوبي الايطالي عام ١٩٦٠. هكذا أصبح حوض البحر الاحمر كله منطقة مستقلة عن سيادة الدول الاوروبية التي صارعت بعضها البعض لمدى قرن كامل من الزمان وبتوقيت شق قناة السويس (١٨٦٩—١٩٦٨) وقد دخلت أقطار الخليج العربية ضمن رياح التغيير التي انتهت عندها بإعلان استقلال كافة هذه الدول وبقرار من بريطانيا بالانسحاب من شرق السويس ١٩٦٨م.

هذه هي خلفية ما كان من توزيع لمناطق النفوذ بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا في حوض البحر الاحمر الذي يعتبر جزءاً جيوبوليتيكياً مكملاً للخليج ودائرة الشرق الاوسط الجغرافية، فاذا كانت ظروف الحرب العالمية الثانية وما بعدها قد

حملت الى الصدارة القطبين الامريكي والسوفياتي مع الانسحاب الاوروبي عن هذه المنطقة، فإن المتغيرات لا تأتي معزولة او منقطعة الجذور والتواصل عن خلفياتها، فالسياسات الاوروبية الغربية وبالذات بريطانيا وفرنسا تعتبر نفسها في خندق واحد لمواجهة التغلغل السوفياتي في البحر الاحمر، فهناك تشابك عضوي في العلاقات بل ان الولايات المتحدة لا تغفل في الحقيقة إلا في إطار حلف الاطلسي الذي يضم معظم هذه القوى الاوروبية ـ باستثناء فرنسا ـ ولدينا تصور هنري كيسنجر الواضح حول هذه المسألة «يجب ان يكون هدف السياسة الغربية، أيا كانت نظرتنا الى الحلف الاطلسي ايجاد تماسك أعظم واحساساً جديداً بوحدة الهدف ونحن نعيش فترة اذا نظرنا الى الوراء بدت دون شك انها فترة ثورات عظيمة في تاريخنا، فالدول القومية المكتفية ذاتياً بدأت تختفي وليس في وسع دول ــ حتى ولو كانت من أكبر الدول ــ ان تبقى او تحقق بمفردها قدراتها المادية او السياسية او الروحية». (١)

ان الاحداث التي تلت الحرب العالمية الثانية تتمحور الى حد بعيد حول ظهور النفط بفعالية في السياسة الدولية من بعد بدايات تدفقه في حقبة الثلاثينات إضافة الى قيام الكيان الاسرائيلي في الاربعينات اذ القى هذان الحدثان بتأثيراتهما الاستراتيجية على مجمل الاوضاع السياسية والعسكرية في الحوض المائي الهام، وقد أضيفت مؤثرات النفط والاحتلال الإسرائيلي الى متغيرات موازين القوى الدولية واتجاه العالم نحو تنافس القطبين العالميين أمريكا والاتحاد السوفيتي. حيث بدأت الولايات المتحدة محاولاتها احتواء نفوذ الدول الاستعمارية الاوروبية (بريطانيا/ فرنسا/ إيطاليا) تحت مظلتها.

في البداية تناسق التمدد الامريكي مع انحسار بريطاني عن المواقع الهامة في غرب وشرق وجنوب السويس، وبدت الصورة كتنسيق بأكثر مما بدت كمنافسة بين الدولتين فحصلت امريكا على قاعدة (هويلس) في ليبيا او (راديو مارينا)

١ ــ ج. ك تريناسكس، ارتريا في مرحلة الانتقال، ١٩٤١ ـ ١٩٥٢ (مطبوعات وترجمة جبهة تحرير ارتريا)، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨.

التي أصبحت تعرف بقاعدة كانيوستيشن في ارتريا، كما وضعت امريكا كل ثقلها لتأمين ضم أثيوبيا لارتريا ولاشك ان الولايات المتحدة كانت تنطلق في تقديرها من واقع مادي ملموس وهو تصفية بريطانيا لوجودها جنوب السويس، فقد انسحبت من قاعدة (ماكينون رود) في كينيا، وقبلها من قاعدة السويس ثم من عدن في جنوب اليمن. واخذت بريطانيا بعد ذلك تدرك ـ ولو متأخرا ـ أهمية استراتيجية التكامل الاستعماري مع الولايات المتحدة، ولذلك بدأت مرحلة تنسيق من مظاهرها الهامة الزحف الامريكي على المعاقل البريطانية في تلك المنطقة لتفادي حدوث فراغ ولمواجهة الصين التي بدأت تزحف في تنزانيا تجاه الشرق الافريقي وقد ظهر التنسيق الامريكي/ البريطاني جليا حين عمدت الولايات المتحدة وبريطانيا الى دمج مصالحهما الاستراتيجية بموافقة بريطانيا عام ١٩٦٦م على السماح لأمريكا بإستخدام جزيرة (دييغو غارسيا) التابعة لها كقاعدة بحرية وجوية في المحيط الهندي. بل وازدادت الحاجة الى التكامل والتنسيق الاستراتيجي بين الدولتين حينما اضطرت امريكا للانسحاب من حرب فيتنام في أوائل السبعينات. ويمثل هذا النوع من التنسيق التدريجي بين الولايات المتحدة وبريطانيا ـ التمدد والانسحاب ـ نظمت أمريكا عملية (ملء الفراغ) بانسجام تام مع اعلان بريطانيا في ١٦ يناير ١٩٦٨ سحب كل قواتها (شرق السويس) ثم تنفيذ الاعلان بالانسحاب النهائي من منطقة الخليج في ٢ ديسمبر ١٩٧١م. (١)

وفي مواجهة الهيمنة الامريكية مد الاتحاد السوفياتي جسور التعاون الى مصر بعد العدوان الثلاثي عليها في عام ١٩٥٦ (بريطانيا/ فرنسا/ إسرائيل) فضمن بذلك مرتكزا استراتيجيا يستند الى خصائص مصر الجغرافية/ السياسية بإطلالتها على البحر الاحمر والابيض المتوسط، إضافة الى دورها المركزي في توجيه الاحداث العربية. اما على صعيد جنوب البحر الاحمر فقد ركز السوفيات في البداية على اكتساب صداقة أمام اليمن الذي وقعوا معه معاهدة صداقة في

---

١ ـــ حمدي الطاهر، مرجع سابق، ص ٢٣.

نوفمبر ١٩٥٥، ثم اتفاقية تعاون عسكري واقتصادي في عام ١٩٥٧م، ثم ساندوا ثورة اليمن الجمهورية في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ ووقفوا الى جانب الجمهوريين ضد الملكيين طوال الحرب اليمنية الاهلية (١٩٦٢ ـ ١٩٦٨) غير ان هذا التوجه السوفياتي نحو اليمن الشمالي سرعان ما وقع في مأزق الاختيار بين صنعاء وعدن التي كانت قد استقلت في ٢٩ نوفمبر ١٩٦٧ تحت رايات الجبهة القومية الاكثر راديكالية. فحين نشب نزاع مسلح بين شطري اليمن في عام ١٩٧٢ اتخذ الاتحاد السوفياتي جانب جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ثم تطورت علاقات ترقى الى التحالف الوثيق بين عدن وموسكو. وقد وثق زعماء اليمن الجنوبي علاقاتهم هذه مع السوفيات بتوقيعهم لمعاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين ولمدة ربع قرن بتاريخ ٢٥ اكتوبر ١٩٧٩م. (١)

لقد ارتكز السوفيات الى موقعي مصر في شمال البحر الاحمر واليمن الديمقراطية في جنوبه، وبقي على السوفيات ان يتدبروا بعد ذلك علاقاتهم مع إثيوبيا (نظام هيلاسيلاسي) الذي يهيمن على سواحل ارتريا ويتمتع بنفوذ قوي في إفريقيا ليس أدناه وجود مقر منظمة الوحدة الافريقية في عاصمته (أديس أبابا). وكذلك الامر بالنسبة للسعودية التي زادت اهميتها بحكم انتاجها النفطي وانعكس ذلك على رؤيتها البالغة الحساسية لأمنها في البحر الاحمر. ولم يخف السوفيات ايضا منظورهم القلق لما يؤثر على مصيرهم السياسي في اليمن الشمالي.

ونتيجة لذلك السياق فقد بدأت دول المنطقة ذاتها تعيد ترتيب علاقاتها ومصالحها حيث نظرت إثيوبيا الى السوفيات من خلال تعاونهم الوثيق مع الصومال منذ عام ١٩٦٢م والذي انتهى بتقديم عون للصومال بلغ (٣٢) مليون دولار وأدى لأن تقدم الصومال للسوفيات تسهيلات بحرية في ميناء بربرة ومركز اتصالات عسكري في ديسمبر ١٩٧٢م، وبلغت العلاقات الودية

---

١٥ — ج وارن ناتر، مخطط كيسنجر، تقديم دز سعد الدين ابراهيم، ترجمة جهاد الخازن ويوسف صباغ، (بيروت: دار القضايا، ١٩٧٦)، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

الصومالية/ السوفياتية ذروتها بتوقيع معاهدة صداقة بينهما في يوليو ١٩٧٤ . (١)

وكذلك نظرت السعودية الى علاقات السوفيات الوثيقة بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية كنوع من انواع المواجهة معها خصوصاً حين نشبت الحرب الحدودية بين السعودية واليمن الجنوبية في عام ١٩٧٤ .

متغيرات الاختيارات السياسية في منتصف السبعينات :

منذ منتصف السبعينات طرأت متغيرات على الاختيارات السياسية الخاصة بمعظم النظم القائمة في المنطقة، فمصر التي ظلت حليفة للاتحاد السوفياتي، منذ عام ١٩٧٣ اتجهت بعد اكتوبر بإتجاه الوفاق مع الولايات المتحدة واسرائيل الامر الذي انتهى بتوقيع معاهدة كامب ديفيد بتاريخ ١٧ سبتمبر (إيلول) ١٩٧٨ . فهذا متغير أساسي سرعان ما انعكس على سياسات مصر في البحر الاحمر والقرن الأفريقي بالتحديد في التحول من مواجهة أمريكا واسرائيل ومجالات عزلها السابقة ضمن الحقبة الناصرية والى محاولات الوفاق معهما .

أما على صعيد النظام الاثيوبي فقد حدث العكس تماما ، فأثيوبيا التي كانت طوال عهد الامبراطور هيلاسيلاسي حليفا للولايات المتحدة الامريكية واسرائيل ما لبثت بعد الثورة الجمهورية عام ١٩٧٤ والتحولات الاشتراكية عام ١٩٧٧ ان تحولت الى حليف للاتحاد السوفياتي يحظى بدعم كوبا واليمن الجنوبية .

كذلك النظام الصومالي الذي بدأ في الفترة الوجيزة التي اعقبت استقلاله في عام ١٩٦٠ محاورا حيادياً للقوتين الأعظم، ثم حليفاً للسوفيات كما أوضحنا في الصفحات السابقة، سرعان ما تحول في فترة حربه مع اثيوبيا حول إقليم أوغادين في عام ١٩٧٧م للتقارب مع الولايات المتحدة بحجة ان الاتحاد السوفياتي قد اختار دعم الجانب الاثيوبي .

---

١ — محمد حسنين هيكل ، سنوات الغليان ، (القاهرة : مركز الاهرام للترجمة والنشر ١٩٨٨) ، ص ١٦١ ـ ١٨٠ .

كذلك اتجه النظام السوداني منذ الانقلاب الشيوعي الفاشل في ١٩ يوليو ١٩٧١ نحو الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية بعد فترة من التقارب الوثيق مع الاتحاد السوفياتي امتدت من ٢٥ مايو ١٩٦٩ والى ١٩٧١ .

هذه المتغيرات اعادت وبدرجة كبيرة النظر في موازين العلاقات الدولية في البحر الأحمر والقرن الأفريقي وأدت الى انعكاسات مؤثرة على مستوى العلاقات الاقليمية بين دول هذا الحوض، فقد ظهر التحالف جلياً بين اليمن الجنوبي وإثيوبيا على أساس ان اثيوبيا قد اتجهت نحو المعسكر الاشتراكي، كما حيدت بعض الانظمة العربية نفسها فيالنزاع الاثيوبي ـ الارتري على أساس أن اثيوبيا قد انهت علاقاتها مع إسرائيل .

غير ان جانبا من هذه المتغيرات قد خضع لتبدل على مستوى اختبارات النظام الاثيوبي منذ مطلع عام ١٩٨٩ ، اذ انعطفت اثيوبيا تارة اخرى بإتجاه الولايات المتحدة الامريكية بعد شعور نظامها بتخلي الاتحاد السوفياتي عن مد العون اليها تحت ضغط المشاكل الداخلية للاتحاد السوفياتي نفسه وما حدث من متغيرات في السياسة الداخلية والخارجية إثر الشروع في تنفيذ برامج إعادة البناء (البرويستريكا) . وقد أدت هذه التطورات الى تخفيف حدة العلاقات المتوترة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على مستوى القرن الافريقي بل ان الولايات المتحدة الامريكية قد تبنت برامج اقتصادية لاغاثة . . . منكوبي المجاعة في اثيوبيا بلغت حوالي (٧٠) مليون دولار في عام ١٩٨٩م كما بادر الرئيس الامريكي السابق جيمي كارتر للتوسط بين النظام الاثيوبي وثوار جبهة تحرير ارتريا لوضع حد لنزيف الحرب بينهما وذلك في سلسلة من اللقاءات بدأت في ولاية (أتلانتا) الامريكية في سبتمبر عام ١٩٨٩ ثم في (نيروبي) عاصمة كينيا في نوفمبر من نفس العام .

واتساقا مع هذا المتغير السياسي الاثيوبي دخلت اثيوبيا في علاقات جديدة ومميزة مع إسرائيل، حيث اعلنت عودة العلاقات بين البلدين بتاريخ

٣/ ١١/ ١٩٨٩ مع السماح لفلاشا من يهود اثيوبيا والذين يبلغ عددهم حوالي العشرين ألفا بالهجرة الى إسرائيل . (١)

قد أقلقت هذه المتغيرات الاثيوبية فيما يختص بالعلاقات مع إسرائيل معظم الدول العربية المطلة على حوض البحر الاحمر بشكل خاص اذ تنذر بتحالف إسرائيلي ــ أثيوبي بمقدوره تشكل محور عسكري في مواجهة الدول العربية الاخرى، خصوصا وان إسرائيل تمتلك مميزات الموقع في شمال البحر الاحمر في حين تمتلك اثيوبيا مميزات الموقع جنوبه .

المحور الثالث
إنعكاسات الصراع العربي - الاسرائيلي على القرن الافريقي والبحر الأحمر

بعد استعراضنا لموازين القوى الدولية في البحر الاحمر والقرن الافريقي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وما تم من حالات استقطاب حادة لدول المنطقة في مرحلة ما قبل خطط (إعادة البناء) السوفياتية . ثم استعراضنا للعوامل الدولية والاقليمية الجديدة التي أثرت على أوضاع المنطقة نتيجة التقارب والتفاهم الدولي بين موسكو وواشنطن، ونتيجة توقيع اتفاق كامب ديفيد . ونتيجة تحول النظام الاثيوبي باتجاه الولايات المتحدة واسرائيل نأتي في هذا المحور لدراسة خلفيات الصراع العربي ـ الاسرائيلي على مستوى حوض البحر الاحمر والقرن الافريقي وارتباطه بهذه المتغيرات الاقليمية والدولية مع توضيح خصائص البحر الاحمر في مضائقه وممراته وجزره بالنسبة لكل من طرفي النزاع العربي ـ الاسرائيلي

---

١ ــ روبرتو البيوني، الخليج والبحر الاحمر، ترجمة صبحي عمر، (دبي: مؤسسة البيان ١٩٨٧)، ص ٦٤ .

حيث يتمحور الصراع حول هذه الخصائص والمميزات الجغرافية تحديداً وبالطبع لايستطيع الباحث ان يقيم طبيعة الصراعات اذا لم يأخذ بعين فاحصة الأهمية الاستراتيجية لهذه الممرات وما تعنيه في الخريطة الامنية والعسكرية لدول المنطقة. فالصراع العربي ـ الاسرائيلي يتمحور بشكل ساخن من حول ثلاثة مواقع :

١ ـــ خليج العقبة ومضايق تيران وصنافير شمالاً (راجع الشكل رقم (٢)).

٢ ـــ باب المندب وجزيرة بريم جنوباً (راجع الشكل رقم «٣»).

٣ ـــ السواحل الارترية وجزر دهلك (راجع الشكل رقم «٤»).

(١) خليج العقبة ومضايق تيران وصنافير :ـــ

يكتسب هذا الخليج أهميته الاستراتيجية في الصراع العربي ـــ الاسرائيلي من وجود ميناء «ايلات الاسرائيلي الذي تم احتلاله في عام ١٩٤٨ داخل مياهه المغلقة وفي الساحل الشمالي حيث لايمكن الوصول الى ايلات إلا بمدخل خليج العقبة المعروف بمضيق (تيران) فهذا المضيق هو الذي يوصل ما بين البحر الاحمر وخليج العقبة وبعرض يمتد لثلاثة أميال ، ويقع هذا العرض بين جزيرة (تيران) و (سيناء) عند المدخل الجنوبي لخليج العقبة ، ويبلغ امتداد الخليج حوالي ١٦٠ كيلومتراً، ويبلغ طول الشواطىء المحيطة بخليج العقبة ٢٣٢ ميلاً منها (١٢٥/ السعودي)، (٦/ الاردن)، (٩٥/ مصر)، (٦/ فلسطين المحتلة)، ويقع ايلات (ام الراشدين في اصل التسمية العربية) ضمن هذه الستة اميال الداخلية المحتلة من اراضي فلسطين.

يمكن الدخول الى خليج العقبة عبر ثلاث ممرات : (١) ممر ما بين شاطىء السعوديةوجزيرتي (صنافير) و (تيران) اي ان العبور بمحاذاة الساحل السعودي شرقاً. (٢) ممر ما بين جزيرتي (صنافير) و (تيران) في وسط مدخل الخليج. (٣) ممر ما بين جزيرة تيران وش .ه جزيرة سيناء، وهذا هو الممر الوحيد الصالح للملاحة، فممري الوسط والشرق يزخران بالصخور والشعب المرجانية إضافة

الى ضحالة المياه . (١)

كانت جزيرتا تيران وصنافير تابعتين للمملكة العربية السعودية غير ان السعودية قد وضعتهما تحت السيادة المصرية بموجب اتفاق عقد بينهما عام ١٩٤٩ . وبذلك يكون مدخل خليج العقبة بأكمله تحت السيادة المصرية .

لقد مارست إسرائيل حرية الملاحة من ميناء «إيلات» الى البحر الاحمر عبر خليج العقبة منذ عام ١٩٤٨ والى ان طلبت مصر من الامين العام للامم المتحدة في ١٨ مايو ١٩٦٧ سحب قوات الطوارىء الدولية من مراكزها في سيناء وخليج العقبة ، وعلى اثر الاستجابة لهذا الطلب حلت القوات المصرية محل القوات الدولية وبصورة خاصة في شرم الشيخ المشرف على مضائق تيران ، واعلنت مصر غلق المضائق بوجه الملاحة الاسرائيلية والبواخر الحربية الاسرائيلية ومنع مرور السفن الاجنبية المحايدة الا بعد الاستئذان . (٢)

شكل ذلك الاجراء المصري لطمة قوية لاسرائيل على رأسها قطع إمدادات النفط الايراني الذي كان يأتي الى إيلات عبر البحر الاحمر وخليج العقبة . إضافة الى قطع خطوط اتصالاتها الملاحية مع أفريقيا وآسيا وعزلها عن الشاطىء الاريتري ، وقد أشار مورد خاي عبير الى ان مشكلة حرية الملاحة في إيلات عن طرق مضائق تيران كانت دافعاً أساسياً لحروب إسرائيل المباغتة في عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ . ولا ننسى ايضا مدى الضرر الذي اصاب مجرى العلاقات الوثيقة بين إسرائيل ونظام بريتوريا في جنوب إفريقيا .

وفي حدود علم الباحث فلم توضع حتى الآن دراسة مفصلة عن الاضرار الاقتصادية بالذات التي لحقت بإسرائيل نتيجة الحصار البحري المصري للمضايق ووقف ملاحتها في البحر الاحمر ، غير انه من المعقول جدا القول ان واقعة الحصار البحري قد كشفت عن مدى ضعف التركيبة الامنية الاستراتيجية

---

١ — وليد محمد جرادات ، مرجع سابق ، ص ٢٩٨ ـ ٢٠٩ .

٢ — جريدة العرب القطرية ـ ٢ أبريل ١٩٩٠ ـ ص ١٠ .

للكيـان الاسرائيلي في مواجهـة المقـومات الجغـرافيـة التي يملكها العـرب حين يستخدمـونها بجدارة كما فعلـوا في عام ١٩٦٧ بـالرغم مـن الهزيمة العسكـرية. فإيلات شريان حيـاة قابل للاختناق في أي لحظـة وبالتالي يمكن تقديـر مدى قوة الحيـاة التي تتدفق في الجسم الاسرائيلي حين يتـاح لهذا الكيـان العمل بحريـة من خلال إيلات. اضافة الى ان واقعة الحصار تلك فيما اذا درست استراتيجية شاملة يمكنها ان تجيب على تساؤل هام حول مدى الثقة التي يمكن ان تمنحها الاسواق الآسيويـة والافريقيـة لاسرائيل مع إدراكهـا امكانيـات العرب لتحـدي خطوط مـواصلاتها الجنـوبية عبر البحـر الاحمر. فـالاسواق في كلتـا القارتين لايمكنهـا المراهنـة على وضعيـة إيـلات في حـال التـوتـر والصراع بين العـرب والكيـان الاسرائيلي.

لقد اربكت واقعة الحصار حلفـاء إسرائيل في منطقة حوض البحر الاحمر قبل غيرهم. اذ نجـد ان الامبراطور هيـلاسيلاسي يستـدعي بعـد يومين من إغـلاق مصر لخليج العقلبـة بتـاريخ ٢٢مـايو ١٩٦٧ سفـراء الاتحاد السـوفيـاتي ومصر وإسرائيل للاعراب عن قلقه تجاه ذلك الاجراء الذي جرد بلاده امكانية التواصل الملاحي مع الكيان الصهيوني.

بنهـاية حـرب ١٩٦٧ سعت الولايـات المتحـدة والاتحاد السوفيـاتي وفرنسـا وبـريطـانيـا الى التـوصل الى تسـويـة تشمل ـ اضـافـة الى انسحـاب القـوات الاسرائيليـة: الحدود، حـريـة الملاحـة، إنهاء حـالـة الحرب، وقـد تضمنت المقترحـات التي تقـدم بها وزير الخارجيـة الامـريكي (دين رسك) وضع قـوات دولية في شرم الشيخ على الا يجوز سحبهـا الا بقرار من مجلس الامـن او الجمعية العامة. وقد كـانت كافة مقترحات التسوية تلف وتـدور لتعود الى نقطة بدء هي المضايـق وشرم الشيخ، وقد تضمن الـرد الامريكي على المقترحـات السوفيـاتية التي قدمت للولايـات المتحدة وفرنسا وبريطانيـا في نهاية عام ١٩٦٨ والمؤرخ في ينايـر ١٩٦٩ أثارت اسرائيل لمسألـة ضرورة تواجـد قواتها في شرم الشيخ «... ينبغي ان يـوضع في عين الاعتبـار ان نزاع يـونيـو ١٩٦٧ قد تـرتب على مسألـة

حقوق المرور عبر مضايق تيران. ولا يمكن تحقيق آمالنا في السلام إلا بأقصى قدر من الترتيبات الامنية لضمان هذه الحقوق. . . »(١) وفي ٩ نوفمبر ١٩٦٩ قدمت الولايات المتحدة مشروعا لتسوية الازمة كان كسابقة يطالب بنزع سلاح سيناء وترك مصير غزة وشرم الشيخ لمفاوضات تجريها مصر مع اسرائيل، وقد رفض عبدالناصر مقترحات (روجرز) لاسباب من بينها انها لم تطالب إسرائيل بالانسحاب من شرم الشيخ و قطاع غزة. وحين تقدم روجرز بمبادرة كاملة في يونيو ١٩٧٠ فقد اكدت على ضرورة حرية الملاحة لاسرائيل في مضايق تيران. وبالرغم من ان قبول عبدالناصر لمبادرة روجرز قد انهت (حرب الاستنزاف) الا انها كانت تمهد لتسوية الى ان كانت حرب اكتوبر ١٩٧٣ والدبلوماسية (المكوكية) التي اقترنت باسم (هنري كيسنجر) وصولا الى اتفاقية كامب ديفيد في ١٧ سبتمبر ١٩٧٨. (٢).

(٢) باب المندب وجزيرة بريم :

انتهى الاتفاق المصري/ الاسرائيلي بتأمين حرية الملاحة لاسرائيل في كافة المضايق الشمالية ولكن بقى أمر المضايق الجنوبية في باب المندب حيث لايمكن العبور الى البحر الاحمر ومنه إلا عبره. وقد اشار محمد حسنين هيكل رئيس تحريرة جريدة الاهرام الأسبق في يوليو ١٩٦٩ (الى ان مضايق تيران من الناحية الجغرافية ليست المدخل الوحيد الى خليج العقبة، بل ان البحر الاحمر بكامله هو المدخل الى الخليج، ولأن الاقطار العربية تطل على معظم البحر الاحمر فيمكنها اغلاق باب المندب في وجه إسرائيل في حالة حرب عربية/ إسرائيلية او حرب استنزاف طويلة. (٣)

ويشكل (باب المندب) المدخل الجنوبي للبحر الاحمر وهو نقطة الوصل بين

١ — أجيه جرجس ـ مرجع سابق ـ ص ١٥ ـ ١٧.

٢ — محمد حسنين هيكل، مرجع سابق ـ ص ٩١.

٣ — محمود عزمي، دور البحرية العربية في البحر الاحمر، (شؤون فلسطينية ـ عدد ٦٧ حزيران/ يونيو ١٩٧٧)، ص ٥٧.

البحر الاحمر وبحر العرب في المحيط الهندي، ويتكون مضيق باب المندب من مضيقين : الاول صغير ويقع برمته في الاراضي اليمنية الجنوبية حيث يقع بين الساحل اليمني وجزيرة (ميون) اليمنية التي تشق المضيق الى مضيقين. وهذا المضيق الصغير الذي يقع برمته داخل حدود السيادة اليمنية هو المفضل للملاحة الدولية لخلوه من الشعب المرجانية والمخاطر التي تحف بالملاحة في المضيق الكبير الواقع بين جزيرة (ميون) والساحل الافريقي الذي تتقاسمه كل من ارتريا وجيبوتي. ويتراوح عرض هذا المضيق اليمني الصغير حوالي ٥, ١ ميلا بحريا ويمتد طولا حوالي ثلاثة أميال (بحرية). وتمثل جزيرة (بريم) اليمنية الواقعة وسط باب المندب قاعدة مشرفة على المضيقين اليمني والافريقي.

في سنة ١٩٦٧ وفي الثلاثين من شهر نوفمبر ولدت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، واصبحت العضو الرابع عشر في جامعة الدول العربية بعد احتلال بريطاني دام (١٢٩) عاما وقد أرادت بريطانيا ـ التي ازمعت الانسحاب في ذلك العام من كل الاراضي شرق السويس ـ تدويل جزيرة (بريم) ووضعها تحت الإشراف والسيطرة المباشرة لهيئة الأمم المتحدة، غير ان هذا المشروع قد فشل وبقيت جزيرة (بريم) تحت سيادة اليمن الديمقراطي الشعبية. اما على صعيد الساحل الافريقي فقد رحلت فرنسا عن (ساحل الصومال ـ جيبوتي) في ٢٧ مايو ١٩٧٧ ومنذ استقلالها اوقفت حكومة جيبوتي التسهيلات التي اعطتها فرنسا للملاحة الاسرائيلية، وعليه لم يتبق لاسرائيل من شاطىء او موضع قدم ساحلي في البحر الاحمر الى ما تحتله اثيوبيا من شواطىء ارتريا التي تشرف جنوباً على باب المندب. (١)

لقد ظهر جليا اثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣ ان العرب قادرون على احكام سيطرتهم على حوض البحر الاحمر بأكمله من خلال الجنوب ايضا وذلك حين احكمت قوات اليمن الديمقراطي والقوات المصرية المنسقة معها السيطرة على باب المندب ومنع السفن الاسرائيلية من الابحار عبره. ولهذا ترى اسرائيل ان

١ ــ عبدالله السلطان، مرجع سابق ـ ٢٢٩.

معركتها تمتد على نطاق البحر الاحمر كله، من شماله وكذلك من جنوبه، فالحصار العربي لباب المندب يظهر - اذا ما تكرر بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد - ان سلاما تبرمه دولة عربية واحدة مع اسرائيل، مهما كان ثقل هذه الدولة العربية، لايكفي لتأمين حرية الملاحة الاسرائيلية في البحر الاحمر. (١)

ولأن إسرائيل تدرك ما كان يعنيه استقلال اليمن الجنوبي من عزل لها عن باب المندب وجزيرة بريم فإنها لن تكن بعيدة عن مقترحات تدويل جزيرة (بريم)، أما على صعيد تقرير المصير السياسي لساحل الصومال (جيبوتي) فقد علمت اسرائيل قبل حصول جيبوتي على استقلالها على تأييد المزاعم الاثيوبية (هيلاسيلاسي) التي استهدفت ابتلاع جيبوتي، وحينما اصبح استقلال جيبوتي حقيقة مفروضة حاولت اسرائيل بصورة جزئية ومن خلال حملة شنتها في وسائل الاعلام الغربية اشعار فرنسا والرأي العام العالمي بأخطار استقلال جيبوتي على الملاحة الدولية في البحر الاحمر بغية الابقاء على جيبوتي تحت الحكم الفرنسي. وعلى الرغم من ان الملاحة الاسرائيلية كانت تحميها فرنسا في جيبوتي قبل عام ١٩٦٧، الا ان الفرنسيين والاسرائيليين لم يتوصلوا الى استراتيجية مشتركة في البحر الاحمر ومن بعد الحرب العربية/ الاسرائيلية في العام ١٩٦٧ وما تلاها من سوء لحق بالعلاقات الفرنسية/ الاسرائيلية، اصبحت اسرائيل متورطة في غمار السياسة الفرنسية فأيدت الائتلاف المعارض المكون من الاشتراكيين والشيوعيين لخلع الديجوليين بعدما اعلن ديجول مسئولية إسرائيل عن الحرب وذهبت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل الى فرنسا في يناير ١٩٧٣ لتأييد المعارضة الفرنسية للديجوليين اقتناعا منها - أي من مائير - بأن المعارضة سوف تتبع سياسة مؤيدة لاسرائيل بشأن جيبوتي، غير ان هذه المحاولات الاسرائيلية بشأن جيبوتي قد فشلت، وبما يماثل فشل الجهود البريطانية لتدويل جزيرة (بريم). (٢)

---

١ — أحمد عبدالرحيم مصطفى، مضايق تيران في أزمة الشرق الأوسط، مجلة الخليج والجزيرة العربية، عدد ٢٣ - السنة السادسة - يوليو ١٩٨٠، ص ١٦٤ - ١٦٥.

٢ — محمد حسنين هيكل - دايان ونظرية الامن الاسرائيلي، جريدة الاهرام تاريخ ٤/ ٧/ ١٩٦٨.

٣ — السواحل الارترية وجزر دهلك :

تتمثل هـذه السـواحل في نهايـات السـاحل الارتـري مع جيبـوتي واليمن الديمقراطية (الثالوث) الذي يهيمن على حركة الملاحة جنوب البحر الاحمر (باب المندب) . ويمتـد هذا الساحل الى مسافـة الف كيلومتر باتجاه سـواحل السودان وتبلغ مسـاحة ارتـريا (١٢٠,٠٠٠ كلم مـربع) وتتبعها (١٢٦) جـزيرة اكبرهـا جزيرة (دهلك) . (١)

لقد اتضح من خلفيات النزاع الاوروبي من بعد شق قناة السويس عام ١٨٦٩ وضحت لنا اهمية الساحل الارتري الاستراتيجية ضمن صراعات تلك الحقبة ما بين ايطـاليا وفـرنسا وبـريطانيـا ، ثم حددنـا الكيفية التي اثـر بها موقع السـاحل الارتري على تحالفـات وخصومـات القوى الاوروبيـة مع نظم الهضبة الاثيـوبية الداخلية . وقد استشعرت اثيوبيا اهمية هذا الموقع الساحلي الاستراتيجي فعمدت ـ بالاتفاق مع بريطـانيا والولايات المتحدة ـ منذ هزيمـة ايطاليا في الحرب العالمية الثانية الى ضم كل ارتـريا اليها وبطريقة تخالف كافـة قرارات الامم المتحدة التي اعتبرت العلاقة بين ارتريا واثيوبيا في نطاق الفدرالية وليس الضم او الدمج .

تحت مظلة هذا التحالف الاثيوبي ـ الامـريكي الذي حول ارتريا الى مستعمرة اثيـوبية اتجهت اسرائيـل للتغلغل العسكري والاقتصـادي والسيـاسي في ارتريـا بهدف تحقيق مركـز اسناد لنشـاطاتها في البحـر الاحمر ، وبدأت إسرائيل نشـاطها الاقتصادي بتأسيس شركة (انكودي) عـام ١٩٥٢ كأكبر شركة لتعبئة اللحوم في ارتريا ، ثم اشترت اسرائيل اكبر شركـة زراعية هي شركة (سيا) الايطاليـة سابقا محاولة بـذلك الربط بين هيمنتها على الثـروة الحيوانيـة والزراعية عـام ١٩٦٤ اما نشاطات الاستيراد والتصـدير فقد أوكلت لشركة (هـارون اخوان) ثم جاء دور (الهستـادروت) او الاتحاد العـام لعمال إسرائيل ليـزيـد مـن تغلغل المؤسسـات الاسرائيلية في مرافق الخدمة الاقتصادية في ارتريا .

---

١ — آجيت جرجس ، مرجع سابق ، ص ٤٤ ، وكذلك ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

عسكريا، اقامت اسرائيل مدرسة عسكرية لمقاومة حرب العصابات في مدينة (دقي ــ محاري) الارترية بداية في عام ١٩٦٤ كما حصلت على موافقة هيلاسيلاسي لاستخدام جزيرتي (حالب) و (فاطمة) على بعد (٥٠) ميلا من باب المندب لاغراض عسكرية وكذلك مد الاسرائيليون نشاطهم الى مجموعة جزر (دهلك). (١)

اثناء ذلك كانت الثورة الوطنية الارترية المعلنة منذ اول سبتمبر ١٩٦١ آخذة في النمو والقوة وقد أنهكت القوات الامبراطورية الى حد كبير دون إمكانية التغلب عليها في ذلك الوقت غير ان الامبراطور هيلاسيلاسي سرعان ما استغل الهزيمة العسكرية العربية امام اسرائيل في حرب ١٩٦٧ ليقوم بأعنف حملات الابادة ضد الشعب الارتري متخذا سياسة الارض المحروقة مما ادى لنزوح الآلاف من ابناء ارتريا الى سهول السودان الشرقية.

وقد تولى (الياهو سالبيتر) محرر الصحيفة الصهيونية (جويش بالتيمور تايمز) بتاريخ ٨/ ٨/ ١٩٦٩ تحليل التحالف الاسرائيلي ــ الاثيوبي على النحو التالي في معرض رده على ما سبق ان كتبه هيكل على صفحات الاهرام حول الامن العربي والبحر الاحمر، كتب سالبيتر: (لقد قال هيكل بأن اسرائيل كانت مخطئة في اعتقادها ان السيطرة على شرم الشيخ يمكن ان تؤمن حرية الملاحة في (إيلات) اذ ان العرب يستطيعون ـ إذا أرادوا ــ ان يغلقوا المنفذ الجنوبي من البحر الاحمر. ولقد كان هيكل يشير بالطبع الى انه بعد رحيل البريطانيين من عدن فقد اصبحت مستعمرة التاج السابقة جمهورية عربية (ثورية) في حين يوجد في الجهة المقابلة لمضايق عدن جمهورية الصومال وهي مستعمرة ايطالية سابقة لاتقل عداء عن الاولى. ويمكن الافتراض ان مخططي الدفاع في اسرائيل لم يكونوا يجهلون امكانيات حدوث مثل هذه الخطوة من قبل العرب كما انهم لم يهملونها تمام الاهمال. غير ان التهديد القائم يضيف اهمية خاصة الى علاقات إسرائيل مع

---

١ ــ محمد الفضلي ـ أبعاد مؤتمر قمة تعز الرباعي لأمن البحر الاحمر، جامعة الدول العربية، الادارة العامة للاعلام، بدون تاريخ، ص ٣.

البلدان / غير العربية/ في شرقي افريقيا مثل إثيوبيا وكينيا ويوغندا . لذا فان زيارة السيد إيبان لهذه الدول الثلاث يمكن ان ينظر اليها من هذه الزاوية . ان اسرائيل تتعاون مع جميع الدول الثلاث وذلك عن طريق التدريب وتعليم الاثيوبيين واليوغنديين والكينيين في إسرائيل بالاضافة الى ارسال الخبراء في الحقل الاقتصادي الى هذه الدول ـ اما . . . اثيوبيا فان لها وضعاً ـ خاصاً ـ اذ ان لها مصلحة مشتركة مباشرة مع اسرائيل في منع العرب من التوسع في البحرالاحمر . . إن إسرائيل وأثيوبيا هما الدولتان غير العربيتين في هذا البحر . . وقد اخذ العرب يؤججون نار حركة الاستقلال الارتري بهدف تحويل البحر الاحمر الى بحيرة عربية . (١)

لم يكن الذكاء السياسي ولا معرفة تخطيط وتحسبات وزارة الحرب الاسرائيلية بمعزل عن تلميحات (سالبيتر) حين حاول طرح الثورة الارترية في إطار الصراع العربي/ الاسرائيلي حول الممرات المائية في البحر الاحمر ، وقد دعا واشنطن ـ في نهاية مقاله ــ لدفع مزيد من المساعدات لاثيوبيا ، كما ربط سالبيتر بين الدعم العربي للثورة الارترية ومواقف سوفياتية قال انها ايضا من وراء هذا الدعم ، وقد كشف (دافيد هولدن) في مقاله بالصنداي تايمز في ديسمبر ١٩٧٠ عن النشاط الاسرائيلي في جنوب السودان كما ذكرت مجلة (افريكا كونفيدينشيال) في مارس ١٩٧٠ ان ارتريا قد غدت هامة جدا بالنسبة للسوفيات خصوصا بعد الانقلابات الثورية في ليبيا والصومال والسودان ، أما مجلة (نيوزويك) بتاريخ ١/ ٣/ ١٩٧١ فقد نبهت الى خطر (ان يضيف القتال الدائر في ارتريا شعلة اخرى في الوضع المتفجر في الشرق الاوسط ، وعناصر الخطر متوفرة ، فالولايات المتحدة واسرائيل تدعمان اثيوبيا في قرن افريقيا وعلى امتداد البحر الاحمر متحكمة على المدخل الجنوبي والى قناة السويس يمنحها استراتيجية كبرى لصالح الولايات المتحدة ، وكذلك للاتحاد السوفياتي على حد سواء . .)وقد كشف تقرير هام للاهرام المصرية بتاريخ ١٥/ ٩/ ١٩٧١ يتعلق بزيارة رئيس الاركان الاسرائيليين

١ ــ محمود نعناعة ، اسرائيل والبحر الاحمر (القاهرة : مكتبة الخنجي) بدون تاريخ ، ص ١٩٨ ـ ١١٠ .

الجنرال حاييم بارليف الى اثيوبيا ان نية الاثيوبيين والاسرائيليين تتجه لتركيب شبكة رادار على شواطىء ارتريا، كما عرض بارليف (تبرع) اسرائيل بتدريب القوات البحرية الاثيوبية لتشكل مع اسرائيل (قوات بحرية مشتركة) في البحر الاحمر وبهدف ايجاد تحالف عسكري اثيوبي/ اسرائيلي ضد الطموحات العربية في هذا البحر.

لقد بذل هيلاسيلاسي كل ما يستطيع في سبيل الاحتفاظ بأرتريا ضمن قبضته وتحت مظلة التحالف الامريكي ـ الاسرائيلي. وقد انتهى هيلاسيلاسي بانقلاب ١٩٧٤ الذي اصبح اشتراكيا في عام ١٩٧٧ مع تغيير التحالفات الدولية حيث اتجه ثوار ارتريا نحو الاتحاد السوفياتي وكوبا وأبقوا على ارتريا ضمن قبضتهم العسكرية ولكن بشعارات تقدمية هذه المرة. وقد أدت هذه المتغيرات الى مد جسور الصداقة باتجاه اليمن الديمقراطية الشعبية في حين توترت العلاقات مع السودان الذي انعطف ضد الاتحاد السوفياتي بداية من الانقلاب الشيوعي الفاشل في السودان عام ١٩٧١ وكذلك توتر العلاقات بالصومال الذي انعطف عن ارتباطاته بالسوفيات اثر حرب اوغادين ضد اثيوبيا عام ١٩٧٧.

واجهت متغيرات النظام الاثيوبي اشكاليات العلاقة مع اسرائيل في ظل ما كان سائدا من توتر اثيوبي/ صومالي واثيوبي/ سوداني، الاول بسبب حرب أوغادين، والثاني بسبب حرب ارتريا وحرب جنوب السودان على نحو التحدي المتقابل بين البلدين، وقد عمدت اسرائيل لمحاولات العودة الفعالة الى اثيوبيا حين قدمت بعض المساعدات العسكرية لاثيوبيا طوال الاعوام (٧٥ ـ ١٩٧٨) وقد كشف موشي دايان عن هذه المساعدات في تصريح له في سويسرا بتاريخ ٦/ ٢/ ١٩٧٨ (وطرح دايان تبريره لذلك قائلا: ان اثيوبيا كانت الدولة غير العربية الوحيدة الواقعة على البحر الاحمر الاستراتيجي). غير انه ومن الجانب الآخر كانت السياسة الاثيوبية متضامنة مع العرب والافارقة في استمرار قطع علاقاتهاالدبلوماسية مع اسرائيل منذ حرب ١٩٧٣، وقد كشف الجنرال (اهارون ياريف) الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية في تصريح له في فبراير

١٩٧٨ وبعد تصريح دايان، (ان اسرائيل قد خسرت ـ بموجب تصريحات دايان ـ علاقاتها وكل مواطىء القدم السابقة في المجال العسكري في اثيوبيا). (١)

لم تكن تصريحات الجنرال (أهارون ياريف) دقيقة بما فيه الكفاية، فاسرائيل وبالرغم من قطع العلاقات الدبلوماسية بينها وبين النظام الاثيوبي منذ عام ١٩٧٣ إلا انه واصلت نوعا من علاقات الجسور المفتوحة مع اثيوبيا تحسبا للمتغيرات، وهذا ما حدث في مطلع عام ١٩٨٩ حيث عادت العلاقات بين الطرفين الى مجراها الطبيعي.

في هذا الاطار علينا ان نرجع الى ما سقناه في هذا المحور حول طبيعة الاطماع الاسرائيلية في حوض البحر الاحمر والقرن الافريقي وما تريده اسرائيل، قد تعرفنا مسبقا على رغبة اسرائيل في:

أ — انشاء بحرية إسرائيلية ـ أثيوبية مشتركة مع الحصول على قواعد مراقبة رادارية في جزر دهلك. وهذا امر بدا التداول فيه في مطلع عام ١٩٩٠.

ب — ترحيل الفلاشا الى اسرائيل خلال عام ١٩٨٤ حيث تقرر ترحيل الفلاشا مباشرة من اثيوبيا والى إسرائيل عبر خطوط طيران العال الاسرائيلية وبواقع رحلتين يوميا.

ج — الاستثمار الاسرائيلي في المجالين الزراعي والصناعي والمساهمة في التدريب الفني للاثيوبيين.

توضح جملة هذه المعطيات خطر تطور العلاقات الاثيوبية الاسرائيلية باتجاه تحالف حقيقي ينتهي بتشكيل محور مضاد لمجموع الدول العربية المطلة على البحر الاحمر، فبالرغم من انفراج العلاقات الدولية على مستوى العملاقين (موسكو ـ واشنطن) الا ان ضغوط الصراعات الاقليمية في البحر الاحمر تمضي الى حافة الاستقطاب الحاد، مصر ـ مثلاً ـ بالرغم من اتفاقها التعاهدي مع اسرائيل بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد الا انها تشعر بالقلق من جراء هجرة الفلاشا الاثيوبيين

---

١ — عثمان صالح سبي، تاريخ ارتريا، ص ٢٣٧.

الى إسرائيل .

كذلك تبدي المملكة العربية السعودية قلقا متزايدا تجاه العلاقات الاثيوبية ـ الاسرائيلية الجديدة، وقد سبق للسعودية ان اعلنت ان الخطر الصهيوني وليس الخطر السوفياتي هو الذي يحتل المرتبة الاولى في اهتماماتها الاقليمية، ففي مقابلة لوزير الخارجية السعودية (سعود الفيصل) مع مجلة (الحوادث) اللبنانية نشرت بتاريخ ٣ مارس ١٩٧٩، أشار الوزير السعودي: «انه يعترف بأن للاتحاد السوفياتي دورا هاما في السياسة الدولية ولايشارك الولايات المتحدة خوفها من توسع النفوذ السوفياتي باعتباره قوة مسببة لعدم الاستقرار في الاقليم وان ما يهدد الاقليم واستقراره هو الخطر الصهيوني». (١)

وهكذا توضح متغيرات هذه المرحلة ان الاسرائيليين قد عادوا مجددا الى اثيوبيا لبسط هيمنتهم على الساحل الارتري الذي يمتد الى مضيق باب المندب ويشمل العديد من الجزر الاستراتيجية. وعادت اثيوبيا ايضا الى اسرائيل بعد عقد ونصف من الزمان وبدأت العلاقات بين الجانبين تتطور باتجاه تحالف استراتيجي يشمل ترحيل الفلاشا والتعاون العسكري الاقتصادي .

وهذا (المد) في العلاقات الاثيوبية ـ الاسرائيلية يصاحبه (جزر) في العلاقات العربية ـ الاثيوبية حيث سبق لمختلف القوى العربية المطلة على البحر الاحمر ان حاولت مد جسور عديدة الى النظام الاثيوبي، فقد شرعت مصر في اقامةعلاقات ودية مع النظام الاثيوبي منذ زيارة وزير خارجية اثيوبيا للقاهرة في ١٤ يناير ١٩٨٧، كما استضافت السعودية وزير الاعلام الاثيوبي في عام ١٩٨٦ ومكنته من مخاطبة الجالية الاثيوبية في السعودية وطرح الدستور الجديد كما تعدد فتح سفارات لاثيوبيا في كثير من الدول العربية وعلى رأسها سورية التي عرفت بمواقفها المؤيدة للثورة الارترية، بل وقد نالت اثيوبيا دعما عسكريا واقتصاديا من ليبيا. كما دخلت في مرحلة تحالف مع اليمن الديمقراطية إبان حقبتها

---

١ ـ اجيه جرجس، مرجع سابق، ص ٧٢ ـ ٧٥ .

الاشتراكية. (١)

لقد اتجه الوضع الآن للتغيير الجذري، ولا نستطيع ان نجعل سبب هذا التغيير وقوف العرب الى جانب الثورة الارترية فطوال فترة الثمانينات وهو الامر الذي حاولنا تفصيله بتوضيح ما تعنيه خصائص البحر الاحمر وممراته الجنوبية بالنسبة لاسرائيل.

ليس الامر مجرد تغيير سريع في المواقف الاثيوبية بلا دلالات استراتيجية، فالعرب لم يدعموا الثورة الارترية كما انه ليست هناك إرهاصات حرب بين أثيوبيا والصومال، بل ان المساعدات العربية لم تنقطع عن اثيوبيا، وكذلك تتواصل زيارات المسئولين من الجانبين.

باختصار شديد نستطيع ان نرد دوافع هذا التغيير في الموقف الاثيوبي الى فشل اثيوبيا في الحصول من الدول العربية على بغيتها فيما يتعلق بالقضاء على الثورة الارترية من جانب ومادتها في احتواء المجاعة والازمات الاقتصادية من جانب آخر. وبالرغم من معرفة إثيوبيا ان (البديل) الاسرائيلي لايستطيع مساعدتها لاجتياز اي من المشكلتين - الارترية والاقتصادية - الا ان طبيعة تركيب نظامها وعقليته يدفعان بها لاعادة تحالفها الوثيق مع اسرائيل بهدف استخدام النفوذ الصهيوني العالمي وبالذات في الولايات المتحدة لأنقاذها من عثراتها خصوصا وأن النظام الاثيوبي يدرك اهميته الاستراتيجية بالنسبة لاسرائيل، وتبعا لهذه الاهمية تتوثق العلاقات الراهنة وهذا ما يجب ان يكون مدركا. فأثيوبيا بالنسبة لاسرائيل تقع ضمن مخطط استراتيجي جغرافي وتاريخي وذلك منذ ان حدد (بن غوريون) مؤسس إسرائيل ثوابت الاتجاه نحو الجنوب وذلك حين وصف ميناء إيلات بأنه (موت وحياة إسرائيل) وعندما عاد بن غوريون الى الحكم في ٢١ شباط فبراير ١٩٥٥ هدد (١٠ تموز/ يوليو و١٥/ أيلول سبتمبر) باستخدام اسرائيل قواتها المسلحة ضد مصر لضمان المرور الاسرائيلي من ايلات وخليج

---

١ — الياهو سالبيتر، التحالف الاسرائيلي - الاثيوبي، جويش بالتمور تايمز في ٨/ ٨/ ١٩٦٩م ص ٨.

العقبة مرورا بالبحر الاحمر الى المحيط الهندي. من ناحية اخرى اكد الجنرال موشي دايان عام ١٩٥٥ على الاهمية الاستراتيجية لايلات بوصفها بوابة لآسيا وافريقيا. وأشار الى ان الاسرائيليين يتطلعون نحوالجنوب. وبعد اعتزاله السياسة، القى بن غوريون خطابا قال فيه ان ميناء ايلات اهم من ميناء حيفا على البحر المتوسط وهو الذي يربط اسرائيل بأوروبا، ذلك لأن ايلات يربط اسرائيل بدول في آسيا وافريقيا حيث يمكن لاسرائيل ان تتاجر وتتفاعل معهما. وفي خطابه هذا حض بن غوريون على إقامة المستوطنات على طول الطريق من بئر السبع شمالا الى ايلات في الجنوب. وقال ان امن اسرائيل يمكن أن يتلخص في جملة واحدة، كل شيء لابد ان يتجه صوب الجنوب». اذا لابد يتجه كل شيء نحو الجنوب وقد اتجه كل شيء نحو الجنوب فعلا».

استراتيجية مقترحة :

رأينا في الصفحات السابقة كيف ان البحر الأحمر ومنطقته مقبلان على فترة عصيبة من تاريخهما ومعرضان لأخطار شتى احد أطرافها الكيان الاسرائيلي والطرف الآخر التواجد المكثف للقوى العظمى في بحار وأراضي المنطقة، ولن يقيها شر تلك الاخطار الا تغلب الدول العربية المطلة على البحر الاحمر وتلك المشاطئة لبحر عمان والخليج العربي. اذ ان البحر الاحمر من الناحية الجغرافية والتاريخية صنو وشقيق للخليج العربي اشتركا طيلة عصور الحضارة الانسانية في كونهما طريقي الملاحة الرئيسيين بين شرق العالم القديم وغربه وبين شماله وجنوبه. وعندما عصفت الحرب العراقية الايرانية من ٧٩ ـ ١٩٨٨م بما عرف في حينه بحرب الناقلات وتعذرت الملاحة في مياه الخليج الا تحت حماية القوى البحرية الغربية، اضطربت مياه البحر الاحمر وبما عرف في حينه بحرب الالغام ١٩٨٤م، اذ اعلنت شركة لويدز البريطانية للتأمين ان تسع سفن تجارية أصيب بأضرار بالغة من جراء إنفجارات غامضة في خليج السويس والبحر الاحمر، وقد أشار الامير سلطان وزير الدفاع في المملكة العربية السعودية بأن حوادث التغليم في البحر الاحمر عمل إجرامي وان المملكة تواصل إتصالاتها مع الدول المطلة على

البحر الاحمر لمتابعة الموقف ومعالجته(١).

وجاءت حرب الكويت عام ١٩٩١ لتثبت علاقة الارتباط الاستراتيجي بين البحر الاحمر والخليج العربي عندما احسنت دول التحالف استخدام هذين البحرين لتحقيق اهدافهما في الحرب الدائرة في شمال الخليج العربي ضد الجمهورية العراقية(٢)

من هنا فان الامر يقتضي الاجتهاد في وضع اطار مقترح لاستراتيجية عربية نواجه بها حقبة التسعينات وهذه الاستراتيجية اهم مرتكزاتها ما يلي :

١ — الاتفاق على انشاء قوة عسكرية للدول العربية المطلة على البحر الاحمر ترتكز على احدث القوى البحرية والقوى الجوية ويمتد نشاط هذه القوة الى جنوب باب المندب حتى يشمل منطقة القرن الافريقي بكامله، وربط هذه القوة بالقوة العسكرية الاخرى المقابلة لها في الخليج العربي والمكونة من قوة مجلس التعاون الخليجي. وبهذا التنسيق يمكن حماية المياه العربية في الخليج العربي والبحر الاحمر من اي خطر اجنبي يهدد أمنها وسلامتها.

٢ — إنشاء هيئة عربية برأسمال عربي تشارك فيه الدول المشاطئة للبحر الاحمر بهدف اجراء المسح الشامل لقاع البحر ومعرفة ثرواته والعمل على استثمارها بشكل جماعي، كذلك العمل على تطوير موانئه وإنشاء موانىء جديدة تستطيع الاستجابة للنشاط التجاري والسياحي وتزويدها بكل ما تحتاجه من تقانية عصرية.

٣ — انشاء هيئة عربية مشتركة من الدول العربية الواقعة على البحر الاحمر لمكافحة التلوث البحري ويتأتى ذلك بالاهتمام المستمر بالجزر الموجودة في البحر الاحمر والمتناثرة أمام ساحل كل دولة تطل عليه، بل يجب تحويل الجزر الهامة والتي تتمتع بموقع جغرافي واستراتيجي الى قواعد عسكرية عربية أولا لحماية

---

١ — مجلة المستقبل العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، العدد ٦٩ نوفمبر ١٩٨٤، ص ١٦٥.

٢ — Schwrzkoph H. N., It Doesn't Take A. Hero, Londons: BANTAM PRESS,. pp. 265 2 414

المضائق الشمالية والجنوبية والموانىء البحرية ومراقبة السفن العابرة كي لا تلقي بأي مواد او مخلفات قد تؤدي الى اضرار بيئي للبحر الاحمر. ثانيا خلق حياة سكانية لبعض الجزر المهجورة وذلك بإنشاء مشاريع استثمارية لثروات البحر الاحمر واستثمارها كمناطق سياحية مما يضمن عروبة هذه الجزر وربطها بالدول العربية المشاطئة لهذا البحر، لأن خلوها من السكان قد يجعلها عرضة لهيمنة الدول الأكثر قدرة من الدول العربية.

٤ — أما وقد أفل نجم أثيوبيا كقوة في شرق افريقيا وانتصرت ثورة ارتريا فان الامر يقتضي من الدول العربية المشاطئة للبحر الاحمر ان تمد يدها نحو هذه الدول الحديثة النشأة وربطها بمشاريع استثمارية وعلاقات سياسية واقتصادية واجتماعية يجعلها شريك مساند لاشريك مخالف لقضايا امن البحر الاحمر.

٥ — العمل على المحافظة على استغلال الصومال ووحدة أراضيه وربطه وجيبوتي بمستقبل استثماري وثقافي وحضاري ينتمي الى الامة العربية والاسلامية لان المشروع الاستثماري طويل الأجل يعين كل من ارتريا والصومال وجيبوتي على الوقوف بقوة أمام الامتحانات التي تتعرض لها بهدف جرها الى الارتماء تحت نفوذ الهيمنة الاجنبية وجعل اراضيها وسواحلها مرتعاً للنشاطات المعادية للعروبة والاسلام وبدون هذا الربط فإن منطقة القرن الافريقي ستكون احد المناطق التي تهدد امن دول البحر الاحمر.

الخاتمـــة :

رأينا كيف ظل البحر الاحمر بحيرة مقفلة هادئة بعيدا عن الصراع الدولي، حتى شقت قناة السويس منذ قرن وربع من الزمان، ومن يومها لم يتوقف هذا الصراع وان تغيرت أطرافه او دوائره، وقد مر هذا الصراع بمراحل ثلاث :

المرحلة الاولى : وهي مرحلة لعبت فيها بريطانيا الدور الرئيسي، كما انها هي التي تولت توزيع الادوار الثانوية الاخرى بين كل من فرنسا وإيطاليا، وقد

نجحت بريطانيا في استخدام كل منهما للحد من سيطرة الاخرى .

ورأينا كذلك كيف ان الصراع لم يقف بين الدول الثلاث على شواطىء البحر الاحمر او مياهه ولكنه امتد الى عمق القارة الافريقية وفي اتجاه الغرب .

المرحلة الثانية : وهي المرحلةالتي تداعت احداثها بعد الحرب العالمية الثانية خالص حين تبلور الصراع الدولي بين القطبين الولايات المتحدة الامريكية ، والاتحاد السوفيتي ، وهي أيضا المرحلة التي شهدت استقلال كثير من دول المنطقة ، مصر ، والسودان ، واليمن ، وجيبوتي ، والصومال ، ودول الخليج ، وقد رأينا أيضا كيف سعت الولايات المتحدة الامريكية الى ملء الفراغ الذي سعت الى شغله بعد قرار بريطانيا الانسحاب من شرق السويس عام ١٩٦٨ .

وقد صب ظهور النفط وتصديره بكميات تجارية خلال هذه الحقبة وقودا جديدا على دائرة الصراع بين كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وسعى كل طرف الى استقطاب بعض دول المنطقة الى جانبه ، كما ان دول المنطقة هي الاخرى ، بدأت تعيد ترتيب أوراقها ، وأولويات مصالحها في إتجاه احد هذين القطبين حتى ان الدول التي تشبثت بحيادها فترة طويلة ، فنجدها قد انحازت الى احد القطبين ، وفي احيان اخرى كانت تتقلب بينهما .

المرحلة الثالثة :

وهي مرحلة كان الصراع العربي الاسرائيلي هو ابرز ملامحها ، وتركز هذا الصراع حول :

— خليج العقبة ومضايق تيران وصنافير شمالاً .

— باب المندب وجزيرة بريم جنوباً .

— السواحل الارترية وجزر دهلك .

وقد كشف التحليل الذي أوردناه حول هذه المرحلة كيف ان اسرائيل وفي

اطار استراتيجيتها السياسية والعسكرية والاقتصادية، قد مدت نفوذها وتأثيرها الى القارة الافريقية من خلال البحر الاحمر، وكيف حاصرت المصالح العربية وصارت تمثل تهديداً في العمق الاستراتيجي لدول العالم العربي.

ان التحليل النهائي للجغرافيا السياسية لحوض البحر الاحمر يقود الى نتيجة هامة مؤداها ان الخطر الاسرائيلي القادم باتجاه الجنوب.

وبهذا تبدأ مرحلة الاستقطاب الحاد بين العرب والاسرائيليين على امتداد حوض البحر الاحمر والقرن الافريقي. فإسرائيل وان أظهرت السلام في حيز جغرافي معين كتوقيعها لاتفاق كامب ديفيد مع مصر او حضور محادثات السلام في من مدريد الى موسكو او واشنطن الى غير ذلك من عواصم العالم الا انها تنقل معاركها الى ارجاء اخرى تكون هدفا لاطماعها، فهي كما تتجه شمالا، الى جنوب لبنان فانها تتجه جنوبا الى البحر الاحمر والقرن الافريقي.

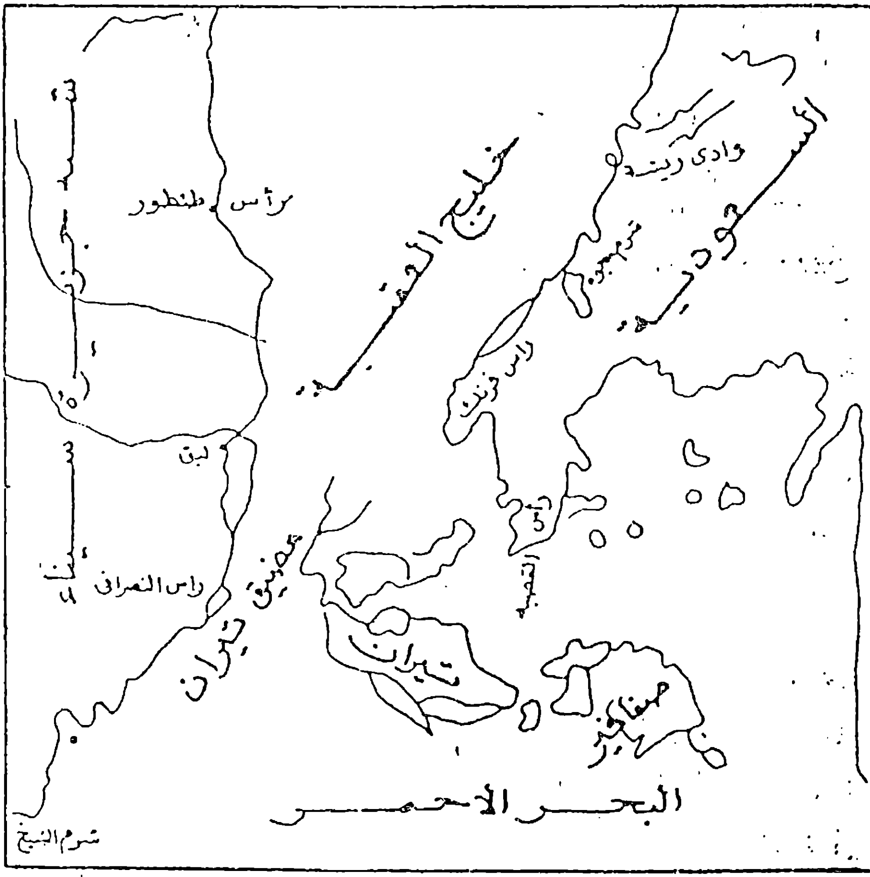
وفي هذا الاطار يتحتم على الدول العربية المطلة على البحر الاحمر بشكل خاص والدول العربية بشكل عام ان تبصر المخاطر الاستراتيجية للتوجه الاسرائيلي نحو الجنوب وان تعد له عدته منذ الآن على النحو الذي عرضنا له بإيجاز، وبهذا تكون هذه الدراسة قد حققت اهدافها المرجوة لدفع واضعي الاستراتيجية الامنية العربية وصانعي القرار لاعطائه الاولية للصراع القادم والذي لاتملك الصهيونية وحدها كافة الاوراق، فللعرب أيضا أوراقهم.

الرحلة	المسافة بالأميال بالسويس	بالرأس	وفر المسافة	الوفر ٪	عدد أيام الرحلة بالسويس	بالرأس	عدد السفن اللازمة للرحلة بالسويس	بالرأس
من بريطانيا الى الهند (بومباي)	٦٢٠٠	١٠٥٠٠	٤٣٠٠	٤١	٢١	٣٥	٥	٩
من بريطانيا إلى إيران (بمعدان)	٦٥٠٠	١١٣٠٠	٤٨٠٠	٤٣	٣٧	٦٥	٥	٩
من بريطانيا إلى سنغافورة	٨١٠٠	١١٤٠٠	٣٣٠٠	٢٩	٢٧	٣٨	٣	٤
من بريطانيا إلى هونج كونج	٩٥٠٠	١٢٨٠٠	٣٣٠٠	٢٦	٢٢	٤٣	٣	٤
من بريطانيا إلى استراليا (سيدني)	١١٢٠٠	١٢٣٠٠	١١٠٠	٩	٣٨	٤١	٧	٨
من الهند إلى الاسود	٤٢٠٠	١١٨٠٠	٧٦٠٠	٦٤	—	—	—	—
من اليابان إلى هولندا	١١٥٠٠	١٣٠٠٠	١٥٠٠	١٠	—	—	—	—

المصـــدر :

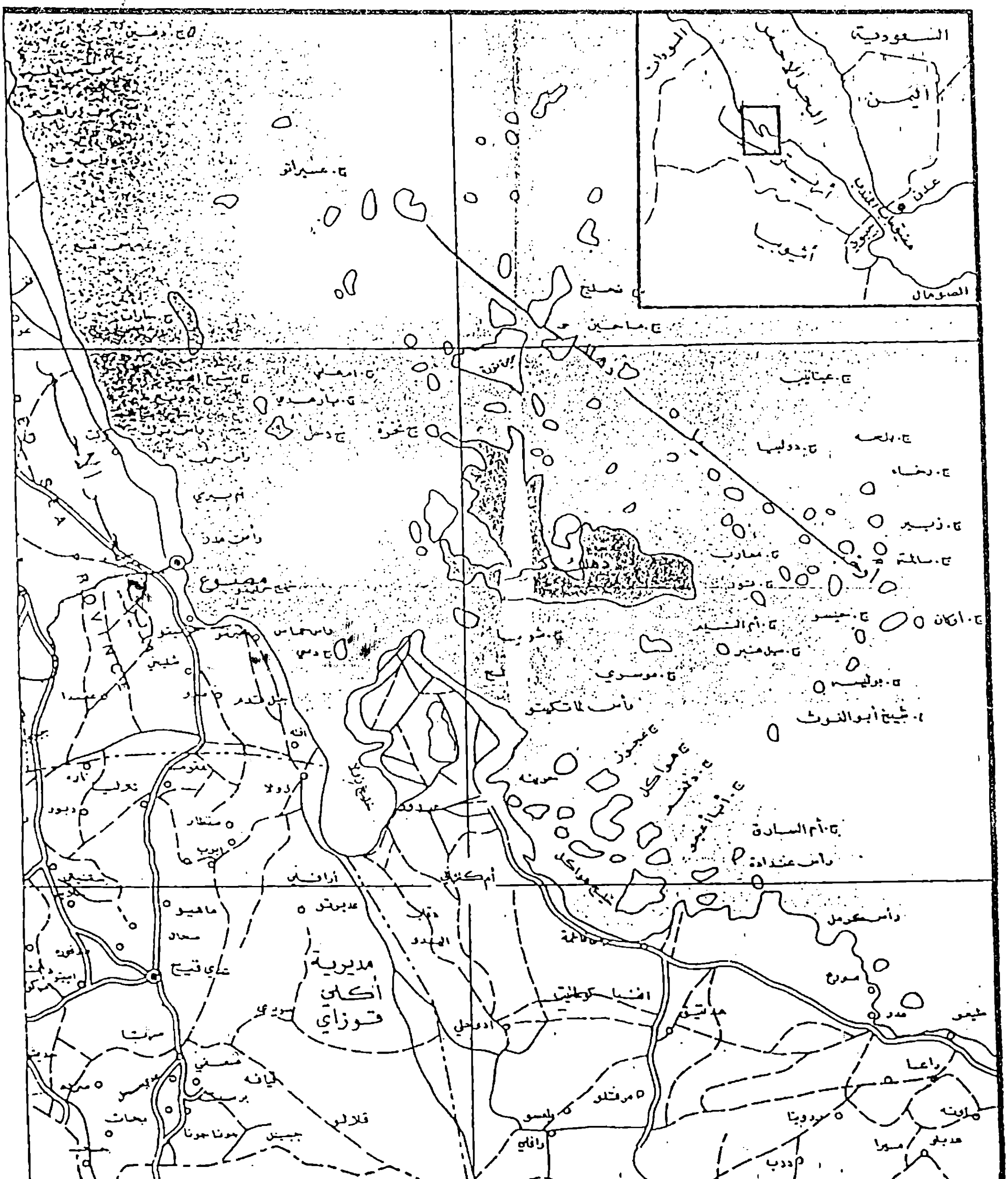
* عاطف السيد، البحر الأحمر والعالم المعاصر، القاهرة : دار عطوه للطباعة ١٩٨٥ ص ٢٢ .

شكل رقم (٢)



مضايق تيران وصنافير

شكل رقم (٤)


السعودية
اليمن
السودان
عدن
أثيوبيا
الصومال
مصوع
عباتيب
ماهيو
سالمتو
مديرية
أكلي
قوزاي
راعا
رأس كسار
عجوز
أم السادة
رأس عنداوة

المراجع العربية

١ — السلطان، عبدالله عبدالمحسن، البحر الاحمر والصراع العربي الاسرائيلي. بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٤ .

٢ — السيد ، عاطف ، البحر احلامر والعالم المعاصر ، القاهرة : دار عطوه ١٩٨٥ .

٣ — ابو القاسم ، محمد ، السودان : المأزق التاريخي وآفاق المستقبل : بيروت ، دار الكلمة ، ١٩٨٠ .

٤ — الطاهر ، حمدي ، أمن البحر الاحمر . القاهرة : المطبعة العربية الحديثة ، ١٩٧٧ .

٥ — البيوني ، روبرتو ، الخليج والبحر الاحمر . ترجمة صبحي عمد ، دبي : مؤسسة البيان. ١٩٨٧ .

٦ — الجمسي ، محمد عبدالغني ، حرب اكتوبر ١٩٧٣ . باريس : المنشورات الشرقية. ١٩٩٠ .

٧ — الجمل، شوقي عطا الله، الوثائق التاريخية لسياسية مصر في البحر الاحمر . القاهرة ١٩٦٠م.

٨ — السيد ، حراز رجب، أفريقيا الشرقية والاستعمار الاوروبي. القاهرة : ١٩٦٨ .

٩ — السيد ، حراز رجب، التوسع الايطالي في شرق أفريقيا وتأسيس مستعمرة ارتريا والصومال، جامعة القاهرة : ١٩٦٠م.

١٠ — القوجي ، عطية ، تجارة مصر في البحر الاحمر ، منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية . القاهرة : دار النهضة العربية ١٩٧٦ .

١١ — ترينـاسكس ، ج.ك، ارتريا في مرحلة الانتقال ، ١٩٤١ ـ ١٩٥٢م. مطبوعات وترجمة جبهة التحرير في ارتريا. ١٩٧٥ .

١٢ — جرجس، أجيه ، البحر الاحمر بين الحق العربي والصراع العالمي. القاهرة : مكتبة غريب ، بدون تاريخ .

١٣ — جرادات ، وليد ، الاهمية الاستراتيجية للبحر الاحمر . الدوحة : دار الثقافة ، ١٩٨٦ .

١٤ — روبرت هانكس ، النفط والامن وسياسة الولايات المتحدة الامريكية تجاه منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي، لندن : مركز الدراسات العربية ١٩٨٥ .

١٥ — سبي، عثمان ، صالح ، تاريخ ارتريا . مطبوعات جبهة التحرير الارترية ، ١٩٧٠ .

١٦ — سبان ، روبين ، اندريا ، النفط والسياسة السوفيتية في الخليج العربي والمحيط الهندي، لندن : مركز الدراسات العربية . ١٩٨٥ (ترجمة المركز).

١٧ — سيلاسي ، بركت هايتي ، الصراع في القرن الأفريقي . ترجمة عفيف الرزاز ، بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨٠ .

١٨ — عبدالله ، أمين محمود . الجغرافيا التاريخية لحوض البحر الاحمر ، اسيوط : المطبعة المدنية . ١٩٧١ .

١٩ — لانجر ، وليم ، موسوعة تاريخ العالم والقاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٦ .

٢٠ — ناتر ، ج ، دارت ، مخطط كيسنجر ، ترجمة جهاد الخازن ويوسف الصباغ ، بيروت : دار القضايا ، ١٩٧٦ .

٢١ — نعناعة ، لحود ، اسرائيل والبحر الاحمر ، القاهرة : مكتبة الخنجي ، بدون تاريخ .

٢٢ — هيكل ، محمد حسنين ، سنوات الغليان ، القاهرة : مركز دراسات الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٨ .

٢٣ — هيكل ، محمد حسنين ، حرب الخليج : أدهام القوة والنصر . القاهرة : مؤسسة الاهرام ١٩٢٢ .

المراجـع الاجنبيـــة

1 - Abir , Mordechai , Oil Power and Politics : Conflict in Arabic, the Red Sea and the gulf Ior (Frank cass , London) 1974.

- Red Sea Politics . London . International Institute for Strategic Studies , 1972.

- Sharm Al-Sheikh-Bab Al-Mandep : The Strategic Balance and Insael's Southern Approaches . Jarusalem : Habrew University , 1974.

2 - Anthorny John Duke, . The Red Sea : Control of the Southern Approaches . Washington , D.C. Middle East Institute , 1975.

3 - Dayan , Moshe , Preak Rhrough . London . Weidenfeld and Nicolson , 1981.

4 - Harold . G.Marcus , The Life and Times of Menelik 11 : Ethiopia , 1844 - 1913 , (Oxford Studies on African Affairs) , 1966. p. 63.

5 - Meir , Golda . My Life , London : Faker-ham and Reading , 1075.

6 - Schwrzkoph H. N., it Doesn't Take A. Hero Londons: BABNTAM PRESS,. 1992. pp. 257 - 414.

7 - Seven Rubenson , The Survial of Ethiopian Independence , (Addis Ababa University , Heinman , London 1963) , pp. 384-388.

8 - Weizman , Ezen . The Battle for Peace . London : Bantam Books , 1981.

الـدوريـــات

— أحمد ، أحمد يوسـف ، الصراع العربي في البحـر الاحمر : سياسـات البحر الاحمر والعـلاقات العـربية الافـريقية ، القاهرة : مجلة السياسة الدولية ع ٥٩ يناير ١٩٨٠م.

— أحمد ، عمران منصور ، الحق العربي في ثروات البحر الاحمر . القاهرة : مجلة السياسة الدولية، يناير ١٩٧٠ .

— السيطرة العربية على البحر الاحمر ضرورة استراتيجية ، شؤون فلسطينية العدد ٦٦/ مايو ١٩٧٧م.

— سعيد ، محمد قدري ، مستقبل الروح التقليدي في المواجهة العربيـة الاسرائيلية. القاهرة : مجلة السياسة الدولية ، العدد ٩٢ لعام ١٩٨٨م.

— سعيد ، عبدالمنعم ، الموقف الامريكي من قانون البحار ووقفة شأنه العربية ، القاهرة : مجلة السياسة الدولية العدد ٩١ لعام ١٩٨٨م .

— عزمي ، محمود ، البحرية الاسرائيلية قبل وبعد ١٩٧٣ ، شؤون فلسطينية ، العدد ٦٥ / أبريل ١٩٧٧ .

— عليوة ، السيد ، سياسة اليمن في البحر الاحمر ، القاهرة : مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٤ لعام ١٩٧٨م .

عليوة ، السيد ، الامن القومي العربي ومضاعفات حرب الخليج . الحرب العراقيةب الايرانية ، القاهرة : مجلة السياسة الدولية . العدد ٨١ لعام ١٩٨٥م .

— غالي ، بطرس . كيف تجعل البحر الاحمر بحيرة عربية ، الاهرام . ٢٣/ ٣/ ٧٣ .

— مسلم ، طلعت ، (م. أ. ح) . عبدالمنعم سعيد ، التحدي العسكري الاسرائيلي في المستقبل، القاهرة : مجلة السياسة الدولية . العدد ١٠٠ لعام ١٩٩٠م .

— ندوة مجلة المستقبل العربي ، التطورات الراهنة في القرن الافريقي وانعكاساتها على الامن القومي العربي ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية . العدد ١٧٧ ، لعام ١٩٩٢م .

Watt, W M, The Influence of Islam on Medieval Europe, Islamic Surveys 9, Edinburgh, 1972.

2. Orientalism and the Orientalist Debate

Malek, A A, "Orientalism in Crisis", Diogenes, 44, Winter 1963, 103-40.

Said, E W, Orientalism, Western Conceptions of the Orient, London, 1978.

"Orientalism Reconsidered", in Farsoun, S. ed., Arab Society, Continuity and Change, London, 1985.

Said, et al., Refections on Orientalism, Asian Studies Center, Michigan State University, 1983.

Turner, B S, "Accounting for the Orient", in MacEoin, D. and al Shahi, A. eds., Islam in the Modern World, London and Canberra, 1983.

3. Edward Lane

Lane, E W, Arabian Society in the Middle Ages, Studies from the One Thousand and One Nights, London, 1987.

Manners and Customs of the Modern Egyptians, London, 1981.

Ahmed, L, Edward Lane, A study of his life and works and of British ideas of the Middle East in the nineteenth century, London and New York, 1978.

4. STRUCTURALISM

Hawkes, T, Structuralism and Semiotics, London, 1977.

THE ALGERIAN LIBERATION WAR IN BLACK AMERICAN FICTION

by

SI ABDERRAHMANE ARAB,

UNIVERSITY OF ALGIERS

AFRICAN AMERICANS AND EUROPE
INTERNATIONAL CONFERENCE
FEBRUARY 5 - 9, 1992

INSTITUT DU MONDE ANGLOPHONE
Universite de Paris III - Sorbonne Nouvelle.

THE ALGERIAN LIBERATION WAR IN BLACK AMERICAN FICTION

In his presentation of the works of African Americans in Paris, Professor Michel Fabre singles out William Gardner Smith's novel, The Stone Face:

> Ce livre [he writes] [...] est l'un des rares tèmoignages de la solidarite avee le peuple algerien, èmanant d'un ècrivain noir amèrician.
>
> [This is one of the very few books written by Black Americans to bear witness of their solidarity with the Algerian people.]

Twenty-five years later -- the book was published in 1963, William Gardner Smith's sister, Mrs. Phyllis Earle Ford, reminiscing on her first impression of it says:

> I remember saying to myself, why is he bothering to write about Algeria? I thought that was misplaced in it. We were so... I'm glad now that he's found sympathy with other people.[2]

These two statements underscore the problematic nature of the relations between the Algerian Revolution and what came to be known, in its most radical phase, as the Black American Revolution. If the similarity between the two struggles for dignity was perceived - individually - by such writers as Richard Wright[3] and Chester Himes[4], it did not lead to any unmitigated

collective statement of support comparable, say, to the Manifeste des 121.[5] Symptomatic of this equivocation, was the now famous (or infamous) 'Gibson Affair[6], a tentative gesture of solidarity with Algerian nationalism, which led to an imbroglio of accusations, counter accusations and denials worthy of a Chester Himes whodunnit. Such a gingerly stance was, naturally enough, quite understandable at the time. With France living then under a virtual, and at times actual, state of siege and America experiencing the white backlash that followed Desegregation, any interference with what was regarded as an essentially domestic issue, would have caused the culprit to be sent packing to his douar d'origine -- to use colonial Algeria's parlance -- be it Little Rock, Arkansas or Montgomery, Alabama.

Apart from the political circumstances, there was also another factor which may explain the Black expatriates' wavering : it is the issue of ethnic loyalty. It is frankly expounded by Babe, one of the most outspoken and colourful characters of the The Stone Face:

> Algerians are white people. They feel like white people when they are with Negroes, don't make no mistake about it. A black man's got enough trouble in the world without going about defending white people.[7]

This gruff reminder, addressed to Simeon Brown, the hero of William Gardner Smith's novel, is no doubt another reason which may account for the African Americans' reluctance to be involved in what could be called -- rather simplistically -- an inter-white conflict. The interaction of the political and racial issues, with all that implies in terms of moral responsibility, is precisely the focal point of The Stone Face.

The unraveling of this Gordian knot, first in the fictional world and then in real life, is what 1 propose to call William Gardner Smith's Algerian experience in Paris.

In order to reconnoitre this itinérairé de lucidite, this painful progress towards self-awareness and commitment, I shall in the first instance, examine in what ways The Stone Face departs from Black American fiction touching upon the same subject.

Secondly I shall seek to explore the formal and stylistic strategies used by the author in order to convey his solidarity with Algerian nationalism.

Finally I shall stray from the world of fiction to that of biography with a view to contending that William Gardner Smith was, like Frantz Fanon, one of those Third World humanists who pioneered the way towards a closer sense of kinship between struggling Africa and Black America.

Before coming to the heart of the matter, let me first give a summary of The Stone Face.

Simeon Brown, a one-eyed African American journalist and amateur painter arrives in Paris in May 1960, at the height of political turmoil over the Algerian issue, to escape the racial violence of his native Philadelphia. He is soon adopted by his fellow expatriates and falls in love with a Polish-Jewish girl, Maria, near-blind, and an aspiring actress. Simeon enjoys, for the first time of his life, an existence freed from racial prejudice. Soon he discovers through his friendship with Algerians: Hossein, a former Free French volunteer, Ahmed a medical student, Djamila and Latifa, former political detainees, that the latter are the 'niggers' of France. Their social predicament is further compounded by the fact that they have resolved to attain political liberation through armed struggle. His relations with them, strained at first and some time at the brink of break up, become closer and closer as he gets to know them better after until the moment he finds himself siding with them. In the meantime, afte a successful surgery, Maria recovers her eyesight, gradually withdraws from him and goes with a White producer to a bright cinema career in the States.

In the end he realizes that 'birds of the same feather stick together' while at the same time coming to the conclusion that the confrontation between what he calls Un-man and humanity transcends ethnic boundaries. This makes him supersede the crippling factor of race and induces him to engage in a political and moral crusade. Leaving his fellow-expatriates to their petty comforts, he returns to America to fight for the advent of a more humane world.

Roman d'édification, auto-biographical novel, roman à thèse, initiation quest, The Stone Face is all these; but it is above all, to my mind at least, the foreign novel which has best rendered the Algerians' plight in the unacknowledged battlefield of Paris in the late fifties and early sixties.

A comparison with James Baldwin's short story, 'This morning, this evening, so soon' (first published in The Atlantic Monthly in 1963), may be quite edifying. Here too is a Black American - a singer - who goes back to America, but rather sheepishly. The city he leaves behind is pregnant with unhappiness and strife. Though being fought overseas, the Algerian war with its potential for sectarianism and maiming, is encroaching upon the lives of the people of Paris.

Trudging along the Seine, the narrator-hero sees a paratrooper walking towards Ecole Militaire and concludes that he is also walking, almost certainly and rather sooner than later, toward Algeria[8] ... and towards his doom. Though he does not say the word, he certainly implies it as he mentions, in the same breath, the case of a friend of his who has returned from Algeria half-blind. Later on he thinks compassionately of the Algerians who used to be seen in the streets of Paris but who are now 'scattered or corralled the Lord knows where.[9] A whiff of nostalgia breathes through his evocation of the good old days when he used to live among them as if they were his brothers. But these days are gone. He has withdrawn from them as he feels that they threaten the nation which has protected him:

> They were perfectly prepared to drive all Frenchmen to the sea [from Algeria] and level the city of Paris. But I could not hate the French because they left me alone. And I love Paris, I will always love it ; it is the city which saved my life.[10]

William Gardner Smith's Paris is no mere decor designed to echo and amplify the hero's despondency, nor his Algerians mere shadows vanishing in the thin air at the sight of the first képi. One of the most dramatic and memorable episodes of The Stone Face is the account of the Algerians' huge demonstration of 17 October 1961 and the ensuing savage repression[11]. The same vividness is used to convey the sadistic torturing of Latifa and Djamila (inspired by the martyrisation of Djamila Boupacha and Djamila Bouhired), the brutal police swoopings upon the Algerian ghetto of Barbès, and the general manhunt that prevailed in the streets of Paris. The Algerians are portrayed as people of flesh and blood, as if by a Maghrebi writer who knows how it is to be an exile in the French capital. Here is Hussein for instance, sprung as though from the pages of Driss Chraibi's Les Boucs, provocatively addressing Simeon:

We're the niggers here! Know what the French call us? bicot, melon, raton, nor'af. That means nigger in French. Ain't you scared we might rob you? Ain't you appalled by our body odour? No but seriously, I want to ask you a serious question -- would you let your daughter marry one of us?[12]

Their suffering and their anger, their generosity and their conviviality are rendered with an empathy which can only stem from a sense of companionship, of shared humanity:

> It was like Harlem, Simeon thought, except that there were fewer cops in Harlem, but may be that too would come one day. Like Harlem and like all ghettoes in the world. The men he saw through the window of the bus had whiter skins and less fizzly hair, but they were in other ways like the Negroes of the United States. They adopted the same poses: "stashing" on corners, ready for and scared of the ever possible "trouble", eyes sullen and distrusting, dressed in pegged pants, flashy shirts and narrow-pointed shoes. He could almost hear them saying: "watchu puttin' down, man?", "Jus'playin'it cool, jus' playin' it cool, man, trying to keep Ole Charlie off my back". Ole Charlie paced the street, waving his submachine gun. Simeon watched everything, remembering how it was on South Street and Lombard Street, feeling the old unbearable frustration and anger, the fear and defiance.[13]

William Gardner Smith's counterpointing Ahmed's death with the indifference of those who have decided to wash their hands of the Algerian tragedy is recounted with genuine grief:

> Clyde drank at the Monaco to forget about Jinx, Jinx drank at the Select to forget about herself, Doug made love to his State Department girl, Babe belched after a gigantic meal and joked off a feeling of guilt, Benson lay drunk and bitter in bed with his mistress, and Ahmed lay dead, his head battered to a pulp by police clubs, on the corner of Rue du Bac and the Boulevard Saint Germain. [...] Curled up like a child on his side, face twisted in a grimace, arms still protectively raised over his head, he looked even more youthful than in life.[14]

Simeon's intense sorrow is the natural outcome of a gradual and painful process of maturation, acquired in his rite of passage from the gleam of the Champs-Elysèes to the ghostly world of La Goutte d 'Or. It is this descent into Hell, which by reminding him of his roots, awakens him to his responsibilities. And the faith of the Algerians, their resilience in the face of insuperable odds make him draw on his people's tradition of struggle for spiritual sustenance:

> How he revolted with the slaves, revolted with Denmark Vesey and Gabriel and Nat Turner, fought them Crackers, saw the flood flow, saw his brothers fall, but fought all the same.15

At the end of the book, Simeon contemplates the possibility of volunteering to fight for Africa's liberation (in Algeria, in Angola in The Congo). but in the last resort, he books a passage to America and steels himself for the day of reckoning:

> America's Algerians were back there fighting a battle harder than that of any guerillas in any burnt mountain. Fighting the Stone Face.[16]

It has become evident by now -- 1 presume -- that the 'stone face' is the central metaphor in the book. It is associated with another, blindness. It is through their interplay that William Gardner Smith charts Simeon's search for self-identity. At the beginning of the novel, Simeon paints a man's head he calls the 'stone face', a grotesque mask of racism and hatred:

> [...] the jaw was clamped tight, the mouth was a compressed bitter line, the skin was deathly pale, the eyes were flat, fanatic, sadistic and cold. It was an inhuman face, the face of Un-man, the face of discord, the face of destruction.[17]

As we are to gather later in the book, this face he has encountered first in Philadelphia where, as a youth, he was assaulted by a Polish boy, Chris, who left him blind in one eye. It is also the face of Mike, the policeman who beat him sadistically because he found him in a White neighbourhood; of the unknown sailor who attacked him because he was with a white girl. The face he sees again or imagines in Paris whenever he witnesses an instance of gratuitous brutalisation: on Lumumba's Black assassins, on the crowd of Southern Whites preventing Black school girls from attending an all-White school. He sees it again on the French policeman mercilessly hitting an Algerian woman and her child on that fateful October night which was to seal Simeon's commitment. The blow he struk at the policeman is emblematic of his readiness to resort to revolutionary counter-violence.

Simeon's one-eyedness symbolises his initial ambiguous status in Paris. He is at first a white man in the eyes of the Algerians but a Black man still in the eyes of French and American authorities. When he is about to withdraw from the Algerians, he has a dream in which he sees himself with his <u>two</u> eyes and his tortured brothers turned blind. He interprets this dream as a symbol of his incipient betrayal towards all those who have been robbed of their dignity. Maria's recovery of her eyesight coincides with her choosing to regain her 'White' status. When he finally decides to side with the underdogs -- his inward eye being at long last opened -- he ritually destroys the painting, thus exorcising his fears and obsessions.

The three-part structure of the novel frames Simeon's development. In Part I, The Fugitive, the focus is on his experience as an expatriate trying to come to terms with a past of violence while adjusting to a seemingly peaceful and non-racialist society. Part II, The Whiteman, emphasises 'the temptation of Whiteness' while bringing out at the same time all that it entails in terms of insensitivity, self-centeredness, de-humanisation even. Finally Part III, Brother, brings to a conclusion Simeon's quest. He no longer feels 'like a man without a country, like The Wandering Jew;.[18] he finally says the word frère to the Algerians who have come to regard him as a brother.

Though the work seems to be rather contrived structurally and didactic in purpose, there nevertheless breathes through it an indubitable sincerity of tone.

The question that must be asked now is: wasn't Simeon Brown a convenient alter ego created by William Gardner Smith for the purpose of acting out, by proxy as it were, what he was unable or unwilling to do in real life? This comes to searching for some clues in his biography.

Asked to say whether she knew anything about her son's position regarding the Algerian problem, or whether he mentioned Algeria at all in his letters, his mother, Mrs. Edith Earle, answered in the negative.[19]

On the other hand, Leroy S. Hodges states that Mrs. Solange Royez, William Gardner Smith's second wife, in response to a similar question, wrote to him a letter saying that 'Bill felt in complete solidarity with the Algerian F. L.N. '[20]
In the same letter, Mrs. Royez said that

> he talked and talked (mainly about politics). He seemed pleased to hear [Solange] was a Communist and [they] shared a common desire to bring more justice to the world.[21]

Chester Himes, for his part, adds that 'youth was the most outstanding characteristic of William Gardner Smith - youth and naivety.[22] If we add to this portrait the fact that he was a militant of the N.A.A.C.P., that he came to be an admirer of Malcolm X,[23] that he was prevented from getting his passport by American consular authorities in Paris between 1955 and 1957,[24] that he was a journalist and lived in Paris at

a time when political commitment was no idle talk (viz. the positions of J.P. Sartre, Simone de Beauvoir, Gisèle Halimi, J.J. Servan-Schreiber, Francis Jeanson, Robert Devezies and many others), it seems unlikely that such a willingness to bring about a better world could have been left untapped. Judging from the attitudes of some African American expatriates, as they came to be disclosed later (for instance Hoyt W. Fuller liaising between Paris and Algiers F.L.N. militants in 1959[25]), one wouldn't be surprised to learn some day that William Gardner Smith was one of those porteurs de valises (Like Henri, the French militant of the F.L.N. in The Stone Face) who contributed to bringing an end -- long overdue -- to the suffering of the peoples of France and Algeria.

If William Gardner Smith's involvement in the Algerian liberation movement still remains a moot point, what is less debatable is the fact that his Algerian experience in Paris has made him adopt a more militant attitude towards the struggle of the African Americans. This is evidenced in particular in Return to Black America, the essay he wrote after his American tour in the 'Hot Summer' of 67.

In his appraisal of the Black youth's political awareness, he makes reference to the Algerian experience:

> It was clear that many of the youth gangs were becoming the hard core of the Black nationalist movement whether or not they actually joined any nationalist organization. The same thing, I repeat, occurred with Algerian gangs -- of adults and youth -- during the Algerian liberation struggle.[26]

He even establishes a comparison between Ellsworth 'Bumpy' Johnson, 'King of the Harlem Underworld' protecting C.O.R.E. militants in Washington D.C. in 1967 and Ali-La-Pointe's putting his men at the service of the F.L.N. urban guerillas during the Battle of Algiers.[27]

All this may seem anecdotal and rather passé, seen from the vantage point of 1992. But listen to this:

[...] The power of the United States was built on the slaughter of the Indians, the barbarism of the slave trade, the economic enslavement of Latin America and other parts of the world...

[...] The American crime rate is the highest in the world. It is a country of 'rugged... individualism', institutionalized racism, where childhood heroes are fast-shooting cow-boys, coin-flipping gangsters and Superman...

Ours is a country born in violence, bred in violence: a glorifier of violence.[28]

Doesn't this sound like Fanon's thrust and tone of voice in The Wretched of the Earth? Don't we still need such a reminder - harsh as it may be -- in this our age of Rambo and the 'New World Economic Order'?

1. Michel Fabre, La Rive Noire: de Harlem à la Seine (Paris: Lieu Commun, 1985), p. 229.

2. Conversation with Mrs. Phyllis Earle Ford, 4 December 1988, Philadelphia. May I take this opportunity to extend my thanks to William

Gardner Smith's mother and sisters for their warm welcome, and to Mr. James G. Spady for his kindly arranging the meeting.

3. According to Michel Fabre, Richard Wright was profoundly shocked by Albert Camus's position towards the Algerian problem: "Wright ne peut comprendre la position ambigue de Camus, le Pied Noir, sur la'Algèrie. Comment peut-on ètre, s interroge-t-u, ala fois un ennemi du racisme et un partisan de l' Algèrie francaise? Lorsque camus couronnè par le Prix Nobel, dèclare qu'entre la justice et sa mère, il choisirait sa mère, Wright est profondèment choquè. D'autant plus que cette boutade suscite une rèsonnance particulière chez celui qui, justement a choisi la justice contre la mère-patrie". Cf. La Rive Noire, op. cit. p. 186.

4. He is said to have contributed, in 1962, an article to the gaullist weekly Candide in which he compared the Negro problem to the Algerian one; which earned him threats from the O.A.S. Cf. letter to Carl Van Vechten, 9 October 1962, Yale University Library; quoted in La Rive Noire, p. 264.

5. Manifesto, issued on 6 September 1961, signed by French writers, scientists and artists, recognising Algeria's right to Independence and inciting conscripts to desert.

6. A letter, supposedly signed by cartoonist Ollie Harrington, implicitly supporting Algeria's armed struggle ("Any American who thinks that France of her own will, will grant Algeria, if not independence, at least some liberal status where seven million Algerians will not be crushed politically by a million Europeans, is mad") was sent to Life magazine and published on 21 October 1957.

For full documentation on the subject see Leroy S. Hodges, Jr., Portrait of an Expatriate - William Gardner Smith, Writer (Westport, Connecticut and London, England: Greenwood Press, 1985), pff. 55; also Michel Fabre, The Unfinished Quest of Richard Wright, Isabel Barzun trs. (New York: William Morrow, 1973), pff. 462. The fact that Black Americans were the hostages of French and American rival politics on such issues as the Algerian war, the Suez Canal expedition, the Negro problem in the U.S.A. is underlined by Chester Himes in his detective novel titled A Case of Rape (1963).

7. William Gardner Smith, The Stone Face (New York: Farrar, Strauss & Co. 1967), p. 105.
All further page references are to this edition.

8. James Baldwin, Going to Meet the Man, (London: Michael Joseph, 1984), p. 156. All further page references are to this edition.

9. Ibid., p 157.

10. Ibid., p. 158.

11. Thousands of people were deported and more than two hundred died, some of them deliberately drowned in the Seine.

12. The Stone Face, op. cit., p. 202.

13. Ibid., p. 87.

14. Ibid., p. 202.

15. Ibid., p. 59

16. Ibid. p. 210.

17. Ibid. p. 7.

18. Ibid., p. 94.

19. Conversation with Mrs. Edith Earle, 4 December 1988, Philadelphia.

20. Portrait of an Expatriate, op. cit., See footnote 9 in Chapter IV (p. 108). Solange Royez, letter to author and response to questionnaire, 18 July, 1977.

21. Ibid., p. 59;

22. Chester Himes, The Quality of Hurt: the Autobiography of Chester Himes (London: Michael Joseph, 1973), p. 185 of Vol. I.

23. Conversation with Mrs Edith Earle, op. cit.

24. Portrait of an Expatriate, op. cit.: see footnote 28 of Chapter IV (p. 108)

25. Hoyt W. Fuller, 'Algiers Journal', in The Negro Digest, October 1969, p. 73.

26. William Gardner Smith, Return to Black America (Englewood Cliffs: Prentice Hall, 1970), p. 36.

27. Ibid., pp. 26-27. I also have it, by Mr. James G. Spady that William Gardner Smith visited Algeria in 1967, 1972, 73 and 74; that his doctor, Mr. Jacques Tomasini lived in Algeria; and that he intervened in favour of

Stokely Carmichael with President de Gaulle.

28. Ibid., p. 185.

A Morphological Descriptive Analysis of Qatari Arabic Nouns

BY:

Dr. Noor Sultan Saif Alesa - Department of English
University of Qatar

Introduction:

Qatari Arabic is a form of the Arabic language. It is used by the native speakers of Qatar as a dialect[1] of Arabic. The social structure of the Qatari society is very similar to those of the Arabian Peninsula in origin. traditions, and customs. A dialect can be seen as a group of linguistic criteria which belong to a certain culture or society; and therefore, is used by the members of this society. It exists in the spoken form only since Qataris still use Modern Standard Arabic for writing. As a variant of Arabic, Qatari Arabic is similar to Standard Arabic in many respects; nevertheless, differences in the usage of constituents of grammatical categories do exist. Although the majority of words in Qatari Arabic are found in Modern Standard Arabic, noticeable differences between Qatari Arabic and Modern Standard Arabic are found in the areas of phonology and semantics. The morphological and syntactic differences exist in areas

1 Languages develop dialects for a number of reasons. Arabic has various dialects such as Egyptian Arabic, Saudi Arabic, Najdi Arabic, Algerian Arabic, etc. This divergence happened because the use of Arabic is spread over a large geographical area; and because it is used by different groups of people. This resulted in developing dialects which are related to specific societies. Dialects are seen by Mutter (1985) as historical documents because of the relationships they reveal which are affected by society and its customs and traditions.

such as verb conjugations, noun pluralizations, definite / indefinite markers, sentence formation, etc.

There are several studies of Qatari Arabic as a language but none of them addressed any of the parts of speech morphologically. Al-Muhannadi (1991) addressed speech variations among Qatari Females. Ingham (1986) studied the dialect of 'Al-Murra', a tribe who lives in Qatar, trying to come to common linguistic characteristics with other eastern and southern Arabian dialects; in his study, however, there is no section devoted to the morphology of Qatari Arabic. Mutter (1986) studied the etymology of some nouns in Qatari Arabic but did not discuss their morphology. In (1984) he ivestigated the linguistic origins of geographical names in Qatar; and in (1976) he examined the drop of the [h] sound after vocatives in Qatari Arabic and he studied the pronunciation of one form of Qatari Arabic nouns which is pronounced similar to the same noun form in Classical Arabic. Aleasa (1983) studied loan words in Qatari Arabic. Al-Amadidhi (1985) studied lexical and sociolinguistic variation in Qatari Arabic. Bukshaisha (1985) studied some aspects of Qatari Arabic of phonetics.

To any language, obviously, word classes form an essential part of grammatical analysis. A 'word class' is a term that stands for any group of words which share the same morphological and syntactic features. In Qatari Arabic, there are two types of word classes: open word classes and closed word classes. The open class members are Nouns, Verbs, Adjectives and Adverbs. The closed class members are pronouns, prepositions, conjunctions, interjections, articles, numerals and quantifiers. Closed class members can be shown as either separate words (free morphemes), or as affixes (bound morphemes) as in Qatari Arabic articles.

Some classes contain sub-classes. The class of pronouns in Qatari Arabic contains several sub-classes such as personal pronouns, demonstrative pronouns, relative pronouns, etc. Closed number of words classes in

Qatari Arabic are restricted to a fixed and do not allow the addition or formation of new words. Open classes on the other hand, have a large number of words and allow the addition or formation of new words in both languages.

Qatari Arabic open word classes are inflectional. The role of inflections in grammar is to show ideas such as number, person, tense, aspect, etc. without changing the class membership. For Example, the class of nouns is inflected for the plural:

Singular	**Plural**	
[tʃalb] `dog'	[tʃla:b] `dogs'	(Qatari Arabic)[2]

The class of verbs is inflected for tense, for example:

Present	**Past**	
[jamʃi] `walk'	[`miʃa] `walked'	(Qatari Arabic)

Grammatical constituents such as verbs are also formed in Qatari Arabic. There are Noun Phrases, Verb Phrases, Adjective Phrases, etc. They are named after the word class to which the most important word in the phrase belongs, which is known as the <u>head</u> of the phrase. The head of a verb phrase is the verb and the head of a noun phrase is the noun and so on.

The verification of the data used in Qatari Arabic was done by native Qataris in addition to the researcher who is a native Qatari, too. The main objective of this paper is to describe the morphology of Qatari Arabic nouns.

---

2 Words from Qatari Arabic are referred to in phonetic transcription. A gloss for the symbols of sounds used in Qatari Arabic is found in Appendix (1) at the end of this paper. The key symbols of the consonant and vowel transcription used in this paper are IPA symbols.

THE NOUN:

Nouns form the heads of noun phrases which are in turn arguments of predicators. For example, the noun fire refers to an event involving burning while the word burn relates arguments to an event. If we say:

The fire burned the book.	English
[ilħri:ʤh ħiragat ilkta:b]	Qatari Arabic
`The fire burned the book'	(translation)

The word fire is a noun which refers to something (an event) and the verb burn is a way of relating to that something (that event).

1. The Sub-classes of Nouns:

The class of nouns employs terms to refer to people, places, things, activities, states, events and abstract qualities. These different references are made through the following sub-classes of nouns: Proper Nouns and Common Nouns. In some languages of the world, nouns are inflected for gender, which means that the noun could be masculine, feminine and neuter as in German. Some languages show only masculine and feminine distinctions as in French. Other languages carry no gender at all as in English. Nouns are marked for the plural in most languages of the world; and Qatari Arabic nouns are, also, inflected for the plural and the dual.

The sub-classes of nouns will be discussed with respect to the areas of gender, number and the use of the article in addition to distinctions such as definite / indefinite and specific / generic. Therefore, it is necessary to get acquainted with the terms gender, number, and article.

There are two main sub-classes of nouns in Qatari Arabic. They are Proper Nouns and Common Nouns. Proper nouns refer to the names of specific people, places, countries, magazines, days and so on. For example, Ahmed, Mariam are proper nouns which refer to people; [doħa]

`Doha', [landan] ` London' are proper nouns which refer to places; [giṭar] `Qatar', [maṣir] `Egypt' are proper nouns which refer to countries; [zahrət ilXali:dʒ] `name of a magazine' is a proper noun which refers to a magazine; [ilˈdʒumʕah] `Friday', [ilsabt] `Saturday' are proper nouns which denote days.

Common nouns in Qatari Arabic are sub-classified as count nouns and non-count nouns. Count nouns refer to countable entities which can be referred to individually such as [ˈkirse:] `chair', [ˈkta:b] `book', [ˈku:b] `cup', [ˈbe:t] `house', etc. Non-count nouns, also known as mass nouns, refer to uncountable entities such as [ˈħibir] `ink', [ˈʕe:ʃ] `rice', [ˈʕinab] `grapes', etc.

Collective nouns from another group of Qatari Arabic nouns. These are nouns that require singular verb agreement when used as subjects, although their semantics meaning is always plural as in the following examples:

(1) [ˈidija:j ibi:ɣ..]
chicken (collective noun) lay eggs.

(2) [iṭṭuma:ṭ irXi:ṣ]
The tomatoes (collective noun) is cheap.

There are nouns in Qatari Arabic which are derived from verbs, examples are:

Verb		Derived Noun	
[ˈwiṣal]	`he arrived'	[ˈwuṣu:l]	`arriving, arrival'
[ˈʃagg]	`he tore'	[ˈʃagg]	`tearing'
[ˈsibaħ]	`he swam'	[siˈba:ħah]	`swimming n.'
[ˈsallam]	`he greeted'	[saˈla:m]	`greeting'

In addition to the sub-classes of nouns mentioned above, there are nouns of foreign origin which are found in Qatari Arabic [ba:s] `bus', [se:kal] `bicycle', [paŋkah] `fan', etc.

2. Gender:

Gender is a grammatical category which is used to show distinctions such as masculine / feminine / neuter when words are analyzed. Crystal (1980:158) distinguishes between natural gender and grammatical gender when he says:

> " ... to distinguish **natural gender**, where items refer to the sex of real-world entities, and **grammatical gender**, which has nothing to do with sex, but which has an important role in signalling grammatical relationships between words in a SENTENCE .... The gender SYSTEMS of French, German, Latin, etc are grammatical, and shown by the FORM of the ARTICLE (e.g. *le* vs. *la*) or of the noun (e.g.nouns ending in *-a* are feminine)."

Gender as a grammatical category may not be a feature in some languages as in English. It is found in English only where the distinction between the pronouns he / she / it is needed. Many linguists see that gender in English is not a grammatical category of great influence; but it is seen more as a semantic category. Huddleston in (1984:289) states:

> "Gender is however, a category of very minor significance in English..... We cannot divide English nouns into three classes masculine, feminine and neuter, such that ***he***, ***she*** or *it* is required as the corresponding anaphoric pronoun. Rather, the choice between pronouns is determined semantically, ... Typically, ***he*** is used of males, ***she*** of females and *it* elsewhere ...."

Gender as a grammatical category applies to Qatari Arabic. Nouns in Arabic, as well as, in Qatari Arabic are inflected for masculine and feminine genders. The idea of masculine and feminine is a common phenomenon in Semitic languages. Some Arab linguists, as Al-Dajni (1979:208), relate the phenomenon of gender (a translation from Arabic):

> " ... the ancient Semitic people used to differentiate between the masculine and feminine in the language not through grammatical means, but rather by a word for the masculine and another for the feminine."

Many other Arab linguists believe that the phenomenon of masculine and feminine gender went through a great deal of confusion due to the un-unified state which the Arabic language suffered from. But when Islam came, the Arabic language became one unified language because of the Holy Qur'an.

Gender appears in both proper and common nouns in Qatari Arabic. Usually in Arabic, the basic form of the noun is that which carries the masculine gender, the same rule applies to Qatari Arabic. The masculine gender is always unmarked in Qatari Arabic nouns as in the following examples:

Masculine Nouns

[kta:b]	`book'
[rajja:l]	`man'
[tʃalb]	`dog mas.'
[gallam]	`pen'

The feminine gender can be either unmarked or marked. The form of the noun is unmarked when the noun shows no mark whatsoever i.e. an affix that relates to the feminine gender. The noun can be marked for gender when the form of the noun carries a mark such as a suffix which

indicates the feminine gender. Some examples of feminine nouns that are unmar:

Unmarked Feminine Nouns

[ʃams]	`sun'
[na:r]	`fire'
[ʕe:n]	`eye'

Qatari Arabic noun forms which show the feminine gender marker can be identified by the morpheme {əh} as a suffix derived from the Standard Arabic feminine morpheme {ət} which is also a suffix that has two allomorphs /əh/ and /ət/ pronounced as [əh] and [ət] respectively. The allomorph /əh/ of Standard Arabic is used in Qatari Arabic to mark the feminine gender for the majority of feminine nouns, it is pronounced as [əh]. Qafisheh (1977) refers to the feminine gender marker of nouns in Gulf Arabic dialects as -a, but in Qatari Arabic the marker is actually [əh] or [ət] depending on the use of the word. The pronunciation of the feminine marker in Qatari Arabic has been verified by Qatari natives as well as the researcher. Therefore, the feminine gender marker in Qatari Arabic will be referred to as {əh} and not -a as Qafisheh states. The -a feminine marker could apply to other Gulf Arabic dialects. The feminine gender in Qatari Arabic is found not only in nouns such as [ˈka:tibəh] `a writer', a common noun, but whialso in adjectives such as [ˈna:jməh] `asleep fem.' which is used as a modifier of feminine nouns.[3] The allomorph /ət/, which is pronounced [ət], is also found in Qatari Arabic as a marker of feminine nouns in compounds such as [ˈṣala:t ildʒumʕəh] which

3 Some adjectives in Qatari Arabic which modify feminine nouns could be found in forms for the masculine gender as in [ˈmarəh ˈṣabu:r] `a patient woman'. The adjective has the masculine form although it modifies a feminine noun. This form is usually used for literary expressions. The forms [ˈṣa:brəh] and [ṣəˈbu:rəh] `patient: in the feminine form' also exist in Qatari Arabic.

means `Friday prayer' and [ˈkurət ˈilqadam] which stands for `football'. But as for non-compound nouns which carry the feminine gender, the marker is normally the allomorph /əh/. Proper Nouns, which are used for animate nouns, are divided into masculine for nouns which refer to males such as Ahmed, Ali etc.; and feminine for those which refer to females such as Fatma, Mariam etc.

3. Number:

The class of nouns in Qatari Arabic is inflected for the plural as in [ˈkta:b : ˈkutub] for `book : books' using the process of `morpheme internal change'.

The plural is a grammatical category which shows the distinction between singular and **plural** `more than one'. This category exists in the majority of the languages of the world.

Qatari Arabic also displays the feature of the plural which means `more than two' next to the feature of the dual which means `two'. There are two types of plural formation in Qatari Arabic, one is the Regular Plural where a process of suffixation operates on some count noun forms and the other is the Broken Plural where a morpheme internal change process operates on other count noun forms.

(1) The Regular Plural:

The formations of the Regular plural and the dual of nouns in Qatari Arabic is done by means of bound morphemes in the form of suffixes. Masculine nouns use different morphemes for the formation of the plural and the dual than those used for the formations of feminine nouns. Qatari Arabic nouns, which are inflected for gender, take their basic noun forms from the singular masculine nouns.

To form regular plural for masculine nouns in Qatari Arabic, the allomorphs of the morpheme {in}, /an/ (pronounced [a:n]) and /in/

(pronounced as [i:n]) are attached as suffixes to the singular masculine form. [i:n] is used with the masculine noun forms without affecting the structure of the original noun form as in the following examples:

Singular		[i:n] Plural	
[mudarris]	`male teacher'	[mudarrisi:n]	`male teachers'
[tajja:r]	`male pilot'	[tajja:ri:n]	`male pilots'
[sabba:ɣ]	`male painters'	[sabba:ɣi:n]	`male painters'
[muhandis]	`male engineer'	[muhandisi:n]	`male engineers'

The [a:n] plural marker for masculine nouns, on the other hand, is added to those nouns that also undergo morpheme internal change when pluralized. In this type of process the long vowels of nouns are mutated, changed, or deleted first then a process of suffixation takes place by the addition of [a:n] to the end of the noun as the following examples show:

Singular		[a:n] Plural	
[qami:s]	`shirt mas.'	[qumsa:n]	`shirts mas.'
[ɣaza:l]	`deer mas.'	[ɣizla:n]	`deer mas.'
[siba:l]	`monkey mas.'	[sibla:n]	`monkeys mas.'

To form dual masculine nouns in Qatari Arabic, the morpheme {en}, which is pronounced as [e:n], is added as a suffix to the singular masculine noun.

Singular		[e:n] Dual	
[mudarris]	`male teacher'	[mudarrise:n]	`two male teachers'
[tajja:r]	`male pilot'	[tajja:re:n]	`two male pilots'
[sabba:ɣ]	`male painters'	[sabba:ɣe:n]	`two male painters'
[muhandis]	`male engineer'	[muhandise:n]	`two male engineers'
[qami:s]	`shirt mas.'	[qami:se:n]	`two shirts mas.'

[ˈɣaza:l]	`deer mas.'	[ɣaˈza:le:n]	`two deer mas.'
[ˈsiba:l]	`monkey mas.'	[ˈsiba:le:n]	`two monkeys mas.'

The plural of feminine nouns in Qatari Arabic is made by adding through the morpheme {at}, which is pronounced as [a:t]. It is a suffix added to the basic masculine form of the noun. When this is done, the singular feminine form of the noun loses its feminine gender marker {ət} first and then the feminine plural marker is attached to it as in:

Singular		[a:t] Plural	
[ˈmudarris]	`male teacher'	[muˈdarrisa:t]	`female teachers'
[ˈmumariđ]	`male nurse'	[muˈmariđa:t]	`female nurses'
[ˈdikto:r]	`male doctor'	[dikˈto:ra:t]	`female doctors'

When the noun has no basic masculine form especially in the case of non-human or non-living beings, it loses its feminine gender marker, {ət}, first and then the feminine plural marker is added as in:

Singular		[a:t] Plural	
[ˈʕabaj]	`veil fem.'	[ˈʕabaja:t]	`veils fem.'
[ˈmaħaj]	`eraser fem.'	[ˈmaħaja:t]	`erasers fem.'

The dual of feminine nouns in Qatari Arabic is made by adding the morpheme {ten}, which is added, also as a suffix, to the basic masculine form of the noun. It is pronounced as [te:n].

Singular		[te:n] Dual	
[muˈdarris]	`male teacher'	[muˈdarriste:n]	`two female teachers'
[ˈmumariđ]	`male nurse'	[ˈmumariđte:n]	`two female nurses'
[ˈdikto:r]	`male doctor'	[diˈkto:rte:n]	`two female doctors'

But the dual of feminine nouns, which refer to non-human or non-living beings, is made in a way that is similar to forming their plural, i.e, by first deleting the feminine marker and then adding the dual marker for the feminine as in:

Singular		[te:n] Dual	
[ˈʕabaj]	`veil fem.'	[ˈʕabajte:n]	`two veils fem.'
[ˈmaħaj]	`eraser fem.'	[ˈmaħajte:n]	`two erasers fem.'

Exceptions do exist with some masculine nouns which form their plurals by using affixes. Some masculine nouns form their plurals by the addition of the feminine plural morpheme, [a:t], to the singular masculine from as in the following examples:

Singular		[a:t] Plural	
[ˈrija:l]	` riyal'	[riˈja:la:t]	`riyals'
[ˈwa:dʒib]	`homework'	[waˈdʒiba:t]	`homeworks'

But the same nouns form their duals by the use of the masculine dual morpheme, [e:n]:

Singular		[en] Plural	
[ˈrija:l]	`riyal'	[riˈja:le:n]	`two riyals'
[ˈwa:dʒib]	`homework'	[waˈdʒibe:n]	`two homeworks'

(2) Broken Plural:

Some masculine and feminine nouns form the plural by means of morpheme internal change, which is recognized in Arabic as the Broken Plural. Broken Plurals in Gulf Arabic dialects, as Qafisheh (1977) notes have :

" ... a number of pluralizing patterns, a few of which can be predicted from the singular pattern but in most cases it is very difficult if not impossible to deduce the plural pattern from the singular."

Some examples of nouns which form their plurals in this way in Qatari Arabic are:

Masculine Nouns

Singular		Plural	
[saham]	`a share'	[ashum]	`shares'
[asad]	`a lion'	[usu:d]	`lions'
[ka:tib]	`male clerk'	[kita:ti:b]	`male clerks'
[rajja:l]	`man'	[rija:ji:l]	`men'

Feminine Nouns

Singular		Plural	
[ħurməh]	`a woman'	[ħari:m]	`women'
[tannu:rəh]	`a skirt'	[tina:ni:r]	`skirts'
[madrisəh]	`a school'	[mida:ris]	`schools'
[saja:rəh]	`a car'	[sija:ji:r]	`cars'*
		although [saja:ra:t] exists	

However, Qatari Arabic nouns which form the plural by morpheme internal change, the Broken Plural, form the dual by the dual morphemes {en} for the masculine nouns and {ten} for feminine nouns without any change in the structure of the basic noun form:

Masculine Nouns

Singular		Dual	
[saham]	`a share'	[sahame:n]	`two shares mas.'
[asad]	`a lion'	[asade:n]	`two lions'
[ka:tib]	`male clerk'	[ka:tibe:n]	`twomale clerks'
[rajja:l]	`man'	[rajja:le:n]	`two men'

Feminine Nouns

Singular		Dual	
[ħurməh]	`a women'	[ħurm te:n]	`two women'
[tannu:rəh]	`a skirt'	[tannu:rte:n]	`two skirts'
[madrisəh]	`a school'	[madriste:n]	`two schools'
[saja:rəh]	`a car'	[saja:rte:n]	`two cars'

There are loan nouns in Qatari Arabic. It is worth noting these loan nouns form their plural by following either the regular pattern or the broken plural pattern of Qatari Arabic; and when dualized they use the same dual rules for non foreign words in Qatari Arabic. When masculine foreign nouns follow the regular plural in Qatari Arabic, they take the feminine plural marker, [a:t], and do not usually take the plural marker of masculine nouns. However, feminine nouns of foreign origin take the feminine plural morpheme for regular plural forms, indicated in the following examples which illustrate the difference masculine between and feminine plural formation for loan nouns:

Masculine Nouns:

Singular		Regular Plural	
[ba:s]	`bus'	[ba:sa:t]	`buses'

[ˈte:rm] `term, semester'	[ˈte:rma:t] `terms, semesters'
[ˈpe:p] `pipe'	[ˈpe:pa:t] `pipes'

Singular	Broken Plural
[ˈse:kal] `bicycle'	[seˈja:kil] `bicycles'
[ˈtikse:] `taxi'	[tiˈka:se:] `taxis'

Feminine Nouns:

Singular	Regular Plural
[ˈpaŋkəh] `fan'	[ˈpaŋka:t] `fans'
[ˈke:kəh] `cake'	[ˈke:ka:t] `cakes'

Singular	Broken Plural
[ˈzu:lijəh] `carpet'	[ˈzal] `carpets'

Foreign nouns in Qatari Arabic form their duals by the process of suffixation in which the morpheme {en} marks masculine duals and the morpheme {ten} marks feminine duals as in the following examples:

Masculine Nouns:

Singular		Dual	
[ˈba:s]	`bus'	[ˈba:se:n]	`two buses'
[ˈte:rm]	`term, semester'	[ˈte:rme:n]	`two terms'
[ˈpe:p]	`pipe'	[ˈpe:pe:n]	`two pipes'
[ˈse:kal]	`bicycle'	[se:ˈkale:n]	`two bicycles'
[ˈtikse:]	`taxi'	[tikˈse:e:n]	`two taxis'

Feminine Nouns:

Singular		Dual	
[ˈpaŋkəh]	`fan'	[paŋˈkəte:n]	`two fans'
[ˈke:kəh]	`cake'	[ke:ˈkte:n]	`two cakes'
[ˈzu:lijəh]	`carpet'	[zu:lijˈte:n]	`two carpets'

The choice of different morphemes of the plural and the dual in Qatari Arabic depends partially on the gender of nouns; but it also depends on whether the noun is count or non-count.

Not all nouns can be inflected for the plural or for the dual in Qatari Arabic. In English the noun chemistry cannot be inflected for the plural *chemistries nor can music become inflected *musics. In Qatari Arabic the noun [ˈki:mjəh] `chemistry' cannot be inflected for the plural *[ˈki:mja:t] `*chemistries' or *[ˈki:mje:n] `two chemistry'; nor can the noun [ˈmu:si:qəh] `music' be inflected for the plural *[ˈmu:si:qa:t] `*musics' or the dual *[ˈmu:si:qe:n] `two musics'. In other words, the plural in Qatari Arabic applies, as in other languages of the world, to count nouns only. Mass nouns cannot be pluralized or dualized.

4. Articles:

Nouns can be used with articles as in English the book: a book and in Qatari Arabic [ilˈkta:b :ˈkta:b] `the book : a book'. In English, the definite article the and the indefinite articles a or an are separate words (free morphemes) which are placed before the head noun. But the Qatari Arabic definite article is the bound morpheme {al} `the', a prefix which is attached to the beginning of head nouns and pronounced as [il]; while the indefinite article is expressed by the morpheme {n} as a suffix which is

pronounced as [in] or by the zero morpheme[4]. Not all nouns take the definite article; in Qatari Arabic, for example, the definite article can not be used with nouns such as Ahmed or Asia : *[ilaħmad] or *[ila:sja]. In other words, the article can not be used with Proper Nouns[5]. This is why it is important to distinguish between sub-classes of nouns.

In Qatari Arabic the article can co-occur with demonstrative pronouns without affecting the structure or the meaning of the noun phrase as in [ha:ði irrajja:l..] `this the man'. This is not possible in some langauges as English; English articles cannot occur in combination with demonstrative pronouns *the this man....

Qatari Arabic shows the semantic distinction of definite / indefinite by means of articles, too. Definiteness means the ability to identify the reference (the noun); and therefore, different languages use a sort of a marker to indicate it be it a separate word (a free morpheme) or an affix (a bound morpheme). For example, English uses the as the definite article as in `the man next to me'; while Qatari Arabic uses the morpheme {al}

---

4 In Standard Arabic the morpheme {n} is used as a suffix to denote indefinite nouns. It has two allomorphs /n/ and /Ø/. Qatari Arabic uses /Ø/ to denote indefiniteness; yet there are cases where the /in/, as a variant of Standard Arabic /n/, is used with indefinite nouns. When /in/, in Qatari Arabic, is used as in [ha:ði rajja:ln ŧajib] `this is a good man', it expresses an idea other than indefiniteness, namely, emphasis on the quality of goodness. Therefore, this morpheme has a semantic function rather than a syntactic and a morphological one. When /Ø/ is used as [ha:ði rajja:l ŧajib] `this is a good man' the reference is decisively an indefinite one. Both expressions exist in Qatari Arabic.

5 In Qatari Arabic exceptions do exist also [ilaħmad] `AlAhmed' could be used as the last name or family name of a person; only in this case the Proper noun can be used with the article.

`the' or an allomorph of it[6] as in [irrajja:l ili'ħða:j] `Translation: the man next door'. Proper nouns in Qatari Arabic do not take the definite article since they already carry the feature of definiteness semantically e.g. Ahmed, Fatma, ['afri:qja] `Africa' etc. Indefiniteness, on the other hand, means the inability to identify the reference uniquely. Indefiniteness is expressed by means of the indefinite article(s) in English a or an e.g. a dog, an egg; and in Qatari Arabic by the zero morpheme as in ['tʃalb] `a dog mas.', ['tʃalbah] `a dog fem., ['beðah] `an egg'.

Qatari Arabic shows the semantic distinction of Specific / Generic. These are also shown by the articles. If the speaker has a specific reference to an entity in his mind, then the reference is specific. But when the speaker refers to a class of entities, the reference is generic. The reference to the noun dog in English is specific (which means that it is that type of animal which has certain characteristics that fit only dogs) and is an indefinite entity in the mind of the speaker. But if we say dogs are friendly animals, the reference is generic because it refers to the whole class of dogs and is

---

6 In Qatari Arabic, the definite article [il] `the' is shown by means of a prefix attached to the beginning of nouns. Sometimes the phonology of the noun determines the type of the allomorph to used with it. The morpheme {al} has two allomorphs /i/ and /il/. The allomorph /i/, which is pronounced as a [i], is a reduced allomorph as a result of assimilation. It is used with words which begin with alveolar, interdental fricatives, palatal fricatives. It is used also with sounds which are made with secondary articualtion such as the phryngealized palatal fricatives [ɵ], the phryngealized alveolars such as [ɫ], and the phryngealized dentals [ð]. In these cases the sound [l] of the morpheme {il} assimilates to the first sound of the word it is to be used with as in ['rajja:l] `man' when it becomes definite [ir'rajja:l]. The other allomorph /il/ which is pronounced as [il] is used elsewhere.

made here by the use of the indefinite article[7]. When the same reference is made in Qatari Arabic the noun [tʃalb] `dog mas.' is specific and indefinite for the same reasons as in English. But if we want to make a generic reference to the whole class of dogs in Qatari Arabic as [iltʃla:b ˈsadi:qəh lil ˈinsa:n] `The dogs are friendly animals', the reference is not a definite one only because of the use of the definite article [iltʃla:b] but it is also generic in contrast to English generic reference which is made by using the indefinite article.

5. Proper and Common Nouns:

Nouns are divided into two major sub-classes Proper and Common. Proper nouns refer to unique entities. Certainly there are more than one Ahmed in the world; but when the noun Ahmed is used in Qatari Arabic, it is used to name one unique person or individual. The same idea applies when we use the noun Doha, there are more than one Doha in the world but speakers refer only to one specific place when they use this word, either the capital of Qatar or the district in Kuwait. The idea of proper nouns can be compared with the idea of common nouns. Common nouns are used to name classes of entities. The words [rajja:l] `man' and the word [madi:nəh] `city' in Qatari Arabic are only labels used for classes which denote kinds of entities. When referring to an individual a common noun denoting the class of man or a proper noun denoting Ahmed can be chosen to refer to that individual. When referring to a place a common noun denoting the class of city or a proper noun denoting Doha can be chosen to refer to that place.

In some cases proper nouns can function as common nouns. The proper noun Kleenex, a name for a specific product, is now used in Qatari Arabic as a generic name for a class of entities and a common noun [kli:niks] which refers to a unit/units of tissue(s).

---

7 The indefinite article with plural Head Nouns is represented by the zero morpheme in English.

One of the characteristics of proper nouns in Qatari Arabic, which is similar to other languages as English, is that they do not occur with articles although exceptions exist. Look at the following examples from both languages, the definite article in English is the, and in Qatari Arabic is [il]:

English		Qatari Arabic	
John	*the John	[ˈaħmad]	*[ilˈaħmad]
Jupiter	*the Jupiter	[ˈʕata:rid]`Jupiter'	*[ilˈʕata:rid]
Lebanon	*the Lebanon	[ˈlibna:n] `Lebanon'	*[ilˈlibna:n]
*Hague	The Hague	*[ˈqa:hirəh]`cairo'	[ilˈqa:hirəh]
*Andes	The Andes	*[ˈandi:z] `The Andes'	[ilˈandi:z]

Common nouns have a further classification; they are divided into two sub-classes Count Nouns and Non-Count Nouns. Count Nouns denote entities or things which can be counted. Non-Count Nouns refer to nouns which are not countable such as liquids, solids, abstract qualities or even collections of entities. Examples of count nouns in Qatari Arabic are (including plurals and duals with masculine morphemes and the feminine morphemes in addition to plurals mame internal change):

Meaning	Qatari Arabic	Gender
teacher (male)	[ˌmuˈdarris]	masculine
teacher (female)	[ˌmuˈdarrisəh]	feminine
teachers (males)	[ˌmuˈdarrisi:n]	masculine
teachers (females)	[ˌmuˈdarrisa:t]	feminine
two teachers (males)	[ˌmuˈdarrise:n]	masculine
two teachers (females)	[ˌmuˈdarriste:n]	feminine
shirt	[ˈqami:s]	masculine
shirts	[ˈqamsa:n]	masculine
two shirts	[ˌqamise:n]	masculine
veil	[ˌʕabajəh]	feminine
veils	[ˌʕabaja:t]	feminine
two veils	[ˌʕabajte:n]	feminine

In Qatari Arabic, count nouns can occur with the quantifier [wa:jid] `many' and with cardinal numbers such as one, two. But non-count nouns can not occur with any of these except for [wa:jid] `many' which can occur with non-count nouns. However, they can occur with [ka:fi] `enough'. The following are examples of these two subclasses of common nouns:

Count Nouns		**Non-Count Nouns**	
[saja:rəh]	`a car'	*[ma:j]	`(a) water'
[wa:jid sija:jir]	`many cars'	*[wa:jid ma:j]	`(*)many water'

Some nouns can be read as both count and non-count nouns. The difference in this case is related to the change in meaning between the count and non-count classification for the same noun. Sometimes the count noun refers to a unit of the entity denoted by the corresponding non-count noun. The following are examples of count nouns which can be classified as non-count nouns:

English		**Qatari Arabic**		
Non-Count	Count	Non-Count		Count
cheese	a cheese	-		-
wheat	a wheat	-		-
philosophy	a philosophy	[falsifəh]	`philosophy'	[falsifəh]
coffee	a coffee	[gahwəh]	`coffee'	[gahwəh]

In some cases the relationship between the count and mass noun is more idiosyncratic:

Qatari Arabic			
Non-Count		Count	
[warag]	`paper'	[iwrigəh]	`a paper, a report'
[gahwəh]	`coffee'	[giha:we:]	`a coffee-shop'

Sometimes a count noun in one language could be a non-count noun in another language. In English a grape is a count noun but in standard Arabic, as well as in Qatari Arabic it is a non-count noun [ʕinab] `grape' and for the unit of grapes, Arab speakers say [ħabət ʕinab] `a grape', [ħabət] in this case refers to one unit of the entity of `grapes'. This distinction is usually language specific. It means that count nouns in English could be non-count nouns in another language; for example, grape is a count noun in English but it is a non-count noun in Qatari Arabic [ʕinab] `grapes'. Also non-count nouns in English could be count nouns in another language; for example, the non-count noun homework in English is a count noun in Qatari Arabic [wa:dʒib] `homework sg.' with a plural [wa:dʒiba:t] `homework pl.'. This kind of interpretation happened because of the overlap between abstract nouns and non-count nouns. Count nouns and non-count nouns show gender in Arabic. Inanimate common nouns can show gender by means of masculine and feminine suffixes used for this purpose in Qatari Arabic.

Another distinction between count and non-count nouns lies in Concrete and Abstract nouns. To refer to material objects concrete nouns are used; and to denote non-material objects and abstract qualities abstract nouns are used.

SUMMARY:

Nouns have been examined with respect to gender, the number and use of the article. As for gender Qatari Arabic nouns are inflected for masculine and feminine genders which are exhibited by means of affixes. Qatari Arabic count nouns are inflected for the singular, the plural and the dual. The features of the plural and the dual are shown by the use of affixes, the dual is expressed in Qatari Arabic by affixes. The gender of the noun determines the choice of affix for the plural and the dual. There are different plural and dual suffixes for masculine nouns than those for feminine nouns with few exceptions for masculine nouns. Qatari Arabic

can form plurals in two ways: by means of suffixation and by means of morpheme internal change.

As for the article, Qatari Arabic exhibits a definite article, while the majority of indefinite nouns are expressed by means of a zero morpheme. Qatari Arabic uses the definite marker to denote generic reference as in [iltʃla:b sadi:qəh lilʾinsa:n] ` dogs are friendly animals'.

Qatari Arabic classifies nouns as proper and common. Common nouns are further classified into count and non-count. There are cases where the same noun can be considered as either non-count or count carrying two different meanings. However, not all non-count nouns in Qatari Arabic are also non-count nouns in other languages as with the noun grape / [ʕinab].

APPENDIX (1)

KEY TO SYMBOLS OF TRANSCRIPTION

1. The Consonants:

IPA Symbol Employed	*Arabic Equivalent*	*Phonetic Values of the Symbols*
b	ب	a voiced bilabial stop.
p	پ	a voiceless bilabial stop.
m	م	a voiced bilabial nasal.
w	و	a voiced bilabial approximant
f	ف	a voiceless labio-dental fricative.
ð	ذ	a voiced dental fricative.
θ	ث	a voiceless dental fricative.
ʕ	ع	a voiced phryngeal fricative.
ħ	ح	a voiceless phryngeal fricative.
d	د	a voiced alveolar stop.
t	ت	a voiceless alveolar stop.
ŧ	ط	a voiceless pharyngealized
z	ز	a voiced alveolar fricative.
ð̶	ظ	a voiced pharyngealized dental fricative.
s	س	a voiceless alveolar fricative.
ꞩ	ص	a voiceless pharyngealized
ʃ	ش	a voiceless palatal fricative.
n	ن	a voiced alveolar nasal.
l	ل	a voiced alveolar lateral.
r	ر	a voiced alveolar trill.
dʒ	ج	a voiced palatal affricate.
tʃ	تش	a voiceless palatal affricate.

j	ي	a voiced palatal approximant.
g	گ	a voiced velar stop.
k	ك	a voiceless velar stop.
ʁ	غ	a voiced uvular fricative.
q	ق	a voiceless uvular stop.
X	خ	a voiceless uvular fricative.
h	ه	a voiceless glottal fricative.
?	ء (همزة)	a glottal stop.

2. The Vowels:[8]

i
a
u

i:
e:
a:
o:
u:

8 The vowel system used in this paper is the one set by Bukshaisha (1985 : 37-52)

REFERENCES

Al-Amadidhi, D. G. 1985. "Lexical and Sociolinguistic Variation in Qatari Arabic". Ph.D. Diss. University of Edinburgh.

Al-Dajni, F. A. 1979. Fi Al-Sarf Al-Arabi [About Arabic Morphology]. Kuwait: Maktiba Al-Falah.

Aleasa, N. 1983. "Loan Words in Qatari Arabic". M.A. Thesis. State University of New York at Buffalo.

Al-Mohannadi, M. 1991. "A Social Study of Women's Speech in Qatar". Ph. D. University of Essex.

Bakall, M. H. 1984. Arabic Culture Through Its Language and Literature. London: Keagan Paul Internationals.

Bukshaisha, F. 1985. " An Experimental Phonetics Study of Some Aspects in Qatari Arabic". Ph.D. Diss. University of Edinburgh.

Crystal, David. 1980. A First Dictionary of Linguistics and Phonetics. GB: Andre Deutsch.

Huddleston, Rodney. 1984. Introduction to the Grammar of English. GB: Cambridge.

Ladefoged, P. 1975. A Course in Phonetics. USA: Harcourt Brace, Inc.

Mutter, A. 1986. Ta'seelat Lughaweia Fi Al-Lahajat Al-Khaleejia [Linguistic Etymologies in Gulf Dialects]. Beirut: Dar Al-Awzaai.

----- 1985. Al'asalah Al-Arabia fi Lahjat Al-Khaleej [Arabic Originality in Gulf Dialects]. Al-Riyad: Dar Aalam Al-Kutub Lilnashr wa Al-Towzia.

----- 1984. Al-Usool Al-Lughaweia Lilasmaa Al-Jughrafia Fi Qatar Lignuistic Origins of Geographical Names in Qatar]. Qatar: Dar Qatari Bin Al-Fujaah.

----- 1976. Dhawaher Nadirah Fi Lahajat Al-Khaleej Al-Arabi [Rare Phenomena Arab Gulf Dialects]. Qatar: Faculty of Education, Qatar University.

Noonan, Michael. 1982. English Grammar for Teachers. New York: SUNY. Photocopied.

Qafisheh, H. 1977. A Short Reference Grammar of Gulf Arabic. Tucson: Arizona. The University of Arizona Press.

Quirk, R. and Greenbaum, S. 1973. A University Grammar of English. London: Longman.

Wafi, A. 1971. Al-Lugha wa Al-Mujtama [Language and Society]. Cairo: Dar Nahdat Misr.

"Edward Said's Orientalism and its critique of Edward Lane"

Dr. Geoffrey P Nash, Department of English, Qatar University.

Although it first appeared in 1978, Professor Edward Said's Orientalism has lost little of its original impact. In fact, the central thesis of the work has been widely accepted, despite the vigorous challenges towards many of its details(1). The purpose of this paper is therefore to address another detail : the work's portrayal of Edward Lane. I shall first of all review the overall thesis of Orientalism, then its critique of Lane. This will then be balanced by referring to Lane's own words.

The area of Western contact with the Middle East has given rise to an extensive literature over the last four decades(2). An excellent outline of the field as a whole has been written by Maxime Rodinson(3). According to Rodinson, the Europeans moved through three main stages in their attitude towards their Eastern brothers. During the Middle Ages, the latter were an enemy but equals. In the Enlightement, all men were considered equal and basically the same, if at a mainly theoretical level, and "the Muslims were looked upon as men just like other men, with many of them indeed superior to the Europeans"(4). It was in the third stage, coinciding with the industrial revolution and imperialism, that the Orient was viewed as a world set apart, and often viewed with superior disdain.

Serious academic study of the Near East began during the Renaissance out of a wish on the part of Westerners to bring about unity with Eastern Christians. Then "a general trend towards the organisation of scientific research" led to the "Orientalist network" being set up(5). The first chair of Arabic in Europe (since the Middle Ages) was founded in 1539 at the College de France, and at Oxford almost a century later. The discipline of Orientalism was therefore founded on a philological base, and a training in Oriental languages became the main (and often only) qualification for entering it. In the Middle Ages, as Norman Daniel has shown, study of Islam was "always related to the effective exposition and defence of the faith of Christ. There was little academic interest in a subject for its own sake"(6). But with the decline of religious polemics and the advance of

Humanism, a scientific, if still narrow, approach was adopted. The Orientalist industry continued to grow, eventuating in the creation of learned academic bodies like the Paris Société Asiatique (1821); the Royal Asiatic Society (1823); and the American Oriental Society (1842).

Alongside academic Orientalism developed what might be called "imaginative Orientalism"; this was the creation of poets, novelists, and a variety of other authors, including those who, not satisfied with encountering the East from afar (a limitation bemoaned by Goethe in his West-östlicher Divan) travelled there and laid claim to a response more immediate and authentic While imaginative Orientalism, like its academic counterpart, flourished in the nineteenth and early twentieth centuries, its roots can be found in literary treaments of Eastern subjects in the sixteenth and seventeenth centuries. Marlowe's Tamburlaine the Great, and Racine's Bajazet, are notable examples. But it was Gallard's translation of the Arabian Nights into French that firmly established a taste for the Orient as a world of dream. On European authors, this work's influence in its various translations has been huge.

This has been a very brief outine of the historical field to which Orientalism is addressed. Edward Said did not of course invent the term; neither has he been the first to criticize the Orientalist project, if an overall one can be said to exist. The Arab historian Albert Hourani covers similar gound in a less radically engaged manner in his essay, "Islam and the Philosophers of History", a source that Said acknowledges. But it was the Egyptian sociologist, Anwar Abdel Malek, who in his article "Orientalism in Crisis" (1963) became Orientalism's first trenchant adversary. Rodinson sees this essay as the inaugurator of a state of affairs in which academic cooperation between Eastern and Western scholars had broken down by the late seventies(7). It was against this background that Orientalism was published in 1978.

Said begins his essay by referring to the Lebanese Civil War of 1975-76. A French journalist laments the destruction of part of Beirut which he says "once seemed to belong to... the Orient of Chateaubriand and Nerval". This prompts Said to comment :

> He was right about the place, of course, especially so far as a European was concerned. The Orient was almost a European invention, and had been since antiquity a place of romance, exotic beings, haunting

> memories and landscapes, remarkable experiences. Now it was disappearing; in a sense it had happened, its time was over(8).

What worried the journalist was not the suffering of the Lebanese people, but the terminal damage being done to a "European representation of the Orient". Thus Said introduces the structure of Orientalism, as a "European representation of the Orient". Various ingredients went into this – the Orient's geographical proximity to the West, its cultural and later colonial relations, all that enabled Europe, in the first instance, to construct an image.

> The Orient has helped to define Europe (or the West) as its contrasting image, idea, personality, experience(9).

Orientalism is not merely a literary image however :

> The Orient is an integral part of European material civilization, and culture. Orientalism expresses and represents that part culturally and even ideologically as a mode of discourse with supporting institutions, vocabulary, scholarship, imagery, doctrines, even colonial bureaucracies and colonial styles(10).

Language, imagery, ideas are in effect the superstructure reared upon a material base – made possible by Western physical rule over the Orient.

> Taking the late eighteenth century as a very roughly defined starting point Orientalism can be discussed and analyzed as the corporate institution for dealing with the Orient – dealing with it by making statements about it, authorizing views of it, describing it, by teaching it, settling it, ruling over it: in short Orientalism as a Western style for dominating, restructuring, and having authority over the Orient(11).

These extracts make Said's post - Structuralist methodology quite apparent. The Orient is juxtaposed alongside a "European representation of the Orient"; this representation is seen as Europe's "contrasting idea" – or binary opposition (12). Then is presented the main structure – "European material civilization and culture" in which the Orient, or the West's representation of it, functions. The Orient is therefore but a part of the structure of Western civilization, but a significant part, for upon it a whole discourse is built up, articulated and sustained by the power of a dominant entity. Orientalism is therefore a subjective structure built by the observer - the West – as a result of its

observation of the thing observed – the Orient. Further, the relationship between the observer and thing observed is clearly to be seen as a power relationship in which the observer has the upper hand.

The structure of Orientalism is an enduring one. It is not merely a false myth which can be exposed and blown away. It is a "created body of theory and practice in which, for many generations, there has been a considerable material investment". The political implications of this are not far to seek, although Said argues against an exclusively political domination, "a mere political subject matter or field that is reflected passively by cultural scholarship, or institutions". Orientalism is rather – and it takes Said a sentence of some twenty lines to make the point – a complex structure of interrelated "interests", a "modern political-intellectual culture" which "has less to do with the Orient than it does with "our" world"(13).

Implicit in Said's thesis of Orientalism is that it is a universal, or a total structure about which a whole series of observations can be made. Any counter-criticism of it would probably center upon its universalist claims, which are themselves a feature of post - Structuralism. In fairness to Said, it should be said that The does not embrace very last article of the Structuralist creed. He disavows, for instance, the view that "the author and his chosen subject matter are only incidentals in an impersonal world". Instead he writes the following in a passage crucial for the understanding of his analytical method in Orientalism :

> Foucault believes that in general the individual text or author counts for very little; empirically, in the case of Orientalism (and perhaps nowhere else) I find this not to be so. Accordingly my analyses employ close textual readings whose goal is to reveal the dialectic between individual text or writer and the complex collective formation to which his work is a contribution(14).

It is Said's analysis of the works of individual writers that is of key interest to us, for if it can be demonstrated that they function within the overall framework of Orientalism, we might be justified in saying that Said's Orientalist thesis provides a useful terms of reference for discussing the work of Western writers on the East.

I have chosen Edward Lane for this purpose for two reasons. In Orientalism

he features as a key figure, both for his contribution to academic Orientalism and for his influence on nineteenth century European Literature. In this latter regard, Lane and Thomas Carlyle were reciprocally influencial upon each other, and together their writings on the subject of Islam and the Arabs are of seminal importance. Lane's significance lies in his role as introducer of ideas on the Near East which are more informed and more scientifically presented than anything in the literature about the East written in English up to that time. The Napoleonic excursion into Egypt had already opened up the East to academic inquiry in a wholly new way. The pioneering Orientalist, Baron de Sacy stands out as the compiler of this research and the establisher of the discipline of Oriental Studies, including the study of Oriental languages, in France. Lane, however, went a step further by visiting the East, as had the Swiss, John Lewis Burckhardt, but in addition achieving a rapport with the indigenous population that was beyond Burckhardt.

> Unlike the French and Burckhardt, Lane was able to submerge himself among the natives, to live as they did, to conform to their habits(15).

This "strategy of disguise" was of course to be adopted by later Western travellers to the East, notably Burton, Blunt and T E Lawrence. Not unnaturally, this kind of enterprise has come to be treated with a certain suspicion, particularly by the very East the strategy has sought to penetrate and report on. It raises a vital issue that is central to Said's Orientalist thesis : the motivation of the occidental "observer" of the East.

All in all, Edward Lane made three visits to the East, each time to Egypt. The length of his stays were respectively, three, two, and seven years. During this time Lane became orientalised to a significant degree, but the questions are, how deeply? And for what reason?

For Said, Lane's expertise in Islamic studies makes him a quintessential example of the professional Orientalist "who considers his residence (in the Orient) a form of scientific investigation". However, what drives the professional Western Orientalist and his freer, more imaginative brother writers on the East, is essentially a common desire to use the East for the display of their prowess. The works of both "rely upon the sheer egoistic powers of the European consciousness at their center"(16). According to Said, Lane was single-mindedly intent on making himself an authority on the Orient. Hence

there is a clear dishonesty about Lane's behaviour in Egypt Manners and Customs of the Modern Egyptians, completed after Lane's first two visits, was a "self-conscious" exercise in creating an impression of "a work of immediate and direct, unadorned and neutral, description, whereas in fact it was the product of considerable editing..." In his preface to the work, Lane "must show initially that he did what others before him either could not or did not do, and then, that he was able to acquire information both authentic and perfectly correct". The dishonesty behind Lane's work is, Said suggests, at the heart of his pretence of being an inconspicuous part of the Egyptian scene while at the same time maintaining a scientific detachment. A key illustration of this point was the way Lane made friends in Egypt solely for the purpose of advancing his work; he joined in the activities of the society around him, including religious ones like prayer at the mosque, but he did so with a more or less supercilious attitude towards the culture he was describing. Thus he passed himself off as a Mulsim, with the help of an Egyptian friend, Sheikh Ahmed, only to mock the man in his book for his bizarre behaviour. To sum up then :

> As mediator and translator, so to speak, of Muslim behaviour, Lane ironically enters the Muslim pattern only far enough to be able to describe it in a sedate English prose.

The charges Said levels against Lane are therefore very serious ones. He was a "counterfeit believer", who remained all the time a "privileged European". This "bad faith" led Lane to the "betrayal" of his friendship with Ahmed; more, it made Lane a seeker after the sensational and prurient in order to gratify his Western audience :

> As rapporteur his propensity is for sadomasochistic collosal tidbits : the self-mutilation of dervishes, the cruelty of judges, the blending of religion with licentiousness among Muslims, the excess of libidinous perversions, and so on.

Much is made of Lane's "refusal to join the society he describes" by contracting a marriage with an Egyptian woman.

> If we already knew that Lane was a non-Muslim, we now know too that in order for him to become an Orientalist – instead of an Oriental – he had to deny himself the sensual enjoyments of domestic life... Only in this

negative way could he retain his timeless authority as observer.

The picture is therefore an unsavory one. "As fake Muslim and genuine Westerner" Lane emerges as what modern English slang would term "a user". He uses the East for his own egoistic purposes, attaining in the process a position of authority won out of cheating the society he had lived in and reported on.

> For Lane's legacy as a scholar mattered not to the Orient, of course, but to the institutions and agencies of European society(17).

Lane functions, it must be emphasized, as a representative academic Orientalist in the overall context of <u>Orientalism.</u> He fits into Said's Orientalist structure not only as a casestudy of the occidental ego restructuring the East for a Western audience's benefit and for his own as Oriental expert, but as a key figure in the Orientalist project, a link, a transmitter of information and ideas which could be taken up by others. Indeed, Flaubert and Nerval, to name but two major literary authors, "borrowed shamelessly"(18) from Lane in their own Oriental works.

The issue of Lane's status as observer of Egyptian society is also raised by Leila Ahmed in her study of the Orientalist. On Lane's first visit to Cairo she informs us :

> (he) began to live as an Oriental. At first he is an observer merely. He would sit at the front of a shop belonging to an Egyptian merchant friend, with nargheeleh.. and coffee, watching the scene and taking notes. Then he began to join in Muslim activities, visiting the shrine of Hosein... then later, regularly attending prayers at the mosques(19).

This of course is to take the term observer at its face value without probing into Lane's real attitude when he would "join in" everyday Egyptian activities. Since Lane's method in <u>Modern Egyptians</u> is apparently to absent himself from the text, it is difficult to answer this question without doing as Said does – undertaking speculative textual analysis and placing special emphasis, as we shall see later, on Lane's remarks in his preface to the work. Leila Ahmed remarks :

> The prose of <u>Modern Egyptians</u> is, as a rule, so transparent, so free from all devices that draw attention to author, to his own society and its values,

> to the prose itself, or to anything other than the world that it is concerned to make real for the reader, that, consciously, the reader hardly registers the fact that it intervenes between himself and the object he is being invited to contemplat(20).

As it turned out, it was this very objective stance that won Lane greatest praise from his contemporaries :

> for the first time in England, and in Europe, Islam and its culture were presented not as a set of beliefs to be intellectually grasped, analysed, rejected, or an assortment of social and political modes to be defined and criticised, but as a lived experience(21).

The key word here is "presentation", suggesting as it does the possibility of an image or meaning being transmitted and received without too evident a distortion by either the encoder or decoder. In the Structuralist lexicon the preferred term would be "representation", with its connotations of subjectivety, distortion, and power complex on the part of the transmitter.

Leila Ahmed's implied explanation for Lane's motive in writing in such a way is that he achieved an identification with his subject, which was quite soon reflected in his manner of life. Lane, in short, actually entered the society he was describing, if not in toto, at least to a degree that had significant consequences for his personal being. Thus she refers to Lane's mode of living in England on his return from his first visit to Egypt in 1828, as "thoroughly orientalised". He had changed his name to Mansor, and his letters to his friend Hay bemoaned that fact that he could not return to Egypt. As to his habits :

> as one of his contemporaries testifies, (they) became so much those "of the Orientalist", that "he could scarcely lay (them) aside even when he brought the accomplishments of an English gentleman into the best society of London". On one such occasion, a dinner of the "best society", Lane had quite disconcerted the author of these words (Charles Knight, Lane's publisher), by turning to him and whispering, "I cannot endure these chairs. I will tuck my legs under me and then I shall be comfortable".
>
> He had also become addicted to the nargeeleh(22).

This, and the story related by Leila Ahmed that Lane, four years after

returning to England, did not like relinquishing his Arabic name, might suggest the behaviour of a poseur, an extension of Lane's desire for acknowledgement as a renowned Orientalist. On one matter, however, his actions show a singularity which, if this was the case, would certainly be stretching dedication to fame to its limits. That is, his marriage to an Egyptian woman in 1840. Nefeeseh, his wife, was of Greek Christian extraction and he had received her from his friend Hay as a freed slave. The strange story of their relationship shows a man in turns indignant at the idea of marrying someone of such lowly status, and eventually contented and devoted to his wife. One construction that could be placed on this is that Lane actually went as far towards adopting an Oriental mode of living as his English upbringing would allow.

The question of Lane's religious attitude provides further evience of his acquisition of Eastern practice, if not belief. Like Thomas Carlyle, Lane came from an evanglical Christian family, but unlike the lowland Scot, he never gave up his faith. Leila Ahmed quotes Stanley Lane-Poole on the question of his great uncle's religious frame of mind :

> to the last [Lane] preserved the simple earnest faith of his childhood. [His]... insight into Semitic modes of thought had certainly modified his views on some of the minor points, but in the essential doctrines of Evangelical Christianity his beliefs never changed. ... He never began his day's work without uttering the... Bismillah.

Later, Leila Ahmed herself writes :

> After his first visit to Egypt, during which he had adopted Muslim ways to make inhabitants "familiar and unreserved towards me", he wrote that "wine and swine's flesh" are "loathsome to me". In later life he did not drink wine; and presumably, though he does not again specifically mention this, did not eat pork... his Muslim friends in Cairo, scholars and literary people, hurriedly concealed any wine when he appeared... The skeykh with whom he worked during his last visit to Egypt, and who spent many hours with Lane almost every day for eight years, was fully persuaded that Lane "believed in the Jinn... [and] in the mission of Mohammad, and of Christ"(23).

Further evidence of Lane's sympathetic attitude towards Islam is to be

gleaned from Arabian Society in the Middle Ages. The work goes over much the same ground covered in Modern Egyptains, but in "a more compressed and, sometimes, in very concise form", resulting in "an increased clarity". By drawing on Arab literary sources, historical legends, and above all the Qur'an and Hadith, Lane evoked, in Leila Ahmed's words :

> The centrality and dominance of Islam and its vision, and its shaping influence in almost all areas of experience in [Arabian society](24).

To this Lane added the results of his own personal experience of Arab society in Egypt. The underlying respect which Lane held for both Islam and the Prophet is amply born out by the work. The congruence between Lane's Christianity and Islamic prescripts – on matters such as abstinence from wine, reprobation of excess in music, and propriety in personal affairs, especially marriage – is probably the cause of this, as it was with Carlyle. Indeed, Carlyle's reaction on reading Lane's work was to remark on the piety and religious nature of the Arabs. As for Lane's putative "European ego" and his predilection for "sadomasochistic collosal tidbits", Arabian Society is as free of the narrator's intrusion as his earlier work. It is not free of outlandish detail, but this comes from Arabic sources, and while nurturing a sense of the exotic – as in the famous description of the inner mansions of the caliph of Baghdad's palace – such detail is wholly within the spirit of the originals.

Such criticisms as Lane levels against Arab society of the time are for the most part for its deviation from the laws of Islam. In discussing the habit of wine drinking Lane observes of its interdiction : "This law is absolute; its violation in the smallest detail is criminal"(25). The practice of communal chanting to the accompaniment of music, or zikr, was "inconsistent with the spirit" of Islam(26) although Lane himself had been moved by a dignified performance of zikr he had witnessed in an Egyptian village. (Recitations of the Qur'an itself "when well executed" were "very agreeable" to tim)(27). The so-called walis or saints who it seems were over prevalent in Arab society in Lane's time, he condemned as a "fertile source of imposture", by the standards of Islam again, for they were often allowed to contravene the religious law with impunity(28). Perhaps Lane's European bias is present in his comment that "superstitious fancies" were common "among all classes of the Arabs"(29). Although it might be pointed out that Lane wrote before modern reform movements in the Muslim world. In his

chapter, "Women", however, Lane hit out at Christians who were :

> often unjust in their condemnation of Muslim law and tenets, and especially condemn those which agree with the Mosaic codes and the practices of holy men(30).

It is difficult then to credit Edward Said's contention that Lane had no sympathy for the society he described. Said emphasizes a remark made by Lane in his preface to <u>Modern Egyptians</u> in which her writes that he "conformed only to the words of the Koran" when engaged in religious worship with his Arab associates. For Said this phrase proves that Lane was "always aware of his difference from an essentially alien culture"(31). But it may also mean that Lane was unsure of the reception of his pioneering work. George Sale, he would have known, had been accused of favouring Islam in writing his <u>Preliminary Discourse</u> to the translation he made of the Qur'an. Even Carlyle, cavalier as he was towards the public, was not, as his letters and diaries show, at all clear as to how his lecture on the Prophet Mohammad would be received. So while it might be said that Leila Ahmed's portrait of Edward Lane is specially sympathetic, the evidence suggests that Edward Said's is inaccurate, one that makes the Englishman too much of a type, with the implication that he can thereby be fitted into the argument of <u>Orientalism</u>. Clearly, if Said's view of Lane "as fake Muslim and genuine Westerner" is to be upheld, top marks must be awarded to Lane for carrying his duplicity well beyond the printed text into the most private recesses of his everyday life.

In order for Comparative Literature to flourish, an empathy needs must be established. It is here perhaps that Edward Said's <u>Orientalism</u> is an inappropriate model to follow. As an essay on the dangers of cultural hegemonism its message is no doubt a salutary one. Writing in the late 1970s, he speaks of "a growing, more and more dangerous rift separat(ing) Orient and Occident"(32). Such a rift is to be deplored, and it is the duty of scholars of good will on both sides to endeavour to bridge this rift before time runs out. In such an enterprise, the insights of a Thomas Carlyle or an Edward Lane are invaluable, as are those of any author who can aid the West in obtaining a greater understanding of the East, and vice versa. The empathy the Christian Edward Lane felt for Islam, coupled with his adoption of a scientific method which is neither of the East nor the West alone, enabled him in Leila Ahmed's words, "to

disclose a living culture to the members of another... to the extent that a native of that culture can assent to the general accuracy of the persentation"(33). Here we have a Muslim's testimony to the best that is to be found in Orientalism. This at least is worth keeping.

Notes

1. See Edward Said, "Orientalism Reconsidered" in S Farsoun, ed., Arab Society, Continuity and Change, London : 1985.

2. Some notable studies are : N Daniel, Islam and the West, Edinburgh, 1960, and Islam, Europe and Empire, Edinburgh, 1966; R W Southern, Western Views of Islam in the Middle Ages, Harvard, 1962; W Montgomery Watt, The Influence of Islam on Medieval Europe, Islamic Surveys 9, Edinburgh, 1972; A Hourani, "Islam and the Philosophers of History", in Europe and the Middle East, London, 1980; H A R Gibb, Studies on the Civilization of Islam, London, 1962.

3. "The Western Image and Western Studies of Islam", in J Schacht and CE Bosworth, eds., The Legacy of Islam, 2nd Ed., Oxford, 1974.

4. Ibid, p 40.

5. Ibid, p 35.

6. Islam and the West, p 193.

7. Rodinson, op. cit., p 61.

8. Orientalism, London, 1978, p 1.

9. Ibid, pp 1-2.

10. Ibid, p 2.

11. Ibid, p 3.

12. For an exposition of this term see Terence Hawkes, Structuralism and Semiotics, London, 1977, p 88.

13.Orientalism,p 12 - 14 pp 23-24. Compare Hawkes, op. cit., "writing writes, not authors". p 159.

15. Orientalism, p 160.

16. ibid, p 157-158.

17. Ibid, pp 159-164.

18. Ibid, p 181.

19. Leila Ahmed, Edward Lane, A study of his life and works and of British ideas of the Middle East in the nineteenth century, London & New York, 1978, p 26.

20. Ibid, p 112.

21. Ibid, p 117, p 119.

22. Ibid, pp 32-33.

23. Ibid, p 99, p 101, p 181

24. Ibid, p 149.

25. Arabian Society in the Middle Ages, Studies from the Thousand and One Nights, London, 1987, p 155.

26. Ibid, p 72.

27. Ibid, p 78.

28. Ibid, p 60.

29. Ibid, p 46.

30. Ibid, p 241.

31. Orientalism, p 160.

32. Ibid, p 109.

33. Ahmed, op. cit., p 199.

Bibliography

1. The Middle East and the West

Daniel, N, Islam and the West, The Making of an Image, Edinburgh, 1960.

Islam, Europe and Empire, Edinburgh, 1966.

Gibb, H A R, Studies on the Civilization of Islam, London, 1962.

Rodinson, M, "The Western Image and Western Studies of Islam" in Schacht, J, and Bosworth, C E, eds., The Legacy of Islam, 2nd ed., Oxford, 1979.

Southern, R W, Western Views of Islam in the Middle Ages, Harvard, 1962.

Watt, W M, The Influence of Islam on Medieval Europe, Islamic Surveys 9, Edinburgh, 1972.

2. Orientalism and the Orientalist Debate

Malek, A A, "Orientalism in Crisis", Diogenes, 44, Winter 1963, 103-40.

Said, E W, Orientalism, Western Conceptions of the Orient, London, 1978.

"Orientalism Reconsidered", in Farsoun, S. ed., Arab Society, Continuity and Change, London, 1985.

Said, et al., Refections on Orientalism, Asian Studies Center, Michigan State University, 1983.

Turner, B S, "Accounting for the Orient", in MacEoin, D. and al Shahi, A. eds., Islam in the Modern World, London and Canberra, 1983.

3. Edward Lane

Lane, E W, Arabian Society in the Middle Ages, Studies from the One Thousand and One Nights, London, 1987.

Manners and Customs of the Modern Egyptians, London, 1981.

Ahmed, L, Edward Lane, A study of his life and works and of British ideas of the Middle East in the nineteenth century, London and New York, 1978.

4. STRUCTURALISM

Hawkes, T, Structuralism and Semiotics, London, 1977.